لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان عبر القرون

تأليف

الدكتور مكي شبيكة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٦٤

السودان عبر القرون

مكي شبيكة

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان عبر القرون

تأليف

الدكتور مكي شبيكة

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٦٤



لجنة التأليف والترجمة والنشر

السودان عبر القرون

تأليف

الدكتور مكي شبيكة

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٦٤

الفهـــرست

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

مقدمة

عندما نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر كتابى « السودان فى قرن » لأول مرة ، نظرت فيه لجنة جوائز الدولة التقديرية والمعروفة باسم الملك السابق آنذاك ، ورأت فيه مجهوداً يستحق الذكر والتنويه ، ورأت أن تمنحنى بعثة دراسية للخارج لولا أنها وجدتنى فى بعثة آنذاك .

واكتسب « السودان فى قرن » شخصية خاصة وطبع ثلاث مرات ونفدت طبعاته . ورأيت استجابة لطلب الكثيرين فى أن يروا تاريخاً متصل الحلقات للسودان منذ أقدم العصور إلى قيام الحرب العالمية الثانية أن أكتب فصولا تكملة « للسودان فى قرن » .

واعتمدت فى الفصل الأوّل عن تاريخ السودان القديم والعهد المسيحى على كتاب المستر إركل بالإنجليزية ، وهو يعالج تاريخ السودان إلى سنة ١٨٢١ ، وكذلك على مذكرات طلبة الآداب بجامعة الخرطوم من محاضرات زميلى الدكتور فوزى جاد الله . وفى فصل العروبة والإسلام كان مصدرى كتاب الدكتور مصطفى محمد مسعد « الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى » ، وهو خير كتاب يعالج تاريخ السودان فى هذه الحقبة . ومؤلف مستر كروفورد عن « تاريخ الفونج ومملكة سنار » كان مصدرى عن فصل دولة الفونج الإسلامية . فهو قد جمع كل الأخبار عن هذه الحقبة . أما الفصل الذى تلى

سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٣٩ فقد اعتمدت فيه على كتابى بالإنجليزية « السودان المستقل » ، واستفدت من كتاب الدكتور هولت « تاريخ السودان الحديث » وكذلك من مذكرات أخذها السيد جعفر محمد على بخيت من أوراق كرومر الخاصة . ومع ذلك فهذا الجزء لم يصبح تاريخا بعد لأن وثائقه السرية لم تظهر . وحدثت تغييرات فى حقبة السودان فى قرن على ضوء الوثائق التى ظهرت فى دور المحفوظات بعد كتابته . ورأيت أن خير خرائط توضح الأماكن التى ورد ذكرها فى الكتاب هى تلك الملحقة بكتاب تاريخ السودان الذى وضعته شعبة التاريخ بمعهد المعلمين ببخت الرضا تحت إشراف السيد مندور المهدى عميد المعهد الحالى .

الخرطوم فى أغسطس سنة ١٩٦٤

مكى شبيكة

السودان القديم والعهد المسيحى

لغرض هذه الدراسة التاريخية للسودان فإنه يشمل كل الأراضى التى تقع جنوبى الشلال الأول عند مدينة أسوان إذ كانت كل الحضارات والدول التى تعاقبت على الحكم فى مصر تقف عند أسوان وتنظر إلى الأراضى الجنوبية على أنها خارجة عنها ، ومع ذلك فإن تاريخ السودان فى مختلف عصوره وعهوده يتأثر بالحضارات والدول التى قامت فى مصر وكل تغيير يحدث هناك يكون له أثره على أقاليم السودان . ولا غرابة لذلك فى أن اتصال سكان الأراضى الجنوبية بمصر بدأ منذ عهد الأسرات الأولى لحضارة قدماء المصريين للدوافع يرد ذكرها عند سرد تاريخ السودان القديم : ومن المعلومات البسيطة التى كشفت عنها الآثار يتضح لنا أنه قامت حضارات فى وادى النيل جنوبى الشلال الأول منذ أقدم العصور التاريخية . غير أن هذه الحفريات لم تمدنا بتفاصيل وافية لنجعل من تاريخنا قصة متصلة الحلقات ولذلك عمد الأثريون على تقسيم تلك الحضارات إلى مجموعات أطلقوا عليها أحرفا بحسب أسبقيتها (ا) و (ب) و (ج) و (س) و (X) A, B, C, X وذكروا مميزات كل حضارة حسب ما علموه على وجه التحقيق أو الترجيح من آثارهم وخاصة من قبورهم .

مجموعة (١) (٣٤٠٠ - ٢٧٢٠ ق . م)

سكنت هذه المجموعة فى أراضى النوبة السفلى الحالية بالقرب من النيل حيث كونت رواسب الطمى أرضا صالحة للزراعة واحترف السكان الزراعة على هذه الأراضى وطابقت الأوانى والمصنوعات التى عثر عليها الأوانى والمصنوعات المصرية وطريقة دفن موتاهم هى نفس الطريقة المصرية ومنذ ذلك العهد اهتم قدماء المصريين بتلك الأراضى إما لمستلزمات الأمن وطريق التجارة أو للتعدين وقطع أحجار الجرانيت ، ولابد أن هناك بعض المقاومة لبعض التسرب المصرى . والمصريون من جانبهم لحماية طرقهم وضمان

مستخرجات المعادن – لابد وأن يسيّروا حملات تأديبية لإحباط المقاومة ، وتدوّن لنا أخبار الأسرة الرابعة واحدة من تلك الحملات حيث قاد سنفرو حملة فى بلاد تانحسى وقبض على ٧٠٠٠ أسير و ٢٠٠و٠٠٠ من الماشية والأغنام . والمبالغة فى الأرقام واضحة إلا أنها لها دلالتها على أن المصالح المصرية فى تلك المنطقة ومقاومة المجموعة (ا) أدت إلى مثل هذه الحملات التأديبية ولابد أن توالى هذه الحملات قاد فى نهايته إلى ضعف هذه المجموعة التى لا قبل لها باستمرار المقاومة للجهاز الحربى لمدنيـــة مثل مدنية قدماء المصريين .

المجموعة (ب) ٢٧٢٠–٢٢٧٠

ويبدو أن هناك مجموعة هبطت إلى المنطقة ووجدت حضارة المجموعة (ا) فى حالة من الضعف والانهيار ما جعل هذه المجموعة الجديدة (ب) تسيطر على المنطقة وتطعم سكانها بدماء جديدة من الناحية الحربية ، ولا يعنى هذا أن حضارتهم أرقى من المجموعة (ا) . والواقع أن حضارة هذه المجموعة وهى معاصرة للأسرة السادسة كانت صورة منحطة لحضارة المجموعة (ا) فى أوانيهم وفى طريقة دفنهم التى اختلفت عن طريقة الدفن المصرية . غير أن الفراعنة ما زالوا فى اهتمامهم بالمنطقة وإصرارهم على تأمين التجارة والتعدين . وتوالت غاراتهم وازداد نفوذهم وتسربهم حتى صرنا نعثر على نقوش بأسماء ملوك الأسرات فى الدولة القديمة المصرية وظهرت وظيفة حاكم الجنوب وكشف هذه الحقيقة مقبرة أونى (unī) أحد هؤلاء الحكام فى أبدوس ومن أعمال أونى التى دونتها النقوش شق مجارى وقنوات فى الشلال الأول لتيسير الملاحة وبناء مراكب أحضر أخشابها رؤساء قبائل ارثت وواوات ، واستمر بناء المراكب عاما كاملا وعند إتمامها نقلت كتل أحجار للمبانى المصرية وتوالى تعيين الحكام للأمن ولضمان وصول منتجات التعدين ويذكر أن رؤساء النوبة قدموا فروض الولاء والطاعة .

ولم يكتف المصريون بالسيطرة على النوبة السفلى بل فكّروا فى

اكتشاف طرق التجارة والتوغل جنوبا ، وقد قام حرقوف وهو ابن لحاكم الفنتين بالقرب من أسوان بعدة رحلات تجارية فى الجنوب وفى إحدى رحلاته توغل مسافة كبيرة امتدت إلى أشهر ،ويرى أركل أن حرقوفا فى هذه الرحلة ربما وصل إلى كردفان أودارفور ولكنه مجرد استنتاج، وقام أحد الفراعنة فى ذلك العهد برحلة ملكية إلى حدوده الجنوبية ، وفى الفنتين قدمت قبائل النوبة لتأدية فروض الولاء ،ولم تكن لمصر فى هذا العهد — عهد الدولة القديمة — أهداف توسعية بالمعنى المعروف ولكنها تصرّ على تأمين التجارة واكتشاف طرق جديدة لها إلى الجنوب وتأديب كل من تسول له نفسه بتعريض هذه التجارة أو التعدين للخطر ،ولم يعرف فى عهد الدولة القديمة أن تركت مصر حاميات حربية ، وانتهت الدولة القديمة فى مصر والعلاقات بينها وبين الأراضى الجنوبية لم تتعد التجارة والتعدين وتأمينهما .

المجموعة ج
٢٣٠٠ — ١٦٠٠ ق . م

بدأت هذه المجموعة تظهر فى النوبة منذ أن بدأ الانحلال يعترى جسم الدولة المصرية وتطور السودان بحضارته بعيدا عن المؤثرات والحملات المصرية ، والعنصر الغالب على هذه المجموعة هو الليبى خاصة فى النوبة السفلى . وعند قيام الدولة الوسطى فى مصر بعد عصر الانحلال والتدهور وعندما انتعشت ورسخت أقدامها رنت بأبصارها نحو الجنوب لتؤمن طريق تجارتها ومعادنها ولم يقتصر فراعنة الدولة الوسطى بعلاقات تجارية ولكنهم بسطوا سيطرتهم على النوبة السفلى حتى الشلال الثانى على ما يبدو وأقاموا حصونا لتحمى الطريق النهرى من غارات بدو الصحراء أو من تمرد يقوم به النوبيون،وامتدت حضارتهم إلى هذا الجزء الذى احتلوه ، وكما هو منتظر عند احتكاك حضارة راقية بحضارة أقل منها لابد وأن تتأثر الأخيرة بها ، وظهر التأثر فى تطور مقابرهم وفخارهم وأدوات زينتهم ، والآثار تدل على عمران خاصة فى تربية الماشية والأغنام ويظهر أن تلك المنطقة الجرداء الآن كان بها من الخضرة وفرص الرعى أكثر مما عليه فى العصور المتأخرة . وبهذا

الاحتلال المصرى خضع النوبيون للحكم الجديد وعاشوا فى أمن وسلام واختفت مقاومتهم متأثرين بالحضارة المصرية .

حضارة كرمة

اكتشف رايزنر فى كرمة مبانى بها كثير من الأوانى والأدوات بعضها يرجع إلى الدولة القديمة وبعضها إلى الدولة الوسطى.أغلبيتها مصرية ومعها قليل من الأوانى والفخار يظن أنها صناعات محلية ، وفى المنطقة اكتشفت مقبرة طريقة الدفن فيها مختلفة عن طريقة الدفن المصرية بأن الميت يرقد على عنقريب وحوله نساؤه ،واستنتج بأن هذا موقع حصن مصرى ،والمقبرة بها حكام مصريون عدّلوا فى طريقة دفنهم حسب تقاليد أهل البلاد بتأثير من نسائهم النوبيات . وهذا الزعم تدحضه عدة دلائل منها أن هذا الموقع يبعد كثيراً من آخر حصن للمصريين فى الشمال ، ويستبعد أن تكون هذه المنطقة مقراً لحاكم الجنوب أو نائب الملك ، وإذا كانوا مصريين حقا فهم يتمسكون بطريقة دفنهم التقليدية ولا يرضون أن يدفنوا فى أرض غير مصرية أما وجود الأوانى والأدوات المصرية فرده إلى أن أصحاب هذه الحضارة فى كرمة متصلين عن طريق التجارة بمصر اتصالا وثيقا،وأن هذه الآثار فى كرمة تشير إلى مركز تجاري لتبادل السلع ولا بد لحكام المنطقة وأثريائها أن يقتنوا عن طريق الشراء الأوانى والأدوات المصرية لأنها أدوات المدنية ، وهناك نقش فى سمنه يؤكد أنها هى آخر التحصينات المصرية الجنوبية ، فلوحة سنوسرت الثالث هناك تقول « هذه حدودى الجنوبية . . . وأن كل ولد من أولادى يحافظ على هذه الحدود الجنوبية هو ولدى حقا ومن وصلبى الابن الذى يحمى أباه حقا» .

والمرجح أن سكان منطقة حضارة كرمة هم الأصل الذى يرجع إليه الكوشيون وأن عملهم فى التجارة مع مصر جعلهم يعيشون فى رغد من العيش وتقدم فى الحضارة والمدنية مقتفين أثر الحضارة المصرية لاتصالهم الوثيق بها .

تمصير السودان الشمالى

والظاهر أن حضارة كرمه امتدت إلى الجنوب بازدهار التبادل التجارى حتى وصلت الشلال الرابع وربما تعدته جنوبا ، وفى مصر انهارت الدولة الوسطى وتلاها عصر الاضمحلال الثانى إلى أن قيض الله لمصر أحمس حيث

طرد الهكسوس وأسس أول أسرة فى الدولة الحديثة ، دولة التوسع والفتوحات ، ولا بد أن تمتد فتوحاتها إلى جنوب طريق التجارة إلى قلب إفريقية ولا بد أن تكون السيطرة هذه المرة كاملة لم تقتصر على احتلال فقط بل تعدته إلى تمصير كامل إلى الشلال الرابع .وهناك آثار فى كرقس بإقليم الرباطاب تدل على امتداد النفوذ المصرى فى الدولة الحديثة إلى تلك المنطقة ، وحوادث التوسع هذا والتمصير الكامل كشفت عنه الآثار فى منطقة جبل البركل فى العاصمة نبته (كريمة) ، وفى النقوش المصرية .

جهاز الحكم والإدارة فى كوش

كان يتربع على هرم الجهاز الإدارى فى منطقة كوش نائب الملك ، ويعرف بابن الملك كلقب تكريم وتشريف ، وليس ابنا حقيقيا ، وحتى فى العصر الحديث نجد محمد على والى مصر ، يخاطب حكام الأقاليم وحكمدارى السودان بابننا فلان ، واختصاصات نائب الملك ، المقيم فى نبتا واسعة ، فهو المشرف على طريق التجارة ، وهو قائد الجيش بما فيه من فرق الرماة النوبية ذات الشهرة الكبيرة ، لأنها برهنت فى ظروف عدة على أهميتها بالنسبة لدفاع مصر — وهو المسؤول عن الضرائب زيادة على مستلزمات الحكم العادية ، وكان يختار لهذا المنصب الموثوق به من حاشية الملك ، ولنائب الملك معاونان رئيسيان ، أحدهما لواوات وهى النوبة السفلى ، والثانى لكوش وهى النوبة العليا . وإذا كان من الضرورى أن كبار المعاونين لابد وأن يكونوا من المصريين ، إلا أن عملية استخدام الكوشيين فى بعض المناصب أمر تحتمه الضرورة وخاصة فى جباية الضرائب . وتنفيذا لسياسة التمصير هذه ، كان أبناء الرؤساء والزعماء فى أقاليم النوبة يفسح لهم المجال ويعينون فى الوظائف بعد هذه التنشئة المصرية . والمصريون من كهنة وصناع وغيرهم يفدون لكوش ويختلطون بالسكان ويؤثرون فيهم ، وكلما شب جيل جديد فتح عيونه على مقومات حضارة مصر وأخذ بها وصار كالمصرى قلباً وروحاً .

أصل الكوشيين

اعتنق الكوشيون ديانة آمون ، وحتى عندما ضعفت ودخلت عليها البدع أصبحت كوش حامية هـــذه الديانة ، وتدخل فريق الرماة أحيانا لمناصرة فريق ضد الآخر فى النزاع الملكى فى مصر ، ويتدخل نائب الملك أحياناً فى تنصيب رئيس الكهنة ، وعندما تدخّل الليبيون فى حكم مصر . وقبل أن ندخل فى الحقبة التى تم لحكام كوش غزو مصر وتوحيد القطرين فترة من الزمن يجدر بنا أن نقف قليلا لنبحث فى أصل الكوشيين ونسرد الآراء المتعارضة فى المسألة . فرايزنر الذى قام بالحفريات فى منطقة نباتا ، وفى مروى يرى أنهم من أصل ليبى ، فكما غزا فريق من الليبين مصر عرّج فريق آخر على بلاد النوبة ، ويرى فريق آخر من الباحثين أنهم من أصل مصرى ، ويؤيدون حجتهم بوجود الطابع الحضارى المصرى الكامل فى أرض كوش ، وعُرف أن نواب الملك الأوائل كانوا يُختارون من أقرب المقربين لحاشية الملك فى مصر لأهمية المنصب وتشتد المناقشة هذه بصدد أولئك الحكام الذين بدأوا بغزو مصر من نباتا عاصمة كوش ، ووحّدوا القطرين ، ونحن هنا لسنا بصدد فترة قصيرة بل نناقش عهدا امتد إلى قرون منذ تأسيس كوش فى عاصمتها نباتا إلى حين بداية الغزو لمصر من قاعدة عاصمة كوش .
فمهما كان أصل الطبقة الحاكمة فى كوش فإنها أصبحت سودانية نتيجة عملية التزاوج والتأثر بالإقليم وانقطاع الصلة بالأصل إن كانت هناك صحة لهذا الزعم . فلا بد لهذه الطبقة أن تتأقلم وتتصل مصالحها بالشعب الذى تحكمه . وفى وقتنا الحاضر نعرف عائلات بل قبائل حضر أسلافها إلى السودان قبل ثلاثمائة سنة أو أكثر ولا يعرف نسلهم الحاضر وطنا غير السودان ، وإن هم حاولوا عمليا الانتساب إلى وطن آخر يفشلون .
فحكام كوش حينما قادوا جيشاً سودانيا لغزو مصر كانوا يفعلون ذلك بصفتهم دولة سودانية ذات اتصال وثيق بالحضارة المصرية من جميع

نواحيها وسنرى أنهم كانوا يرمون إلى تخليص هذه الحضارة التى يرون أنها حضارتهم هم من العناصر الأجنبية الدخلية عليها .

بعنخى يفتح مصر ٧٥١-٦١٦ ق . م

تقص لنا لوحة بعنخى التى سجل فيها انتصاراته فى مصر على الليبيين القصة الكاملة بتفاصيلها لحوادث الفتح . وعثر على هذه اللوحة فى أوائل هذا القرن فى البركل ونقلت إلى متحف القاهرة . غير أننا نعلم من لوحة أخرى أن أوّل حاكم كوشى استولى على مصر العليا هو كشتا ، الذى منح نفسه لقب ملك ، ولكنه لم يستخدم الألقاب الفرعونية . وعندما خلف بعنخى كشتا سمع عن سيطرة الليبيين بزعامة تفنخت على مصر ، ووصلته أصوات الاستغاثة ، فعزم عزما أكيدا على تطهير الأراضى المصرية من الليبيين . وتقدم جيش بعث به بعنخى من نباتا نحو صعيد مصر ، فهزم أسطول الليبيين فى طيبة العاصمة وفر الليبيون شمالا منهزمين وتتبعهم جيش نباتا واستخلص منهم الصعيد بكامله ووالوا فرارهم إلى الوجه البحرى ، ومع توالى تلك الانتصارات لم يرض بعنخى حيث أن العدو لم يقض عليه ، وخف بنفسه ليتولى القيادة ويحرز انتصارا عند مطلع العام الجديد ويحتفل بأمون فى الكرنك ، وتم له ما أراد وحاصر الأشمونين واستولى عليها وساءه أن يرى الخيول هناك عجافا إذ كانت إنسانيته تمتد إلى الحيوان ، وعرف عنه حبه للخيل .

واصل بعنخى زحفه نحو الوجه البحرى ، وعندما وصل إلى مشارف مدينة منف وجدها منيعة الحصون ، وقاد الهجوم بنفسه من الناحية الشرقية المطلة على النيل والتى رأى فى حصونها بعض الضعف ، وتم استيلاؤه عليها بعد أن أثار فى نفوس جنوده الحماس ، وأنها مشيئة الإله ، وحذرهم من مهاجمة من يستسلم إذ عرف عنه النبل فى مواجهة العدو ، فالمستسلم والضعيف والمريض والغافل لا يناله بأذى . وبعد سقوط هذه القلعة الحصينة استسلم أمراء الوجه البحرى ، وكان تفنخت العدو الأول يوالى الفرار بعد

كل نصر يحرزه بعنخي ، وبلجأ أخيراً إلى جزيرة على النيل ولكن لا عاصم له من ملك نباتا ، ورأى التسليم أخيراً وقبل بعنخي استرحامه وعفا عنه ؛ وعندما أدى مهمته على خير ما كان يرجو ويأمل ، رجع إلى عاصمته نباتا ليدون انتصاراته فى اللوحة الشهيرة ، وأقامها فى معبد آمون فى البركل . واكتفى بعنخي بولاء الأمراء وتعهدهم بدفع الجزية ، وما أقام سلطة مركزية فى عاصمة من عواصم مصر . وما أن تأكد لتفنخت أن بعنخي توغل فى بلاد النوبة راجعا لمقر ملكه إلا ونسي تضرعه واستسلامه وخان العهد ، وفرض سلطته ونفوذه كملك على الوجه البحرى ، وعندما توفى تولى ابنه من بعده . وتوفى بعنخي أيضاً وترك لخلفه مهمة استرجاع مصر من الليبيين .

شباكو
٧٠٧-٦٩٦

نقل شباكو العاصمة إلى طيبة وأحرق خيلفة تفنخت بعد أن ظفر به ولعله أخذ درسا من معاملة بعنخي الحسنة لتفنخت بإطلاق سراحه ، وجعل لمصر حكومة مركزية باشرها بنفسه كملك لكوش ومصر ؛ وظهرت فى ذلك الوقت دولة الأشوريين فى العراق بقوتها الرهيبة ، وزحفت غربا حيث استولت على مملكة إسرائيل ، وكان لملك كوش ومصر أن يحمى نفسه من تلك القوة الأسيوية الرهيبة بأن يحرض المملكات الصغيرة لتكون حاجزاً بين آشور ومصر . ولذلك حرضوا دولة يهودا الصغيرة ويبدو أنه حالفها . وهاجم ملك آشور مملكة يهودا وحاصرها وخف شباكو لنجدتها بأن أرسل أخاه تهراقة على رأس جيش وهو صغير السن فاحتقر ملك آشور جيش كوش مخاطبا يهودا بأنها اعتمدت على قصبة مرضوضة ، وقبل أن يدخل الجيشان فى معركة تفشى الطاعون فى جيش آشور ورفع الحصار .

شبكتو
٦٩٨-٦٨٣
ق . م

خلف شبكتو عمه شباكو وقوة آشور الرهيبة لازالت تهدد أمن مصر وحكامها من الكوشيين ، ومات شبكتو قبل أن يدخل فى معركة ضد

وتهراقا
٦٨٨–٦٦٣

آشور ولكن شعوره بخطرها يجعله يوصى بالحكم لأخيه الأصغر تهراقا متخطيا من يكبرونه لكفاءته وقدرته لمجابهة الخطر الأشورى ، وكان قد أشركه فى الحكم قبل وفاته ، واستبشر الناس خيراً بعهده حين فاض النهر إلى درجة لم يبلغها من قبل وإلى الآن يستبشر الناس بالحاكم الذى يخضر الزرع ويدر الضرع فى عهده . وربض تهراقا فى شرق الدلتا تاركا عاصمته فى الصعيد ليكون على مقربة من منطقة الخطر فى فلسطين ، واتخذ سياسة إثارة الدويلات الصغيرة كيهودا والفينيقيين ضد الأشوريين ومنّاهم بالعون ، وثار ملك صيدا وتلاه ملك صور فى فينيقيا ، ولكن آشور قضت على مقاومتهما قبل أن يخف تهراقا لنجدتهما . وما كان لأسرحدون ملك آشور إلا وأن يتجه بقوته فى ٦٧١ م إلى مصر ، وقابله تهراقا على الحدود ، وانهزم ملك مصر وكوش وأسرت نساؤه وأولاده ، وتقهقر هو إلى عاصمته طيبة ليجمع وينظم جهازه الحربى من جديد واكتفى أسرحدون بهذا النصر ورجع لبلاده وترك مصر السفلى ليحتلها تهراقا . عاود أسر حدون التقدم نحو مصر بحملة جديدة ، ولكنه مات ونفّذ ما نواه خليفته آشور بنبال وتم له النصر على تهراقا فى الدلتا ، وتابعه حين تقهقر نحو طيبة حيث احتلها أيضاً وعين أمراء مصريين .

ثانوت آمون

تربع على العرش بعد موت تهراقا ثانوت آمون بن شبكتو وابن أخت تهراقا ، وكان أول عمل قام به هو أن يستعيد أملاك أسلافه ، وينقذ مصر من الأشوريين ، فقاد جيشاً زحف به نحو الشمال ووصل طيبة واحتلها حيث استقبل استقبالا رائعاً كمنقذ وتحصّن حكام الدلتا فى مدنهم ودخل منف وخضع له بعض الحكام ، غير أن الأشوريين عاودوا هجومهم وتقهقر ثانوت آمون إلى طيبة وتبعه الأشوريون هذه المرة إليها وخرج منها متوغلا فى إقليم كوش حتى وصل عاصمته نباتا وكان آخر ملك من سلسلة ملوك مصر وكوش ، وامتد هذا العهد

إلى ٧٥ سنة حيث توحد القطران مصر والسودان تحت ملوك كوش .

كوش بعد التقهر من مصر ٦٦٠ ق . م إلى ٣٥٠ م

رجع الكوشيون إلى عاصمتهم نبتا وباشروا مهام ملكهم باستقلال كامل لا تشوبه شائبة ، وهم منذ أن بدأوا غزو مصر للقضاء على سيطرة العنصر اللبي فيها اتخذوا لأنفسهم لقب الملوك بعد أن كانوا نوابا للملك فى مصر وتحت أمره ولتعاقب العناصر الأجنبية على حكم مصر منذ أن غادرها الكوشيون أصبحت حضارة نبتة حامية الحضارة المصرية الفرعونية . فهم منذ أن تم تمصير بلادهم تمصيراً كاملا ، أخذوا بأسباب هذه الحضارة فدياناتهم ومعابدهم وطرق دفنهم وما اقتنوه من أوانى وخزف ومعمارهم ، كلها أخذت من معين الحضارة المصرية الفرعونية . واستمروا عهدا طويلا منذ تقهقرهم إلى بلادهم يمثلون هذه الحضارة فى أجلى مظاهرها .

الاكتشافات الأثرية

وضحت معالم هذه الحضارة الرئيسة فى حقبة الاستقلال هذا من الحفريات التى قام بها الأثريون فى منطقة البركل وما جاورها وبقية أجزاء كوش الشمالية فى منطقة مروى القديمة (منطقة شندى — كبوشيه) وعلى رأسهم رايزنر ومن تبعوه . فاكتشفت المعابد والمبانى الملكية وفوق كل ذلك القبور وهى كمقابر قدماء المصريين لا تحوى رفات الملوك بل تحوى تاريخهم ، ومن النقوش تمكن رايزنر أن يمدنا بأسماء الملوك سواء كانوا فى المنطقة الشمالية أو الجنوبية فى مروى ، ومن الأوانى والخزف وتوابيتهم ومستوى العمارة تتبعوا فترات الارتقاء والتدهور ومن النقوش هنا وفى مصر عرفوا شيئا عن علاقات مملكة كوش بجيرانها ،وأمدنا كذلك كتّاب اليونان والرومان ببعض المعلومات ، ولكن المصدر الأصلى هو ما اكتشف فى الحفريات . ومع ذلك لا تزال هناك بعض الحلقات المفقودة ولا تزال آراء الباحثين تختلف فى بعض النقاط والكلمة الأخيرة عن حضارة كوش ومروى لم تكتب بعد إذ كشفت حفريات هنزا الألمانى فى السنين الأخيرة بعض الحقائق التى أضفت ضوءاً على الغموض

وناقضت بعض النتائج التى توصل إليها أسلافه من علماء الآثار ، والعمل متواصل من البعثات الأثرية الخارجية ، وستنزل مصلحة آثارنا وجامعتنا فى الميدان فى القريب العاجل إن شاء الله .

مركز الثقل ينتقل إلى مروى

والمنطقة التى قامت فيها المدنيات الأولى السودانية تقع فى إقليم دنقلا وحلفا وقد كانت كما هى عليه الآن محدودة المجال ، فالرقعة الزراعية شريط ضيق على الشواطئ وتتسع إلى حد ما فى بعض المناطق وتضيق أحيانا ويحتل الشاطئ فى أحيان أخرى الصخور . والظروف المحتملة فى مثل هذه الأحوال هى أنه بإزهار الحضارة وارتفاع مستوى المعيشة ، وبالزيادة الطبيعية فى السكان تزداد احتياجات الإنسان وتنمو قطعان مواشيه وأغنامه وتصبح الحاجة ملحة لإطعام السكان والحيوان . وبديهى أن تتجه الأنظار لمجال حيوى يستوعب هذا الفائض من السكان وتجد القطعان المتكاثرة مراعى لعلفها . ففى الشمال بلاد النوبة السفلى وهى أسوأ حالا من النوبة العليا وفى الشرق والغرب صحارى لا تصلح لسكنى القوم المتحضرين ذوى المدنية العريقة ، وفى مجرى النيل الأعلى لنبتا يقع إقليم المناصير بصخوره وشلالاته وهو يشبه إلى حد ما إقليم النوبة السفلى . ولم يبق أمامهم إلا تلك الأراضى التى تقع على مجرى النيل جنوبى أرض المناصير والرباطاب المجدبة . والوصول إليها عرفوه من قوافل التجارة التى تصل هذه الأراضى بإقليم دنقلا عبر صحراء بيوضة وبدأ تسلل تدريجى إلى هذه الأراضى وأسس فرع لحكومة كوش فى هذا الإقليم واتخذ عاصمة له مروى القديمة بالقرب من قرية البجراوية غير بعيد عن كبوشيه الحالية

ميزات إقليم مروى

وإقليم مروى القديمة هذا والذى أصبح مقرًا لمملكة كوش أخيراً وانتقلت العاصمة إليه يمتاز باتساع رقعة أراضيه التى يرويها النيل وامتداد هذه الأراضى إلى الجنوب مسافات بعيدة وفوق ذلك فالأراضى التى تقع

على شرق النيل وغربه وخاصة الشرقية تهطل فيها أمطار بكميات تنبت العشب للمراعى ، وقد تصلح للزراعة المطرية وتنبت من الأشجار ما يصلح لصناعة المراكب وللوقود ، وتمر عليها القوافل التجارية متجهة للشرق حتى سواحل البحر الأحمر وغربا لكردفان ودارفور وربما لأبعد منها وشمالا ، تصلها بالجزء الشمالى من المملكة ، وجنوبا بأرض الرقيق وحاصلات المناطق ذات الأمطار الغزيرة » وامتازت مروى بصناعة الحديد حيث توجد الأحجار التى تحوى المادة الخام له ، وحيث خشب الوقود لصهره متوفر ، وربما كانت بداية هذه الصناعة منذ عهد تهراقا حيث تبين له أن قوة الأشوريين الكاسحة تعتمد فى الدرجة الأولى على الأسلحة المصنوعة من الحديد ، وكانت أنذاك بمثابة سلاح جديد يجعل من القوة التى تستخدمه لأول مرة ميزة حربية لا تقاوم وآثار هذه الصناعة اكتشفت من الأوانى والأسلحة التى اكتشفت والتى امتد أثرها على أجزاء أخرى من القارة الإفريقية ومن التلال التى لاتزال ظاهرة من خبث الحديد (Slag) وهذه الحقيقة عند اكتشافها جعلت البروفسير سايس يطلق على مروى برمنجهام السوادن .

المرحلة الأولى المسيحية

تلت فترة انقضاء الحضارة المروية حقبة غموض لم يتبين منها شىء نسبة لصمت المصادر عنها ، وتجدد ذكر السودان فى المصادر عندما انتشرت المسيحية خاصة فى مصر . وتحدثنا الروايات عن وجود ثلاث دول نوبية ، الأولى فى الشمال وتسمى نوباديا وعاصمتها فرس ، والثانية فى إقليم دنقلا وتدعى المقرة وعاصمتها دنقلة العجوز ، والثالثة علوة وعاصمتها سوبا جنوبى الخرطوم بقليل . وكما حدث فى العهود السابقة وفى العهود التالية فإن أحداث مصر لابد وأن تؤثر فى حضارة السودان . فالمسيحية دخلت مصر فى وقت مبكر وناهضها إمبراطرة الرومان ، كما ناهضوها فى بقية أجزاء الإمبراطورية ومصر من بينها وتعرض من

اعتنقوا المسيحية إلى الاضطهاد وتحت وطأة هذه المقاومة الرسمية هجر بعض المتحمسين للدين الجديد أوطانهم فى الوجه البحرى ، ولجأوا إلى الصعيد ، وبعضهم إلى الصحراء ، وتعمق بعضهم أكثر إلى بلاد النوبة وكان تأثيرهم على من اختلطوا بهم من النوبيين نتيجته الطبيعية اعتناق بعضهم المسيحية ، ولا سيما أن دياناتهم القديمة بما فيها من ديانات الحضارة المصرية القديمة قد فقدت فعاليتها وجاذبيتها . والاتصال التجارى بين السودان ومصر وتردد النوبيين على مصر لم ينقطع . وحتى عندما خفت حدة الاضطهاد للمسيحيين فى مصر منذ أيام الإمبراطور قسطنطين وزالت نهائيا فيما بعد عندما أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمى ظلت البعثات التبشيرية كأفراد توالى نشاطها فى بلاد النوبة ، ويبرز لنا فى هذه المرحلة اسم ثيودور أسقف فيلة وأسوان حيث عاش كرجل دين فى تلك المنطقة نحو خمسين عاماً وتعرف وصادق زعماء النوبيين فيما وراء الشلال الأول وتردد على زيارة بلادهم وقام من بين النوبيين زعيم يدعى سلكو ، تحمس للدين الجديد ، ولا غرابة بعد هذا إذا ما انتشرت المسيحية على الأقل فى ذلك الجزء الأسفل الموالى لأسوان من الأراضى النوبية .

المرحلة الثانية

ونشطت حركة التبشير وأخذت طابعاً رسميا فى عهد الإمبراطور جستنيان (٥١٧ – ٥٦٥ م) عندما قضى على كل معالم الوثنية فى مصر وأغلق معبد فيلة الوثنى بالقرب من أسوان حيث كان يتردد عليه البلميون سكان الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر وسعى لأن يُدْخِل البلميين والنوبيين فى المسيحية لتتم له السيطرة على أطراف إمبراطوريته ولكن الصراع المذهبى على طبيعة المسيح جعل الكنيسة المصرية التى تنادى بالطبيعة الواحدة للمسيح تدخل فى سباق مع أنصار الطبيعتين يؤيدهم الإمبراطور جستنيان . غير أن الكنيسة القبطية وجدت فى الإمبراطورة تيودورا نصيرا ومؤيدا لها وبالاتفاق مع بطريرك الكنيسة القبطية المنفى

تيودوسيوس دبرت حملة تبشيرية لبلاد النوبة قام بها اثنان من رجال هذا البطريرك وكانا معه فى المنفى وهما يوليان ولونجينوس ، ويروى لنا قصة هــذا السباق فى بلاد النوبة يوحنا الافسس وهو على مذهب الكنيسة القبطية ولذا لابد من أخذ سرده لتلك القصة بالتحفظ . ذهب فى أول الأمر يوليان إلى مملكة نوباديا لتأييد مذهب الكنيسة القبطية هناك : وما كان لجستنيان وهو يناهض هذا المذهب إلاأن يبعث برجال آخرين من رجال المذهب الملكانى المنادى بالطبيعتين لمناهضة بعثة جوليان وعرقلة أعمالها التبشيرية . وفطنت تيودورا لهذا الأمر وبعثت برسالة إلى حاكم مصر العليا تهدده إن لم يحجز بعثة الإمبراطور ويمكن لبعثة جوليان بالسير ، ويبدو أن نفوذ تيودورا فى الإمبراطورية كان كبيراً للدرجة أن هذا الحاكم نفذ أوامرها فعلا ضد بعثة الإمبراطور نفسه . فادعى عدم وجود وسائل النقل لبعثة الملكانية حتى إذا ماحضر يوليان جهز له قافلة حملته إلى نوباديا بصحبة تيودور أسقف فيلة الذى مهد لقبول البعثة اليعقوبية (القبطية) باتصاله الطويل وتفوذه على النوبيين كما قدمنا ، ووجدت البعثة كل إكرام من ملك النوباديين وشعبه . وعندما أتت بعثة المذهب الملكانى وجدت الطريق مقفولا أمامها ولم تنجح فى زعزعة عقيدة النوبيين على مذهب كنيسة اليعاقبة وبعد أن بقى نحو سنتين فى بلاد النوبة رجع يوليان وتوفى بعد ذلك .

وأدرك البطريرك المنفى (تيودوسيوس) أن لابد من مواصلة تبشيره فى بلاد النوبة وباستشارته ، عينت تيودورا لونجينيوس أسقفا لبلاد النوبة ووصلها فى ٥٦٩ م بعد أن تنكر واحتضنه النوبيون كمعلم وكمرشد بدلا من معلمهم جوليان المتوفى ومرشدهم الأول تيودور كبير السن . والذى ظل فى أبرشيته فى فيلة لايغادرها . وبقى خمس سنوات وغادرهم إلى مصر ليقوم بواجبه فى انتخاب بطريرك يعقوبى وحزنوا لفراقه ،

وكانوا يودون لو بقى معهم يعلمهم ويرشدهم : وقام لونجينيوس برحلة ثانية لبلاد النوبة سنة ٥٨٠ م حيث وصل نوباديا أولا ثم إلى علوة فى السودان الأوسط استجابة لطلب ملك علوة المتكرر لأنهم كما يبدو كانوا فى حالة فراغ روحى وترامى إلى أسماعهم ما قام به المبشرون فى مملكة نوباديا وأرادوا اعتناق هذا الدين الجديد ذى الحيوية بديلاً عن ديانتهم الوثنية المتحجرة . ويظهر أن حدة النزاع بين الكنيستين لم تفتر فأصدر البطريرك الملكانى حرمانا من الكنيسة للونجينيوس وأصدر صورة من هذا الحرمان لملك نوباديا غير أن النوباديين تعمقت فيهم العقيدة اليعقوبية فلم يأبهوا لذلك .

رحلة لونجينيوس إلى علوة

وحين علم رجال الكنيسة الملكانية بعزم لونجينيوس للسفر إلى علوة بعثوا برسلهم قبله يخبرونهم بهرطقة ذلك الأسقف وبطرده من الكنيسة المسيحية غير أن ملك علوة بالمعلومات التى وصلته من نوباديا طردهم ولم يستمع لنصحهم ولن يقبل سوى لونجينيوس الذى ذاعت شهرته فى مملكة نوباديا . ويبدو أن مملكة مقرة فى هذه الحقبة قد اعتنقت المسيحية على المذهب الملكانى أو أنها كانت حليفة لهذه الكنيسة أو أنها كانت فى عداوة مع جاراتها نوباديا وعلوة . وعلى ذلك كان على الأسقف لونجينيوس أن يتفادى طريق النيل حتى لا يلحق به ملوك مقرة أذى ودبر له ملك نوباديا طريقاً فى أرض البجة ويتضح لنا ذلك من رسالة بعث بها ملك نوباديا إلى الإسكندرية يقول فيها « وبسبب مؤامرات ملك مقرة الشهيرة فإنى قد أرسلت أبى لونجينيوس إلى ملك البجة حتى يدله على طريق آخر بعيد عن وادى النيل فى جبال البحر الأحمر . ومع ذلك فإن ملك مقرة سمع بذلك أيضاً وأرسل عيونه يبحثون عن أبى فى كل مكان ، فى السهول والجبال حتى البحر الأحمر يريدون وضع أيديهم عليه ويوقفون بذلك أعماله الصالحة فى سبيل الله » . ويبدو أن ملك البجة

آنذاك إن لم يكن معتنقا للمسيحية فإنه كان على صلات ودية مع ملك نوباديا . وفى هذه الرحلة التى استمرت نحو سبعة أشهر لاقى الأسقف صعابا وأهوالا عظيمة هو ومرافقوه ، ووصل إلى أرض علوة وتلقاه ملكها بالترحاب ويقول « وبشرنا الملك وعمّدناه مع كل أسرته وحاشيته ونبلائه ، وكان عمل الرب ينمو كل يوم » ، وبذلك أصبحت علوة مثل نوباديا قبلها يعقوبية وكانت مقرة ملكانية كما يبدو إذ يعتقد أن بعثة جوستينيان التى فشلت فى نوباديا ربما اتخذت طريقها جنوبا وتم لها تحويل مقرة إلى المسيحية على المذهب الملكانى ،

مملكتا مقرة وعلوة

ولا تنير لنا المصادر ما حدث بعد هذا حتى إذا ما جاء الفتح الإسلامى لمصر وقضى على نفوذ الملكانيين الذين تؤيدهم بيزنطية أصبحت الكنيسة القبطية صاحبة النفوذ الوحيد فى مصر وبلاد النوبة ، ويبدو أن مقرة عندما زال نفوذ الملكانيين فى مصر وانقطع مصدر إرشادهم الروحى تحوّلوا إلى المذهب اليعقوبى حيث اتصلوا بالكنيسة القبطية صاحبة السيطرة على الدين المسيحى وزال اسم مملكة نوباديا فى المصادر العربية التى تعرضت لممالك النوبة وأصبحت لا تذكر إلا مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا وعلوة وعاصمتها سوبة ، ويبدو أنه تم اندماج نوباديا فى مقرة . وكل هذه القصص التى تسرد دخول المسيحية فى السودان تؤكد أن التحوّل إلى المسيحية بدأ بالملوك وطبقة الحكام والحاشية وأن تحوّل السكان أنفسهم لا بد وأن يكون تدريجيا وأن فهمهم للمسيحية لم يكن على مستوى الحجج اللاهوتية والمنافسات المنطقية الفلسفية العميقة وربما كان انتشارها وفهمها على مستوى فوق المتوسط فى الأراضى الشمالية أكثر منه فى أواسط السودان وأجزاء علوة العليا نظرا لقرب الأجزاء الشمالية من مصر واتصالها بالمصريين وتردد القسس والرهبان والأقباط عليها ، ووجود بعض العادات الوثنية التى تتعارض مع المسيحية نوعا ما دليل

على عدم تفهمهم لها تفهما صحيحاً : وهذا يفسر لنا أن دولة مقرة فى الشمال قاومت التسرب العربى الإسلامى مقاومة شديدة ، ولولا ، كما سيظهر فيما يلى من فصول ، المنافسات الشخصية من أفراد البيت المالك لما نجحت حملات الدول الإسلامية فى مصر على بلاد النوبة ، ومع ذلك كان تسرب الإسلام بطيئاً نسبة لتلك المقاومة . أما علوة فلم يكن فهم سكانها عميقاً للديانة المسيحية ولأنهم فى أماكن نائية انقطع وصول الأساقفة لبلادهم ولذا نجدهم فى حالة استعداد لقبول المسلمين فى بلادهم ، وفى حالة تخوف من سطوة الدول الإسلامية .

حضارة النوبة المسيحية

كان السودان بمملكتيه فى العهد المسيحى يحكم على أساس إقليمى إذ لم تكن القبلية بمدلولها الحالى لها وجود قبل دخول العرب فى السودان ، ومع وجود السلطة المركزية وعلى رأسها الملك يحكم الأقاليم ملوك صغار يدينون للملك الكبير بالطاعة والولاء ، وكان للملوك كل شارات الملك من سرير وتاج مرصع بالأحجار الكريمة ومظلة يحملها أتباعه فوق رأسه فى تحركاته ، ونظام العرش يسير على نظام الأمومة ؛ فابن الأخت يرث العرش من خاله كما يبدو ، إلا أنه فى بعض الحالات يروى لنا عن أبناء خلفوا آباءهم . وهذا الاضطراب فى نظام الوراثة مسؤول عن تلك المنافسات فى أفراد البيت المالك والتى تنشأ من وقت لآخر . ويظهر من الروايات أن صاحب الجبل فى فرس كان أعظم الملوك حكام الأقاليم ، وتمثله الصورة التى وجدت فى كنيسة صاحب الجبل يلبس عمامة يبرز فيها قرنان وهذا يدل على أن الطاقية أم قرنين التى استخدمت فى عهد الفونج كدليل على السلطة مأخوذة من العهد المسيحى . ويبدو أن الملك يمتلك كل الأراضى ويعتبر رعاياه من عبيده لا حق لهم فى امتلاكها أو التصرف فيها بالبيع والشراء ، وهذا يقودنا إلى الاستنتاج بأن المجتمع يتألف من طبقتين : الحكام والشعب ، وأن العلاقة بينهما هى علاقة السيد والمسود .

والسودانيون يذكرون لفظة العنج (الأنج) كثيرا ويطلقونها على الشعوب التي كانت تقطن البلاد قبل دخول العرب خاصة في السودان الأوسط وفي كردفان والصورة التي تبدو في أذهانهم عن هؤلاء القوم هي أنهم أصحاب حضارة راقية بدليل الحفائر الموجودة الآن في بعض الأماكن ويشيرون إليها بأنها للعنج ، وقد رأيت سلسلة منها في المرحلة الثالثة من مشروع المناقل قبل أن تخطط للزراعة ولا يتضح لنا فيما إذا كانت ترجع للعهد المسيحي أو العهد المروى ،

العروبة والإسلام

فى بلاد السودان

اتصال المسلمين بالنوبة

تدفقت الجيوش الإسلامية فى عهد سيدنا عمر بن الخطاب عبر برزخ السويس إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص وتغلبت على مقاومة الروم وتقبلهم المصريون بالرضا حيث خلصوهم من حكم بيزنطية . ولكل جيش دخل الوجه البحرى فى مصر فاتحاً لابد وأن تمتد فتوحاته إلى الصعيد حتى أسوان وقد فعل المسلمون ذلك وجنوبى أسوان تمتد ممالك النوبة وكانت على اتصالات تجارية وثقافية مع مصر ، ولا بد للجيوش الإسلامية وقد وقفت عند أسوان أن تؤمن هذا الطريق التجارى وأن تؤمن حدودها الجنوبية . فدخلت فرقة إسلامية بقيادة عقبة بن نافع فى سنة ٦٤١ م ووقع صدام بينه وبين النوبة الشمالية ولم يتوغل المسلمون كثيراً ، والظاهر أن الطرفين اتفقا على هدنة : ولكن ما إن غادر عمرو ابن العاص مصر وخلفه عبد الله بن أبى السرح حتى نقض النوبيون العهد وكان لزاما على الوالى الجديد أن يجرد لهم جيشاً يتوغل هذه المرة فى مملكة المقرة حتى عاصمتها دنقلا (دنقلا العجوز) فى سنة ٦٥٢ م وأحكم الحصار حولها ورماها بالمنجنيق حتى طلب الملك قليدوروث الصلح .

عهد عبد الله ابن أبى السرح

وأملى المسلمون شروطهم على الملك . فقد عاهدهم القائد الإسلامى على الأمان لا يحاربهم المسلمون وأن يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها . وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين أو المعاهدين حتى يخرج منها ، وعليهم رد كل آبق دخل بلادهم من عبيد المسلمين وعليهم حفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون بدنقلة وكنسه وإسراجه وتكرمته وألا يمنعوا عنه.

مصليا وأن يدفعوا فى كل سنة ثلثمائة وستين رأساً من أوسط رقيقهم غير المعيب يكون فيه ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . وحينما شكا الملك من فقر البلاد وحاجتهم لمؤن من مصر تبرع المسلمون بإمدادهم سنوياً بكميات من الحبوب والملابس .

وهذا الصلح ورد ذكره فى المصادر العربية باسم البقط ولعله يعنى Paetum الرومية ومعناه الاتفاق . واكتفى المسلمون بهذا العهد الذى أمّن حدودهم الجنوبية وأعطى حرية المرور داخل أراضى النوبة للتجار المسلمين وإقامة شعائر دينهم فى قلب عاصمة النوبة . وليسوا بحاجة لاحتلالها وضمها للأراضى الإسلامية أو التوغل جنوبا حيث تبدى لهم فقرها وقفرها وهم بصدد تدبير حملات لأرض غنية فى شمال إفريقيا وتثبيت أقدامهم فيما تم فتحه من بلدان . واستمرت علاقة الدولة الإسلامية بمملكة مقرة المسيحية نحو ستة قرون على أساس هذه المعاهدة .

العلاقات مع البجة

تذكر لنا المصادر لأوّل مرة عن غارة قام بها البجة وهم سكان الصحراء ما بين النيل والبحر الأحمر على صعيد مصر فى سنة ٧٢٥ م ، والظاهر أن المسلمين ردّوا هذا الهجوم وصالحهم ابن (الحبحاب) بعهد يدفع البجة بموجبه ثلاثمائة من الإبل الصغيرة وأن يجتازوا الريف تجارا غير مقيمين وألاّ يقتلوا مسلما أو ذميا وألاّ يؤووا عبيد المسلمين ويظل وكيلهم فى الريف رهينة فى يد المسلمين . وهذا العهد ضمن للمسلمين تأمين حدودهم على الصحراء وفى الوقت نفسه ترك العلاقات التجارية حرّة كما كانت من قبل . وظلت العلاقات ودية حتى إذا ما كنا فى عهد المأمون العباسى جدد البجة غاراتهم على أسوان وعند سماع الخليفة بالخبر أمر بتجريد حملة عليهم وعقد لواءها لعبد الله ابن الجهم سنة ٨٤١ م ونتيجة لذلك أملى عليهم عقدا جديدا جعل بموجبه بلاد البجة من حد أسوان إلى ما بين دهلك (مصوع) وباضع

(جزيرة الريح) ملكا للخليفة وأن يكون كنون بن عبد العزيز رئيسهم هو وأهل بلده عبيدا لأمير المؤمنين. وعلى ملك البجة أن يؤدى خراجا سنويا مقداره مائة من الإبل أو ٣٠٠ دينار وأن يحترم البجة الإسلام وألا يعينوا أحدا على المسلمين وألا يقتلوا مسلما أو ذميا حرّا أو عبدا فى أرض البجة أو فى مصر أو النوبة وعليهم تأمين حياة المسلمين المجتازين لبلادهم للتجارة أو الإقامة. وإذا ما دخل البجة صعيد مصر مجتازين أو تجارا لا يظهرون سلاحاً ولا يدخلون المدائن والقرى وألا يهدموا المساجد التى ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وعلى كنون ملكهم أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة.

الإسلام والعروبة فى أرض البجة

يتضح من هذا العهد أن الإسلام شق طريقه قبل هذا العهد لأن وجود المساجد والمسلمين الذين يدخل عمال المسلمين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة دلائل واضحة على انتشار الإسلام سواء كانوا من العرب الذين أقاموا هناك أو من البجة الذين اعتنقوا الدين الإسلامى نتيجة اختلاطهم بالعرب. من النتف التى تذكرها المصادر العربية نعلم عن دخول جماعات من قبائل بلى وجهينة لغرض التجارة أو جذبتهم معادن الذهب أو المراعى عقب الفتح الإسلامى لمصر، وبديهى أن يدخل بعض البجة دين الإسلام نتيجة اختلاطهم بهم. وعبر فريق من هوازن البحر الأحمر عرفوا فيما بعد بالحلانقة وأقاموا فى بلاد البجة ثم رحلوا لإقليم التاكة (كسلا). وعندما انهارت الخلافة الأموية وأعمل العباسيون السيف فى بنى أمية هربت جماعة منهم إلى بلاد النوبة والبجة واستقر بعضهم فى ميناء باضع ودلت الأبحاث الأثرية على وجود شواهد قبور إسلامية وعلى مسجد فى سنكات — يستنتج أنها طريق الفارين من الأمويين. وبعض الروايات العربية تقول ببقاء بعض من كانوا فى حملة ابن الجهم فى أرض البجة وربما نزحت بعض القبائل من صعيد

مصر وتوغلت فى الصحراء الشرقية تحت ضغط قبائل عربية أخرى .
فبلاد البجة إذاً أصبحت مجالا حيويا لقبائل عربية مسلمة بعضها جذب
ببريق معدن الذهب وبعضها تحت ضغط قبائل أخرى وبعضها تخلف بعد
نجاح حملات تأديبية وبعضها عبر البحر الأحمر واستقر على الساحل الغربى
وبعضها تبعت موارد المياه والعشب لأنعامها وأغنامها وبعضها يلجأ إلى
الصحراء متوغلا فيها خوفا من سيوف العباسيين .

رحلة ابن ملك النوبة لبغداد

أصبح دفع ثلاثمائة وستين من الرقيق سنويا للمسلمين فى مصر عبئاً
ثقيلا على النوبة ، فهم يؤدونه على مضض خوفا من سطوة الدولة
الإسلامية لأنه استنزاف سنوى لأيديهم العاملة وربما يحصلون عليه ممن
جاورهم بعد شن الغارات عليهم وإذا تعذر ذلك يؤدونه من أبنائهم
حسب رواية البلاذرى . وولاة المسلمين من جانبهم لايتهاونون فى هذا
البقط فإذا ما امتنع النوبة عن أدائه شنوا عليهم الحملات لإرغامهم على
دفعه أو امتنعوا عن دفع ما يقابله من حبوب وملابس . وفى عهد الخليفة
المعتصم العباسى كان ملك النوبة زكريا بن يوحنس وابنه جورج .
فحرض الابن الشاب والده على عصيان المسلمين وألا يقبل مذلة أو مهانة
بعد اليوم بأدائه البقط ، ونتيجة لفورة الشباب وبدافع العزة القومية
امتنع النوبيون عن أداء البقط مدة أربعة عشر عاما تعرضوا خلالها لضغط
متزايد من قبل ولاة المسلمين فى الصعيد الأعلى لمصر . ولكن زكريا رأى
ألاّ يبدأ بحرب المسلمين إلا بعد استطلاع أحوالهم ومعرفة مدى قوتهم .
وتنفيذا لهذا رأى أن يبعث بابنه جورج وهو زعيم المقاومة لنفوذ المسلمين
إلى بلاط الخليفة ببغداد ليشاهد بنفسه قوة المسلمين ويقيس عليها استعداد
النوبة لمحاربتهم . وهناك فى عاصمة العباسيين بهرته حضارة المسلمين
وقوتهم واقتنع بأن لاطاقة لهم بمقاومة الدولة العباسية والمعتصم من جانبه
أكرم وفادة ابن ملك النوبة وأحسن معاملته واتفق معه على تأدية بقط

سنة واحدة كل ثلاث سنوات ، وأن يستمر المسلمون فى تأدية ما كانوا يرسلونه للنوبة وأصدر الخليفة أوامره بالإفراج عن سجناء النوبة نتيجة لطلب جورج غير أنه لم يجبه على طلب إزالة الحامية العسكرية التى أقامها المسلمون بمدينة القصر .

حملة القمى على أرض البجة

تركنا البجة والخليفة المأمون العباسى عن طريق قائده عبد الله ابن الجهم يملى عليهم شروطا قاسية جعلتهم حسب منطوق العهد عبيدا لأمير المؤمنين ، ولكن من يعرف طباعهم يتيقن أنهم لابد من أن يثوروا على هذا الظلم والعهد الغير متكافئ فاغاروا فى عهد المتوكل العباسى على مناجم الذهب بالعلاقى فندب المتوكل لحربهم محمد بن عبد الله القمى سنة ٨٥٤ م وأمر واليه على مصر أن يمده بالرجال وقاد القمى جيشاً عرمرما يبلغ تعداده عشرين ألفا من نظامى ومتطوعين ، وعند مروره على وادى العلاقى تبعه من ربيعة ومصر واليمن نحو ثلاثة آلاف ، وحملت المراكب المؤن إلى ميناء عيذاب . وكانت خطة البجة هى عدم الالتقاء فى معركة فى أول الأمر بل المطاولة والمناوشة البسيطة وامتداد خط مواصلات المسلمين حتى يوغلوا فى الصحراء وتنفد أقواتهم وبعدها يلاقونهم على هذه الحالة من الجوع ونقص الكفاءة الحربية ، ولكن القمى قابل هذه الخطة بما أفسدها إذ ظلت أمداداته بالمراكب تتوالى إلى ميناء عيذاب فى فترات وأخذ زمام المبادة فى القتال حتى تمكن من الغلبة عليهم ، وعندها طلب ملكهم على بابا الصلح بأن يدفع الخراج وإلا يمنع المسلمين من العمل فى المعدن ، ووافق القمى على الشروط وزادها بأن يطأ على بابا بساط الخليفة فى سر من رأى عاصمة العباسيين آنذاك وهناك أكرم الخليفة وفادته .

تجمعات العرب فى المناجم

نقل على بابا إلى قومه ما شاهده من عظمة وقوة المسلمين فى عاصمتهم وأدركوا أن لا قبل لهم بمعاداتهم وتدفق مزيد من العرب على معادن الذهب

واكتشفت مواطن أخرى فى المنطقة وترك لهم أمر استغلال المناجم لأن البجة على ما يبدو لم تكن لهم خبرة بأمرها ، واكتفوا بمساكنة ومجاورة ومصاهرة العرب وربما زاد عدد من اعتنق الإسلام منهم ، وبسطت الدولة الإسلامية نفوذها على المنطقة ومما زاد فى هجرة أعراب البادية من مصر نحو أراضى البجة سياسة الخليفة المعتصم العباسى المتجهة نحو تجنيد الأتراك فى جيشه والاستغناء عن خدمات العرب ونتيجة لذلك أمر والى مصر بقطع العطاء عنهم ، وثار العرب لهذا القرار وأسر الوالى زعماء الثورة وربما أعقبت هذه الحوادث موجة من الاضطهاد لهم مما أدى إلى هجرة بعضهم جنوباً فى الصحراء حيث استقرت قبائل قبلهم ، وهذه السياسة الجديدة نحو العرب قادت إلى تعيين حكام وولاة مصر من الأتراك دون العرب وابتدع ابن المدبّر والى الخراج فى مصر ضرائب مختلفة زادت فى حنق العرب نحو الأتراك أظهروه فى ثورات أخضعها الأتراك بعنف وامتلأت السجون من الزعماء مع فرض الغرامات واتجهوا منسابين نحو الجنوب والغرب مبتعدين عن هذا الجو العدائى وهم أبناء الصحراء ولهم فى الأماكن التى هاجروا إليها أهل وعشيرة استقروا هناك..

حملات العمرى

وعندما تسلم زمام السلطة فى مصر أحمد بن طولون وأعلن قيام الدولة الطولونية سنة ٨٦٨ م جهز حملة حربيـــة إلى بلاد النوبة والبجة بقيادة أبى عبد الرحمن عبد الله بن عبد الحميد العمرى واشترك كثير من العرب فى هذه الحملة خاصة ربيعة وجهينة ، ولعل الهدف الأكبر لهذه الحملة هو الاستيلاء على مناجم الذهب واكتشاف غيرها نتيجة الروايات التى بولغ فيها زيادة على تأمين حدود الدولة من غارات النوبة والبجة ، وسار العمرى بجيشه سنة ٨٦٨ م حتى وصل إلى إقليم شنقير (يظن أنها منطقة الرباطاب والمناصير) ، واهتدى إلى مواقع جديدة للتبر وأقام قواعد على النهر للحصول على المياه لحياة الاستقرار وتغلب على قوات جورج الأول ملك النوبة ، ثم

تحرك شمالا عندما سمع بخروج بعض قبائل الشام عليه بعد أن أقاموا فى منطقة إدندان باتفاق مع النوبيين وهزمته فانسحب شمالا واتسعت منطقة نفوذه حتى منطقة عيذاب شرقاً وحدودها الشمالية أسوان . وخشى ابن طولون على نفسه من اتساع نفوذ العمرى وأرسل جيشاً لمحاربته فانهزمت جيوش ابن طولون أمام العمرى وتحرك شمالا حتى إدفو ، إلا أنه رأى الرجوع إلى منطقة نفوذه فى المناجم ، وانشقت عليه قبيلة ربيعة وحاربته غير أنه هزمها وكانت نهايته على يد اغتالته من قبيلة مضر . وبعد موت العمرى كان هناك خلق كثير من ربيعة وجهينة خاصة حول أسوان وتنازعوا على امتلاك معادن الذهب بالعلاقى غير أن الغلبة كانت لفريق من ربيعة استمال البجة وتزوجوا بنات رؤسائهم .

الإسلام والعروبة بين البجة والنوبة

فالعمرى وهو شخصية دينية فذة نشر بغزواته هذه فى أرض البجة والنوبة الإسلام والثقافة العربية وزاد من عدد العرب الذين استقروا فى المنطقتين وبالتالى فى الفرص التى أتاحها الاختلاط بين سكان البلاد الأصليين والعرب الوافدين ، وحدث ما يمكن أن يحدث فى مثل هذه الظروف عند التقاء حضارة ناشئة ذات فعالية بحضارة متدهورة إذ لا بد من غلبة الأولى على الثانية . فالمسعودى حين زار مصر حوالى سنة ٩٤٠ م يحدثنا عن اختلاط عرب ربيعة بالبجة فى منطقة المناجم وباتحاد الفريقين تغلبوا على من ناوأهم سواء كانوا من النوبة أو غيرهم من السكان ، ويذكر أن أميرهم أبا مروان بشر بن إسحق بن ربيعة يتحكم فى جيش قوامه ثلاثة آلاف فارس من ربيعة ومن حالفهم من العرب وثلاثين ألفاً من الحدارية (ولعل أصلهم من حضرموت) على الإبل ويتضح لنا من هذا الوصف أن دولة عربية صغيرة قامت فى تلك البلاد . ويذكر لنا المسعودى وصول الإسلام إلى جزيرة سواكن حيث تقيم جماعة اعتنقت الإسلام تعرف بالخاسة . وفى بلاد النوبة السفلى الموالية لأسوان يحدثنا المسعودى عن جماعات من قبائل

قحطان وربيعة وقريش تقدموا من أسوان جنوباً حيث اشتروا أراضى من النوبة ووجدوا مقاومة من ملوك تلك الجهات بحجة أن النوبيين عبيد لملوكهم ولا يحق لهم بيع الأراضى ولكن العرب عند التقاضى لدى حاكم أسوان لقنوا النوبيين حجة أنهم ليسوا بعبيد ولهم حق التصرف فى أملاكهم وقضى الحاكم بصلاحية البيع ومع ذلك فلاك هذه الأراضى من المسلمين ظلوا يدفعون خراجا لها لملك النوبة المسيحى كل ذلك حدث فى النوبة السفلى أما النوبة العليا فى جهات دنقلا شمالا إلى الشلال الثانى فالعرب يسمح لهم بالتجارة لا بالإقامة حسب نصوص عهد ابن أبى السرح.

تجدد غارات النوبة

فى أواخر عهد الإخشيديين عندما بدأت الدولة الفاطمية فى شمال إفريقيا ترنو بأبصارها نحو مصر وحين شعر النوبيون باضطراب الأحوال فى مصر وعدم استقرارها نشطوا فى غاراتهم فبدأوا بالواحة الخارجة سنة ٩٥١ م وأعقبوها بأخرى على أسوان سنة ٩٥٦ م وكان على الدولة الإخشيدية أن ترد هذا العدوان فبعث أنوجور بن الإخشيد محمد بن عبد الله الخازن بجيش سنة ٩٥٧ م ولاقى النوبيين فى معركة هزمهم فيها وتقدم نحو الجنوب حتى ابريم وسبى وغنم ورجع إلى مصر . وفى عهد كافور غزى النوبيون صعيد مصر متقدسين شمالا حتى أدفو ونتيجة ذلك كله هو الامتناع عن دفع البقط .

أول اتصال بالفاطميين

وعندما دخلت جيوش الفاطميين بقيادة جوهر الصقلى مصر سنة ٩٦٩ م وعلم جوهر بغارات النوبيين داخل الأراضى المصرية فى أواخر عهد الإخشيديين وامتناعهم عن دفع البقط بعث بأحمد بن سُلَيْم الأسوانى لملك النوبة جورج يطالبه بدفع ما عليه من بقط للدولة الإسلامية فى مصر وعرف جورج قوة الفاطميين وخضع للأمر وأدى ما عليه . وهناك رواية تقول بأن جوهرا دعا الملك جورج لاعتناق الإسلام وهذه الرواية محتملة نسبة لما عرف عن الفاطميين من سياسة الدعاية والتوسع وبقيام

دولة إسلامية جديدة فى مصر اشتد نفوذ العرب فى بلاد النوبة السفلى حيث يروى ابن سليم هذا أن المسلمين هناك كانوا فى حالة من الاستقرار والاستقلال فى المنطقة وكانت لهم أملاك يستغلونها لصالحهم ، وروى أن كثيراً من النوبيين اعتنقوا الإسلام مع تمسكهم بلغاتهم وجهلهم باللغة العربية ويعتقد أن العرب أنفسهم تعلموا لغة النوبة . ويزيد ابن سليم أن المسلمين توغلوا داخل الأراضى السودانية حتى إقليم مملكة علوة وعاصمتها سوبا لغرض التجارة حتى أنه أصبح لهم رباط خاص به جماعة من المسلمين . وكان عهد الفاطميين بأكمله عهد ود ومصالحة مع النوبة .

كنز الدولة ذكرنا قبلا أن عرب ربيعة أنشأوا دويلة إسلامية امتد نفوذها من أسوان جنوبا فى بلاد النوبة وشرقها فى الصحراء إلى البحر الأحمر وأن مؤسسها هو بشر بن إسحق . ولكن النزاع بين بطون ربيعة فى العلاقى وعيذاب أدى إلى قتل مؤسس الإمارة وخلفه ابن عمه محمد بن على المعروف باسم ابن يزيد بن إسحق وارتبط العرب بالنوبيين حيث تزوجوا بنات الزعماء من النوبة وتكونت بذلك طبقة حاكمة فى النوبة السفلى أزالت نفوذ الملك المسيحى فى تلك المنطقة ، ويبدو أن كثيراً من النوبيين تحولوا للإسلام والدولة الفاطمية سرّها امتداد الإسلام لبلاد النوبة واعترفت بالإمارة.بل استعان الخليفة الحاكم بأمر الله بأبى المكارم هبة الله أمير ربيعة فى مطاردة الثائر أبى ركوة وهو من بنى أمية يحمل ركوة لوضوئه ؛ وكان فى القيروان ثم مر على بنى قرة فى برقة ودعاهم للثورة على الحاكم فبايعوه وهزموا والى الحاكم هناك وانضمت إليه جماعة أخرى من كتامة وتوالت انتصاراته على جيوش الفاطميين حتى وصل أهرامات الجيزة ولكنه انهزم فى الفيوم حيث تخلت عنه بنو قرة وفر لاجئا لبلاد النوبة ونجح أبو المكارم فى القبض عليه سنة ١٠٠٦ م ولذا أضفى عليه

الحاكم لقب كنز الدولة تكريما ومكافأة له وصار كل زعيم منهم يحمل هذا اللقب بل عرفت القبيلة ببنى الكنز وهم الكنوز المعروفون .

النوبيون فى جيش مصر

والسياسة التى اختطها الخليفة المعتصم العباسى فى أن يجند فى جيش الدولة العباسية عناصر غير عربية كالأتراك جعلت أحمد بن طولون يستخدم النوبيين فى جيشه ، ويروى أنهم كانوا ٤٠ ألفاً فى عهده أسكنهم فى حى يعرف باسمهم . ويروى المقريزى أنه حصل عليهم بطريق الشراء ويبدو أنهم لم يكونوا كلهم من سكان بلاد النوبة بل يحتمل أن جلب بعضهم من الأراضى التى تقع فى أواسط السودان كرقيق بواسطة تجار الرقيق . واستمرت دولة الإخشيديين فى استخدامهم وخاصة فى عهد كافور ودولة الفاطميين زادت فى عددهم بتشجيع من أم المستنصر وهى سودانية الأصل وحسب بعض الروايات أنهم بلغوا فى ذلك العهد ٥٠ ألفاً وكانوا وهم بهذه القوة عنصرا هاما فى إخماد الثورات وفى التكتلات الحزبية داخل الهيئة الحاكمة . ولا شك أن بعض النوبيين نزحوا لمصر للعمل هناك بل برز من أبنائهم الذى ولدوا فى مصر يزيد بن أبى حبيب حيث تعمق فى العلوم الإسلامية واتصل بعدد من صحابة الرسول الذين شهدوا فتح مصر وتابعيهم وكان والده من سبى النوبة فى الحملة الإسلامية الثانية على تلك البلاد ، وأبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الملقب بذى النون المصرى أصله نوبى ودرس الموطأ عن بعض أصحاب مالك بن أنس عندما خرج حاجا للحجاز وعرف بعد رجوعه لمصر بميله لحياة التصوف وساح فى البلاد الإسلامية حتى توفى بالجيزة وحمل جثمانه لمصر ودفن بها . ولا بد أن بعض من استخدم فى مصر من النوبيين رجع لبلاده وحمل إليهم الثقافة الإسلامية وأثر على بعضهم باعتناق الإسلام .

علاقة الدولة الأيوبية بالسودانيين وبنى كنز

كانت علاقة صلاح الدين الأيوبى مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر سيئة مع الجند السودانيين لأنهم حاولوا إقصاءه من الوزارة فى عهد الخليفة العاضد الفاطمى وفشلت محاولتهم لأنه قاومهم بحملة قادها

شجاع الدين البعلبكى سنة ١١٧٢ م ودارت المعارك بين الفريقين فى شوارع القاهرة وانهزم الجند السودان إلى الصعيد : أما كنز الدولة فوالى صلاح الدين فى حربه مع الجند السودانيين إلا أن صلاح الدين كان يتهم بنى كنز بتشيعهم للعلوية ومعنى هذا أنهم روحيا مع الفاطميين . وحين أرسل أخاه توران شاه بجيش لغزو بلاد النوبة كان من ضمن أهدافه القضاء على نفوذ بنى كنز وتوغل توران شاه فى النوبة حتى ابريم ، ولكن فقر البلاد جعله يكتفى بهذا القدر من التوغل فى البلاد واكتفى صلاح الدين بإقطاع ذلك الإقليم لأحد أمرائه وفى هذا دلالة واضحة بأنه لايود لكنز الدولة السيطرة عليه . فثار كنز الدولة وهجم بجيشه على والى صلاح الدين وقتله ، وكانت هناك حركة فى مصر ترمى لإعادة الدولة الفاطمية ويعتقد أن كنز الدولة كان على اتصال بزعماء الحركة . وتمكن صلاح الدين من القضاء على تلك الحركة فى مصر وأرسل أخاه الملك العادل بجيش إلى أسوان فهزم كنز الدولة وقتله ونتيجة لذلك رحل بنو كنز عن أسوان ونقلوا مركز إمارتهم إلى الجنوب فى أرض النوبة وتم اندماجهم مع سكانها . وتذمر جنود النوبة حين استبدلهم صلاح الدين بعناصر كردية وتركية وديلمية وحاول النوبيون استعادة ملك الفاطميين وبالتالى مكانتهم فى جيشهم .

عيذاب

كانت عيذاب تعرف بميناء الذهب وهى تقع على ساحل البحر الأحمر شمالى سواكن بكثير وعندما احتل الصليبيون أرض فلسطين لم يعد طريق سيناء للحجيج المصرى والمغربى آمناً فتحولوا إلى ميناء عيذاب منذ القرن الثانى عشر الميلادى وعندما نشطت حركة الحجيج بها وتردد عليها المسلمون فى ذهابهم وإيابهم من الأراضى المقدسة فى الحجاز بدأت المراكب التى تحمل بضائع اليمن والهند ترسو بها وبالتالى عمرت منطقتها وزادت حركة القوافل بينها وبين قوص على النيل فى مصر وكان هذا العمران فى أواخر عهد

الفاطميين إلى أوائل دولة المماليك الثانية وكانت دولة المماليك تبعث لها بوالى من قبلها مع الوالى الحدربى وكذلك أنشئت محكمة مملوكية يشرف عليها قاض . وتنبه الصليبيون إليها عندما رسخت أقدامهم فى أرض فلسطين وعلموا بتحويل التجارة والحجيج إليها وما كان لهم وهم يقاتلون المسلمين بدوافع دينية إلا أن يحاولوا القضاء على المركز الممتاز الذى احتلته عيذاب فى حياة المسلمين الدينية والتجارية وخاصة إذا علمنا أن الدافع الرئيسى لإثارة الحملات الصليبية على فلسطين كان اعتقادهم بأن السلاجقة جعلوا حجيج المسيحيين الغربيين إلى أماكنهم المقدسة فيها صعب المنال . وقاد ارناط حملة فى البحر الأحمر إلى عيذاب سنة ١١٨٢ م وكان هدفه أرض الحجاز ولكنه فشل غير أنه تمكن من تحطيم ١٦ سفينة وجدها فى ميناء عيذاب .

سواكن

وهذه المحاولة الصليبية التى كانت تهدف إلى احتلال الأراضى المقدسة الإسلامية فى الحجاز ونجاحها فى تحطيم ما وجدته من سفن فى ميناء عيذاب جعلت حكام المسلمين فى مصر يوجهون اهتمامهم لسلامة البحر الأحمر من خطر الصليبيين . فزيادة على تأمين ميناء عيذاب اهتموا بميناء سواكن وهو مخرج تجارة ممالك النوبة المسيحية فى السودان . والظاهر أن نشاط مصر التجارى لم يقتصر على عيذاب وحدها . ولكن تعداه إلى مينائى سواكن وجنوباً إلى موقع مصوع وتعرض حاكم سواكن وحاكم جزر دهلك قبالة مصوع لأموال من توفى فى بلادهم من التجار المصريين وأهمل صاحب سواكن احتجاج السلطان المملوكى بيبرس وما كان له إلا أن يبعث بحملة تأديبية لسواكن فى سنة ١٢٦٥ م وكانت النتيجة أن فرّ صاحب سواكن واحتلتها الجيوش المملوكية واستقرت حامية دائمة هناك وبهذا أصبح هذا المنفذ البحرى لأقاليم النوبة المسيحية على النيل تحت سيطرة الدولة الإسلامية .

رد الفعل لدى النوبة

يتضح لنا من ذلك أن الدولة الإسلامية فى مصر قد سدت على مملكة النوبة المسيحية فى دنقلا المنافذ إلى العالم الخارجى وخاصة للأراضى المقدسة

فى فلسطين والتجارة مع الخارج . فميناء السودان الوحيد تحت سيطرة المسلمين وقامت دولة إسلامية صغيرة فى النوبة السفلى تحت حكم بنى كنز وانتشر العرب فى الصحراء وعرف أن مسيحيي النوبة كانوا يترددون على الأراضى المقدسة فى فلسطين وسرّهم احتلال مسيحيي الغرب لها وساءهم حين علموا بانحسار ظل الصليبيين عن فلسطين فى عهد صلاح الدين الأيوبى وفى عهد المماليك بعده وربما تأثروا بموجة اضطهاد قيل إنها حدثت للأقباط إخوانهم فى الدين على يد السلطان بيبرس حيث اتهمهم بحرق بعض أحياء القاهرة سنة ١٢٦٤ م ولو أنه لم تظهر المصادر المعروفة لدينا أية علاقات بين الصليبيين فى فلسطين ودولة النوبة المسيحية فى السودان إلا أنه يظن أن النوبيين كانوا على علم بالنزاع بين المسلمين وبينهم فى فلسطين وخاصة تلك المحاولة التى قام بها ارناط فى البحر الأحمر . فهم متعاونون مع الصليبيين فى الناحية الدينية وقد أحكم المسلمون الحصار عليهم وعزلهم عن العالم الخارجى وهاهم يسمعون عن اضطهاد لحق بإخوانهم فى الدين فى مصر . تجمعت كل هذه الأسباب لتقود داود متملك المقرة فى عاصمته دنقلا العجوز لأن يحاول فك هذا الحصار الذى فرض عليه وليمنع تعديات أخرى من جانب المسلمين على أرضه .

النضال بين النوبة والمماليك

فنى سنة ١٢٧٢ م أغار النوبيون على ثغر عيذاب ونهبوا متاجرها وقتلوا عدداً من أهلها بما فيهم القاضى والوالى ثم على مدينة أسوان فخربوا السواقى وأسروا عدداً من السكان وعندما وصلوا بهم لدنقلة سخّروهم فى بناء كنيسة . وبدأت بعد ذلك سلسلة متصلة الحلقات من النزاع وإرسال الحملات بين النوبة والمماليك حيث أرسل السلطان بيبرس فى سنة ١٢٧٣ م حملة يقودها واليه على قوص وتقدمت حتى وصلت دنقلا لكن داود تقهقر جنوباً حتى لا تناله يد المماليك فعادت الحملة بعدد من الأسرى . ورأى بيبرس أن يستغل النزاع فى البيت المالك النوبى حين قدم إلى القاهرة شكندة

متظلماً من خاله داود الملك لأنه ادعى أنه اغتصب الملك منه . فجهز بيبرس جيشاً سنة ١٢٧٦ وسار معهم شكندة وتقوى الجيش بعربان الوجه القبلى وبدأت المقاومة لهذا الجيش عند الدر فتمكن المماليك من إخضاع هذه المقاومة الأولى وتابع الجيش سيره واخترق جنادل الشلال الثانى وسلم الأرض التى أخضعها الجيش إلى شكندة ليحكمها وعندما دنت الحملة من دنقلا خرج لها داود وعشيرته فيما جمعوه من قوة غير أن النتيجة كانت هزيمتهم وفرار داود وجاء شكندة إلى دنقلا وتم تتويجه ملكاً للنوبة بنفوذ وسلطة الجيش المملوكى وكانت هذه بداية الحماية المملوكية على مملكة مقرة إذ لم يحاول المماليك ضم البلاد إلى أملاكهم بل اكتفوا بأن يكون الجالس على العرش من اختيارهم على أن يرتبط معهم بعهد يقطعه على نفسه ومعه شعبه .

شروط المماليك

ولأهمية هذه الشروط والعهود التى بمقتضاها أجلس المماليك شكندة على عرش دنقله نورد أهم ما تضمنته : أصبح شكندة مرتبطاً بيمين الطاعة والولاء لسلطان المماليك ونائباً عنه فى حكم مملكة المقرة ويرسل نصف ما يجمعه من المملكة للسلطان ومعه بعض التحف كهدايا ، وهناك ضريبة يدفعها كل نوبى عاقل بالغ تبلغ ديناراً كجزية طالما بقوا على النصرانية وإن تسلم كل ممتلكات داود ومن تبعه للسلطان وأن يمنع شكندة الأعراب من الاستقرار فى بلاد النوبة وأن يطلع شكندة السلطان على كل الأحوال ، وأيدت هذه الشروط بيمين حافه شكندة . وعندما أكملت الحملة المملوكية مهمتها على هذا النحو أخذت معها عددا من أمراء النوبة كضمان لوفاء النوبيين بالشروط . ويُروى أن الحملة حملت معها عددا من أسرى رقيق النوبة بلغ الآلاف وبيع بأثمان بخسة فى أسواق النخاسة فى القاهرة . فإذا صحت هذه الرواية فإن بلاد النوبة تعرضت لخراب اقتصادى حين حرمت من تلك الأيدى العاملة فى الإنتاج الزراعى فزادتها فقرا على فقرها . والظاهر أن أثر هذه الحملة المملوكية على مملكة مقرة المسيحية فى دنقلا

كان لها صداها فى الجزء الشمالى من مملكة علوة والذى يعرف بالأبواب فى منطقة شندى أو شمالها ، فقد لجأ داود على ما يبدو إلى هذه المملكة لأنها مسيحية ولكن ملك الأبواب أبى أن يدخل فى عراك مع دولة المماليك بسبب داود فقبض عليه وأرسله مقيدا إلى القاهرة حيث اعتقل إلى أن مات .

تحكيم قلاوون فى النزاع بين دنقلة وعلوة

وبالرغم من العهود والمواثيق التى قطعها شكندة على نفسه بالعمل تحت ظل راية المماليك ، فإن السلطان بيبرس بعث ببعض الإسماعيلية إلى دنقلا لمراقبته حتى لاتحدثه نفسه بالتمرد ؛ ومات شكندة قتيلا فى سنة ١٢٧٧ م ربما بيد بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهم ، واعتلى العرش بعده أمير من البيت المالك يدعى بِرِك إلا أن السلطان قلاوون الذى خلف بيبرس فى القاهرة لم يطمئن إليه فارسل حملة إلى بلاد النوبة انتهت بقتل بِرِك وتنصيب سَمَامون ملكا بنفس الشروط السابقة . وتذكر لنا مخطوطة تاريخ قلاوون أن أدور ملك الأبواب (الجزء الشمالى من علوة) أرسل سفراء له حاملين هدايا لقلاوون يشكون فيه من سوء معاملة سمامون ملك دنقلا ويحكّمونه فى النزاع ويظهرون الولاء والطاعة للسلطان المملوكى . وسمامون من جانبه حينما علم بسفارة ملك الأبواب بعث بسفارته وهداياه أيضاً للدفاع عن وجهة نظره ، ورأى قلاوون حين اجتمع بالسفارتين أن يبعث بمندوبيه للإقليمين للتحقيق ، فأرسل مبعوثا لملك الأبواب والأجزاء الأخرى الصغيرة من مملكة علوة مع سفراء الأبواب عن طريق عيذاب خشية التعرض لهم من قبل ملك دنقلا وبعث برسول آخر لملك دنقلا . ونتيجة لهذا التحقيق اقتنع قلاوون بأن سمامون هو الجانب الظالم . ومما زاد الطين بلة أن مبعوث السلطان إلى الأبواب قبض عليه جواسيس سمامون عند رجوعه وأراد قتله إلا أن حاشيته ورعاياه منعوه من ذلك خوفاً من أن يخرب السلطان ديارهم ولا شك أن المبعوث حين رجع سالما لمصر أبلغ قلاوون أمر هذا الحادث .

حملة لتأديب سمامون

أظهر سمامون عدم إخلاصه وولائه ، ويبدو أنه لم يرسل الجزية والبقط وأصبح لزاما على السلطان أن يبعث بحملة لتأديبه . وغادرت الحملة القاهرة فى عام ١٢٨٧ على أن يشترك فيها والى قوص الأمير عز الدين أيدمر وأخذ معه من العربان أولاد أبى بكر وأولا عمر وأولاد شريف وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبنو هلال ، وسار فريق بقيادة الأمير علم الدين سنجر الخياط بالبر الغربى ، وقاد أيدمر فريقا آخر بالبر الشرقى . وكانت خطة سمامون هى أن يجعل جيش المماليك يتوغل داخل مملكته ويلاقيه على أبواب دنقله ، وتنفيذا لهذه الخطة أمر نائبه على منطقة الدو ويدعى جريس ، ولقبه الرسمى صاحب الجبل ، بإخلاء البلاد والتقهقر جنوبا . وحينما وصل أيدمر بجيشه على مشارف دنقله خرج له سمامون بجيشه والتحم معه فى معركة انتهت بهزيمة سمامون وفراره جنوبا فتتبعه أيدمر إلى مسافة خمسة عشر يوما دون أن يلحق به ووقع جريس فى الأسر . وبرجوع ايدمر لدنقلا .. تم تنصيب ابن أخت سمامون ملكا وأفرج عن جريس وثبت فى منصبه لأنه أعلن الولاء ؛ ورأى قلاوون أن يبقى أيدمر ليكون ضابطا سياسيا مقيما كمندوب سامى للسلطان ، وبعث بسعد الدين بن أخت داود وكان بالقاهرة آنذاك ليكون مستشارا لأيدمر ورجع باقى الجيش لمصر .

ظهور سمامون مرة أخرى

ويبدو أن سمامون كان على علم بما حدث فى مخبئه ، فما أن غادر الجيش المملوكى دنقلا حتى ظهر مرة أخرى واستعد لاسترجاع ملكه ، ويظهر أن سمامون لم يكن وحيدا فى مقاومته للاحتلال المملوكى بل له أتباع وأنصار فى هذا الأمر من أفراد الشعب النوبى ، حتى إن ملك النوبة الجديد وجريس معه فرّا إلى القاهرة ولو أن المصادر لا تذكر ذلك فإن أيدمر أيضا غادر دنقلا . وجهزت حملة كبيرة بلغت أربعين ألفا ومعها عدد لم يجهز من قبل من المراكب على النيل وسارت من القاهرة سنة ١٢٨٩ واشترك فيها أيدمر وصحبها ملك النوبة وجريس صاحب الجبل ، وعندما مات الملك فى الطريق

عين ابن أخت الملك داود بدلا عنه ، وقاد أيدمر الفريق الذى سار شرق النيل كما فعل فى المرة السابقة ، والظاهر أن أنباء هذه الحملة الكبيرة وماجرته الحملات السابقة من خراب للبلاد هبطت بحماس من كانوا ملتفين حول سمامون وتخلوا عنه ولذلك فر جنوبا واختبأ فى جزيرة على النيل ثم جنوبا إلى منطقة الأبواب ، وطلب الأسقف والقساوسة الأمان من أيدمر واحتل الجيش دنقله واحتفل بعيد النصر فى دنقله ونصبوا الملك الجديد بالطريقة التقليدية ورجع الجيش لمصر بعد أن بقيت فرقة منه فى دنقله .

ظهور سمامون

وكما فعل قبلا فما أن علم برجوع الجيش لمصر حتى ظهر ووصل دنقله متخفيا واستمال إليه بعض من خذلوه قبلا وقبض على الأمير المملوكى المقيم بدنقله وأرسله ورجاله إلى القاهرة وقتل الملك الجديد وجريس صاحب الجبل وكتب إلى السلطان يطلب منه العفو والصفح ومهد لذلك بأنه لم يصب الأمير المملوكى وجماعته بأذى وأرسل مع خطابه بعض الهدايا من رقيق وغيره وتعهد بدفع الالتزامات . وقبل السلطان تأكيدات سمامون ويبدو أنه أدرك قوته وسيطرته على البلاد ولا يود تجهيز حملة أخرى لأنه كان آنذاك يستعد لإزالة آخر معقل للصليبيين فى عكا . وإلى الآن وضح لنا مكر سمامون ودهاؤه ولا غرابة فى أن ينقض العهد ويستعيد حريته عندما ترامى إلى أسماعه موت قلاوون وأظهر استقلاله بأن منع إرسال البقط والجزية سنة ١٢٩١ م ولكنه آثر الدبلوماسية على التمرد الواضح إذ بعث للسلطان خليل الذى خلف والده قلاوون يعتذر عن تأخير البقط إلى السنة التالية لأن البلاد أصابها الخراب من الغزوات المتتالية عليها . وعندما أصر خليل على إبقاء الالتزامات وتوعد سمامون وعد الأخير بإرسال البقط حالا واتفق على أن تكون والدة سمامون وبقية أهله رهائن فى القاهرة بدار الضيافة . غير أنه لم يمض وقت طويل إذ أرسل سمامون أخاه جريسا للقاهرة يستعطف السلطان بإرسال والدته له بدعوى « أن ملوك النوبة

ما يدبرهم غير النساء » كما شكا من ملك الأبواب ولكى يجعل طلباته مقبولة لدى السلطان بعث بهدايا من جمال وحاصلات بلاده .

حملة جديدة لبلاد النوبة

ضاق السلطان خليل ذرعا بمراوغة سمامون وجهز حملة قادها عز الدين الأفرم لعزل سمامون والقبض على أمير نوبى يدعى آنى لأنه خرج على السلطان ، وتوغلت هذه الحملة مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما جنوبى دنقله لا نعرف إلى أى اتجاه ولكنها وراء آنى الثائر الذى التجأ أخيرا كما تقول المصادر إلى بلاد الأنج ، ويظن أنه هرب إلى جبل الحرازة شمال كردفان . ورجع الأفرم إلى دنقلا بغنائم وأسلاب وأسر عددا كبيراً من السكان . أما سمامون فلم يرد له ذكر لأنه هرب إلى مكان مجهول ومات أو قتل . وكالعادة بعث السلطان خليل بأمير نوبى يسمى بُدِمّة للأمير الأفرم حيث تمت مراسيم تنصيبه ملكا فى دنقلة وعين جريس نائبا للملك وربما كان أخا لسمامون وأقسم الاثنان يمين الولاء والطاعة للسلطان وحلف رعاياهما بالولاء للملك الجديد على أساس ولائه للسلطان «لولا مولانا السلطان ما أطعناك ومتى تغيرت أسكناك ونحن نرضى أن يُقيم مولانا السلطان ملكا فلاحا أو جبليا فإن بلاد النوبة مالها ملك إلا مولانا السلطان ونحن رعيته» . وهذه الحملات المتكررة وخاصة الأخيرة زادت فى اضطراب الأحوال فى بلاد النوبة وهروب بعضهم من ديارهم إذ كان من أول مطالب بدمة من قائد السلطان السماح للهاربين بالرجوع لبلادهم لإصلاح دورهم . وملك الأبواب اتباعا لسياسته السابقة لم يترك مجالا لسوء تفاهم بينه وبين المماليك إذ بعث برسالة لقائد السلطان يجدد فيه الولاء والطاعة ويخبره بمطاردته للأمير الثائر آنى فإذا ما تم الاستقرار فإن جميع البلاد ستخضع للسلطان .

حملة الناصر ابن قلاوون

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون وكان لا يزال طفلا قدم ملك النوبة أماى للقاهرة وطلب مساعدة الدولة المملوكية له ضد أعدائه ، ولم نعرف

على وجه التحديد من هم أعداؤه . وجهزت الحملة بقيادة والى قوص واصطحبها عدد من العربان وتوغلت أكثر من أى حملة أخرى سبقتها إذ غابت عن مصر نحو تسعة عشر شهرا خلال سنتى ١٣٠٦ — ١٣٠٧ م . ويبدو أن هذه الحملة ما جهزت لمساعدة متملك دنقلا خاصة إذ أنها حاولت أن تقضى على كل عوامل الشغب فى الأقاليم السودانية ، وكانت أولى مهامها هى تأديب العربان الذين قطعوا الطريق ببرية عيذاب ، فتوغل الجيش فى الصحراء بعد أوامر مشددة من الأبواب السلطانية للاستهانة بالأخطار ووصلوا عيذاب ومنها واصلوا سيرهم إلى سواكن ولاقوا عنتاً فى الطريق بسبب قلة المياه ، ومن سواكن اقتفى الجيش العربان وكانوا ينهبون ما يجدونه من أغنام وماشية لغذائهم ، ووصلوا إلى جبل صغير يقال له أزبينات يقع على شاطئ نهر اتبره وتابعوا مجرى النهر جنوبا حتى وصلوا مكاناً يدعى السالة بعد أن فارقوا مجرى النهر ثم انتهوا إلى جبل كسلان وجبل السوس وهذا حد بلاد التاكه من الحبشة ، ووصفوا أرضا كثيرة الأشجار ولعلها دلتا القاش وقاتلوا قوما يدعون هلنكه ولعلها تحريف للحلانقة . ثم رجعوا إلى نهر اتبره إلى الجبل الذى سموه أربينات ودخلوا بلاد الأبواب وعندما استدعوا ملكها خاف من دخول المعسكر وأرسل لهم مائتى رأس من البقر والأغنام وكمية من الذرة ولم يكتف الجنـــد بذلك بل نهبوا ما صادفوه فى طريقهم من الذرة ثم توجهوا لأرض دنقله خلال أرض كثيرة الأشجار والأفيلة والقرود والنسانيس والوحش الذى يسمى المرعفيف (المرفعين وهو الذئب) ووجدوا فى دنقلا ملكها عبد الله برشنبو وزودهم هذا ، وبعدها توجهوا إلى أسوان ثم قوص . قد نستطيع أن نعين الأماكن التى مروا بها فى هذه الحملة وأن نصحح التحريف فى الأسماء ولكن الغابة الكثيفة التى تسكن فيها الفيلة والوحوش بين الأبواب ودنقلة قد لا نهتدى إليها .

أول ملك نوبى مسلم

مات أماى قتيلا حسب بعض الروايات سنة (١٢١١) ولعل اغتياله كان نتيجة حماس بعض المتحمسين لدينهم وقوميتهم لمــا رأوا خضوعه

بالمماليك ، وخلفه على العرش أخوه كرنبس وإظهارا لولائه للمماليك سافر للقاهرة حاملا الجزية والبقط . وعندما تثبتت أقدامه راودته نفسه بالتخلص من التبعية المملوكية فامتنع عن أداء الجزية سنة ١٣١٥ م وصادف هذا أن بلغ الملك سن الرشد وأرسل على التوحلة إلى بلاد النوبة لم تنجح فى القبض على كرنبس لأنه لجأ لبلاد الأبواب وكالعادة لجأ المماليك إلى اختيار ملك جديد من الأمراء النوبيين الذين كانوا فى القاهرة آنذاك ومنهم عبد الله برشمبو الذى أسلم وحسن إسـلامه فى سنة ١٣١٦ م . وعندما علم كنز الدولة وهو ابن أخت كرنبس الهارب طالب بأن يجلس على عرش المملكة حسب تقاليد النوبيين بأن ينتقل الملك إلى ابن الأخت ، وأيده خاله كرنبس فى ذلك بأن وصى عليه لا سيا وأن نية السلطان اتجهت إلى تعيين ملك مسلم فكنز الدولة يستوى مع برشمبو فى الإسلام ويزيد عليه بأنه ابن أخت الملك . غير أن السلطان أصر على تثبيت برشمبو واحتجز كنز الدولة ومنعه من العودة لبلاد النوبة . أما كرنبس فيروى أن ملك الأبواب قبض عليه وسلمه لجنود السلطان . وهكذا تربع على عرش مقرة المسيحيـة أول ملك مسلم .

كنز الدولة

لأمر ما لم يستقر عبد الله برشمبو فى عرشه ولم يعترف به النوبيون لأنه حسب رواية النويرى غير قواعد البلاد وتكبر على رعيته وعاملهم بغلظة ، غير أن نهايته كانت على يد كنز الدولة الذى أفرج عنه من الاعتقال فى القاهرة ولم يكن راضيا منذ البداية على تعيين برشمبو لأنه يرى فى نفسه اللياقة من حيث إنه سلالة أمراء من المسلمين وزاد على ذلك أنه ابن أخت الملك ووصل إلى الدر سنة ١٣١٧ م والتف حوله النوبيون هناك ونادوا به ملكا عليهم ، ويبدو أن العرب فى المنطقة ناصروه أيضا وتقدم جنوبا وحارب برشمبو وهزمه واعتلى العرش ولكنه لم يضع تاج الملك على رأسه متظاهرا بإكرامه وتعظيمه لأخواله ، ولكن الراجح أن التاج يحمل علامة الصليب

ولا يليق به وهو مسلم أن يحمله على رأسه . وماكان للسلطان الناصر آن يعترف بهذا الملك الذى وصل إليه كنز الدولة بدون تأييد الدولة المملوكية ولذلك أطلق سراح ابرام أحد إخوة كرنبس وطلب إليه أن يقبض على ابن أخته بالحيلة ووعده بإطلاق سراح أخيه وإعادته لعرشه . وفى دنقلا خرج كنز الدولة طائعا ويروى أنه سلم إليه الملك وسارا معا شمالا لحث النوبيين على طاعة ابرام ؛ غير أن الخال قبض على ابن أخته وأرسله مقيدا إلى القاهرة ، وقبل أن يغادر بلاد النوبة فى طريقه للقاهرة مات ابرام والتف النوبيون مرة أخرى حول كنز الدولة ولبس هذه المرة التاج ومارس حقوقه كملك سنة ١٣١٧ م . وبعث الناصر بحملة جديدة سنه ١٣٢٣ م ؟ تمكنت من تنصيب كرنبس ملكا بعد أن هرب كنز الدولة من دنقلة . ولكن العرش كان على أسس واهية حيث استرجعه كنز الدولة بمجرد مغادرة الحملة لدنقلة .

يتضح من هذه الأحداث التى سردناها منذ أن بدأت علاقة المماليك ببلاد النوبة أن استقلال دولة المقرة النوبية بدأ يضمحل ولم يكتف المماليك بعلاقة دفع البقط كما اكتفى سلفهم من الدول الإسلامية فى مصر بل فرضوا جزية وكان لنفوذهم العامل الفعال فى تنصيب الملوك وكان النوبيون يحاولون التملص من سيطرة المماليك كلما سنحت لهم فرصة حتى أولئك الملوك الذين تربعوا على العرش بنفوذ وحماية المماليك . ويبدو أن الدولة المملوكية ماكانت ترضى عن استقرار العرب فى بلاد النوبة لأن ذلك ظهر فى العهود التى أخذها ملوك النوبة على أنفسهم ولذلك كان عداؤهم لبنى الكنز وتفضيل سلالة الملوك الأصليين عليهم . ومع ذلك تسرب العرب واستقروا فى بلاد النوبة إما من تلقاء أنفسهم أو البقاء فى البلاد عقب كل حملة مملوكية جردت على بلاد النوبة . وكانوا عونا وعضداً لدولة بنى كنز فى نضالها ضد المماليك واستمر دخول النوبيين فى الإسلام كلما زاد اختلاطهم

بالعرب وكلما زار النوبيون الذين يعملون فى مصر أوطانهم ، وتقلص نفوذ المسيحية لأن الحصار أحكم على منافذها على البحر الأحمر وفى حدود مصر وضعفت علاقتهم بمصادر تعاليمهم الدينية فى مصر ، بل إن القساوسة بلاد النوبة آثروا السلامة وخذلوا ملوكهم الثائرين على المماليك فى بعض الأحيان فلا غرابة إذا ما زالت المسيحية منها إلا القليل جدا فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبعدها زالت تماما .

زوال الملك الموحد

للنوبة تقاليدهم القديمة العريقة فى الملوكية ، وقد يتنافر أفراد البيت المالك فيما بينهم من وقت لآخر ، غير أن الملك ما زال موحدا حتى إذا ما اعتلى بنو كنز العرش وعمرت بلاد النوبة بكثير من القبائل العربية ثارت العصبيات القبلية وثار الزعماء على الملك وأنشأوا إمارات صغيرة مستقلة وصارت الوحدة القبلية تطغى على رابطة الدين والإقليم ، ولم نعرف على وجه التحديد متى زال الحكم الموحّد فى بلاد النوبة ولكن عند تغلب الفونج على مملكة علوة فى الجنوب فى بداية القرن السادس عشر لم يجدوا فيما كان يعرف قبلا بمملكة المقرة أية سلطة مركزية تبسط نفوذها على الإقليم بكامله بل وجدوها وحدات قبلية أو إقليمية صغيرة وهذا من تأثير القبائل العربية . ويبدو أن بنى كنز نقلوا مركز نشاطهم إلى النوبة السفلى لأن المصادر تروى سلسلة من حوادث المعارك بينهم وبين المماليك فى أسوان وفى النوبة السفلى . وفى أوائل القرن الخامس عشر نسمع عن نشاط قامت به قبيلة هوّارة ، وكانت تسكن صعيد مصر ، وهاجمت أسوان حيث كان بنو كنز مسيطرين عليها وهزموهم وتقدمت جنوبا فى أرض النوبة . وبتقلص الحكم المركزى فى جهات دنقلة وبضعف سيطرة المماليك على أسوان سنحت الفرصة لقبائل عربية أن تتسرب إلى بلاد السودان أمثال جهينة وفزارة وتعمقوا فى السودان الأوسط وبعضهم إلى الغرب .

مملكة علوة

عندما زالت مملكة مروى على يد عيزانا ملك اكسوم ندخل فى حقبة غامضة لا نتبين فيها ما حل بأشلاء هذه المملكة ؛ ولعل مروى كانت تنحدر

وتتداعى عندما خربتها جيوش أكسوم وفرقت شملها ، ويحتمل أن البعض من أمرائها والطبقة الحاكمة فروا غربا نحو كردفان ودارفور وأن بعضهم ذهب إلى ما وراء دارفور غربا حيث تشعر قبيلة اليوروبا فى منطقة نيجريا الغربية أن أسلافهم تحدروا من مروى ويقوم بعضهم ببحوث فى هذا الصدد ، ولكن أفراد الشعب لا بد وأنهم احتملوا هذه الهزة وبدأوا يزاولون حياتهم من جديد ويقفز بنا الزمن قفزته حتى إذا بدأنا نسمع عن نشاط التبشير المسيحى فى بلاد السودان عرفنا أن هناك مملكة تدعى علوة وعاصمتها سوبا الشهيرة جنوبى الخرطوم بقليل على الضفة الشرقية للنيل الأزرق ولها منطقة شمال الخرطوم تعرف بالأبواب ، والظاهر أنها كانت أكبر الأقاليم التابعة لمملكة علوة ولا بد وأنهم ورثوا حضارة مروى المتداعية .

وعندما دخلت الجيوش الإسلامية مصر وبدأت المصادر العربية تصف لنا طبيعة وحوادث العلاقات بين الدولة النوبية الشمالية المعروفة بمقرة ، تذكر لنا من حين لآخر علوة وخاصة إقليمها الشمالى المعروف بالأبواب ، وفى كل الحالات التى تذكر علوة أو جزءها الشمالى يتبين لنا أنهم يودون المصالحة والمسالمة ولا يريدون الاصطدام بقوة الدولة الإسلامية فى مصر. ويصف لنا المقريزى نقلا عن ابن سليم الاسوانى مملكة علوة بأن سوبا عاصمتهم تقع شرق الجزيرة الكبرى بين البحرين وفيها « أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة وأعظم جيشاً وعنده من الخيل ما ليس عند المقرى وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التى مثل الأرز منها خبزهم ومزرهم واللحم عندهم كثير لكثرة المواشى والمروج الواسعة حتى إنه لا يوصل الى الجبل (الصحراء) إلا فى أيام وعندهم خيل عتاق وجمال

صهب عراب ودينهم النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة وكتبهم بالرومية (اليونانية) يفسرونها بلسانهم وهم أقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولاينكرون ذلك عليه يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش فليكن أمره وهو يتوج بالذهب والذهب كثير فى بلده » .
ووصف ابن سليم أن بعضهم يعترف بوحدانية الله « ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب ، ومنهم من لا يعرف الخالق ويعبد الشمس والنار ، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة » .

وصف الحضارة علوة

يتضح من وصف ابن سليم بإمكانيات علوة التى تتفوق على المقرة وهذا يؤيده الواقع الجغرافى الذى لا يتغير كثيرا ، فاتساع رقعة علوة وهطول الأمطار فيها وتوفر المراعى والزراعة المطرية يجعلها من الناحية الزراعية والرعوية مجالا حيويا لحشود القبائل العربية المتدفقة من الشمال ، وطبيعة أراضى علوة تناسبهم أكثر من رقعة دنقلا الضيقة ومسيحيتهم حتى عند الذين اعتنقوها من السكان لم تكن بدرجة من التعصب تجعلهم يقاومون هذا الزحف العربى المتدفق وبعضهم لا يدين بالمسيحية أو يمزج بينها وبين الوثنية ،وفوق كل ذلك فأرض الله واسعة لا يشعرون بضيق أو منافسة بالوافدين عليهم ولا سيما أعراب البادية ، لأنهم يحتلون أماكن خالية أو شبه خالية من السكان إذ المعروف عن الحضارات التى سبقت دخول العرب أنها مستقرة لا بدوية متنقلة . وهذه الصورة التى رسمها لنا ابن سليم قد تتعدل نوعا ما بالحفريات التى سيقوم بها الأثريون فى هذه المنطقة .

تدهور علوة

والظاهر أن انتشار القبائل العربية فى السودان الأوسط وسقوط المملكة المسيحية وقيام دولة إسلامية فى مقرة سنة ١٣٢٣ ميلادية قطع الاتصال بين الكنيسة المسيحية فى علوة وبين مصدر إرشادها فى مصر ، وكان لأثر

ذلك أن أهملت الطقوس الدينية وهجرت الكنائس وتداعت وخاصة إذا علمنا أن معظمها بنى من الطين ، ويحتمل أن العرب عندما اشتد ساعدهم فى تلك الأقاليم قاموا باعتداءات على السكان وسبوهم ، ولو أنه لم يصلنا نص صريح ، إلا أنه قياسا على ما قامت به بعض القبائل العربية من اعتداءات فى جهات إفريقية أخرى وعلى شعب إسلامى إفريقى لا يستبعد مثل هذه الاعتداءات إذ وردت شكوى من سلطان برنو إلى السلطان الظاهر أبى سعيد برقوق سنة ١٣٩٢ ضد بعض الأعراب قال فيها : « فإن الأعراب الذين يسمون جذاما وغيرهم قد سبوا أحرارنا من النساء والصبيان وضعفاء الرجال وقرابتنا وغيرهم من المسلمين . . . وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها فى بلد برنو كافة حتى الآن وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ويبيعونهم لجلاب مصر والشام وغيرهم ويختدمون ببعضهم . . . »

وصف لعلوة فى آخر أيامها

وعندما تقارن الصورة التى رسمها لنا ابن سليم فى أوائل العهد الفاطمى بمصر بصورة أخرى رسمها فرنسسكو الفاريز البرتغالى فى أوائل القرن السادس عشر يتضح لنا ما آلت إليه حالة الكنيسة المسيحية فى علوة يقول الفاريز : « إن أولئك النوبيين يجهلون دينهم فلا هم بالمسيحيين ولا هم بالمسلمين أو اليهود، ويقال إنهم كانوا على النصرانية ، غير أنهم فقدوا دينهم ولم تبق لهم عقيدة ويأملون أن يكونوا مسيحيين » وعندما وصلوا هذه الحالة من الجهل بتعاليم دينهم ولم يتمكنوا من الحصول على قساوسة من الإسكندرية بعثوا إلى نجاشى الحبشة سنة ١٥٢٢ م ليرسل لهم قساوسة يرشدونهم إلى دينهم ، ولم يتمكن النجاشى من تلبية هذا الطلب حين خاطبهم قائلا : « إنه يعتمد على البطريرك فى بلاد المسلمين فى إرسال « أبونا » فكيف يعطيهم من يتفضل بهم عليه غيره » . وأضاف الفاريز رواية سمعها من بعض الأحباش أنه منذ وفاة أسقف علوة من زمن بعيد لم يجدوا

من يخلفه بسبب الحروب من القبائل العربية فى النوبة الشمالية وبذلك تركت كنائسهم بدون رعاية ونسوا نتيجة لذلك كل شىء عن المسيحية ، وذكر حنا السورى الذى زار علوة فى أخريات أيامها هذه أن بها ١٥٠ كنيسة قديمة تحمل جدرانها صور السيد المسيح والعذراء فإذا كانت الأرقام صحيحة فإنه يظهر لنا بجلاء عدد ما تهدم منها ، إذ يذكر أبو صالح الأرمنى حوالى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أنها كانت نحو ٤٠٠ كنيسة .

الحالة قبيل تأسيس دولة الفونج

بالرغم من أنه لا نصوص لدينا تروى لنا حالة السودان قبيل تأسيس دولة الفونج إلا أننا مما ورد ذكره سابقا ومن طبيعة الأرض ومن مسلك القبائل العربية ومن حالة السكان الاجتماعية والدينية قبل تغلب العرب نستطيع أن نرسم صورة لحالة السودان آنذاك . فنى مقرة تأسس حكم إسلامى واختلط العرب بالنوبة وزالت تقاليد الملك والحكم التى كانت على أساس إقليمى لا قبلى ولكن الحضارة النوبية تمكنت فى كثير من إقليم مقرة على الحفاظ بطابعها التقليدى حيث قبلوا الإسلام دينا ولكنهم أبقوا على لغتهم وتأقلم العرب الذين شاركوهم الديار واعتناق النوبة للإسلام أخرجهم من العبودية لملوكهم وساوى بينهم وبين إخوانهم العرب فى المركز الاجتماعى . غير أن طابع النعرات القبلية كانت له الغلبة فى أسلوب الحكم إذ انقسمت البلاد إلى إمارات دون حكم مركزى قوى موحّد . وفى أقاليم علوة تكاثر العرب وتغلبوا عدديا على السكان الأصليين واعتنق شعب علوة الإسلام ولم يكونوا كلهم على دين المسيحية ومن كانوا على هذا الدين جهلوه والإسلام أنقذهم من العبودية لملوكهم وتغلبت العربية على اللهجات المحلية . وفى إقليم البجة أيضاً تفاعت العناصر الأصلية مع العناصر الدخيلة وصار الإسلام دين الجميع إلا أنه كما حدث فى كثير من أقاليم مقرة اعتنق البجة الإسلام وامتزجوا

مع العرب غير أنهم احتفظوا بطابعهم التقليدى ولغتهم وتأقلهم الذين كانوا من أصل عربى . والعربى فى كل مكان حلّ به يحتفظ بنسبه لقبيلة عربية ومهما ابتعد من موطنه الأصلى فإن قوميته العربية أولا وقبيلته أو البطن من القبيلة ثانيا ، تاريخ يتلقاه الأبناء عن آبائهم ويسردونه لأبنائهم من بعدهم وحينما تركزت تلك القبائل فى مواطنها وامتزجت واختلطت بالسكان الأصليين الذين اعتنقوا الإسلام أصبح لامكان لرجل لا ينتمى لقبيلة معروفة ، والتف جميع السكان حول زعامة القبيلة المتغلبة فى إقليمهم وانصهروا فيها ، وبمرور الزمن ما كانوا يختلفون عن أفرادها وبذلك تكونت المجموعات العربية المختلفة فى مواطنها الحالية فى السودان الأوسط وتكونت إمارات ومشيخات عديدة كل منها مستقل عن الآخر عندما بدأ الفونج يبسطون نفوذهم على البلاد .

دولة الفونج الإسلامية

عمارة دونقس ١٥٠٤ م

حوالى أوائل القرن السادس عشر الميلادى وفى فترة الغموض وقلة المصادر عن أخريات مملكة علوة أو العنج كما يسمونها فى السودان ظهرت دولة إسلامية يرأسها الملك عماره دونقس من مجموعة تدعى الفونج : وبالرغم من أن هذه الحقبة من تاريخ السودان قريبة منا نسبيا فإن مصادرها قليلة ومشوشة والعهد الذى سبقها فى علوة المسيحية كان أشد غموضا . وهناك روايات محلية بعضها يلقنه الآباء للأبناء وخاصة ما كان متعلقا منها بأيام القبائل ورجالها المشهورين وبعضها دونت فى فترات متأخرة عن روايات سماعية ونقلها آخرون تناولوها بالحذف والإضافة وحتى أول سائح أجنبى دخل مملكة سنار فى أيامها الأولى وهو داوذ روبينى ترك لنا روايات مشوشة مضطربة فيها فجوات وفيها أسماء لأماكن وشخصيات يصعب تحقيقها وانطباقها على الأسماء المعروفة لدينا واختلف الباحثون فى تحديدها .

وثار جدل لم ينته بعد حول أصـــل الفونج ومن أى مواطن دخلوا السودان وفى أى وقت دخلوا فى حلف مع العبدلاب ومملكة سوبا التى قامت على أنقاضها دولة الفونج لم يتضح لنا على وجه التحديد هل كانت نهايتها تدريجية أم كانت بهجوم على عاصمتها سوبا وتخريبها على حسب الروايات ، والروايات الوطنية تفقد أحيانا الحاسة الزمنية مما يجعل مهمة الباحث بالغة الصعوبة ومع ذلك فلابد لنا من الاعتماد على مصادر مكتوبة ومدونة عندما نبدأ قصة التأسيس الأول كدولة الفونج ، وهنا يبرز لنا مصدران رئيسيان فى هذا الصدد أولهما مخطوطة للشيخ أحمد كاتب الشونة الذى عاصر أواخر عهد الفونج وأوائل عهد الحكم التركى المصرى وعمل حيناً فى شونة الخرطوم ، ولذلك سمى بكاتب الشونة ، ومخطوطته تسرد تاريخ الفونج منذ تأسيسها وتذكر عن ملوكها الأوائل نبذا قصيرة ولكن عندما تمتد القصة إلى

عهده تزدحم الحوادث ويطيل فى سردها ، ويبدو أنه اطلع على الكشف الذى يحوى ملوك الفونج وتاريخ توليتهم ، وهذه الروايات الوطنية تقول بانقضاء دولة العنج فى سوبة على يد عمارة دونقس وحليفه عبد الله جماع من عربان القواسمة ؛ والمصدر الثانى هو داود روبينى يهودى شرقى زار السودان سنة ١٥٢١ وهبط أرض السودان فى ميناء سواكن وسافر فى قافلة مكونة من ٣٠٠٠ بعير وجهتها أرض كوش ولم يتضح لنا الطريق الذى اتخذته القافلة ولكن الأرجح هو الطريق التقليدى إلى النيل فى بربر أو ضواحيها ومنها توغل فى البلاد حتى حلّ ضيفا على عمارة دونقس فى مكان يدعى Lamul ولعلها لولو التى يذكرها الشيخ أحمد على أنها فى الصعيد الأعلى وجنودها لم نفوذ فى سياسة دولة الفونج لأنهم حسب ما يبدو كانوا دعامة جيش عمارة الذى أسس به مملكته وذكر أن الملك عمارة يقيم على النيل ومن ذلك يتضح لنا أن عمارة فى سنة ١٥٢١ كان ملكا مؤسسا لدولة إسلامية وأن مقره كان على ضفاف النيل .

[تنقلات عمارة فى ملكه]

كان عمارة أسود اللون حسب ما شاهده روبينى ويحكم السود والبيض وكان من عادته التنقل باستمرار فى أرجاء مملكته ، وبقى روبينى فى صحبته نحوا من عشرة أشهر لم يقم الملك خلالها بل فى طواف مستمر ، تحرسه كوكبة من الفرسان تزيد على الستين تحت إمرة أبى كامل وفى كل مرحلة تبنى الرواكيب للاستراحة ، وفى حاشية الملك عدد من الأشراف آل البيت ، ويصف ما يملكه عمارة من الإبل والمواشى والأغنام ويذكر وجود التبر فى أرضه وحلى نسائه الذهبية . ويتضح لنا من هذا الوصف أمران : أولهما أن عمارة بسط نفوذه على أراضيه الشاسعة لتنقلاته ومروره على رعاياه بدلا من أن يقبع فى موضع واحد وثانيهما أن ظهور دولة إسلامية فى مجاهل إفريقيا جذب إليه رهطا من روّاد المسلمين وبعضهم كان من آل البيت وبعضهم ادعى ذلك . وكان الملك يتلقاهم بالترحاب والتكريم

ويحتمل أن روبيني نفسه ادعى الإسلام والنسبة لآل البيت ولا نجد تفسيرا لما كان يتمتع به من ترحيب وإكرام فى السودان وخاصة من الملك غير ذلك .

روبيني يغادر عمارة

ومن روايته نستدل على أن روبيني شعر بأن أمره قد ينكشف حيث يذكر حضور شريف من مكة ومعه كتاب ولعله يحوى الأنساب وربما يكون هو الإمام السمرقندى الذى سوف نلتقى به فيما بعد . أخبر هذا الشريف المكيّ الملك بأن روبيني دعى ودافع عن نفسه ولم يمسه الملك بسوء ولكنه صمم على مغادرة البلاد وسمح له الملك وأمده بخبير وفرسين وبعثه لأمين خزائنه المقيم بسنار . وصلها بعد ثمانية أيام اجتاز خلالها حسب ما يروى أنهارا من الطين ولعله سافر فى أخريات فصل الأمطار . ولم يمكث إلا يوما واحدا على الأرجح فى سنار وغادرها إلى سوبا بعد رحلة استغرقت خمسة أيام ووجدها خرابا ، ومن كانوا هناك يقيمون فى رواكيب حولها . وبعد مسيرة عشرة أيام وصل مملكة الجعل وهى تابعة لمملكة سوبا حسب ما يروى ، وتحت حكم عمارة ؛ وملك الجعل يدعى أبو عقرب . وفى جبل أم على كما يعتقد قابل زعيما كبيراً يسمى عبد الوهاب الذى نصحه بأن يسافر إلى دنقلة والظاهر أنه اطمأن إلى عبد الوهاب حيث مكث ستة أيام ولكنه استأنف سفره عندما حضر مبعوثون من ملك سنار منادين عبد الوهاب من الشاطئ المقابل حسب ما يروى روبيني بأن يبقى حتى تصله هدايا الملك من رقيق وإبل ، وفى الحال امتلأت قرب المياه ووضعت على ظهور الإبل ورافقه عبد الوهاب نفسه عبر الصحراء حتى وصلوا دنقلة . والغريب أنه لا يذكر أنه مرّ على قرّى وفى هذا دلالة واضحة على أن مشيخة العبدلاب لم تؤسس بعد ، ولنا رجعة لموضوعهم ، ويؤكد لنا روبيني خراب سوبا ووجود مملكة جعل وأنها تابعة لسوبا وتحت إمرة عمارة . هل نستنتج من ذلك أن مملكة الجعليين حلت محل مملكة الأبواب وعندما سقطت سوبا دانت المملكة لحكومة الفونج التى حلت محل سوبا ؟ هناك احتمال كبير .

حدود الفونج الشمالية

بالرغم من مذكرات روبينى المشوشة والتى أملاها من الذاكرة عند وصوله لأوربا يتضح لنا أن بلاد سكوت والمحس خارجة عن نطاق نفوذه وهذه تؤيد الرواية القائلة بأن قتالا نشب بين قبيلة الجوابرة منطقة نفوذه الفونج وقبيلة الغربية بمعونة الأتراك كانت نتيجته الحد الفاصل بين حكومة مصر الجديدة وحكومة الفونج الناشئة أيضاً وعند مرور روبينى بمنطقة الحدود هذه لاحظ الحد الفاصل ، وهذا يوافق الأحداث فى مصر حيث تغلب السلطان سليم العثمانى على آخر دولة للمماليك فى مصر سنة ١٥١٧ . وتقول روايات منطقة سكوت والمحس أن الجوابرة كانوا على وشك الانتصار على قبيلة الغربية وعندما شعروا بقوة الجوابرة استنجدوا بالأتراك فى مصر فخفت سنة ١٥٢٠ سرية جند من البوسنة تحت قيادة حسن قوسى وتمكنوا من التغلب على الجوابرة حيث تقهقروا إلى إقليم دنقلا وأصبح حسن قوسى حاكما شبه مستقل على بلاد النوبة إلا أنه يدين بالولاء والطاعة للسيادة العثمانية فى مصر ويرسل لهم جزية وعند وفاته تولت ذريته حكم المنطقة من بعده وجعلوا عاصمتهم الدر وعرفوا بالكشاف الغز .

علاقة الفونج بالعثمانيين

وصل نفوذ بنى عثمان كما قدمنا إلى بلاد سكوت والمحس وجاوروا الفونج من جهة الشمال واحتلوا سواكن منفذ بلاد السودان الوحيد إلى الخارج وخاصة لتأدية فريضة الحج ولا بد والحالة هذه أن ينزعج عمارة من هذه القوة الجديدة الفتية والتى اتخذ سلطانها لقب خليفة المسلمين وبديهى أن تساوره الشكوك من نيات العثمانيين إذ ربما بقوة الاندفاع هذه وبلقب خليفة المسلمين يتوغلون فى أراضيه التى لم يمض وقت طويل على بسط نفوذه عليها : وهنا تأتى رواية نعوم شقير التى لم يبين لنا مصدرها بأن الإمام السمرقندى أشار على عمارة بأن يبعث إلى السلطان سليم ينبئه فيها بأنهم يدينون بالاسلام وأنهم ينحدرون من قبائل عربية

صميمة ، وتعزيزا لهذه الدعوة بعث له بأنساب القبائل التى تقطن السودان وأن هذه الوثائق محفوظة فى استنابول . ولا نعرف عن الإمام السمرقندى أكثر من هذا ولعله إن صحت الرواية من أولئك الرهط من المسلمين الذين وفدوا إلى عمارة عندما ترامى إليهم تأسيس دولة إسلامية فى قلب إفريقيا ولعله هذا الشريف الذى ذكره روبينى ومعه كتاب من مكة وكان سببا فى رحيله إذ اتهمه بأنه دعى . وهذه الوثائق لم تظهر فى محفوظات استانبول ولعلها محفوظة فى القسم العثمانى بمحفوظات القلعة فى القاهرة .

أصل الفونج

وقصة الأنساب هذه تقودنا إلى أصل الفونج : وهم كبقية معظم سكان السودان الأوسط والشمالى يرجعون بأصولهم إلى العرب وإلى بنى أمية بالذات . والمصادر العربية تذكر أن بعضا من أمراء بنى أمية هربوا من مصر إلى بلاد النوبة والبجة عندما خرّ صريعاً فى مصر مروان ابن محمد آخر خليفة لهم ، وكانت سياسة بنى العباس ترمى إلى إبادة البيت الأموى . فلا غرابة إذا ما توغل بعضهم فى مجاهل أفريقيا وقفارها خوفاً من سياسة الإبادة هذه . يروى أن أميراً من هؤلاء وفد على ملك النوبة وناقشه فى مسألة خروج المسلمين على قواعد دينهم وطرده إلى مصر حتى لا تحل اللعنة ببلاده بقدوم هؤلاء الذين لم يراعوا قواعد دينهم . والآثار فى منطقة البجة كشفت عن مسجد فى سنكات وعن آثار قبور إسلامية منتشرة فى الطريق المؤدى إلى أرتريا . ويمتد الزمن منذ سقوط الدولة الأموية إلى حين قيام دولة الفونج إلى نحو ٧٥٠ سنة . فلا بد أن زواج هؤلاء الأمراء الفارين بالإفريقيات أثر فى ألوانهم وطباعهم وتقاليدهم وجعل بعض الباحثين يشكون فى هذه النسبة ومنذ أن نشر جيمس بروس كتابه متضمناً أخبار سنار فى رحلته لاكتشاف منابع النيل بدأ الجدل بمختلف النظريات عن أصل الفونج .

نظرية أصل الفونج من الشلوك

أوّل من نسب الفونج إلى الشلك هو جيمس بروس السائح الاسكتلندى الذى دوّن معلوماته من نقاط غير مرتبطة بعضها ببعض ويرجح أنه أخذها من أحمد سيد القوم ونستطيع أن نتخيل أحمد سيد القوم يسرد لبروس معلومات مبعثرة عن الأحداث الهامة فى تاريخ الفونج منذ تأسيس دولتهم إلى سنته التى يروى فيها أحاديثه هذه ، ونلاحظ مدى مقدرة بروس عن تفهم لهجة سيد القوم وهى تختلف عما درسه من اللغة العربية ، ولحسن الحظ أن مذكراته التى دون فيها رءوس الموضوعات والتى نسج منها قصة متصلة فيما بعد فى كتابه قد نشرت وها هى حسب ما دونها كروفورد فى كتابه « مملكة الفونج فى سنار » : مشايخ أعالى النيل الأزرق مواطنون من ذاك الإقليم وهم فونج وفدوا من نفس الإقليم الذى جاء منه شنقالا (Shangala) الذين طردوا العرب تحت زعامة ود عجيب . فازوغلى وقباهى مواطن الفونج . ملك الفونج من شنقالا . ' الاسم الخاص شلك ' ؛ هؤلاء يقطنون فى ' ثلاث جزر رئيسية ' على النيل الأبيض وينهبون بواسطة قوارب فى أعالى النيل الأبيض . وهم كثيرو العدد يأتون غالباً من ثلاث جزر مسيرة يوم واحد صعيد الليس وآخرون صعيد هذه الجزر . ومدنهم تقع على الضفةالغربية للنهر وعددهم كثير . بين النيل الأزرق والنيل الأبيض ، جنس آخر من النوبة ، وهؤلاء هم النوبة الأصليين وموطن الذهب ، هؤلاء السود الآخرين أتوا من قبا ونوبا وفازوغلى ، وقبا ونوبا تقع نحو آخر حدود كوارا فى الإقليم الحار المنخفض جنوب شرق تلك المقاطعة . ولم تعرف عن بروس الأمانة والدقة فى سرد أخبار رحلته وخلط بين حوادث منفصلة تمام الانفصال عن بعضها البعض . فقد ورد فى مذكراته هذه : ذكر أولاد عجيب ويقصد به الشيخ عجيب المانجلك ثانى مشائخ العبدلاب وليس من المعقول أن يكونوا فى الوجود عند تأسيس دولة الفونج لأنه إذا صحت رواية الحلف بين عمارة وعبد الله فالأخير هو مؤسس مشيخة

العبدلاب وليس أحفاده . وفى تاريخ الفونج حروب مع الشلك ومع النوبة وقد أحضر منهم عدد كبير كسبايا أسكنهم الملك فى قرى بالقرب من سنار وبروس نفسه زارهم ووصف حياتهم . ويتضح من ذكر فازوغلى وقبا أن الفونج كانوا فى أول أمرهم هناك يؤيده أن عماد جندهم من تلك المناطق ولو صح أن لامول التى ذكرها روبينى ولولو ، التى ذكرها الشيخ أحمد كاتب-الشونة هما إسمان لمكان واحد مع تحريف إحداهما لأشارت كل الدلائل على أن موطن الفونج الأول والذى منه بسطوا نفوذهم هو إقليم فازوغلى .

نظرية الأصل من برنو

ويرجع أركل الفونج إلى مملكة برنو من رواية وردت فى تاريخ برنو تقول بأن ماى عثمان أحد أفراد العائلة المالكة أبعد من برنو سنة ١٤٨٦ وذهب إلى إقليم Malakad وهناك حكم الشرق والغرب لمائة سنة إلى أن فتح مملكته الأتراك ويعتبر أن مالكاد هذه هى المكادة وهو الاسم العربى للحبشة ويعتبرها أركل لإثبات نظريته مملكة سنار وعليه فإن ماى عثمان أو واحد من أبنائه هو المؤسس الأول لمملكة الفونج ونقطة الضعف فى هذه النظرية هى أن إقصاء ماى عثمان حدد له سنة ١٤٨٦ وأن مدة حكم مملكته حددت بمائة سنة ومعروف لدينا أن دولة الفونج ظلت قائمة لأكثر من ثلثمائة سنة وفوق كل هذا لم نسمع لا من الشلك ولا من السلالة الحاكمة فى برنو أن أحد أفرادهم أو مجموعة منهم قامت بتأسيس مملكة سنّار والفونج أنفسهم مطمئنون على أصلهم العربى الأموى مع الاعتراف باختلاط أسلافهم عبر القرون بالإفريقيين وهذا يفسر لهم سواد ألوانهم وتأقلمهم بالبيئة وهذا ينطبق على غيرهم من القبائل العربية فى السودان .

دور العبدلاب

الروايات المتداولة كما تمثلها مخطوطة الشيخ أحمد تجعل لنهاية حكم العنج وبداية عهد الفونج قصة تحالف بين عمارة دونقس وعبد الله جماع وباتحادهما انتصرا على العنج وخربا سوبا وأصبح عبد الله وكيلا لعمارة فى الجزء

الشمالى . ولكن داود روبينى فى رحلته لم يذكر أنه مر على قرّى عاصمة العبدلاب ولم يذكر مملكة بهذا الاسم، وقد ذكر مملكة آل جعل وملكها أبو عقرب . وهناك دليل آخر يرجح أن مشيخة العبدلاب قامت فى وقت متأخر عن قيام مملكة الفونج وهو أن الفونج حسب الروايات قامت دولتهم سنة ١٥٠٤ م ومؤكد أن الشيخ عجيب المانجلك مات فى معركة مع عدلان ملك الفونج فى سنة ١٦١١ م ومعنى هذا أن عبد الله وعجيب فيما بينهما حكما أكثر من مائة سنة . والمرجح أن هذا الحلف قام فى أخريات عهد عمارة وقد حكم نحو ثلاثين سنة وسبقته اتحادات على رأسها عبد الله أضفت عليه لقب جماع لأنه جمّع القبائل واستقر النظام على سيادة الفونج ووكالة العبدلاب من أربجى شمالا إلى الحدود مع النوبة وجنوب أربجى وشرق النيل الأزرق وجنوب الجزيرة إلى الحدود الأثيوبية يسيطر عليه الفونج مباشرة .

دكين
ود نايل
١٥٦٩ م

توالى على حكم مملكة الفونج بعد عمارة ثلاثة ملوك لم تذكر لنا المصادر ما يستحق التنويه به ولكن عندما تربع الملك دكين نرى فيه ملكاً أحدث تطورات هامة فى نظام الحكم . يقول الشيخ أحمد عنه : وهو من أفخر ملوك الفونج فرتب الدواوين أحسن ترتيب وجعل لهم قوانين مربوطة لا يتعداها أحد من جميع أهل مملكته وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً معلوماً وقنّن لمن عادته الجلوس بحضرته رتباً الأعلى فالأعلى فى جلوسهم أمامه وما زال شارعاً فى تمهيد دولته إلى أن توفاه الله تعالى سنة ٩٨٥ هـ » . ومن هذا النص يتضح لنا أن تقاليد تعيين المشايخ والرؤساء للجهات والقبائل المختلفة بدأت تنتظم من عهد دكين . ويبدو أن الشيخ عجيب المانجلك زعيم العبدلاب ووكيل الفونج فى قرّى أشرف على هذه التنظيمات وقام بدور فعّال فى إرساء قواعدها .

عدلان
ود اي
١٦١١ م

تتابع ملوك آخرون بعد دكين لا يسترعون انتباهنا حتى عهد عدلان حيث تذكر مخطوطة الشيخ أحمد عن النهضة الدينية فى عهده بذكر أسماء

رجال الدين والصالحين أمثال الشيخ إدريس ودالارباب والشيخ حسن ودحسونة والشيخ إبراهيم البولادى والشيخ محمد المصرى وتاج الدين البهّارى ولكن أهم حادثة فى عهده هى خروج الشيخ عجيب على الفونج والتقاء جيش الفونج مع جيش العبدلاب فى جريف كركوج على الأرجح وانهزمت عساكر عجيب ومات فى المعركة وفرّت عائلته إلى دنقلا ولكن بوساطة الشيخ إدريس ودالأرباب رجعت العائلة وأقام الملك عدلان العجيل أكبر أبناء عجيب شيخاً على قرى . وقصة الشيخ عجيب وخروجه عن طاعة الفونج ومجاهرتهم بالعصيان تؤكد لنا المكانة العظيمة التى وصل إليها والنفوذ الذى بسطه على كل الأراضى التى تقع تحت إمرته مباشرة وهى تضم قبائل عربية تعتز بأصولها وتمتاز بوعيها النسبى إذا ما قورنت ببقية أنحاء السودان وفوق كل هذا كانت فى تلك الأراضى نهضة تعليمية دينية عمادها بعض الرواد من أنحاء العالم الإسلامى ومن السودانيين الذين درسوا فى الخارج وخاصة فى الأزهر ومن أولئك الذين تلقوا علومهم الدينية على أيدى الفريقين . ويظهر لنا عجيب كشخصية تشجع هذا الاتجاه وتسهم فيه فقد بنى رواقا للسنارية فى المدينة المنورة وآخر فى الأزهر وأكرم العلماء والصالحين وأقطعهم الأراضي وقبل شفاعتهم . ورجل له مثل هذه المكانة ومنطقة لها هذا الوعى النسبى لا بد وأن يحاول التحرر من أية سيطرة عليه . فلا غرابة والحالة هذه أن يتمرد ويرفض الخضوع المتوارث لسلاطين الفونج ولكن الكلمة الأخيرة فى الحرب ليست للوعى ولا لقوة الشخصية بل لقوة الجهاز الحربى وهذا ما كان يتمتع به سلاطين الفونج ؟

النهضة الدينية

دون لنا مواطننا صاحب « طبقات ود ضيف الله » تراجم لأكثر من مأتين لروّاد العلوم الدينية من شريعة ومتصوفة وممن يجمع الصفتين والصورة تبدو واضحة من أن المسلمين قبل تأسيس دولة الفونج كانوا فى حاجة إلى مرشدين وتم لهم ذلك عندما أصبح الإسلام دين الدولة

الرسمى وسأقدم صورا خاطفة عن بعض هؤلاء المرشدين كما وصفهم صاحب الطبقات . يذكر عن الشيخ إبراهيم البولادى بأنه ولد بدار الشايقية ورحل إلى مصر وتفقه على الشيخ محمد البنوفرى وأخذ عليه الفقه والأصول والنحو ورجع لبلاده ليدرّس فيها خليل والرسالة وهو أوّل من درّس خليل ببلاد الفونج . وفى أخبار الشيخ إدريس ود الأرباب حدث جدل بين العلماء والصالحين عن التنباك والقهوة امتد إلى علماء الأزهر. وفى حلقة الشيخ صغيرون ألف طالب وتلاميذه صاروا شيوخ الإسلام . والمسلمى جمع بين العلم والعمل وتفقه على الشيخ عبد الرحمن بن جابر وهو أحد تلاميذه الأربعين الذين بلغوا درجة القطبانية . وأرباب العقائد شدّت إليه الرحال فى علم التوحيد والتصوف وزاد عدد طلبته على الألف من دار الفونج إلى دار برنو ، وألف كتابا فى أركان الإيمان وسمّاه الجواهر . والمضوى درّس الرسالة والنحو وعلم الكلام والأصول والمنطق وألف كتبا وسافر لسنّار للاطلاع على مكتبة الخطيب عمّار ودخل على الملك ففرق الديوان لأجله وقام إليه وعانقه وعاتبه وأغدق عليه المنح والعطايا . وقدم إلى السودان الشيخ تاج الدين البهارى من بغداد فى أوّل عهد الشيخ عجيب وقد نشر طريقة الشيخ عبد القادر الجيلانى وسلك عليه الطريق الشيخ محمد الهميم والشيخ بانقا الضرير وحجازى بانى أربجى ومسجدها وشاع الدين ولد التويم والشيخ عجيب نفسه والشيخ حسن ود حسونة المثل الأعلى فى الزهد والتقشف والكرم وسافر إلى سنّار فى ركب عظيم أدهش ملك الفونج .

بادى سيد القوم ١٦١١ م

بالرغم من انتصاره العظيم على الشيخ عجيب فإن الفونج خلعوا عدلانا وتولى بعده بادى سيد القوم واستعادوا نفوذهم وسيطرتهم على الأقاليم الشمالية التى حاول الشيخ عجيب أن يحرمهم منها فقد أكدوا سيادتهم على نقطة الجمارك فى دنقلا ونصيب الدولة من جمارك سواكن

يصلها بانتظام ولأول مرة نسمع عن بدء سوء العلاقات مع الحبشة مستقاة من مصادر حبشية ويبدو أن ملك الحبشة حاول معاملة بادى كتابع وذلك بمعاونة والد بادى المخلوع والمتلجئ بالحبشة ومما زاد فى الجفوة بين الفريقين أن نايل ود العجب فى الشرق تعدى على الحدود الحبشية ولم يرد بادى على احتجاج الإمبراطور وأن حاكما تابعا للحبشة لجأ إلى منطقة نفوذ سنار ومعه فرسانه ونحاسه وطالب الإمبراطور بإرجاع النحاس على الأقل ولم يرد بادى وغير ذلك من ضروب عدم التعاون . وتفسيرنا لهذا المسلك من بادى نحو الإمبراطور هو أن بادى خاف على ملكه من والده عبد القادر إذ أكرم الإمبراطور وفادته وأقطعه وربما يذهب خطوة أخرى بأن يمد له يد المساعدة فى استرجاع عرشه من ابنه . وتجمعت كل هذه الأسباب لتجعل الإمبراطور يفكر جديا فى غزو الأقاليم السنارية ولكن حوادثها لم تقع فى عهده بل فى عهد خليفته رباط .

الحروب الحبشية الأولى ١٦١٨-١٦١٩م

بدأت الاعتداءات الحبشية حسب ما ترويه مصادرها بمناوشات على الحدود أولا ثم بوضع خطة هجوم شاملة من أعالى النيل الأزرق إلى منطقة كسلا ووزع الجيش المعتدى على ثلاثة قطاعات . ففى جبهة القضارف قاموا بهجومين خاطفين لم يصلوا فيهما إلى نهر عطبرة ورجعوا بغنائم واكتفوا بذلك بعد أن فر سكان المنطقة داخل السودان . وجيش ثان توجه إلى دبركى ولكنه لم يصلها واكتفى بالغنائم . وجيش التاكا لا يذكر عنه إلا أنه دخل الإقليم ولم تصل للإمبراطور غنائم وربما استولى عليها قادة الجيش . وبعد حين يروى لنا خبر هجوم توغل فيه الأحباش فى السهول يهدفون هذه المرة إلى إخضاع ملكة اروما التى تتزعم قبائل بدوية ويظهر أن بها سوقاً كبيرة لقبائل نهر عطبرة وإقليم التاكا ووصل هذا الجيش إلى أهدافه وحصل على غنائم وأسلاب غير أن الملكة فاطمة تمكنت من الهرب واختفت . وعندما بعث لها قائد

الجيش منذرا بأنه سوف يبقى الشتاء بكامله فى منطقتها سلّمت نفسها له ، وأحضرت أمام الإمبراطور وعندما راعى ضعفها وكبر سنها عاملها برقة وخاطبها معاتبا إياها لامتناعها عن تأدية الضريبة التى درج أسلافها على تأديتها له . فأجابته بأنها لم تستقبل من يطلبها منذ أمد بعيد ، وفى هذا الأثناء خضعت لحكم الفونج . وعندما تم الاتفاق على تأدية الضريبة رجعت لبلادها معززة مكرّمة . هذه هى القصة كما ترويها مصادر الحبشة . أما مصادر سنار فصامتة إزاءها لأنه لم تكن فيها قصص بطولة لجيشهم وملوكهم أولا ولأنها فى الحدود وبعيدة عن السلطة المركزية ويجب والحالة هذه أن نسلم بقدر من المبالغة فى هذه الروايات الحبشية .

٨ بادى أبو دقن ١٦٤٥ م.

تولى بعد رباط ابنه بادى أبو دقن ويقول عنه الشيخ أحمد « وهو من ذوى الشجاعة والكرم والهمم العالية وقد غزا النيل الأبيض وفتك بسكانه المعروفين بشلك ، وغزا جبال تقلى الواقعة غرب النيل الأبيض بنحو مرحلتين وسبب غزوه لها أنه كان له صاحب سافر إلى تقلى فتعدى عليه ملك تقلى واستلب ما معه من الأرزاق ، فقيل له إن هذا الرجل صديق ملك سنار ، فقال إن ملك سنار إذا قصدنى لأجله وتجاوز باجة أم لمّاع فليفعل ما يفعل » وسمع بادى بالقصة وسار على رأس جيشه وعند وصوله أول الباجة ترجل هو وعساكره من خيولهم لاجتيازها على أقدامهم ، وبعد أن أصابهم التعب أشار أحد الجنود للرجل الذى رافقهم أن ينبئ الملك بأنهم اجتازوها ، وركب الملك بعد ذلك وركبت جنوده . وعند مشارف جبال النوبة بدأ بادى يقتل ويأسر فى النوبة حتى بلغ مقر ملك تقلى الحصين . وصار يقاتل الجيش الغازى بالنهار ويرسل لهم الأقوات بالليل . وتأثر بادى لهذه المعاملة الكريمة وقبل الصلح معه على جزية سنوية خاصة جعلته تابعا لمملكة سنار ، ورجع بسبايا جبال النوبة حيث أسكنها فى قرى حول سنار شرق وغرب النيل الأزرق ، كل فريق فى قرى

خاصة بهم سميت بأسماء جبالهم التى أتوا منها وأصبحوا جندا له وتناسلوا وتكاثروا فى قراهم هذه ، ويبدو أنهم أصبحوا عماد الجيش النظامى لمملكة الفونج .

عرف بادى أبو دقن بتدينه وإكرامه لأهل العلم والدين ومن عادته أن يبعث بهدايا إلى علماء الأزهر حتى عرف بينهم بكرمه وإكرامه لهم ، ودونت لنا قصائد فى مدحه وخاصة من الشيخ عمر المغربى بعضها يصل السبعين بيتا نجتزئ من إحداها بما يلى :

أيا ناهضا من مصر وشاطئ نيلها
وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير إن وافيت سنار قف بها
وقوق محب وانتهز فرصة الدهر
إلى حضرة السلطان والملك الذى-
حمى بيضة الإسلام بالبيض والسمر
هو الملك المنصور (بادى) الذى
له مدائح قد جلّت عن العد والحصر

واختط (بادى) جامعاً بسنار وقصرا للحكومة به أبواب عديدة كل منها مخصص لدخول أحد كبار الدولة ، ولكل منهم ديوان خاص للنظر فى شؤون الدولة التى تخصه مع الملك .

استقلال الشايقية

وفى عهده تم للشايقية استقلالهم من سيطرة ونفوذ الفونج والعبدلاب ، والقصة كما يرويها الشايقية أن عديلة فارسة شهيرة تركب فى طليعة الجيش حين يتقدم إلى ميدان القتال ولوجودها فى الميدان أثره السحرى فى استماتهم ، والظاهر أنها سنت للشايقية هذه العادة حيث تركب امرأة

مع الفرسان فى مقدمة الجيش لتحرضهم على القتال ، وقد فعلوا ذلك حين لاقاهم جيش إسماعيل بن محمد على . ولعديلة ابن يدعى عثمان ود حمد تزعم قبيلته أوى هاربا من وجه الشيخ الأمين ود عجيب صاحب السيادة بالوكالة على ذلك الجزء الشمالى من دولة الفونج . وأرسل الشيخ الأمين لعثمان يأمره بأن يسلم الهارب لرسوله أو يقتله . ولكن رد عثمان لم يكتف بالرفض وعدم الانصياع للأمر بل أجاب بأن للشيخ الأمين الحرية بأن يأتى بنفسه لأخذه إن استطاع .

وما كان لصاحب السيادة إلا أن يجهز جيشه لتأديب التابع المتمرد ، وعسكر على شاطئ النيل قبالة موطن عثمان ، وبدأ عثمان ، بخدعة الشيخ الأمين حيث ظلت خيوله القليلة ترد النهر لتشرب فى ألوان وصبغات مختلفة حتى خيل لرجال العبدلاب أن قوة عثمان الحربية كبيرة ، نتيجة للدلك رأى أن يطلب المفاوضة السلمية بدل الحرب ، وعبر عثمان النهر بمفرده وكان ود عجيب يلعب المنقلة مع أحد أتباعه حينما أهلّ عليهم عثمان من بعيد وعندما نزل عثمان من ظهر جواده عثرت رجله بالركاب وأسر ود عجيب إلى أحد أتباعه بأن الله سلّمه فى أيدينا فسمع شايقى كان فى المجلس هذه العبارة وصرخ قائلا بلهجة شايقية لم يفهمها العبدلاب « وحياة الربّ شرك أم حبيبة فى رقيبتك طب » ومعناها أن شرك الطير كاد يطبق عليك فما عليك إلا أن تنجوّ بنفسك . فأدرك عثمان ما يعنيه قول الشايقى وسرعان ما قفز على ظهر فرسه ورجع مسرعا إلى قومه .

وفى الليل البهيم عبروا النهر خلسة وربطوا على ظهور خيولهم حزما من القش الناشف والحطب وأشعلوا النيران فى المادة الملتهبة ووجهوا الخيول نحو معسكر ود عجيب وهم يغطون فى نوم عميق ، فألقت الذعر والاضطراب فى معسكرهم وهبّوا متفرقين مشتتين فى كل صوب ، وتركوا

زعيمهم دون أن تحدثه نفسه بالهرب ، فقبل الأمر الواقع وفرش فروته في انتظار الموت بكرامة وعزة حتى لا يروى عنه الجبن والفرار من الموت : ووقف عثمان على رأسه شاهرا سيفه موعدا إياه بالعفو والإبقاء على حياته إن هو اعترف باستقلال الشايقية . وهذه القصة قد يكون مبالغا فيها ، وقد تكون من نسج الخيال ، ولكن الحقيقة الواقعة هي أن قبيلة الشايقية تمتعت بالحرية والاستقلال عن سلطة الفونج والعبدلاب منذ ذلك الحين . وربما تكون هذه القبيلة شعرت بقوتها منذ وقت سابق وهي لبعد موطنها عن العبدلاب كانت في مركز يمكنها من إظهار هذه النزعة الاستقلالية . ومن روايات السائحين الذين زاروا السودان بعد ذلك الوقت يظهر لنا جليا أن الشايقية كان خطرا على طريق القوافل التي تعبر صحراء بيوضة من دنقلا .

النزعات الاستقلالية

ومن رواية استقلال الشايقية هذه ومن القتال الذي حدث بين الفونج والعبدلاب في عهد الشيخ عجيب المانجلك والذي انهزم فيه وقتل ومن المؤامرة التي دبرها فريق من الفونج بالاتفاق مع العبدلاب ضد الملك . ومن أيام القبائل التي يحفظها شيوخها ويروونها لأبنائهم وأحفادهم في مختلف جهات السودان ضد جيرانهم من القبائل الأخرى يتضح لنا جلياً أن الحكم في أيام الفونج لم يكن مركزياً موحداً . وعرفنا فيما سبق عن سقوط دولة المقرة النوبية أن القبائل العربية هناك أزالت هذا الحكم المركزي ، ورأينا إقليم دنقلة عند ما تأسست دولة الفونج منقسماً إلى إمارات صغيرة وحدتها القبيلة لا الإقليم . ولا غرابة في ذلك فرابطة القبيلة عند القبائل العربية هي الأساس وليست الوحدة القومية ، ولا زالت إلى وقتنا الحاضر بعض بقايا هذه النعرة القبلية والتي لا يستطيع الباحث التغاضي عنها أو إهمالها .

بادى الأحمر ١٦٩٢ م

بعد حكم دام نحو ٣٥ سنة توفي بادى أبو دقن وخلفه ابن أخيه أونسه ولد ناصر وفي عهده دونت لنا الروايات غلاء أجبر الناس على أكل

الكلاب ، ولذلك كانوا يؤرخون لها بسنةأم لحم ، ومات خلق كثير من تأثير المجاعة ووباء الجدرى ، وعندوفاته خلفه ابنه بادى الأحمر وخرج عليه جماعة من الفونج تآمروا عليه مع الأمين أرادب من العبدلاب ونصبوا أميراً من العائلة المالكة ملكاً بدلا عنه ، إلا أنه دحرهم وثبت على عرشه . ويتسم عهد بادى الأحمر بنشاط تبشيرى من الكنيسة الكاثوليكية يشرف عليه قنصل فرنسا العام فى مصر ، وهدفه تحويل الكنيسة الحبشية من اليعاقبة (الكنيسة القبطية) إلى الكاثوليكية ، وربما عاودهم الأمل بالتبشير فى بلاد السودان وإحياء المسيحية فيها واتخذوا سنار طريقاً لهم فى رحلاتهم للحبشة . ودونوا لنا ملاحظاتهم عن الأقاليم التى مروّا بها والشخصيات التى قابلوها ورووا الكثير من العادات والتقاليد .

رحلة بونسية ١٦٩٨-١٦٩٩ م

كان لإمبراطور الحبشة ابن مريض يريد له العلاج على يد طبيب مؤهل فأوصى تركياً يدعى حاجى على كان يتردد بين مصر والحبشة ربما للتجارة بأن يتفق مع طبيب لهذا الغرض من مصر . وفى القاهرة أشار القنصل الفرنسى إلى بونسيه وأغراه بأن يذهب للحبشة لتأدية هذه المهمة ولأن سياسة محاولة تحويل الكنيسة الحبشية كانت مقررة ، صحب بونسيه مبشرمن الجزويت يدعى Brevedent . وصلوا مشّو فى ٢٦ أكتوبر ١٦٩٨ م عن طريق الواحات ، وفى أرقو مقر الأرباب (الحاكم) دفعوا ما عليهم من جمارك ودعاهم الأرباب إلى قصره المبنى من الطوب النى ، وواصلوا رحلتهم إلى دنقلا العجوز وأعجبوا بالخيل الدنقلاوية ، ووصفوا السكان بأنهم يجهلون بكل شىء سوى ترديد الشهادة . وهناك دعاهم الملك إلى مائدته وأفرطوا فى شرب الخمر وانطلقت ألسنتهم فى جدال بين الإسلام والمسيحية مع خبير القافلة وعند ما احتدم النقاش فى هذه المسائل الحساسة أوقفها الملك؛ وفى هذا دلالة على أن السكان المسلمين اتصفوا بتسامح دينى حيث سمحوا لسائحين مسيحيين أن يدخلوا فى جدل ومناقشة مع مسلم فى بلاد إسلامية .

وهذه الدعوات لتناول الطعام معهم تدل على إكرامهم للضيوف الغرباء فى الجنس والدين .

وعند ما غادروا دنقلا يذكرون زعيما يدعى الشيخ قنديل بالقرب من كورتى ، وكالعادة دعاهم لمائدته وحذرهم من السير محاذين للنيل أكثر مما فعلوا لأن سكان المنطقة التى تقع فوقهم تمردوا على سلطان الفونج ، وهذا يؤيد استقلال الشايقية . وقطعوا الصحراء وحطوا رحالهم على النيل وساروا محاذين للضفة الغربية إلى أن واجهوا مدينة قرّى التى تقع شرق النيل . وعلى طول الطريق كان السكان يمدونهم بما هم فى حاجة إليه من المواد الغذائية ، ويذكرون أن إحدى واجبات المانجل فى قرى هو التأكد من خلو المسافرين من مرض الجدرى ، فإذا ما كانت هناك علامات تدل عليه حجزوا فى كرنتينة وأنهم أعفوا من هذا الإجراء كتكريم خاص لهم . وعند مرورهم بالحلفاية لاحظوا عمرانها واتساعها وأن بعض أبنيتها كانت بالحجر ، ويذكرون من القرى فى طريقهم جنوباً العيلفون وكترانج والكاملين (شرق) وأربجى عندما عبروا النيل إلى الضفة الغربية ولاحظوا بين أربجى وسنار غابات السنط الكثيفة بطيورها الغرّيدة وحطوا رحالهم فى مدينة سنار فى فبراير سنة ١٦٩٩ م . وفى اليوم التالى لوصولهم قابلوا الملك فى سرايه ووصفوه بأنه شاب فى نحو التاسعة عشرة من عمره أسود ذو هيبة وتقاطيع عربية . وقدموا له بعض الهدايا وقبلها شاكراً ووجه لهم الكثير من الأسئلة عن الأحوال فى أوروبا وعندما فارقوا مجلسه حملت إليهم فى منزلتهم مقادير كبيرة من السمن والعسل وثورين وخروفين وأشياء أخرى ، وبقوا فى سنار ثلاثة أشهر وبعدها واصلوا سيرهم للحبشة .

وصف بونسيه للحالة فى سنار

تقع سنار على مرتفع من الأرض وأبنيتها من دور واحد وشوارعها غير منتظمة ويسكنها على وجه التقريب نحو ١٠٠,٠٠٠ من السكان . ومن عادة الملك أن يخرج فى ركب عظيم كل يوم سبت وأربعاء من كل أسبوع إلى

إحدى الضواحي تتقدمه ثلة من الفرسان ما بين ٣٠٠ و ٤٠٠ فارس ، ويحف بالملك عدد من البيادة بموسيقى طبلية صاخبة يتغنون بمدائحه ، ويأتى بعد ذلك موكب عماده نحو ٧٠٠ أو ٨٠٠ من النساء والفتيات يحملن سلال الطعام من لحوم وفواكه وفى المؤخرة عدد من الفرسان مثل المقدمة . وعند وصول الركب إلى المكان المقصود يترجل الملك وتترجل حاشيته ويجلس إلى الطعام وهو ملثم بحرير شفاف متعدد الألوان الزاهية ، وتتناول الحاشية الطعام ويتبارى الملك مع كبار دولته فى التدريب على إصابة الهدف بالبنادق والذى يذكره بونسيه أنهم لا يجيدونها ، وفى المساء يرجع الركب بنفس التشكيل إلى العاصمة .

ومن عادة الملك أن يجلس فى ديوانه فى الصباح وفى المساء لإدارة شؤون دولته وللنظر فى المظالم . وفى سنار تنظر الجرائم ويعاقب مرتكبوها فى الحين ، وقد شاهد بونسيه أثناء إقامته فى سنار الحكم على شخص بالإعدام ضرباً بالعصى الغليظة . ويصف بونسيه رخص الأسعار فى سوق سنار الذى يظل مفتوحاً طيلة اليوم ، ومن منتجات الإقليم سن الفيل والتمر هندى والزباد والتنباك وتبر الذهب وغيرها . أما الرقيق فيباع فى سوق آخر يعقد بالقرب من سراى الملك . ويقوم التجار المصريين بشراء عدد كبير من هذا الرقيق . والنقود المتداولة فى السوق فرنسية وتركية وإسبانية . ويصف بونسيه الناس بالخداع والدهاء وبميلهم للخرافات وبتمسكهم بدينهم وعندما يقابلهم مسيحى فى الطريق ينطقون بالشهادة . وشرب الخمور محرم عليهم ولكنهم يتعاطونها فى السر ومشروبهم العادى الخمر يسمونه « بوظة » ؟ ولبس النساء من الطبقة الراقية قميص قد يكون من الحرير أو غيره من الأقمشة الجيدة يتدلى إلى الأرض ، ولعله يصف الثوب لا القميص ، وتتحلى النساء بالذهب ويمشطن شعورهن ويلبسن فى أقدامهن نعالا بسيور ، ولعلها (الشقيانة) أما نساء الطبقات العادية فلباسهن من ما بين أوساطهن وركبهن فقط . والبضائع التى ترد لسنار من الخارج هى : البهارات والورق

والنحاس الأصفر والحديد وأسلاك النحاس والأدوات الحديدية والعطور والكحل وغيرها من أدوات الزينة . وتجار سنار حسب ما يروى بونسيه يتعاملون مع ميناء سواكن حيث يأتون باللؤلؤ من مغاصاته فى تلك المدينة ويتاجرون مع مخا فى اليمن ومع سورات (الهند ؟) وهناك ينقلون إليها الذهب ، والزباد وسن الفيل ويرجعون بالبهارات والبضائع الهندية الأخرى وقد يغيبون فى هذه الرحلة نحو سنتين . ويصف بونسيه عادة وحشية عند موت الملك حيث يختار الملك مجلس مكون لهذا الغرض ويأمر بقتل جميع إخوته لإزالة فرص المنافسة والمؤامرات .

رحلة كرمب Krump ١٧٠١ م

يؤكد لنا كرمب عمران المنطقة الواقعة بين مشو ودنقلة العجوز ، فهى مساكن متصلة وبها خرائب كنائس وفى دنقلة حطوا رحالهم خارجها ما يقرب من شهرين حيث طالبهم الأرباب هناك بالجمارك ورفضوا هم بحجة أنهم أطباء فى طريقهم لملك سنار وباتصالهم بسنار وحضور المندوب لدنقلا ألزموا بدفع الجمارك ، ولكنهم أعفوا من التفتيش ، وحمدوا الله على ذلك لأن أمتعتهم تحوى من الكتب والرسائل والهدايا ما سوف يفضح مهمتهم السرّية ، والدبة آنذاك تعتبر مقرا للأولياء والصالحين وحرما لا يصح لحاكم أن يطالب بهارب التجأ إليها ، ولاحظ تقشف وزهد أولئك الفقراء وصلاتهم الكثيرة وحلقات ذكرهم ونوباتهم (طبولهم) ونار القرآن وتلاوته وكتابته فى ألواح الخشب . وفى كورتى تجمعت القافلة لتعبر الصحراء ، وفى رأيه أن تلك المدينة أجمل مكان فى بلاد النوبة ، وصحبهم حرس خاص تحت رئاسة مندوب الملك ، ربما لخوفهم من غارات الشايقية ، وعندما وصلوا قبالة قرّى قطعوا النهر ولم يبقوا فى قرّى إلا ريثما يستعدون لاستئناف سيرهم لأن المانجل كان غائبا فى أربجى وعند مرورهم بالحلفاية وصفوها بأنها كبيرة وعامرة ، وذكروا العيلفون وكترانج والبشاقرة وعبر كرمب النهر إلى الضفة الغربية تاركا القافلة مستمرة فى سيرها بالشرق ومرّ على أبو عشر وأربجى وأم سنت ولم يذكر ود مدنى .

كرمب ورفاقه في سنار

وفى أول مايو سنة ١٧٠١ م وصلت مجموعة المبشرين إلى سنار ووجدوا هناك مجموعة أخرى وتبادل الفريقان المعلومات والتقارير وأفردت لهم المنازل لإقامتهم وكان الذى يشرف عليهم ويحميهم هو الأرباب آدم وقدمهم للملك الذى وصفه كرمب بأنه يلبس طاقية حريرية متعددة الألوان محلاة بالذهب وفى أصابعه خواتم ذهبية عليها أحجار كريمة وفى أذنيه حلقات ذهبية أيضاً ممسكا بيده سيفا تركيا مسلولا وعلى الجانبين مسدسان وبعد السؤال عن أحوالهم ومهنهم وأهدافهم من الرحلة قدموا له هدايا متعددة قوبلت بسرور وارتياح وسمح لهم بالإقامة فى دولته وحرية السفر متى أرادوا ذلك . سافر جماعته إلى الحبشة وبقى كرمب كطبيب خاص للملك . غير أنه لم يستقر فى سنار حتى أتى مندوب من قبل المانجل فى قرّى يطلبه للعلاج وبالرغم من تمنعه ومرضه فى الطريق سار بالقوة مع المندوب وحرس ملك سنار الذين حملوا خطابا للمانجل من الملك .

كرمب فى قرى

وفى ٢٢ يوليو ١٧٠١ م وصل ركبهم إلى مدينة قرى حيث قوبلوا بالزغاريد ووصلوا إلى ديوان الملك بين الحرّاس حيث وجدوا المانجل جالسا على دكة عالية وعليها برش دقيق الصنع بألوان زاهية يلبس قميصا بعض خيوطه من الحرير وعلى رأسه طاقية حريرية متعددة الألوان وعليها أسلاك الذهب والفضة وعندما تناول خطاب الملك وضعه على رأسه أولا ثم أمر بقراءته جهرة ركع بعدها الملك وتابعته حاشيته ولمس الأرض بجبهته مرّات عديدة وكذلك فعلت حاشيته وهذه علامات التبعية والخضوع لملك سنّار . وبعد تناول القهوة سار كرمب لمنزلته وحُمل إليه السمن والعسل وبعض الدقيق مع خروف وعبد لخدمته ، وأثناء معالجته للمانجل شاهد استعراضات يومية وتدريب على المبارزة ووصف طعام المانجل بأنه عصيدة بالمرق يقدم فى أقداح من الخشب وعن اتساع ملكه وصف منطقة نفوذه بأنها تشمل كل بلاد النوبة شمالا وتصل جنوبا إلى أربجى وشرقا إلى مشارف

سواكن وللمانجل أن يعلن الحرب بعد التصريح له بذلك من ملك سنّار .
وأثناء إقامته فى قرّى شاهد احتفالات النصر الذى أحرزه أحد قوّاده فى
جهات البحر الأحمر . وتمكن كرمب أخيراً وبعد معارضة شديدة من الرجوع
لسنّار وبعد إقامته فترة من الزمن رجع لمصر .

وصف كرمب لسنار

سنار مركز تجارى هام وتتردد القوافل التجارية بينها وبين القاهرة ودنقلا
وبلاد النوبة والهند وأثيوبيا ودارفور وبرنو وفزّان وغيرها من الأقطار
وهى تأتى فى المرتبة الثانية بعد القاهرة من حيث ازدحام السكان بها ويقطنها
جميع الأجناس بحرية واطمئنان وسوقها منظم وكل سلعة لها أماكن خاصة
تعرض فيها ومن السلع المعروضة الرقيق حيث يعرض نحو ٢٠٠ يشتريهم
الأتراك لبيعهم فى مصر والهند . ويؤيد كرمب طريقة اختيار الملك الجديد
بواسطة مجلس من الكبراء وقتل إخوانه . وشاهد كرمب وهو بسنار
حضور المانجل زعيم العبدلاب فى ركب لسنار لتقديم فروض الولاء والطاعة
والتشاور فى شؤون المملكة ومعه ضريبة مكونة من مئات العبيد والخيل
والإبل ومقداراً من النقود . وعندما اقترب موكب المانجل من سنار خرج
إليه الملك فى موكبه بفرسانه ومشاته وعند اللقاء ترجل المانجل وقبل رجل
الملك نهض بعدها ليركب ويدخل الموكبان سويا للمدينة . وفى الميدان
الفسيح جرت استعراضات من المشاة والخيالة فى تدريبات حربية ومعارك
صورية ويذكر أن ملك سنار يمتلك آنذاك نحو ٢٠٠ بندقية كان حاملوها
يطلقون أعيرتها النارية فى الهواء . وفى الموكب كانت الخدم من النساء يحملن
جراراً ملأى بروائح عطرية ينثرنها على الجمهور ويغنين ويزغردن
يعاونهن نساء المدينة عند مرور الموكب فى الزغاريد وإظهار السرور
والانشراح . وانتهى الاستعراض بطلقة من المدفع الوحيد الذى يمتلكه الملك .

سفارة دى رول Du Roule

كانت فرنسا ترنو بأبصارها نحو الحبشة . فزيادة على النشاط التبشيرى
الذى بدأ برحلات بونسيه وكرمب ورفاقهم قررت سياسة التعاون التجارى

١٧٠٤
١٧٠٥ م

بأن تصبح الحبشة سوقاً لمنتجاتها ، وعليه فلا بد من أن تثير الفتنة بين الحبشة وبين مملكةسنار ، ولا بد من أن تسيطرعلى ميناءى مصوع وسواكن . ولفرنسا أن تقدم العون الحربى بأن تورد لإمبراطور الحبشة الأسلحة وتمدّه بالمدربين وعين دى رول سفيرا فوق العادة ومعه بعض المرافقين وصناديق عديدة ملأى بالعطايا وتعلماته من باريس كانت لأغراض دينية وتجارية ، ولكن فى الوقت نفسه عهد إليـــه جمع المعلومات عن القوة الحربية فى البلاد التى يمر بها وأكد De Maillet دى ميليه قنصلهم العام فى مصر هذه الناحية الحربية وجعل لها الأهمية الأولى، ولتمهيد الطريق لسفارة دى رول رأى دى ميليه أن يبعث بپونسيه وشخص آخر يدعى إلياس عن طريق مصوع للإمبراطور بخطابات يثيره فيها على الأتراك وعلى ملك سنار إذ أكّد له أن ملك سنار يستورد كميات من الأسلحة والذخيرة من مصر وأن فى بلاطه بعض الأوربيين الذين يدربون جنده على استخدام الأسلحة النارية بما فيها المدافع كل ذلك لاستخدام هذا الجهاز الحربى ضد الحبشة . وعلى الإمبرطوروالحالة هذه أن يطلب معونة دولة أوروبية كفرنسا لتساعده على مقاومة هذا الهجوم المنتظر وأن دى رول وهو خبير حربى سيصله لهذهالمهمة ؛ وكتب دى ميليه فى الوقت نفسه خطابا لملك سنار ووزيره على الصغيّر ملمحا بقوة فرنسا الرهيبة ولبعد سنار من القاهرة فكأنه يقول لهم لا تعتمدوا على القاهرة . هذه سياسة استعمارية واضحة سبقت تلك الحمى الاستعمارية فى القرن التاسع عشر .

مقتل
دى رول

ولكن الكنيسة القبطية فى مصر واقفة بالمرصاد لتلك النوايا الفرنسية وخاصة فيما يتعلق بتحويل الحبشة من مذهب اليعاقبة إلى المذهب الكاثوليكى وبعثوا برسالة إلى ملك سنار يخبرونه بتلك الخطة التى ترمى إلى مساعدة الأحباش للعدوان على سنار ، وأيد هذا الخطاب ما ذكره دى رول نفسه فى خطاب بعث به لدى ميليت يخبره فيه بالمضايقات التى يعانيها فى سنار وأن الوزير السنارى أخبره بأنه وردت أخبار من مصر من شخصيات لها

اعتبارها تقول بأن له رسالة ترمى إلى اتفاق بين الحبشة وفرنسا لمهاجمة الأتراك وإجلائهم عن ميناءى مصوع وسواكن . وربما تكون تلك الصناديق الضخمة العديدة والتى تحوى الهدايا اتهمت فى سنار بأنها تحوى أموالا طائلة . واحتجز دى رول فى سنار ولم يسمح له بالسفر وحاول مراراً الهروب ولكنه لم يفلح وأخيراً قتل ونهبت صناديقه وفشلت نتيجة لذلك خطة فرنسا الاستعمارية فى ذلك الوقت . ومقتل هذا السفير الفرنسى بهدايا لإمبراطور الحبشة وبخطابات ترمى إلى تقوية الروابط بين البلدين ربما يكون إحدى الأسباب التى قادت إلى الحرب الحبشية الثانية مع سنار كما سنرويه فيما بعد .

أونسه الثالث ١٧١٩ م ونول ١٧٢٠ م

توفى بادى الأحمر بعد أن قضى على المؤامرات التى دبّرت ضده من بعض جماعة الفرنج بالاتفاق مع الأمين أرادب العبدلاّبى وبعد أن حدثت تحركات المبشرين عبر مملكة سنار فى طريقهم للحبشة ودونوا لنا الكثير عن الأحوال فى السودان وخلفه ابنه أونسه الذى عرف بانهماكه فى اللهو واللعب وازتكاب الفواحش وعندما وصلت أخباره إلى الفونج بالصعيد وهم جنود لولو قرروا عزله وحضروا إلى ضواحى سنّار وأرسلوا له بأن بقاءه على العرش يتوقف على قتل وزيره ففعل ولكنهم تنكروا له وعزلوه وأمّنوه فخرج من سنار بعائلته وولوا على العرش الملك نول وهو يتصل بالبيت المالك من جهة الأم ، وبذلك انتقل الملك إلى بيت جديد لم تكن له قداسة وتقاليد البيت المالك الأصيل حتى سهل فيما بعد الخلاص من الملوك وعزلهم وتولية غيرهم . وإنما كان اختيار نول لكفاءته الشخصية من حيث استقامته وتدينه وصفاته التى كانت على طرفى نقيض من صفات أونسه العربيد المستهتر ومن عدله وإنصافه سمته رعيته النوم لراحتهم فى عهده واطمئنانهم لعدله .

بادى أبو شلوخ ١٧٢٤ م والحرب الحبشية الثانية أبريل ١٧٤٤ م

فى عهد إياسوس الثانى (Yasous) إمبراطور الحبشة بدأ الأحباش يغيرون على حدود مملكة سنار كانت نتائجها فرار الأهالى وغنائم من الماشية والإبل والغنم ولكن فى ٨ مارس ١٧٤٤ سار اياسوس نفسه على رأس جيش من غندار متجها نحو مملكة سنار وكانت أوامره صارمة وواضحة وهى حرق القرى وقتل الناس وأخذ جمالهم وماشيتهم . ساروا ثمانية أيام وهم ينفذون هذه الأوامر ، وكان بعض العربان ينضمون للحملة الحبشية ؛ وذكرت الروايات نايل ودعجيب وكانت أول مقاومة حادة على ضفاف الدندر حيث ثبت العرب المؤيدون لحكومة سنار حتى قطعت مواشيهم النهر ولكن الأحباش تغلبوا عليهم فى النهاية وسار جزء كبير من الجيش فى طريقه حتى وصل النيل الأزرق قبالة سنار بالشرق وبقية الجيش مازالت شرقى الدندر وبذلك انقسم الجيش الحبشى إلى قسمين ولكن سنار عندما رأت جيوش الأحباش قبالتها ساد الهرج والمرج فيها وكاد الملك يأمر بإخلائها لولا أن أشار خميس من عائلة دارفور المالكة والملتجئ بسنار على الملك بأن يعبر الجيش السنارى النيل الأزرق شمالى سنار ويقاتل العدو هناك ، وفعلا نفذت الخطة وتمكن خميس من حصر جيش الأحباش فى مثلث بين النيل الأزرق والدندر ودحره وعندما وصل الخبر لبقية الجيش الحبشى الذى يقوده الإمبراطور رؤى أن لا سبيل إلى إنقاذ جيشهم المحصور وقرروا التراجع إلى بلادهم والروايات الوطنية تذكر الأمين كقائد لجيش الفونج وبعضها تذكر الشيخ محمد أبو لكيلك قائد الفرسان ولكن الخطة التى أنقذت سنار وربما دولة الفونج بأسرها هى التى دبرها خميس أمير دارفور اللاجئ بسنار .

ومخطوطة الشيخ أحمد تذكر عن تلك الواقعة فى سرد حوادث عهد بادى أبو شلوخ ما يلى « وهو الذى جاءت الحبشة فى زمانه والذى جاءه السلطان إياسو وحده بلا وزرائه البعيدين جاءه فى نحو ثلاثين ألفاً وقد رأيت فى رقعة مقطوعة أنه خرج إلى سنار فى مائة ألف ، فلما سمع الملك

بادى بذلك طلب من جميع المراتب الدعاء وأرسل إلى المراتب البعيدين واشتد الكرب على المسلمين وأقبلوا إلى الله بالدعوات وتضرعوا إليه بالعبرات فأجابهم من يجيب المضطر إذا دعاه جيش جيشه وأمّر عليهم الأمين ومعهم مقاديم جماعة فرسان مشهورين فقطعوا البحر إلى الشرق إلى السلطان خميس سلطان فور واجتمعوا وساروا فتلاقوا مع السلطان اياسو قرب ميمون وعجيب بالدندر ويقال بمحل يقال له الزكيات ، فتقاتلوا مع بعض عساكر إياسو وهو جالس فى خيمته ومعه وزيره وخالد ولد الملول وهو حكم السطيح راقد على سرير فهزم الله تعالى عسكر اياسو وهم يمشون على مهلتهم ولم يطردهم وهذا أمر من الله تعالى رب العالمين وفرح الملك بادى وأهل سنار ووفوا بنذورهم وعملوا الموالد وذبحوا الولائم ونشروا الحرير وزيّنوا المسجد والسوق سبعة أيام وسمع سلطان الروم (الخليفة العثمانى) بذلك ففرح بنصرة الإسلام والدين . . . » وكانت هذه آخر محاولة تعمق فيها الأحباش فى السودان وقبلها كانت حملة عيزانا قبل الميلاد والتى قضى فيها على مدينة مروى القديمة .

بادى بعد الحرب الحبشية

يتبين لنا من الفقرة السابقة التى اقتطفناها من مخطوطة الشيخ أحمد أن رجال الدين فى ذلك الوقت كان يطلب منهم أن يسهموا فى حماية البلاد من غارات الأعداء بالدعاء والتوسل إلى الله بأن ينقذ المسلمين من ضائقتهم وقد يعزى مثل هذا النصر إلى توسلات الأولياء والصالحين أكثر من قوة الجيوش ويتضح لنا أيضا أن العالم الإسلامى رأى فى انتصار جيوش سنار نصراً إسلامياً رائعاً حتى أن الخليفة العثمانى انشرح صدره له ؛ وفى الروايات الأخرى أن سنار ذاع صيتها « حتى قصدتها الوفود من الحجاز والسند والهند وأهل صعيد مصر والمغرب الأقصى واستوطنوا بها » . ولكن بعد هذا الانتصار الرائع تجمع الروايات الوطنية على أن بادى أبو شلوخ سلك مسلكا أغضب رعيته وكبراءها ويوصف بأنه « طالت مدة ولايته إلا أنه من أول ولايته إلى نصفها كان له وزراء من أهل الخير والصلاح قاموا

بتدبير الملك أتم قيام إلى أن أدركهم الحمام ثم استقل الملك بتدبير دولته وأول ما بدأ به قتل بقية الأونساب وغيّر كثيراً من القوانين والعوايد المربوطة واستعان بالنوبة وجعلهم رؤساء عوضا عن أهل الأصول والرتب القديمة وتجارى على فعل أمور ذميمة من النهب والقتل حتى أنه تجارى على الخطيب عبد اللطيف العالم المشهور وقتله زيادة على ما ارتكبه من المظالم مجيزاً لأنيابه فى الظلم والفساد وبالجملة ظهرت منه أمور شنيعة نفرت منه قلوب رعيته لا سيما كبراء دولته من الفونج وغيرهم .

حملة كردفان

لم تحدث حروب كبيرة بين سنار وكردفان غير غارات خاطفة من النيل الأبيض ربما على جبال النوبة ولكن بعد الانتصار العظيم على الحبشة دبرت هذه الحملة لغزو كردفان ولم تتبين لنا دوافعها ويحتمل أن يكون خميس هو الذى أشار بها إذ ربما فتح كردفان يعقبه زحف على دارفور التى أقصى منها . والحملة قادها ود تومة ومعه زعماء العبدلاب ومحمد أبو لكيلك وخميس وفى مكان يدعى قحيف سنة ١٧٤٧ اندحر جيش سنار وقتل قائده ود تومة وزعيم العبدلاب وانفرط عقد الجيش ، غير أن أبو لكيلك نجح فى تجميع الجيش ولاقى به جيش المسبعات مرة ثانية وقتل زعيمان آخران من العبدلاب فى الموقعة وبعدها تولى أبو لكيلك القيادة العامة ونجح فى ضم كردفان إلى دولة سنار وهناك قوى الجيش بما انضم إليه من فرسان كردفان ووجد الشيخ محمد أبو لكيلك فى كردفان منطقة ذات خيرات وذات إمكانيات ضخمة فى الرجال والخيل وكان معه عدد من كبراء الفونج وغيرهم وترامى إلى مسامعهم المظالم التى ارتكبها بادى فى غيبتهم وضد أهليهم وقفل الشيخ محمد راجعا بجيشه لسنار لتسوية الأمور التى ساءت وسواء قدم ناصر ابن الملك لمقابلة الشيخ محمد فى الليس على النيل الأبيض أو استدعاه الشيخ محمد فإنه قد قرر الجميع خلع الملك وتولية ابنه ناصر مكانه .

خلع بادى أبو شلوخ

خضع بادى للأمر الواقع وخرج من سنار إلى سوبا ، حسب الروايات الوطنية وإلى سواكن حسب رواية أخرى ، والتجأ أخيراً بالحبشة حسب رواية بروس حيث استقبله الراس سهيل ميخائيل حيث وعد بإعادته إلى عرشه إذا ما وافق الإمبراطور على غزو سنار ، وعندما قابل الإمبراطور قبل الأرض أمامه ورضى بأن يكون تابعا وأقنعه بالتريث والصبر حتى تحين فرصة إعادته إلى عرشه ، وفى نفس الوقت منحه مقاطعة رأس الفيل. ولكن مؤامرة باضت وأفرخت فى سنار خدعته بأن يذهب لحوض نهر عطبرة حيث يتم إعداد جيش قوى يسترجع به عرشه ونجحت المؤامرة. بعد أن استدرجوه داخل السودان وقبض عليه الشيخ ولد حسن حاكم تيوه بين القضارف والرهد وقتله غيلة .

الشيخ محمد ابو لكيلك

وبخلع بادى أصبح ملوك سنار ألعوبة بيد وزرائهم من الهمج منذ عهد الشيخ محمد هذا إلى زوال مملكة سنار فى سنة ١٨٢١ غير أن الملك احتفظ بمظاهر السلطة كما كان العهد بين خلفاء العباسيين فى عهود الجند الأتراك والسلاجقة وينتمى الشيخ محمد باتفاق المصادر إلى الهمج والجدل لا يزال قائما عن أصل الهمج كما هى عليه الحالة فى أصل الفونج ، ولنرجع لرواياتنا الوطنية علّنا نستخلص منها شيئا ينير لنا الطريق . فعن بادى تقول رواية بأنه آخر الملوك ذوى الشوكة « لأنه فى آخر مدته تغلبت مشايخ الهمج وصارت تولية الملوك رسما لا حقيقة لها وصار الحل والعقد بين الهمج وهم طائفة من ذرارى العرب المتناسلين من الأنواب ، وقيل انهم فرع من الجعليين العوضية المتصلين بسيدنا العباس بن عبد المطلب والله تعالى أعلم » . ورواية أخرى تقول عن بادى أيضاً « أخذ من أهل الأصول أصولهم من الديار وتعضد بالأنواب وأعطاهم ديار أهل الأصول » . وأخرى تقول « واستقل الملك بادى بالتدبير وقتل بقية الأونساب وغيّر وبدّل كثيراً فى القوانين المربوطة والقوائد المضبوطة واستعان بالنوبة.

وجعلهم رءوسا عوضاً عن أصحاب الأصول والرتب القديمة » . فإذا ما عرفنا أن أولئك النوبة الذين أسكنهم بادى أبو دقن فى قرى حول سنار وجعل منهم جنده وحرسه الخاص وتكاثروا وتناسلوا وتزوج منهم بعض العرب ولا بد لأية مجموعة فى السودان أن تنتمى إلى قبيلة فأطلق عليهم قبيلة « الأنواب » مثلهم مثل الميرقاب والرباطاب والأصل الذى تحدّر منه الشيخ محمد أبولكيلك كان زواجاً من جعلى عوضى من نساء الأنواب وتزعم هذه المجموعة وتعضده بها ومكنته من السيطرة والاحتفاظ بحقيقة الملك فى نسله تاركا الاسم والمظهر للفونج ومهما كان من أمر فإن شخصية الشيخ محمد الفذة جعلت منه سودانياً ذا كفاءة ومقدرة خليقة بتحمّل أعباء الحكم بعد أن أظهر هذه الكفاءة فى ميادين الحرب والقتال فى كردفان وجعلها لوقت ما جزءا من مملكة سنار .

بدء الاضطراب والتدهور

ولم يبق ناصر فى العرش الذى أقعده عليه الشيخ محمد كثيراً إذ عزل وحددت إقامته فى حلة البُقَّرَة خارج سنار ، ولكنه حاول التآمر على سلطة الشيخ محمد بالاتفاق مع جماعة من الفونج محاولين رد ملكهم إلى مؤسسيه ولكنهم فشلوا وانتهى الأمر بقتل ناصر وتولية اسماعيل أحد إخوة ناصر ، وكانت سنى الشيخ محمد الأخيرة أوقات غلاء وقحط وزيادة فى فيضان النيل سبب تلفاً ، وأعقبته أمراض ، وبعد وفاة الشيخ محمد تولى المشيخة ابن أخيه بادى ود رجب حيث نازعه الفونج بمحاولة أخرى غير أن المؤامرة انكشف أمرها وانتهت بعزل إسماعيل ونفيه إلى سواكن ، وقبل أن نتابع الخلافات والحروب الأهلية التى تلت عزل إسماعيل يجدر بنا أن نقف قليلا لنلم بما دونه جيمس بروس الاسكتلندى الذى رجع من الحبشة عن طريق سنار فى عهد إسماعيل .

جيمس بروس ١٧٧٢ م

دخل جيمس بروس الحبشة عن طريق مصوع وبقى بها نحو السنتين ونصف لاكتشاف منابع النيل ودوّن الكثير عن أحوالها ، غير أن اهتمامنا

يجب أن ينصب على تلك الفصول التى دونها عن مملكة سنار وخاصة مدة إقامته فى مدينة سنار نفسها ما يزيد على أربعة أشهر . ويذكر لنا قبل وصوله لتلك المدينة قصته مع الشيخ فضيل (ربما فضل) حاكم إقليم تيوه (القضارف) ومحاولة ذلك الزعيم استنزاف أمواله وما معه من الذهب ومحاولة اغتياله أخيراً غير أنه نجا وواصل سيره نحو سنار وهناك أفضل بثلاث شخصيات ، الملك إسماعيل وأحمد سيد القوم وعدلان ، فى مجلس إسماعيل بحضور الملك تحدثوا وتناقشوا فى قصة يأجوج ومأجوج ، ويروى لنا انتدابه لمعالجة حريم الملك وعددهن وسواد بشرتهن وأشكال معظمهن القبيحة وهن من جانبهن عرتهن الدهشة من بياض بشرته ، وخف لزيارة الوزير عدلان فى مقره فى العيرة خارج سنار ، وأعجب بشخصيته وبفرسانه الذين يحفون به فى معسكراتهم ، ووصف جودة خيلهم وأصالتها ، ودروعهم وأسلحتهم واستعدادهم لامتطائها بكامل آلات الحرب رهن إشارة زعيمهم وكلهم من عبيده ويلبس عدلان الذى قدّرْ عمره بالستين الطاقية أم قرين ويجلس على جذع نخلة ينظر لخيوله وفرسانه وبسمة السرور على محياه ، وأثناء المحادثة ورد ذكر الحرب الحبشية الأخيرة ورأى عدلان أن الأحباش باعتدائهم أساءوا إلى العلاقات مع سنار ولا زالت متوترة ، ولكنها ليست عدائية ، وعلم بروس أن الوزير فى ذاك الوقت يعمل لجمع الضرائب من العربان ، وعند الانتهاء من تلك المهمة يمده بحرس خاص لسفره ، ويرى عدلان فى الملك أنه ليست له كفاءة للحكم ، ولا يقبل النصح ممن يعرفون ، وعند الضرورة لا يعلن الحرب ، ولا يترك غيره يقوم بالواجب ، ومحادثته مع أحمد سيد القوم على ما يبدو انحصرت فى تاريخ الفونج حيث دوّن مذكراته عن أصل الفونج ، ونقل كشفا بملوكهم وسنى حكمهم ، وضمن القصة كتابه .

بروس يغادر سنار

وسافر بروس بطريقة فجائية دون أن يودع عدلان ، ويطلب منه الحرس الخاص الذى وعده به والظاهر أن روح دى رول قتيل سنار تبدت

له وأرعبته ، وغادر المدينة خوفا من أن يلقى نفس المصير ، وفى الطريق وصف خزن الذرة فى مطامير للسنين العجاف ، وعندما حط رحاله بأربجى وأصبح بعيداً عن سنار كتب خطاباً لعدلان يشكره ويودّعه ، وفى الجديد قبالة العيلفون عبر النهر إلى الضفة الشرقية وفى شندى يتحدث عن الملكة ستنا ، ولكنها فى الحقيقة كانت أم الملك إدريس ، وبعد شندى شاهد آثار مروى القديمة فى البجراوية ، وفى الدامر وصف شيخها ود المجذوب واعتقاد الجعليين فى صلاحه وكراماته حيث تصيب من يغضب عليه بالعرج والعمى والجنون ولهذا يخافه الناس ويرهبونه وتمر القوافل بدار المكابراب وهم قطاع طرق كما يصفهم بروس فى حماية ود المجذوب وفى الحصا شمالى بربر نزل النهر واستحم وشعر بنشوة السلامة من المخاطر وأوغلت قافلته فى الصحراء .

منازعات داخلية

ولكن الأمور لم تستقر بعزل إسماعيل ونفيه ، بل بدأ صراع فى بيت الهمج أنفسهم يحاول أن يتعضد بمجموعة أو قبيلة ليبسط نفوذه والظاهر أنهم رأوها تركة تحدرت إليهم من الشيخ محمد أبو لكيلك كل منهم يرى أن يأخذ نصيبه كاملا ممن ظنه المغتصب ونتيجة لهذا الصراع الداخلى قتل الشيخ بادى ود رجب وتولى بعده رجب بن الشيخ محمد وسافر إلى كردفان ربما على رأس حملة تأديبية لإخضاع متمردين هناك ، وأثناء غيبته تجددت المقاومة لحكم الهمج والتفوا حول الملك عدلان بن إسماعيل وقتلوا إبراهيم أحد إخوة الشيخ رجب وهرب النعيسان إلا تقيب (الشاعر المحلى) إلى كردفان ، وكان متهما باتصاله بالهمج ، وهناك نقل عن طريق الشعر خبر قتل أخيه ناعيا إياه . وعندها وقف الشيخ رجب ونادى أتباعه بأن يضربوا الدنقر (النحاس) ، وعندما تمت مراسيم المأتم زحف بجيوشه راجعا ووجهته سنار ، والتقى بجيش السلطان عدلان وانهزم عدلان ومات مغموما وتلى ذلك منازعات داخلية كل فريق ينادى بسلطان يؤيده ضد دعوى الفريق

الآخر ، وليس فيما بقى من سنين لدولة الفونج غير الانقسامات والحروب الأهلية حتى دخلت جيوش محمد على بقيادة ابنـــه إسماعيل غازية بلاد السودان فى سنة ١٨٢٠ — ٢١ م .

تقاليد المجتمع موروثة

بالرغم من أن دولة الفونج إسلامية ولغتها العربية فقد ورث العرب الوافدون تقاليد وطقوس كان معمولا بها فى السودان من قبل . فتقبيل رجل الملك من المانجل وطقوس التوليسة بتفاصيلها العديدة للملك وللمانجل وللأرباب والجلوس على الككر (كرسى صغير من الخشب) ولبس الطاقية أم قرين كلها عرفت فى هذه البلاد فى الحضارات التى سبقت دخول العرب للسودان وكثير من هذه العادات والتقاليد تتعارض مع تقاليد وعادات العرب وترتكز فى مجموعها على وجود طبقة أرستقراطية حاكمة وطبقة عبيد وأتباع . والغريب فى الأمر أن هذه الطقوس والتقاليد من التبعية ، وتعظيم الرئيس امتدت إلى الزعامات الدينية حيث أصبح شيخ الطريقة أو الولى المعتقد يدخل عليه تابعه حاسر الرأس حافى القدمين متمنطقا بثوبه ، مقبلا يديه وربما رجليه ، ولا يرفع بصره نحوه ولا يرتفع له صوت فى حضرته. وكله آذان صاغية لتلقى توجيهاته وإرشاداته دون الرد عليها أو إبداء رأى مخالف لها . ويلاحظ أن الملك له حق امتلاك كل الأراضى وتوزيعها بموجب وثائق عليها ختمه ، ولا زالت بعض العائلات فى السودان تحتفظ بمثل هذه الوثائق ، وفى بعض الأحيان تكون الأرض مشاعا للقبيلة ويبدو أن هذا التعديل أدخلته عادات العرب القبلية ، ولا بد أن عادة امتلاك الأرض للملك تحدرت إليهم من النظام النوبى القديم الذى يعتبر كل الرعايا عبيداً للملك . والعادات والطقوس التى ما زالت جارية فى مناسبات الزواج والختان والولادة طابعها قديم ورثناه من سكان البلاد الأصليين السابقين لدخول العرب فى السودان .

أثر العروبة والإسلام

ومن الناحية الأخرى أصبح كل سودانى ينتمى لقبيلة لها دارها وموطنها والسكان الأصليين عندما تغلبت عليهم العروبة خضعوا لهذا النظام القبلى ،

وانضموا إلى القبائل التى تساكنهم الديار ونسوا أصولهم وتأقلموا بالمجتمع الجديد وأثر هذا بدوره فى إمكان إقامة حكومة مركزية قوية . فقد رأينا كيف تهاوت دولة مقره وانقسمت إلى إمارات عندما طبعت بالطابع العربى وحتى فى دولة الفونج رأينا تلك النزعات الاستقلالية والتمرد على السلطة المركزية والوقائع المستمرة بين القبائل . وفى الناحية الدينية تغلب الطابع الصوفى على طابع التفقه فى العلم والشريعة ورجل الكرامات والشطحات وشيخ الطريقة كوّن لنفسه العديد من الأتباع والمريدين رهن إشارته وطوع بنانه ينظرون إليه بعين التقدير والإعجاب والقداسة ، وإذا ما توفى أصبح ضريحه مزاراً تعقد فيه حلقات الذكر فى المناسبات الدينية وواصلوا ولاءهم وإخلاصهم لخليفته والخلفاء من بعده وتكوّن بذلك نظام من الرئاسة الدينية يشبه فى كثير من ملامحه نظام الإمامة عند الشيعة وكلما زاد عدد القباب التى تحوى رفات الأولياء والصالحين زادت رابطة إخوة دينية جديدة بكل ما يتبعها من خضوع وولاء وتأدب . وتتفاوت هذه الطرق الدينية فى عدد اتباعها ، وتتفاوت فى نفوذها على أتباعها ومدى خضوعهم لها ومدى استخدام زعمائها لهذه التبعية ذات الولاء الدينى فى ميادين السياسة والتكتلات الحزبية . وبهذا تكونت ركائز مجتمعنا الحالى فى عهد الفونج حيث تفاعلت الطقوس والتقاليد القديمة مع مؤثرات النعرة القبلية والدين الإسلامى مع تغلب ناحية الطرق الصوفية عليه .

غزوة محمد على للسودان

دوافع الفتح

رأى محمد على فى أسواق النخاسين السود المرد وسمع عن شدة بأسهم وقوة مراسهم وتحملهم للمصاعب والمتاعب ، ثم عرف أنهم ينقادون بسهولة لسادتهم . فإذا ما ثبت لديه قوتهم وشجاعتهم مع الطاعة والإخلاص ، فما أجدر بهم أن يكونوا المثل الأعلى للجندية . ورأى فى الحجاز أكثر مما رأى فى مصر وعرف أن الجلابين يسوقون منهم كل سنة ما يبلغ الأربعة آلاف لمصر والحجاز ، ولا شك أن محمد على وهو يسعى لتوطيد مركزه فى مصر ، ويسعى أيضاً لإيجاد جيش جديد يدعّم هذا المركز يفكر فى الانتفاع بهذه المادة الخام من الرجال لجيشه فى المستقبل .

وسمع أن جنوب السودان رماله الذهب وأن فيه من الخيرات ما لو استغل لساعد فى إيجاد المال اللازم لما يريده محمد على من إصلاح ومن تأسيس دولة قوية ذات عز ومنعة . ولكنه يحرص على تركيز أرجله أولا ، ويدرس قبل أن ينفّذ ، فبعث بمندوب خاص كسفير يحمل هدايا لملك سنار فى الظاهر ولكنه فى الحقيقة جاسوس يقدم تقريراً للوالى عن حالة الحكومة من حيث القوة والضعف . وقابله وهو فى الحجاز الملك نصير الدين ملك الميرفاب الذى استولى على ملكه أثناء غيابه منافسه على ود تمساح فطلب منه العون لإزالته وكذلك اتصل به الملك طنبل لمثل هذا الغرض . فالبلاد إذاً كثيرة الخيرات والبركات ، والجنود السود سيكوّنون جيشاً قوياً منيعاً ، والمماليك فروا جنوباً وأنشأوا لأنفسهم مملكة ترامت أنهارها لمحمد على . وقد ينتهزون فرصة ضعف المملكات الصغيرة فى السودان ويبتلعونها الواحدة تلو الأخرى ، وقد يتقدمون شمالا بقوتهم الجديدة لاسترداد حقهم الذى اغتصبه منهم محمد على ، وقد يقودون جيشاً من السود الذين عرف وسمع عن قوة بأسهم وشدة مراسهم ما عرف وسمع . كلها عوامل تعاونت لتجهيز الحملة وإنفاذها .

عوامل الكشف والوحدة

ومن غريب التوافق والمصادفات أنه ما من ملك أو سلطان حكم مصر مستقلا عن دولة أخرى إلا وفكرّ فى امتداد ملكه جنوباً . فالفراعنة بدأوا اتصالاتهم بالأراضى الجنوبية فى وقت مبكر منذ الأسر الأولى ، وما فترت أو انقطعت الاتصالات إلا بعد أن تعاقب على حكم مصر شعوب أتتها غازية وجعلتها ولاية ضمن إمبراطورية أخرى عظيمة . هكذا كان حال الفرس واليونان والرومان والأتراك أخيراً . أما محمد على الذى يريد أن يكوّن لمصر شخصية مستقلة ، ويريد لنفسه أن يكون رأس تلك الشخصية ، لابد وأن يأخذه حب الاستطلاع للصعود مع هذا النيل ليرى أين ينبع ، وما سبب فيضانه ، وأى الشعوب الأخرى تقطن على ضفافه ، وماذا يحدث لمصر لو سيطرت على منابعه أو روافده العليا قوة أخرى قد تكون معادية لا صديقة أو حليفة ؟ أقول هذه الأفكار لا بد أن تدور فى مخيلة كل عاهل أو ملك جعل القاهرة عاصمته ومقره ، ويطمع فى أن يبقى فيها ويكوّن بها ملكاً وقوة . وربما فكر محمد على فى الاعتصام بالسودان إذا ألجأته الظروف لذلك .

محمد بك لاظوغلى يجهز الحملة

اكتسب محمد على خبرة لا تقدر فى حروبه مع الوهابيين ، فمشاكل النقل عبر الصحراء وتهدئة القبائل البدوية وفتح أقاليم تدين بالدين الإسلامى وفوق ذلك ملاقاة محاربين شديدى البأس يستخدمون أسلحة غير نارية . فما نجح فى الحجاز من طرق ووسائل قد يعاد استخدامه فى حروب السودان . أشار محمد على لصديقه ومستشاره فى الشئون الحربية محمد بك لاظوغلى بالخطوط الرئيسية التى يجب أن يتبعها فى تجهيز تلك الحملة . فجلب المراكب من الوجهين البحرى والقبلى وتجهيز المؤن والذخائر لحروب طويلة فى بلاد مجهولة . وتسيير العلماء من المذاهب الأربعة مع الحملة لإقناع المسلمين بالحجة والبرهان وإغراء عربان البادية بالرواتب الكبيرة ليسيروا مع الجيش إذ هم أبناء الصحراء يتحملون حرّها ومتاعبها ومشايخ العربان فى مصر قد يحتاج لخدمتهم فى الاتصال ببوادى السودان وإغرائهم للدخول فى طاعة عزيز مصر — كلها تمت حسب الخطة الموضوعة .

ترحيل الجيش إلى حلفا

جمع محمد بك الجيش من مغاربة وأتراك وأرنؤوط وعربان البادية وبالأخص العبابدة فبلغ عدده نحو أربعة آلاف وثمانمائة مقاتل ولكنه ليس بالجيش الذى يريده محمد على لمستقبل أيامه فهم على النظام القديم ويتكونون من عناصر مختلفة غير أنهم يمتازون بشىء واحد هو بمثابة سلاح سرى بالنسبة لجند سنار وهو الأسلحة النارية . وزيادة على العناصر المختلفة للجيش فإن روح التمرد لا تزال كامنة فى نفوسهم وقد قتل جنود المدفعية أحد روسائهم وفر البعض إلى ديارهم وقراهم . أتم محمد بك كل هذه الاستعدادات ورحّل الجيش إلى حلفا نقطة التجمع ونسف بعض الصخور التى سوف تعترض سير المراكب فى الشلال الثانى ، وقبل أن يغادر حلفا راجعاً أنشأ شونة للغلال والذخائر فوق الشلال الثانى وسلم له أربعة وعشرون من المماليك عند ما علموا بأن حملة الباشا لا تقاوم وأنه لأفضل لهم أن يغادروا دنقلا شمالا لتسليم أنفسهم بدلاً من الفرار جنوباً إلى مجاهل أفريقية ثم تسلم محمد بك أيضاً ما يزيد على الخمسين امرأة من زوجات المماليك لإرسالهن لأهلهن فى مصر وسمع وهو محلقا أيضاً أن نحو الثلثمائة من المماليك غادروا دنقلا جنوباً وحطوا رحالهم فى معسكرات خارج شندى .

إسماعيل ابن محمد على قائد الحملة

عقد محمد على لواء الحملة لابنه إسماعيل وهو ابن خمس وعشرين سنة يجرى دم الشباب فى عروقه ونشأ وهو يعرف نفسه أنه ابن عزيز مصر وعرف بالجرأة والإقدام ولكنه يستبد برأيه دون استشارة المحنكين من قواده ويتمتع بقدر عظيم من الذكاء ومعلوماته العامه لا بأس بها وقد تنبأ وادنجتون حينما قابله فى معسكره بدار الشايقية بأنه سيكون تركياً عظيماً وهو ملمّ بالأحوال الأوروبية من سياسية وجغرافية ويتلعثم فى كلامه نتيجة لعيب طبيعى فى فكّه ويزيد على ذلك محاولته الإسراع فى الكلام فيصعب على السامع إلا إذا درب على الإصغاء إليه أن يتابع ما يقوله أو يتفهمه . وقد يكون هذا من أسباب غضبه وثورته عند ما يخاطب ملوك السودان ولا يفهمون ما يقول .

القواد الكبار

يرافق إسماعيل باشا كبير معاونيه عبدى[1] كاشف وهو قد خدم محمد على

---

(١) كتبه كايو عابدين بك ووادنجتون عابدين كاشف والوثائق كلها وختمه تؤيد أنه عبدى وليس بعابدين .

نحو خمس عشرة سنة بإخلاص ونزاهة وبلغ الخمسين من عمره حين رافق الحملة وعرف كاشفاً للمنيا بإدارته الحسنة . هادئ فى طبعه يجلس الساعات الطوال ليقنع من يعارضه بالدليل والبرهان وعرف كيف يتعامل مع الإفرنج ويفوز باحترامهم وتقديرهم وكانت الخطة الموضوعة أن يبقى عبدى كاشف حاكماً لدنقلا عند فتحها ليدير شئونها أولا وليكون مركز تموين للجيش المتقدم جنوباً أو نقطة تراجع فيما لو انهزم . ولكن رؤى من الحكمة أن يستمر مع إسماعيل معيناً ومعاوناً . والقائد الآخر هو قوجة أحمد أغا خبير الجندية والحروب وخبرته مدة خمس وعشرين سنة ويلى هذين حسن دار وصالح دار وعمر كاشف .

تكوين الجيش

أغلبية الجيش الساحقة من الجنود المرتزقة الذين يتقاضون مرتباتهم شهراً بشهر ويستطيعون الخروج من الجندية فى أى وقت شاءوا إلا أنهم ملزمون بالبقاء فى الحملة حتى نهايتها إذا ما تطوعوا فيها وقد قبضوا مرتبات ستة أشهر ، وحددت نهاية المرحلة الأولى من الحملة بفتح دنقلا ، وبعدها يستمرون بعقود جديدة ووسائل إغراء أخرى . وجمع الجيش عناصر متعددة ومختلفة فنهم بدو الصحراء الذين عاشوا تحت سمائها الصحو وحرها اللافح وبردها القارس وتعودوا قوة البأس وتحمل جدبها وقلة إنتاجها . ومنهم المغاربة وكلهم فرسان شبوا على أعمال الفروسية وأضافوا على أسلحتهم التقليدية استعمال البندقية والمسدس . أما الأتراك والألبان فخوفاً من تمردهم فقد وزعوا على الفرق المختلفة تحت قواد متعددين . فجيش يقاتل لمرتبه وعقده لا ينتظر أن تعلو روحه المعنوية ، ولكنهم عوضوا عن ذلك الأسلحة النارية ، واثنى عشر مدفعاً ضد خصومهم الذين مهما سمت روحهم المعنوية و قوى جنانهم فهم يقاتلون بالسيف والرمح والعصى أحياناً .

مسير الحملة

أوسقت المراكب من الشونة التى تقع فوق الشلال الثانى جنوبى وادى حلفا بالمؤن والذخائر والبيادة ورافقهم على الشاطئ الفرسان على جيادهم والبدو فوق ظهور إبلهم وقوبلوا فى أرض سكوت والمحس بالطاعة والانقياد ولا سيما حاكم المحس لأنه لم يلق التأييد الذى أراده من المماليك ضد خصمه الملك .

طمبل فاتجه نحو الباشا قبل مجيء الحملة . حلّت الحملة بارقو ودخلت دنقلة الأوردى بعد ذلك دون مقاومة لأن الأهالى وملوكهم ذاقوا الأمرين من الشايقية أولا ثم أكثر من ذلك من المماليك وفوق هذا فهم شعب شغلوا بفلاحة الأرض والسيادة التى بسطها عليهم الشايقية أولا والمماليك أخيراً ولم تترك لهم شيئاً من روح الحرب والمقاومة .

الشايقية

يتزعم الشايقية آنذاك ملكان كبيران وآخرون يلونهما فى المرتبة فأولهم الملك شاويش الذى يقيم فى عاصمته مروى ، ويقال إنه كان بديناً فكه الحديث لونه يضرب للبياض بخلاف بقية قبيلته والآخر الملك صبير وهو مشهور بقوة بأسه وشدة مراسه . وكأن الشايقية لم يخلقوا إلا للكفاح والنضال ، فإنهم إن لم يواجههم عدو مشترك أغارت كل قبيلة منهم على الأخرى ، وكأنهم أدركوا أن التدريب لا يكون إلا بالقتال الحقيقى لا بالتمثيل . ولذا كان تاريخهم سلسلة متصلة الحلقات من حروب داخلية وخارجية . والآن فهذا عدو مشترك يزحف عليهم وقد أتى بقوة وعدد لم يألفوهما ولكنهم ورثوا البسالة وحب القتال والخيول والأسلحة من أجدادهم فهل يسلمونها لأول مغير ؟ إنه عار لا يريدون أن يوصموا به . لم يفعلوا ذلك مع المماليك فحاربوهم وناضلوهم إلى أن فرّوا أخيرا جنوباً وكفوهم شرهم . ولكن المماليك لا يزيدون على الثلاثمائة والباشا يزحف بجيش يبلغ الآلاف .

نظرية الشايقية

وأقر الشايقية فيما بينهم أن يقبلوا دفع جزية أو ضريبة للباشا ، ولكنهم لا يتنازلون عن خيلهم وأسلحتهم فهى لهم الحياة والحياة كلها ، بعث لهم إسماعيل عند ما استقر بدنقلا أن يسلموا أنفسهم وأسلحتهم كما سلمت القبائل التى تقع إلى الشمال منهم فردّوا بأنهم يدفعون أتاوة أو ضريبة فقط ، وبعث الباشا لهم للمرة الثانية بتسليم خيلهم وأسلحتهم ضماناً لولائهم وإخلاصهم وأخبرهم بأن والده يريدهم شعباً يفلح الأرض لا ليحمل السلاح ويقاتل ، فلم يتزحزحوا عن موقفهم الأول ، لأن الخيل والأسلحة ألفوها منذ صغرهم وورثوها عن آبائهم ، وقد عوّدوا العمل على صهوات الجياد واستخدام السلاح لا استعمال الفأس

والمجراف عوّدوا خوض غمار الحروب لا السقى والزرع والحصاد . أرضهم نزرعها عبيدهم ومن أسروه من الشعوب التى يحكمونها ، فهل يريدهم الباشا أن يتنزّلوا ويعملوا مثل ما يعمل عبيدهم ؟ إنها لخطة لإذلالهم وإخضاعهم . فلماذا الرماح والتروس والسيوف ولماذا الفروسية إذا لم تكن للذود عن مالهم وعرضهم وللتمسك بمستواهم ؟

منطق اسماعيل

وإسماعيل من ناحيته لم يطلب إلا كل ما يجب أن يعمله قائد يفهم أبجديات مهنته . فهمته إخضاع بلاد السودان حتى تدين بالطاعة ، وهو مقدم فيما لوقبل شروط الشايقية على حروب فى بلاد الجعليين وفى دار العبدلاب وأخيراً فى سنار مقر الملك والسلطان فى بلاد السودان . فهل يترك الشايقية وراءه وهم بهذه القوة والمنعة ؟ وهلا يحتمل أن يقطعوا خط مواصلاته مع مصر ويسيطروا على ما فتحه من البلدان ؟ الأصول الحربية تقوده أن يقاتلهم ويقضى على قوتهم قبل أن يتقدم نحو بقية السودان التى يحتمل أن تقاوم وألا تخضع ، ولكن من الناحية السياسية يجدر به أن يثق بما يقدّمونه له من ضمان وأن يحترم كلمتهم ويحسن معاملتهم حتى لا يشعرهم بالذلة والصغار وقد أشار إليه والده فى خطاب أرسله له بعد أن وقعت الحرب معهم بأن مسلكه نحوهم لم يكن بالحكيم :

محمد على يؤنب ابنه

« يا ولدى[1] الأعز إن من المعلوم عن أرباب الحكومة الذين تكون نفوسهم تحت حكم عقولهم أن استجلاب قلوب العباد متوقف على نشر العدالة وأن تسخير البوادى والبلاد موقوف على حسن الاستمالة ومن الظاهر لا يمكن لأى حاكم أن يقوم بعمل بدون عدالة كما أن من البديهى الباهر أن لا يمكن من الوصول إلى منزله المقصود وإلى غايته من غير استمالة ، فبناء على ذلك كان الواجب عليكم أن تمتلكوا أهالى الشايقية بحسن استمالتهم وتماكوهم وبلادهم بتأمينهم وتأليفهم . فمن العجيب جداً تبعيدكم إياهم عنكم وتنفيرهم من إطاعتكم بتكليفكم إياهم تسليم خيولهم وأسلحتهم ، فإن كنتم غير مطلعين على أحوال

(١) دفتر ٧ معية تركى ترجمة مكاتبة تركية رقم ١٧ بتاريخ ٩ ربيع الآخر سنة ١٢٣٦

أرباب السيف الذين نجحوا فى أعمالهم فى الأزمان السالفة أفلم تسمعوا ولم تعلموا أن الفرنسيين الذين أتوا مصر فى زمن قريب إلى أى درجة كانت عدالتهم فى مجيئهم لأجل تسخير البلاد وإلى أى درجة أظهروا العدل حينما أرادوا الذهاب والانسحاب لأجل تأمين سلامتهم وكيف كان مجىء الإنجليز وذهابهم مقرونين بالعدل ؟ » .

الحرب

رفض الشايقية شروط الباشا ولم يبق له إلا أن يزحف جنوباً لملاقاتهم . وقاموا هم بهجوم بسيط بالقرب من دنقلة العجوز ردته جنود إسماعيل وحدث اصطدام آخر أسر فيه عبدى كاشف ابنة أحد الملوك وكانت فى هودجها على جمل تطلق الزغاريد لتثير فى نفوس الرجال الحماس فبعث بها عبدى إلى إسماعيل فأحسن هذا لقاءها وخلع عليها كسوة ومصاغاً وردها بكل إعزاز وإكرام إلى والدها الذى دهش لهذه المعاملة وقرر ألا يرفع سيفاً بعد ذلك فى وجه رجل أحسن إليه هذا الإحسان فسلم للباشا بمن معه من الرجال . وحاول إسماعيل قبل الالتحام معهم فى معركة كبرى أن يتخذ من الطرق ما يدخل الرعب فى قلوبهم علّه بهذا يضعف روحهم المعنوية ، فصار يرسل الصواريخ صاعدة نحو السماء ثم تنحدر على الأرض كالشهب السماوية وكانت استجابة الشايقية الاستهزاء بقولهم « إن الباشا يريد حرب السماء » .

موقعة كورتى

وبعد أيام من حادثة الفتاة الأسيرة كان الباشا معسكراً على بعد نحو ثلاثة أو أربعة أميال من النيل فى الصحراء بالقرب من كورتى فما شعر إلا والصياح من حوله « وين الباشا وين الباشا » فنهض لتوه وكانوا ينوفون على الألفين يحيطون بمعسكره . ورجاله لا يزيدون على ثلثمائة مقاتل وليس لديهم مدفع واحد وما من رجل من جنوده يحمل أكثر من خمس عشرة رصاصة فاسرج له الحصان واعتلى صهوته وعمم شطر عبدى كاشف وقال له « أتريد أن أقاتل بطريقتى أم بطريقتكم » ، وأجابه عبدى بأنه عوّد القتال وفق طريقة قائده . وهنابدأ إسماعيل يعدّ جنده لملاقاة عدوه فجعل البدو والمغاربة فى المقدمة وخلف

البدو صالح دار وجنده وخلف المغاربة عبدى كاشف وجعل الجمال والحملة والمؤن كمؤخرة . وبالرغم من قلة عدده وذخيرته فإن الحظ كان بجانبه لأن الشايقية لم يحملوا غير حراب وسيوف عادية ويرتدى قادتهم وبعض فرسانهم دروعاً إذا هى درأت عنهم ضربات السيف فليست بالتى ترد عادية الرصاص . واندفع الشايقية نحو جيش إسماعيل بنفوس أشربت حب القتال وتعوّده وقلوب لم يتطرق إليها خوف أو وجل يتدافعون بالمناكب حتى ينتهوا إلى خط العدو يطعنون ويتلقون الرصاص كأنهم فى حلقة اللعب لا فى حلبة القتال . وهم فوق هذا يقاتلون بدافع قوى إذ لا يريدون مفارقة خيلهم التى ألفوها وألفتهم ولا يريدون أن يلقوا بالحربة والسيف من أيديهم ليتناولوا المحراث أو يحملوا عصا الجريد يضربون بها ثيران الساقية .

حمل الشايقية حملة قوية زحزحت المغاربة والبدو ولكن عبدى كاشف التف من الجناح وحل محلهم فى المقدمة ونجح فى أن يرد حملاتهم الأولى وبدأ المغاربة والبدو فى استعادة مراكزهم والثبات فى أماكنهم مرة ثانية وكانت المجموعة من جيش إسماعيل تطلق بنادقها ومسدساتها وتتراجع لتملأها مرة ثانية بينما تأخذ مكانها فى إطلاق النيران فرقة أخرى حتى تعود الأولى التى عبأت أسلحتها لخط النار وظلوا هكذا يتناوبون إطلاق نيرانهم وظل الشايقية يتدافعون لينالوا من عدوهم فى قتال اليد باليد ولكنهم أخفقوا فى اختراق المربع وظل الرصاص يحصدهم حتى أدركوا بعد أن تركوا فى ميدان المعركة نحو السمائة قتيل أنه نوع من القتال لم يعدّوا أنفسهم له وأنه سلاح سرى بالنسبة لهم فبدأوا يتقهقرون فالفرسان منهم تمكنوا من النجاة أما البيادة فقد وقع أكثرهم فى الأسر وكانوا كلهم من العبيد أو الجند المرتزقة فى جيش الشايقية . ولجأ الناجون إلى قلاع أعدّت من قبل ينتظرون تجربة حظهم مرة أخرى مع الباشا .

واصل إسماعيل زحفه حتى أدركهم فى قلاعهم التى احتموا بها ولكنه تريث هذه المرة حتى أحضر المدفع وصار يدكها وواجهوا سلاحاً آخر أشد

فتكاً من الرصاص ينهال عليهم من مسافة بعيدة وذات مرة هبطت القنبلة دون أن تنفجر وراحوا يقلبونها ويمتحنونها حتى انفجرت فأهلكت من تجمع حولها وهنا أدركوا أنهم لا يقاتلون آدميين إذ أنهم لا يخافونهم بل حزباً من الشياطين ولم تغن عنهم بسالتهم أو أحجبتهم التى يلبسونها لمثل هذه المناسبات فخارت قواهم وهبطت روحهم المعنوية وفرّوا أمام الجيش دون ملاقاته .

سلّم بعض الشايقية أنفسهم وفرّ الملك شاويش وأتباعه عبر الصحراء ورحل إلى شندى بعيداً عن الجيش ليعطى لجسمه وفكره راحة واستجماماً حتى يفكر فيما يجب عمله . وكأن الشايقية لم يخلقوا إلا للجندية وخوض المعارك ومقارعة الرجال لأنهم حين وصل إسماعيل إلى شندى سلموا له وعملا بنصيحة والده فى التأليف والترغيب وثق فيهم واطمأنوا له وانخرطوا فى سلك جيشه وبدأت تلك المعاونة بينهم وبين الحكم الجديد معاونة استمرت كل أيام الحكم التركى — المصرى حتى نشوب الثورة المهدية .

بقية المماليك

تركنا المماليك وهم يفرّون جنوباً عند ما سمعوا بتقدم الجيش ورأيناهم يقيمون فى شندى حتى وصل إسماعيل إلى البر الغربى من بربر وهنالك قابله عدد منهم راجعاً من شندى مؤثراً التسليم على العناد الذى لاطائل تحته . أما الذين مازالوا يكفرون بمحمد على أولا وبمعاملته لهم فيما إذا سلموا أنفسهم ثانياً اتجهت أغلبيتهم الباقية نحو كردفان بخيولهم البيضاء يقودهم عبد الرحمن بك زعيمهم وفضّلت شرذمة أخرى الاتجاه شرقاً حتى الحجاز . فالفرقة الأولى يقال إنها وصلت ليبيا ولم يسمع عنها بعد ذلك والثانية انقطعت أخبارها منذ أن غادرت شندى وانتهى أمر شعب قدّر له أن يرتفع من العبودية إلى السيادة ويترك أثره فى الأقطار الإسلامية وفى مصر خاصة وحقبة من الزمن فى سوريا والحجاز وقدر لهذا الشعب ألا يحكم فقط بل أن يكون آخر الشعوب الإسلامية التى ترد كيد الصليبيين ويتم أمر إجلائهم عن الأراضى الإسلامية على يديهم وبذلك أتموا رسالة صلاح الدين الأيوبى . وكانت شندى المدينة السودانية آخر مدينة شاهدت مصرعهم ولفظوا فيها النفس الأخير من عظمتهم ونفوذهم ولم يبق لهم من أثر فى هذه البلاد إلا دنقلة الأوردى التى اختطوها وعمروها .

إسماعيل يختلف مع قواده

بعد انهيار مقاومة الشايقية بدئ بالاستعداد للمرحلة الثانية بعد أن خضعت دنقلا ودانت بالطاعة والولاء وقد ظل إسماعيل يتنطس أخبار الجنوب فنمى إليه أن نمراً ملك شندى يؤثر السلامة ولا يبغى حرباً أو مقاومة غير أن المساعد ملك المتمة وملك الحلفاية وحكومة سنار كلهم على استعداد للوقوف أمام الجيش الفاتح . ولنتركهم الآن فى استعداداتهم لعبور صحراء جكدول ولنرجع إلى القاهرة فى ديوان محمد على ونراه يولى جيشه فى الجنوب كل عنايته واهتمامه ويتلقى أخبار تقدمه وأنباء الانسجام أو الاختلاف بين قادته ، وقد عرف استبداد ابنه بالأمر دون اللجوء إلى قادته المجربين المحنكين ، ووصلته أنباء تذمرهم واستيائهم مما يعاملهم به إسماعيل الشاب وهو حريص غاية الحرص أن تكلل مجهوداته بالنجاح وقد عرف طباع ابنه وحدة مزاجه وعرف ما سوف يجر إليه عدم الانسجام والمعاونة من نتائج سيئة وحرر له الخطاب الذى اقتبسنا من فقراته ما يؤنبه فيه على معاملته للشايقية ، وهاهو يحذره من الاستبداد بالرأى والرضوخ لمشورة البطانة السيئة :

« فكيف يليق بك أن تجعل مثل سلحدارك الغر الغشيم قائداً على قوجه أحمد أغا وعبدى كاشف اللذين بمعيتك من الرجال المتدربين فى أمور الحرب فأحدهما لم يزل يخدم منذ خمس أو ست وعشرين سنة ، والآخر منذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة فهما وإن كانا يطيعانكم لكنهما على ثقل هذه الإطاعة على أنفسهما يتسليان بأنهما يتابعان نجل مولاهما لكنهما كيف يدخلان تحت حكم سلحدارك الذى نشأ من غير أن يحضر المعارك ولا أن يحادث أرباب الحروب وكيف يتسليان تحت حكم مثله وهما ليسا من الرجال الذين أتوا من ممالك الروم حديثاً ولم يشاهدوا العساكر ولا القواد حتى تجوز المعاملة معهما كالمعاملة مع قطائع الغنم ... فيدل عملكم المذكور وحركتكم المسطورة على أنكم ما صرفتم الذهن والذكاء إلى هذه الدقائق ولم تدخل فى أذنكم أصلا تلك الوصايا والنصائح التى كنت أسديتها إليكم بمصر . فياولدى ونور عينى إن من الواضح الجلى أن الأنانى فى هذا العالم يبقى بعيداً عن رضاء الحق سبحانه ، والمغرور يكون مهجوراً

فى نظر الكبار فأنصحك نصح الوالد أن لا تكون من هؤلاء الأنانيين والمغرورين لأن المصلحة التى انتدبتم لها مصلحة عظيمة ، والممالك التى تقصدها ممالك جسيمة ولا يتغلب المرء على مثل هذه المصلحة العظيمة إلا بالعدالة ، ولا يملك مثل تلك الممالك إلا بمراعاة الرجال المجربين المعتبرين الذين قاموا بأعمال وأنتجوا أموراً وبالاستشارة والمذاكرة معهم فى كل الشئون . فلذلك يا ولدى إن كنت تحبنى وتطلب رضاى فاجتنب من أن تكون أنانياً أو مغروراً . وبادر إلى تنظيم الأمور وتمشيتها بالاستشارة فى المصالح المتعلقة بالأمور الحربية والمواد النظامية مع قوجة أحمد أغا وعبدى كاشف ، وفى الشؤون الأخرى مع كاتب ديوانكم وأحمد أفندى الترجمان والمعلم حنا الطويل فأقصى مطلوبنا أن تسعوا بكل غيرة فى تحصيل وسائل توحيد الكلمة واتفاق القلوب فى كل الأحوال وأن تهتموا بمطالعة نصيحتى المبينة لهذه المفاهيم المرسلة سابقاً وهذه النصيحة مطالعة جيدة وأن تبادروا إلى العمل بموجبها ومقتضاها ، وأن تتيقنوا أنى أستاء منكم جداً إذا لم تقوموا بالعمل بنصائحى هذه » .

الزحف جنوبا

جمعت الجمال اللازمة لعبور الصحراء والوصول إلى ضفة النيل الغربية بالقرب من بربر ، وعلقت المدافع على أعمدة من الخشب حملت بين كل جملين واقتحموا الصحراء يقودهم الأدلاء الذين عرفوا مسالكها ودروبها ومياهها وحطوا الرحال على النيل عند الباقير ومنها ساروا جنوباً محاذين للنيل فإذا ما كانوا قبالة بربر سلم لهم البلاد صديقهم الملك نصر الدين ووافاهم هناك أيضاً أبو حجل ملك الرباطاب مطيعاً موالياً وكذلك فعل شيخ عربان الحسانية .

احتلال شندى

قامت الحملة من قبالة بربر بالغرب واجتازت أرض الجعليين وبعث نمر بابنه نائباً عنه ومظهراً للطاعة والانقياد ولكن الوشايات على ما يظهر بدأت تعمل عملها فبلغ الباشا أن نمراً لم يكن طائعاً من قلبه ، وأنه ما امتنع أو تجنب الحضور بنفسه إلا لأمر فى نفسه فألح الباشا على حضور عاهل الجعليين شخصياً ، فركب فى جماعة من حرسه وأتباعه يلبس الطاقية ذات القرنين

علامة الملك ويحمل له أحد عبيده شمسية كبيرة تقيه حر الهاجرة وتلقاه حرس من جند الباشا ودخل معسكر إسماعيل بهذه الهيئة وحلف نمر يمين الولاء والطاعة لسلطان تركيا وخلع عليه غير أنه لم يعط سيفاً كملك أرقو ونصر الدين وشيخ العبابدة وكانت هذه علامة الحلف والاطمئنان والثقة وفى هذا دلالة واضحة على أن إسماعيل لم يكن يطمئن إلى عاهل دار جعل.

ظل الجيش فى دار الجعليين مدة للاستجمام والراحة أولا ولجمع الجمال اللازمة ثانياً والظاهر أن عين محمد على الساهرة والتى ترقب حركات الجيش باهتمام زائد رأته يبطئ فى الاستعداد ويضيع الوقت ويهيئ الفرص للعدو يتجمع ويكمل استعداده فخاطب ابنه بأن الإبطاء لا مبرر له حيث أن البلاد التى حط رحاله عليها ذات شهرة بوفرة خيراتها وظن أنه ركن إلى الراحة فليمحصه النصح مرة أخرى فى عنف وشدة « ومع[1] ذلك لم تنجز مصلحة لحد الآن وهذا إنما ينشأ من عدم إمكان قيامك بأى عمل . وإنى كنت قلت لك مرات أنك مادمت تحب نفسك فوق حبك للرجال فإنى لا أحبك وكنت آمل أنك عملت بتلك النصائح وعدلت من تلك الأخلاق فإذا أنك لا تزال على تلك الأخلاق كما كنت فهلا تتخلى من هذه الخلال الرديئة ، وقد اتضح أنك المتسبب لهذه الأمور من عدم تحمل جسمك . اقلع عن هذا الخيال واستخدم من يصلح للأعمال من الرجال فى مختلف الأعمال على قدر الإمكان فها إنى أسديت إليك بهذه النصيحة لهذه المرة فإذا قلت فى هذه المرة أيضاً إنى لا أقبل نصيحة الوالد فوالله العظيم إنى لأستجلبنك مع بعض رجال من رجالك وأضعك فى بيت صغير لأن العار شئ لا يقبل الأولاد والنفس ، فيلزم أن تعلم ذلك بمنه تعالى وتسير على وفق ذلك السلام » .

فى الجزيرة

لابد من تأسيس حكومة تدير البلاد التى خضعت للآن قبل أن تصل الحملة إلى آخر مراحلها . فسمح لعبدى بالرجوع لمقر حكومته فى دنقلا وعين

---

(١) دفتر رقم ٧ معية تركى ترجمة مكاتبة تركية رقم ١٩٩ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٣٦.

محو بك لحكومة بربر وبلاد الجعليين وقام إسماعيل بجيشه مواصلا زحفه حتى حل بمقر أم درمان الحالية وهناك وافاه ملك العبدلاب وسلّم له ، وظل أربعة أيام يتمم ما نقص من جماله وتعبر جنوده إلى مقر الخرطوم الحالية ، وعندما تكامل الجيش بمعداته اتجه فى سهل الجزيرة جنوباً وهذه المرحلة يقصها علينا الشيخ أحمد كاتب الشونة فى مخطوطته ، وكان إذذاك بالمسلمية « فى أول رمضان سنة ١٢٣٦ نزل المومى إليه (اسماعيل) بأم درمان بالجانب الغربى مقابل الخرطوم فهرب منه بعض الناس وقابله البعض ، فأعطاهم الأمان لأنفسهم وكساهم وتكامل بالخرطوم فأخذ منهم قدر العليق وارتحل ولم تتبين لى محطاته فى ستة أيام من رمضان نزل بحلة وحيدة قبالى المسلمية فاجتمع ماهناك من الحكام والمراتب وغيرهم وقابلوه بتلك المحطة وطلبوا منه الأمان والإقرار على ما فى أيديهم فى الأحكام السالفة ، ومظالمهم الآنفة وأتوه بالضيافة من خرفان وسمن فلم يقبل منهم شىء إلا بالثمن ومعه حينئذ ملوك جعل الاثنين المقدم ذكرهما (نمر والمساعد) والأمين ولد الشيخ ناصر وأخذ عليق المواشى وارتحل ليلا فلحقاه رجب ولد عدلان ودفع الله ولد أحمد بالطريق فأعطاهم الأمان وكساهم وقلدهم السيوف مثل من قبلهم وسافر حتى نزل بمنى أو غيرها فقابله باقى الهمج والحزاب فأمنهم أيضاً وكساهم فرجعوا وأتوه بملك الفونج على عادتهم وزخرفتهم فأمنه وكساه بما يناسب مقامه وذلك آخر دولتهم وإظهار عظمتهم فدخل سنار فى ثانى عشر ليلة من رمضان المذكور فقابله من فيها وأكرم كلا منهم بحسب قانونه وحظه السابق » .

فشل المقاومة فى اللحظة الأخيرة

كيف تسنى لإسماعيل باشا أن يدخل بسنار بهذه السهولة دون مقاومة ما وما الذى أصاب جسم الدولة السنارية بما لها من شهرة طبقت الآفاق حتى تفتح أبوابها للفاتح ويقابل الملك الجيش المغير خارج عاصمته بالولاء والتسليم ؟ لم يكن للملك أقل نفوذ كما ذكرنا من قبل وإنما له من أدوات الملك المظهر والاسم فقط وكان آخر مشايخ الهمج وصاحب الكلمة النافذة والرأى المسموع محمد ود عدلان وكان رجلا سمح النفس عفيفاً يشعر بمسئوليته الجسيمة فاتصل

عند ما ترامت إليه أخبار الجيش بملوك الجعليين وملك العبدلاب والمقدوم مسلم فى تردفان وأخذ يستعد لملاقاة الباشا واتفق مع خلفائه بالتجمع فى الخرطوم وأرسل ابنه عدلان فى الطليعة وبينما هو فى استعداده ارتكب غلطة قادت إلى مقتله وإلى انهيار المقاومة .

ما كان له وهو فى حاجة إلى كل رجل فى مثل ذلك الظرف الدقيق أن يخضع لدسائس وريره الأرباب دفع الله ود أحمد ويكتب للشيخ أحمد الريح خليفة العركيين بالراحة من الخلافة لخصومة بين الخليفة المخلوع والوزير . فأضمر الشيخ أحمد الريح السوء لشيخ الهمج وتآمر مع منافس ولد عدلان حسن ود رجب وأتياه ليلا فى قرية منى وهو فى قلة من جنده واغتالاه . ولمّ شعث جيش المقاومة بعد مقتله أخوه رجب ولد عدلان وبدلا من أن يحمل علم المدافعة عن البلاد اتجه نحو قاتلى أخيه للأخذ بالثأر فلم يفلح وأصبح لا هو بالذى قضى على قتلة أخيه ولا هو بالمدافع عن ملكه . وأثناء ذلك الاضطراب والبلبلة دخل إسماعيل الجزيرة فسلم دفع الله ود أحمد مثير الفتنة بين العركيين وهرب حسن ود رجب قاتل ولد عدلان ولم يجد بادى صاحب المظهر والاسم بدا من الإذعان والطاعة . وزال بهذا ملك دام أكثر من ثلاثة قرون حفظ للإسلام والعروبة اسمهما وتقاليدهما فى حوض النيل الأعلى وروافده وقال صاحب المخطوطة المشار إليها فيهم :

تأبين مملكة سنار

« فهذا ما جرى من سيرتهم وانتهاء ملكهم فى العام المذكور فرحم الله الأموات منهم وعظّم الأجور فقد كانوا لأهل الخير قادة ولبيوت الفضل سادة فكم أووا غريباً وكم رحموا مسكيناً فجعلوه قريباً وقال فى حقهم من نعاهم لما رأى داعى المنون ناداهم وتجرع الصبر عند فقدهم وبلواهم ورثاهم بهذه الأبيات :

أرى للدهر إقبالا وإدبارا ... فكل حين يرى للمرء أخبارا
يوماً يريد من الأفراح أكملها ... يوماً يريه من الأحزان أكدارا
وكل شىء إذا ما تم غايته ... أبصرت نقصاً به فى الحال إجهارا

فلا يُغَرّ بصفو العيش مرتشد ... لأن إحسـانه ما زال غرّارا
فأين عاد وشدّاد وما ملكوا ... وأين فرعون والنمروذ إذ جارا
وأين كسرى وأين الوالى قيصرهم ... وأين جمعهم قد صار أخبارا
فأين ملكهم العالى وماملكوا ... كما حكى عن خيال الطيف إذ زارا
لكن من مات بالإيمان معتصما ... طوبى له على ما حاز أو طارا
والدهر هذا فلا تبقى محاسنه ... فيبدل المرء إحساناً وإضرارا
آه على بلدة الخيرات منشؤنا ... أعنى بذلك دار الفنج سنارا
آه عليها وآه من مصيبتها ... لم نسلها أين ما حللنا أقطارا
فأوحشت بعد ذاك الأنس وارتحلت ... عنها الأماثل بدواناً وحضارا
وصار عمرانها المحسون مندرساً ... يصيح بوم به فى الليل صرّارا
أضحت تعاينها من بعد بهجتها ... كأنها لم تذق للخـير آثارا

ومنها يمدح الهمج :

بالمجد كانوا كرام الناس منقبة ... بسيرة كاملين الفضل أحرارا
وكم لهم جاء ذا المسكين مغترباً ... أووا لغربته أنسوه أفكارا
كانوا كراماً بإحسان ومرحمة ... كانوا ملوكاً وأشياخاً وأوزارا
كانوا ليوثاً وأبطالا مجرّبة ... كانوا بحوراً وأشماساً وأقمارا
فلو رأيت بهم ما حل من ضرر ... أجريت دمعك إعلاناً وإسرارا
تبكى مساجد أهل العلم خامدة ... ترمى عليهم دموع الحزن أقطارا
فأبشروا بفضـل الله سادتنا ... فقد حظيتم بخير النزل أجهارا
تبكى مدارسهم تبكى مواطنهم ... تبكى القبائل بدوانا وحضارا
على كرام يزين الدهر مجدهم ... على ديار عليها الدهر قد جارا
فكل شخص وإن طال الزمان له ... فقد يكونوا على الأجداث زوارا

تجريدة كردفان

هذا ما كان من أمر الحملة القوية التى اتخذت طريقها إلى مملكة سنار وهذا هو النجاح الذى انتهت إليه . أما كردفان فكان يقوم على أمرها المقدوم

مسلّم ويدين بالولاء والطاعة لملوك دارفور وكان أن اختمرت فكرة تسيير الحملة على كردفان فى نفس الوقت الذى أصبح أمر حملة سنار أمراً لازماً وكردفان لها شهرتها بوفرة الخيرات . فما إن فرغت المراكب من نقل جنود إسماعيل وما إن بارحوا دنقله متجهين نحو بربر وبلاد الجعليين إلا وبدأت حملة كردفان تتحرك وشغلت مواصلات دنقلا بترحيلها وقادها محمد بك الدفتردار صهر محمد على . وتجمعت الجيوش فى الدبة وبمعونة الشيخ سالم شيخ قبيلة الكبابيش ذات العزة والمنعة عبر الدفتردار الصحراء التى تفصل ما بين النيل فى دنقلا وما بين الأبيض وباره فى كردفان وترامت أخبارها إلى المقدوم وعقد العزم على مقاومتها بكل وسعه ومعه خيالة كردفان ومشاة دارفور واتصلت الرسائل ما بين الدفتردار والمقدوم يطالب الأول بالتسليم صلحاً ويصر الثانى على المقاومة وفيما يلى مقتطفات من خطاب المقدوم للدفتردار فيه الإصرار على الحرب وفيه منطقة وحجته وفيه نموذج للغة الرسائل فى الجهات الغربية من السودان آنذاك .

خطاب المقدوم مسلم

« إلى[1] حضرة دفتردار تابع باشى محمد على . منى إليك جزيل السلام ومزيد التحية والإكرام . أما بعد فخطابك الذى أرسلته إلينا فهمناه وما فيه من جهة السيال[2] والطما[3] وغير ذلك فهمناه طيب إن كان نحن فى بلدنا مسلمين وتابعين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بالأمر والنهى فى زمان السلاطين المتقدمين أنتم أهل بحر ونحن أهل بر وكل سلطان يحكم أهل بلده بما قال الله ولا نحن تحت ملككم من زمان السابق : كل سلطان يحكم رعيته بما قال الله وهو المسئول . أما أنتم فغير مسئولين عن حكم ديار الغير »

ومنه « ولا ظهر فى زمن السلاطين المتقدمين من العثمانى من خاطبنا بهذا الخطاب ولا من يرسل التجريدة على بلاد الإسلام إلا أنتم فى زمن محمد على باشا غزيتم ديار المسلمين » .

ومنه « وأنتم مسلمين تحت سلطان آل عثمان خليفة رسول الله لكن نحن

---

(١) محفظة ١٩ وثيقة ١٩ . (٢) لعلها الصيال وهو الاعتداء .
(٣) لعلها الطمع .

خارجين فى حكمه ولا هو مسئول بنا يوم القيامة كل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة » .

ومنه « نحن ما خالفنا كتاب الله وسنة رسوله ولا عهد الله لكم بقدوم بلادنا . انتم غاصبين وظالمين وسايلين كما قال الشيخ فجاز دفع سايل . إن جيت بلادنا أنت سايل وظالم ونحن مظلومين إن متنا فى دارنا متنا مظلومين وشهداء بين يدى الله » .

وهذا الرد الصريح أفهم الدفتردار ألا مهادنة ولا صلح ولا تسليم فخرج المقدوم بجيوشه من عاصمته الأبيض والتقى بالجيوش المغيرة حوالى بارة وكما حدث مع الشايقية من قبل عندما تلتقى الأسلحة النارية مع السيوف والحراب انهزمت جنود المقدوم ولم تغن عنهم بسالتهم وصدقهم القتال وانتهت إمارة كردفان كما اندكت مملكة سنار قبلها .

الحكومة الجديدة

السرايا من سنار .

كانت الأوامر تتلاحق من القاهرة إلى اسماعيل وهو فى الطريق صوب سنار بما يجب أن يقوم به عند دخوله تلك العاصمة وفى مجموعها تشير إلى أن يقيم إسماعيل فى سنار نفسها ويرسل معاونيه للغزوات فى الجبال والبادية . وتنفيذاً لهذه الأوامر بعث الباشا من مركزه الجديد بكاتب ديوانه محمد سعيد أفندى على رأس ثلثمائة فارس إلى جهات الدندر ليطارد حسن ود رجب قاتل ابن عمه محمد عدلان المار ذكره فانهزم ووقع أسيراً هو وكبار أعوانه ونفذ أمر الإعدام فى اثنين ممن قيل إنهما رأس تلك الفتنة أخذاً بثأر ولد عدلان كطلب أبنائه وزج حسن فى السجن وأعفى من القتل لشفاعة كبار وعلماء سنار فى أمره ولأنه قد سهل نوعاً ما مهمة فتح سنار للباشا حيث أزال ركن حركة المقاومة محمد عدلان .

وبعثت سرية قوية بقيادة قوجة أحمد أغا إلى جبل تابى ورجعت بألف وتسعمائة من الزنوج وهى فى طريقها غزت عربان رفاعة وغنمت منهم ألفى جمل وألف بقرة وألف وستمائة ونيف من الغنم . وفى الحال بعث بكل

الزنوج والجمال والبقر لمصر كأول إرسالية لوالده ، وصدر الأمر للبك الكتخدا فى القاهرة من محمد على بأن يفرز من الزنوج الصالحين للخدمة العسكرية بمعرفة محمد بك لاظوغلى ويبقون فى إسنا للتدريب وإذا وجد ما يمكن عمله بالصبية والنساء فيستخدمون وإلا فيباعون للنخاسين فى إسنا وأصوان أو فى وكالة النخاسين بالقاهرة وأمر أيضاً ببيع الجمال والبقر .

إبراهيم باشا فى السودان

تمت عملية الفتح ووصلت أخبار الغنائم الأولى من منطقة سنار فليذهب إبراهيم باشا بما عرف عنه من أصالة فى الرأى وتجربة فى الحكم إلى السودان وبالاتفاق مع أخيه تنظم الإدارة وتوجه الغزوات بما يوافق أغراض الفتح ؛ سافر إبراهيم ونزل فى ضواحى سنار وظل الأخوان يجتمعان ويتشاوران وأخيراً قر رأيهما على القيام بحملتين قويتين . الأولى يقودها إبراهيم إلى الدنكة على البحر الأبيض والثانية يقودها إسماعيل إلى جبال الصعيد لأن والدهما يلح فى طلب الزنوج للجندية ويقول فى خطاب لإبراهيم باشا « وجلب السوادنيين هو غاية المراد ونتيجة المقصود مهما كانت الصورة التى يجلبون بها من مواطنهم » .

الغزوات لأجل الصالحين للجندية

ففى ربيع الأول سنة ١٢٣٧ أى بعد مضى أربعة أشهر على دخول إسماعيل سنار قام الأخوان صوب مأموريتهما وكانت الخطة المرسومة ألا يغار على القرى والجبال القريبة من سنار بل تغزى أراضى الدنكة وجبال الصعيد . فإذا ما تجمع عدد كبير من الأسرى الزنوج فرز عشرة آلاف من الصالحين للجندية يرسلون على جناح السرعة . فإذا ما تم إرسالهم يبعث ما بقى من نسائهم وأولادهم وهكذا إلى أن يتم نحو الأربعين ألفاً من المرد الصالحين للخدمة . على أن إبراهيم كان مصاباً بعلة الباسور قبل وصوله سنار ولقى من طبيب إنجليزى كان فى سنار ما أمكن من المعالجة وغادرها وهو بهذه الحالة . فلما وصل جبال القربين فى وسط الجزيرة وهو فى طريقه لأراضى الدنكة حتى اشتدت العلة عليه لدرجة لم يطق صبراً عليها فترك الجند لطوسن بك وقفل راجعاً لسنار ومنها للقاهرة ونجا الدنكة من شر الغارات وظلوا مطمئنين فى ديارهم عشرات السنين حتى جاء خطر الغزو والاصطياد فى أواخر عهد عباس الأول .

ولتقدير ما يمكن جمعه من الضرائب ولتنظيم الإدارة رأى إبراهيم باشا أن يجرى إحصاء تقريبياً لعدد القرى فى الأقاليم السودانية من أفواه الذين يوثق بكلامهم فكانت النتيجة أن قرى سنار والحلفاية تبلغ ٣٠٠٠ وفازوغلى ١٠٠٠ وكردفان ١٥٠٠ ، ولم ترد فى الوثائق إحصائية بربر والجعليين ودنقلة . ويرى إبراهيم أيضاً أن يعين قائمقاماً مع عشرة من الفرسان وعشرة من المغاربة على كل من ١٣ إلى ١٧ قرية ويقدّر إبراهيم أنه يمكن الحصول على ألف أو ألفين من الريالات من كل قرية .

محمد على يهتم بالسود للجندية

شغل محمد على بمسألة السود وإدخالهم سلك الجندية فأنشئت المعسكرات لهم فى إسنا وأصوان وأمر أن يُرتب مماليكه الشبان ضباطاً على هؤلاء السود وأرسلت الأوامر لمدير دنقلة بأن يقطع الأخشاب من مديريته ويرسلها مع تيار النيل إلى الصعيد لتبنى منها ثكنات الجنود وبعث بموظف خاص من قبل مدير جرجا ليقوم بنفس المهمة فى مديرية بربر . وعند ما علم أن عدداً من الزنوج يهلكون فى الطريق أمر بعمل نوع مخصوص من المراكب يسمى « نقورات » لترحيلهم . وإذا لم تجدِ هذه الطريقة أشار على مدير بربر باستخدام البشاريين يحملونهم عبر الصحراء ، وعين الأئمة من علماء الفلاحين يؤمون الجنود السود . وإذا ما طلب ابناه مدداً من الجند رد لهما بأن النجدات موقوف أمرها على ارسالها السود فعن كل ثلاثة آلاف من الزنوج يبعث لهما بألف من الجند واستعجلهما فى هذا الأمر لأن الدولة تحتاج إلى معاونته لرد عادية ولى عهد إيران الذى أغار على الحدود العثمانية . وصدرت الأوامر بتحريم تعاطى تجارة الرقيق بواسطة الجلابة للخارج ، ومن فعل منهم يبيع سلعته للحكومة حتى يتمكن من الهيمنة على هذا المصدر لسدّ مطالب الجندية . ولم يكتف محمد على بما يجلبه من رقيق فى الأقاليم التى تم فتحها بل تخاطب مع سلطان دارفور للاتفاق على جلب الرقيق من ذلك الإقليم ، وكذلك أمر بأن تجبى الضرائب لو أمكن رقيقاً من الذكور الصالحين للخدمة العسكرية .

سياسة محمد على فى توزيع الجند

رجع إبراهيم من السودان وقدّم تقريره وملاحظاته عن الحالة فى السودان لوالده فوصف له رداءة الطقس وعدم ملاءمته للجندى التركى فرتب الباشا سياسته الجندية على ما بينه فى الخطاب الآتى الذى بعث به إلى متصرف جرجا « وبديهى(١) أننا قد أرسلنا العساكر الحرارة فى معية أولادنا وما زلنا نرسلهم بغية أن يُجلَب إلينا من ولايات السودان رجال سود نستخدمهم فى أعمال الحجاز وما يماثلها من الخدمات وإذ أن حضرة صاحب العطوفة ولدنا الباشا والى جدة قد أتى فى هذه الأيام من السودان فقد سألناه عن أحواله فأخبرنا أنه قطر وخيم الهواء لا يصلح لإقامة الجندى التركى ، ولما كان الجنود الأتراك هم بنى جنسنا وكان من الواجب أن يكونوا بحسب الحال والوقت بجانبنا على الدوام وأن يُحمَوا ويصانوا من إرسالهم إلى الميادين البعيدة ذات الحرارة الشديدة فقد أوجبت الحال أن يجمع من أقاليم الصعيد مقدار من العساكر ليرسلوا إلى تلك البقاع فاستصوبنا أن تجندوا نحو أربعة آلاف جندى بحيث يكون هؤلاء الجنود قسمين : أحدهما يجند فى القرى الواقعة فيما بين منفلوط وقنا ويجمع من فرشوط ويقوم بأمر تعليمه وتدريبه إبراهيم أغا ناظر المهمات » .

محمد على يلح فى إرسال السود

رجع إسماعيل من غزوته فى الجبال الجنوبية ولم يك ناجحاً فيها إذ أنه لم يأت بأكثر من ٤٧٧ رجل يصلح للجندية وما بقى من النساء والأطفال وقدمنا أن إبراهيم اضطره المرض لأن يرجع دون أن يصيب مغنما . فلم ير محمد على بعينه قوافل السود تتوارد على مصر كما كان يريد ولم تمتلىء معسكرات إسنا وأصوان بأبناء إفريقية ذوى البأس والقوة والولاء لسادتهم ، ولكنه ظل يخاطب ابنه سر عسكر السودان بقوله « وإن(٢) المقصود الأصلى من هذه التكلفات الكثيرة والمتاعب الشاقة ليس جمع المال كما كتبنا إليكم ذلك مرة بعد أخرى بل الحصول على عدد كبير من العبيد الذين يصلحون لأعمالنا ويجدرون بقضاء مصالحنا » .

---

(١) دفتر ١٠ معية تركى . مكاتبة رقم ١٤٥ بتاريخ ٢٥ جماد الأول سنة ١٢٣٧ .
(٢) دفتر ١٠ معية تركى . مكاتبة رقم ٣٢٥ بتاريخ غرة القعدة سنة ١٢٣٧ .

وفى نفس الشهر خاطبه مرة أخرى بقوله « إن الغرض من انتدابكم إلى تلك الديار باختيار هذه المتاعب الشديدة ومن تعزيزكم بسواد عظيم من الجنود والمهمات واللوازم العديدة هو عبارة عن الحصول على العبيد اللازم ابتغاؤهم وفق المطلوب وإيصالهم إلى ثكنات أصوان غير معرضين للضياع والتلف. وليس فى نيتنا ولا فى نظرنا غاية أعز من هذا الأمل كما هو ظاهر وأن قيمة العبيد الصالحين للعمل عندنا بمثابة قيمة الجواهر نظراً لمقتضى الوقت والحال بل هو أعز من ذلك وأجل كما هو بديهى وأظهر » .

وهكذا نرى أنه قد مضت ثلاثة عشر شهراً منذ أن دخل إسماعيل سنار عاصمة الفونج ولم يتم لمحمد على ما أراد من فائدة عاجلة بفتحه السودان فالعدد المقتنص نتيجة الغزوات قليل ومسألة ترحيلهم وإيصالهم إلى مصر لم تكن بالهينة كما يبدو وفوق ذلك ظل الموت يقلل من عددهم سواء فى الطريق أو بعد وصولهم لمعسكرات مصر .

فرض الضرائب

أثناء غياب إسماعيل فى غزوته لجبال الصعيد اتفق مع سعيد أفندى وكيله والمباشر حنا الطويل على فرض الضرائب فسجلوا القرى ووضعوا ضرائب باهظة لم يألفها الناس من قبل فقد روئى أن يدفع صاحب الحمار خمسة ريالات وكذلك صاحب الشاة . وما كان لوكيل مثل محمد أفندى سعيد يريد أن يرتفع فى عين رئيسه أو لمباشر كحنا الطويل يريد أن تتضخم الخزينة التى يحرسها أن يفعلا غير ذلك وربما كانا يقيسان الحالة بمصر وهما يجهلان مبادئ الاقتصاد ويجهلان أن السلع تختلف قيمها باختلاف البلاد . وهذه المقارنة قادتهما إلى ارتكاب ذلك الخطأ الفاضح . فأهل السودان آنذاك أغلبيتهم تتعامل بالذرة والدمور كنقد والريالات المتداولة بين الناس قليلة . والسودانى الذى يريد أن يقوم بتأدية هذه الضريبة الباهظة قد يعوزه السوق الذى يبيع فيه ماشيته .

الثورة على الضرائب

إزاء ذلك الموقف الشاذ الذى لم يألفه السكان من قبل فر فريق منهم ملتجئاً بالحبشة وفريق آخر بدأ يفكر فى الثورة والانتقاض على الحكومة الجديدة وقد

أشاعوا فيما بينهم أن الباشا قد قتل فى الجبال ، فنال بعض الجند من جراء ذلك أذى وشعر المعلم حنا بما يضمره السكان بين جوانحهم ، فسافر إلى شندى مدعياً المرض وقد أرسلت الدفاتر المربوطة فيها هذه الأموال لمصر لاعتمادها ، وحينما رجع إسماعيل لدى سماعه هذه الأخبار بدأ فى استمالة الأهالى حتى يعودوا إلى سابق اطمئنانهم ووعدهم خيراً فيما يتعلق بالضريبة وبعث بهجان ليلحق بالدفاتر ويرجعها ، ولكنه لم يدركها فحذف إسماعيل جزءاً كبيراً منها بأن أنزل الخمسة ريارت إلى ريالين وأمر الجباة باستعمال الرفق واللين فى تحصيلهما .

الانتقال إلى واد مدنى .

لم يطب المقام للجند فى سنار لوخيم مناخها ، وقد عرفت منذ العهد الفونجى بذلك حتى أن ملوك سنار كانوا يبعثون بخيلهم فى زمن الأمطار إلى عبود فى وسط الجزيرة خوفاً عليها من الموت . رحل إسماعيل إلى ود مدنى وبنيت الثكنات ومكاتب الحكومة ورتب حكومة للقرى قوامها قائمقامات لكل عدد منها ويساعد القائمقام مشايخ للأخطاط .

إسماعيل يغادر العاصمة

مضت الآن سنتان منذ أن غادر إسماعيل الديار المصرية لفتح السودان وقضاهما فى قتال وغزوات ، وفى بلاد لم يألف غذاءها وطقسها . فالآن وقد هدأت الأحوال وعادت المياه إلى مجاريها بعد تهدئة الفتنة التى قامت فى سنار فليرجع إلى مصر يتمتع بالشهرة التى نالها بهذا الفتح ولعل القاهرة قد جهزت له استقبالا رائعاً كالذى قابلت به إبراهيم باشا حين عاد من فتوحاته فى الحجاز . فترك محمد سعيد أفندى وكيلا عنه فى ود مدنى وسار شمالا بحرس يتكون من مائتين وخمسين خيالا وقدر له ألا يغادر البلاد التى تم فتحها على يديه بل ليلقى حتفه وتفيض روحه فوق أرضها .

مطالب إسماعيل من نمر ومساعد

ترك الباشا خيالته فى مكان يبعد نحو عشرين ميلا جنوبى شندى وأسرع مع نفر من مماليكه الخواص وطبيبه وخازنداره إلى شندى . وما إن دخلها حتى استدعى الملكين نمر والمساعد وطلب منهما أن يحضرا من النقود والماشية والجمال ما يقدر بنحو العشرين ألف جنيه على حسب بعض الروايات ، أو على وجه العموم مبلغاً تقصر مواردهم المحدودة عن أدائه .

وكان إسماعيل يرهب والده ويخافه ، وقد عرف من الخطابات التى بعث بها إليه أن ماوصل مصر لم يكن بالشىء المنتظر من بلاد عرفت بخيراتها الوفيرة . فهو يريد أن يقدم لوالده هدايا قيمة من إقليمه الذى فتحه وأن ينال الرضا والتقدير . وهو لم يُسَرّ من الملك نمر والمساعد منذ أن قابلهما لأول مرة ولم يرض إلا بتسليم الملك نمر نفسه حين بعث هذا بابنه ، ثم إنه لم ينعم عليه بسيف علامة الحلف والمعاونة ولم يأنس لهما حين غادر شندى جنوباً بل أخذهما فى ركابه تحت المراقبة وأوكل بحراستهما الملك شاويش وخيالته . .

محادثة شديدة اللهجة

ودهش نمر لهذه المطالب وأبدى اعتراضه فى لغة وقوة لم يرض عنهما الباشا وما كان لنمر أن يخاطب بغير هذه اللغة لأنه نشأ على أن يأمر وتعوّد الخضوع والطاعة مع التقدير من شعبه وما كان لملك وملك الجعليين خاصة أن يراوغ فى كلامه أو أن يتحدث باللغة الدبلوماسية . وكانت لحظة حاسمة . هذا إسماعيل يبلغ السبعة والعشرين عاماً فى عنفوان شبابه وابن عزيز مصر وفاتح مملكة سنار والقاضى على حكمها ، وهذا نمر عاهل أولاد جعل أعز القبائل فى السودان والمتحدرة من سلالة العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ،ولا مجال للتحقيق فى صحة نسبتهم أوشعورهم بالتسامى والتفوق لأنهم نشأوا على هذه العقيدة ويستجيبون للمؤثرات ويتفاعلون مع الحوادث على هذه الأفكار والآراء . وإذا اضطرت الأقدار القاسية نمراً لأن يجلس أمام الباشا فى ذل وانكسار فإن لهجة الأمر التى كان إسماعيل يخاطبه بها وثقل المطالب زادت نار الثورة المخبوءة بين الجوانح تأججاً واشتعالا . وما رد الباشا على اعتراض نمر بكلمة قد تحتمل مهما كان وقعها ، ولكنه صفع الملك على وجهه بغليونه الطويل . طبيعى لمثل نمر وهو كما وصفنا عزه وقبيلته أن يرد الإساءة التى لحقته فى الحال . وفعلا ، كما روى قد همّ بسحب سيفه غير أن المساعد قد غمزه بيده فى رواية ، وتحدث معه بلغة البشاريين فى رواية أخرى بأن يرجئ الانتقام لفرصة أخرى . ولو عرف إسماعيل طباع الشعب الذى أخضعه لم يرتكب هذه الغلطة ولكان مد فى عمره أياماً أخرى وأنقذ البلاد مما أعقب مقتله من خراب ودمار ، ولكن هكذا أرادت مشيئة الخالق .

المؤامرة والاغتيال والفوضى

دبرت المؤامرة منذ تلك اللحظة بأن تغيرت سحنة نمر وأظهر القبول وتسليم المطلوب غداً ، وجهزت الدلوكة لتضرب احتفاء بالباشا وأسكر القوم حتى ناموا ، وأثناء السرور والانشراح وضع القصب الجاف حول مقام الباشا وأشعلت النار فى بهيم الليل ووقف الجعليون بسيوفهم يقضون على من يخترق النيران ويخرج إلى الفضاء ويقال إن المماليك أظهروا إخلاصاً لسيدهم بأن تراموا عليه ومات بالاختناق لا بالاحتراق فى ليلة ١٧ صفر ١٢٣٩ . هكذا تروى القصة بتفاصيلها وقد تختلف فى بعض أجزائها من رواة آخرين ولكنها فى جوهرها تقول بأن الأسباب هى مطالب باهظة مصحوبة بإهانة بالغة ، وأن الردكان اغتيالا دبّر وأحكم تدبيره . والوثائق الرسمية لا تنير الطريق فى هذه المسألة ؛ فهى تتركنا وإسماعيل قد غادر ود مدنى إلى الشمال وتنتقل بنا فجأة إلى حملات الدفتردار الانتقامية .

سمع محوبك مدير بربر وبعث رسولا خاصاً لمصر وسمع الدفتردار فى كردفان فنهض لتوه وساعته وجرد حملته الانتقامية . وسمع محمد سعيد أفندى الوكيل فى ود مدنى وأرسل ثلثمائة من الخيالة يستطلعون الخبر فوصلوا ملتقى النيلين وتأكد لهم فرجعوا إلى ود مدنى . وأثناء ذلك تكونت حركة مقاومة فى عهود بالقرب من ود مدنى عمادها الأرباب دفع الله ود أحمد وظلوا يراسلون قرى الجزيرة بالتجمع عليهم وموافاتهم هناك . وهم فى استعداداهم هذا دهمتهم تجريدة الوكيل عند الفجر فشتتت شملهم وفر من استطاع إلى الصعيد وتجمعوا مرة ثانية فى أبى شوكة ، ولحق بهم هذه المرة حسن ود رجب ، وللمرة الثانية لاحقهم جيش الحكومة وقضى على مقاومتهم قضاء نهائياً وبعدها هدأت الأحوال فى الجزيرة بكاملها .

المرحلة الأولى لحملة الدفتردار الانتقامية

تحرك الدفتردار بمعظم جيشه نحو النيل الأبيض فذعر منه عرب الحسانية واحتموا بالجزر التى على النيل ، ولكنه وصل إليهم على الأرماث وأوقع بهم مجزرة هائلة واتجه إلى البر الغربى للنيل وشياطين الخراب والدمار تسير فى ركابه حتى حل بالمتمة وأوقع بها حتى أربى عدد القتلى على الألفين ووقع فى أسره ما يربو على الثلاثة آلاف ، وهؤلاء قتلوا عن آخرهم أيضاً لأن بعضهم حاول تسديد ضربة من حربته نحو الدفتردار . وبعد أن ترك المتمة خراباً يباباً

اتجه إلى الشمال لملاقاة زعيمى الثورة نمر والمساعد حيث رحلا لمحاصرة بربر منذ أن قتل الباشا وحدث اللقاء معهما وهما فى عدة آلاف من قومهما واستعر قتال دارت دائرته على الجعليين بعد أن تركوا فى ميدان المعركة نحو الألف قتيل وبعد أن غرق الكثير فى النهر ، وبهذا انهارت تلك المقاومة الأولى وانفك الحصار عن بربر ، وتسنى لمحو بك أن يتقابل مع الدفتردار فى الدامر . وبعد الاجتماع والتشاور ورسم الخطط عاد محوبك إلى مركز حكومته واتجه الدفتردار ليعمل السيف فى بلاد الجعليين وعند ما كان قبالة توتى عبر إليها وقتل ونشر الذعر والرعب ثم واصل سيره جنوباً والخلائق تفر من وجهه ومن أدركه منهم قضى عليه حتى وصل ود مدنى . وبذا انتهت المرحلة الانتقامية الأولى حيث رجع إلى كردفان تاركاً الثوار ملتجئين بالبطانة بعد أن التحموا فى معركة أخرى مع محو بك .

اقتراح إقطاع كردفان

تبين الموقف فى السودان لمحمد على ورأى أن يشير على السر عسكر بإعطاء كردفان لأحد السلاطين أو الملوك على سبيل الإقطاع لتتفرغ الإدارة والجنود لحكومة إقليم سنار . ورأى محمد على هذا الرأى لأنه لم تمض سنتان تقريباً على الفتح حتى حدثت ثورات الضريبة فى سنار واغتيال ابنه وما أعقبه من حركات التمرد والعصيان ، ولكن الدفتردار لم يوافق على هذا الرأى بحجة أن ملوك كنجاره الذين يستطيعون حكم كردفان زال أثرهم ولم يبق غيرهم يتمتع بنفوذ يخضع له الإقليم المذكور ، فصرف النظر عن هذه الخطة وترك بالأبيض حامية لحفظ الأمن وقفل راجعاً لإقليم سنار حيث يقضى على الثوّار .

المرحلة الثانية لحملة الدفتردار

سمع الجعليون بقدوم السر عسكر فلجأوا إلى البطانة بالقرب من أبى دليق ووصل هو إلى بلاد الجعليين وجهز جيشاً يلحق بالثوار وحرّض القبائل الأخرى لتمدّ يد المساعدة والعون للحكومة والتقى بهم بمكان يدعى النصوب انهزم بعدها نمر بعد أن قتل عدد كبير من أهله وعشيرته ، واتجه مع نفر قليل من أصحابه حين انجلت المعركة شرقاً واستقر بالحبشة . وعند ما جمع الدفتردار الأسرى وجدهم ينوفون على الأربعة آلاف فيهم عدد من نساء نمر وبناته

وخالاته وعماته ، وسيق الكل إلى النيل أرسلوا بعدها إلى مصر ليباعوا فى سوق الرقيق ، لولا أن تدخّل قناصل الدول الأجنبية فى الأمر . وكانت موقعة النصوب فى شوّال بسنة ١٢٣٨ .

موقعة الدندر

تلاشت قوة نمر الآن بقتل من قتل وأسر البقية وفرار نمر نفسه فى قلة من أصحابه . أما المساعد فقد تراجع نحو الصعيد إلى مكان بين نهرى الدندر والرهد . وبعد فترة استجمام لا بد منها سار الدفتردار على شرق النيل الأزرق حتى أدرك الثوار والتقى بهم قبل أن يلحقوا بالحبشة ، فقتل الكثير وأسر نحو السبعة آلاف سيقوا كلهم إلى أبى حراز ولكن الضعيف منهم مات فى الطريق نتيجة العطش والتعب ، وجهز منهم خمسة آلاف يرسلون من إقليم سنار فى قوافل تشمل كل واحدة منها الألف إلى مدير دنقلة ليرسلهم بدوره إلى المحروسة كأسرى النصوب . واستراح الدفتردار قليلا على النيل ثم نهض شرقاً مطارداً لنمر وللقبائل العاصية ، ووصل إلى شرق كسلا فقتل وسبى ، ثم رجع إلى مكان إقامته بالنيل وبهذا ختمت صحيفة دموية لم يشهد السودان مثلها فى تاريخه .

تعين عثمان بك

صدرت الأوامر للسرعسكر بأن يجهز نفسه لمغادرة السودان هو وجنده وجند جنتمكان[1] إسماعيل باشا وعين من مصر عثمان بك أمير الألاى الأول لإدارة الإقليم . فتحرك عثمان بجنود الجهادية التى تدربت على النظام الجديد ، وأثناء مروره بالصعيد أوكلت إليه مهمة القضاء على حركة شخص ادعى المهدية فى إسنا ، وأثناء استئناف سيره جنوباً تمرد بعض الجنود فكاتبه محمد على موبخاً ومؤنباً ومذكراً إياه بأن يتودد إلى رجاله ويتواضع معهم بقوله : « ألا فليكن فى علمك أن الرجل المتكبر الأنانى المعجب بنفسه لا يسود فى هذه الدنيا ولا ينجح » .

وصل عثمان بك إلى ملتقى النيلين وأعجب بهذا الموقع فلم يواصل سيره إلى ود مدنى العاصمة وفضّل أن يبنى الثكنات والقلاع فى المكان الجديد ورسم خطته لوضع الضرائب الجديدة بعد حقبة الاضطراب والفوضى وكان فظاً غليظ

---

(١) ساكن الجنان .

القلب فنكل بالناس أثناء زياراته في الجزيرة وإقليم القضارف واتّسم عهده بالظلم والقسوة التي عرف بها عهد الدفتردار في حملاته الانتقامية وقبل أن تتم له إقامة ثمانية أشهر في إقليمه الجديد أصيب بداء السل وقضى نحبه وكان أول دفين من الحكّام في العاصمة التي أسسها .

محو بك يخلف عثمان بك

طيّر خبر موت عثمان بك إلى محو بك في بربر فخف في الحال للخرطوم، واستلم الحكومة إلى أن ورد له الأمر بتعيينه على سنار خلفاً لعثمان بك ورجع لبربر وأقام بها مدة ثم قفل راجعاً إلى الخرطوم ليقيم فيها نهائياً . وقد خفف محو بك كثيراً من الآثار السيئة التي تركتها سياسة الدم والنار من حملات الدفتردار وإدارة عثمان بك الغاشمة . فأغرى الأهالي بالرجوع لأوطانهم والاطمئنان لجانب الحكومة ، ومنع عساكر الجهادية من التعدى على الأهالي . وقد حالفته الطبيعة في يمنه بأن هطل الغيث وفاض النهر ودر الضرع وعم الرخاء بعد أيام عثمان بك بقحطها وجدبها وأمراضها .

آثار سيئة

تركت هذه الحوادث المتعاقبة أثراً سيئاً في نفوس أهل السودان ونظرتهم نحو الأتراك . وبالرغم من أن إسلام السودان يصل إلى درجة التعصب وبالرغم من أن الأتراك كانوا حماة الإسلام آنذاك وأن السلطان العثماني هو خليفة المسلمين قاطبة ، فإن السوداني في قريته الوادعة المطمئنة أشرب بغض التركي وكره منظر الجندي التركي بطربوشه وسوطه ، إذ ظهوره في القرية لأول وهلة يشيع فيها الخراب والاضطراب .

تقضت الآن ست سنوات معظمها غزوات لأسر سكان الجبال وإرسالهم لمصر للانتظام في سلك جندية الباشا على النظام الجديد ، وحملات انتقامية قام بها الدفتردار إن هي أعفت الأطفال والنساء من القتل فلأجل أن يرسلوا لمصر ، وسياسة الإرهاب والعسف التي أشاعها عثمان بك ، ثم قبل ذلك كله الضريبة التي ما ألفها السكان ولم يستسيغوا فداحتها أو الطريقة التي تجبى بها .
فلا غرابة إذا ما اقترن اسم الأتراك في نفوس السودانيين بكل ما هو جائر

وظالم لأنها هى الناحية التى تكشفت لهم من الصورة ، وإنصافاً لإسماعيل باشا نرى أنه لم يستبح ممتلكات الأهالى أو أعراضهم ، وأنه كان يدفع أجرة الجمال للحملة وأثمان الغلال والمواشى للمؤن ، وأنه أبدى عطفاً وأوصى بالرفق واللين حين علم فداحة ماوضعه وكيله ومباشره من ضرائب . غير أن نزعات الشباب وغروره والشعور بالتسامى والعظمة قد أودت بحياته وقضت على السمعة الحسنة نسبياً التى ارتبطت بفتحه الأول ولم يبق غير حملات الانتقام بعد ذلك ومظاهر الجور والظلم والإرهاق .

استقرار الإدارة والأخذ بأسباب العمران

تعيين خورشد أغا حاكما لإقليم سنار

بعد هذه الأحوال المضطربة عين خورشيد أغا ليكون حاكماً على إقليم سنار وهو السودان ما عدا كردوفان ودنقلة . وكان على الحاكم الجديد أن يرجع ما فقدته النفوس من ثقة فى الحكومة ، وكان عليه أن يرجع من فر ملتجئاً بالتخوم الحبشية وعددهم يربو على الاثنى عشر ألفاً ونجح أخيراً فى إدراك الغايتين فهو يجامل ويلاطف وينصف حتى اطمأن الناس على أنه لم يكن على غرار من سبقه وأغرى اللاجئين بإعفائهم من ضرائب السنة التى فيها يرجعون ، وقاد حملات إلى الشرق لا ليدمر ويخرب بل ليحمل على بعض الزعماء هناك الذين يمانعون فى رجوع الهاربين ، وهو فى هذه المهمة قد استعان بذوى النفوذ والكلمة من السودانيين كالشيخ أحمد الريح والشيخ عبد القادر ود الزين .

سياسة عمرانية

وجه خورشيد عنايته لعمران العاصمة فبعد أن كانت معظم بيوتها من الشكاب وجلود البقر ما عدا القليل من بيوت قبيلة البداناب[1] شيد الجامع بالطوب الأحمر وكذلك مبانى الحكومة وثكنات الجند وشجع الأهالى على البناء والتعمير بأن يفرق عليهم الأخشاب من جانب الحكومة .

كان محمد على يشرف بنفسه على ما يجرى فى السودان فى عهده الجديد ، وخاصة بعد تلك المعارك الدموية التى أعقبت مقتل ابنه ورأى أن لاسبيل إلى توطيد مركزه وتثبيت دعائم ملكه فى تلك البلاد الثائرة إلا بالعمل على رفاهية السكان والسهر على ما فيه راحتهم وما يجلب طمأنينتهم وثقتهم . وتنفيذاً لذلك رأى ألا سبيل إلى زيادة إنتاج البلد واستغلال ثروتها الطبيعية من زراعية وحيوانية إلا بتحسين المزروعات ونسل الحيوانات وإدخال الطرق الحديثة فى كليهما

---

(١) : فرع من قبيلة المحس .

وإرسال الخبراء المختصين من أجل ذلك الغرض : فأمر أن يرسل مع خورشد أغا ماينوف على المائة من الفلاحين والحولية وزعوا على الاخطاط المختلفة يعلمون الأهالى بالطريق العملى أحدث وأنفع طرق الزراعة ورأى خورشد بعد أن وصل مقر حكومته أن يرجع من أوفدوا للسودان قبلا لأشياء ثبتت بالتجربة أنها لم تكن بذات جدوى كخبراء زراعة الأفيون والدباغة وعمال الجبس والجير ورأى أن يستعيض عنهم بسودانيين يرسلون لمصر لتعلم بعض الصناعات والحرف ثم يعودون لبلادهم يمارسونها فيها .

ووضح لخورشد أن الإنتاج الزراعى يجب أن يبنى على الرى المستديم لا على الأمطار ، وطلب عمالا من مصر يجيدون صناعة السواقى المصرية لتروى أراضى بلاد الجعليين ، وطلب آخرين يحفرون الترع حيث تستغل مياه الفيضان وفى الجزيرة أغرى السكان الذين يقطنون بعيداً عن النيل بأن يبنوا بيوتهم عليه وينشئوا السواقى هناك ، وقد استحضرت أغراس الأشجار المثمرة من مصر لتزرع فى السودان وشجعت بعض المزروعات كالنيلة وقصب السكر . ولتحسين نسل الضأن الموجود بالسودان جلبت كباش ممتازة من مصر لتحقيق هذا الغرض . وبوجه عام امتازت الإدارة الجديدة بعد هدوء الأحوال واستقرار الأمن بنهوض عام هدفه زيادة الإنتاج واستغلال الثروة الزراعية والحيوانية :

عين محمد على الساهرة

لم يدخل محمد على فى مغامرته السورية ومناوأته للسلطان فى السنين الأولى من حكم خورشد ولذا نراه يشرف على دقائق الإدارة فى السودان . فالذى يطلب إعفاء أرضه من الضرائب لأنها وقف على مدرسة أو جامع يرد عليه الباشا نفسه بأن يطلب من الحاكم المختص التأكد من أن المدرسة قامت فعلا أو الجامع قد بنى ، وحين طلب خورشد أن يزاد مرتبه الذى كان يخصم من ماهيته شهرياً لعائلته زيادة ملحوظة يرد الباشا بأن هذه الزيادة فى المرتب لها دلالتها المؤدية إلى عدم نزاهة خورشد وأنه يعيش فى السودان بطرق أخرى

ولا يطمئن الباشا إلا بتفسير خورشد بأن ما يخصم يذهب بعضه لعائلات بعض الموظفين معه وأنه يتناوله منهم . وإذا أبدى خورشد بعض الحجج على صعوبة بناء المراكب فى إقليم سنار رد محمد على بنفسه مفنداً حججه الواحدة تلو الأخرى . وإذا طلب أن تبنى وتجدد الحكومة منزله فى القاهرة نظير مبلغ معين من مرتبه شهرياً رد له بأنه لا يصح للحكومة أن تترك أعمالها الرسمية وتشغل بتجديد منزله .

وبالرغم من ملاحظات محمد على الدقيقة وعينه الساهرة على ما يجرى فى ممتلكاته الجنوبية فإن الرشوة والاختلاس قد بدئ بالأخذ بهما ، وهناك أكثر من حادثة رشوة وإختلاس فى بربر ودنقلا عوقب المجرمون بما يستحقوه، سواء كان الرفت أو السجن أو مصادرة الأموال . وبلاد واسعة كهذه ومواصلاتها غير منتظمة وصعبة لا بد وأن يشتغل فيها الحكام والكشاف بإثرائهم أنفسهم .

لم ينس محمد على تزويد جيشه بالسود من السودانيين ، ولم يفقد الأمل من الجنود السود أيضاً رغماً عما كان يموت منهم بكثرة فى مصر والحجاز ، فكان يأمر بتحسين غذائهم ومسكنهم وكان يقترح على حاكم سنار ألا يبعث بهم إلى مصر رأساً عقب الغزوات بل يتركهم فى السودان الأوسط ليتعودوا على الطقس والحياة قبل إرسالهم لمصر أو الحجاز . واستطاع خورشد ورفيقه حاكم كردفان بعد أن اطمأن السكان أن يصدرا عدداً كبيراً من الماشية للانتفاع بها فى صعيد مصر للسواقى والجمال لترسل للحجاز من أجل ترحيل مؤونتهم وذخائرهم وكذلك جلود البقر .

ترقية خورشد

رقى خورشد أغا إلى رتبة أمير اللواء وسمى مدير الأقاليم السودانية وأصبح يعرف بخورشد بك فى سنة ١٢٤٩ هـ . وفى سنة ١٢٥١ هـ رقى إلى رتبة المير ميران الرفيعة وعرف بعدها بخورشيد باشا ومنح لقب الحكمدار ، وجاء فى فرمان تعيينه ما يلى «[1] وسس كافة الأهالى بسياسة طيبة واجعل الاهتمام ببسط العمران

(١) دفتر ٦٦ معية تركى أمر كريم رقم ٦٧ بتاريخ ٢٨ ربيع الأول سنة ١٢٥١ .

والرفاهية فى هذه الأقاليم كالأقاليم المصرية نصب عينيك كما هو المنتظر منك » .

ملاحظات على الرق

كثر تردد السائحين الأوروبيين منذ أن تم الفتح ولاحظ بعض الإنجليز الذين حضروا هنا أن بعض الجند والضباط يعطون رواتبهم رقيقاً لا نقداً ونقلوا هذه الظاهرة التى شاهدوها إلى قنصل انجلترا العام المستر كامبل وكان يتمتع بثقة محمد على وتقديره ، بل بلغ درجة الصداقة من نفسه فأسرّها لمحمد على فى إحدى محادثاته ، فتأثر الجناب العالى وكتب إلى الحكمدار يأمره بإبطال هذه العادة بقوله « ولما كان من واضحات الأمور مبلغ استهجان هذا النظام لدى الدولة المشار إليها قد وجب إلغاؤه مراعاة لما استحكم بيننا وبين هذه الدولة من روابط الصداقة المتينة وعليه فيجب أن تكفّوا فيما بعد من إعطاء العبيد والجوارى بدلاً من العلوفة وأما إن قلتم إن الأخذ بهذا النظام يعود على الميرى بفائدة فأقول لكم دعوا الفائدة فى جانب فأنا مستعد لقبول الضرر والخسارة فى هذا السبيل ولذلك أطلب إليكم بصورة قطعية أن تلغوا النظام المذكور » .

وعند ما استلم الحكمدار هذا الأمر رأى للأخذ به أن يجمع مجلساً كبيراً ينظر فيه وفى أمور أخرى تتعلق بالأمن العام والمالية . فتوافد المديرون على الخرطوم ومعهم ٢٧ من مشايخ الأخطاط والأقسام وعلى رأسهم شيخ مشايخ جزيرة سنار الشيخ عبد القادر ود الزين وقرروا العمل بالأمر الكريم وتوزيع هذا الرقيق على الجهات ليباع وأثمانه تدفع مرتبات وكان هذا أول مجلس كبير عقد فى الحكمدارية للنظر فى الشئون العامة . ولم يكن هذا الاجراء إلغاء للرق إذ بيع ودفعت أثمانه ماهيات .

الذهب

شغل محمد على بمسألة استخراج الذهب من معادن بنى شنقول منذ أن استلم الجوربين اللذين بعث بهما ابنه اسماعيل حينما غزا تلك الجهات وبعث بالأسطوات (المهندسين) الإفرنج لذلك الغرض والظاهر أن الروايات التى سمعها عن كثرة الذهب كان مبالغاً فيها جداً والأبحاث الأولى لم تسفر عن نتيجة تبشر بالنجاح ومع ذلك طلب أن يقدم تقريراً بآراء المعدّنين وأمين المعدن مصطفى بك ، وقد اختلفت آراؤهم وتباينت وانتقل هذا الاهتمام بشأن المعدن إلى الحكمدار حيث رأى أن يقوم برحلة خاصة من أجله غير أنه بلغته أخبار

مؤامرات فى الشرق استلزمت الانتباه لها وصرف النظر عن المعدن فى ذاك الوقت .

حوادث الحدود مع الحبشة

لم تحدد التخوم ما بين بلاد السودان والحبشة ، وما كان فى الإمكان تحديدها ورجال العصابات يسيطرون عليها ، وكانت الجبال الحبشية ملجأ للفارين سواء من الضريبة أو من تجريدات الانتقام . وقد حدثت بعض مناوشات بين الرءوس الحبشية وجيش الحكومة أسرفى بعضها الضباط . وطارت الإشاعات بعد تلك الاشتباكات الصغيرة على أن الأحباش على اتفاق مع بعض القبائل السودانية المتاخمة وبعض الفارين الذين لم يعودوا إلى بلادهم بعد . والإشاعة تقول إن المتآمرين ينوون النزول من الجبال بعد أوان الخريف مباشرة ، وإن رجال القبائل إذا ما طلب إليهم من الحكومة بالمقاومة فليتظاهروا بذلك وبعدها ينقلبون على جيش الحكومة وإذا ما تم النصر ترجع البلاد فى الجزيرة وإقليم سنار إلى حكم أهلها الذين كانوا يحكمونها قبل الترك .

نجدة أحمد باشا

بلغت هذه الإشاعات حداً من الذيوع قاق له الحكمدار وبالرغم من أنه سمح له بالنزول لمصر للمعالجة من داء الناسور لم يسعه إلا البقاء وبعث برسالة مستعجلة لمصر يصوّر فيها ما ترامى إليه من أخبار وطلب النجدات القوية السريعة . واهتم محمد على بالأمر وبعث بقوة عظيمة على رأسها قائد برتبة ميرميران وهو أحمد باشا الذى سُمّى بأبى ودان أو أبو اضان . والقوة فى طريقها للسودان جمع الحكمدار مالديه من جند وخف إلى الشرق لملاقاة العدو الذى ربما تحدثه نفسه بتنفيذ المؤامرة ، ولحسن الحظ لم تنزل المكادة من جبالها ولم تعلن القبائل عصيانها ، وكأنما كانت الإشاعة مبالغاً فيها أو أن القبائل ذعرت وخافت من قوات الحكومة . رجع الحكمدار بجيوشه وتقابل مع قائد النجدات فى ود مدنى ورجع الجميع للعاصمة وسافر خورشد باشا للمعالجة من دائه .

مغادرة خورشد باشا

وكان وداعه رهيباً وحزن على فراقه كل الأهالى إذ عرفوا فيه الحاكم المقتدر العادل الذى ساسهم نحو الاثنتى عشرة سنة أنساهم خلالها ما لحقهم من

جور وظلم أثناء سنين الدفتردار الدموية ووصف رحيله الشيخ أحمد كاتب الشونة بقوله «وتجهز بكامل مالديه ونزل بالمراكب فصعب ذلك على الأهالى جميعاً وصاروا عند وداعه يتباكون بالدموع حتى قيل إن الشيخ عبد القادر هجر نفسه من الأكل والشراب يومين حزناً على فراقه» .

أحمد باشا أبو ودان

عين أحمد باشا أبو ودان مأموراً على الأقاليم السودانية لاحكمداراً ليقوم مقام خورشد باشا أثناء غيابه ، ولكن بعد أشهر من ذلك بقى خورشد فى مصر وصدر الأمر بتعيين أحمد باشا حكمداراً وهو من مماليك محمد على الشراكسة حارب فى سوريا فى جيش إبراهيم باشا وحمل نبأ سقوط عكا لمحمد على فى زمن قصير جداً وارتقى فى جيش الباشا حتى وصل رتبة الميرميران . وكان عهده استمراراً لعهد الحكم القوى الموطد الأركان والدعائم الذى بدأه خورشد وعرف بأنه مثال الحاكم الحازم العادل وقال عنه الشيخ أحمد المذكور «وضبط الحكومة أشد الضبط من غير إهمال ولا تفريط وأبطل كل ما كان من تعدى العساكر على الفلاحين من تسخيرهم فى الأشتغال وتسخير بهائمهم فانزجروا جميعاً ورفعوا أيديهم كلية خوفاً من سطوته وبذلك ارتاحت الأهالى وزادت العمارة وكثر الخير وخصبت الأراضى ورخصت الأسعار وحتى صار أردب الذرة بخمسة قروش وصارت أيامه أحسن من أيام سلفه وإن كانت أيام سلفه أيضاً حسنة فى نفسها» .

عرف أحمد باشا بكثرة الصمت وقلة الكلام وبذا عظمت هيبته فى النفوس وأصبح يخافه ويخشى بأسه الجند والحكام مهما بعدت أقاليمهم وكان لإدارته أثرها الحسن فى تأمين الطرق وانهماك السكان فى مزارعهم وتربية مواشيهم .

ضيق المالية

عين أحمد باشا حكمداراً ومحمد على تحتل جيوشه سوريا منذ ثمان سنوات وتضخمت المصروفات دون أن توازن بما يعادلها من إيرادات ولذا نراه يلح على أحمد باشا فى إرسال الصمغ ليفرج بعض الشىء الضائقة المالية وإذا طلب أحمد باشا ربط مرتبات لمشايخ القبائل والقرى يبدى الجناب العالى اعتراضه

على ذلك دون أن يمنعه منعاً باتاً . وأخيراً فكّر فى الاهتمام بأمر المعدن ورأى أن يقوم برحلة لفازوغلى خصيصاً لهذا الغرض . وطلب أولا أن يذهب لمصر مصطفى بك الذى كان مشرفاً على شؤون المعدن وسافر فعلا بمعية خورشد باشا .

محمد على السودان

بحث كل الاستعدادات التى يجب القيام بها من تعيين العمال وجمع العدد والآلات وغيرها وجهزت لوازم سفر الجناب العالى من ذهبيات لسفره وخيل يمتطيها فى السودان وحاشية كاملة لم تفقد حتى عامل الشيشة ، والقهوجى باشا ، ونقود تصرف على أعمال المعدن وخلع وكساوى تعطى للمشايخ والأعيان . وعند ما تمت الاستعدادات ترك عباس باشا ابن طوسن قائمقاماً بدله وغادر مصر لزيارة أراضيه الجنوبية . لم يقم كثيراً فى الخرطوم بل غادرها ليصل الروصيرص ويظل هناك خمسة عشر يوماً لتكامل المعدات واللوازم وعند ما تكاملت قام إلى فازوغلى وحط رحاله بها ، وفى الحال بنيت مساكن العمال وشيدت المستشفيات وثكنات الجند وقصر لمحمد على وبرزت إلى الوجود قرية عظيمة فى فازوغلى . وبعد أن شاهد العمليات الأولى لتصفية وصهر المعدن قفل راجعاً من فازوغلى .

ولو أن مهمته الرئيسية كانت تنحصر فى شئون المعدن إلا أنه لاحظ ما ينقص إدارته فى السودان وكتب وهو هنا على جناح السرعة إلى عباس باشا بأن يرسل عدداً من الكتاب الأكفاء قابلوه عند رجوعه لمصر فى أسوان ولم يكتف بذلك بل أمر بإيعاث غيرهم ووصف الحالة من حيث الإدارة بقوله[1] « عندما طفنا أرجاءالسودان وتفقدنا أحوال العباد والبلاد ألفينا أن الأقسام والمناطق قد ترك أمرها لجماعة من الكشاف وأن البلاد ينقصها الكثير من الكتاب الأكفاء الذين فى مقدورهم مواجهة الأمور والأحوال الطارئة ومعالجتها وقد عرض علينا أحمد باشا حكمدار السودان حاجة السودان إلى الكتاب الأكفاء فكتبنا من الخرطوم إلى ديوان معاونتنا فى هذا الشأن ولما بلغنا أسوان

(١) دفتر ٢٨٠ شورى المعاونة ملكية وثيقة رقم ٢١ بتاريخ ١١ محرم سنة ١٢٥٥ .

في طريق عودتنا إلى مصر وجدنا هناك أكثر من ٤٠ كاتباً قد أوفدوا من مصر للخدمة في السودان غير أننا لا نزال نرى أن الحاجة ماسة إلى بعض الأكفاء لاستخدامهم في مركز الحكومة والمصالح الهامة ليتسنى بذلك ترقية البلاد وإصلاح حال العباد ولا أهمية للمال إذا ما صرف في هذا السبيل » ؟

فتح التاكة

فكر أحمد باشا في توسيع رقعة حكمداريته بأن يفتح بلاد التاكه فهي غنية بمواردها الزراعية كما سمع عنها . فتجهز بجيشه وسار إلى شندى ، ومنها اتجه شرقاً حتى وصل قوز رجب التي تقع على ضفة نهر عطبرة اليسرى ، وشرق ذلك النهر مفازات قليلة المياه فأخذوا ما يكفيهم من المياه ودخلوا تلك الأراضي المجهولة لديهم واتصلوا بأطراف ما يروى القاش من أراض وسلّمت لهم بعض القرى في الأطراف دون مقاومة . غير أنهم بدخولهم في أراض مشجرة وعرة قابلهم الهدندوة بالمقاومة ، فبينما هم في وسط الأشجار في هيئة مربع هجم عليهم العربان ليلا فانطلق الرصاص من فوهات البنادق عليهم وابلا مدراراً فارتدوا على أعقابهم وزحف الجيش بعد هذا الانتصار حتى أتوا لمجموعة من الآبار ردمها العرب وفرّوا ، فأصلح الجند من شأنها واستقوا منها وبدأوا يقطعون الأشجار ويشقون الطريق للتوغل في الغابات وإخضاع السكان .

فلما رأى العرب تصميم الجيش على الاحتلال بسلاحه الرهيب طلبوا الصلح والمفاوضة وتم ذلك وأقام الحكمدار معسكره في المكان الذي عرف فيما بعد بمدينة كسلا ، وأنشئت الاستحكامات وشيدت مبان لمقر الحكومة . وما أن انقضى الخريف حتى سمعوا بتمرد من بعض العربان في نواحي كسلا فقاموا لإخضاعهم وكالعادة دخل العرب الغابات فقطعت الأشجار وتوغل الجيش فيها وتلقى هجمات قوية باسلة ردتها النيران ، وفرّ العرب بعد أن تركوا نحو المائة قتيل في ميدان المعركة وانقضى بذلك عنصر المقاومة الأخيرة .

وقد دهش أحمد باشا لخصب الأرض التي يرويها القاش ، وبنى سداً ليحول المياه نحو أراض جديدة حتى تجف الغابات التي كان يرويها ويزيلها

نهائياً حيث لا تعود كميناً للعربان مرة أخرى ووجد الأهالى قبله يستخدمون أنواعاً من السدود ويزرعون القطن والذرة واللوبيا . ومن الأقاليم الواسعة التى بسط سيطرته عليها رتب مديرية جُعلت كسلا عاصمتها وبعد أن أقام أشهراً ترك بها مديراً وحامية عسكرية وقفل راجعاً للخرطوم .

مطامع أحمد باشا ووفاته

بدأت الإشاعات تحوم حول نيات أحمد باشا عند رجوعه من كسلا وقيل إنه يريد أن يفصل السودان من حكومة محمد على ويضعها تحت سلطة تركيا ويعين هو والياً كمحمد على نفسه فى مصر وقد تحدث Werne الألمانى الذى كان معه فى كسلا بأن الباشا كان يسهر ليالى بأكملها يفكر فى هذا الأمر ويتناول القهوة باستمرار . وإذ بلغت الإشاعات حداً من الذيوع حتى اتصلت بمحمد على استدعى الحكمدار لمصر والظاهر أن أحمد باشا تباطأ حتى قلق محمد على وبدأ يرسل الخطابات تارة لمدير جرجا وتارة لمدير دنقلا أو بربر يطلب منهم موافاته بما علموه عن أحمد باشا ويسألهم هل وصلهم أم سمعوا أنه غادر الخرطوم .

وأخيراً توفى أحمد باشا تحت هذه الظروف . وكما شاعت أخبار نياته نحو فصل السودان شاع أيضاً أنه قتل مسموماً بإيعاز من محمد على إشاعة جعلت محمد على يقول لمدير الوجه القبلى وهو ممن لهم علاقة بالمتوفى ما نصه « والله العظيم وبالله الكريم إننى لا أحمل فى نفسى للباشا المرحوم أى شىء من السخط ولا أشك فى إخلاصه وإنى لأقدر مبلغ جهوده وقيمة خدماته وأعرف ما كان يكنه لى من المودة والولاء وأنا واثق من ذلك » .

اللامركزية

وبموت أحمد باشا انقضى عهد الحكمداريين العظام ولم يشأ محمد على أن يعين مكانه حاكماً قد تحدثه نفسه بمثل ما حدثت أحمد باشا ، أو أن يشاع عنه بمثل ما أشيع عن الباشا المتوفى وهو حريص على أن تبقى ممتلكاته الجنوبية فى يده حرصه على مصر نفسها . والآن وقد مضت عليه أربع وعشرون سنة كان فيها السودان جزءاً متمماً لمصر لا يريد أن يبتر هذا الجزء بعمل طامع فى الحكم . دارت هذه الأفكار فى رأس العزيز عند ما بلغه نبأ وفاة الحكمدار »

ورأى أن يرتب الإدارة فى ذلك القطر المترامى الأطراف على أساس يبعد احتمال تحقيق أى غرض من شأنه أن يطوى سلطته ونفوذه فى السودان ، ولذا وصل إلى النتيجة الطبيعية التى يصل إليها من كان فى مثل هواجسه ومخاوفه آنذاك وهى لغو ذلك المنصب العظيم الذى ربما يكون شاغله من ذوى المطامع والاستعاضة عن النظام القديم بتقسيم البلاد إلى مديريات ترجع فى أمورها رأساً إلى مصر ويتعاون المديرون فيما بينهم لإنجاز المصالح المشتركة . وتحقيقاً لهذا التغيير الإدارى رأى أن يبعث بمن يثق به لتركيب الآلة الإدارية الجديدة وتشغيلها . فعهد بذلك إلى أحمد باشا المنكلى وعينه منظماً لا حكمداراً يمكث ريثما يتم الوضع الجديد ويقفل راجعاً لمصر .

تقسيم المديريات

صدر الأمر الكريم بتعيين اللواء حسن باشا لمديرية دنقلا التى وسعت حدودها حتى المتمة وشندى . وأمين باشا للجهات العليا وهى تبدأ من المتمة وشندى وتشمل الخرطوم والنيل الأبيض والجزيرة حتى ود مدنى والأقسام الشرقية للنيل الأزرق ، وسليمان باشا لمديرية سنار وهى ما يلى ود مدنى جنوباً من الجزيرة حتى حدود فزوغلى وشرق النيل الأزرق كأقسام القضارف وراشد وأرض العطيش والقلابات ، وسليم باشا لمديرية فزوغلى وهى أعالى النيل الأزرق ، وفرهاد باشا لمديرية التاكة ، ومصطفى باشا لمديرية كردفان :

والأمر الذى بيد المنظم يطلب إليه أن يوزع العساكر على هذه المديريات بقدر ما تحتاجه كل منها حسب حالة الأمن واحتمال وقوع الثورات والاضطرابات ، وكذلك توزيع الكتاب والموظفين ، وإذا كانت البلوكات ناقصة يعهد إلى كل مدير إتمامها بمعرفته وأن يطلب إلى المديرين التعاون والمؤازرة وفيما إذا طلب أحدهم مدداً وعوناً من أخيه فعليه إجابة مطلوبه . فإذا ما أنجز الباشا هذه المأمورية رحل بمن بقى من الجند إلى جبال المنجم فى فازوغلى ويخصص وقته وجهده لاستخراج الذهب ويبعث بآرائه واقتراحاته فى هذا الصدد ويبقى هناك إلى أن تصدر له إرادة أخرى بما يجب عمله . وكان محمد على يستبشر خيراً بالنظام الجديد ويقر بأن من كانوا يحكمون البلاد قبل هذا وخاصة فى المديريات

لم يكونوا من ذوى الكفاءة والمقدرة ، ويقول للمنظم فى إحدى مكاتباته[1] « إن بلاد السودان من البلدان التى تدرّ الكثير من الخيرات غير أن الذين عيّنوا لإدارة مختلف جهاتها حتى الآن لم يكونوا من طراز اللواءات الذين اختيروا أخيراً لتولى شؤونها ، ولذا لم تتقدم البلاد السودانية وظلت فى حاجة إلى الإدارة الرشيدة الحازمة ».

صعوبات المنكلى

لم تكن مهمة المنكلى بالهينة كما يبدو فقد بادره المديرون بعدم الطاعة والانقياد لأوامره لعلمهم أنه ليس بحكمدار وأنه أتى لغرض خاص ، ولكنهم مستقلون فى إدارتهم استقلالا كاملا ويرجعون فيما يبرمون من أمر إلى مصر رأساً ، وبلغ من حمزة باشا مدير الخرطوم أن أعلن للأهالى أنه ليس المطاع والحاكم المتصرف ولا رئيس فوقه فإذا ما قدم الأهالى عرائض شكواهم للمنكلى وحوّلها هذا بدوره للمدير نكّل بهم المدير ولم يسمع لشكاواهم إلا إذا قدمت له بالمباشرة لا بالواسطة ، والأهالى معذورون فى ذلك لأنهم لم يألفوا شخصاً يقيم فى الحكمدارية لا تصرّف له ولا نفوذ . فشكى المنظم هذه الحالة فى مكاتبة طويلة عدّد فيها ما يلاقيه من مشاكسة وعدم انصياع من المدير المذكور . والظاهر أن محمد على أدرك أنه لا تصلح الأحوال إلا برجوع الحكمدارية ولكن من ينتخب يجب ألا يكون فى مثل قوة ومطامع أحمد باشا المتوفى . فرجع المنكلى بعد أن قضى ما يزيد على السنتين .

الحوادث فى زمن المنكلى

بالرغم من أن أحمد باشا لم يتمتع بسلطة الحكمدار رسمياً إلا أنه فى الواقع ونفس الأمر كان عليه أن يلعب هذا الدور . فهو الذى قاد الجيش وأخضع قبائل التاكا عند ما ثارت ، وهو الذى يبلغ الأوامر الخاصة بتجارة الرقيق للمديرين ويراقب تنفيذها ، وهو الذى عهد إليه بأن يمنع التجار من ممارسة تجارة الصمغ لأنه ملك الدولة وليس لأحد غيرها أن يربح منه حيث أنه نبت الأرض بالطبيعة دون أن تعمل يد الإنسان عملا يذكر فيه ، وهو الذى اقترح

---

(١) دفتر ٣٦٩ معية تركى وثيقة رقم ٣٥٣٧ بتاريخ ٢٤ القعدة ١٢٥٩ .

لمحمد على تخفيض مربوط الضرائب على المديريات السودانية وكان رد الجناب العالى فى لغة التأكيد رفض الاقتراح « يا أحمد[1] هل مرادك أن أتخلى عن بلاد السودان باستئذانك منى بالتجاوز عن تلك المقادير من النقود من المديريات المذكورة من غير موازنة بداعى أن الوارد لايقوم بالمنصرف أم تريد أن تتظاهر بأنك مخلص فى عبوديتك ؟... اجمع الباشوات المديرين واعمل معهم مقايسة بين كل مديرية مصرفاً ووارداً بعد تنزيل ما أردت تنزيله فإن كان الوارد يغطى المنصرف فيكون ذلك التنزيل فى محله وأما إذا كان الوارد أقل فانظر فى صورة حسنة توجدها للموافقة بين المنصرف والوارد وأخبرنى بها » .

امتازت الحقبة التى مكثها المنكلى فى السودان بالاهتمام الزائد فى ترحيل المواشى من كردفان والبحر الأبيض لمصر ، وكانت ترد المكاتبات من مصر ملحة فى ضرورة إرسالها وجهزت لها محطات على النيل مبتدئة من الترعة الخضراء على النيل الأبيض ومنتهية بأسوان وعددها خمس وتسعون محطة . وفى عهده نشطت حركة التجارة فى النيل الأبيض بالمراكب وطلب الأجانب الدخول فى الجنوب لجلب سن الفيل والريش وهذه التجارة بدأها المرحوم أحمد باشا بالاتفاق مع مدير الخرطوم ، ورأى المنكلى أن تحتكرها الحكومة غير أن محمد على أدرك ما يجره هذا المنع للأجانب حيث إنه قد يفسر تعدياً على الامتيازات التى يتمتع بها الأجانب فى الممتلكات العثمانية .

الدول الأجنبية ومسألة الرقيق

وفى عهد المنكلى زاد ضغط الحكومة الإنجليزية على محمد على فى التشديد بمنع الغزوات لجلب الرقيق وكان يرد بأنه أصدر أوامره فى هذا الصدد ، ولكن قد يحدث عصيان من بعض القبائل الزنجية أوتعد من قبيلة على الأخرى وتزحف الجنود بالضرورة ومن أسر من الصبيان والنسوة يرد لأهله ومن كان فى سن الجندية يدخل فى سلكها ولا يعامل معاملة الرق[2] بل يتمتعون بكامل حريتهم

---

(١) دفتر رقم ٣٧٦ صادر من ديوان المعية وثيقة رقم ٢٨٧٧ بتاريخ ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٠ .

(٢) من خطاب خسرو باشا قنصل الإنجليز من الدفتر رقم ١٠ عابدين ص ١٧ بتاريخ ٢٥ محرم سنة ١٢٦٠ .

ولا يمنعون التزوج مثل الجنود المجندة من الأهلين حسب اللزوم لسد النقص الموجود فى الجنود كما هو الجارى فى كل بلد ويستحقون الرتب حسب النظام العسكرى ، فيقطعون مراحل التربية والتمدن الإنسانية قطعاً متواصلا ، الأمر الذى يؤدى إلى ارتياح الأهلين المتمدنين . فأقصى أمانى مولاى المشار إليه عدم حدوث تلك المعاملة غير اللائقة ومشاهدة تلك الأقطار تنتشر فيها التربية والتمدن باستمرار حتى ينال سموه عطف الأمم المتمدنة وحكومة انجلترا الفخيمة خاصة ، وإذا كانت الحقيقة كما وصفت فيظن أن الأنباء المترامية المفيدة بوقوع الغزو ناشئة عن عدم اطلاع بعض السياح على حقيقة الحالة » .

ونرى الطلبات ترد إلى المنظم بإرسال بذرة القطن المزروع فى السودان لمصر . وتبرهن إدارة كردفان على أنها تهتم برفاهية الأهالى وحمايتهم من الآفات الزراعية حيث أنها جندت العساكر والأهلين لمقاومة خطر الجراد وإبادته وإتلاف بيضه ، وعلى العموم فالإدارة كانت رشيدة لا بأس بها بالقياس لذلك الزمن سوى ما ظهر من اختلافات ومشاكسات بين الحكام أنفسهم .

خالد باشا

غادر أحمد باشا المنكلى البلاد يرافقه الشيخ عبد القادر ود الزين شيخ مشايخ جزيرة سنار والأرباب محمد دفع الله أحد مشايخها ، فأكرم الجناب العالى وفادتهما حين وصولهما وسر من ولائهما وإخلاصهما نيابة عن السودان وسرّا مما لقياه من كرم الضيافة وحسن اللقاء . وعين خالد باشا خلفاً للمنكلى ولكنه أصبح حكمداراً لا منظماً وأكد الجناب العالى ذلك فى فرمان تعيينه الذى بعث به إلى المديرين والقضاة والعلماء والنظار والمشايخ ، وكان الحكمدار الجديد ورعاً تقياً هادئ النفس وليس على غرار أحمد باشا وخورشد باشا من حيث القوة والكفاءة ، ولعل محمد على أراده ، كذلك والإشاعات التى رويت عن مطامع أحمد باشا لا تزال ماثلة فى ذهنه .

والظاهر أن محمد على فى هذه المرة بث عيونه وأرصاده ليرى مسلك الحكمدار الجديد ولتحمل إليه أنباء كل ما يجرى فى السودان . فكانت التهمة

الغالبة فى الإرادات والمكاتبات الموجهة إلى الحكمدار هى بلغنا واتصل بنا وليست ردوداً فى غالبها على مقترحات خالد باشا . فمرة يذكر له أن القوارب التى تصعد فى النيل الأبيض لأجل التجارة تؤذى قبيلة الشلك ويأمره أن تكف هذه القوارب من الأذى ، ومرة أخرى يخبره بانشغال الجنود والضباط بالتجارة ويذكره بمخالفة هذه للأصول الحكومية .

مصوع وسواكن

منذ أن تأسست مديرية التاكا كان عربانها يفرون ويلتجئون بمنطقتى نفوذ سواكن ومصوع هرباً من الضرائب والتكاليف الحكومية الأخرى ، فرأى محمد على أن يطلب من الباب العالى ضمهما للسودان نظير نسبة تدفع من جماركها لخزينة جدة ، ووافقت حكومة الاستانة على هذا الطلب وبذلك قلت الصعوبات الإدارية التى كان يواجهها حكام التاكا وحكمدار السودان .

الذهب مرة أخرى

تجدد الاهتمام بالذهب واتصل بالحكومة أن شيبون فى جبال النوبة بها من الذهب مقادير عظيمة ويزيد فى جودته على ذهب فازوغلى وجهزت الحملات العسكرية لتوسيع ممتلكات الحكومة فى المناطق التى يظن وجود الذهب بها فى فازوغلى ، وأرسل عدد كبير من العمال والأسطوات وآلات استخراج الذهب وتصفيته وسبكه مع المهندسين والأطباء والكتاب والمحاسبين لإبداء مجهود جبار للحصول على هذا المعدن النفيس قبل اليأس منه نهائياً .

توتر العلاقات مع الحبشة

وقد توترت العلاقات وقتاً ما بين حكومة السودان والرأس كاسا المتاخم للسودان الشرقى بمطالبة الأخير من القبائل السودانية القريبة من الحدود بضريبة تدفع له رغم أنهم يدفعون لحكومة السودان ، ولم يتنازل الرأس إلا تحت ضغط التهديد بتسيير الجيوش عليه..

فرار أهل الشمال من الضريبة

وهناك ظاهرة أيدتها لنا الأرقام بدأت منذ الفتح وهى هجرة سكان الشمال وخاصة دنقلة وفرارهم إلى كردفان أو إقليم سنار هرباً من الضرائب الباهظة . فقد ادعى أحد مديرى مديرية دنقلة السابقين فى سنة ١٢٥٦ أن زمام المديرية كان ٥٩٠٠ ساقية خربت منها ٥٥١ ساقية خراباً كاملا ، وفر رجال ألفين

وإحدى عشرة سافية وبقى فى بعضها رجل واحد وثور واحد وفى البعض الآخر رجلان وثوران : فكما رأت القبائل البدوية فى إقليم سنار الفرار إلى حدود الحبشة والدخول فيها أحياناً خوفاً من فداحة الضرائب كذلك بدأ رجال دنقلة فى الهجرة جنوباً اتقاء لضريبة لم يألفوها من قبل وهذا يفسر لنا وجود جاليات كبيرة من سكان دنقلة منبثة فى مديريات كردفان والخرطوم والنيل الأزرق . ومع أن دنقلة قد فقدتهم إلا أنهم نقلوا نشاطهم وخبرتهم بفلاحة الأرض إلى الأقاليم التى استوطنوها فزادوا فى إنتاجها .

إدارة محمد على

توفى محمد على فى ١٣ من سنة ١٢٦٥ بعد أن حكم السودان تسعاً وعشرين عاماً تقضت الست الأولى منها فى الفتح والاضطراب واستقرت إدارته المركزية الممعنة فيها والى تدار على نظام أوتوقراطى صارم عماده الجند ومطلبه من السكان الطاعة والانقياد . وإدارته التى أقامها فى السودان هى على نمط ما كان يدير به مصر آنذاك والكل مقتبس من النظام التركى الذى كان ينتظم أجزاء الدولة العثمانية .

محاسنها

ومن محاسن إدارته أنه أزال الفوارق التى كانت قائمة بين الممالك الصغيرة فى السودان والغارات والحروب التى ظلت سائدة بين كل قبيلة وأخرى . وتأمين المواصلات بين أجزاء القطر بأكمله وقد كانت مضطربة : والإدارة الموحدة التى أعطاها محمد على للسودان قللت نوعاً ما من العصبية القبلية وهذا التحاجز وانفصالية الديار التى كانت متحكمة فى عهود الفونج وإن لم تقض عليها تماماً . فالمجموعة المترحلة والمسافر المنفرد كلهم يشعرون بأنهم فى ظل الحكومة التى تهيمن على البلاد بأجمعها لا فى ظل ملك دار أو شيخ قبيلة . وفتح السودان أتاح له الاتصال بالعالم الخارجى يتأثر بالمدنية القائمة آنذاك وقد هرع السائحون له لمعرفته وتقصى أحواله ؛ وفوق هذا اتبع سياسة عمرانية رشيدة تهدف إلى تحسين الزراعة وطرق الرى وزيادة الإنتاج الحيوانى بجلب العمال المهرة وحفر الترع والسواقى الحديدة وسلالات الحيوانات والأشجار المثمرة وتقاوى المزروعات الجديدة .

مساوئها

ولكن لهذه المزايا مقابل من المساوئ ليست بالجديدة على أجزاء المملكة العثمانية ولكنها جديدة على السودان . فجشع الحكام والعمل لإثراء أنفسهم أشاع الرشوة والاختلاس وترك مثلا سيئاً للسكان يقتدون به . والضرائب التى مهما خفت أعباؤها فهى ثقيلة على كاهل السودانى ولم يألف ما يماثلها من قبل وخاصة سكان البادية الذين لا يقتنعون حتى الآن لماذا يدفعونها وطريقة جبايتها بواسطة الجند يزيد فى سيئاتها .

وبالرغم من أن محمد على كان يسعى لإصلاح شؤون البلاد التى يحكمها ويتمنى تقدمها ورفاهيتها لكن إدارته المالية كانت على أساس تجارى بحت فهو يريد استغلال موارد البلاد الزراعية والتجارية لجانب الميرى وهو لا يحتمل مهما كانت الظروف أن تزيد مصروفاتها على إيراداتها . وقد اشتهرت السنين الأولى لحكمه فى السودان بغزوات الجبال لإنزال السود من معتصماتهم وتسييرهم إما لأسواق الرقيق أو لمعسكرات الجندية وزامل ذلك قسوة أحياناً أثارت ثائرة الأمم الأوربية وخاصة انجلترا وإنصافاً له نقول إنه أصدر الأوامر المشددة لعماله وموظفيه فى السودان لإبطال تلك العادة وغيرها عند ما تبين له خطؤها وخلا عهده الأخير من أعمال القسوة والعنف اللذين اتصل بهما عهده الأول .

وفارق الحياة ولم يحقق مطالبه الرئيسية التى من أجلها فتح السودان غير أنه جعل لأول مرة فى التاريخ حوض النيل إلى فشودة وحدة إدارية .

إدارة عباس الأول ومحمد سعيد

تربّع عباس الأول بن طوسون بن محمد على على الأريكة الخديوية فى سنة ١٨٤٨ بعد وفاة عمه إبراهيم وجده الهرم لا يزال على قيد الحياة : وكان خالد باشا لا يزال الحكمدار فى السودان . والظاهر أن خالداً والحكام فى المديريات انتهزوا فرصة شيخوخة محمد على وعدم انتظام الأمور وتهاونوا فى الإدارة بل اشتغلوا بما ملأ جيوبهم ولا نرى نشاطاً لخالد باشا إلا فى مسألة الذهب لا رغبة فى زيادة إيراد الحكومة بل لينتفع به هو شخصياً ولذا تبين لعباس ولمجلسه أن الأمور ليست سائرة على ما يرام فى السودان وأنه يجب أن تغيّر الأداة الإدارية . ونلاحظ أن عباساً استخدم المجالس فى إدراته . فما من قرار إلا ويصدر فى معظم الأحيان فى المجلس المخصوص أو العمومى :

تعيين عبد اللطيف باشا

عين عبد اللطيف باشا وغادر مصر للسودان فكان من الأعمال الأولى التى قام بها أنه أثبت على خالد باشا اختلاس بعض مال الحكومة فاستصفى منه ألف كيس[1] وردها للخزينة العمومية ورفعت رتب المديرين فى الأقاليم من القائمقام إلى الميرالاى وقرر مجلس العموم لائحة يسير العمل بمقتضاها فى السودان وهى أن من يخدم فى دنقلة يبقى هناك ثمانى سنوات وفى الخرطوم ست سنوات وفى كل من سنار وكردفان وفازوغلى والتاكة أربع سنوات ولا يصح لأى موظف أن يغادر مقر خدمته إلا إذا حضر من يحل محله ولا يسمح له بالذهاب لمصر أثناء تلك المدة إلا بشهادة طبية تمتحن صحتها فى المحروسة ويعاقب الطبيب والموظف إذا ثبتت اللياقة الطبية . وإذا ألف الموظف الإقامة فى مركز خدمته وطلب البقاء وكانت الشهادة عن عمله مرضية فله أن يبقى مدة أخرى .

---

(١) الكيس يساوى ٥٠٠ قرش .

وقد أجرى عبد اللطيف باشا بعض التعديلات فى المديريات فأدمجت فازوغلى فى سنار وفصلت دنقلة من بربر وجعلت كل منهما مديرية قائمة بذاتها مع إضافة بلاد الجعليين إلى الأخيرة . ودعمت الأداة الحكومية بعدد من الكتاب والمحاسبين والأطباء والأجزاجية . واهتم لطيف باشا أيضاً بعمارة الخرطوم فأنشأ من المبانى الحكومية ديوان الحكمدارية وديوان المديرية والمطبعة ومحكمة العموم والأجزخانة وقشلاقات الطبجية وكلها بالطوب الأحمر .

وفى هذا العهد توالى دخول الرهبان والمبشرين فى السودان وأنشئت القنصليات بالخرطوم وكانت أولها القنصلية النمساوية وقد طلب لطيف باشا من مصر إبعاث مترجم يكون واسطة للمخاطبات بين الحكومة والقناصل ورد الجناب العالى صريحاً بأن المكاتبات تحرر باللغة العربية كما فى مصر آنذاك ؛ وشاهدت حكمدارية لطيف باشا أيضاً نشاطاً من جانب التجار الأوربيين فى أنحاء السودان وخاصة بعد إنشاء القنصليات وزادت الحركة التجارية فى البحر الأبيض زيادة ملحوظة :

الحكدار يشدد على الأجانب

ولما رأى الحكمدار تكالب الأوربيين على التجارة فى السودان وأرباحها المضاعفة شكى أمرهم إلى الجناب العالى واتهمهم بشراء الرقيق وأنهم يحملون الأسلحة ويحملها من يؤجرونهم وبذلك يظهرون بمظهر الحكومة ويقترح أن يمنع هؤلاء من الاتجار وتحتكر الحكومة السن ويشتريها التجار فيما بعد بالمزاد ورأى أن يجعل تجارة الصمغ صعبة المنال للأوربيين فأصدر التنبيهات المشددة للمديرين وخاصة فى كردفان بأن يحدد سعر القنطار الصمغ بستين قرشاً وأن الحكومة تقبله بذلك الثمن مقابل الضرائب المطلوبة وأمر بألا يسمح للأهالى ببيع صمغهم بأقل من ذلك الثمن وإذا خولفت هذه الأوامر فالعقاب يحل بالبائع والمشترى . فالبائع يعاقب بضرب السياط إذا ما باع بأقل من السعر المحدد وكذلك شيخ بلدته وكذلك التاجر المشترى وقد روى القنصل الإنجليزى أن مدير كردفان ضرب أحد التجار الإنجليز بيده تنفيذاً للأمر .

الأجانب يشكون الحكمدار

قدم القناصل فى الخرطوم شكاوى شديدة اللهجة ضد لطيف باشا معتمدين على وجوب حرية التجارة وبما للأجانب خاصة من امتيازات فى الممتلكات العثمانية وزادوا على أن الحكمدار أساء إلى رهبان الكاثوليك فى الخرطوم وظلمهم بالرغم من وجود فرمانات من ساكن الجنان محمد على بحسن معاملتهم وختموا العريضة المشتركة بقولهم « لطيف باشا لا يليق أن يبقى قابضاً على زمام الحكم فى تلك البلاد السعيدة المدة الطويلة بل الخير للحكومة أن تختار بدلا منه رجلا مجرّباً خبيراً معلوم الأطوار » . ومن غرائب المفارقات أن يقوى نفوذ الأجانب فى السودان فى أول عهد عباس بالرغم من كرهه الشديد لهم بخلاف سياسة جده معهم . فتجارتهم توسعت وقنصلياتهم أنشئت ورهبانهم بدأوا تبشيرهم وتعليمهم فى عهده . وفوق ذلك فقد اشتد ضغطهم عليه حتى أنه أصدر قراراً فى نفس الشهر الذى وصلته فيه العرائض باستدعاء لطيف باشا وتعيين رستم باشا مكانه وهذا لم يبق كثيراً حيث عاجلته المنية وتوفى بالخرطوم .

مدرسة الخرطوم

ومما عرف عن عباس فى مصر أنه أقفل المدارس التى فتحت فى عهد جده ولكنه فى السودان أمر بفتح مدرسة كبيرة وعين لها رفاعة رافع الطهطاوى ناظراً وبيومى أفندى مدرساً أول وضابطاً وأرسلت المعدات لها من المحروسة ولكنها لم تبق إلا عهد عباس حيث أقفلت فى أول عهد سعيد . ولم يصدر عباس فى سياسته هذه عن رغبة خالصة لنشر العلم والتعليم فى السودان ولكنه كان مدفوعاً فى الدرجة الأولى بالإساءة إلى رفاعة بك وغيره من رجال العلم بإبعادهم عن مصر إلى السودان . ولم يتبين لنا الأثر الذى تركته هذه المدرسة ولكن مما لا شك فيه أن وجود أمثال رفاعة وبيومى وغيرهما فى الخرطوم كان له بعض الأثر فى الطبقة المتعلمة فى السودان آنذاك وقد ذُكروا بالخير وحزنت الخرطوم على وفاة بيومى أفندى فيها .

وشاهد العصر العباسى وقف العمل فى معدن الذهب لأنه كان يعود على الحكومة بالخسارة وكذلك لغو مصلحة المواشى السودانية فى أسوان لأن ما يصل

سالماً منها إلى مصر كان قليلا نسبياً . وتعاقب على السودان فى وقت قصير عدد كبير من الحكمداريين فبعد وفاة رستم باشا عين إسماعيل باشا أبو جبل فطرد من خدمة الحكومة بعد مدة واستردت براءة اللواء منه لارتكابه بعض المخالفات فى السودان وترك خلفه سليم باشا صائب الخدمة بقرار طبى وكان الحكمدار على باشا سرى حين مات عباس وجلس على الأريكة الخديوية محمد سعيد باشا . وبالرغم عما يقال عن عباس ورجعيته فإنه كان مغرماً بالتنظيم فى الإدارة وكان يطالب بمستوى عال فيها فى السودان .

ود الباب العالى أن لو استعاد سلطته كاملة على ولاة مصر بعد وفاة محمد على وفى السودان خاصة استرد مينائى مصوع وسواكن وقدم أحد الموظفين الكبار عريضة إلى الاستانة يتظلم فيها من إرغامه على الخدمة فى السودان وقد رد له الباب العالى بإعفائه منها فأثار هذا احتجاج عباس وطلب من رجال الاستانة ألا يفعلوا مثل هذا لأنها سابقة خطرة على مركزه وهيبته كحاكم على السودان .

إدارة محمد سعيد باشا

اعتلى محمد سعيد باشا الأريكة الخدية فى ١٨٥٤ بعد أن نال قسطاً وافراً من التعليم والتدريب الغربى فأفاد أفقاً واسعاً ونظرة إنسانية عالية واهتماماً برعاياه فى مصر والسودان ومنذ البدء كان يعجب بالشعب السودانى ويحدب عليه وأصدر أوامره بتأليف بلك أو أورطة سودانية خاصة تجمع أنفارها من الأورط المختلفة واستصحبها كحرس خاص له فى رحلة له فى الصعيد لتأديب عربان الوجه القبلى وهو الذى رقى الجنود السودانيين إلى مراتب الضباط وكتب إلى الحكمدار بانتخاب ألف ومايتين جندى من الألايات السودانية فى سن الشباب وقوة الجسم وجمال المظهر يرسلون لمصر ليكونّ منهم حرساً خاصاً على ما يظهر .

إبطال تجارة الرقيق

وعمل سعيد ما كان يجب أن يعمل من قبل فى بلدين يستظلان برأيه واحدة وحكم واحد فقد ألغى الجمارك التى كانت قائمة بين مصر والسودان وهو

الذى أصدر أمراً صريحاً لا بإبطال غزوات صيد السود فقط بل المنع الصريح للاتجار بالرقيق فقد أصدر إرادة كريمة إلى حكمدار السودان هذا نصها :
«صورة[1] إرادة كريمة إلى حكمدار السودان أن مبيع وشراء الجوارى السود والعبيد الذين صاير جلبهم من السودان ودارفور صار منعه من طرفنا كلياً وقد صدر أمر من طرفنا فى هذا التاريخ إلى المالية لأجل التحرير إلى كمرك أسوان وإلى مدير جرجا وأسيوط فى خصوص عدم إعطاء الرخصة للجلابين المارين عليهم بالأسرى إلى مصر فحين تصير هذه الممنوعية معلومكم يلزم الدقة والاعتنا التام فى منع مبيع وشرى الجوارى والعبيد ببلاد السودان سراً وجهراً وإذا وجد جلابين بيدهم أسرى وقاصدين الجلب إلى مصر يصير حصرهم وإرجاعهم إلى محلهم فتستمر هذه الممنوعية على الدوام بحيث لا يرد أسرى إلى مصر ذكوراً أو إناثاً من بعد هذا كلياً فيلزم الحذر والمجازية من وقوع ما يخالف هذه الإرادة فى حكمداريتكم» وكان البحارة الذين يعملون مع التجار الأوربيين فى النيل الأبيض يحضرون معهم بعض الرقيق فأمر بضبط هؤلاء وعتق الرقيق المجلوب .

على باشا سرى مثال الرشوة والاختلاس

كان الحكمدار حينما ولى سعيد العرش على باشا سرى ولم تر السودان قبله ولا بعده حاكماً انغمس فى الرشوة والاختلاس مثله ولم تشهد العاصمة تركياً — وقد رأت منهم الكثير — يفخر ويجهر بما قبضه من طلاب الحاجات والمطامع فسقطت هيبته فى النفوس حتى أن بعض الضباط عند ما يأمرهم بالنقل إلى جهة أخرى فى الحكمدارية يرفضون ذلك وحتى شكاه أعضاء المجلس[2] فى الخرطوم

---

(١) دفتر ٧٢١ قيد الأوامر واللوائح بديوان خديوى مكاتبة رقم ١٠ صفحة ١٣ بتاريخ ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٨١ .

(٢) كانت القضايا الهامة ترسل لمجلس الأحكام فى مصر للتأييد والمراجعة إن كان بها نقص ولكن لصعوبة المواصلات رؤى أن يؤلف مجلس فى الخرطوم لهذا الغرض وحضر أعضاؤه من مصر برئاسة محمد مهرى بك .

بعريضة مسهبة أبانوا فيها سوء تصرفاته وارتكابه للمخالفات التي لا تليق بحاكم مثله وأراد على باشا هذا أن يترك أثراً طيباً في نفس الخديوى الجديد فبعث إليه بألف وستمائة وخمس وعشرين قطعة من الذهب السنارى المتجمع في خزينة الخرطوم ولكن لم تلهه هذه عن تصرفات الحكمدار فأصدر أمره بتخليته عن الحكم بل طلب إلى الحكمدار الجديد تحقيق ما نسب إلى الحاكم المخلوع من قضايا فحصر منها كشفاً طويلا أقر فيه من دفعوا له مبلغاً على سبيل الرشوة. ولاقى عذاباً وإهانة وذلا من خلفه أثناء التحقيق حتى قدم عريضة إلى الجناب العالى بما لاقاه من تعذيب فكان الرد أن ترسل التحقيقات والباشا المخلوع إلى مصر؛

تعيين الأمير عبد الحليم باشا حكمداراً

ولفرط اهتمام سعيد بالسودان أجاب الطلب الذى طلبه عبد الحليم باشا أخوه بأن يعين حكمداراً للسودان فصدر الفرمان بتعيين الأمير حاكماً للأقاليم السودانية وقد ورد في الفرمان مخاطباً سكان السودان[1] « تحيطون علماً وتدركون معرفة وفهماً أنه لما كان من أقصى آمالنا إدخال جميعكم في سلك العمار والرفاهية ... وقد كثرت إلى الحكمدارية السلف أوامرنا العديدة واستمرت إليهم التنبيهات الأكيدة بإقامة شعائر العدل ونشر ألوية اليمن والإيمان وهم عجزوا عن القيام بالوفى وكان من اللازم أنى أجرى ذلك بتعيين من نثق به الاهتمام بأجرى هذه الأمور وبذل كمال الاعتنى ... اقتضت إرادتنا بذل كمال المنة إليكم بأن عينّا: جليل المقام كبير الكبراء الفخام ذو المجد العزيز عبدالحليم باشا حكمداراً عليكم ». ولكن الأمير ما لبث أن أقام قليلا في الخرطوم حتى سافر في البحر الأبيض وظهر وباء فتاك تفشى في البلاد . ولذلك نصح الأطباء له بمغادرة الخرطوم لشندى ومنها إلى مصر ولم يرجع لمقر حكمداريته .

وسواء كان سعيد أراد السفر للسودان لوضع نظام وحكومة رشيدة أو

---

(٢) دفتر ١٨٨٣ صادر الأوامر نمرة ٤ ص ٣ بتاريخ ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ .

زيارة محمد سعيد باشا السودان

لتفقد أحوال رعاياه أو تخلصاً من هموم القنال كما اقترح عليه صديقه دلسبس فإنه قد صحت عزيمته وتجهز للسفر إلى السودان واستصحب معه أورطة سودانية وجهزت له نحو ألف وخمسمائة جمل لنقله وجنده وحاشيته عبر الصحراء وقد وضح الغرض من رحلته هذه فى أمر أصدره إلى ناظر الجهادية ورد فيه[1] « أن عدم دخول بلاد السودان التى هى من أجزاء ممتلكاتنا تحت الإتقان والانتظام حتى الآن مع أن مقصدنا ومطلوبنا تقدمها وعمرانها لأمر موجب للأسف جداً، والحق يقال وليس بقاؤها على ما هى عليه من الأمور التى يجوز تحملها . وبما أننى صممت العزيمة منذ مدة على أن أرى تلك البلاد وأتبين أحوالها وأوضاعها وأقف على ما يجرى فيها أولا بقصد السياحة وثانياً تحت حاجة النزهة فعزمت على أن أذهب إليها بذاتى لكى نضع لها فيما بعد النظم التى تكفل عمران تلك البلاد والحوالى وتكون بها الرفاهية للرعايا والأهالى » .

اللامركزية

وسبقت قدومه أوامر عديدة للحكمدار يخبره بأن يجمع العساكر فى الخرطوم حين قدومه وأن يشترى ما يلزم لهم من الذرة بدفع الأثمان المعقولة بغير جبر أو عنف . وما إن وصل إلى بربر بعد ذلك حتى انهالت عليه العرائض من كثير من السكان يتظلمون فيها من حكامهم ومشايخهم وأقاربهم فراعته تلك الحالة ورأى بعينه حالة البؤس التى كانت بادية على الأهلين واستنتج أن هذه الحالة تردت فيها البلاد من ظلم الحكام ، وتخمرت فكرة اللامركزية وتنظيف البلاد من الجيش الجرار من حكام وعساكر غير نظامية ، ورأى أن يناط جمع الضرائب بالأهلين أنفسهم وأن تؤلف مجالس وجمعيات دورية منهم تنظر فى الشئون العامة مع المديرين . بدأ بتنفيذ هذا وهو فى طريقه من بربر إلى الخرطوم وهنا أصدر الأمر بلغو الحكمدارية وجعل المديريات تتصل فى حساباتها وإدارتها رأساً بمصر . وقد شرح سعيد سياسته الجديدة للأهلين فى مقدمة الأوامر التى أصدرها للمشايخ :

---

(١) محفظة رقم ٦ أوامر لديوان الجهادية برقية رقم ٥٠ بتاريخ ١١ ربيع الأول ١٢٧٣

سياسته الجديدة

«(١) إنه بناء على ما جبلت عليه همتنا وسبقت إليه عزيمتنا فى النظر فى أحوال الأهالى والرعية وإجراء ما فيه المنافع العمومية وعمار البلاد ورفاهية العباد وقد تحرك ركبنا للقدوم إلى الأقاليم السودانية لنطلّع على أحوال من فيها ومعاملتهم بالرفق والرحمة ولما حلت ركائبنا بها شاهدنا ما عليه أهاليها من الضنك والمضايقة بسبب كثرة المطاليب المربوطة على السواقى والأطيان فضلا عما كان يؤخذ خلاف ذلك . . . اقتضت إرادتنا ترك ذلك جميعه وترتيب مال مربوط على قدر طاقة الأهالى حتى يسكن روعهم ويعمروا أوطانهم » . وفى طريقه من بربر إلى الخرطوم اجتمع ببعض المشايخ وتفاوض معهم فيما يريح الأهالى من الضرائب فاقترح المشايخ أن تربط على الساقية مائتان وخمسون قرشاً فخفضه هو إلى مائتين ويؤخذ على أطيان الجزائر خمسة وعشرون قرشاً للفدان وعشرون قرشاً عن فدان الجروف .

طريقة الجباية

وطريقة الجباية هى أن ينتخب أهالى كل قرية شيخاً من بينهم يجمع ما ربط عليهم من مال ويؤديه إلى ملك أو شيخ كبير من الوطنيين يتبعه وإن لم يرضوا التبعية له فيؤدون المال للمديرية رأساً ، وطلب إلى المشايخ إحصاء السواقى والأطيان وتثبت هذه بعد أن تراجع من المديرية ، وأوصاهم بالرفق واللين وأن يراعوا الجباية فى أوان الحصاد ومواعيد الرواج ويقدم للشيخ نظير خدماته مكافأة مال ساقية عن كل خمس وعشرين منها . ويجرى ربط الأموال سنوياً فى جمعية بدار المديرية تتكون من اثنى عشر شيخاً إلى أربعة وعشرين فتبحث الطرق التى بها تدفع وطريقة تقسيطها كما لهم أن ينظروا فيما يؤدى إلى زيادة العمران والرفاهية للمديرية بأكملها .

---

(١) دفتر ١٨٨٦ أوامر عربى مكاتبة رقم ٣٥ ص ٣٣ بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٢٧٣ .

الأمن العام

وحفظاً للأمن وإخماد الثورات وحوادث التمرد والعصيان رؤى أن تبقى الأورط فى السودان ولكن لا تسلط على الأهالى وألا يوكل إليها جمع الضرائب كما كانت الحالة قبلا وزيادة على هذا الجيش المرابط رتب لكل مديرية بعض الجنود برئاسة يوزباشى للمحافظة على الخزينة فى المديرية وما يماثلها من الأشغال وقد طلب إلى مشايخ القبائل فى كردفان آرسال خيالة ليكونوا تحت تصرف قومندان الجنود وأمر الملك ود محمود الشايقى بأن يجهز خمسمائة من الشايقية تحت أمر القومندان أيضاً .

إصلاحات أخرى

وفوق هذا ماكان لسعيد أن يرجع دون أن يترك تعليمات مفصلة لتنظيم المدن والشوارع وتشجيع السكان لعمل الحدائق فى منازلهم وأمر أن لا تربط أموال على الأطيان التى تغرس بالأشجار المثمرة . وترغيباً لسكان الجبال أمر أن تربط الضرائب على ثلث المحصول فقط وأن يفهموا أنهم أحرار وليسوا بعبيد ، وترك أيضاً نظاماً يكفل اتصال المديريات مع بعضها البعض ومع مصر بالبريد بإنشاء محطات خاصة لتغيير الجمال وتأسيس قسم من الهجانة يقوم بهذه المهمة . وما أن رجع سعيد إلى المحروسة حتى بدأ يستعد لرحلة إلى السودان فى السنة القادمة ؛ فلمديرى دنقلة وكردفان والخرطوم وبربر أن يجمعوا الجمال فى حدود مديرياتهم لانتقاله ولقسم التعيينات فى الجيش أن يحضر ما يلزم من المؤونة ولكنه لم يقم بهذه الرحلة كما كان ينوى ويرغب .

فشل اللامركزية

نظام جميل وعاطفة نبيلة على رعاياه ، ولكن الأداة الحكومية الجديدة بدأ يظهر فيها الخلل ، فقد أبدى بعض المشايخ الكبار العصيان والتمرد على المديرين لزوال هيبة الحكمدارية ، وبدأ بعض المشايخ يتلاعب بالأموال ويظلم السكان ، وفى كردفان خاصة كان مبلغ العشرة قروش المربوط على فدان الأراضى المطرية مرهقاً فى السنين العجاف ، وشكى بعض الأهالى

بعرائض قدموها للقاهرة إما لعدم نهو قضاياهم أو تظلما من بعض المشايخ أو من زيادة الربط على أطيانهم أو يريدون الانتقال من شيخ لآخر ، وانهالت سيول الشكاوى والطلبات على القاهرة انهيالا جعل تغيير سياسة سعيد اللامركزية أمراً لازماً بالضرورة وشاهد آخر عهده وهو على فراش المرض نهاية نظامه وإرجاع الحكمدارية إلى ما كانت عليه سابقاً . وبذلك انتهت حقبة سعيد بتغيير سياسته التى لم تفلح بالرغم من اهتمامه ونواياه الحسنة نحو السودان .

إدارة إسماعيل

رجوع المركزية

فشلت سياسة اللامركزية في السودان كما تقدم وأصدر إسماعيل باشا بصفته قائم مقام عمه الذى كان مريضاً أمراً بتعيين موسى باشا حمدى حكمداراً للأقاليم السودانية ، وانتهى بذلك عصر اللامركزية وبعثت الحكمدارية من جديد والحكمدار الجديد قضى وقتاً طويلا فى الخدمة بالسودان وخاصة فى كردفان وكان معاوناً بالحكمدارية ، وبالرغم مما عرف عنه من القسوة والجبروت فتعيينه قوبل برنة فرح وسرور عند الأهالى بالسودان لكفاءته ومقدرته لضبط الأحوال التى وصلت درجة عظيمة من الفوضى والانحلال ، ووصف الشيخ الزبير ود ضوّة قدومه بقوله « إلى أن وردت البشائر بترتيب سعادة موسى باشا حمدى حكمداراً بالسودان فاستبشرت بذلك الرعية وأيقنوا بحصول الراحة والأمنية وكان قدوم سعادته أبقاه الله فى رابع صفر الخير من شهور سنة تسع وسبعين فانشرحت بقدوم سعادته الصدور وطابت النفوس وعاد إلى الحكمدارية رونقها » .

عقد اجتماع عظيم فى الخرطوم وتلى فيه فرمان التولية وأول ما قام به من أعمال فى مركز حكومته هو أنه دعا المديرين بمشايخهم إلى مجلس يعقد فى الخرطوم لاستشارتهم وإبلاغهم ما يريد أن يختطه من سياسة ودل بذلك على أن العهد الجديد ليس بخطوة إلى الوراء بل هو من حيث إشراك السودانيين فى الحكم استمرار لسياسة سعيد ولكنها رتبت على أساس المركزية . وانفرط عقد المجلس بعد أن نظمت الضرائب على أسس ثابتة وقسطت على ثلاثة أقساط وجهزت أوراق تعرف بالسراكى تكون بيد كل من يدفع ضريبة يبين ما دفع وما بقى منها والجهة التى ورد بها المبلغ . ويستمر الشيخ الزبير بقوله « وجعل من الأهالى نظاراً لأجل أن يتمدنوا ويدخلوا فى الإنسانية وأمرهم أن يلبسوا

الهيئة التركية » وكان الزبير نفسه هو أحد المشايخ الكبار الذين عهد إليهم الإشراف على الجباية .

أول سودانى يعين مديراً

ظهرت بوادر سياسة إسماعيل الجديدة بإدخال العنصر الوطنى فى الإدارة والحكم فى مصر والسودان فى السنة الأولى من حكمه وكما بدا بتعيين المصريين الأصليين مديرين للأقاليم وافق هنا على تعيين الشيخ أحمد أبو سن كبير مشايخ قبيلة الشكرية مديراً للخرطوم وسنار ، وكان أحمد بك خير مثال يحتذى ، فبقاؤه فى وظيفته مدى عشر سنوات إلى أن وافته المنية بمصر وعدم الاضطراب فى منطقة نفوذه طول سنى حكمه كلها أمور برهنت على كفاءة السودانى ومقدرته الإدارية . وكان على أحمد بك تسكين الخلافات فى داخل قبيلته من البدنات المختلفة ، وكان عليه أيضاً التوفيق بين القبائل التى تساكن الشكرية فى المرعى وموارد المياه وهم معروفون بعداوتهم التقليدية ، وكان عليه أن ينهج نهجاً فى حكمه يغتصب الخضوع والتقدير من المشايخ الذين كانوا يساوونه فى درجته قبل أن يصبح مديراً ، وتدخل مديريته قبائل وثنية فى الجنوب عرفت بشدة مراسها واستهانتها بسلطة الحكومة ، وكان عليه حفظ الحدود بين السودان والحبشة وفوق هذا فإدارة الخرطوم نفسها تلك المدينة التى يسكنها مختلف الجنسيات والأديان تستلزم من اللباقة والكياسة ما كان من خصال أحمد بك البارزة . كل ذلك فى نزاهة وأمانة لم يلامس فيها الدنس ثوبه أو يده ، ومات فى مصر حين استدعى للتفاوض معه فى أمر شراء جمال وعليه ديون باهظة لم يقم بسدادها ما خلفه من ممتلكات . أمام تلك التيارات المختلفة وجه سفينة الحكم فى مديريته المترامية الأطراف وهو جالس بعين اليقظة والاهتمام يدير الدفة مدة عشر سنوات دون أن ترتطم بصخرة إلى أن اختطفته المنية من قيادتها .

حملة موسى باشا إلى الشرق

ربط الحكمدار الأموال وأصدر التعليمات لمن نيط بهم جمعها وتجهز بحملة قوية قادها بنفسه إلى الحدود الشرقية ليظهر قوة الحكومة وسطوتها التى

تضعضعت ووهنت فى زمن اللامركزية فرجع الكثير من العربان الهاربين وعلى رأسهم الشيخ أحمد أبو جن شيخ عربان رفاعة الشرق وثبّت فى وظيفته كشيخ لقبيلته وبظهور الجيش على تخوم الحبشة رجع الشيخ ميرى وساعده فى إرجاع الفارين وذهب الحكمدار فى طريقه إلى التاكة وأرجع الطمأنينة والأمان إلى النفوس ثم قفل راجعاً إلى الخرطوم :

سياسة إسماعيل فى السودان

وقد بسط إسماعيل سياسته نحو ممتلكاته الجنوبية فى خطاب وجّهه للحكمدار الجديد بقوله «[1] وخلاصة القول أن هذا القطر الجسيم الحق بالمملكة من قديم العهد وأصبح حقاً مكتسباً لها فالواجب يقضى بعدم إضاعة شبر من حدوده المعينة وبما أن تعمير وإصلاح الإقليم المذكور وإدخاله فى عداد المديريات المصرية التى هى أكثر عمراناً وازدهاراً وكذا توسيع نطاق تجارته من أقصى آمالى وأفكارى بناء عليه يلزم أن تعاملوا سكانه وقاطنيه بالعدل والحقانية وأن تبذلوا أقصى جهدكم فى تزييد عمرانه وتوسع نطاق تجارته وإيصاله إلى غاية الكمال من جهة الأمن والانضباط العام » .

موسى باشا ينظم الجيش

والتفت موسى باشا بعد رجوعه من الشرق إلى تنظيم الجيش وتقويته وزيادة العنصر السودانى بين صفوفه فبينما كانت الأورط السودانية ثمانية طلب إضافة أورطتين وأن ترسل الجنود النظامية السودانية الموجودة بالمحروسة ورأى أن لابد من الاستغناء عن الطاعنين فى السن وذوى العاهات واستبدالهم بشبان من السود واتّفق الحكمدار مع مشايخ قبائل الشلك والدنكة وقبائل فازوغلى على أن يوردوا له العدد المطلوب نظير خمسمائة قروش تدفع عن كل رجل فوافق أفندينا على هذه السياسة ولكنه لاحظ على طريقة التجنيد بقوله « وحيث إنه لا يجوز قبول الأنفار اللازمة للأورط الموجودة هناك بصفة أرقاء نظير

---

(١) دفتر المعية السنية رقم ٥٢٦ صحيفة ٥٨ بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٧٩ .

الأموال فإنه إذا رتبتم عدداً مناسباً من الرجال الصالحين للخدمة العسكرية على كل شيخ من مشايخ جبال فازوغلى وفونج ومشايخ قبيلة شلك ودنكة وخلافهم وأن هؤلاء المشايخ إذا تمكنوا من إحضارهم فعملهم هذا سيكون بمثابة خدمة حسنة للحكومة فبناء عليه ومكافأة لخدمتهم المشكورة هذه يجب التنازل عن الأموال المقررة عليهم بمقدار خمسمائة قرش نظير كل نفر يتمكنون من تقديمه على أن يجرى تفهيمهم بأن الأنفار الذين يقدمونهم بهذه الصورة سيكونون أحراراً مثل سائر العساكر» .

تعديل إدارى لم ينفذ

توفى موسى حمدى باشا بعد حكم دام ثلاث سنوات فى السودان نجح فى توطيد سلطة الحكومة التى ضعفت فى عهد سعيد ولكنه أرجع ما كان يشكو منه الأهالى سابقاً وهو الضرائب الفادحة وصدر الأمر لجعفر باشا صادق بتعيينه حكمداراً ولكن بعد صدور الإرادة رأى إسماعيل أن يجرى تعديلا فى الإدارة نظراً لانضمام سواكن ومصوع وملحقاتها للسودان ونظراً للتنظيم الذى ينويه ونظراً لاتساع ممتلكاته فى النيل الأبيض . والتعديل الجديد يقضى بتقسيم السودان إلى ثلاث مناطق يحكم كلا منها حكمدار مستقل يتعاونون فيما بينهم على المصالح المشتركة : فالتاكة ومصوع وسواكن وملحقاتها قسم أول وجزيرة الخرطوم كاملة مع جهات البحر الأبيض الواقعة شرق النيل الأبيض قسم ثان وكردفان ودنقلة وبربر مع جهات البحر الأبيض الواقعة غربيه قسم ثالث وعين للأول جعفر باشا صادق وللثانى سليم باشا الجزائرلى وللثالث جعفر باشا مظهر . غير أن سليم باشا امتنع عن الذهاب معتذراً بمرضه فأرسل له إسماعيل خطاباً شديد اللهجة يخبره فيه بوصول اعتذاره عن الوظيفة وقرّر فيه فصله من الخدمة وأمره بالرحيل خارج البلد للمعالجة فى أقرب وقت وحذّره عن التأخير ورجع مرة ثانية إلى النظام الأول وثبت جعفر باشا صادق حكمداراً عاماً وجعفر باشا مظهر وكيلا للحكمدار .

إلحاق مصوع وسواكن بالسودان

وكان إسماعيل منذ أن ولى الحكم فى مصر يصبو إلى إلحاق ثغرى مصوع وسواكن نهائياً بالسودان بصفة دائمة لا بصفة مؤقتة كما كانا فى عهد جدّه محمد

على فكتب للباب العالى بضرورة هذه المسألة لاتصال العربان فى إقليم التاكه بهما وباتصالهما تجارياً ببقية أنحاء السودان ثم هو لا يستطيع السيطرة التامة على منع تجارة الرقيق إلا بالهيمنة الإدارية على هذين الميناءين وعضد مسعاه الرسمى بمساعى خصوصية بواسطة من بيدهم الحل والعقد فى الاستانة وصرف فيه مبلغاً من الذهب وأخيراً كلل مسعاه بالنجاح .

ثورة الجهادية السود فى كسلا .

قبل أن يغادر الحكمدار الجديد القاهرة لمقر حكومته وصلت الأنباء بثورة الجهادية السود فى كسلا وكان الوكيل فى الحكمدارية هو عمر فخرى بك فسيق الجند لإخمادها وأخمدت أخيراً بعد أن لعب فيها السيد الحسن المرغنى دور الوسيط لنفوذه الدينى بين الجند وأبدى السر جشمه عبد الله باشا وآدم بك العريفى بسالة وحكمة فى إخمادها وأمر إسماعيل وكيل الحكمدار الجديد أن يغادر مصر فى الحال مع ما أمكن جمعه من الجند بطريق سواكن لمعالجة الحالة حربياً وإدارياً ولكنه عندما وصل وجد الثورة قد انتهى أمرها وتقصى الأسباب والبواعث التى قادت إليها وقدمها فى تقرير مطول إلى الخديوى يتلخص فى عدم التدريب العسكرى اللازم وفى افتراق الجند من ضباطهم الأشهر العديدة لأعمال جباية الضرائب وفى ما تفوّه به قوادهم من ألفاظ مسيئة .

ونتيجة لهذه الثورة أمر إسماعيل باشا بإلغاء الألايات السودانية وإبقاء أورطة واحدة منها مكونة من ثمانية بلوكات وتسريح العجزة من الألايات الملغاة وإرسال الباقى لمصر لتوزيعهم على الأورط المختلفة وحتى هذه الأورطة الباقية يجب أن لا تضم أحداً من قبيلة الدنكا أو الذين كانوا بالمدفعية وهذه الأورطة أيضاً تحرم من المدافع ويشدّد على أفرادها فى اتباع القانون والخضوع للنظام العسكرى بصرامة لا هوادة فيها .

إيفاد شاهين باشا للسودان

وقد وصلت للجناب العالى التقارير والمعلومات من الحكام والضباط العظام الذين كانوا بالسودان يشرحون فيها الفتنة حسب ما سمعوا عنها ويتصدون لشرح الأحوال عامة وقد صوروا الحالة بصورة قاتمة اللون وأفاضوا فى

اضطراب الأحوال فى مركز الحكمدارية نفسها ومسلك الموظفين فى الأقاليم فأمر الخديوى بأن يحضر جعفر مظهر من كسلا للخرطوم ويسافر شاهين باشا ناظر الجهادية ويتعاون الاثنان مع الحكمدار جعفر باشا صادق على تحقيق الأحوال العامة وتبيان عوامل الخلل الذى أصاب الأداة الحكومية وما يرونه من إصلاح ويحمل هذا الوكيل إلى مصر لبسطه لإسماعيل .

تعيين جعفر باشا حكداراً

عدّل إسماعيل بعض الشىء فى أوامره هذه فأصدر أمره لجعفر باشا صادق بتخليه عن الحكمدارية وبتعيين جعفر باشا مظهر لها ولكن انتداب شاهين باشا للسفر ظل نافذاً . وحضر شاهين وتفاوض مع الحكمدار الجديد فى إصلاح حال الجندية واتباع القوانين العسكرية . وبإخماد الفتنة وبإجراء الإصلاحات العسكرية للجنود السودانيين وبترحيل بقيتهم لمصر هدأت الأحوال وظل جعفر باشا حاكماً رشيداً مدة ست سنوات لم تقم فيها ثورات ولكن حدثت تطورات إدارية وعمران فى الخرطوم وتشجيع للحركة الفكرية والأدبية وبدأ التوسع جنوباً فى بحر الغزال وخط الإستواء .

اقتراح بنقل العاصمة إلى توتى

والاهتمام بإصلاح العاصمة جعل ولاة الأمور يفكرون فى نقلها لجزيرة توتى لصلاحيتها من حيث الصحة أكثر من الخرطوم فقد ورد فى مكاتبة من الخديوى للحكمدار بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى سنة ١٢٨٣ ما نصه« ولقد وصل إلى سمعنا أنه نظراً لانخفاض موقع الخرطوم وكثرة الرطوبة فى جوها يظل مناخها رديئاً جداً . أما الجزيرة التى تجاهها فهى على الروايات الصحيحة معتدلة الهواء للغاية ومن حيث الموقع أصلح من الخرطوم لجعلها مركزاً وقد فهمنا من إفادتكم الآنفة الذكر ومما وصل إلينا من الأخبار أنه لا يوجد ببندر الخرطوم ما يستحق أن يسمى بناء وأن أكثر منازله من الطوب النى أو الطين والبعض منها من القش وما إليه وعليه فقد لاحظنا أنه من الهين نقل البلدة تدريجياً من موقعها الحالى إلى الجزيرة المقابلة وإن فى ذلك فوائد جمة فإذا كانت الجزيرة المذكورة تصلح أكثر من الخرطوم لاتخاذها مركزاً أو كان فى الإمكان نقل الخرطوم إليها فإننا نحيل على رأيكم وهمتكم أمر القيام بهذه العملية » .

إنشاء ضبطيات قضائية

ولكن جعفر باشا صرف النظر عن هذه الفكرة ونفذ مشروعاته فيما يختص بعمران وتجديد الخرطوم . ولزيادة السكان وازدياد حركة التجارة فيها نتيجة لنموها فى البحر الأبيض رأى إدخال نظام إدارى لا بد من وجوده فى المدن الكبيرة وهو إنشاء ضبطية لحفظ الأمن وتعيين مأمور لها وقوة من القوّاصة مهمتهم تشبه مهمة البوليس فى وقتنا هذا وطبق هذا النظام على المدن الهامة الأخرى كدنقلة وبربر والأبيض وكسلا وسواكن ومصوع .

عمران الخرطوم

وأبدى إسماعيل ملاحظاته على القواعد العامة التى يجب أن تطبق فى عمران البلد « أما المستشفى فيجب أن يشاد فى مكان طلق الهواء فسيح الجنبات وأن يكون له حديقة وكذلك القشلاق يجب إنشاؤه فى موقع مناسب بعيد عن البلدة واعملوا على أن تكون الشوارع متسعة منظمة وأن تنشأ المبانى بطريقة تتفق مع قواعد الصحة وفن الهندسة ولا تدعوا مياه السيول التى تنزل إلى البلدة من جراء شدة الأمطار متراكمة فيها بل اجعلوا لها مصارف تسيل فيها إلى البحر وقوا البلدة شرها » . وترغيباً للناس فى العمارة والبناء جعلت الحكومة سياستها أن تبيع الطوب والحجارة والجير والبلاط والخشب للأهالى بالثمن الأساسى دون ربح .

علمه وأدبه وسياسته المالية

عُرف جعفر باشا مظهر بتضلعه فى العلوم الدينية والأدبية وكان يجتمع به العلماء والأدباء للمجادلة والمناقشة وسرت روح حبه للعلم والأدب إلى الأوساط الأخرى فنرى فى عصره قصائد الشعر من شعراء السودان تنشر فى الوقائع المصرية وابنه محمد سعيد بك كان أديباً شاعراً غير أن سياسته المالية قادت إلى هروب الناس من مديريتى دنقلا وبربر فقد قيل إنه وضع ضريبة باهظة على الساقية بلغت ستة جنيهات وكان يرمى هو إلى التثبت من أقصى ما يستطيع أن يدفعه الفلاح لا إلى استلام الستة جنيهات بأكملها فذعر المزارعون وصاروا ينزحون تاركين سواقيهم معطلة إلى الجنوب واشتركوا فى تجارة النيل الأبيض وبحر الغزال وصار الرجل من الجعليين والدناقلة لا يشاد بذكره إلا إذا ترك

فلاحة الأرض والتحق بكبانيّات بحر الغزال واقتنى المال والرقيق وغامر وخاطر من أجلهما .

فصـــل السودان الشرقى

وتراءت لإسماعيل صعوبة إدارة السودان تحت حكومة مركزية مقرّها الخرطوم وخاصة بعد إضافة مرافىء وسواحل البحر الأحمر وما سوف يقوم بفتحه السير صموئيل بيكر فقرر فصل السودان الشرقى وهو يشمل محافظتى مصوع وسواكن ومديرية التاكة وعين ممتاز باشا محافظاً عليها وورد فى الأمر الذى أجرى التعديل بمقتضاه « أنه بالنظر لما هومعلوم من اتساع جهات الأقاليم السودانية وتباعدها عن بعضها عن بعض بمسافات جسيمة مما يشق على الحكمدارية استدراك استكشافاتها واختيار أحوال سكانها فى زمن مستقرب . هذا مع ضرورة الاقتصاد ولإجراء الأسباب الموصلة لتقدم الأهالى وعماريتها وملاحظة ترغيبهم وتشويقهم إلى الزراعة واكتساب منافعها التى هى الأساس الأكبر لسعة الثروة والعمارية ونمو التجارة ونحو ذلك فلهذه المناسبات اقتضت إرادتنا نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقى سواحل البحر الأحمر لحد بربرة التى هى آخر حدود الحكومة وإجعالهم إدارة مخصوصة بمحافظة مستقلة تسمى محافظة سواحل البحر الأحمر وعينا ممتاز باشا محافظاً عليها » .

سياسة ممتاز باشا الزراعية

وانهمك ممتاز فى مهمته بتحسين مرفأ سواكن وعمرانها وكذلك فى النهوض بالزراعة وخاصة القطن فنشطت زراعته فى طوكر وكسلا وطلب المحالج والآلات اللازمة لتجهيزه للتصدير وأبدى مجهوداً جباراً فى نقل الآلات الضخمة من سواكن لطوكر . ولو أنه لم يجد كل ما كان يطمح إليه ولو أن الثمرة التى جنتها البلاد من مجهوداته لم تكن كبيرة نظراً لصعوبة المواصلات إلا أنه يمثل طبقة جديدة من الحكام رأوا أولى مهامهم عمران البلاد وزياد ثروتها الزراعية .

بربر تتبع المعية السنية

ولم تقف حركة التقسيم عند فصل محافظات البحر الأحمر بل أدخلت تجربة إدارية جديدة وهى فرز مديرية بربر من الحكمدارية وجعلها مديرية قائمة بذاتها وتتبع فى إدارتها للمعية السنية لا الحكومة المصرية وقلدت إدارتها

لحسين بك خليفة كبير عربان العبابدة ومتعهد سكة العتمور وفصلت حسابات المديرية من ميزانية الحكمدارية وحرر الأمر لحسين بك خليفة بما يأتى « بناء على ما علمناه فيكم من الأهلية واللياقة والاستعداد قد رقيناكم إلى الرتبة الثانية وأوليناكم مدير بربر وجعلنا هذه المديرية قائمة بذاتها مفروزة من حكمدارية السودان غير تابعة الحكمدارية ولا يكن لديوان المالية عليها مراجعة ولا ملاحظة بل تكون تبعيتها لمعيتنا وفقط المكاتبات والمخابرات العادية يكتب عنها إلى نظارة الداخلية وأما باقى أشغالها وحساباتها ومصالحها يكتب عنها لمعيتنا بدون واسطة » وبدأ حسين بك يولى الزراعة الشطر الأكبر من اهتمامه وأدخل طريقة رى الحياض بالترع والسيالات كما هى الحالة فى مصر وأدخل زراعة القطن فى مديريته وكذلك نرى مكاتبات عدة بين المدير الجديد والمعية السنية بشأن شراء المواشى وإرسالها لمصر على حساب المعية .

لامركزية أخرى

ثم تطور التعديل الإدارى إلى لغو الحكمدارية ونزول جعفر باشا مظهر وتقسيم السودان إلى إدارات مستقلة فقبلى السودان ويشمل مديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض فكردفان فالتاكة فبحرى السودان ويشمل مديريتى دنقلة وبربر وبذلك رجعت مديرية بربر لسلطة الحكومة وانفصلت من المعية وثبتت حسين بك خليفة لبحرى السودان ونقل ممتاز باشا مديراً عاماً لقبلى السودان .

نهضة ممتاز الزراعية

نقل ممتاز اهتمامه وحماسته للزراعة وللقطن خاصة إلى إدارته الجديد وظل يواصل طلباته من مصر فيما يتعلق بالمحالج والعدد الأخرى وطاف بنفسه على المزارعين حاثاً لهم على زراعة القطن وطلب كميات كبيرة من بذرته بلغت فى إحدى طلباته ثلاثة آلاف أردب توزع مجاناً على المزارعين على أن تقسم الأرباح مع الحكومة وعكف ممتاز على دراسة السودان جميعه من حيث الأراضى الصالحة للزراعة وخاصة القطن وقدر ما يمكن زرعه فى مديريات السودان المختلفة ما عدا مصوع بما يربو على المليون من الأفدنة وبين الطرق التى يمكن بها

ترجيل محصول القطن ورأى أن أنجع وسيلة هى على النيلين الأزرق والأبيض إلى الخرطوم ومنها شمالا إلى مصر والأقطان التى تزرع فى إقليم القضارف وعلى ضفاف نهر عطبرة تنقل فى زمن الفيضان إلى النيل الكبير ومن ثم ترحل شمالا. وزيادة على اهتمامه الزائد بالقطن رأى تحسين نسل الضأن والبقر بإحضار الكباش والجاموس من مصر .

سياسة حسين بك العمرانية

أما زميله حسين بك خليفة مدير السودان البحرى فلم يقل عنه اهتماماً بالزراعة . ومشكلته هى الرى فواصل حفر الترع حتى تزرع أكبر مساحة ممكنة زمن الفيضان وشجّع تعمير السواقى ورأى أن يردّ اللذين فروا زمن جعفر باشا مظهر إلى مديريات الخرطوم وسنار وكانوا يسمون بالمسبّحين فاهتم حسين بك بأمرهم وبعث يرغّبهم فى العودة إلى أوطانهم ووعدهم بكل مساعدة ولكن المشايخ الذين نزلوا فى حماهم فى مديريتى سنار والخرطوم مانعوا فى عودتهم لأن إيراداتهم من الضرائب ستقل واتصل حسين بك بمدير قبلى السودان ولما أن يئس من معاونته رفع الأمر إلى الخديوى فأصدر أمراً كريماً إلى ممتاز باشا يأمره بأن يسمح لهؤلاء بالرجوع إلى بلادهم لعمارتها وزيادة رفاهيتها وألا يتعرض لهم المشايخ وقُدّر عدد من تسحّب منهم بهذه الطريقة بنحو خمسة آلاف شخص وبالرغم من هذا الأمر تعرقلت مساعى حسين بك ولم يرجع الكل .

نتائج إدارتى ممتاز وحسين

ولو أن الثمرة التى جنتها البلاد لم تكن لتعادل المجهودات التى أبداها الحاكمان لكنها على وجه العموم كانت حقبة عمرانية لم يعرف لها السودان مثيلا فى كل عهد التركية السابقة من حيث الزراعة . وقد لاحظ ذلك السير صموئيل بيكر حين رجع بعد انتهاء مأموريته فى خط الاستواء فوجد آثار العمران بادية على مديريتى الخرطوم وبربر وخاصة الأخيرة وأطرى إدارة حسين بك خليفة إطراء عظيما ورأى فيه الشخص الذى اطمأن الناس إليه لأنه منهم وإليهم .

وختمت حياة الاثنين بتهمة كل منهما بعدم النزاهة فى الحكم وحضر قومسيون تحقيق تحت رئاسة خالد باشا وأسّاء مغاملة حسين بك فى بربر وشكى

المدير المخلوع من الاجراءات التحكمية التى كان يتبعها خالد باشا فى تحقيقاته، وانحرافه عن العدل وأخيراً لم تثبت تهمة واضحة عليه بل تركزت فى تحكم أقاربه فى السكان واجترائهم على حقوقهم ورؤى أن يغادر حسين بك بربر ويقيم فى أطيانه بصعيد مصر وختمت بمدته حقبة الإصلاح والعمران فى بربر ودنقلة ولكنه سيرجع مرة أخرى مديرا على بربر . وزميله ممتاز اتهم أيضاً بالرشوة والاختلاس وخاصة فى نصيب الحكومة من أموال القطن فعزل وأودع السجن فى الخرطوم وعين مكانه إسماعيل باشا أيوب وعند ما حضر قومسيون التحقيق توفى ممتاز فى سجنه وخلد ذكره بنهوض الزراعة وإدخال القطن .

تعيين إسماعيل مديراً لقبلى السودان ثم حكمداراً

وتعين إسماعيل أيوب مديراً لقبلى السودان وهو من الذين خبروا البلاد مدة طويلة إذ أنه كان ضابطاً فى آلايات السودان ثم شغل منصب معاون الحكمدارية فرئيس مجلس السودان . وكانت أولى مهامه القضاء على الرشوة والاختلاس وتطهير الإدارة مما علق بها من أدران وبعد خمسة عشر شهراً فى هذا المنصب عادت الإدارة إلى مركزيتها ورجعت الحكمدارية بتعيينه حكمداراً على الأقاليم السودانية وثبت فشل اللامركزية وتجزئة السودان إلى إدارات مستقلة حيث تكوينه الجغرافى لا يدع مجالا لمديريات منفصلة ولا بد من أن تحتك أجزاء الأداة الحكومية . فقد كان يشكو المسيطر على مديرية الخرطوم من مدير التاكة لالتجاء القبائل بمديريته هرباً من الضرائب وقد شكا حسين بك خليفة إلى الجناب العالى من معاكسة مديرية قبلى السودان للفارين من مديريته ومنعهم من الرجوع إلى أوطانهم . وبتعيين إسماعيل باشا أيوب ندخل فى حقبة التوسع والفتح وتشغل الإدارة بامتداد سلطان الحكومة إلى أقاليم خط الاستواء وبفتح دارفور وتنظيم إدارتها وقبل أن ندخل فى حوادث تلك الحقبة يجدر بنا أن نقف قليلا ونعالج ما أفادته البلاد من إصلاحات فى المواصلات والتعليم فى عهد إسماعيل .

إنشاء خمس مدارس

أنشأ إسماعيل فى زمن حكمدارية موسى باشا حمدى خمس مدارس فى عواصم المديريات وهى بربر والخرطوم ودنقلة والأبيض وكسلا على غرار

المدارس التى كانت فى مصر آنداك وكل منها تسع نحو المائة تلميذ وقد ورد فى الأمر الصادر بإنشائها « وحيث أن تأسيس خمس مدارس فى المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروح موافق لنفس المصلحة بناء عليه بادروا إلى إجراء إيجابه واسعوا فى تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم بأحسن وجه » .

إحسانات إسماعيل للمساجد ومدارس القرآن

وبذل إسماعيل الإعانات والإحسانات من المعية إلى عدد كبير من المساجد التى تدرّس القرآن والعلوم الشرعية فينال عدد منها ماهيات شهرية للفقهاء والمعلمين تصل إلى أربعمائة قرش شهرياً وراتب ذرة لغذاء الطلاب يصل أحياناً إلى خمسة أرادب شهرياً وبعض المساجد تداعت أبنيتها فرممت بالطوب الأحمر على حساب الإحسانات الخديوية أيضاً وكنا نرى العرائض تُقدّم باستمرار للذات الخديوية إما لربط ماهيات وأغذية أو لترميم مساجد وكلها تجاب طلباتها حتى وقعت الارتباكات المالية المعروفة فى مصر وجذب اهتمام الفتح والتوسع والأنظار وهنا تنقطع العرائض والإعانات كما انقطع الاهتمام بالزراعة .

وقد أدت هذه المدارس النظامية خدمات لا مثيل لها للإدارة السودانية بأن مدّتها بالكتاب والمحاسبين وعمال التلغراف وأحدثت نهوضاً فى الثقافة والأدب فى ربوع السودان بينما كان العلم قبلها مقصوراً على خلاوى القرآن ومجالس العلوم الشرعية . ورأى ممتاز تتميما لسياسته القطنية أن يبعث بعدد من الشبان السودانيين لمصر لتعلم الصناعات الميكانيكية حتى يكون فى استطاعتهم بعد رجوعهم إدارة العُدد والماكينات التى لابد منها لحلج وكبس الأقطان واقترح إيفاد بعض خريجى هذه المدارس الحكومية إلى مصر لتعلم الطب والصيدلة ولكن الاقتراح لم يلق قبولا للمؤهلات العلمية العالية التى يحتاج إليها الطالب قبل الالتحاق بتينك المدرستين .

مد الخطوط التلغرافية

شغل إسماعيل منذ الشهور الأولى من حكمه بربط السودان ومصر بخطوط تلغرافية فطلب الأعمدة من غابات السودان وعند ما ثبت عدم صلاحيتها فى

بعض المناطق التى تكثر فيها « الأرضة » استعيض عنها بأعمدة حديدية طلبت من انجلترا . ومد الخط إلى أسوان ثم واصل المهندسون عملهم إلى أن كان شوال سنة ١٢٨٦ حيث اتصلت الخرطوم بالقاهرة مدة جعفر مظهر باشا واستمرت عملية مد الخطوط فى بقية أنحاء السودان حتى تم الاتصال أخيراً بدارفور عند نقطة الفوجة واتصل السودان الشرقى كالقضارف وكسلا إلى سوكن ومصوع واتصلت الجزيرة جنوبى الخرطوم حتى فازوغلى وكان لهذا الاتصال أثره الفعال فى فتوحات دارفور خاصة إذ أن طلب النجدات وموقف جيش الحكومة والنظام الإدارى الذى اقترح تأسيسه فى دارفور يصل الخديوى بسرعة نسبية ويرد عليه بالموافقة أو الرفض أو التعديل .

السكة الحديد

ولكن أبعد الإصلاحات أثراً فيما لو قيض له أن ينفذ هو مشروع ربط مصر بالسودان بالسكة الحديدية فنرى إسماعيل منذ سنة ١٢٨١ يرسل مهندسين إنجليزيين ليقوما بمعاينة أقرب طريق لما سمى بخط السودان وعهد إلى الشيخ حسين خليفة متعهد سكة العتمور ليكون دليلها وخبيرها فى تلك الصحراء المقفرة وعندما كانت احتمالات خط الشمال — إذا أردنا تسميته بذلك — لا تزال فى طور البحث لم يغفل إسماعيل عن احتمالات خط الشرق الذى يربط النيل بالبحر الأحمر ولكنه أبدى صعوبات التنفيذ كما أبدى نياته نحو أراضيه الجنوبية فقد بعث بإرادة مؤرخة فى ٢٨ صفر سنة ١٢٨٣ إلى حكمدار السودان يقول فيها : « وبما أن سواكن هى ميناء عمومية للأقاليم السودانية والمنفذ التجارى لها فإن أهم ما نفكر فيه ونسعى إليه هو العمران وترقية الزراعة والتجارة فى تلك الجهة ونرى فيما نراه من الوسائل المؤدية لذلك أنه لو أنشئت فى السودان السكك الحديدية التى أصبحت الأساس الأعظم للتقدم والعمران لأفادت البلاد الفوائد الجمة فى قليل من الوقت . والله يعلم أن هذه الفكرة لم تبرح مخيلتنا لحظة واحدة ولو كان فى الإمكان لأمرنا بمباشرة العمل فى هذا المشروع منذ الآن ولكن ما الحيلة وإنشاء السكك الحديدية فى تلك الجهة يصطدم بصعوبات كثيرة

ويحتاج إلى نفقات طائلة والحالة تقضى بإرجاء تحقيق مثل هذه المشروعات العظيمة التى تتطلب هذه النفقات إلى ما بعد مدة ريثما تتخلص المالية من بعض الضيق الذى تعانيه فى الوقت الحاضر كما أن هنالك مع الأسف الشديد موانع أخرى تحول دون ذلك كالمال المخصص سنوياً من المالية لنفقات السودان وما إليه من الموانع » .

فإذا كان تنفيذ خط الشرق أرجئ إلى أن تزول العقبات التى تحدث عنها إسماعيل فتحضيره ووضع تصميماته لأمر لازم فعهد إلى إسماعيل بك الفلكى ليوازن بين الطريقين المحتمل مد الخط عليهما وهما طريق سواكن — بربر أو سواكن — شندى وقدم إسماعيل بك تقريره المستفيض مفضلا طريق شندى على طريق بربر لأن الأخير تعترضه جبال مرتفعة وأودية منخفضة وكان هذا آخر العهد بذلك المشروع إلى أن تجدد الاهتمام به فى حروب المهدية .

خط الشمال

أما خط الشمال فاستمر البحث فى احتمال مده وكان شغل النظار الشاغل وقد عكفوا على دراسة الخرائط التى قدمها المهندسان الإنجليزيان على خريطة رسمها حسن أفندى الدمياطى المتوفى وابنه الذى كان آنذاك موظفاً بالأشغال العمومية عند ما كانا فى السودان ونام المشروع حقبة تقرب من الأربع سنوات تجدد النظر والبحث فيه بعدها بإيفاد مهندسين انجليز لمراجعة ما رسم من خرائط واقتراح ما يعن لهم من آراء جديدة فقاموا بطريق العتمور برئاسة يعقوب جراهام الذى عين باشمفتشاً لسكة حديد السودان فوصل الباشمهندس وصحبه الخرطوم ومنها جنوباً إلى أبى حراز ووزع بعض معاونيه على الطريق ما بين شندى ووادى حلفا لدراسة ومساحة الطريق تفصيلياً ونوه المستر جراهام بالمساعدات والتسهيلات القيمة التى بذلها حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلة آنذاك وأثناء وجود جراهام بالخرطوم بحث مع مدير قبلى السودان ما يمكن ترحيله من حاصلات على هذا الخط . وبعد إتمام بحث ومعاينة طريق العتمور قفل جراهام راجعاً بطريق الصحراء الغربية ما بين أم درمان وإمباكول فى

دنقلة وقدم تقريره عن الطريقين إلى مستر فاولر الذى قرر أفضلية الطريق الثانى

رأى إسماعيل قبل أن يغامر بمشروع ضخم كهذا أن يستعين بخبرة وآراء المهندسين المصريين وخاصة عند ما علم أن طريق النيل والصحراء الغربية فيه من المشاق والمتاعب ما لا يتعادل مع الفوائد التى يمكن جنيها منه ورأى بعد الاستئناس بآراء مستشاريه أن يبحث احتمال طريق العتمور ثانياً وأن يبحث بالذات مشكلة المياه التى هى أكبر العقبات فى سبيله فعهد إلى حسين بك خليفة بفحت الآبار القديمة المنتشرة فى الصحراء ما بين كرسكو وأبى حمد التى يقال إنها كانت موجودة منذ زمن قدماء المصريين وبعد أن أجرى حسين بك البحث والتنقيب وطهّر كل بئر فى تلك الصحراء عهد إسماعيل إلى عبد القادر بك وحسن أفندى من المهندسين الحربيين بكشف الطريق واحتمال مد السكة عليه وأمر الشيخ محمد حسين خليفة متعهد العتمور بتسهيل مأمورية المهندسين مخاطباً له بقوله « وحيث كما تعلمون أن تمديد السكة المذكورة وتوصيلها إلى السودان يترتب عليها منافع كثيرة من عمارية الجهات التى تمر عليها وباقى جهات السودان وتسهيل وتوسيع دائرة التجارة التى تعود فيها الثمرات والفوائد على أهالى تلك الجهات فينبغى أنكم أنتم ومن يكن عندكم من أهل الخبرة والدراية بحقائق الطريق المذكورة تتحدوا مع أولئك المأمورين وتوروهم وترشدوهم على الطرق والمسالك التى تكون مستقربة ومستسهلة لامتداد السكة الحديد ».

رجع المهندسان المصريان ومعهما زميل أمريكى وقدّما تقريرهما لناظر الجهادية وفيه عقدوا مقارنة بين هذا الطريق وطريق المستر فاولر الذى يحاذى النيل ثم يعبر الصحراء من أمبكول فى دنقلة إلى أم درمان أو إلى المتمة وعلق الناظر على ذلك مؤيداً بقوله « ويفهم من التقرير المقدم منهم أن هذا الطريق اكتشفوها فى عودتهم وأنها خالية من العقبات سهلة وملائمة لأن تمد عليها السكة الحديدية لأنها تمتد إلى مسافة ٤٨٥ ميلا تقريباً بين أدفو وبربر وأنه إذا كان الماء فى هذا الطريق قليلا فالمأمول أن يوفّر فيها الماء بعد أن ينظروا فى أمر

توفيره إبان فصل الشتاء وأن هذا الخط لا يحتاج لغير قنطرة واحدة تشاد فوق النيل وعليه فإن الطريق الذى اكتشفه ووضع تصميمه المهندس فاولر وهو من وادى حلفا إلى المتمة وقد أشر عليه باللون الأحمر طوله ٥٥٠ ميلا ومع ذلك فهو لا يمتد حتى أدفو فالطريق الذى اكتشفه عبد القادر بك وزملاؤه أقل طولا » . وهذا هو الطريق الذى اختاره كتشنر لفتح بقية السودان أخيرا .

ومع ذلك فقد استقر الرأى أخيراً على تنفيذ طريق فاولر سنة ١٢٩١هـ وقد عيّن شاهين باشا للإشراف على مد خط السودان فى نفس الوقت الذى كان إسماعيل باشا أيوب الحكمدار فى دارفور لإتمام فتحها وتنظيم إدارتها . وأكبر عقبة صادفت شاهين باشا هى عدم وجود العمال بالقدر الذى يكفى لمشروع ضخم كهذا وكادت تحدث أزمة ويساق الباشبوزق إلى أهالى مديرية دنقلة للعمل قسراً فى الخط ولكن الأهالى أنفسهم تشاوروا فيما بينهم وقدموا اقتراحاً حلّ المشكلة وهو أن يناط لأهالى كل خط العمل فى السكة حتى تخرج من خطتهم ويتناوله أهل الخط الذى يليهم . وبذا تسنى لشاهين باشا الشروع فى العمل وخصّصت إيرادات مديريتى دنقلة وكردفان لكل ما يتعلق بالسكة الحديد السودانية وأصيب شاهين باشا بمرض استلزم عودته لمصر وعين مكانه مصطفى فهمى باشا واستمر العمل حتى بدأت ارتباكات اسماعيل المالية ولزم الأمر أن يوازن غوردون الحكمدار الذى خلف إسماعيل أيوب مالية السودان وأن يوقف العمل فى السكة الحديدية السودانية .

فتوحات إسماعيل فى السودان[1]

(بحر الغزال ودارفور)

الرق فى السودان

عُرِف الرق فى السودان قبل فتح محمد على وعرف السودان تصدير الرقيق إلى مصر وإلى بلاد العرب قروناً قبل أن يدخل إسماعيل باشا بجيوشه مملكة سنار وكان العمل فى الحقول ورعاية الماشية من عمل العبيد وليس من أعمال السادة العرب وعموماً فقد كان الرق ناحية اجتماعية انغرست جذورها فى الماضى وألفها الناس أزماناً . واندفع محمد على كما قدمنا لفتح الأقاليم الجنوبية لأسباب ومن أهمها الحصول على عدد من العبيد يدخلون فى سلك جنديته ودبرت الغزوات لاستجلاب العدد الضخم الذى كان يصبو إليه محمد على واستخدمت الحكومة الجديدة السلاح النارى ضد هؤلاء السود. وكان أثره أشد بكثير مما ألفوه من النهاضة وصيادى الرقيق من العرب فاستفاد الصيادون بالأسلحة الجديدة واستخدموها فى غزواتهم — ومع أن الحكومة أوقفت الغزوات كما قدمنا إلا أن الصيادين ظلوا يوالون غزواتهم الموفقة بسلاح فتاك ليس فى الاستطاعة مقاومته وقد كانوا يقاومون بعض الشىء عند ما كان صيادوهم يستخدمون الحراب والسيوف . كل ذلك كان يحدث على أطراف البلاد الزنجية وعلى جبال النوبة .

نشاط التجارة فى البحر الأبيض

تعمقت رحلات سليم قبطان فى النيل الأبيض وتلتها رحلات تجارية بالمراكب وكان أحمد باشا أبو ودان نفسه يمتلك مراكب للصيد فى النيل الأبيض للتجارة وخاصة العاج واقترح أحمد باشا المنكلى المنظم احتكار تجارة النيل الأبيض بواسطة الحكومة ولكن محمد على لم يوافق منعاً لاحتجاجات الإفرنج

---

(١) تنحصر هذه فى التوسع فى بحر الغزال ودارفور وخط الاستواء ولا تشمل السودان الشرق .

الذين بدأوا يمارسون هذه التجارة . وعند ما أنشئت القنصليات فى عهد عباس الأول تعمق التجار الإفرنج صاعدين فى النيل الأبيض وظل عددهم يتزايد ونشاطهم يشتد حتى أن محطاتهم التجارية امتدت إلى نهر السوباط وبحر الغزال وغندكرو فى عهد سعيد ودخل فى خدمتهم من أهالى السودان عدد كبير فراراً من الضرائب الباهظة وخاصة سكان دنقلة ولم يتوان التجار من مصريين وسودانيين من الاستفادة من المورد الجديد فبدأوا هم أيضاً ينشئون الزرائب ويجندون الأهالى والعرب لحماية متاجرهم .

كل هؤلاء التجار سواء منهم الإفرنج أو الوطنيين بدأوا محطاتهم التجارية لغرض التجارة ولكنهم بالتدرج أدركوا أن اقتناص الزنوج وسوقهم وبيعهم فى أسواق الشمال أو تصديرهم للخارج وخاصة لبلاد العرب أجدى وأنفع من التجارة المصرحة وطفق أصحاب الزرائب يديرون الغزوات من قواعدهم المستندة على الزرائب كحصون لهم ويستعينون أحياناً بقبائل موالية للغارة على قبائل أخرى معادية وظلت المراكب ترحل بدلا من العاج الأبيض عاجاً أسود . ومر الرحالون والمكتشفون على هذه الأقاليم وهى بهذه الحالة من الخراب والتجار قد وصلوا القمة من حيث الجشع والطمع ووصف الرحالون هذه الحالة فى كتاباتهم وبعضهم قدم التقارير لحكوماتهم .

إسماعيل يتخذ الإجراآت

تنبه إسماعيل ونبه بواسطة الدول الأوربية للحالة وابتدأ باتخاذ الطرق المؤدية لمحو الرق أو لتخفيف أضراره ولا غرابة أن ينحو إسماعيل هذا المنحى الإنسانى . فهو يريد للبلاد التى يحكمها حياة مدنية ورفاهية وقد تجلت نظرته نحو هذا الوباء من خطاب طويل بعث به للحكمدار يعلق فيه على مسلك مدير. وتهاونه عند ما علم غارات بعض النهاضة على الدنكة والشلك فيقول فيه «[1] إن أهم ما نفكر فيه ونسعى إلى تحقيقه هو إدخال السودان بما فيه جهات

---

(١) دفتر ٥٥٨ معية تركى وثيقة تربية رقم ٣٣ بتاريخ ٩ ربيع الثانى ١١٨٣ .

البحر الأبيض فى دائرة المدنية والعمران كما هى الحالة فى أقاليم الحكومة الأخرى ومع أن السودان لا إيراد له فى الوقت الحاضر فإننا لمجرد إدخاله فى هذه الطريق ورغبة فى إسعاد أهاليه قد أنشأنا مديرية البحر الأبيض التى كلفنا إنشاؤها الكثير من النفقات . وبينما نحن نعمل على إنشاء مديريات أخرى فى الجهات العليا ونسعى لعمران تلك الأرجاء آملين انضواء الأهالى تحت لواء الحكومة إذا بالحوادث تقع على عكس ما نرغب ونأمل وهذا ما يدعو إلى الأسف الشديد الذى لا يمكننا أن نعبر عن مداه .

إن مدير البحر الأبيض لم ينظر إلى أن أهم واجباته هى حفظ الأمن فى تلك الجهة وقطع دابر الأشقياء والأشرار والسعى الدائم لعمران مديريته وإسعادها جاعلا ذلك نصب عينيه عاملا على تحقيقه ولم ينظر إلى أن واجب العمل يقتضى على أمثاله المواطنين بأن يسعوا بكل الطرق الممكنة لاجتذاب قلوب الأهالى نحو الحكومة وجعلهم مطمئنين إليها ... فبينما الحكومة قد ألغت بيع الرقيق الذى استرد من الأشقياء إذ هو يعيد بيعه لحسابه ، وفى ذلك ما فيه من الاستهتار بأوامر الحكومة ، ومن أجل ذلك يجب أن لا يكتفى بعزله وإنما يجب أن يرسل أيضاً إلى فازوغلى ليعتقل هنا ويستخدم بالأشغال الخسيسة ليكون عبرة للآخرين . أما الرقيق الذى باعه فيجب استرداده وإعادته إلى أوطانه بالراحة وإسكانه فيها وأطلب أن تعملوا على عدم وقوع مثل هذه الحوادث المؤلمة مرة أخرى وأن تحولوا دون تعدي الأشقياء والأشرار على الجهات التابعة لهذه المديرية هذا مع التوسل بالأسباب المؤدية إلى تمدين البلاد وعمرانها» .
هذه الوثيقة لا تترك مجالا للشك فى نيات إسماعيل نحو إبطال هذه العادة والأوامر التى أعطيت للحكمدار تتحدث فى صراحة عن الأهمية التى يضعها إسماعيل على هذه المسألة ومعاقبة الموظفين الذين يتوانون أو يتهاونون فى تنفيذ هذه الأوامر .

البوليس والحراسة

واتخذ موسى حمدى باشا أول حكمدار فى عهد إسماعيل ما رآه من الطرق

لتنفيذ إرادة الجناب العالى فوضع ضريبة سميت بالويركو على كل بحّار أو عامل يعمل فى المراكب التى تصعد على النيل الأبيض وشدد الرقابة بالوابورات الحكومية على النهر المذكور حتى لا تفلت المراكب المهرّبة ، وتأسست فشودة كعاصمة لمديرية البحر الأبيض وبفضل موقعها تستطيع أن تهيمن على المراكب النازلة من بحر الغزال وبحر الجبل ونهر سوباط . كل هذه إجراءات من شأنها عدم تشجيع التجارة فى البحر الأبيض ومراقبة الرقيق حتى لا يتخذ طريقه نحو الشمال أو نحو سواحل البحر الأحمر . ولكن لا زال التجار يسيطرون على المنبع الذى تصدّر منه البضائع ولا أثر لسلطة الحكومة فى تلك البقاع . وحتى بعد الدوريات النهرية وحراسة الطرق والدروب عرف التجار كيف يراوغون مراكب الحراسة وينزلون رقيقهم فى أماكن بعيدة عن نقط المراقبة ويسوقون سلعتهم بعدها عبر الجزيرة إلى الشرق . وتمكن إسماعيل فى بادئ الأمر من ضبط الإرساليات الكبيرة التى كانت تصدر من مينائى سواكن ومصوع حين ألحقتا بإدارة السودان غير أن المهربين لجأوا إلى المرافئ الصغيرة .

شراء الزرائب بواسطة الحكومة

وضعت أيضاً التحجيرات اللازمة لتوريد الأسلحة والذخائر حتى لا يقوى أصحاب الزرائب وكذلك طلب من القناصل ألا يدخلوا تحت حمايتهم من يسيء استعمالها ومما وضع العراقيل أمام التجار الضرائب التى أجبروا على دفعها عن زرائبهم وكذلك تقوية حامية فشودة . إزاء ذلك بدأ التجار الإفرنج يبيعون متاجرهم وما اكتسبوه من حق فى زرائبهم للحكومة . ووافق إسماعيل بل شجّع سياسة شراء الزرائب من التجار وبلغ ما دفعته الحكومة فى ذلك زمن جعفر باشا مظهر ما يربو على المائة ألف جنيه ، ولكن الحكومة أجّرت هذه المشارع للعقاد وغطاس سنوياً لأن إدارتها بواسطة الحكومة كانت تبدو صعبة .

ونتيجة لهذه الإجراءات أصبح التجار يتعمقون فى مجاهل أفريقيا نحو بحر سوباط وبحر الغزال وغندوكرو وأصبحوا يتخذون كل وسيلة لتهريب رقيقهم ، وكان للرشوة نصيب كبير فى تسهيل مهمتهم وقد يبدو غريباً أن تستمر تجارة

الرقيق مع نيات إسماعيل الحسنة وأوامره المشددة للحكمداريين والمديرين والطرق المختلفة التى اتخذت لعرقلتها ولغوها ، ولكن السودان بأراضيه الشاسعة ومواصلاته الصعبة وفوق كل ذلك صنف الموظفين الذين كانوا بالضرورة محافظين ولم تدخل فى عقيدتهم هذه النزعة الإنسانية التى ترمى إلى إبطال عادة ألفوها وألفتهم قروناً عديدة ، وهم قبل غيرهم يرون أثرها على حياتهم . ومع أن بعضهم يتقبل الرشوة للتغاضى عن المهربين لكن حتى أولئك الذين يتعففون عنها لم يجدوا فى أنفسهم الحماس الكافى للضرب على أيدى التجار والمهربين لأنهم ليسوا بمؤمنين بهذه النزعة الإنسانية .

فكرة ضم بحر الغزال

بذل إسماعيل كل ما أمكن بذله من مجهود ليضع حداً لهذه التجارة البغيضة ولكن الأخبار ترد إليه على أنها لا تزال قائمة والدول الأوربية تنقل إليه ماشا هده الرحالون والمكتشفون من مساوئها فرأى الامناص من ضم الأراضى التى يتلاعب فيها هؤلاء التجار إلى ممتلكاته ضما نهائياً ، ووضع حاميات فيها وإظهار سطوة ونفوذ الحكومة . فعهد إسماعيل إلى الحكمدار جعفر مظهر باشا بأن يضم جهات بحر الغزال بما يراه ، وشغل إسماعيل نفسه بجهات خط الاستواء وسنفصل ما اتخذه بصددها فيما بعد . أما ضم بحر الغزال فاتصلت حوادثه بشخصية الزبير الذى روى عن نفسه أن الظروف هى التى قادته إلى بحر الغزال . فبعد أن تعلم فى مدرسة الخرطوم ما كان يريد أو يرغب أن يذهب لبحارة كما كانوا يسمون الأقاليم الجنوبية ، ولكن لحق بابن عم له غادر الخرطوم متجهاً لبحارة ، وعند ما أدركه فى الطريق غير بعيد من العاصمة حدثه عن الرجوع وأغراه بكل ما يمكن من حجة وبرهان ليثنى عن عزمه ، ولكن ما زال مصمماً ، وهنا رأى الزبير أن الطريقة الوحيدة التى يتخذها السودانى لوضع حد للمسألة هى أن يحلف له بالطلاق إن لم يرجع سافر معه . فلم تؤثر هذه فى ابن العم . فاضطر الزبير لمرافقته إلى بحر الغزال .

الزبير ضد البلالى

بدأ الزبير حياته كمتسبب بسيط ، ولكن ذكاؤه وصفات الزعامة والقيادة التى امتاز بها على من هم حوله جعلته يتقدم خطوات فى التجارة من ناحية ونحو الملك والسلطان من ناحية أخرى فاتسعت متاجره ، وكان يحالف بعض الملوك ليقاتل بهم غيرهم حتى أصبح بالتدريج له شأن يختلف عما كان عليه أقرانه من التجار ، وصارت جهات بحر الغزال الغربية تحت نفوذه التجارى والإدارى وعقد له التجار لواء الزعامة التى وصل إليها باجتهاده وصفاته .

وهو فى هذه الحالة إذ وضع الحكمدار الخطة لضم إقليم بحر الغزال لنفوذه وسيطرة الحكومة وعين أحد أهالى الغرب المدعو الشيخ محمد البلالى ناظراً لقسم بحر الغزال ليكون تابعاً لمديرية فشودة وعين له معاونين وكتبة وجنوداً بمرتبات ورتب حكومية وعين كجوك على سر بيادة للقسم المذكور . وسُرَّ إسماعيل من إجراءات التنفيذ غير أنه حذر حكمداره من التساهل فى قوة هذه الحملة وبين له ضرورة الانتباه لعددها وعدتها حتى تستطيع رد أى هجوم ربما يقوم به سلطان دارفور .

قام الشيخ محمد البلالى متجهاً صوب مأموريته وقبل أن يلاقى حلف التجار توفى كجوك على ، وكان الشيخ محمد يستند على قوة الحكومة وسيطرتها ولعله كان يجهل أو تجاهل ما وصل إليه التجار من نفوذ فى تلك الأصقاع وخاصة الزبير ، وكان أن سمعوا بمسير البلالى ورأوا فيه دخيلا يريد اغتصاب ما بنوه من ملك ونفوذ بسواعدهم وأدمغتهم فاتفقت كلمتهم وعقدوا للزبير لواء القيادة وصمموا على مقاومة الشيخ محمد والتقوا به فى معركة لم تكن بالحاسمة سقط فيها قتلى من الفريقين ودخلوا فى جولة ثانية كان النصر فيها حليف التجار وقتل فيها الشيخ محمد البلالى . وعند ما وصلت أنباء مقاومة التجار والموقعة الأولى إلى الحكمدار خف إلى مكان الحادث معاون من الحكمدارية ومعه بلوك من العساكر لإجراء التحقيق فى أمر ذلك العصيان . وعند ما وصل

بحر الغزال كان التجار سادة الموقف فقام بما ندب من أجله من تحقيق وأرسل تحرياته للخرطوم ، وكذلك بعث الزبير شارحاً أسباب المقاومة مبيناً تعدى الشيخ محمد ومبادأته بالعدوان .

الزبير بين موقفي العدو والصديق

وصلت هذه التحقيقات للخرطوم عند ما كان آدم باشا العريفى يقوم مقام مدير عموم قبلى السودان بدلا من ممتاز باشا الذى عزل رهن التحقيق وقبل أن يصل إسماعيل باشا أيوب المدير العام الجديد ورأى آدم باشا أن يناط بمدير كردفان ضبط الزبير وإرساله للتحقيق معه فيما نسب إليه لأن المسافة من الخرطوم بعيدة . غير أن الزبير قد عرف بفطنته وذكائه أنه إذا ما سارت الأمور على طريقها الرسمى فسوف تعده الحكومة ثائراً ولا تستطيع أن تدرك الظروف التى تحت ضغطها دافع عن نفسه وأمواله ورأى أن يوسط حسين بك خليفة مدير بربر ودنقلة أنذاك ، وشرح له الحالة شرحاً وافياً وأظهر الخضوع والامتثال لسلطان الحكومة وما كان يريد أن يعرف عنه أو تنسب إليه الثورة ونتيجة لذلك رأى الخديوى أن يعفو عنه وأصدر أوامره لمدير قبلى السودان بإعطاء الزبير الأمان إذا ما حضر للخرطوم ولا داعى لحضوره للمحروسة كما أبدى الزبير نفسه فى طلبه بواسطة حسين بك خليفة .

الزبير يعين مديراً لبحر الغزال

ولم يكتف الخديو بالعفو عنه بل رأى فيه من القوة وشدة البأس ومعرفة أحوال بحر الغزال ما سوف يستعين به على توطيد سلطان الحكومة فى تلك الأراضى وأصدرت الأوامر لإسماعيل أيوب الذى ارتفع إلى رتبة الحكمدار بتشكيل مديرية لبحر الغزال وتعيين الزبير مديراً عليها وأمر الحكمدار أيضاً بأن يبحث مع الزبير حين قدومه إلى الخرطوم أمر المديرية الجديدة وما يجب لها من المستخدمين والجنود . كل هذه التعليمات أرسلت من الخرطوم مع رسول خاص بطريق كردفان ودارفور ولكن الرسول تأخر فى طريقه لأن عربان الرزيقات قطعوا الطريق . أما الزبير فقد صمم على القيام إلى الخرطوم يعرض ولاءه وإخلاصه حسب ما وعد به من قبل وسير بعض مراكبه أمامه

تحمل السن والريش وغيرها ريثما يتم استعداداته . وقبل أن يغادر مقرّه عرف أن عربان الرزيقات وغيرهم أغاروا على حدود منطقة نفوذه وقطعوا الطريق بينه وبين دارفور ورأى أن يقوم بتأديبهم أولا وبعد ذلك يواصل سيره شمالا إلى كردفان ثم إلى الخرطوم . وسارت الأمور سيراً لم تدعه ينفذ عزمه بل قادته إلى فتح دارفور فلنترك الزبير يجمع جنوده البازنقر والبحارة ليزحف بهم على الرزيقات ونضع أمام القارىء إلمامة بسيطة عن تاريخ دارفور قبل حروبها مع الزبير .

نبذة عن تاريخ دارفور

تأسست دارفور مملكة مستقلة في نفس الوقت الذى نشأت فيه مملكة الفونج وملوكها يرجعون بنسبهم إلى العباس عم النبى (صلعم) وفى إدارتها ونظمها لا تختلف كثيراً عن المملكة الفونجية وظلت ثلاثة قرون يتوارثها سلاطينها صاغرا عن كابر ، وكان السلطان محمد الفضل يعاصر محمد على ، وعند ما فتحت جيوش الدفتردار كردفان كان المتوقع متابعة الفتح حتى دارفور غير أن حوادث الملك نمر وما أعقبها من اضطرابات أخذت كل وقت ومجهود الدفتردار ، ولم تتمكن جيوش محمد على من فتحها ، وكذلك مناوشات الحدود الحبشية التى ظلت تتجدد كلما هدأت الأحوال وبدئ بالتفكير فى فتح دارفور .

محاولة الاتفاق مع أبى مدين

وفى سنة ١٢٥٢ هجرية وفى عهد خورشد باشا وصل الخرطوم أبو مدين أخو محمد الفضل سلطان دارفور يلتمس الإذن بالسفر إلى مصر لمقابلة الجناب العالى ثم ليذهب إلى الحج ، وقد استفهم خورشد باشا منه عن قوة دارفور واتفق معه على أن تفتح الحكومة الإقليم وينصّب هو (أبو مدين) سلطاناً عليها خاضعاً للحكومة ويؤدى خراجاً سنوياً يشمل خمسة آلاف من الرقيق وخمسة آلاف رأس من أحسن الإبل القوية ، وألفاً وخمسمائة قنطار من العاج وثلاثمائة قنطار من الحرتيت ، وسبعمائة وخمسين قنطاراً من النحاس الخام ، وألفاً وخمسمائة من التمرهندى وكل ذلك يسلم فى مدينة أسيوط ، واستكتب خورشد

أبا مدين عهداً بذلك وبعث به إلى محمد على . غير أن خورشد رأى بعد هذا أن يرجأ الفتح إلى ما بعد سنتين أو ثلاث يستطلع أخبارها ، ولكن حوادث الشرق وإشاعة غزوة المكادة المزعومة والتى استلزمت حضور الميرميران أحمد باشا لنجدة الحكمدار أخرّت التفكير فى فتح دارفور ونام المشروع إلى أن قدر لدارفور أن تفتح بطريق غير ماقرر لها وعلى يد رجل لم يندب لهذه المهمة ألا وهو الزبير . وقد تركناه ينوى مهاجمة الرزيقات وتأديبهم ، ثم يحضر للخرطوم للاتفاق مع الحكمدار بشأن المديرية الجديدة التى وكلت إدارتها إليه .

الزبير يقاتل الرزيقات

جهّز الزبير ما يزيد عن الأربعة آلاف من جنده وتقدم شمالا قاصداً شكا مقر الرزيقات ، وكان مقدراً أن يقطع المسافة فى خمسة عشر يوماً ، ولكنهم قاموا فى زمن هطول الأمطار وقضوا لذلك أكثر من أربعين يوماً حتى وصلوا جنوبى شكا ، وقد نفدت أقواتهم وصاروا يقتاتون أياماً بالحشائش وعروق الأشجار ومات منهم ما يزيد على الستمائة . وعند ما اقترب من الرزيقات شنوا هجوماً عليه بقوات كبيرة غير أن جنوده كسبوا المعركة وزحفوا بعدها حتى دخلوا شكا فى غرة رجب سنة ١٢٩٠ .

وبعد الموقعة وبعد احتلاله لشكا فرّ مشايخ الرزيقات وعلى رأسهم منزل وعليّان ملتجئين بالسلطان إبراهيم سلطان دارفور ، وهو شاب ارتقى عرش آبائه حديثاً ، ولا شك أن له من المطامع والعزة ما يوازى دماء الشباب الحارة التى تجرى فى عروقه وبث له الشيخان شكواهما من الزبير وجنده وعاهداه على الخضوع والامتثال بعد أن أعلن الرزيقات استقلالهم منذ ثلاثين سنة تقريباً . وطبيعى أن يرحّب السلطان الشاب بهذه الفكرة التى ردّت إلى مملكته ما فقدته منذ مدة وطبيعى أيضاً أن يحمى جاراً التجأ إليه واحتمى به .

الزبير يزحف على دارفور

بدأ الزبير يخاطب السلطان إبراهيم بشأن الشيخين وقد سرد له ما اتصل من وداد وعلاقات حسنة بين والده والدولة المصرية ونصح له ألا يهتم بما يقوله

الشيخان وألا يدعى أنهم رعيته حيث كانوا ينعمون باستقلالهم لمدة ثلاثين سنة وسرد له كيف أنهم عاثوا وأفسدوا وقطعوا الطريق الذى يصل بحر الغزال ببقية السودان عن طريق دافور وختم خطابه بأنهما فتنة ولا يليق به أن يستمع لهما . وظل الزبير يراسل السلطان ، وهذا يمتنع عن تسليمهما وعندها صمم الزبير على محاربة السلطان وصمم السلطان على مقاومة الزبير .

بدأت الحرب بتجريدة بعث بها السلطان لملاقاة الزبير فى شكا فدرت عليها الدائرة ، ومن ثم واصل زحفه شمالا وفى الوقت نفسه بعث بالرسائل المستعجلة للحكمدار يطلب منه المدد والعون حيث يتوقع مقاومة عنيفة من السلطان ، وظل الزبير يزحف وتقابله التجريدة تلو الأخرى وهو ينتصر عليها حتى دخل دارة ، وظل يوالى إرسال خطاباته المحذرة المنذرة للسلطان والسلطان يرد بإرسال الجيوش يذود عن مملكته ، وما كان للسلطان الشاب ولم يمض عليه طويل وقت على عرش أجداده أن يخضع وأن يمتثل ، ولكنه جهز سرية وفيها عدد من أمراء البيت المالك وزحفوا على دارة مقر الزبير واشتبكوا يوماً كاملا حصد الموت من الفريقين عدداً كبيراً انجلت المعركة بعدها بهزيمة جيش دارفور ، ولكن لم تكن بالحاسمة وما تقهقر الفور بعدها ، بل ظلوا معسكرين حول المدينة وخاطبوا الزبير وأوسعوه شتما ورد لهم بما يعادل لغتهم وألفاظهم وخرج لهم هذه المرة وباكرهم بحرب استمرت ساعتين فر بعدها فلول الجيوش الفوارية وكتب الزبير بهذا النصر مستعجلا المدد من الحكمدار .

مقتل السلطان

وبعد أن بعث تجريدة قوية هذه المرة بقيادة عمه وبعد أن حلت بها الهزيمة قام السلطان على رأس حملة أخيرة بنفسه وفصل عن الفاشر عاصمة ملكه ينوى مباغتة الزبير فى داره غير أن الزبير قد تحصن بها وجعلها حصناً قوياً امتنع على السلطان وتكبد من الخسائر أفدحها حين محاولته الاقتحام ورأى أن يتراجع . غير أن الزبير خرج وراءه مقتفياً آثاره حتى أدركه فى بلدة منواشى ، وهناك

دارت المعركة الأخيرة مع السلطان حيث أبلى بلاء حسناً فى ساحة القتال وخر قتيلا واندك بموته عرش دام أكثر من ثلاثة قرون كانت فيها المملكة الدارفورية أداة للمدنية الإسلامية بين تخوم الصحراء الكبرى ومستنقعات خط الاستواء . وبعد أن استراح الزبير نحو خمسة أيام بالبلدة قام نحو العاصمة الفاشر ودخلها فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٩٢ .

هذه قصة الزبير منذ أن غادر مقره فى بحر الغزال لتأديب الرزيقات وفتح الطريق بين مديريته وكردفان ليحضر بعدها للخرطوم حيث يتفق مع الحكمدار على إدارة مديريته الجديدة ، ولكن الظروف ساقته من حرب مع العربان إلى حرب مع مملكة دارفور انتهت بانتصاره . والآن لننظر ما حدث فى الخرطوم لنتحسس استجابة الحكومة المصرية والحكمدار لمغامرات الزبير وقد تركنا آخر مرة الحكمدار يراسل الزبير بالإرادة السنية التى تنص على تعيينه مديراً على بحر الغزال بشروط يتفق عليها فى الخرطوم ورد الزبير بأنه سيغادر بحر الغزال بطريق كردفان بعد أن بعث بعض المراكب نازلة فى النيل الأبيض مشحونة ببعض بضائعه . وقد وافق الحكمدار على هذه الإجراءات ورأى فى ذلك فرصة تجعل بحر الغزال متصلة ببقية أجزاء السودان من جهتين الأولى عن طريق النيل الأبيض والثانية عن طريق كردفان .

الحوادث فى الخرطوم والقاهرة

اتصل بمدير كردفان بعد ذلك أن سلطان دارفور اعتراه القلق من حركات الزبير وحشد جيوشه لمقاومته أو مهاجمته وأنه سد الطريق بينه وبين كردفان فأبرق المدير بالخبر للحكمدار ورأى الأخير أن يبعث بنجدات للزبير على سبيل الاحتياط ، وعند ما بدأت الوقائع بين الزبير وعساكر السلطان وعلم الحكمدار بها بعث يطلب الإمدادات من مصر فوردت له البرقية الآتية من المهردار خيرى باشا « بما أن أمير دارفور قد اعتدى على الحكومة المصرية اعتداء موجهاً ضد مشروع منع وإلغاء تجارة الرقيق فقد اطلعت على برقيتكم الخاصة بطلب إرسال حملة من مصر قوامها ثلاث أورط من النظامية وأربعمائة

نفر من العساكر الغير نظامية ورئيس فرسان كامل العدد والعدد مع عشرين ألف قنطار من البقسماط وخمسة آلاف قربة سفرى وألفى قربة رى مجوز وإرسال أورطة سودانية من مديرية السودان الشرق عدا ما ذكر وتأليف أورطتين سودانيتين من جديد من قبلكم وذلك ليهاجم بهذه القوة على بلاد دارفور من جهتين إحداهما من جهة كردفان والأخرى من جهة شكا » .

وأرسلت إرادة سنية إلى الزبير بترقيته إلى الرتبة الثانية وبهنئه فيها هو وجنوده بما أحرزوه من نصر على عساكر السلطان ولم ينس الديوان الخديوى أن يصدر الخطاب بجملة يفهم منها أن نقطة الخلاف بينه وبين دارفور هى تجارة الرقيق كما فى البرقية السابقة ولعل ذلك تقوية للحركات الحربية التى قام بها الزبير وتقوم بها الحكومة أمام الرأى العام الدولى « بناء على ما شوهد فيكم من حسن الغيرة والاجتهاد فى ضبط وربط أمور الحكومة التى تحت إدارتكم مما هو حاصل منكم من الدقة فى منع تداول واستعمال التجارة فى صنف الرقيق بالتطبيق لأوامرنا العمومية التى صدرت فى هذا الخصوص » .

إسماعيل أيوب يقوم بنفسه للغرب

اتفقت القاهرة والخرطوم على إرسال إمدادات للزبير ولكن إسماعيل أيوب رأى صعوبة فى تنفيذ هذا الأمر حيث أن الطريق بين كردفان وشكا غير مأمون ورأى أن يقوم بنفسه إلى كردفان لكى يباشر ما يرسل من قوة ويجمع من تلك المديرية ما يمكن الاستغناء عنه وما إن وصل الأبيض حتى رأى أن يقوم هو على رأس تلك القوة المتجمعة[1] « وأسير بهم شخصياً لنجدة زبير بك حتى أطلع على حقيقة الحالة هناك وأدخل فى قلوب العدو من الرعب والدهشة ما يتناسب وأهمية الوظيفة التى أتشرف بها وأقوى العساكر الخديوية

(١) دفتر ٢٥ عابدين وارد تلغرافات . شفرة رقم ٤٤٥ ص ٥٦ بتاريخ ٢٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٩١ .

تقوية شديدة والمأمول أن فتح دارفور يكون ميسراً فى هذه المرة بفضل الله تعالى ويمن طالع ولى النعم » .

محاولة السلطان الاتصال باستامبول

أما السلطان إبراهيم فقد علم أن الزبير والحكومة المصرية يعملان كيد واحدة للقضاء على مملكته وكان يظن من قبل أن حركات الزبير هى من تلقاء نفسه ولا تجد تأييداً من الخديوى وعند ذلك قام بآخر محاولة دبلوماسية لدى حكومة الآستانة فوردت الأخبار للحكمدار بأن السلطان أرسل سفارة برئاسة الحاج إدريس ومعهم من المال ما يبلغ مائتى ألف ريال نصفها لشريف مكة لكى يتوسط لدى الباب العالى ونصفها الآخر للاستانة فأبرق الحكمدار بالخبر للمحروسة حتى يضبط السفراء قبل أو حين وصولهم لأسيوط ولم يتبين لنا من الوثائق ما حدث فى شأنهم .

قوة إسماعيل أيوب

قام الحكمدار من الأبيض مستصحباً أورطة جهادية مستكملة وأربعمائة خيالة وهجانة وثلاثة مدافع ومائتين من الباشبوزق الشايقية واتجه بهم رأساً للدخول فى دارفور من جهة الشرق ومرّ فى طريقه على منطقة المياه القليلة والتى تخزن مياهها فى جذوع أشجار التبلدى المحفورة الوسط ولو كان السلطان تنبّه لهم وأرسل من أخلى تلك الأشجار مما بها من المياه لاضطرت تلك الفرقة إلى الرجوع أو موت الكثير منها عطشاً . وقبل أن يصلوا أم شنقه عارضهم الشيخ أحمد المليح بعربان حمر ولكنهم لم يثبتوا لطلقات المدافع فدخل الباشا على رأس قوته أم شنقه دون مقاومة . وهنا تطايرت الإشاعات بأن الفرقة الأولى بقيادة الزبير قد اندحرت وأن قائدها قد قتل وهذا ما دعا إسماعيل أيوب أن يبقى بأم شنقه ويحصنها ويتريث حتى تصله الأخبار الأكيدة عن مصير الزبير وفرقته وتحقق كذب الإشاعة أخيراً حين اتصل الزبير بالحكمدار بالرسائل مخبراً إياه بقتل السلطان وتقدمه نحو الفاشر وعند ذلك تحرك الحكمدار صوب العاصمة ودخلها خمسة أيام بعد وصول الزبير إليها وحملت أسلاك البرق بشرى الفتح للجناب العالى ورد جنابه بترقية إسماعيل أيوب إلى رتبة فريق والزبير إلى رتبة لواء .

الحكمدار يرتب فى دارفور الإدارة

شغل الحكمدار فى الأيام الأولى بتأمين الأهالى وإنزال الجنود فى مبانى السلطان بالفاشر ولكن حسب الله جم السلطان فرّ مع بعض الجند الفوراوى ملتجئاً بجبال مرة الحصينة فأرسلت فرقة حكومية لتتعقبه وبعد ذلك تفرغ إسماعيل أيوب لوضع نظام إدارى جديد يكفل الراحة والأمن للبلاد المفتتحة وطبيعى أن يعتمد هيكل الحكومة الجديد على الجند النظامى وتوزيع البلاد إلى مديريات وأقسام وأخطاط .

وتبين للخديوى مما قرأه من رسائل الحكمدار ومما سمعه من أفواه العارفين بدارفور أن هناك حاجة لفتح الطريق بين دارفور وكردفان بفتح الآبار وتوفير المياه ، واستدعى ذلك تعيين فرقتين من الضباط المهندسين للقيام بتلك المهمة تحت رئاسة ضابطين أوربيين يعملان فى الجيش المصرى حتى تكون الأراضى المفتتحة متصلة ببقية منطقة نفوذ الخديوى اتصالا حقيقياً وقد تقوم القرقتان بأبحاث علمية عن معادن ونباتات وأجناس الأهالى فى كردفان ودارفور .

وكانت النية متجهة فى أول الأمر إلى تعيين الموظفين كلهم من مصر من إداريين وكتبة ومحاسبين ونظار أقسام ولكن لما تتكلفه هذه الإدارة الجديدة من أعباء مالية باهظة ونفور الناس فى مصر من السفر لجهات نائية وغير صحية جعلت ولاة الأمور يعدلون نوعاً ما فى خطتهم بأن يستخدم ما أمكن أهل البلاد أنفسهم فى بعض الوظائف .

مطامع إسماعيل فى برقو

وامتدت مطامع إسماعيل فى هذه الآونة إلى ما وراء حدود دارفور وأصدر أمره فعلا إلى الحكمدار أن يتوجه الزبير بفرقته إلى برقو بعد القضاء على فلول جيش دارفور المحتمى بجبل مرة بمن معه ومن يبعث من الفاشر لتقويته ومن يلحق به من جنود البحارة الدناقلة من بحر الغزال ويرى إسماعيل بذلك أن يصطاد عصفورين بحجر واحد . الأول فتح بلاد برقو والثانى التخلص من البحارة الذين قوى نفوذهم واستفحل أمرهم ، فإذا ما نجح الزبير فى هذه المهمة عين مديراً لبرقو . هذا ما تراءى لإسماعيل من آراء ولكنه لم يقيد الحكمدار

بها بل ترك له التصرف بما يراه حيث إنه أدرى بما يكتنف الموقف من ظروف واحتمالات .

بعد سفر الزبير متعقباً أثر حسب الله الثائر اقترح الحكمدار أن يعين مدير عام على الأربع مديريات فى دارفور من رتبة اللواء ثم يقص ويسرد الأسباب التى يرى منها عدم صلاحية الزبير لمثل هذا المنصب زيادة على إشرافه على بحر الغزال وشكا . ويبين الحكمدار أنه خلع على الزبير من تلقاء نفسه لقب مأمور إدارة دارفور تطميناً له حيث إن قوته تزيد على الستة آلاف كلها مزودة بالأسلحة النارية ونصفهم من عبيده الخصوصيين . وقد علم الزبير فعلا أنه سوف يعين على دارفور وشكا وبحر الغزال بإرادة سنية سوف ترد من المحروسة . ويظهر من تلغرافات الحكمدار أن ما دعاه إلى انتهاج هذه الخطة هو قوة الزبير ورأى مداراته إلى حين . ويقترح الحكمدار أن ترد الإرادة بفصل إدارة دارفور من شكا وبحر الغزال ويعين مدير عام من رتبة اللواء إما بترقية حسن بك حلمى الموجود بالفاشر آنذاك أو أى لواء غيره . وبذلك تحال شكا وبحر الغزال إلى عهدة الزبير كما كان قبلا . ويرى إسماعيل أيوب أن ذلك هو الطريق الوحيد لإدارة دارفور إدارة رشيدة حيث الأهالى هناك كما يقول الحكمدار ينفرون من حكم الزبير وإدارته وأن كل تلك الأقاليم الشاسعة فوق مقدرته الإدارية .

بعد خمسة أيام من هذه البرقية يرى الحكمدار أنه بعد ذهاب الزبير إلى شكا وبحر الغزال لا تفى القوة النظامية الباقية لحفظ الأمن ويرى أن يبقى الزبير حيناً من الزمن مشرفاً على إدارة دارفور ويبقى معه حسن حلمى بك كقائد للعساكر الجهادية حتى يتكامل ورود العساكر والموظفين من مصر وتستطيع القوة المصرية حفظ النظام والدفاع عن دارفور وعندها ينفذ مشروع رجوع الزبير إلى مقر وظيفته الأولى . ويتردد الحكمدار مرة أخرى فى خطته ويبرق مقترحاً تأسيس مديرية عامة تشمل دارفور وبحر الغزال وشكا تحت رئاسة

خالد باشا قائم مقام الحكمدار فى الخرطوم بعنوان مدير عموم غرب السودان .
ومن كل هذا يتضح لنا أن مسلك الحكمدار نحو الزبير ينطبق عليه المثل العامى « لا بريدك ولا بحمل بلاك » .

أثناء ما كانت أفكار الحكمدارية متضاربة من حيث مكان الزبير فى الإدارة الجديدة نظر فى اقتراح الخديوى بفتح برقو ورأى أن الزبير ربما لا يقبل أن يوجه جهده مرة أخرى نحو فتح جديد حيث إنه كان يقاتل ويجاهد ما يقارب السنة ونصف فى بحر الغزال وشكا ودارفور وأنه جهز وصرف على ما يزيد على الستة آلاف من خاصة عبيده وأقاربه وأتباعه ولم يكلف الحكومة أى مصروفات ، وكل هذا من إيرادات مشارعه الخاصة ببحر الغزال وبهذا تم له فتح دارفور وينتظر بالطبع أن تبقى مديرية بحر الغزال فى عهدته لأنها مقر مشارعه ومتاجره وكذلك شكا ودارفور اللتان فتحهما .
فشخص هذا ما قام به من جهد وهذا ما ينتظر لا يرجى منه أن يقوم بحملة جديدة نحو بلاد البرقو دون أن ينال جنده ما يتطلبونه من الراحة ودون أن يجنى ثمرات ما افتتح على يديه . وبهذا المنطق وتلك الحجج تحطم مشروع فتح بلاد برقو على يد إسماعيل أيوب باشا

وعند ما نظر إسماعيل أيوب إلى الموقف بصفة عامة رأى أن هناك وجهين للنظر فى هذه المسألة : الأول أن يعهد إلى الزبير بحكم دارفور وشكا وبحر الغزال وفتح برقو ويعين بهذا مديراً على كل الجهات الغربية ولكن يظل هذا الجزء منفصلا عن حكمدارية السودان مثل شرق السودان وألا تتحمل الحكومة أى مصروفات عليه والوجه الثانى هو أن يبقى الزبير فى الوقت الحاضر فى دارفور إلى أن يتم إخضاع كل الجهات فيها وترد القوة الكافية وأثناء ذلك تحتاج دارفور إلى مصروفات تبلغ سبعة أو ثمانية آلاف تتحملها الحكومة وبعدها تتحرك فرقتان إحداهما من دارفور والثانية من بحر الغزال وتتجهان غرباً لفتح برقو .

لم يكتف الحكمدار بهذا السيل من الاقتراحات بل أبرق يعدل فى اقتراحاته بأن تضاف كردفان إلى الجهات الغربية وكلها تتبع خالد باشا وحينئذ

لابأس من تعيين الزبير على دارفور هذا إذا صادق الجناب العالى على تعيين خالد باشا . كل هذه الاتصالات البرقية تتبادل حاملة هذا السيل من الاقتراحات والزبير يتعقب حسب الله ويشدد عليه الحصار وأخيراً تمكن بالقوة والسياسة معاً من إحضاره أسيراً إلى الفاشر حيث جهز هو وأقاربه وبعث بهم إلى مصر.

وكانت النقطتان اللتان ترتكز عليهما اعتراضات الحكومة على الزبير هما أنه قد يكون طامعاً ويستقل بما تحت عهدته من بلاد وثانيهما أن يعمل فى التجارة فوق عمله كمدير ، وترى أنه لا يصح الجمع بين التجارة والإدارة وأنها مستعدة لاستلام متاجره ومشارعه بأثمان مناسبة كما فعلت مع بعض التجار الأوروبيين من قبل ، وزيادة على الاعتراضين السابقين كان جنود البحارة ينفرون من اتباع نظام خاص واستمرارهم فى خدمة الحكومة يتوقف على خضوعهم للنظام وتناول مرتبات كيفية الجنود الآخرين .

والظاهر أن الجنود الجهادية تكامل منهم عدد كبير بدارفور وأفصح الحكمدار عما يساوره من شكوك فى مقدرة الزبير ويرى أنه لس بكفء لإدارة أراض شاسعة كهذه وأنه يصعب عليه التعاون مع مرؤوسيه من أصحاب الرتب النظامية من الجهادية والموظفين الملكيين الآخرين الذين يحضرون من مصر وأنه لا يريد أن يتخلى عن البحارة . ويروى الحكمدار فوق هذا أن الزبير نفسه راغب عن إدارة دارفور وأنه يكتفى ببحر الغزال ولهذا أعلن تعيين حسن بك حلمى مديراً على الفاشر ومديريتين أخريتين بصفة مؤقتة . أما داره التى تقع فى قبلى دارفور فقد حول إدارتها مؤقتاً على الزبير والظاهر أن الحكمدار يريد رفع الزبير عن إدارة دارفور وفى نفس الوقت يبقى فى داره حيث يستعين به على إخماد ما قد يحدث من الفتن حيث لا تزال الحاميات الحكومية قليلة العدد نسبياً . والحل الأخير لمشكلة الزبير كما يعتقد الحكمدار هو أنه عند ما يرجع إلى بحر الغزال يوكل إليه فى الحال فتح برقو ويعين مديراً على ما يفتتحه من أراضى وتنزع بحر الغزال منه وبذا تتخلص الحكومة من إدارته لدارفور وتتخلص أيضاً من مشارعه ومتاجره وبحارته فى بحر الغزال ؛

لم يمانع الزبير فى رفعه من إدارة دارفور ولم يمانع فى امتلاك الحكومة لمشارعه ومتاجره فى بحر الغزال ولكنه يطلب أن تبقى له ٦٠٠ قنطار من السن موجودة لديه هناك واتفق أن يورد للحكومة من السن والسود الصالحين للجندية ما قيمته خمسة آلاف كيس باعتبار قنطار السن ٢٥ جنيه ومكافأة الجندى ٥٠٠ قرش وما يزيد عن ذلك يرسل له ما يقابله فى الثمن من البارود واللوازم الحربية الأخرى ولم يمانع أيضاً فى تحويل عبيده والبحارة الذين يصحبونه إلى عساكر حكومية بماهيات .

صدق ظن الحكمدار فى أن أهالى دارفور لا بد وأنهم يعاودون العصيان وأن الزبير لا بد من وجوده بدار فور لدحرهم وفعلا رفعت راية العصيان فى جبل مرة وأمر الزبير بالتوجه إليهم ، كما قام حسن بك حلمي من الفاشر لنفس المهمة وتمكنا من إخضاع المتمردين . وبعد ذلك مباشرة تنصب بوش سلطاناً فى كبكابية وأعلن تمرده وعصيانه فسار نحوه الزبير وقتله وشتت جنده وسلم المديرية لمدير جديد عينه الحكمدار وقفل راجعاً إلى الفاشر . عندئذ نفذ الحكمدار الحلقة الأخيرة من سلسلة إجراءاته فهاهو الزبير يسلم مديرية داره وقد هدأت الأحوال فى دارفور بعد إخماد الفتن والثورات حيث يتهيأ للرحيل لشكا وبحر الغزال ولا حاجة تبرر وجوده فى دارفور .

استشعر الزبير منذ اليوم الذى اجتمع فيه مع الحكمدار بالفاشر أن هنالك بعض الانقباض والنفور منه ولعل ذلك مرده إلى شعوره بأن فخر الفتح يرجع إلى الزبير ثم توالت على الزبير الوعود التى تلغى بعد مدة ثم اضطراب إجراءات إسماعيل أيوب من حيث إدارة دارفور وفتح برقو وعلم الزبير رغبة الحكومة فى تسريح جنوده واستلام مشارعه ببحر الغزال . كل ذلك جعل الزبير يظن أن الحكمدار ما قصد إلا حرمانه من ثمار انتصاراته ومعاكسته وظن أن الجناب العالى لا يتفق معه فى تلك السياسة وأن الأوفق الذهاب بنفسه إلى المحروسة وعرض الأمر على الأعتاب السنية وما كان يدرى أن تلغرافات

الشفرة المتبادلة بين الحكمدار والمهردار هى التى تملى هذه السياسة وأن الحكمدار يقترح والخديوى يوافق إن اقتنع بصحة الاقتراح . والزبير بحكم تربيته ووسطه ما كان يدرك أن هناك باطناً من الأمر وظاهراً وأن السياسة مداجاة وحيل ، وما كان له أن يدرك طريقة الدسائس التركية ، فالأقوال اللينة التى يبديها له الحكمدار يأخذها على ظاهرها ولم يستشعر أن هناك تخوفاً من جهته من نحو عصيان أو تمرد أو استقلال وهو بطبيعته البسيطة وسليقته العربية الواضحة ما كان مخادعاً فى ولائه للحكومة الخديوية ، وظل ثابتاً على إخلاصه منذ أن قطع عهداً على نفسه بالولاء لهذه الحكومة عند ما تغلب على قوات البلالى ونفى عن نفسه تهمة التمرد والثورة . غير أن العنصر التركى الحاكم آنذاك ما كان يصدق أن رجلا عصامياً كالزبير بنى لنفسه مجداً فى مجاهل إفريقية والتف حوله أتباع وأهل وعبيد مخلصون له كل الإخلاص وفتح بقواته تلك بلاد دارفور من موارده الخاصة — ما كانوا يصدقون أن رجلا كهذا يكون خلواً من المطامع وما كانوا بحكم تربيتهم وتقاليدهم التركية أن يطمئنوا إلى مثل هذا الرجل ، فقد تحمل أقواله الظاهرة معنى عكسياً مما يبطنه فى ضميره ، ولذلك كان موقف الحكمدار معه منذ البداية موقف الحذر والاحتراس .

أنقذ الزبير العنصر الحاكم من حيرته وحل مشكلته بنفسه بأن طلب أن يحظى بالمثول بين يدى الجناب العالى بنفسه وسرعان ما جاء الرد بالموافقة وسرعان ما نفذ الحكمدار سياسة إخلاء دارفور بأكملها من نفوذ الزبير ونفوذ بحارته فأعطاهم الأوامر بتنفيذ سياسة الإخلاء ولم يرض الزبير عن هذه الإجراءات وقدم قبل قيامه عريضة للخديوى يشكو فيها من استعجال الحكمدار لبحارته بالرجوع إلى بحر الغزال وفصل مديرية دارة عنه وهو يرى أن اختلاط السكان فى المديريتين (دارة وبحر الغزال) يجعل انفصالهما إدارياً أمراً صعباً . فجاءه الرد بأن أوامر الحكمدار لا بد من تنفيذها فى الوقت الحاضر وأنه بعد حضوره للمحروسة سينظر فى تشكيل حكمدارية يكون هو على رأسها تشمل بحر الغزال وربما جزءاً من دارفور — وقبل قيام الزبير من شكا أوجس

الحكمدار خيفة وبعث بجنود كافية لدارة حتى إذا بدت حركة من الزبير انقض عليه الجهادية ، ورأى أن البارود الذى طلبه الزبير لبحر الغزال مبالغ فى كميته ، وهكذا لآخر لحظة كان الحكمدار يشك فى ولاء وإخلاص الزبير :

الزبير فى طريقه إلى مصر

قام الزبير من شكا قاصداً كردفان ومعه رؤساء البازنقر بعد أن قلقت القاهرة والخرطوم من التأخير وبدأ الحكمدار ينثر الأشواك فى طريقه . فبعد أن اتفق معه فى الفاشر على توريد أقمشة وعبيد بلغ ثمنها نحو السبعة آلاف جنيه يصرفها من خزينة الحكمدارية بالخرطوم أرسل تلغرافاً لمصر يسحب اتفاقه هذا لأن أهالى دارة كما يقول قدموا عرائض بأن الرقيق والدمور الذى ورد كان ملكهم واغتصبه منهم الزبير ، ولذا ينصح بأن يماطل الزبير فى الدفع بحجة عدم وجود النقدية ، وفعلا أخبر قائمقام الحكمدارية سراً بذلك الأمر . وصودرت أيضاً مائة قنطار من السن فى منزل الياس باشا أمبرير بالأبيض بحجة أنها من سن كردفان وليست من سن بحر الغزال ومشارعه .

فوجئ الزبير بأمر الحجز على السن فى الأبيض ، وفى الحال قدم شكوى حارة بالتلغراف كان الرد عليها التصريح له بأخذها معه وتوبيخ المدير على عمله هذا بالتعرض لموظف كبير من موظفى الحكومة الخديوية . لكنه فوجئ مرة ثانية عند ما وصل الخرطوم وطلب صرف مبلغ ما ورده للميرى بالفاشر وماطله القائمقام كما أمر ، وبعد التلغرافات العديدة صرف له نصف المبلغ ، وفى بربر أيضاً طلب مبلغاً آخر وبعد التلغرافات صرف له بعض الشىء أيضاً وقام من بربر مخترقاً صحراء العتمور إلى كرسكو ومنها إلى مصر .

ودليل ثابت على تخوف الحكومة من الزبير هو أن الحكمدار أمر أن يبقى بدازفور حتى يغادر الزبير الخرطوم وينتظر بالخرطوم حى يتيقن من وصول الزبير إلى كرسكو وتحت ستار التفتيش على الشمال يسافر إلى مصر حسب ما طلب منذ مدة . وظل الزبير بالقاهرة ولم يقدر له أن يرجع إلى مركز مديريته ببحر الغزال كما كان ينتظر ، فلنتركه هناك ولنرجع إلى ما حدث فى مديرية خط الاستواء من توسع ومجهود لمنع تجارة الرقيق .

فتوحات إسماعيل فى السودان (خط الاستواء)

الضجة حول خط الاستواء

تمت عملية الفتح والضم فى بحر الغزال بطريقة لم تكلف الحكومة مالا أو خسارة فى الأرواح اللهم إلا جنود البلالى وماصرف عليهم وهذا قليل بالنسبة لأراض شاسعة كهذه وبرهن الزبير على ولائه وإخلاصه للحكومة بأنه قبل أن يكون حاكمها من قبل الحكومة بل قفز منها نحو دارفور وضمها للأملاك الخديوية ، الأمر الذى نوت الحكومة منذ فتح السودان إتمامه . أما خط الاستواء فقصتها تختلف عن بحر الغزال ، وللشخصيات التى وكل إليها مراقبة التجارة وفتح الأراضى فى خط الاستواء وللإعلان الذى نالته المديرية اختل توازن أهمية تاريخ المديريتين ، وكتبت المجلدات والكتب الضخمة عن خط الاستواء ، ومضت بحر الغزال منزوية فى التاريخ لأنها لم تقم حولها ضجة .

تعيين صموئيل بيكر

فخط الاستواء ارتبط مصيرها بشخصين إنجليزيين ، الأول مكتشف ممتاز والثانى ضابط شاب قدر له أن يلعب دوراً هاماً فى تاريخ هذه البلاد وقدر له أن يلقى حتفه فى تربها وتخلد اسمه إلى وقت قريب أكبر مؤسسة علمية فى البلاد وهى كلية غوردون . وقد حضر صموئيل بيكر فى أوائل سنة ١٨٦٩ إلى مصر بمعية ولى عهد المملكة الإنجليزية وكان اسمه اشتهر بمكتشف بحيرة البرت . فبعد محادثات بينه وبين نوبار باشا وقع اختيار الخديوى عليه للقيام بحملة إلى خط الاستواء وضمها لأملاكه ورضى بيكر بما طلب إليه وهو عقد لمدة أربع سنوات براتب سنوى يبلغ العشرة آلاف جنيه .

وهنا يصدر إسماعيل أمراً لبيكر يحدد فيه مأموريته ويصدر أوامر أخرى إلى ناظر الداخلية وحكمدار السودان ، فقد ورد فى أمر بيكر « نظراً للحالة الهمجية السائدة بين القبائل القاطنة فى حوض نهر النيل ونظراً لأن النواحى المذكورة ليس بها حكومة ولا قوانين ولا أمن ولأن شرائع الإنسانية تفرض منع النخاسة والقضاء على القائمين بها المنتشرين بكثرة فى تلك النواحى — ولأن تأسيس تجارة شرعية فى النواحى المشار إليها يعتبر خطوة واسعة فى سبيل نشر

المدنية ويفتح طريق الاتصال بالبحيرات الكبرى الواقعة فى خط الاستواء بواسطة المراكب التجارية ويساعد على إقامة حكومة ثابتة .... » وفى أمره للحكمدار ورد « بما أننا أرسلنا سعادة الفريق خسرو باشا إلى السودان ليقوم بتنظيم الجنود الذين سيكونون بمعية صاحب العزة صموئيل بيكر بك المعين مأموراً لتوسيع الأقطار السودانية فى جهات النيل الأبيض ... » وتضمن أمر ناظر الداخلية ما يأتى « نظراً لوجوب إلحاق أعالى النيل الأبيض الذى يعد القسم الأكبر من النيل المبارك بالأقطار السودانية ولوجود مناسبة بينهما فإن الحكومة المصرية من القديم اتخذت لنفسها طريق التقدم إلى الجهات العليا وعلى ذلك تقرر تعيين صموئيل بك الموظف بالحكومة الذى سبق له اكتشاف منبع النيل ولديه المعلومات الكافية عن تلك الجهات مأموراً لإلحاق أعالى النيل الأبيض بالممالك المصرية » .

تضمنت كل الأوامر إذاً توسيع الممتلكات المصرية فى أعالى النيل الأبيض إلى منابعه ولم يرد ذكر القضاء على النخاسة إلا فى أمر بيكر نفسه وهذا يدل على أن الغرض الرئيسى من الحملة هو ضم حوض النيل بأكمله للسودان وتوحيد الأراضى التى ينساب فيها هذا النهر المبارك تحت إدارة واحدة . واختيار بيكر بالذات لإدارة هذه المأمورية فيه دلالة أخرى على أن دافع الوحدة أقوى لأن بيكر سبق له التجوال فى البقاع ولأنه اكتشف أحد منابع النيل فهو قد ألف الجو وخبر السكان والأراضى .

الاستعدادات

بدأت الحكومة فى مصر والحكمدارية فى السودان تعملان استعداداً للحملة ؛ فقد أحصيت البواخر النيلية الموجودة فى مصر والسودان ، وجهز عدد عظيم منها للحملة واشترى بعضها من الشركة العزيزية ، وقامت نظارة الجهادية بإعداد الجند والضباط ومتاعهم ومؤنهم وذخائرهم ، وأمر الحكمدار بتجهيز مراكب شراعية تقوية لأسطول بيكر البحرى . وذهب بيكر بنفسه لانجلترا وطلب من بناة السفن تجهيز سفن خاصة تصلح للملاحة فى تلك البقاع

واشترى من المهمات المختلفة من المصانع الإنجليزية ما هو فى حاجة إليه ولم يهمل حتى الأمتعة الصغيرة . وتجواله فى أواسط أفريقيا أكسبه خبرة بما يحتاج إليه المسافر فيها ، وفتحت الحكومة المصرية خزينتها له بسخاء لاستيراد ما يراه ضرورياً لتجهيز تلك الحملة .

السير جنوبا

وصل بيكر للخرطوم ومعه من استخدمه من أعوان أوروبيين ، ولكنه لم يجد الاستعدادات قد تمت كما يرجو ، وكانت هذه أول عقبة سجلها فى يومياته ، وبعد أشهر تمكن من أن تقلع بواخره ومراكبه الشراعية صاعدة فى النيل الأبيض ، وأرادت عقليته الاستكشافية السير من طريق بحر الزراف لأنه مختصر وجديد فى آن واحد ، ولكنه ما سار فيه أياماً حتى اعترضته السدود واضطر أن يقفل راجعاً وما تمكن من السير فى الفرع الأصلى للنيل الأبيض لأن هبوط منسوب المياه اضطره لتأجيل اختراق منطقة السدود للسنة القادمة . وصمم بيكر أن يقيم وجنوده الأشهر القادمة فى حدود مديرية النيل الأبيض ولم يرض الرجوع إلى الخرطوم ففتكت الأوبئة والأمراض ببعض جنوده وقللت من حيوية البعض الآخر . وأثناء إقامة قواته فى المحطة الجديدة التى سماها التوفيقية رجع بيكر إلى الخرطوم ليشرف بنفسه على تجهيز بقية الحملة وحين فاض النيل واصل سيره جنوباً حتى وصل غندوكرو مقر رئاسته فى ١٥ إبريل سنة ١٨٧١ وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٧٣ غادرها معتزلا الخدمة لأن عقده قد انتهى . وقد مكث فى خط الاستواء ما يزيد على السنتين يقوم بمهمة الفتح وضم الأراضى .

مقاومة أبو السعود والأهالى

إلا أنه منذ البداية لقى من التجار مقاومة أفسدت عليه ما كان ينتظره من توسع ، ووجد بنوع خاص من أبى السعود وكيل شركة العقاد خصما عنيداً يتقد ذكاء ، وله إلمام تام بالبلاد وساكنيها ، ولا شك أنه كممثل لطبقة التجار وأرباب المشارع لا يريد أن يرى سلطة فوق سلطتهم ويرغب فى استمرار احتكارهم للتجارة وسيطرتهم على الأهالى دون منازع ، وقد نجح فى إثارة القبائل ضد الحملة وألقى فى روعهم أن الحملة إذا ما قاطعها الأهالى بعدم

تقديم الطعام لها ستضطر إلى الرجوع ، وعلى هذا امتنع الأهالى عن بيع أى شيء من الذرة أو البقر للحملة وظهروا بمظهر عدائى حتى إن الجند ما كانوا يبتعدون عن محطتهم ، واضطر بيكر إزاء هذا العداء وإزاء امتناعهم عن بيع الأطعمة إلى أن يغتصب منهم البقر والذرة لتموين جنده . وبعد أن رفع العلم المصرى فى غندوكرو وأعلن رسمياً ضمها إلى الأملاك الخديوية تقدم ببعض من جنوده جنوباً لتأسيس نقاط حربية ولاكتشاف منابع النيل وضمها لمصر .

تأسيس المحطات ومعاكسة كباريجا

أسس نقطة فى فاتيكو ووصل إلى الفرع الذى يحمل مياه بحيرة فكتوريا للنيل الكبير فى فويرا وواصل سيره فى بلاد انيورو التى يعرفها حق المعرفة حتى وصل عاصمتها مازندى على ضفاف بحيرة البرت ووجد حفاوة وحسن لقيا أول الأمر من كباريجا ملك أنيورو ، وتحت تأثير هذا رفع العلم المصرى وأعلن ضمها إلى مصر بالحفلات المعتادة بحضور كباريجا وعدد كبير من الأهالى . ولكن سرعان ما تبدلت الحفاوة إلى عداوة ، وسرعان ما بدأ الأهالى يهاجمون حصن بيكر ثم قطعوا الزاد والمؤن عنه ، كل ذلك وكباريجا يراوغ ويدعى أنه ليست له يد فى الأمر .

التراجع من أنيورو

وعند ما تكررت الاعتداءات ورأى بيكر أنه يبعد كثيراً عن قاعدته وأن ما معه من الجنود شرذمة قليلة لا تستطيع الاحتفاظ بتلك المحطة صمم على التراجع من أنيورو . ولانقطاع أمله من وجود الحمالين جمع الأحمال الثقيلة ووضعها كومة أشعلت فيها النيران ، وكان منظراً مؤلماً على نفس بيكر ولكنه إجراء لا بد منه . وبدأ ذلك التراجع الذى قاسوا فيه أشد ما يقاسيه إنسان من وعورة فى الطريق واعتداءات من الأهالى لا تنقطع ليلا ولا نهاراً قتل أثناءها بعض الجنود وجرح البعض الآخر إلى أن وصلوا نقطة فاتيكو ثم واصلوا سيرهم إلى غندوكرو .

بيكر يعتزل الخدمة

وبعد قليل انتهى عقد بيكر وغادر مركز مديريته إلى الخرطوم ، وقبل أن يصلها بعث أمامه بتلغراف يبرق إلى القاهرة حيث يلقى بموجبه القبض على

أبى السعود وتقديمه للمحاكمة لأنه كما يرى بيكر السبب فى كل هذه العراقيل والاعتداءات المتكررة من الأهالى ، بل يتهمه بيكر بأن جماعته أغاروا مرة على المحطة الحكومية وأطلقوا عليها النيران . وبعد إقامة أيام قليلة بالخرطوم سافر لمصر فأنعم عليه الخديوى بالنياشين وشكره على خدماته . وقد بلغت جملة مصروفات الحملة نحو الثمانمائة ألف من الجنيهات بما فى ذلك ما ترك من وابورات . ولم تتم عملية الفتح والضم كما كان مقدراً لها ، وكل الأرباح التى جنتها الحكومة هى تأسيس ثلاث محطات فى غندوكرو وفاتيكو وفويرا احتفظ بها محمد رءوف بك الذى تركه بيكر هناك حتى تعيين غوردون كما سيجىء فيما بعد .

نتائج حملة بيكر

انتهى عقد بيكر بعد أن لاقى ما لاقى فى تنفيذ مأموريتى الفتح وإلغاء الرق ، وقد ترك نتيجة لمجهوداته ثلاث محطات عسكرية كما قدمنا يرفرف عليها العلم المصرى ، ولكن نفوذ الحكومة لم يكن يتعدى أميالاً بسيطة من تلك المحطات ، ولم تستطع فل شوكة تجار الرقيق لأن كبيرهم أبا السعود بلغ به الاستهتار بسلطة الحكومة أن أطلقت جماعته النيران على الجنود الخديوية وقد ألقى فى روع الأهالى أن وجود تلك المحطات موقت ولا بد أن يغادروا البلاد عند ما تتراكم عليهم العقبات والمتاعب . وبالرغم من أن بيكر اتهم أبا السعود بالخيانة العظمى وعرقلة مساعى الحكومة فى تلك الأصقاع ، وبالرغم من أن الحكومة قدمته للمحاكمة إلا أنه أفلت منها باستخدام غوردون له كما سيجىء .

تعيين غوردون

كان إسماعيل شديد الرغبة فى مواصلة الأعمال التى بدأها بيكر من ناحيتى التوسع وإبطال الرق ، وتمكن وزيره نوبار أن يقابل بوجه الصدفة ضابطاً انجليزياً فى السفارة الإنجليزية بالاستانة ، وإذ كانت أفكار الحكومة المصرية متجهة نحو إيجاد خلف لبيكر عرض الوزير المصرى الفكرة على الضابط الإنجليزى ليدله على إنجليزى يقبل الخدمة فى خط الاستواء خلفاً لبيكر فوعده الضابط أن يقابله بعد أيام . وما كان هذا الضابط غير غوردون الذى خدم فى حروب القرم وفى الصين والآن أتى فى مهمة مندوب إنجليزى فى لجنة دولية

تشرف على الملاحة فى نهر الدانوب . وبعد أيام كتب غوردون لنوبار بأنه يقبل الخدمة بدلا من بيكر إذا وافقت حكومته . فسعت الحكومة المصرية لدى حكومة هوايت هول وتم الأمر ودخل غوردون فى عقد مع حكومة الجناب العالى ، وأدهش الجميع عند ما رفض مرتب العشرة آلاف جنيه كماهية سنوية كما كان بيكر يتناولها من قبله ورضى بألفين فقط . ولعل هذا الاستهلال الذى بدأ به غوردون كان له أكبر الأثر فى نفس إسماعيل إذ كان يقدر موظفه الجديد أكبر تقدير ، وكان غوردون يسره أن يخدم إسماعيل حتى إذا ما زايل إسماعيل الأريكة الخديوية . لم يطب لغوردون المقام وترك الخدمة فى الحكومة المصرية . دخل غوردون فى الخدمة بسلطات أوسع إذ أطلقت يده فى مديرية خط الاستواء يفصلها عن الحكمدارية فصلا نهائياً وعلاقته معها علاقة تعاون ومساعدة إذ تمده الحكمدارية بما يحتاج إليه وتجرى خصم ما يسلم له على المالية .

مذكرة خديوية عن سياسة الجنوب

ومن الدروس التى تركتها حملة بيكر ومن تقاريره وتوصياته حررت الحكومة المصرية مذكرة وافية شاملة نرى أن نثبتها بنصها لأنها تشمل ما يجب على الحاكم الجديد القيام به من أعمال :

« إن المديرية التى شرع الأميرلاى غوردون فى مباشرة تنظيمها وحكمها لا يعرف عن أمرها سوى الشىء القليل . ولغاية هذه السنوات الأخيرة كانت واقعة بين مخالب قوم من الأفاقين همهم فقط الحصول على الأرباح غير المشروعة فكانوا يتجرون بالعاج والرقيق معاً وذلك بأن ينشئوا متاجر يديرونها بواسطة رجال مسلحين وكان يضطر رجال القبائل المجاورة — سواء أكان ذلك بطيبة خاطر أم بإكراه — أن يشتركوا معهم فى تلك التجارة ، وكانت الحكومة المصرية قد استولت على مكاتب أولئك التجار بعد أن دفعت تعويضات لأربابها مؤملة أن تتوصل من وراء ذلك إلى وضع حد لهذه التجارة الممقوتة المنافية لشروط الإنسانية .

وكان قد أبيح للبعض من هؤلاء أن يستمر فى تجارته فى المراكز

بعد أن قطع هذا البعض على نفسه عهوداً بأن لا يتجر فى الرقيق ووضع بعد ذلك تحت مراقبة حكمدار السودان غير أن سلطة الحكمدار لم تكن قد تمكنت إلا قليلا من جعل الناس تشعر بها فى تلك الأقطار النائية القصية . لذلك قرر الخديوى أن يؤلف من هذه الأرجاء حكومة منفصلة وأن يجعل التجارة مع الخارج كاحتكار من حق الحكومة وما كانت توجد وسيلة أخرى لوضع حد لتجارة الرقيق التى ما زالت ترتكز إلى الآن على قوة السلاح دون سواها متحدية الشرائع والقوانين .

فمتى انقطعت اللصوصية وأضحت فى سير الغابرين وانفتحت ثغرة فى عوايد هؤلاء الأقوام تلك العوايد المجحفة التى تأصلت فى نفوسهم مع كر السنين ، فعندئذ يؤذن بحرية التجارة للجميع . وكان على الأميرالاى غوردون إذا رأى الفرق التى كانت مأجورة لأولئك الأفاقين مستعدة لخدمة الحكومة أن يجنى كل فائدة يمكن جنيها منهم . وإذا رآهم يتوخون سلوك سيرتهم الأولى كان عليه أن يشعرهم بكل ما فى الأحكام العسكرية من بطش وشدة :

وقد وقع آخرون فى خطأ وخيم العاقبة كان يجب أن يتجنب . ذلك أن من الواجب إطعام الجيش إطعاماً جيداً فلا يكون هناك حاجة للاستيلاء ، كما كان حاصلا فى الزمن الماضى على مستودعات حبوب القبائل ، إذ أن مثل هذا العمل يدعو تلك القبائل إلى سوء الظن بالحكومة فضلا عن أنه منافٍ لإرادة الخديوى الذى يود كسب ثقة الأهالى وحسن ظنهم . فيجب أن تزرع الجنود الأرض وأن تزداد المحصولات .

وإذا وجد بين الأهالى الذين يعتقون من أيدى النخاسين أناس لا يمكن الاهتداء إلى عشيرتهم نظراً للأماكن القصية التى نقلوا منها وتعذر ردهم إلى أوطانهم فهؤلاء يستحسن تشغيلهم فى استغلال الأرض بجوار البلاد التى بها محطات . ويجب على الحكمدار الجديد أن يجعل نصب عينيه إقامة خط للنقط العسكرية خلال المديريات التابعة له يربطها مع بعضها من طرف إلى آخر بحيث

تستطيع جميعها أن تراسل الخرطوم مباشرة ، ويجب أن يتتبع هذا الخط ضفة النيل ويتمشى معها إلى أقصى حد ممكن وبما أن فى غير الإمكان الملاحة فى النيل فى مسافة طولها ٧٠ ميلا بسبب الشلالات فعلى الحكمدار أن يتلمس وسيلة يستطاع معها التغلب على هذه العقبة ويرفع تقريراً بذلك للخديوى.

وعلى الحكمدار قبل كل شيء فيما يختص بعلاقاته مع القبائل الضاربة على سواحل البحيرات أن يحاول اكتساب مودتهم وأن يجعل نفسه موضعاً لثقتهم وأن يحافظ على ممتلكاتهم وأن يستجلب رضاهم بواسطة الهدايا . وعليه أيضاً مهما كان نفوذه عندهم أن يجتهد فى حملهم على الاقتناع بالكف عن الحروب التى يضرمون نارها بغية الحصول على العبيد ...

وإذا رأى الحكمدار ضرورة لفرض رقابة حقيقية على قبيلة ما من تلك القبائل فيكون الأفضل أن يترك للرؤساء الحكم المباشر وعليه أن تتحقق من خضوعهم وطاعتهم مع جعلهم يخشون سيطرته » .

استقبال غوردون فى الخرطوم

تزود غوردون بهذه التعليمات التى نرسم الخطوط الرئيسية لسياسته وطلب تعيين الأوربيين معه فأجيب إلى طلبه ، وطلب تعيين أبى السعود وكيلا ومساعداً له . وكانت هذه مفاجأة للحكومة فى القاهرة والخرطوم لأن سلفه بيكر رأى محاكمته لعرقلته مساعى الحكومة ، فطلب غوردون لرجل رهن المحاكمة أمر غريب وشاذ ولكن الحكومة رغماً عن ذلك أجابته لما يطلب وما كانت تريد أن ترد له أمراً . وغادر القاهرة يحمل برنامجاً مفصلا لتأدية مأموريته وتنفيذ الأوامر الخديوية وترك صديقه ومعاونه جسى فى القاهرة لتسهيل مهماته . وعند ما أهل غوردون على الخرطوم استقبله الحكمدار إسماعيل أيوب باشا استقبالا رائعاً لم يألفه قبل ذلك ووصف روعته فى خطاب بعث به لأخته فى إنجلترا وفوق سروره من الاستقبال سر بفتح طريق السدود حيث رجع الحكمدار ومعه أورطة سودانية كاملة قامت بقطع الأعشاب التى تعترض مجرى النيل واقتلعت المياه جزراً عديدة من تلك النباتات المتشابكة بما كان

عليها من تماسيح وأفراس البحر وهى تعوى وتصيح . وكان على غوردون أن يبرق للجناب العالى بوصوله سالماً إلى الخرطوم وبما لقيه من حسن الاستقبال وكرم الضيافة من الحكمدار ومحافظ سواكن ومدير بربر وفوق كل هذا أظهر سروره الزائد بالمهمة التى قام بها الحكمدار حيث فتح طريق النهر فى منطقة السدود .

مسيره من الخرطوم

قام من فوره فى وابور خاص ليلقى أول نظرة على مأموريته الجديدة بعد أن أصدر أول أمر له فى الخرطوم تبعاً للتعليمات التى تلقاها باحتكار تجارة السن لجانب الحكومة وبمعيته شيلولونج الضابط الأمريكانى الذى كان فى خدمة الجيش المصرى والآن عين لمرافقة غوردون . وبعد تسعة أيام وصل فشودة وهناك تحول فى وابور بوردين (الذى لا يزال موجوداً كأثر من الآثار فى ترسانة الخرطوم بحرى) وظل صاعداً فى النيل الأبيض دون توقف إلى أن وصل غندكرو مقر حكمه فى ٢٢ مارس سنة ١٨٧٤ . وهناك قوبل بكل ترحاب من جنود الحامية وعلى رأسها رءوف باك الذى ظل مشرفاً على إدارة المديرية بعد مغادرة بيكر لغندوكرو وجد بعثة من امتيسة ملك أوغنده بهدايا للجناب العالى ورأى غوردون أن الفرصة سانحة لتوثيق العلاقات بين الحكومة المصرية والعاهل الإفريقى العظيم وفى الحال أمر بتأليف سفارة ترد هذه الزيارة وتحمل بعض الهدايا لامتيسة برئاسة مولج .

غوردون يرجع للخرطوم

أما غوردون فبعد أن أقام فى غندوكر خمسة أيام قفل راجعاً للخرطوم على ظهر باخرته بوردين وكان منظرها وهى تدنو من مراسيها فى الخرطوم وعلى ظهرها مأمور الأقاليم الاستوائية موضع دهشة واستغراب ولكنه أزال ما كان يخامرهم من شك بأن أعلن أنه رجع للإشراف على تشهيل أمتعته ومؤنه وذخائره . وعند ما سمع أنها وصلت بربر خف بنفسه وأشرف على وسقها فى المراكب وقابل معاونيه الذين خلفهم وراءه فى القاهرة وأقلعت المراكب وهى تحمل كثيراً من عتاده الحربى ومؤنه ووصل معها الخرطوم .

اقتراحات لغردون

وفى تلك الزيارة الخاطفة لمديريته كون فكرة عنها وأتى بمقترحات عرضها

جلى الحكمدار وأهمها أن يضم إلى مديريته نهرسوباط ونهر الجور أى أن يُضم
جزء من مديرية فشودة وكذلك قسم كبير من بحر الغزال فلم يقبل له الحكمدار
وأبرق للخديوى بالأمر موصياً ألا ترضخ الحكومة لهذا الطلب . فورد الأمر
لغوردون بأن ما وضع تحت إمرته أقاليم شاسعة هى وحدها فى حاجة إلى
مجهود جبار لإدارتها وإحلال الأمن فى ربوعها ولا يوافق على هذا الطلب .
فرضى غوردون بهذا الرد وكان يود السيطرة على كل أوكار تجارة الرقيق حتى
يتمكن من إبادتها حسبما يعتقد . وما غادر الخرطوم جنوباً ببواخره ومراكبه
الموسوقة إلا بعد أن شكى من تعطيل الحكمدار لأشغاله وبعد أن أبرق بهذه
الشكوى للخديوى وهكذا فى أيام تبدل ما أعلنه من شكر لخدمات الحكمدار
وما لقيه من حسن استقبال وكرم ضيافة إلى شكوى وتذمر .

محطة على نهر سوباط

وما أن وصل إلى مصب نهر سوباط فى النيل الأبيض إلا وأمر بإقامة
محطة هناك تكون الحلقة الشمالية من سلسلة محطاته على النيل ورأى ملاءمة
تلك النقطة لأن ما ينحدر فى نهرى سوباط وبحر الغزال من مراكب يمر بها
قبل أن يدخل فى النيل الأبيض وتتمكن النقطة من ضبط محمولها من الرقيق .
وأقام فيها وبعث بأمتعته ومعاونيه جنوباً إلى غندوكرو وظل هو فى تلك المحطة
ليقطف أول ثمرة لتأسيسها . فانتظر كثيراً حتى رجعت بواخره من غندوكرو
يصعد فى النيل إلى مركز رئاسته وقبل أن يغادر محطته ضبط مركبين تحملان
عاجاً فوق السطح وتخبئان رقيقاً فى الداخل فحررهم وأسكنهم فى مستعمرة
بالقرب من المحطة لفلاحة الأرض . وهو فى طريقه أسس محطة فى شامبى .

الملاريا تفتك برجاله

بدأ مناخ غندكرو الوخيم يؤثر فى صحة من بمعية غوردون من الأوربيين
ولم يكتف المرض بالأيام الطويلة التى قضاها معظمهم يتقلب على الفراش من
أثر الملاريا . ولكن قضى البعض نحبهم وخسر غوردون حسب ما روى بموتهم
خسارة لا تعوض فى تلك الأصقاع النائية . أما هو فقد بقى سليما معافى يسهر
على راحة المرضى من أعوانه . وفى الشهور الأولى أظهر أبو السعود إخلاصاً

وولاء وساعد فى نقل قطع الوابورات إلى ما فوق الشلالات حتى تجمع وتربط هنالك ولكن ما أصاب الأوربيين من مرض أو موت وما لقيه من حسن تقدير من غوردون جعله يتنمر ويرفع رأسه ويرجع لطرقه القديمة ولكن عين غوردون ساهرة واقفة له بالمرصاد فأقيل من منصبه ووضع تحت الحراسة ريثما يرسل للخرطوم معزولا .

نقل العاصمة إلى اللادو

رأى غوردون أن ينقل عاصمته من محيط غندكرو الوخيم المحاط بالبرك والمستنقعات وبؤر الناموس والحشرات إلى منطقة عالية خالية نوعاً ما منها فاختار الرجاف أول مرة ولكنه عدل عنها ونقل إلى جبل اللادو . وهناك بدأ بتنفيذ أهم الأغراض التى تعاقد من أجلها مع الحكومة والتى تحويها التعليمات الخديوية وهى فتح الطريق إلى البحيرات وتأسيس محطات عسكرية قريبة من بعضها لتكون خطاً متصلامن المواصلات وكان فى ذلك الوقت صديقه ومعاونه جسى يقيم فى الخرطوم وكيلا عنه وإسماعيل أيوب باشا شغل بحملة دارفور وغادر مقر الحكمدارية إلى الجهات الغربية .

تأسيس المحطات العسكرية

وقد نجح فى تأسيس محطات عسكرية عديدة تصل إلى قرب البحيرات ونجح فى أمر له أهميته وخطورته وهو جذب قلوب الأهلين حتى أنهم بدأوا يتعاملون ويتعاونون مع الحكومة بدلاً من مواقفهم العدائية زمن بيكر ونجح غوردون لدرجة ما بأن علم الأهالى استعمال النقود وبوجه الإجمال كانت خطته حسب التعليمات التى تلقاها خطة مسالمة وتأمين لا خطة فتح وقهر . إلا أن العوارض الطبيعية وقفت أمام طريقه ولم تتركه يحقق كل الأهداف التى من أجلها عين فهذه الأمراض قد اعترت أعوانه وهذه الشلالات جعلت بواخره لا تتعداها إلا بنقل الأجزاء وربطها مرة أخرى فوقها ثم عداوة قبائل انيورو وملكها كباريجا وأخيراً تمرد امتيسة وقبائل أوغندة جعلت ضم البحيرات بصفة نهائية أمراً صعب المنال بالرغم من تأسيس الحاميات لوقت ما فى منطقتها . وإذا هو لم يحالفه النجاح فى ضم أونيورو وأوغندا نهائياً إلا أنه تمكن من

استكشافات البحيرات وفى النهر الذى يصل البحيرتين ورسم خريطة لها أضبط مما قبلها من الخرائط .

اقتراح طريق الساحل

ولعل أهم مسألة كانت تتوج نجاحه لو تمت هى علاقته بأوغنده واقتراحه لإيجاد طريق يمتد من البحيرات شرقاً إلى الساحل . فبعد أن أقام غوردون بضعة أشهر فى مديريته ورأى بعد الشقة بينه وبين الخرطوم ثم الصعوبات الطبيعية بينه وبين البحيرات من شلالات وأعشاب ومستنقعات وقبائل متوحشة قد تقطع الطريق فى أى لحظة . ثم أن مؤنه وذخائره وعتاده الحربى لا تصل إلى الخرطوم إلا بعد أن تجوب طرق النقل المختلفة من سكك حديدية وبواخر نيلية فى مصر إلى قوافل صحراوية بالجمال إلى بربر وبالنيل ثانياً إلى الخرطوم . كل ذلك جعله يتجه بأفكاره نحو فتح طريق الساحل الشرقى لإفريقيا.

وعند ما اختمرت الفكرة فى رأسه أبرق للخديوى بها وتتلخص فى أن يرسل الخديوى حملة من مصر إلى خليج ممباسة وتأخذ الحملة طريقها من الساحل غرباً ويأخذ هو طريقه من البحيرات شرقاً حتى يلتقيا ويتم فتح طريق هو المنفذ الطبيعى كما يرى للعالم المتمدن لا طريق النيل . وقد رحب الخديوى بالفكرة وفى الحال بعث بقوة على رأسها ماكلوب باشا ورست فى خليج ممباسا .

علاقات امتيسة الأولى

ومما جعل انتهاج تلك الخطة أمراً فى حيز الإمكان ما أبداه امتيسة ملك أوغنده من رغبة فى الاتصال بمصر فهو قد أرسل سفراءه كما قدمنا ليقابلوا بيكر ولكنهم وجدوا غوردون وقدموا هداياهم كما أمر بل طلب امتسة من الجناب العالى أن يبعث له بعالمين يهتدى عن طريقهما إلى الدين الإسلامى.ولم يكن أحسن وقعاً على إسماعيل من هذا الطلب وسرعان ما بعث إلى الحكمدارية بتنفيذه ونفذ على وجه السرعة . وها هو لونج يغادر غندكرو أول ما وصل غوردون إليها فى سفارة لامتيسة رداً لزيارة سفرائه وحسن الملك وفادة السفير ويتخلص السفير أخيراً لأن الملك يرغب فى بقائه معه مدة أطول ورجع بعد

أن توثقت العلاقات ويقدّر لامتبسة أن يدخل الدين الإسلامى ولكن الظروف السياسة والدينية تغير الأمور إلى مجرى آخر .

وقد تركنا حملة ماكلوب تلقى أحمالها فى خليج ممباسا وهنا شعرت إنجلترا برغبة الخديوى فى التوسع وفى الحال أوعزت لسلطان زنجبار أن يحتج لهذا الاعتداء وهى من جانبها قد ضغطت على إسماعيل بأن يسحب جنوده وقد فعل . وقد تركنا امتيسة يتلقى تعاليم الإسلام فأراد غوردون أن يجعل حبل الود متصلا بينه وبين امتيسة فأرسل سفارة ثانية على رأسها أرنست دى بلفون ابن لينان باشا ومعه ثلاثون جندياً وقوبل أيضاً بحفاوة وترحاب مثل ما قوبل بهما لونج قبله .

استانلى فى بلاط امتيسة

ولكن هذه المرة حل ستانلى ببلاط امتيسة ولم يكن الأخير يطمئن لدين واحد ودفعته غريزة حب الاستطلاع أن يسأل ويستفهم عن الدين الثانى الذى يمثله ستانلى وتمكن هذا بلباقته وقوة تأثيره أن يجعل الملك المتقلب الأهواء يقبل دين النصرانية ووسع معلوماته عن المسيحية من المسيحى الجديد وهو ارنست واستمر هذا حقبة مع الملك تارة يعلمه الجغرافيا والفلك وطوراً يرد على أسئلته المتعددة المتكررة عن الممالك الأوربية وقوتها وطوراً آخر يسأله عن معلومات دينية مسيحية وأخيراً طلب الملك من السفير أن يحالفه فى حرب ضد خصمه كباريجا ملك أونيورو ولكن السفير رفض لأنه لايقبل على خطة كهذه إلا بأمر من رئيسه غوردون .

رجوع ارنست

وأخيراً غادر أرنست بلاط الملك دون أن يعينه على خصمه وكذلك لم يرض عنه ورجع بجنوده إلى محطات مديرية خط الاستواء بعد أن صادف فى طريقه الكثير من العقبات الطبيعية والإنسانية وقدر لهذا الفرنسى الشاب أن يفجع فيه والده كما فجع فى أخيه الذى مات فى أيام غوردون الأولى فى غندكرو إذ قتل فى حرب ضد قبائل معادية وهو قريب من مكان غوردون . وعند ما جهز أرنست للدفن . وجد غوردون فى جيبه خطاباً من ستانلى إلى

انجلترا يهيب فيه بالرى العام الانجليزى أن يرسل بعثات تبشيرية لأواسط أفريقيا ويرى أنها فرصة ذهبية لفتح تلك المجاهل للمسيحية . فبعث غوردون بالخطاب للخرطوم ليرسل منها إلى مصر فانجلترا وقد استجاب الرأى العام الانجليزى استجابة سريعة وتدفقت بعثات إرساليات الكنيسة الانجليزية على أواسط أفريقيا .

احتلال أوغنده والانسحاب منها

حُدّت مطامع الخديوى فى شرق أفريقيا تحت ضغط إنجلترا وقدر لمصر أن تنكب مرة أخرى فى مركزها فى البحيرات الاستوائية فقد تقدم أن امتيسا ظل صديقاً للحكومة المصرية وطلب من غوردون أن يجعل فى مقره روباقا نقطة عسكرية كان مقرراً لها أن تبقى فى أوردجانى شمال روباقا وإجابة لطلبه أسست الحامية المصرية وعددها ١٦٠ جندياً فى عاصمة امتيسا ورفرف العلم المصرى فوق ساريته وقائد الحامية النور أفندى محمد . وبعث غوردون بهذا الخبر للجناب العالى كدلالة على أن أمتيسة قبل الحماية المصرية . غير أن أهواء امتيسة المتقلبة جعلته يقلب ظهر المجن للحامية المصرية وقطع عنها الإمدادات وتركها فى هيئة حصار حتى أن النور أفندى قوّى حصنه وخف بنفسه لمقابلة غوردون ووجده آنذاك فى فويرا يعمل فى مساحة نهر فكتوريا فعرض عليه الأمر وقد فكر غوردون أن يذهب بنفسه لامتيسة بمن معه من الجنود ولكنه رأى أن من معه من الجند قليل إذا أراد لامتيسة التراجع عن موقفه بالقوة ثم أنه لم يخطر بباله أن مهمته هى الفتح عنوة ورأى لذلك أن يكتب خطاباً للدكتور أمين الذى كان فى بلاط امتيسة آنذاك موفداً من غوردون وقد كان شاهد عيان لحصر الجنود المصرية يطلب منه التوسط لدى الملك بفك الحصار عن الحامية ليباشر بعدها النور أفندى سحب جنوده ومعداتهم . وتم سحب الحامية من عاصمة امتيسة وطوت علمها .

وكان لغوردون أن يبرق للجناب العالى بما جد من موقف امتيسة وبقراره لسحب الحامية فورد له تلغراف من الخديوى تنم لهجته على الغضب وعدم الموافقة لهذه الخطوة إذ يقول فيه « [1] قد علم من تلغرافكم أن السلطان امتيسة

---

(١) دفتر ٣١ عابدين صادر تلغرافات شفرة نمرة ٣٢١ ص ٧ .

متظاهر لكم عدم صداقته وفرغت أمنيتكم منه وإرادتكم ترجيع عساكرنا من طرفه وحيث أنه بناء على التلغراف السابق وروده من طرفكم المتضمن قبوله تبعية الحكومة ورغبة إقامة عساكرنا بطرفه وما أوريتموه من المدح فى حقه صار إعلان ذلك لسائر القناصل رسمياً مع إعلانه بالجرانيل فلهذا إذا كان يصير إرجاع العساكر من طرفه الآن وترك أمتيسة يكون ذلك أمر بارد فى حق الحكومة فلذلك صار استمرار إقامة عساكرنا فى كرسى بلاد امتيسة من الضرورى وبحسب المعلوم فيكم من حسن الإدارة مأمول النهو لا يستصعب عليكم إجراء الطرق والوسائط لجذب قلبه وميله وتأليفه لجهة الحكومة وإذا كان سبق إرجاع العساكر الذين كانوا بطرفه فتعملوا كل الجهد فى إرجاعهم كما كانوا على كل حال فإن جل المقصود استمرار تبعية امتيسة المذكور وإثباته تحت طاعة الحكومة » . فقد يكون امتيسة راغباً فى مساعدة أولئك الجند له فى قتال أعدائه كما طلب من أرنست قبل ذلك ولم يجد منهم ما يطلبه وقد يكون غير رأيه فى احتمائه بالحكومة المصرية بعد أن علم أن هناك حكومات أقوى وأكبر منها حسب ما استقاه من معلومات وقد تكون الدسائس السياسية غيرته مثلما غيرته الدسائس التبشيرية .

غوردون يبرر موقفه

ولم يغفل غوردون الرد على تلغراف الخديوى بل برر موقفه وشرح الأسباب بقوله «[1] اخبرت الحضرة الخديوية فيما سبق عن ترجيع العساكر بالثانى الذين كانوا بروباقا وكان ذلك ضرورى لأن امتيسة تركهم بدون مؤونة وابتدأ يضرب السلاح ليلا كى يرعبهم وأراد أن يغريهم بكثرة الرشوة لأجل أن يقيموا بطرفه واتفق بالسر مع كباريجا ضدنا وضد العسكر » وبعد ذلك وصل غوردون إلى مصر وقابل إسماعيل وهو مصمم ألا رجعة للسودان غير أنه تحت تأثير الخديوى وسحر كلامه وعد بأنه سوف يرجع مرة ثانية وأبحر لانجلترا بعد أن قام برسم خرائط وإقامة عشر محطات يرفرف فوقها العلم المصرى فى مديرية خط الاستواء .

---

(١) دفتر ٤٣ عابدين وارد تلغرافات ص ٢٠٥ شفرة نمرة ١٢١ .

إمبراطورية إسماعيل وحكمدارها غوردون

اتساع الإمبراطورية

بعد أن تم فتح دارفور وبعد أن أسس غوردون محطاته العسكرية صاعدة فى النيل إلى قرب البحيرات — بل قد بقيت نقطة النور أفندى فى روباقا على شاطئ فكتوريا مدة من الزمن — وبعد أن اتسعت الفتوحات فى شرق السودان وضمت أراضى أرتريا الحالية وجزء من السومال وهرر فى الحبشة وصلت إمبراطورية إسماعيل إلى قمتها وأصبحت أملاكه تبدأ من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى خط الاستواء ومن سواحل البحر الأحمر إلى شرق بحيرة شاد .

غوردون ينوى قطع صلته بالسودان

تركنا غوردون فى الفصل السابق ينعم باجازته فى انجلترا بعد أن أعطى وعدا بالرجوع لأواسط أفريقيا ولكن فى الأسابيع الثلاثة الأولى من إقامته بعد أن وصل فى عيد الميلاد ظل يفكر فى مستقبله ، وقد ظن أن وزارة الخارجية ربما تعرض عليه منصباً يعفيه من الرجوع إلى السودان ، واقترحت جريدة التايمز للحكومة أن تستغل مواهب غوردون وخبرته فى بلغاريا حيث توترت علاقاتها مع تركيا . وفعلا أخذت الوزارة بالرأى ودعا اللورد دربى غوردون للاجتماع به ، خرج بعدها وقد كتب إلى ڤيڤيان قنصل انجلترا العام فى مصر بأن يخبر الخديوى أنه لا يستطيع الرجوع إلى مصر . غير أن اقتراح بعثته لبلغاريا لم ينفذ لعقبات سياسية اعترضت طريقه . وهنا بعد أن فشل الاقتراح وبعد أن كتب للحكومة المصرية بقطع علاقاته معها بدأ فكره يتجه إلى تنفيذ خطته التى لم يكتب لها الخروج إلى حيز التنفيذ أثناء حكمه لخط الاستواء وهى فتح طريق من الساحل فى شرق أفريقيا إلى منطقة البحيرات بتجهيز حملة إلى زنزبار والحصول على امتياز من سلطانها وقيادة تلك الحملة مع صديقه جسى إلى الداخل وكل ذلك بمعاونة مستر وليم ماكنون الذى أصبح من ضمن المؤسسين بعد ذلك لشركة شرق أفريقيا الإنجليزية .

غوردون يرجع إلى السودان

وقد أجبرت الأقدار غوردون أن يرجع للسودان لأن إسماعيل رأى خطابه إلى ڤيڤيان وسطر فى الحال خطاباً له مبدياً استغرابه لرفض غردون بعد أن أعطى

كلمة شرف بالرجوع ، وكان ظنه فى صديقه ألا يخلف ما وعد به . وقد فعلت هذه الكلمات السحرية فعلها فى نفس غوردون ، وترك مشروعه جانباً وعزم على السفر إلى مصر . وفى اليوم المقرر لإبحاره قابله صديقان وتحدثا معه وتحدث معهما فى أمر الرجوع ونصحاه بأن يطلب من الخديوى إدارة السودان بأكمله لا خط الاستواء وحدها حتى يتمكن تمكنا فعليا من إبطال تجارة الرقيق ، وراقت الفكرة لغوردون ولكنه ظن أن طلبه هذا سيقابل بالرفض وكتب لأخته قبل أن يغادر الأراضى الإنجليزية بأنه سيطلب من الخديوى كل السودان ويرجح أن طلبه سيكون نصيبه الرفض وعليه سيقفل راجعاً ويراها فى ظرف ستة أسابيع .

غوردون يعطى السودان

قابل الخديوى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٧٧ وبحضور شريف باشا أجابه لما طلبه بل عينه حكمداراً على عموم الأقاليم السودانية بسلطات لم تعط لحكمدار قبله ، ولفت نظره لأمرين هامين وهما إلغاء الرق وتحسين المواصلات . وعند ما وقع إسماعيل على فرمان التولية كتب غوردون مانصه « وقع سموه اليوم على الفرمان ولقد اندهشت للسلطة الهائلة التى وضعها فى يدى . وبعد هذا سيقع اللوم على عاتقى إذا لم تبطل تجارة الرقيق وتتصل أصقاع السودان مع الخارج » .

غوردون فى شرق السودان

لم يبق فى مصر إلا ريثما يتم استعداده ووضع برنامجاً بمقتضاه يزور كل شبر من حكمداريته الواسعة وأبحر فى باخرة على البحر الأحمر ويمم شطر مصوع ليبدأ رحلة تفقده لرعاياه وليحاول حل مسائل الحدود المعلقة مع الحبشة إن أمكن كما أمره الجناب العالى . وعند ما حل بمصوع تهافتت عليه البرقيات من الفاشر تنبئه بهجوم قبائل زغاوة وميدوب على حاميات الحكومة وتعلن له ثورة هارون أحد أمراء بيت دارفور المالك ، وقد نجح فى ثورته حتى أنه عزل الحاميات من بعضها البعض وبذا انقطعت مواصلاتها وتجمل له الحالة بصفة عامة على أن ما بدارفور من جند لا يكفى لرد عادية حوادث العصيان والتمرد هذه وترد له التلغرافات أيضاً من الجناب العالى تقترح عليه إصدار الأوامر لجماعة الزبير فى شكا وبحر الغزال وقبائل حمر والكبابيش فى كردفان بمديد المعونة لإخماد تلك الثورات .

كان رد الفعل الذى أبداه غوردون هو أن حالة الخطر مبالغ فيها وأن حاميات دارفور بها ثمان أورط بيادة وتسعة أورادى باشبوزق ترك ومولدين ومغاربة وسبعة سوراى شايقية وعشرين مدفعاً ولا يدخل فى روعه أن تلك القوة فى حاجة لمدد بل العجز فى قيادة حسن باشا حلمى ، وكان الأجدر به أن يخصص فرقتين سيارتين وأن يترك قوات بمراكز الحكومة للدفاع . وعملا بالإرادة السنية بعث لعوض أفندى مأمور إدارة بحر الغزال وسليمان الزبير والنور عنقره وإدريس ابتر ، كل منهم يرسل قوة تتراوح ما بين ألف وألف وخمسمائة لجهات دارفور .

اهتمام الخديوى بخط الاستواء

وقبل أن يغادر غوردون مصوع إلى الخرطوم أبدى الخديوى اهتماماً عظيما بخط الاستواء بالمحافظة على ما تم فتحه وبالتوسع فيما وراء ذلك واقترح على غوردون أن يعين حاكماً لتلك الأصقاع يثق به حتى يسبق الشركة الانجليزية التى أسست حديثاً لارتياد شرق أفريقية وهذا هو نص المكاتبة «[١]بالأمس صار إخطار جنابكم بما اقتضى عن تعيين مأمور من ذوى الدراية الموثوق بحسن إدارتهم وإرساله لجهة خط الاستواء للقيام بإكمال حسن سيرها وانتظامها وحيث أنكم لما كنتم بهذا الطرف بعد حضوركم من لوندره أخبرتونا عن وجود قومبانية مشكلة على نية التوجه من جهات زنجبار إلى جهة اللاك (Lake) وأنه يقتضى المبادرة والمسارعة ما أمكن لضبط هذه الجهة قبل وصول تلك القومبانية إليها فينبغى أن تتذكروا هذه المادة وما يجب إجراؤه فيها والمأمور الذى تعينوه يكون فيه الكفاية لها ولخلافها من الأمور المهمة بتلك الجهات يكون معلوم » .

أما غوردون فلم ير شخصاً يعول عليه فى تلك المهمة ورد بأنه سوف ينهض بنفسه لتلك الجهات بعد أن يعود من دارفور غير أنه بعد وصوله الخرطوم بعد ذلك طلب تعيين بروات بك ، وغادر مصوعاً بعد أن اقترح تعيين عثمان رفقى[٢] باشا فريقاً على جميع العساكر بعموم الأقاليم السودانية وكان إذ ذاك بمصوع

---

(١) دفتر رقم ٣٢ عابدين صادر تلغرافات . تلغراف عربى رقم ٢٨٥ ص ٥٦ بتاريخ ٢١ ربيع الأول سنة ١٢٩٤ .

(٢) هو نفس عثمان رفقى ناظر الحربية اللى ثار ضده عرابى وصحبه .

وطلب أيضاً إرجاع المرتبات التى كانت تعطى للعلماء والفقهاء من إحسانات ولى النعم ولكنها قطعت مدة ممتاز وإسماعيل أيوب . وقد طلب وهو فى طريقه رتباً لمحمود ود زائد ناظر الضبانية وللشيخ عوض الكريم أبو سن ناظر الشكرية.

اقتراحاته لإبطال الرق

ظل شهرين فى الطريق من مصوع حتى وصل الخرطوم فى ٤ مايو سنة ١٨٧٧ وهناك قوبل بحفل رسمى وأطلقت إحدى وعشرون قذيفة مدفع تكريماً لحلول ركابه العاصمة . وفى الحال أمر بعمل صندوق يوضع خارج الحكمدارية لتلقى فيه عرائض التظلم والشكوى ونظر فى الأمور المستعجلة ، ثم وضع مشروعاً أولياً بإلغاء الرق وضعه فى تسع بنود أبرق بها للخديوى للموافقة ويتلخص المشروع فى اعتراف الحكومة بتملك الرقيق الحالى لمالكيه ولكنها تمنح المملوك ورقة العتق إذا ما ثبتت سوء معاملته وتسهيلا لذلك يطلب من المالكين تسجيل رقيقهم فى مديرياتهم المختلفة بموجب تذكرة يحملونها باسم المملوك وأوصافه . وحددت مدة ينتهى فيها تسجيل التملك ويستمر الملك لمدة اثنى عشرة سنة فى السودان ليصبح المملوك بعدها حراً . غير أن هذه المقترحات لم تنفذ فى الحال ولكنها ضمنت فى مشروع كبير انتهى بمعاهدة بين مصر وانجلترا بشأن الرقيق .

غوردون يسافر لدارفور

مكث أسبوعين فقط فى العاصمة وغادرها فى ١٩ مايو وبرفقته ثلاثمائة من جند وأتباع لدارفور التى أزعجته أخبارها منذ أن حل بمصوع . وقد بدأ يوجس خيفة من سليمان الزبير بما نقله إليه بعض الوشاة فكتب للمهردار بخبر تباطؤ سليمان رغماً عن إصدار الأوامر له بنجدة حاميات دارفور . فقد اشتم غوردون من تلغراف بعث به سليمان يعتذر عن التأخير التلون ويطلب رداً لذلك إحضار سليمان محبوساً من تلك الجهة وترقية كل من إدريس أبتر والنور عنقرة لاستلام جنود سليمان ولكن الجناب العالى لم يوافق على هذه الخطة بقوله «[1]وأما من جهة طلب ابن الزبير باشا بهذه الصورة هذا يلزم ابتداء دقة التأمل والتبصر فى عواقبه واتخاذ الاحتياطات الكافية من أنه ربما يكون له هناك

(١) دفتر ٣٢ عابدين صادر تلغرافات .

عزوة ويتعضد بأشخاص ويترتب على ذلك نوع عصيان وإخلال راحة تلك الجهة فينبغي أنه بعد إمعان نظر التدقيق فى ذلك يفاد عن أفكاركم فى هذا الخصوص » .

مخاوفة من سليمان الزبير

يرجع غوردون عن رأيه ويوافق على أن يحكم فى أمر كهذا بعد أن يذهب لدارفور ويرى بنفسه فيما إذا كان ابن الزبير حقيقة ينوى الغدر أو هى مجرد تهمة ألصقت به من الوشاة . وعندما وصل الأبيض ترامى إليه أن سليمان اختلف مع العوض أفندى وإدريس ابتر وتفاءل غوردون من هذا الاختلاف لأنه إضعاف لقوة ابن الزبير واقترح من جديد أن يرسل الزبير لهؤلاء بتلغراف يطلب إليهم مساعدة الحكومة والخديوى لا يرى ذلك . وقبل أن يغادر الأبيض حرضه الوشاة كما يظهر ، وكتب عن سليمان قبل مقابلته ما يلى[1] « ثم أعرض أن سليمان أفندى ابن الزبير باشا هو ولد صغير وليس متعقل وأشغاله جميعها هى أشغال مجانين ويستصوب أن يعين إلياس بك الحائز للرتبة الثانية مديراً على جهة شكا ويلتمس الإحسان عليه برتبة اللواء وهو صهر الزبير ونافذ الكلمة ، وتعيين ابن إلياس محمد أفندى وكيلا لأبيه بجهة شكا ومحمد أحمد امبرير ابن أخى إلياس يكون مأمور إدارة بندر الأبيض » ، ولم يتم تعيين إلياس باشا لشكا بل تم لكردفان .

آراؤه لسياسة دارفور

غادر غوردون الأبيض متجهاً صوب دارفور يحمل فكرتين أساسيتين أولهما أن ابن الزبير صغير السن وغير موال للحكومة والثانية أن عصيان أهالى دارفور مردّه لثقل الضرائب وسوء معاملة الأهلين فعلاجاً للحالة الأولى رأى أن يرفع من شأن خصوم الزبير وابنه وهما العوض أفندى وإدريس أبتر ، وللحالة الثانية رأى تخفيف الضرائب وتطمين الأهالى وإعطاء الرتب والنياشين للبعض وتعيين البعض الآخر من البارزين فى وظائف الحكومة وتعيين إلياس أم برير كان الخطوة الأولى نحو هذا الاتجاه : ويرى كسياسة عامة أيضاً تجنيد

(١) دفتر ٤٩ وارد تلغرافات .

العساكر فى السودان من السودانيين والاستغناء عن الجنود المصريين ، لأنه كما يرى يجب على الأخيرين التفرغ للزراعة والفلاحة فى بلادهم .

تحامله على سليمان الزبير

كان تحامله على سليمان ظاهراً إذ أنه حكم عليه بالمماطلة من اختلاف التاريخ فى خطابين ، وصرح بأنه ينوى إضعاف قوة الزبير من التلغراف الشفرة الآتى إلى الخديوى «[1] وبوصولنا داره وجدنا جوابين واردين من سليمان بن الزبير باشا أحدهم لمدير داره مؤرخ فى عشرين جماد آخر يذكر فيه أنه سيحضر بنفسه بعساكر الإمداد لأهل دارفور فى ٢ رجب ومعه حامد مزمل وموسى ولد الحاز اللذين هما من روس البازنقر ، والجواب الثانى بالتاريخ المذكور إلى حسن حلمى باشا ففتحناه ووجدنا أنه مذكور لنا فيه بأنه سيحضر بالإمدادية لدارفور فى اثنى عشر رجب ومن الاختلاف الحاصل فى قوله بجوابين علم لنا أنه مماطل ويريد امتداد الوقت بدون ثمرة وعلى هذا حررنا له بالاستغناء عن حضوره فى الإمدادية لدارفور وأنه يفضل فى محله . فقط حررنا للنور عنقره أن يحضر لدارفور بقدر ألف وخمسمائة نفر بازنقر ويستصوب تعيين النور عنقرة مديراً لداره لجذب جزء من البازنقر إليه شيء فشيء وتضعف قوة جماعة الزبير باشا » ، وقد استلم سليمان هذا الأمر المنوه عنه فى تلغراف غوردون السابق ، وكان يتقدم فعلا لنجدة دارفور فى طريقه ما بين شكا وداره ولكنه بقى هناك لأن الأمر يمنعه من التقدم .

خطة إذلال سليمان

وصل غوردون داره وبقى فيها حيناً وفارقها شمالا غير أن الأخبار ترامت إليه بأن سليمان ينوى الهجوم على داره وإعلان عصيانه . ففى الحال رجع إلى المحطة وذهب بحرس قليل لمعسكر سليمان جنوبى داره وبعد مناقشات طويلة قبل سليمان الذهاب بأهله وأكابر أتباعه إلى داره للتفاوض معه ، وقد انفصل النور عنقرة بعدد من البازنقر وانضم نهائياً إلى الحكومة وبعد المفاوضة رجع سليمان إلى شكا . ولم يكتف غوردون بذلك بل لحق بسليمان فى عرينه وأصدر

---

(١) دفتر ٤٧ عابدين وارد تلغرافات .

أمره له بالذهاب إلى بحر الغزال وأمره أن يخدم تحت إمرة إدريس أبتر الذى عين مديراً قبل ذلك . نزل هذا الأمر نزول الصاعقة على سليمان الشاب وما كان يخطر بباله أن ترغمه الظروف حتى يخضع لسلطة إدريس الذى كان إلى وقت قريب يأتمر بأمره وبقدر ما حاول سليمان أن يثنى غوردون عن عزمه وأن يعطيه الرئاسة والقيادة لم يتزحزح غوردون عن موقفه وأفهمه أن الرئاسة والقيادة لا تسلّم له إلا بعد أن يبرهن كفاءته وإخلاصه فى منصب المرءوس .

تعيينات ورتب ونياشين

وتنفيذاً لرغبة غوردون فى تطمين الأهالى وإسناد بعض الوظائف للسودانيين فإنه عين محمد بك الخبير وكيلا لمديرية داره ، ثم قرر تعيينه مديراً لدارفور عند ما تخمد ثورة هرون وعدل هذا أيضاً بإسناد دارفور الغربية إليه وعين أخاه حمزة إمام مديراً للفاشر ومحمد خالد زقل وكيلا لمديرية داره والطيب العريق معاوناً لعموم دارفور ، وأغدق على كثيرين الرتب والنياشين من زعماء القبائل ومشايخها وكبار التجار فلم يترك شيخاً أو تاجراً كبيراً إلا وطلب له رتبة أو نيشاناً أو الاثنين معاً فأسماء مادبو وعجيل ومنزل وأحمد هرون وعبد الرحيم أبو دقل وأحمد خواف وغيرهم من الزعماء ظهرت فى الإنعامات . وبعد أن هدأت الأحوال فى دارفور نوعاً ما — غير أنه لم يقض على حركة هرون بل حصرها فى نطاق ضيق — امتطى هجينه راجعاً للخرطوم وهنا صرّف الأمور التى كانت تنتظره ووصلته أيضاً المعاهدة الانجليزية المصرية بشأن إبطال الرق والتى تشمل فى أساسها مقترحاته الأولى ورأى أن لابد من إذاعتها على الأهلين فأذاعها .

رحلته إلى دنقلا

ثم ذهب شمالا فى باخرة نيلية لزيارة الجزء الشمالى من حكمداريته فوصل بربر ومنها عبر النيل غرباً وامتطى الإبل مخترقاً الصحراء حتى التقى بالنيل مرة أخرى فى مروى ودخل فى مركب شراعى مع التيار وقد ازدحم الناس على الشاطئين يتظلمون من الإنسان والطبيعة على السواء لأن النيل لم يغمر أراضيهم كالمعتاد ونقصت أغذيتهم نتيجة لذلك ولم يشاهد الأهلون فى دنقلا حكمدارهم سنين عديدة ولذلك كانوا يرجون أن يزيل ما حلّ بهم من ضائقة . وعند ما

وصل دنقلة وتهيأ لمواصلة السير شمالا ليتفقد السكة الحديد وصلته الأنباء بحدوث اضطرابات خطيرة فى الحدود الحبشية فرجع وبقى فى الخرطوم أربعة أيام ركب بعدها الجمل إلى الشرق .

فى السودان الشرقى ثانيا

وصل غوردون إلى كرن وعلم بوجود ولد ميخائيل فى معسكره فى الجبال المشرفة على المدينة من الشمال وبعث إليه بالنزول إلى كرن لمقابلته . غير أن ولد ميخائيل اعتذر بالمرض وعندئذ قام غوردون بعشرة أشخاص فقط رغم معارضة من معه وصعد للمعسكر وكانت مقابلة ودية فى ظاهرها وبعد حين كان هو وصحبه فى شبه سجن بضعة أيام رجع الرأس بعدها إلى صوابه ودخل فى شبه اتفاق معه . استمر غوردون فى طريقه إلى مصوع ثم منها إلى سواكن وطلب هناك الإنعام على عدد من مشايخ شرقى السودان . ومن سواكن امتطى الإبل إلى بربر ومنها للخرطوم .

حالة الزبير فى القاهرة

تركنا الزبير يصل القاهرة بما معه من هدايا عديدة للخديوى وفى الحال أحيط بجو من الكتمان والدسائس التركية لم يألفها ، واتصل به اسماعيل صديق المفتش واستصفى لنفسه ما شاء من هدايا الزبير وأمتعته وكانت مقابلته مع الخديوى ودية إلا أن محاولته للرجوع كلها ترد بطريقة دبلوماسية . وعند ما قامت الحرب بين روسيا وتركيا ذهب فى معية حسن باشا قائد النجدة المصرية للسلطان ورجع الزبير من تلك المهمة مريضاً فأبرق الخديوى لغوردون يستفهم عما إذا كان يوافق على رجوع الزبير للسودان نظراً لمرضه .

غوردون يرفض

رد غوردون بأن الزبير كان متهماً بالاستقلال عن الحكومة ولا يخشى منه ضرر طالما أنه (غوردون) يأخذ بزمام الأمور بالسودان أما إذا ترك البلاد فقد تحدث الزبير نفسه بشىء ولا يجد فى البلاد من يضمن حسن سلوكه ثم إن جميع [الحكام أبناء العرب حسب رأى غوردون يمانعون فى رجوعه .أبرق] بهذا الرد وهو فى مأمورية فى الخارج وعند ما وصل الخرطوم استشار البعض وأجمع المستشارون على أن وجود الزبير فى دارفور أو كردوفان أو شكا أو بحر

الغزال غير مرغوب فيه ورد بصفة قاطعة على أن لا يداعب الأمل مرة ثانية الزبير فى الرجوع واختفى اسم الزبير حتى يلمع ويظهر مرة أخرى أثناء ثورة ابنه وبعد سياسة إخلاء السودان وبعثه غوردون .

اسماعيل يطلب غوردون للمشاكل المالية

ما أن استقر غوردون فى الخرطوم حتى استلم تلغرافاً يستدعيه فيه الخديوى إلى القاهرة ليكون عوناً له ضد ذوى المطامع من دائنيه حيث يكون رئيساً على لجنة تبحث فى إيرادات الحكومة المصرية . وخفّ غوردون لتلبية الطلب ولو أنه لم يكن فى صيغة أمر ، بل فى قالب رجاء . وعندما حلّ بالقاهرة وجد أن المسألة تعقدت ودخلت فيها السياسة الدولية وتشابكت الدروب والمسالك فرأى ورأى إسماعيل معه أن يتنحى عن تلك المهمة وأخضعت السياسة الدولية إسماعيل لما كانت تريد منه ومن مصر وهذه المسألة تبين بجلاء ثقة إسماعيل فى غوردون على أنه الرجل الشريف الوحيد من الأوربيين الذى يلتجئ إليه عند الضرورات .

الاقتصاد فى النفقات

غادر مصر بطريق البحر الأحمر لزيارة إقليم الصومال ومنها اخترق الجزء الشرقى من حكمداريته حتى وصل الخرطوم وبقى فيها هذه المرة أطول مدة أقامها فى مركز حكمداريته إذ أنه ظل تسعة أشهر لم يبرحها . وشغل فى تلك الفترة بمالية حكومة السودان إذ نبهته زيارته لمصر بصدد الارتباكات المالية إلى ضرورة فصل مالية السودان عن مصر حتى لا تمتد أيدى الدائنين إلى الخرطوم وقد نجح فى ذلك ورأى إدارياً أن يفصل الصومال عن الحكمدارية لأنه عبء مالى عليها ورأى أيضاً أن يوقف التوسع فى الجنوب لأن ذلك يتطلب مصاريف باهظة فجعل نقطة مرولى التى تبعد عن بحيرة فكتوريا مائة ميل شمالا آخر محطة للحكومة المصرية وبالرغم من أنه أوكل للدكتور أمين أمر الاتصال الودى مع كباريجا وامتيسة فى أول الأمر تمهيداً لبسط السيادة المصرية على منطقة البحيرات إلا أنه ثناه عن هذه الخطة أخيراً .

ورأى أيضاً توفيراً للنفقات أن يقف العمل فى مد السكة الحديد بعد أن امتدت خمسين ميلا جنوبى وادى حلفا لأن مالية السودان لاتسمح باستمرارها ولأن الخزينة المصرية التى يسيطر عليها الدائنون لا تمده بعون ما . وكان غوردون

فى كل إجراءاته المالية يرمى إلى استقلال المالية السودانية عن مصر وهذا ما دعاه إلى وقف التوسع والإصلاحات واتجهت نيته حيناً أن يعطى دارفور لأحد أبناء السلاطين حتى تتخلص المالية من مصروفاتها . وشغل أيضاً فى تلك الفترة بالضرب على تجارة الرقيق ونجح إلى حد ما فى وقفها حتى أنه تمكن من ضبط اثنتى عشرة قافلة من الرقيق فى ظرف شهرين وبقدر ما كانت سياسته ترمى فى أوائل عهده بالحكمدارية إلى تعيين السودانيين بقدر الإمكان فى الوظائف انصرف الآن عن تعيين أبناء العرب عموماً مصريين وسودانيين ، وظل يطالب بتعيين أوربيين وخاصة فى الأصقاع النائية كدارفور وبحر الغزال لأنه اعتقد عدم إخلاص أبناء العرب فى تنفيذ إجراءات تجارة الرقيق .

اختلافه مع وكلائه

واختلف مع خالد باشا الذى قام بأعمال الحكمدارية مدة غياب إسماعيل أيوب فى دارفور ثم عين وكيلا رسمياً لغوردون وأخيراً استدعى لمصر ، وقد ذكرنا قبلا أنه عين عثمان رفقى قومنداناً للعساكر فى السودان فعندما خلت وظيفة وكيل الحكمدارية عينه فيها زيادة على قيادته للجند وأثناء غيبة غوردون فى مصر لمأمورية إسماعيل المالية ، استبد عثمان رفقى بالأمر وارتكب من الأعمال ما أثار عليه ثائرة سكان الخرطوم ومد يده للرشوة فاكتنز رقماً لا بأس به من الريالات وخالف أوامر غوردون له بالذهاب لدارفور لإنهاء مسألة هرون الثائر غير أن رفقى باشا اعتذر متعللا بالمرض. وبلغ التوتر بين الحكمدار ووكيله حداً جعل غوردون يقترح رد النياشين منه وانتهى الأمر باستدعاء عثمان رفقى إلى مصر ليجد طريقه فى المناصب الحكومية العليا حتى يصبح ناظراً للحربية وبدأت فى نظارته الحوادث العرابية .

حركة سليمان الزبير

تركنا سليمان آخر مرة يؤمر بالذهاب إلى بحر الغزال رغم أنفه ويقبل رئاسة إدريس أبتر على مضض منه ، لا لأن إدريساً كان تابعاً لوالده وله بل لأنه أول الداسين فى الزبير وابنه وتخاطب سليمان مع والده بذلك وكان الوالد يأمر ابنه بالطاعة للحكومة والامتثال لأوامرها وفى نفس الوقت يحرضه على

إدريس وعلى القضاء عليه ، ولكن إدريس هو المدير الرسمى المعين من قبل الحكومة فهناك تعارض نوعاً ما بين تأدية الطاعة والولاء للحكومة ومحاربة إدريس أبتر . غير أن الزبير من تجاربه الشخصية لا يرى تعارضاً حيث أنه حارب البلالى وقتله بالرغم من أنه مندوب الحكومة الرسمى ومع ذلك أظهر الخضوع والولاء لحكومة الجناب العالى ونال الرتب والنياشين منها . وقد ضبط خطاب وارد من الزبير لابنه بهذا المعنى وكان هو المستند الذى اعتمد عليه غوردون فيما اتخذه من إجراءات ضد الزبير كما سنبينها :

لم يحتمل سليمان الحالة التى وضعه غوردون فيها وخاصة رئاسة إدريس أبتر وصبر على ضيمه مدة من الزمن ولكن الكيل قد طفح وأخيراً انجرف فى التيار الوحيد الذى يسلكه شاب فى حرارة سليمان واعتزازه بقوته وشن هجوماً على زرائب إدريس أبتر بينما كان صاحبها بعيداً عنها وأظهر عداءه للمدير . ووصلت الأخبار إلى مديرية خط الاستواء وبعثها مديرها بدوره إلى الخرطوم وكذلك تأكد الخبر من السعيد بك حسين مدير شكا ووصفها هذا بأنها حركة ما بين سليمان وإدريس أبتر مدير بحر الغزال :

إجراءات غوردون

نقل غوردون الخبر وما ينوى اتخاذه من إجراءات إلى مصر بما يلى «[1] يوم تأريخه وردت لنا مكاتبة من خط الاستواء تفيد تأكيد ما بلغنا من أن ابن الزبير باشا تحارب مع مديرية بحر الغزال وأنه هجم على المركز وبارز بالعصيان ومستعد للمحاربة وقتل من قتله وأخذ ما أخذه من أمتعة وأسلحة الميرى ، وحيث الآن تأكد عصيان ابن الزبير باشا فإذا وافق يؤمر بقبض والده ووضعه بالحديد وضبط جميع نقوده وأمتعته الموجودة معه كون بلغنا أنه يوجد معه زيادة عن خمسة آلاف جنيه مع الترخيص لنا ببيع جميع أمتعته الموجودة بالسودان وتوريدها للميرى وضبط أقاربه وفامليته وسجنهم وإلا فالأمر مفوض » . ووصل الرد له بأن يعمل ما يراه للصالح العام إذ أنه الحكمدار المفوض .

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٧ يوليو سنة ١٨٧٨ .

أصدر أمره فى الحال بضبط منازل الزبير بالخرطوم والجيلى والقبض على إخوانه وأخواته وكل أقاربه أينما وجدوا ووضع الجميع فى السجن . أما المنازل وما وجد فيها من أثاث بيع بالمزاد العلنى وورّدت الأثمان للخزينة العامة وبعث غوردون بأن تضبط مراكب الزبير التى تعمل بين أصوان والمحروسة ، ولكن الزبير احتج على هذا الأمر وبرهن للحكومة وأقنعها فى مصر بأنه لا يعلم من أمر ثورة ابنه شيئاً وهو على استعداد على أن يحاكم إذا ما ثبت عليه شيء من هذا ولا يرى غضاضة فى أى إجراءات تتخذ ضد ابنه إذا ما أدين بتهمة الخيانة والثورة . وورد للزبير من السودان خطاب طويل من أحد أقاربه يشرح له ما حدث لأمواله وبيوته وأهله حتى النساء والأطفال من ضبط وسجن ، وكان للزبير أن يتأثر لا على الأموال ولا على الرجال ولكن على النساء والأطفال فأرفق القصة كما وردت فى الخطاب بعريضة مؤثرة ورفعها للجناب العالى فتأثر الخديوى وأبرق لغوردون فى الحال بألا يؤخذ الأب بجناية ابنه « وحيث كما لا يخفى على سعادتكم أن الزبير باشا المومى إليه بعد أن أدّى خدمات مهمة جهة دارفور قد حضر لهذا الطرف بالطوع والاختيار حتى أنه فى آخر الأمر لما لم يساعد فى العودة لأوطانه امتثل وأقام هنا بدون أن يبدى تردد ولا توقيف ، وفى هذه الحالة إذا نظر فى تحقيق هذه القضية بالمجلس الخصوصى ضرورى المجلس يحكم بما تقتضيه القوانين فى عدم مؤاخذة الأب بجناية الإبن الذى لا يكون له علم بها » .

إسماعيل يتدخل فى الإجراءات

أما غوردون فلم يسلم بانقطاع الصلة بين الوالد والولد فى هذا الأمر « والقول منه بعدم العلم لا يلتفت إليه لأن ولده لا يمكن أجرى أقل شيء إلا بإذنه » وعلى كل إذا رأى الجناب العالى أن يطلق ما ضبط من أملاكه وما سجن من أقاربه فهو طائع للأمر ولكنه لا يكون مسئولا إذا استمر تعدى ابنه على بقية الجهات . وأمر إسماعيل بالإفراج عن الجميع وإذا كان لدى غوردون مستندات تثبت علاقة بين الزبير وابنه فيما يتعلق بالثورة يبديها عند التحقيق .

منطق غوردون

أما غوردون فلم يقتنع بهذا المنطق وكتب بأن سجن أقاربه كان مجرّد تهديد لابنه حتى يثوب إلى رشده وعند ما يسمع بسجنهم ، وكتب يؤيد نظرية اشتراك الزبير فى الثورة بقوله «[1] من خصوص الدلايل والمكاتبات المطلوب إبرازها منا للاستدلال بها على كونه متداخل مع ابنه فإن عداوة المومى إليه مع الحكومة لم تحتاج لها طلب دلايل منا بل معلوم للخاص والعام وبسببه فَضَلَ بمصر واسماعيل باشا أيوب على حقيقته أكثر منا وضبط موجوداته وأمواله هذا هو نظير حقوق الميرى التى أخذها ولده والأرواح التى قتلها من عساكر وغيرهم . كما ولا يخفى أن الذى يتجارى على العصيان ويتعدى على حقوق الحكومة ويوجد له أقارب أو أهل لا بد من ضبطهم رهينة وذلك سيا وأن الزبير باشا جميع الأموال التى حصلها من شكا اكتسبها بنفسه ولم أعطى الميرى منها شيء وأنا متأسف على كونه يفضل لغاية الآن بدون سجن مع ما حصل من ولده وما هو مصمم على حصوله زيادة عن ما سبق » ومما أشيع ووصل أسماع غوردون عن الأسباب الدافعة لحركة سليمان ما نقله غوردون نفسه بتلغراف للمحروسة » [2] وقد بلغنا أن ابن الزبير باشا قال أنه لا يحارب الميرى وأنه ما يخلصه أن أحد الدناقلة يتعين مدير عليه والحقيقة لم تعلم وللإحاطة بما ذكر لزم العرض أفندم » . وحتى بعد ما سمعه من أن سليمان لا يحارب الحكومة وأنه لا يرضى رئاسة إدريس أبتر فقط ، بعد هذا كله لا زال غوردون ملحاً ومصمماً على سجن الزبير بمصر أو إرساله إلى سواكن للحجز هناك تحت المراقبة .

غوردون يرضخ لقول الوشاة

ولعل أكثر دليل على أن غوردون خضع لقول الوشاة واتخذ ما اتخذ من إجراءات نزولا على إرادتهم ما بعث به فى الوثيقة التالية «[3] أن الزبير باشا عند قيامه للتوجه إلى مصر أوصى ابنه وأقاربه تحت شجرة بأنه عند وصوله

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

(٢) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات بتاريخ ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٨ .

(٣) دفتر ٥٢ عابدين وارد تلغرافات .

المحروسة إن لم يترخص بالعودة فسيخبرهم بالعصيان والمحاربة بإشارة أجروا مقتضى وصية الشجرة ، وبعد أجرى ذلك يلتمس من الحضرة الخديوية تعيينه والياً على جهات دارفور وبحر الغزال وإن لم يجد إجابة فيمكنه التوجه إلى الاستانة العلية وسيتحصل على المرغوب من حضرة مولانا السلطان لأن أفندينا الكبير جنتمكان محمد على باشا صار له أمر من السلطنة العلية أحدهم بالتفويض فى توارث خديوية مصر والثانى بالتفويض له فى أمر جهات السودان موقت وحيث أن المومى إليه كان توجه إلى اسلامبول فى وقت المحاربة وعاد سريعاً ولم مدروك عندنا إن كان توجهه من تلقاء نفسه أو أمر به كما ولا نعلم مقابلته مع حليم باشا وعدمها وسبب شروع نوبار باشا فى إرساله للسودان والحالة هذه صار ضبط الجواب المحرر منه لولده بأجرى وصية الشجرة فالأمل عرض ما ذكر على المسامع الزكية ومع الموافقة يرسل الزبير باشا لسواكن وبمعرفتنا يجرى التحقيق اللازم معه أولى من أبقاه بمصر » .

الزبير يحاكم غيابيا فى الخرطوم

حاول غوردون فى الوثيقة المتقدمة أن يجعل من أمر الزبير سلسلة من المؤامرات وتُهم بعضها تحاك فى مستنقعات بحر الغزال وجنوب دارفور والبعض الآخر . فى بلاط الاستانة وأدخل فيها شخصيتى حليم باشا ونوبار باشا وكلها تخيلات لم يكن لها أساس من الحقيقة أملاها من لهم غرض فى القضاء على الزبير وشهرته . وأخيراً شكل مجلس فى الخرطوم بأمر غوردون برئاسة حسن حلمى باشا وعرض عليهم الخطاب الذى ضبط وهو فى طريقه من الزبير لابنه والذى يحضه فيه على طاعة الحكومة وعدم الخضوع والانقياد لإدريس أبتر ووصل المجلس إلى قرار بإدانة الزبير والحكم عليه بالإعدام كما أعدم ولده وإرسال الأوراق لمصر للتنفيذ ولكن مجلس الأحكام فى مصر لم ير هذه الإدانة .

الحرب ضد سليمان

تركنا سليمان يهاجم زريبة إدريس وأخبار هذا الهجوم تصل إلى الحكومة واستطردنا فى ذكر الإجراءات التى اتخذها غوردون ضد الزبير سواء فى السودان أو فى مصر والآن نقص ما حدث من حملات عسكرية ضد سليمان

نفسه . عرف جسى بأنه القائد الذى جرّد الحملة على سليمان وهو إيطالى صادق غوردون منذ أن كانا فى حرب القرم سوياً ، وقد عرف بأنه من ضمن متطوعى غاريبالدى وتقابل غوردون مع صديقه مرة ثانية عندما كان العضو البريطانى فى لجنة الدانوب الدولية . وما أن قبل منصب مأمور الأقاليم الاستوائية حتى بعث إلى صديقه يستدعيه للعمل معه فلبى الطلب وقام بمهمة تجهيز المؤن والذخائر فى القاهرة ، ثم أصبح وكيلا لغوردون فى الخرطوم للترحيل .

غادر غوردون السودان عند انهاء عقده فى خط الاستواء على ألا يعود مرة ثانية وانفصل جسى من خدمة الحكومة المصرية أيضاً . وعند ما تبين لغوردون ثورة سليمان كان جسى فى الخرطوم يدبر له صديقه محاولة استكشافية فى غرب الحبشة مخترقاً لها حتى يصل إلى الساحل الشرقى لأفريقيا وبينما الاستعدادات قائمة على قدم وساق إذا بأخبار الثورة تصل إلى الخرطوم وإذا بغوردون لا يجد مناصاً من أن يعهد إلى صديقه بقيادة الحملة طالما لا يستطيع أن ينهض بنفسه . وبعد معارضة من جسى قبل أخيراً وأبحرت البواخر من الخرطوم فى ١٥ يوليو سنة ١٨٧٨ حاملة عدداً قليلا من الجند وكمية من الذخائر وعليه أن يعزز قوته من حاميات النيل الأبيض وهو فى طريقه عليها .

تجمعت القوة وسارت حتى ألقت السفن مراسيها فى شمبى ومن ثم اتجهت غرباً لتجد سليمان بقواته على بعد ٤٠٠ ميل غربى النيل يحتل زريبتين الأولى تدعى باسمه والثانية باسم إدريس . وكانت خطة جسى أن يحتل إحدى الموقعين وخدمته الظروف بأن قبض على جاسوس من قبل سليمان وتحت الضغط والتهديد بالقتل أملاه خطاباً يكتبه بيده يبين فيه إن جسى ينوى الهجوم على زريبة سليمان وبعث به مع خادم كان بمعية الجاسوس . وكان من الطبيعى أن يجمع سليمان كل قواته فى زريبته ليرد الهجوم وتمكن جسى بذلك من التسلل إلى زريبة إدريس واحتلها دون أن يفقد طلقة واحدة .

كانت الأيام الأولى من الحرب عبارة عن سلسلة من الهجمات يقوم بها

سليمان على مواقع جسى منيت كلها بالفشل بالرغم من حالة جسى الحرجة من قلة فى عدده وذخائره . وأخيراً شاءت الأقدار أن تتعاون عوامل الطبيعة مع جسى على سليمان فاندلعت النيران فى زريبة سليمان ألجأته للقيام بهجوم نهائى على جسى ولما لم ينل منه شيئاً انسحب شمالا وخف جسى وراءه متعقباً .

وصلت الأخبار أثناء المناوشات فى بحر الغزال إلى الخرطوم بأن سليمان اتصل بالحلابة فى جنوب دارفور بل بهرون الذى لايزال يرفع راية العصيان معتصماً بالجبال يستحث الأهالى على الثورة . فخاف غوردون من اتصال قوتى هرون وسليمان وخف من فوره بعدد قليل من جنده إلى جنوب دارفور وهو فى طريقه فى كردفان قابل قوافل عديدة من الرقيق ما دعاه أن يبطش بالحلابة أنى وجدهم بل حرض عليهم العرب حتى يقضى قضاء مبرماً عليهم .

تقابل الحكمدار مع جسى فى الطويشة وبحثا الحالة واتفقا على معاجلة سليمان حتى لا يتصل بهرون وقام جسى بزحف واتصل بالموطن الذى يقيم فيه سليمان فى فرقة من جيشه وباغتهم عند الفجر واحتاط بالقرية التى يقيمون فيها دون حراسة . وفى عماية الفجر بعث برسالة إلى ابن الزبير يطلب منه التسليم فى ظرف خمس دقائق وإلا أطلق النيران لأن قوة عظيمة تحتاط بالقرية من كل الجهات . سلم سليمان للأقدار وأتى بكبار قواده ليجردوا من سلاحهم ويكونوا تحت الحراسة وما أن أشيع أنهم ينوون الهرب حتى نفذ جسى فيهم حكم الإعدام جميعاً وقفل راجعاً ليحمل إلى رئيسه النبأ السار . وبذا ختمت صفحة الشاب الذى ذهب ضحية للدسائس .

تعيين أوروبيين فى الإدارة

قدمنا أن غوردون قطع الأمل من الاستفادة بالوطنيين فى إدارة البلاد كما يئس من المصريين قبلهم فاتجه نحو استخدام الإنجليز بصفة خاصة والأوروبيين بصفة عامة وظل يطلب الإذن باستخدامهم وظهرت سياسته هذه فى وثيقة يقول فيها «[1] والحال أفندم الأشخاص الدناقلة والبحارة الموجودين فى جهات

(١) دفتر ٥٠ عابدين وارد تلغرافات .

بحر الغزال والرول ودارفور من الضرورى إزالتهم من تلك الجهات بالكلية لأنهم حرامية وهم الجارين نزول الرقيق من هناك وغير جارين دفع طلبات للميرى وأغلبيتهم لم ممتثلين للحكومة ولا يمكن الحصول على إزالتهم بتعيين المأمورية أو ضباط أبناء عرب ولذا قصدنا أن الدكتور أمين أفندى يكون بخط الاستواء وكيلا عليه ومسيو جسى يتوجه إلى جهة بحر الغزال ومسيو فردريك روسية يتوجه إلى دارفور» . وفى اليوم التالى لهذا الاقتراح بعث ببرقية يلح فيها على الإذن له بتعيين الأوربيين ويهدد بالاستقالة إذا لم يجد طلبه السبيل إلى الإجابة وقد تم له الإذن فبعث أولا للسير رينشارد بيرتون وللسير صموئيل بيكر ولكنهما لم يقبلا وطلب إلى مارنو النمساوى ومساديليه الإيطالى وسلاتين النمساوى ولبتن الإنجليزى وأمليانى النمسا وغيرهم من رعايا الأمم الأوربية وأوكل إليهم الإدارة فى مديريات دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وتعين جقلر بك وكيلا للحكمدارية بعد أن أنعم عليه برتبة اللواء .

غوردون يفكر فى الاستقالة

رجع غوردون من دارفور وقبل أن يصل الخرطوم سمع بمفارقة إسماعيل لخديوية مصر وقد أبدى فى أكثر من مناسبة عزمه على اعتزال العمل فى السودان إذا ما زايل إسماعيل الأريكة . وفى الواقع ما كان لغوردون أن يتمتع بما تمتع به من سلطة ونفوذ وما كانت طلباته وقد تظهر شاذة بعض الأحيان لتجاب لولا ما يضمره له إسماعيل من تقدير . وبالمثل رضى غوردون عن إسماعيل وعن سياسته وتصرفاته وكان يرى أن الدائنين الأوربيين تسندهم حكوماتهم يتعاونون ويتآمرون على إسماعيل وسلطته .

وبتبوء توفيق أريكة الخديوية انتقل النفوذ إلى مجلس النظار وطبيعى أن يحاول النظار إخضاع الموظفين الكبار لمشيئتهم وطبيعى أن يُطالب غوردون بتوضيح كل ما يطلب منه ولينفذ كل ما يؤمر به . وغوردون الذى تعوّد على حرية التصرف فى أقاليم السودان الشاسعة وغوردون الذى عُرف باستبداد الرأى والعناد فيما يراه صالحاً لا ينتظر منه أن يكيف نفسه للظروف الجديدة بل إن

الحكومة الجديدة أخذت على غوردون تهاونه فى جمع الضرائب ولم يرض عنه الدائنون الأوربيون لأنه نادى وعمل باستقلال المالية السودانية وأنهم يريدونها أن تعاون المالية المصرية فى دفع الكبونات..

نظرة عامة لغوردون

سافر غوردون إلى مصر وهناك قدّم استقالته وقبلت بعد أن يقوم بسفارة إلى الملك يوحنا إمبراطور الحبشة. وبعد ثلاثة أشهر قضاها فى تلك المهمة ، رجع ولم يصل إلى اتفاق مع الملك المذكور بل تعرضت حياته للخطر. ولم يعرف السودان حكمداراً جاب أصقاعه وتحمل سفرات طويلة مضنية على ظهور الإبل مثل ما فعل غوردون ولم يعرف السكان موظفاً عظيما أخلص فى عمله وتفانى فيه مثل ما فعل غوردون. وما شك أحد فى نزاهته وأمانته لأنه كان نظيف الثوب بل لا يأبه للأمور المادية وراحة البدن. كل ذلك نتيجة شعور دينى هيمن على كل تصرفاته وتغلغل فى قرارة نفسه. وكان نسيج وحده فى عمق إنسانيته وإحساسه بعذاب البشرية سواء فى الرق أو فقر الأهالى وهذا ما جعل منه رجلا مثالياً فى النبل والتفانى فى خلاص البشر من عذابه.

إلا أنه مع سموه فى الأخلاق والنزاهة والإخلاص كان عصبىّ المزاج متقلب الأهواء فهو يمحو ما أثبته بالأمس وهو يضع ثقته فى شخص ويطلب له الرتبة والنيشان ليكتب بإيقافها قبل أن تصل. وقد نصحه طبيب فى الاسكندرية بعد أن قدّم استقالته بإراحة أعصابه وعدم التفكير فى السياسة. سريع التصديق لما يسمعه من وشاية فى شأن الآخرين. فتصرفاته مع الزبير وابنه سليمان ومع من يعزلهم من الحكام والمديرين هى فى الدرجة الأولى نتيجة تأثره بمن حوله من مستشاريه.

وبالرغم من مثاليته فى الإخلاص للعمل ونظافة الثوب فى الإدارة وبالرغم من أن عهده بوجه عام عهد استقرار وإدارة رشيدة إلا أنه نظراً لاتساع رقعة الأرض التى يحكمها والثورات التى كان له أن يخمدها والسفارات السياسية التى أريد له القيام بها لم يستطع القضاء النهائى على الرق وسوء الإدارة ومساوئ

الرشوة . ولا ننسى أنه خلف وراءه عدداً من الناس حانقين عليه . فمنهم من يتعاملون بالرقيق ومنهم أقارب والمنتفعين بسليمان الزبير ومنهم الموظفون الذين أنزلهم من مناصبهم التى كانوا يتولونها ومنهم العنصر الحاكم فى مصر لأنه لم يخضع للأوامر وأنه عيّن عدداً من الأوربيين دلالة على طعنه فى الموظفين أبناء العرب كما ذكر ذلك صريحاً ومنهم الأوربيون المتصلون بديون مصر لم يرضهم من غوردون فصل ميزانية السودان عن مصر حتى لا تساهم فى عبء الديون وكبوناتها ولم يرضهم تعضيده لإسماعيل ضدهم وتقديره له . وهناك من حقد عليه من المصريين المهتمين بالمسائل القومية الكبرى لأنه أضاع عليهم ملكاً وإمبراطورية فى أواسط أفريقية عند ما كان مأموراً لخط الاستواء بل يذهب البعض إلى اتهامه بأنه قصد ألا يصل الحكم المصرى إلى البحيرات ولا يعدمون أدلة تؤيدهم من مذكراته ومن منطق الحوادث بعد ذلك .

السودان بعد غوردون

التمست الحكومة المصرية إسماعيل أيوب باشا لأن يرجع حكمداراً للسودان كما كان ، وقد انفصل عنها لا لذنب جناه بل عرف عنه الحاكم الذى أضيفت دارفور فى عهده ولكن غوردون طالب بإسناد الحكمدارية إلى نفسه ورضى الخديوى بذلك لثقته فيه . وقد ذكرت محاضر مجلس النظار أن إسماعيل أيوب قدم شروطاً بمقتضاها يقبل منصب الحكمدارية ولم ير المجلس قبولها ولذا صرف النظر عنه وعين محمد رءوف باشا الذى عرفناه قائداً لجنود خط الاستواء فى عهد بيكر بل تركه الأخير فى المديرية حينما زايل خدمة الحكومة المصرية ووجده غوردون هناك حينما حل محل بيكر وقدّر لرءوف باشا أن يكون آخر الحكمداريين فى العهد المصرى قبل شبوب الثورة المهدية .

وصدرت التعليمات للحكمدار الجديد تبسط سياسة الحكومة المصرية فيما يتعلق بسلطته وفيما يتعلق بإدارته للبلاد ، فقد حددت سلطته من التصرف المطلق الذى منح لغوردون وطلب إليه أن يرجع فى الأمور الهامة إلى النظارات المختصة وتتلخص السياسة الحربية فى الدفاع عن الأراضى السودانية دون الدخول فى

فتوحات جديدة والسياسة المالية فى عمل ميزانية سنوية ترسل إلى مصر وتقرير ربعى عن حالة المصروفات والإيرادات وأشير إلى أن الضرائب يجب أن توضع بطريقة لا هى بالمرهقة على الأهالى ولا هى بالمفرطة فى حق الحكومة وما لدينا من الوثائق لا يظهر أى موضوع هام تم فى زمنه قبل المهدية وما حدث فى أخريات أيامه فى الحكمدارية بعد اندلاع نيران الثورة هو من ضمن تاريخ المهدية

صـــورة عامة

حسن نية الخديويين والضريبة

والآن وقد تابعنا تطوّر الإدارة والحكم فى السودان حتى وقفنا عند أبواب الثورة المهدية يجدر بنا أن نقف وقفتنا الأخيرة نشيع العهد ونلقى نظرة تتبين لنا منها المعالم الرئيسية دون التفاصيل ونلم بالنظم الإدارية والقضائية والمالية التى تركزت فيها الإدارة السودانية . والعهد بأكمله كمعظم العهود فيه فترات من الطمأنينة والاستقرار تعلى من شأنه وتشيد بذكره وفيه من فترات الفوضى والظلم ما ينزل به إلى الحضيض من حيث العدالة والنظام ، ويختلف الرجال الذين تولوا شؤون البلاد من حكمدارين ومديرين وكشاف وغيرهم من أرباب النفوذ والسلطة من حيث مقدرتهم فى الإدارة وانسجامهم وتجاوبهم مع السكان ومن حيث نظافة ثوبهم وعفة أنفسهم مما يجعل الحكم على العهد بأكمله أمراً عسيراً فإما أن نسمه بالظلم والقهر وإما أن نتسامح فيه ونجعل منه عهداً ذهبياً . وأجزاء الصورة التى تبرز لنا وتجذب أنظارنا أكثر من غيرها اثنان وهما حسن نية من جلسوا على الأريكة الخديوية ورغبتهم السامية فى تقدم البلاد وعمرانها والثانى الضرائب الباهظة المرهقة وسوء الطريقة التى تجبى بها .

التفاتات الولاة فى مصر

ونلمس التفاتات ولاة مصر إلى رعاياهم فى الجنوب من أوامرهم المشددة على الحكام ومن ولوا الأمر فى السودان بالرأفة والرفق ورفاهية البلاد : تبدت السياسة أول ما تبدت فى عهد محمد على فتشجيع الزراعة وزيادة الإنتاج واستغلال الثروة الطبيعية وإنزال العقاب الصارم بمن ثبتت عليهم تهمه الارتشاء أو الإختلاس وملاحظاته الدقيقة على مسلك وكلائه فى البلاد — كلها تدل على أنه كان يجرى على سياسة الاستفادة من البلاد وإفادة أهلها . ولولا السنين الأولى من حكمه التى اتسمت بالحملات الانتقامية وصيد السكان وإنزالهم من معتصماتهم بالجبال ليجدوا طريقهم ، إما إلى المعسكرات التجنيد أو إلى وكالات

النخاسين . لولا تلك اللطخات السوداء فى صحيفته لما لاحظنا عليه ما يهبط بمستوى إدارته السودانية ويشين سمعتها وخاصة إنه أول من فتح البلاد للعالم والحضارة وجعل منها وحدة إدارية متماسكة الأجزاء بعد أن كانت مفككه العرى والأوصال .

وبالرغم مما عرف عن عباس الأول ورجعيته وإنه رجع بمصر القهقرى من حيث التعليم إلا أننا نلمس ناحية حبه للتنظيم فى قوانينه ولوائحه التى سنها للخدمه فى السودان وكذلك صرامته مع الذين يميلون إلى الكسل فى أعمالهم ومدرسته التى أسسها فى الخرطوم وكانت بذلك النواة الأولى للتعليم المدنى الحديث . أما سعيد فتحمس للسودان وأهله منذ اللحظة التى جاس فيها على الأريكة الخديوية فهو أول من أشاد ببسالة الجندى السودانى وفتح باب الترقى لهم فى الجيش إلى مرتبة الضباط ودلل على اهتمامه العظيم بالبلاد أن عين أخاه الأمير عبد الحليم حكمداراً عليها ثم كانت زيارته المشهورة وسياسته اللامركزية والحكم الذاتى وسماعه لشكوى المتظلمين وضراعة المقهورين وتأثره بما آلت إليه الأداة الحكومية من سوء . وإسماعيل الذى وسع رقعة البلاد بالفتوحات لم ينس العمل على رفاهيتها وعمرانها . فمدارسه ومواصلاته وإحساناته لبيوت العلم والدين ومحاولاته للقضاء على عادة الرق الوحشية وتعيينه للسودانيين فى المناصب الكبيرة كلها آثار ناطقة بحسن التفاته .

النية الحسنة والرغبة فى الإصلاح وحدهما لاتكفيان لإشاعة النظام والعدل وتيسير سبل الرفاهية والعمران فالأمر فى حاجة إلى الأيدى المتعددة والإدارة التركية آنذاك خلو منها والواقع أن نظريات سعيد وإسماعيل الحديثة والمبادى التى اعتنقاها لم يشاركهما فيها معاونوهم فى السودان لأنهم ما زالوا من أنصار المدرسة التركية القديمة . واتساع المسافات وبعدها من السلطة المركزية جعل أمر الرقابة عسيراً إن لم نقل مستحيلا وهذا يفسر لنا الاختلاف بين النظرية والتطبيق .

الأداة الإدارية

اعترت الأداة الإدارية تغييرات جمة فرة تنعزل المديريات عن بعضها البعض وأخرى تندمج اثنتان أو ثلاث فى مديريات عموم وثالثة تجزئ المديرية إلى قسمين وتعدّل الحدود ولكن بوجه عام كانت البلاد تدار وتحكم من الخرطوم قصبة الأقاليم السودانية ، بواسطة الحكمدار وينوب عنه مديرون فى الأقاليم والمدير يشرف على نظار الأقسام وهؤلاء بدورهم على مشايخ الأخطاط . أما القبائل الرحّل فيختفى عندهم ما يلى المديرية من أقسام فالوحدة الإدارية هى القبيلة بكاملها ولها شيخها الذى يتصل بالمديرية رأساً وأحياناً تسهيلا للإدارة ومراعاة لمقتضيات الظروف تكون المأموريات لا هى صغيرة ولا هى كبيرة كالمديرية ولكل مجموعة منها تقع تحت إدارة مدير إدارة عموم كما حدث فى دارفور وفى القضارف ووحدة الإدارة فى الجنوب هى القبيلة كما هى الحالة بين العرب الرحّل .

وتنهض الإدارة بحفظ الأمن وجمع الضرائب وأنيط جمعها إلى جماعة من الجند الغير نظامى سمى بالباشبوزق فهم زيادة على جهلهم بالأمور العسكرية لا يعرفون أبجديات مبادئ الاقتصاد وطرق الجباية . والضريبة عند أهل البادية تقدّر بحسب ثروة القبيلة وعدد ما شيتها وأنعامها وتفقد الأرقام التى تدلنا على فداحتها عندهم ، ولكن بوجه عام فالشكوى دائمة منها . أما الضرائب الزراعية فأرقامها تنطق بعبء ثقيل على كاهل كليل فالساقية تتراوح ضريبتها ما بين ثلاثة وخمسة جنيهات والمترة (ما يسقى بساقية على بئر) ما بين ١٧٥ و ٣٥٠ قرشاً والشادوف ما بين ٢٥٠ و ٣٥٠ قرشاً وفدان الجزائر ما بين ٥٢ و ٦٠ قرشاً وفدان الجروف بين ٢٢ و ٤٥ قرشاً . هذه الأرقام أوردها على سبيل المثال لا الحصر . فهناك ضرائب الأراضى المطرية والمنازل والمراكب وغيرها مما يلاحق المواطن فى حله وترحاله وينتشر الباشبوزق فى البوادى والقرى يحملون السياط مذكرين الأهالى بسلطة الميرى ونفوذ الحكومة بطريقة الجلد

والرشوة والتخويف . فلا غرابة إن ضجّ الأهالى وجأروا بالشكوى حتى ضربوا المثل الشهير الذى يقول « زولين فى تربة ولا ريال فى طلبه » .

والقضاء فى الأحوال الشخصية يمارس بمقتضى الشريعة الإسلامية ويقوم عليه قضاة ومفتيون فى عواصم المديريات ونواب شرع فى المدن الصغيرة . والقانون الهمايونى أساس المحاكمات فى القضايا المدنية والجنائية وفى كل مدينة مجلس محلى من التجار والأعيان ينظر فى القضايا الصغيرة وأعضاء المجلس لا يتعاطون أجراً على ذلك اللهم إلا بعض رؤساء هذه المجالس فى المدن الكبيرة وابتدأت العضوية تشمل الضباط والموظفين الذين هم فى حالة المعاش وفوق الكل مجلس أعلى للاستئناف ومقره الخرطوم . وأما القضايا الكبيرة فينظر فيها المديرون بأنفسهم وبعضها تحال للقاهرة للبت فيها هناك . ولكل من المدن الكبيرة ضبطية قضائية بقواصها تباشر التحقيق فى الجرائم وتقديمها للمحاكمة . والجيش الذى عليه حفظ الحدود وإطفاء الثورات الداخلية يتكون من مصريين وسودانيين والعنصر الأخير أصبح يتزايد بمرور الزمن وخاصة عند ما أصبحت الحاجة ماسة للجنود لاتساع رقعة الإمبراطورية ولصعوبة التجنيد فى مصر والترحيل إلى السودان .

التجارة

وتجارة السودان كانت مزدهرة ومتصلة بمصر ويمكننا أن نقسم البلاد إلى ثلاثة أقسام من حيث الطرق واتصالها تجارياً بمصر والبحر الأحمر . فالأول حوض النيلين الأزرق والأبيض وروافدهما بما فى ذلك كردفان الشرقية . وتتدفق المتاجر فى هذا الإقليم بالنيلين إلى الخرطوم ومنها شمالا إلى بربر ومن ثم إما إلى الشرق لسواكن أو شمالا عبر الصحراء إلى كرسكو . وتحمل القوافل من البضائع العاج وريش النعام والتمرهندى والسنامكى والجلود وقرون الخرتيت والنيلة والمسك والزيت والشحم والعسل والشمع والذرة والملح . أما الطريق الثانى فهو طريق الأربعين الشهير فيبدأ من كوبى بدارفور وينتهى فى أسيوط وينقل حاصلات كردفان الغربية ودارفور وبعض الأقاليم التى تخرج

عن إدارة السودان كوداى وباقرمى وبورنو وما والاها من الأقطار غرباً وقد قلّت التجارة على هذا الطريق بعد فتح دارفور نظراً للرقابة الصارمة على تجارة الرقيق أولا ولخوف سلاطين الأقاليم الغربية من الفتوحات المصرية ثانياً ، فتحولت متاجرهم إلى الطريق الممتد من بحيرة شاد إلى مرزق وطرابلس . الصمغ والريش والعاج والأبنوس والجلود كانت البضائع التى تحمل إلى مصر على هذا الطريق ، والطريق الثالث تخرج متاجره من الحبشة مثل البن والشمع والعسل وتنتهى عند مصوع على البحر الأحمر . ومثلما فتوحات دارفور والرقابة التى ضربت على تجارة الرقيق أضرت بطريق الأربعين كذلك تناقصت المتاجر التى كان مصدرها خط الاستواء وبحر الغزال لمنع التجار من تعاطيها فى تلك الأقاليم كوسيلة لتشديد الرقابة على الرقيق . وما يرد إلى السودان من السلع فى مبادلة ما يصدره ، يتكون معظمه من المنسوجات القطنية والآلات الحديدية القاطعة وغيرها .

والصورة العامة التى تخلص لنا من العهد بكامله هى أن السودان فتح لتأثير المدنية تعمل فيه عن طريق مصر وتوحدت أجزاؤه المختلفة تحت إدارة واحدة ممعنة فى المركزية وكانت التفاتات تحمل النوايا الحسنة من الجالسين على الأريكة الخديوية غير أن داء الإدارة التركية المتفشى فى كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية وجد طريقه إلى السودان حيث شاعت حوادث الرشوة والاختلاس وزاد عبء الضرائب زيادة لم يعد يحتمله كاهل الأهالى واستخدمت أحياناً طرق تدل على الظلم والجور مما لطخ سمعة الإدارة من هذه الناحية ، وأخيراً جاء إسماعيل بإصلاحاته الإنسانية من حيث العمل على إبطال الرق والعمرانية من حيث ربط أجزاء السودان بشبكة من الأسلاك التلغرافية والبدء فى مد خط السكة الحديدية السودانية والثقافية من حيث إنشاء المدارس المدنية والصرف على مساجد العلم والقرآن من إحساناته الخاصة .

حكام السودان إلى قيام الثورة المهدية

الاسم	تاريخ التعيين	ملاحظات
١ عثمان بك	جمادى الآخرة ١٢٣٩ – فبراير ١٨٢٣	
٢ محو بك	شوال ١٢٤٠ – مايو ١٨٢٥	
٣ على خورشد باشا	جمادى الآخرة ١٢٤١ – يناير ١٨٢٦	أول من تلقب بحكمدار
٤ أحمد باشا أبو ودان	صفر ١٢٥٤ – أبريل ١٨٣٨	
٥ أحمد باشا المنكلى	شوال ١٢٥٦ – أكتوبر ١٨٤٣	منظم
٦ خالد باشا	الحجة ١٢٦١ – ديسمبر ١٨٤٥	
٧ عبد اللطيف باشا	الحجة ١٢٦٥ – أكتوبر ١٨٤٩	
٨ رستم باشا	ربيع الأول ١٢٦٨ – ديسمبر ١٨٥١	
٩ إسماعيل باشا حتى أبو جبل	رمضان ١٢٦٨ – يونيه ١٧٥٢	
١٠ سليم باشا صائب	رجب ١٢٦٩ – أبريل ١٨٥٣	
١١ على باشا سرى	جمادى الآخرة ١٢٧٠ – مارس ١٨٥٤	
١٢ على باشا جركس	ربيع الآخر ١٢٧١ – ديسمبر ١٨٥٤	
١٣ الأمير محمد عبد الحليم	ربيع الأول ١٢٧٢ – نوفمبر ١٨٥٥	
١٤ أراكيل بك	جمادى الأولى ١٢٧٣ – يناير ١٨٥٧	مديرين للخرطوم
١٥ حسن بك سلامة	رجب ١٢٧٥ – فبراير ١٨٥٩	حقبة لامركزية
١٦ محمد بك راسخ	الحجة ١٢٧٧ – يونيه ١٨٦١	سعيد
١٧ موسى باشا حمدى	القعدة ١٢٧٨ – مايو ١٨٦٢	
١٨ جعفر باشا صادق	محرم ١٢٨٢ – مايو ١٨٦٥	
١٩ جعفر باشا مظهر	شعبان ١٢٨٢ – ديسمبر ١٨٦٥	
٢٠ ممتاز باشا	رجب ١٢٧٨ – سبتمبر ١٨٧١	مدير عموم قبل السودان
٢١ إسماعيل باشا أيوب	شوال ١٢٩٠ – نوفمبر ١٨٧٣	مدير عموم ثم صار حكمداراً
٢٢ غوردون باشا	صفر ١٢٩٤ – فبراير ١٨٧٧	
٢٣ محمد رءوف باشا	صفر ١٢٩٧ – يناير ١٨٨٠	

الثورة المهدية

أصل محمد أحمد وحياته الأولى

ولد للسيد عبد الله فى جزيرة لبب بالقرب من دنقلا العرضى حوالى سنة ١٢٦٠ هجرية ولد سماه محمد أحمد . وكان الوالد يحترف صنعة المراكب ، ولأمر ما ترك دنقلا وصعد فى النيل مثل ما فعل أجداده فى هجرتهم من قبل ونزل بشندى أولا ثم واصل السير جنوباً حتى حط الرحال بكررى شمالى أم درمان بقليل ، ولم يمكث الوالد إلا قليلا فى موطنه الجديد إذ توفى إلى رحمة مولاه .
وما كان لأخوة محمد أحمد غير اقتفاء أثر الوالد فى الصنعة غير أن محمد أحمد لم يجد فى نفسه الميل لمثل ما يعملون ، بل مال بفطرته نحو الدين ، وكان من الطبيعى أن يدخل مدرسة القرآن أو الخلوة فى القرية التى يقيمون فيها ، ولكنها لم تطفئ ظمأه نحو العلم والقرآن بل رحل لغيرها فى الخرطوم وثالثة فى الجزيرة وحفظ القرآن وفى الأخيرة بدأ يدخل فى درس العلوم الفقهية .

فى مدرسة محمد الخير

ما عارض إخوته فى ميل أخيهم ونزعته نحو الدين والقرآن ، وكيف لهم أن يعترضوا من خصه الله وهداه نحو الطريق القويم . وقد تزامى إلى سمعه شهرة الشيخ محمد الخير وحلقات درسه الدينية ، وترامى إليه كثرة الطلاب وشهرة الغبش فى عالم الدرس والتحصيل والصلاح ، فهاجر إلى الشمال وهناك نهل ما استطاع أن ينهله من علوم النحو والتوحيد والفقه والتصوف وهناك كان يمارس الزهد والتقشف والتعبد . فحلقات للدرس والمناقشة بالنهار والتهجد بالليل . ولم يك كغيره من الطلاب الذين ينامون ملء جفونهم ويتناولون ما يقدمه لهم شيخهم من طعام أو ما يتفضل به أهل الإحسان . وقد آلى على نفسه منذ البدء أن ينقى النفس والبدن معاً من الأدران أو ما يشتبه فيه . فشيخه يتناول مرتباً حكومياً من الذرة والمال ، ومثل هذا الرزق لا يضمن خلوه من المظالم والمحرمات فهو لا يبنى خلايا جسمه بالمشتبه فيه وما عليه إلا أن يذهب

فى بهيم الليل للصيد الحلال على شاطئ النهر لاصطياد السمك ، ويلقى فى سبيل ذلك من النصب ما يلاقى قبل أن يقع السمك فى سنّارته .

في مسجد ولد نور الدايم .

وبديهى أن يتناقل الطلاّب أخبار ذلك الشاب الزاهد المتقشف الذى لا يعيش مثلما يعيشون ، وطبيعى أن تصل أخباره إلى شيخه الذى يعجب به ويقربه ويشركه فى طعامه من محصول سواقيه وجزائره لا من هبات الحكومة. فإذا ما وثق الطالب مما يقوله شيخه اطمأن إلى طعامه ووجد فسحة من الوقت يقضيها فى العبادة بدلا من انتظار رزق من السمك يسوقه له الله. أروى محمد أحمد غليله من العلوم الشرعية وعرف شيئاً من التصوف بالقراءة والممارسة معاً، وكالغزالى قبله رأى أن الحقيقة الكاملة لا تنقلها الكتب وحدها فلا بد من التصوف ولا بد من أن يأخذ طريقاً على شيخ شهير . وما كان فى المنطقة التى تجاور الخرطوم من هو أعلى كعباً وأبعد صيتاً من الشيخ الطيب « راجل أم مرّحى » الذى أخذ الطريقة السمانية من المدينة المنورة ونشرها فى أقاليم السودان وهاهو حفيده الشيخ محمد شريف ولد نور الدايم يقتفى أثر الجد المؤسس للطريقة فى هذه البلاد .

دخل محمد أحمد فى عداد المريدين وهنا وجد متسعاً من الوقت للعبادة والتأمل وهنا استمر يحتطب ويجهز طعامه بنفسه وإذا ما تفقد الشيخ تلاميذه ومريديه بالليل لم يجد محمد أحمد كغيره من « الحيران » نائماً بل يجده فى يقظة يتعبد ويتهجد فلفت نظره ذلك الشاب الذى لم يجد له نظيراً من بين مريديه ورفعه مكاناً علياً وسمح له بأن يسلّك الطريق نيابة عنه . كل ذلك وإخوة محمد أحمد يقيمون فى الخرطوم بعد أن مات الوالد ودفنوه فى كررى وبعد أن رأوا أن مهنتهم تتطلب التواجد فى الموردة الكبيرة بالخرطوم .

في سبيل الرزق

وما عرف العلم والتعبد بطريقة يعيش منها الإنسان فطبيعى بعد أن أذن له شيخه فى تسليك الطريق أن يمارس مهنة يعيش منها، وهو لا يريد أن يبقى عالة على إخوته فاحترف أول مرة بيع خشب الحريق فى سوق الخرطوم ، وعلم

ذات مرة من امرأة تساومه فيه أنها تريده « للسورج » الذى يحوّل إلى خمر فيما بعد فأنفق ما عنده منه للناس وترك بيعه نهائياً . واشترك مع غيره فى تجارة الذرة وصعدا فى النيل الأبيض فما ابتعدا كثيراً من الخرطوم حتى نادى محمد أحمد شريكه بالوقوف وشراء ما يريدانه من تلك الجهة . فخالفه الشريك معترضاً بأن وافر الربح فى الابتعاد فأجاب محمد أحمد « ما نقول لربنا إذا ماخاطبنا بأن الدنيا عدوة وأننا سافرنا نطلبها ؟ » فنزل الشريك على ما أراده محمد أحمد ، ولكنهما اختلفا مرة أخرى حيث يريد محمد أحمد بيع الذرة فى الحال والشريك يريد التريث فاقتسما السلعة وباع محمد أحمد نصيبه بالثمن الحالى ونفض يده من تلك التجارة أيضاً .

العزلة فى الجزيرة أبا

وما كان لرجل هذا رأيه أن يطمئن إلى محيط الخرطوم بضجيجه ، هو يريد الخلوة والتأمل فصعد فى النيل الأبيض حتى حط رحاله بجزيرة أبا ذات الغابات المتشابكة ، وكان يسكنها عدد قليل من العرب الرحّل وأنفار قلائل من الشلك وهم سكانها الأصليون ، وهنا وجد متسعاً من الوقت وهنا سلك الطريق عليه سكان الجهة وأصبح له أتباع ومريدون وسرعان ما جذب إخوته إليه فى الجزيرة حيث تصلح لصناعة المراكب بما فيها من أشجار ضخمة وسرعان ماذاع صيت الشيخ محمد كرجل صلاح وتقوى . فإذا صلى بكى واستبكى وأطال الوقوف والركوع والسجود وإذا وعظ أثر فى النفس وهو فوق ذلك لا ينام من الليل إلا أقله قائماً متعبداً وعيشه عيش من زهدوا زخرف الدنيا واتجهوا بأنفسهم إلى الأخرى .

علاقته بشيخه محمد شريف

اتصل حبل المودة بين الشيخ وتلميذه . ففى المواسم والأعياد يذهب محمد أحمد لتقديم فروض الولاء لأستاذه فى مقرّه ، وقد وصف له جهات الكوة وحببها إليه فكان الشيخ يقيم بعض الوقت فى مكان بين الكوة والجزيرة أبا . كل ذلك والتلميذ يرتفع فى سلم الشهرة ارتفاعاً محسوساً حتى أصبح ذكره على الأفواه والبواخر والمراكب بين فشوده والخرطوم تلقى مراسيها فى جزيرة الشيخ محمد أحمد لتمدها بالبركات وتترك بعض الهدايا عنده لينفقها على الخلوات

والخيران اللذين كثر عددهم . ويظهر أن لمعان اسم محمد أحمد فى سماء الشهرة أوجد شيئاً من المنافسة بين التلميذ وأستاذه فتوترت العلاقات ووقع خلاف وانشقاق يقال إنه نتيجة استياء محمد أحمد مما حدث فى حفلات ختان أبناء أستاذه من لهو لم تستسغه طبيعة التلميذ .

اتصاله بالشيخ القرشى

ولكن كيف له الاطمئنان إلى حياة الصوفية والطريقة السمانية بصفة خاصة بدون شيخ فهو مخلص لها واطمأن إلى الحياة الروحية فى ظلها . وبعد فترة روحية فيها بعض القلق رأى فى الشيخ القرشى فى الحلاويين بأرض الجزيرة ما يعوضه عن أستاذه الأول . فهو من تلاميذ الشيخ الطيب نفسه وهو قائم بشروط الطريقة بمسلك لا شبهة فيه، فجدد العهد على يديه والواقع أن شهرته ما كانت فى حاجة إلى شيخ غير أنه رأى من مستلزمات الطريق وهو لا يزال شاباً دون الأربعين أن يعتمد على شيخ له قدم راسخ فى الحياة الصوفية وأبدى بالرغم من ذيوع صيته من الخضوع والانكسار لشيخه الجديد مثلما كان يبديه لأستاذه الأول وشاءت الأقدار أن ينتقل الشيخ القرشى إلى الدار الآخرة وأن يشرف تلميذه على بناء قبة فوق قبره .

الدعوة سرا

كان إتمام بناء قبة الشيخ القرشى فاتحة التبشير بالدعوى سراً فقد وافاه عبد الله بن محمد الذى أصبح خليفته الأول فيما بعد عند بناء القبة ، وكان أول من آمن بمهديته . وعند ما رجع إلى أبا دخل فى دور المكاتبة لرجال الدين من مشايخ الطرق وعلماء الشريعة سراً وكانت كتاباته فى بادئ الأمر تلميحاً لا تصريحاً ، فبعضهم آمن واستعد إلى حين صدور الأمر وبعضهم كفر بالدعوى ولم يعرها اهتماماً . وقام بعد أن بقى بجزيرته حيناً بطوافه فى مديرية كردفان وجبال النوبة يسر بالدعوة إلى من يثق به وبتأييده وقد عاهده البعض وخاصة الملك آدم أم دبالو ملك جبال تقلى .

إظهار الدعوة

رجع الشيخ محمد أحمد من رحلة كردفان وبدأ فى التو والحال بتحرير الخطابات الصريحة هذه المرة إلى رجال الدين يدعوهم لنصرة الدين والقيام

لتأييد المهدية الكبرى التى خصه الله تعالى بها وعلى نصرة الكتاب والسنة وأخبرهم أنه أمر بإعلانها وسيمشى النصر بين يديه . وبديهى أن تقع إحدى تلك الخطابات فى يد الحكومة ولم يعرها محمد رءوف باشا اهتماماً لأنه لم يتعوّد ولا من كانوا قبله من الحكام أن يقوم درويش فقير ضعيف القوة والعون بمناصبة الحكومة العداء بنفوذها وسيطرتها أو لعل هذا الشيخ إن صح ما نسب إليه كتب ما كتب وادعى ما ادعى فى حالة جذب قد تعترى مثله من الدراويش أحياناً . ولكن الأخبار تواترت والمنشورات أعلن أمرها وانتشر فلا أقلّ من أن يتبين الحكمدار جلية الأمر ولكنه إلى الآن ليس بشىء كبير يجذب اهتمام الحكومة فى مصر حتى يعلنها به ولا يستدعى الحال أن يخبر حتى ولا مدير المديرية التى تتبعها أبا وهى فشودة .

سفارة محمد بك أبو السعود

وكان محمد بك أبو السعود معاوناً للحكمدارية آنذاك وهو قد سافر كثيراً فى النيل الأبيض وله معرفة شخصية بإخوة الشيخ محمد أحمد بل ربما يكون آمن بصلاح محمد أحمد واستقامة سيره ، ولكنه لا يصل لدرجة الإيمان بمهديته . فقام فى وابور مع بعض الأعيان من أقارب المهدى فى الخرطوم وأخذ فى طريقه بعضهم من الفشاشوية . كل ذلك لعلمه بل يقينه إنها قد تكون شطحة من شطحات الدراويش تنتهى بمراجعته وعند ما ألقت الوابور مراسيها على الجزيرة أظهر المهدى استعداده لمقابلتهم ولكن بعد حين وفى فترة الانتظار شرح أبو السعود مهمته لأقارب المهدى قائلا : « رأيت أن نراجع الشيخ محمد أحمد عما نسب إليه من دعوى وأحضرت معى الكبراء والأعيان من الخرطوم والفشاشوية من أهله لنتحد الجميع معكم فى إرجاع الشيخ عما ادعاه وإنى كصديق لكم أرجو أن أوفق فى مأموريتى » فأجاب الكل بأنهم لم يعهدوا فى محمد أحمد كذباً والأفضل الانتظار كيما يسمع منه بنفسه .

لم يجد أبو السعود من محمد أحمد إلا كل إصرار حين قابله ومهما يتوعد ويهدد أو يحسن القول فالاستجابة واحدة . وذكر أبو السعود فيما ذكر الآية

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »، فأجاب المهـــدى « أنا ولى الأمر فى هذا الأوان فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » فقطع المندوب الرجاء وقفل راجعاً فى وابوره ليخبر الحكمدار بما رأى وما سمع وأبرق له بالنتيجة من الكوة .

الخديوى يعلم الأمر

عند ذلك أحس الحكمدار أن الأمر يستدعى بعض الاهتمام فجهز بلوكين من الجنود لأنه علم من أبى السعود أن من مع المهدى لا يجاوز المائتين وعهد إلى أبى السعود بمرافقة الحملة كخبير ورأى بعد أن أبحر الوابور أن يبرق للجناب العالى بمصر بما يأتى : « (1) فى ابتداء شهر رمضان أشيع بأنه موجود بجزيرة أبا التابعة مديرية فشودة بعيداً من الكوة بمسافة ثمانية ساعات شخص يسمى الشيخ محمد أحمد من أهالى دنقلا من مشايخ الطرق مدعى أنه المهدى المنتظر وبوقته عيّنا قاضى الكوة واثنين من العلماء لينظروا الخبر فتوجهوا إليه وتحقق أمر ذلك الشخص واستحصلوا على مخاطباته المحررة إلى ناسات بخطه وختمه بدعوهم أنه هو المهدى المنتظر وأرسلوا تلك المخاطبات لنا بالبوستة فبوصولهم لطرفنا قد عينا واحد وابور وأرسلنا من طرفنا مندوبين وحررنا له جواب بالنصيحة وأن يقوم يحضر لطرفنا وعند وصول المندوبين سلموه المخاطبات فحرر لنا ردهم بأنه هو المهدى المنتظر ومن لم يصدقه فالسيف ولكون أوروا بأنه موجود بعد نحو مائتان. نفر قد عينا وابور وبلوكين عساكر جهادية وواحد مدفع تحت قومندانية صاغقول أغاسى الطوبجية وأعطيناهم التعليمات اللازمة وفهمناهم بأنهم يجروا كل الطرق المستحسنة لحضور محمد أحمد بدون زعزعة وإن تراءى لهم عدم إمكان حضوره وأشهروا عليهم السلاح يجرى ضربهم وإحضاره بالقوة الجبرية وإفادتنا عن كل ما يجروه أول بأول وفى يوم الأربعاء الماضى صار قيامهم من الخرطوم إلى تلك الجهة ولزم عرضه بالإخطار أفندم » .

---

(١) دفتر ٤ وارد تلغرافات من سنة ١٨٨١ بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٨١ .

المهدى يستعد للملاقاة

ولنترك الوابور يحمل البلوكين فى طريقها إلى الجزيرة ولننظر ما فعل المهدى بعد ذهاب أبى السعود وتيقنه بأن الحكومة لا بد أن تبعث بجندها لحربه. أرسل المهدى لدغيم والعمارنة بالحضور فكاشف الجميع بالحرب وأخبرهم أن من يريد القتال جهاداً فى سبيل الله فليبق ومن لم يرد فهو حر أن يذهب أنى شاء فرضى الكل بالجهاد وبايعوه على الأنفس والمال والولد وبعدها كانوا يتدربون على الحرب الدفاعية والهجومية ويستعرضهم المهدى ويعظهم مدة ثلاثة أيام قبل ملاقاة الجند الحكومى .

ليلة المعركة

وصل الوابور إلى الفشاشوية ، وكان يقيم هناك بعض الدناقلة الموالين للمهدى يعملون فى المراكب فخف بعضهم وأتى على جناح السرعة لإبلاغ المهدى خبرها فوجدوه فى صلاة التراويح وبعد قضاء الصلاة بدأ المهدى وصحبه فى الاستعداد لملاقاة العدو فأحضرت الرايات وكانت خمساً ومكتوب على كل منها لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلى إحداها أضيف الجيلانى ولى الله والثانية أحمد الرفاعى ولى الله والثالثة إبراهيم الدسوقى ولى الله والرابعة أحمد البدوى ولى الله والخامسة خالية فأمر المهدى بفرع من الأراك ودق طرفه حتى أصبح كالفرشاة فكتب به على كل الرايات محمد المهدى خليفة رسول الله. فكانت تلك اللحظة الفارق بين الطريقة والمهدية وما بين المسالمة والجهاد وقد أصبح اسمه بعدها محمد المهدى بدلا من الشيخ محمد أحمد ثم عين النقباء لأصحابه الذين لا يزيدون على المائتين كثيراً .

المعركة

أتى الخبر إلى المهدى بوصول الوابور ونزول الجند قبل الفجر فأمر فقلعت الرايات ومشى خلفها الأنصار حتى غرزوها أمام القرية وجلسوا وراءها متوارين عن الأنظار . سار الجند من الشاطئ نحو القرية ، وقد ظنوا أنهم يفاجئون الشيخ وصحبه ويلقون القبض عليهم دون كبير عناء فظلوا سائرين حتى وجدوا أنفسهم أمام الرايات ومن خلفها الأنصار وجهاً لوجه . وهنا أشار المهدى بأن تقلع الرايات ويتحرك الأنصار وراءها واشتبكوا مع الجند فى

موقعة حامية فى أرض موحلة ومنخفض منها وما تمكن العساكر من تنفيذ أمر الضرب موتكزاً حيث دخلتهم الأنصار وأعملت السيوف والحراب والعصى فيهم ما لم تعمله الأسلحة النارية فبات معظمهم وقليل من فر ووجد طريقه راجعاً إلى الوابور . تلك قصة الواقعة الأولى بين المهدى وجيش الحكومة والتى لا اختلاف بين الرواة فى أن المهدى خرج بالنصر والحكومة بالهزيمة إذا ما اختلفت التفاصيل .

القصة الرسمية للواقعة

وهاك القصة من التلغراف الرسمي الذى بعث به الحكمدار إلى مصر بعد أن وصلته الأخبار المشئومة من أبى السعود بالتلغراف من الكوة[1] « ورد تلغراف من معاون الحكمدارية بالكوة يفيد أنه لما توجهت العساكر إلى جزيرة أبا بالبحر الأبيض محل إقامة الشقى محمد أحمد المدعى إنه المهدى السابق العرض عنه فبوصولهم هناك أفتوا الأمر الذى بيدهم ولم أرسلوا قاضى جهة الكوة الذى أمرناهم بإرساله إلى الشقى لأجل يدعوه للحضور وإن لم يمتثل وأشهر عليهم السلاح يعامل بالقوة الجبرية بل أخرجوا العساكر ليلا الساعة التاسعة[2] وقصدوا محل إقامته لضبطه فوجدوا بعض أشخاص بهيئة دراويش ينوفون عن المائتين نفر مجتمعين وشاهرين بوارقهم فعند ذلك أمرهم الريس بضربهم بالرصاص فلم يمتثلوا لأمره وقالوا هؤلاء دراويش فقراء لا يصح ضربهم ولما قربوا منهم فهمّوا عليهم الدراويش وتمكنوا منهم وقتلوا مائة وعشرين عسكرى وستة ضباط وهذا نشأ من عدم الانقياد للرئيس المعيّن معهم وما تبقى من العساكر رجعوا التجأوا بالبحر بجوار الوابور » .

خطة الحكمدار

انجلت الموقعة الأولى باندحار قوة الحكومة وكان عليها أن تدبر ما يقضى على المهدى حيث أن انتصاره هذا ما كان عن ضعف فى قوة الحكومة أو قوة خارقة للمهدى بل من غلطات حربية ارتكبت . وقد وصلت الأنباء أن المهدى ينوى مغادرة الجزيرة والتوجه إلى جبال تقلى فاهتم الحكمدار بجمع قوة

---

(١) دفتر قيد التلغرافات الشفرة الواردة ابتداء من ٢٧ يونية سنة ١٧٨٩ بتاريخ أغسطس سنة ١٨٨٦ .

(٢) هذا يوافق الرواية القائلة بأن المعركة حدثت عند الفجر حسب الساعة العربية . . .

عسكرية كافية فى الكوة تتكون من أربعة بلوكات ترسل من الخرطوم وأربعة بلوكات جهادية ومائتين من الباشبوزق الخيالة من الأبيض وثلاثة بلوكات من فشودة وأمر مدير كردفان أن يسد الطرق المؤدية إلى جبال تقلى . هذا ما اتخذه رءوف باشا من إجراءات وهذه هى خطته لمقابلة عدوان المهدى فماذا فعله المهدى إزاء ذلك .

خطة المهدى.

تيقن المهدى أن لا بد من تجهيز حملة كبيرة ضده ورأى أن الجزيرة أبا وتلك الجهات التى حولها لا تصلح لملاقاة قوات كبيرة وقرّ رأيه على الهجرة إلى جبال النوبة حيث يكون هناك بعيداً عن متناول يد الحكومة وإذا ما قصدته أية قوة تلاقى نصباً فى الوصول إليه . فقام بأنصاره وعبر النيل إلى الغرب وهناك تكامل عليه بعض قبائل دغيم وكنانة والحسنات وساروا متجهين إلى الغرب . وقد أبدى عساكر أبو كلام شيخ الجميع استعداده فى عدم اعتراض طريق المهدى إذا مر فى غير داره لأنه موظف من قبل الحكومة وسوف تنزل به العقاب إذا علمت بأن المهدى مرّ فى داره . وكانت خطة المهدى منذ البداية المرور على دار الأحامدة لا على دار الجمع غير أنه طلب من الناظر ألا يمنع الأنصار الذين يمرون بداره فرادى يريدون اللحاق بالمهدى فى دار الهجرة فوعده بذلك .

فى الطريق إلى قدير

قوبل المهدى وصحبه بالإكرام من ناظر الأحامدة ورجالها وكان سيرهم بطيئاً نظراً لهطول الأمطار وعندما شارفوا حدود تقلى أذن الملك آدم ام دبالو للمهدى بدخول داره حسب ما وعد به من قبل . وأول منهل نزلوه فى تقلى هو الزمزمية وأمدهم أرباب جهة أم طلحة بما هم فى حاجة إليه من ذرة وبقر . وبقى المهدى بذلك المنهل عدة أيام لتوالى نزول الأمطار وهناك بدأ سكان بعض الجبال والعربان النازلين فى الأودية بالانضمام إلى راية المهدى . وكانت جواسيس الملك آدم تتسمع الأخبار من جهة الحكومة فعملت بقيام محمد سعيد باشا مدير كردفان من الأبيض على رأس قوة كبيرة مقتفياً أثر المهدى وأشار الملك على المهدى بالارتحال إلى مكان حصين يدعى « بطن أمك » وهو ما يحتمى به أهل تقلى إذا ما أعلنوا عصيانهم على الحكومة فلا تنالهم جيوشها مهما حاولت .

محمد سعيد يرتد عن الجبال

ارتحل المهدى إلى « بطن أملك » ووجده مخضراً ممرعاً غزير المياه وبعد إقامتهم فى ذلك الموطن ثلاثة أيام وصل محمد سعيد باشا إلى حدود تقلى وتبين له أن الملك لا يسمح له بدخول داره ووصل آنذاك إلى المنهل الذى تركه المهدى وهو الزمزمية . وعلم سكان الجهة أن الملك لم يسمح للباشا بدخول تقلى ، فدبروا خطة لإرهابه بالليل حيث صعد جماعة منهم وبأيديهم السلاح النارى على رءوس الجبال المحيطة بالمنهل ليلا وأطلقوا بنادقهم وكان لها دوى مروع تجاوبت أصداؤه فى الجبال ، فاستفهم محمد سعيد فقيل إنه المهدى وصحبه ولكنه لا ينالك بشرّ وأنت داخل دارنا . فطلب من أرباب[1] الجهة أن يخرجه وجيشه من أقرب طريق فخرج بعد أن دفع ألفى ريال بصفة « أدبه » للملك آدم لأنه دخل داره دون إذنه .

بيان رسمى عن مهمة محمد سعيد باشا

وقد نقل الحكمدار بالبرق أخبار حوادث محمد سعيد باشا ودخوله جبال تقلى ورجوعه منها بتلغراف تاريخه ٨ أكتوبر يقول فيه : « إن محمد سعيد باشا مدير كردفان بتاريخ ٦ شوال سنة ١٢٩٨ قام بألف عسكر جهادية ومائتين وخمسين باشبوزق ومائتين خيالة من العربان ورجع بتاريخ ٢٣ منه وقدم تقريراً عن أنه اقتفى أثره لغاية جبال أم طلحة إحدى جبال تقلى ولما تراءى له أن أهالى الجبال مزعزعين وملك تقلى قبل الشقى بطرفه وجد القوة لا تناسب . وضربُ جبال تقلى يلزمها ٦ أورط بيادة وستة أرادى شايقية لأن ملك تقلى منذ فتوح دارفور تقوى بجلابة بحر الغزال وجلابة شكا وكثير من أهل كردفان تهربوا للتخلص من دفع المالية وحررت خصوصى إلى ملك تقلى وأرسلت ابن الياس باشا لكى ينصحه ويرسل هذا الشقى » .

تأجيل الخطة

أجل الحكمدار تنفيذ الخطة التى نوى اتباعها لتقرير محمد سعيد باشا عن تقلى وما يلزم لها من قوة وكذلك موسم الأمطار لا يناسب تحركات قوة عسكرية كبيرة . وفى فترة الانتظار هذه وصلته أنباء تقلل من أهمية المهدى وتقول بأن الكثير من أتباعه صدوا عنه ولم يبق معه إلا القليل من البقارة والدناقلة . والعداوة المتأصلة بين البقارة وغيرهم وبين بدنات البقارة أنفسهم

(١) مندوب الملك فى الجهات .

لا تجعل لحركة المهدى شأناً كبيراً . فالحكمدار قد اطمأن بعض الشىء ولا يرى خطورة كبيرة للموقف وذكر فى بعض رسائله أن « الحامل لهذا الشقى على هذه التسببات هم بعض الدناقلة أقاربه الذين كانوا متخذين جلب الرقيق حرفة » فليست الحركة إذاً فى أساسها ترتكز على عقيدة دينية عميقة حسب رأيه .

المهدى يستقر فى قدير

تركنا المهدى فى « بطن أمك » وقد لحقت بعض جيوشه بمؤخرة محمد سعيد باشا وغنمت منها بعض الشىء وسار إلى جبال النقارة وأقام به شهراً كاملا لتوالى هطول الأمطار وبعدها جاوز حدود تقلى متجها إلى جبل قدير فنزل أولا فى جبل كُرُن ثم الودّى وفى جبل الحراده بعد ذلك قاتلهم الفكى المختار الكنانى بعد أن عاهدهم بالموادعة فانتصر المهدى . ووصل إلى قدير وقابله الملك ناصر بالحفاوة والإكرام . وكان المهدى وهو فى طريقه متجهاً للغرب منذ أن غادر أبا يلتحق به الأنصار من الجزيرة وجهات النيل الأبيض وكردفان والجبال وفى قدير أتاه سكان الجبال المجاورة وبايعوه غير أنهم لم يكونوا على إيمان قوى ولم يركن المهدى إليهم . وبعد أن أقاموا بقية شهر القعدة والحجة أتاهم خبر راشد بك أيمن بوقت قصير قبل وصوله .

حملة راشد

سمع حاكم المديرية التى تتبعها الجزيرة أبا وهو راشد أيمن بك بأمر المهدى فخاطب الحكمدار بأنه سيقضى على حركته بما معه من القوة فى فشودة ولم يتلق الإذن من الحكمدار ، فقام من فشودة ومعه ٣٥٠ جندى نظامى و ٧٠ من الخطرية وقوة تبلغ الألف من الشلك وعلى رأسهم الملك نفسه . والتزم خطة كتمان خبر التجريدة منذ البدء وسير الجند بسرعة حتى يضمن عنصر المفاجأة ووصل جبل فنقر ووافقهم الملك تيفرا على كتمان الخبر بعد أن عاهد المهدى قبل ذلك بالمساعدة ولكن امرأة كنانية تدعى رابحة أسرعت سائرة النهار بأكمله وثلثى الليل حتى بلّغت خبر راشد إلى المهدى .

تجمع الأنصار استعداداً لملاقاة العدو . وهم فى تلك الحالة وصلهم رسول من قبل الملك ناصر يخبرهم بأن البارحة وصلتهم « تضيرة » وهى عادة اتخذها

سكان الجبال منذ القدم تنبئ بقدوم جيش محارب وهي عبارة عن علم في رأسه نار يرفعه أصحاب الجبل الذين حل الجيش بهم ليلا وما إن يراه أهل الجبل المجاور إلا ويرفعون علماً أيضاً وهكذا إلى أن تصل مقر الملك ويتهيأ ويستعد لملاقاة الجيش وأيدت هذه « النضبيرة » ما نقلته رابحة الكنانية .

وبعد أن استكشفت طلائع المهدى جيش راشد وقف أنصار المهدى المشاة في القلب والخيالة في الجناحين ووصلت الجنود منهوكة القوى من أثر السير السريع المتواصل وكانوا يظنون أن عامل المفاجأة يعوضهم عن قواهم المتضعضعة ، ولكنهم وصلوا في حالة إعياء وتعب وأمامهم صف المشاة الأنصار كأنهم يتهيئون للصلاة وفي الجناحين خيالتهم . فدخل المشاة الأنصار في الجيش أولا وعند ما انفرط نظام عساكر راشد وبدأ بعض الجند يفر تناولتهم الخيول من الجانبين وانتهت بنصر حاسم للمهدى وقتلت أغلبية الجيش بما فيهم راشد وكيكون ملك الشلك ، ومن نجا رجع لفاشودة ليقص الخبر . واتصلت الأنباء بالحكمدار الذى لم يكن مسئولا حيث خالف راشد الأوامر مخالفة صريحة . وعند ذلك أدرك رءوف باشا أن الحالة خطرة وطلب قوات من المحروسة وختمت سنة ١٨٨١ بهذه الموقعة وطار صيت المهدى بعد أن ربح الجولة الثانية ضد قوات الحكومة ، وظلت الدروب المؤدية إلى قدير مقر المهدى المنتظر تصب مدداً جديداً إن لم يكن كثيراً فإنه لدليل على تغلغل العقيدة في النفوس .

حوادث الثورة فى كردفان والجزيرة

حقبة تردد

طلب رءوف باشا الإمدادات من مصر بعد هزيمة راشد وظل كل يناير وفبراير وجزءاً من مارس سنة ١٨٨٢ لايدري ما يفعل، وكان العرابيون آنذاك قد سيطروا على الحكومة فى مصر وهم يخافون توزيع الجند ويريدون الجنش يقيم بمصر لأن قوتهم مستمدة منه واعتمادهم عليه. وما كانوا فوق ذلك يصدقون أن الحاميات الكثيرة المنبثة فى السودان تعجز عن إخماد فتنة كهذه يقودها شخص ينتمى إلى طبقة الدراويش وأنصاره ليس لهم سابق خبرة بالتدريب على القتال وليس لهم من الأسلحة النارية ما يصبح خطراً على أسلحة الحكومة ، ورأوا أن ما أحرزه من انتصار مردّه إلى عدم كفاية الحكمدار وعجزه فإذا ما استبدل برجل مدبر حازم عالم بفنون العسكرية الحديثة لاستطاع أن يرد الأمور إلى نصابها ويشيع الثقة والطمأنينة فى نفس الناس بعد أن بدأت تتزعزع .

عبد القادر باشا إلى السودان

اختار العرابيون عبد القادر باشا حلمى لهذه المهمة وهو قد تلقى تعليمه العسكرى العالى فى أوربا وعرف أحدث فنون الحرب وله من مقدرته وكفاءته ما يجعل منه رجل الساعة فى السودان . وما كانت الوزارة لتجد رجلا أجدر بمثل تلك المهمة وما كان كغيره من الحكمداريين السابقين بل اختير لملء منصب جديد فى الوزارة وهو وزارة السودان وغادر عبد القادر باشا مصر ناظراً لوزارة السودان وحكمداراً له فى آن واحد . ووصل الخرطوم فى أوائل مايو سنة ١٨٨٢ ووجد الهلع والخوف يسودان الأوساط العسكرية والمدنية ونقل إليهم ما يمازجه من اعتداد بالنفس وثقة تامة بنجاح مهمته . وإذا كان على يقين أن الفن الحربى الحديث وحده هو الذى يستطيع إخماد الفتنة ، بدأ بتحصين الخرطوم وأشرف بنفسه على التدريب العسكرى وفقاً لأحدث الأساليب وألّف كراسة طبعت فيها التدريبات الحربية ووزعها على الضباط يهتدون بهديها . وإذا ما صار يجهز حملة لإطفاء ثورة محلية فى الجزيرة أعطى ضباطها درساً مقتضباً

عما يجب عمله من حيث الهجوم والدفاع والتحصين وغيرها زيادة على ما يجب استيعابه من الكراسة المطبوعة . وعلى وجه العموم أصبح حركة مستمرة أعادت إلى النفوس ما فقدته من ثقة وظُن أن الأمر سوف يحسم والمياه تعود إلى مجاريها بفضل الحكمدار الجديد .

كانت النغمة السائدة فى مكاتبات عبد القادر باشا لمصر هى الثقة التامة بانتهاء الأمر بفضل ماقام به من إجراء وإصلاح فهو يقول تعليقاً على تجريدة يوسف باشا الشلالى التى كانت فى طريقها إلى قدير « ومأمول إن شاء الله الحصول على الغرض المقصود وبعد زمن قريب منظور حضور البوستة بالأخبار المبشّرة بالظفر والنجاح » . وفى نفس الرسالة يقول « وقد زال عن خواطر العامة بل والعساكر ماكانوا يتوهمونه من الخرافات التى ألقيت إليهم بواسطة المفسدين وحصل من الأهالى الإذعان للطاعة وطلب الأمان ومن العساكر البسالة والإقدام وبمنّه تعالى ونفوس الحضرة الخديوية قريباً يصير إزالة ومحو أثر ما هو حاصل من المفسدين وتقرير الأمن والراحة بين كافة أهالى هذه الجهات ويعودوا للتوطن والعمارية والله ولى التوفيق أفندم » .

تجريدة ود الشلالى

وقبل أن يصل عبد القادر وبعد مغادرة رءوف باشا كان القائم بأعمال الحكمدار جقلر باشا ، فرأى أن يحاول القضاء على قوة المهدى فى عرينه بقدير ، فحشد جيشاً مؤلفاً من ثلاثة عشر بلوك من الجند النظامى وألفى وخمسمائة من الخطرية وعقد لواء الحملة ليوسف باشا الشلالى . وهو من الكنوز الذين ولدوا فى السودان . عمل فى التجارة فى الجنوب وكانت تجارة « بحّارة » مدرسة لبث روح المغامرة والبطولة وخلق الرجولة فنال منها يوسف الشلالى نصيباً وافراً وبإضافة ذلك إلى ما منحه الله من ذكاء وصفات نادرة دخل خدمة الحكومة وارتقى فيها من حاكم فى إقليم الرول (رومبيك) إلى مساعد جسّى الأول فى تجريدته على سليمان الزبير إلى مدير سنار . فتوسم فيه جقلر الكفاءة والمقدرة لقيادة الحملة واستدعاه من سنار لذلك الغرض . وكان يوسف مؤمناً بنجاح مهمته واثقاً من أنه سيفوز فيما فشل فيه راشد وأخذ مع جيشه

من المؤن والذخائر ما يكفيه للقضاء على المهدى وما هو لازم لتموين الجند بعد ذلك . وكان فى نيته أن يؤسس مديرية فى جبال النوبة عاصمتها جبل الجرادة وأخذ ما يلزم من تقاوى لزراعة الخضروات والمحاصيل الأخرى :

مسير الحملة

سار من الكوة إلى فشودة ومنها اتجه غرباً ورئيس الخطرية معه طه أبو صدر الشايقى وأتته نجدات من كردفان على رأسها عبد الله دفع الله أخو أحمد بك دفع الله وعبد الهادى صبر . وقد علم المهدى بتكوين الحملة من أنصاره الذين لحقوا به حديثاً من نواحى الخرطوم والجزيرة والنيل الأبيض ؛ ونظّم طلائعه وعيونه ليلمّ بحركات التجريدة حتى لا تداهمه مثل ما أوشك راشد أن يفعل لولا رابحة الكنانية ونضيرة الملك ناصر . فبعث بجواسيسه إلى جبل فنقر للإقامة مع تيفرا وقد عاهده هذه المرة بعد أن أخل به قبل ذلك وبعث بغيرهم للإقامة مع الملك آدم ملك تقلى يتنطسون أخبار الحكومة فى الأبيض بالزغم من أن الملك آدم ألقى فى روع رجال الحكومة أنه معهم وأنه يمنع المهدى إذا حاول اختراق حدود بلاده وأنه على استعداد لتجهيز حملة ضده فيما لو طُلب إليه ذلك . وكانت الأيام آخر فصل الجفاف فشحت المياه ولذا أقام الشلالى فى فُنقر مدة أطول مما قدر له أن يسقى جيشه وبهائم الحملة من آبار حفروها لهذا الغرض ولم يرض عبد القادر باشا عن هذا التأخير عندما حضر إلى الخرطوم ورأى أن هذا يساعد المهدى بتجمع الناس حوله :

قتل الجواسيس

خان تيفرا العهد للمرة الثانية وسلم جواسيس المهدى إلا من فر إلى رئيس الخطرية طه أبو صدر وكان أول طليعة وصلت من جيش الشلالى إلى فنقر . وحكم الشلالى عندما حل بالجبل على الجواسيس بالإعدام بطريقة بتر الأعضاء واحداً واحداً أمام أنظار الجند . كل ذلك لشذتهم فى مخاطبة الباشا ولم يقرّه القاضى الذى كان فى رفقته ولا كبار رجاله على هذه الطريقة الوحشية فى إعدام الجواسيس وهى فوق وحشيتها قد تقود إلى هبوط الروح المعنوية فى نفوس الجند ، لأن رجلا هذا مبلغ تأثيره فى نفوس أنصاره إلى درجة تحملهم على مقابلة الموت بثبات كما فعلوا لا بد وأن يكون على شىء من الحق فى دعواه ،

مخاطبات بين الشلالي والمهدي

كان الشلالي كغيره من رجال الحكومة المسلمين يرون في دعوى المهدي خروجاً على المألوف لديهم وفي تصرفاته ما ينافي ما أدعاه وأنه لا يصح لمسلم مهما بلغ من الصلاح والتقوى أن يرفع السيف في وجه جنود تدين بالولاء والطاعة لخليفة المسلمين العثماني .. ثم أن المهدي في نظره فوق ذلك يبالغ ويتهم بالكفر من شك في مهديته ولم يجد ولا غيره من المسلمين في الكتب ولم يسمعوا من علمائهم الذين استشارهم أن إنكار المهدية يقود المسلم إلى الكفر. كل ذلك ظهر لهم مبالغة وإغراقاً أو قل شطحات نادى بها درويش وهو في شبه غيبوبة . هذا أو قريباً من هذا كان يراه المسلمون الموالون للحكومة في المهدي ، وعليه رأى الشلالي مراجعته بالمنطق ولم يقطع الأمل في رده إلى صوابه .

بعث الشلالي وهو مقيم في فنقر إلى المهدي رسالة طويلة لم نهتد إلى نصها ولكن نقاطها البارزة حفظها لنا المهدي في ردّه عليها وقد استعان الباشا بالطبع بالعالم الذي يرافقه وربما بالعلماء الآخرين قبل قيام الحملة . فهو يعترض على المهدي بأنه قتل الجند غدراً وهم قدموا للمراجعة لا للحرب في أبا وردّ المهدي بأن من يريد المراجعة والمناقشة يرسل « الصلحاء والعلماء أهل المذاكرة والدراية بهذا الشأن ولم يرسل العساكر الأغبياء ويعطيهم الأسلحة» . ولاحظ الشلالي أنه قتل المسلمين ظلماً وعدواناً ورد المهدي « أنّا ما قتلنا إلا أهل الجرادة بعد أن كذبونا وحاربونا وقد أخبرنا النبي (صلعم) وأخبر جميع أهل الكشف بأن من شك في مهديتنا وأنكر وخالف فهو كافر ودمه هدر وماله غنيمة فحاربناهم لأجل ذلك وقتلناهم » . ويستمر المهدي في خطابه عن الترك ويقول « على أن النبي (صلعم) أمرنا صريحاً بقتال الترك وأخبرنا بأنهم كفار لمخالفتهم لأمر الرسول باتباعنا وإرادتهم لإطفاء نور الله تعالى الذي أراد به إظهار عدله فكيف نسأل عنهم بعد هذا » وردّ المهدي على استخدام الطلائع ومناصرة ضعفاء الأعراب له بأن النبي (صلعم) استخدم الطلائع وكذلك صدّ عنه وجهاء القوم وناصر الضعاف في أول الأمر .. . .

المرحلة الأخيرة

وبعد أن هطلت الأمطار ووفرت المياه تحرك الجيش ونزل بجبل الجرادة

وهناك تحصّن داخل زريبة من الشوك ظل الجند طول الليل يقيمونّها وناموا في الجزء الأخير من الليل مما لاقوه من السهر والتعب . وتحرك المهدى بكل جيشه ونزل ليلا حول الزريبة ولكنه لم يقترب منها . فبات ليلته وعند فجر ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢ صلى بهم ووقف فيهم خطيباً وحرضهم على الجهاد في سبيل الله وأوصاهم بأن يؤدى كل دينه وأن يودع الصديق صديقه وكلهم منصتون ، وبعد ذلك أخذ يلقى الأوامر على رؤساء الرايات وظل كل أمير يقلع رايته ويذهب إلى الجانب الذى أمِر باحتلاله فى مواجهة الزريبة . وبعد أن انتظموا فى شبه حلقة حولها أمر أنصاره أن يحمل كل منهم سبع حبات من الحصى ويرميها على الزريبة وهو يقول « اللهم أنت ربّنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ثم تكبّروا وتدخلوا الزريبة » .

المعركة

اشتبك الفريقان فى موقعة لم تكن بالسهلة الهينة وقد كانت من أشد المعارك التى دارت بين الفريقين فى حروب المهدية ، وتمكن الأنصار من إجلاء الجند من الزريبة ومتابعتهم بعيداً عنها . وقتل فى الهجوم الأول طه أبو صدر فضربت زوجته النحاس وظلّت تنادى بجنده للتجمع والثبات وأبدت بسالة لم تُعهد فى امرأة مثلها . واتخذ عبد الله دفع الله خدعة جازت على الأنصار بأن أمر جنوده بإلقاء أنفسهم على الأرض حتى يظنّ بأنهم ماتوا وبعد أن تركت الراية الزرقاء (راية الخليفة عبد الله) الزريبة متعقبة أثر الجند الذين خرجوا منها قام وأصلح الزريبة وأصلى الراية الزرقاء نار حامية كانت شديدة الوطأة عليهم ، وما تمكنوا منه إلا بعد أن أحاطوا بالزريبة مرة ثانية وتغلبوا عليه بتفوق العدد ، وانجلت المعركة بانقراض جيش الشلالى إلا القليل الذى فرّ لينقل الخبر .

أثر الانتصار

لم يبق شك فى أذهان الشعب بعد أن تغلب المهدى فى الجولة الثالثة ، فازدحمت الدروب إلى قدير من كل فج وبعث من هناك بالرسل والأمراء إلى نواحى كردفان ودارفور والجزيرة لإشعال النيران ضد حاميات الحكومة ، وتواترت الأخبار والشائعات عن المهدى وكرامته فمنها أن النار تشتعل فى

أجسام جند الحكومة وإن اسمه وجد منقوشاً على ورق الشجر وبيض الدجاج .

الدافع الأول

وهنا يجدر بي أن ألاحظ على ما كتبه المؤرخون في الأسباب التي أدت إلى الثورة المهدية ويجمعون على أن الأسباب الرئيسية هي فداحة الضرائب وتفشي الرشوة والعنت والظلم والمناداة بإبطال الرق . وقد تكون بعض هذه الأسباب أو كلها مجتمعة السبب في انضمام البعض إلى راية المهدى وقد يكون المهدى استعان بالبارزين ممن كانوا فريسة لواحد أو لأكثر من تلك الأسباب لكن الناحية التي يهملونها والتي في نظري المحرك الأول للثورة هي المعتقد الديني وشخصية المهدى .

فالشعب السوداني يدين معظمه آنذاك بالعقيدة الإسلامية بواسطة الطرق واتباع المشايخ . ويعطى وزناً كبيراً للكرامات وخوارق العادات ودخل في روعه أن مخالفة الولى أو الصالح لاتضره في آخرته فحسب بل قد يرى أثرها الضار في الدنيا في نفسه أو ولده أو ماله . وعندهم من الأمثلة لذلك شواهد يروونها . ومشايخهم كغيرهم من المسلمين ينحون باللائمة على الحالة التي تردّى فيها الإسلام وكيف أنه أصبح غريباً كما كان أولا . وهم يأملون أن يُجدّد الإسلام على رجل من آل بيت النبي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً وظلماً وهم قد قرأوا في كتبهم التي درسوها أوصاف الرجل وما يستطيع عمله . وهم يؤمنون بفكرة المهدى ولا ينكرونها كبعض العلماء الذين يشكّون فيها وإنهم إن اعتقدوها لا يرون في نظرهم أوصافها منطبقة على الشيخ محمد أحمد .ولكن فئة العلماء قليلة في السودان آنذاك وجل رجال الدين ، الذين يؤثرون على الجمهور الإسلامي هم أرباب الطرق من الصوفية وهم يفخرون بأنه قام بهذا الأمر رجل منهم ، وحانت الفرصة للقيام لنصرة الدين فبثوا الفكرة في تلاميذهم وأتباعهم وضربوا لهم مثلا باتباع المصلح الجديد فتابعهم العامة إما اقتداء بمشايخهم أو خوفاً من غضب ذلك الولى الصالح الذى سمعوا بزهده وتقشفه وكراماته أو إرضاء لغريزة القتال التي تمكنت منهم أو عند البعض حباً للمغانم والنهب . ولا شك أن بعضهم انضم إلى المهدى بعد واقعة الشلالى

وبعد الوقائع الأخرى وخاصة بعد هكس لانقطاع أملهم من الحكومة وبعد أن وضح أن المستقبل للمهدى. ومن هذه الطائفةبعض العلماء والتجار الذين وإن علت مناصبهم فى المهدية إلا أنهم فى الواقع ما رسخت عقيدتهم فى المهدية يوما من الأيام .

فوق ما ناله المهدى من تأييد وسمو الروح المعنوية بين أنصاره وفوق ما تدفق عليه من سيل الأتباع والمريدين ، فإنه كسب مغانم عظيمة فى الزاد والعتاد بسحقه قوات الشلالى . ولنتركه الآن يجمع المغانم ويضعها فى بيت ماله تحت إمرة صديقه أحمد ود سليمان ويتلقى أفواج المبايعين ويرسل السرايا والرسل إلى الغرب والجزيرة ، ويخاطب بيوت الدين بمهديته ويقدم لهم الآن الدلائل والبراهين بانتصاراته الساحقة على قوات الحكومة التى كانت هيبتها وسطوتها تملأ النفوس ولنتر ما فعله الحكمدار وما شب من ثورات فى الجزيرة .

كانت الجزيرة ملأى بزعماء الدين « مشايخ الطرق » وكانت سيطرتهم تامة على سكانها . وهم وسكانها قد عرفوا محمد أحمد منذ أن كان شيخاً يتجول بدراويشه وهم قد عرفوا ما كان من أمره مع أستاذه الشيخ محمد شريف وانضمامه إلى الشيخ القرشى الذى وصل درجة عظيمة آنذاك من الصلاح ورأوا فى محمد أحمد شاباً بلغ به الزهد والورع والتقشف مبلغاً لم يعهدوه فى مثل سنه أو حتى فى من يكبره من المشايخ . والآن وقد سمعوا بانتصاره فى أبا ثم على مدير فشوده هاجر بعضهم إليه لأنهم لم يستطيعوا المجاهرة بالعصيان لقرب قوات الحكومة منهم وبعد المهدى عنهم .

حركة عامر المكاشفى

كان الشيخ أحمد المكاشفى أحد الذين هاجروا لقدير وكانت أوامر الحكومة تأمر بتنكيل أقارب المهاجرين فألقت القبض على أخيه عامر وأذاقته من صنوف العذاب ألواناً فى سنار ، فافتدى نفسه بما معه من مال وخرج حانقاً غاضباً على الحكومة وبالرغم من وجود المهدى بقدير وبالرغم من أن قوات الحكومة ترابط فى أنحاء مختلفة فى الجزيرة .أتى إلى عربان رفاعة الهوى .

جنوبى سنار» وعرض مهدية » أى نادى بالثورة ، فتجمعوا عليه للتخلص مما ترهقهم به الحكومة من ضرائب وسار بهم إلى سنار وتمكن من اقتحامها ، ولكنه جرح فخرج منها ليرجع إليها المدير وجنده ، فامتنعت عليه هذه المرة غير أنه حاصرها وقطع خط التلغراف الذى يصلها بالخرطوم . وقد علمت الحكمدارية بأمر سنار قبل القطع فأمر جقلر صالحاً ود الملك أن يتقدم من الكوّة لفك الحصار فنجح فى مهمته وتراجع عامر إلى بركة تيقو ليستأنف هجومه مرة ثانية كما سيجيء .

الشريف أحمد طه محمد زين

ثار الشريف أحمد ود طه شرقى النيل الأزرق بين رفاعة وأبى حراز وقد تحمس للمهدى والمهدية رغم انقطاع الصلة بين مقرّه ومركز الدعوة فى كردفان ووجد من شايعه ، فانتصر على عدد من الباشبوزق بعث بهم جقلر وكذلك على نجدة أتت من القلابات ولكنه اندحر أخيراً وقتل حين قاد جقلر نفسه قوة من الجنود النظامية تحمى ظهورهم فرقة من الشكرية . ثم واصل جقلر سيره جنوباً لينتصر على محمد زين التكرورى فى أبى شوكة وعاد إلى الخرطوم ليجد عبد القادر بها بعد أن قضى على تلك الحركات الأولى فى الجزيرة ما عدا حركة عامر المكاشفى ، وعند ما استلم عبد القادرمقاليد الأمور بعث بصالح ود الملك لمطاردة عامر وتغلبت باشبوزق صالح على أعراب عامرلأنهم لم يتعوّدوا القتال ضد الأسلحة النارية ولأنهم لم يروا المهدى حتى يؤمنوا به إيمان عقيدة وحتى يبيعوا الأرواح كما فعل الأنصار ذوو العقائد الراسخة . وانتهت حرب العصابات الأولى فى الجزيرة وفر عامر نفسه إلى قدير لمبايعة المهدى وسرت موجة فرح وسرور فى الدوائر الحكومية وتيمنوا بقدوم عبد القادر إلا أنهم تلقوا الأخبار المنبئة بانقراض حملة ود الشلالى كما ذكرنا .

موجة ثانية فى الجزيرة

اندلعت النيران فى الجزيرة مرة ثانية برجال بايعوا المهدى وأتوا لتنفير القوم ضد الحكومة فمنهم ود الصليحابى الذى ثار فى الجبلين وانتصر على جند الحكومة بقيادة السعيد بك الجمعيانى ورجع الأخير بفلول جيشه ليتحصن

بالدويم : وأتى من قدير الداعية الأكبر أحمد المكاشفى وبدأ يقاتل حامية شات إلى الجنوب الغربى من الدويم وزحف على الدويم إلا أنها امتنعت عليه . وسار فى طريقه لمهمته فى سنار ، ولكن ساء عربان الدويم أن يندحروا فتجمعوا على عبد الباسط الجمرى وحصروها إلى أن يرفع الحصار على يد جقلر موفداً من عبد القادر باشا .

وشبت نار فى غربى الجزيرة أيضاً أشعلها فضل الله ود كريّف من مشايخ الطريقة السمانية وقطع خط التلغراف بين الكوة والمسلمية وهزم ما أرسل إليه من جند حكومى فى أم سنيطة . وانتهت سنة ١٨٨٢ ولا تزال المقاومة تتركز فى فضل الله فى غرب الجزيرة وأحمد المكاشفى بقوات كبيرة فى مشرع الداعى على بعد عشرين ميلا شمالى سنار وهو إنما اختار ذلك المكان بعد أن تحسس حصون سنار وامتنعت عليه ورأى أن يمنع وصول المدد إليها من الخرطوم بعد قطعه خط التلغراف مرة ثانية .

عبد القادر ينهض للجزيرة

رأى عبد القادر باشا أن الأمر فى الجزيرة يستدعى قيامه بنفسه فغادر الخرطوم فى ٢ يناير سنة ١٨٨٣ إلى المسلمية ومنها إلى عبود وهناك أخذ ما بها من حامية وذهب إلى غرب الجزيرة ليقاتل ودكريف ، وبعد أن تم انتصاره عليه فى قرية معتوق أراد القضاء على مركز المقاومة فى شرقى الجزيرة فى مشرع الداعى ، فجاء بقوات من الكوّة وأمرهم بالمسير إلى ود مدنى لانتظار أوامره هناك ، ورجع هو إلى الخرطوم ، ومنها نزل فى البواخر وزحف على رأس قوة على ود المكاشفى فأوقع به ودحره إلى سقدى مويه غربى سنار ودخل المدينة ظافراً . وأرسل صالحاً ود الملك على رأس قوة تطارد ود المكاشفى وتمكن فعلا من زحزحته من سقدى مويه حيث فرّ بفلّه ليتصل بود برجوب الثائر بنواحى الجبلين . وواصل عبد القادر سيره جنوباً ليطارد الحاج أحمد عبد الغفار حيث أراد إسقاط حامية كركوج فالتقى به فى التبنة قرب الروصيرص وشتت جموعه ورجع إلى الخرطوم منتصراً ، وبدأت الثقة تعاود النفوس بعد أن فقدت بهزيمة ود الشلالى .

حرب الدعاية

هذه إجراءات عبد القادر الحربية وقد تمت كلها بنجاح ولكنه، عرف أن سلاح الدعاية الذى يقوم به المهدى قوى لا بد من مقاومته ، فخطابات المهدى ومنشوراته تثير فى النفوس الحماس وتلهب المشاعر ، وإذا تركت دون رد ربما يظن الناس أن الحكومة ومن شايعها من العلماء يعجزون عن مقارعة المهدى بالحجة والبرهان ، فوجّه عبدالقادر همته لهذا الأمر . ولوأن السلطان عبدالحميد أصدر منشوراً رسمياً للعالم الإسلامى بتكذيب الدعوى وكذلك علماء الأزهر أفتوا ببطلانها ونشروا فتواهم هذه ، إلا أنه رأى الحاجة ماسة لرسائل ومنشورات وفتاوى تصدر من الخرطوم وتوزّع فى السودان ليقارنها الناس مع خطابات المهدى لعلهم يؤمنون ويقتنعون بدعاية الحكومة .

أكد المهدى فى منشوراته وخطاباته « تغير الزمن وترك السنن ولايرضى بذلك ذو الإيمان والفطن بل أحق أن يترك لذلك الأوطار والوطن لإقامة الدين والسنن » . ثم أنه وضّح أن الناس قد تنكّبوا الطريق المستقيم وانجرفوا فى سبل الضلالة ، فهو قد أتى لتطهير الفساد وإقامة العدل والدين بدلا من الظلم والضلال وبيّن أنه مأمور من الله وأخبره سيد الوجود بالخلافة الكبرى والمهدية العظمى وأن من خالفه فقد كفر وذكر مسنداً عن « الشيخ محى الدين بن العربى فى تفسيره على القرآن العظيم علم المهدى كعلم الساعة والساعة لايعلم وقت مجيئها على الحقيقة إلا الله » وروى عن الشيخ أحمد بن إدريس أنه قال « كذبت فى المهدى أربع عشرة نسخة من نسخ أهل الله ثم قال يخرج من جهة لايعرفونها وعلى حال ينكرونه » ثم يمضى ويقول « وهذا لايخفى عليكم أن التأليفات الواردة فى المهدى ومنها الآثار وكشف الأولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من أنه الله ما يشاء الآية وفيها الأحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضاً كما أن الآيات تنسخها الآيات وحقيقة ذلك على ما هى عليه لايعرفها إلا أهل المشاهدة والبصائر »

هذه بعض من أقوال المهدى سواء فى منشوراته أو خطاباته أو أحاديثه مع

أصحابه ومنها يتبين لنا أن دعوته فى أساسها ترتكز على التغير الذى حدث فى الدين وعلى انتشار المفاسد وعلى الحاجة إلى تطهير الدين مما علق به من أدران ، ويحتاط لمن يتصدى لتكذيبه بأن البلد التى يخرج منها المهدى والسنة التى يظهر فيها ، والهيئة التى بها يعرف كلها أمور لايعلمها إلا الله ، فإن وردت أحاديث عن شأن المهدى وظهوره لا تنطبق على مهديته فالأحاديث منها الضعيف والموضوع والمنسوخ ويضرب على نغمة ضرورة التسليم بالمهدية لأن من خالفه فقد كفر . والناس عندما يقرءون منشوراته وخطاباته ويقرءون بين سطورها الثقة برسالته والإيمان بعقيدته يخافون من وعيد المخالفة ، وهم يرون بأعينهم تبدّل الحال وإن المسلمين على غير ما يريدون لأنفسهم وهم إذ يسألون عن نشأة محمد أحمد وعن مسلكه يتعرّفون إلى زهده وتصوّفه وابتعاده عن الشبهات واعتماده على الخالق لا على المخلوق .

درءاً لتلك الدعاية كلّف عبد القادر باشا المفتى شاكر الغزّى ومحمد خوجلى قاضى عموم السودان والسيد أحمد الأزهرى أن يؤلف كل منهم رسالة فى تكذيب دعوى المهدى ، فركزوا منطقهم فى ضرورة طاعة ولى الأمر وبالآيات والأحاديث أو وردوا كل الأحاديث التى استطاعوا جمعها من كتب السنة وبينوا أن كل الأوصاف التى وردت فى شأن المهدى من حيث الزمن والمكان وهيئة المهدى تخالف حالات الشيخ محمد أحمد . ووضحوا أن لاضرورة لظهور المهدى لأن الأرض لم تملأ جوراً وظلما وأن الجميع يرتعون فى بحبوحة الأمن والسلم تحت رعاية أفندينا الخديوى والناظر والحكمدار عبدالقادر باشا وإن الجميع يدينون بالولاء والطاعة لسلطان المسلمين الذى يُخطب باسمه فى المساجد . وحذروا المسلمين من الضلالة بعد الهدى وحرّضوهم على شد أزر الحكومة ومعاونتها فى القضاء على تلك الحركة . وزاد المفتى أن أمر المهدية نفسه يقول به بعض العلماء ولايقول به البعض الآخر . وقد طبع الباشا هذه الرسائل ووزعها على الناس لمقاومة منشورات ورسائل المهدى وفكر أيضاً فى أعمال الاغتيال بواسطة مأجورين وفى إرسال إحدى الظروف التى تحوى

ديناميتاً يتفجر بمجرد أن يفتحه المهدى وحاول بواسطة أحد الدراويش أن يبعث بعجوة مسمومة كهدية للمهدى . ولم يتبين لنا من الوثائق فيما إذ نفذت مسألة العجوة والظرف والاغتيال ولكنها ذكرت كوسائل ينوى الحكمدار تجربتها .

وقد تحدث الناس عن محاولة الاغتيال بواسطة عبد الله ود إبراهيم حيث صوّب مسدسه على المهدى ولكنه لم ينطلق رصاصه فى رواية وعلم المهدى بالمؤامرة قبل أن تنفذ فى رواية أخرى ويتحدثون عن تسليم عبد الله هذا بأمر المهدية وتحمسه وإخلاصه لها فيما بعد .

وقد ألف الشيخ محمد شريف أيضاً قصيدة فى ذم المهدى بإيعاز من عبد القادر باشا قال فيها :

[illegible] جاءنى فى عام «زع» لموضع ... على جبل السلطان فى شاطىء البحر
يروم الصراط المستقيم على يدى ... فبايعته عهداً على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصاً ... وقد لازم الأذكار فى السر والجهر
وأفرغ فى نهج المحامد جهده ... فرقيته جهلا بعاقبة الأمر
أقام لدينا خادماً كل خدمة ... تعز على أهل التواضع فى السير
كطحن وعوس واحتطاب وغيره ... ويعطى عطا من لايخاف من الفقر
وكم صام كم صلى وكم قام كم تلا ... من الله لازالت مدامعه تجرى
وكم بوضوء الليل كبّر للضحى ... وكم ختم القرآن فى سنة الوتر
لذلك أسقى من منهل القوم شربة ... بها كان محبوباً لدى الناس فى البر
وكان لدينا عيشه صدقاتنا ... وخادمنا عشرين عاما من العمر
إلى الخمس والتسعين أدركه القضا ... على ما مضى من سابق العلم بالشر
بصحبة شيطان من الجن آيس ... وشيطان إنس وافقه على الضر

المسير إلى الأبيض

تركنا المهدى منتصراً فى قدير على ود الشلالى فى مايو سنة ١٨٨٢ واستطردنا فى حوادث الجزيرة من الشهور الأولى من سنة ١٨٨٢ إلى الشهور الأولى من سنة ١٨٨٣ حيث خفّ الحكمدار بنفسه وأعاد الهدوء إلى أرجائها .

والآن سنسرد ماحدث للمهدى بعد انتصاره العظيم . بث دعاته لمضايقة حاميات كردفان ودارفور أو استلامها لو أنسوا فيها ضعفاً ؛ فذهب مادبو إلى دار فور وسقطت الحاميات فى كردفان الواحدة تلو الأخرى ما عدا بارة والأبيض. وقد شاهدت التيارة مجزرة بشرية هائلة من قِبَل الفكى المنا اسماعيل وخربت قرية أمحف خرابا تاما . وبعد شهرين من واقعة الشلالى تحرك الجيش من قدير قاصداً الأبيض وقيل إن إلياس باشا إمبرير فى الأبيض تواطأ معه واستدعاه لفتحها . وكانت الأمطار تنزل مدراراً فاضطر للبقاء نحو الشهر فى جبال الكواليب . وعندما غادرها ترك الأسلحة النارية التى غنمها من الوقائع الثلاث ، لأن الأنصار يعوّلون على الرمح والسيف ، وقد تمت انتصاراتهم إلى الآن بها ، ونزل بمنهل كابا على بعدستة أميال إلى الجنوب الغربى من الأبيض وبعث برسولين لحامية الأبيض وأعيانها وتجارها يطلب إليهم التسليم فرفضوا بل حكموا على الرسولين بالإعدام لاستخفافهما بالحكومة .

خرج مَنْ والى المهدى سيراً إلى معسكر كابا وعلى رأسهم إلياس باشا امبرير وحاج خالد العرابى ومحمد باشا إمام وجورج اصطمبوليه وكثيرون غيرهم . ومن البارزين الذين أخلصوا للحكومة وظلّوا على ولائهم لها إلى آخر نسمة من حياتهم أحمد بك دفع الله منافس إلياس باشا وخصمه . وقد صمّمت الأبيض على المقاومة فحُفِر خندق خارجى على كل المدينة وعُزّز بخندق داخلى يلتجئُ إليه الجند إذا ما صعب عليهم الاحتفاظ بالخارجى . وعدد الجند يبلغ الستة آلاف من نظامية وباشبوزق ، وقائد الحامية محمد سعيد باشا حكمدار غرب السودان يعاونه على بك شريف مدير كردفان واسكندر بك قائمقام العساكر.

الهجمة الأولى.

عيل صبر أصحاب المهدى وألحوا عليه بأن يأذن لهم فى الهجوم فهم إن لم يظفروا بالنصر ظفروا بالشهادة فى سبيل الله ، وهم أيضاً تخوّفوا من أن تدخل جنود الفكى المنّا المرابطة فى الشمال وتفوز بالنصر والغنائم قبلهم . ويقال إنه لم يأذن لهم ومع ذلك اتجهت جموعهم تظللهم سحب التراب الذى أثارته حوافز

خيولهم ويسمح لصوت أرجلهم وأرجل خيلهم دوى كأمواج البحر الذى حركته ريح هوجاء . ودخلوا الاستحكام الخارجى واصطف الجند داخل الخندق الداخلى وفتحوا على الأنصار نيران المدافع والبنادق كالمطر وكل ما سقط فريق اقتحم فريق آخر غير مبالين بالموت ، بل أمنيتهم الفوز بالشهادة ، ومن الغريب أن ترى الأنصارى يحمل على المدفع أو على أفواه البنادق وهو لا يحمل غير عصى هى سلاحه الوحيد .

استمر الأنصار يقذفون بأنفسهم منذ طلوع فجر ٨ سبتمبر ١٨٨٢ حتى بعد الظهر ، ويبلغ عددهم نحو الخمسين ألفاً ، على جنود الحامية وراء الخنادق والمتاريس وكان كلما دخل بعض الأنصار الاستحكام أجلتهم العساكر ، وإذا ما رأى الجند أن الأرض لا تصلح ميداناً لنيرانهم لاختلاطهم بالأنصار رقوا إلى سطوح المنازل وظلوا يرمون من فوقها ، يقابله عناد مثله من الأنصار إذ كانوا يجعلون من أنفسهم سلالم يرقى عليها بعضهم لإجلاء عدوهم من مراكزه . وانجلت المعركة بتقهقر الأنصار إلى منهلهم بعد أن تركوا ما يقارب العشرة آلاف قتيل من ضمنهم أخوا المهدى محمد وعبد الله بعد أن استشهد أخوه حامد فى قدير فى موقعة الشلالى ، وكذلك استشهد قاضيه أحمد ود جباره . وقد أبدت حامية الأبيض ثباتاً وشدة مراس دل على ما تستطيع شرذمة قليلة نسبياً أداءه إذا ما صدقت القتال وصحت وهى تلك الفئة من الجهادية السود الذين حينما سلم من بقى منهم بعد ذلك كانوا أداة فعالة فى القضاء على حملة هكس كما سنبينه فى حينه . قرر المهدى بعد أن ردته الحامية أن يحاصرها وكذلك أمر أنصاره بحصار حامية بارة ، وبعث بجلب الأسلحة النارية من الكواليب وقد رأى فتكها وفعلها . وإذا كان انتصار الأنصار على الأسلحة النارية فى مكان خال من الحصون فإن فوهة البندقية وراء متراس أو حصن لا تقاوم .

عرابى يعارض فى إرسال الجند إلى السودان

ذكرنا قبلا أن العرابيين استولوا على الحكومة المصرية وتألفت أخيراً نظارة برئاسة محمود سامى البارودى ، وعرابى نفسه كان ناظر الجهادية فيها ، وذكرنا أنهم يمانعون فى إرسال الجيش إلى السودان خوفاً على مراكزهم التى

يسندها الجيش ، فقد طلب عبد القادر باشا إمدادية للسودان بعد واقعة الشلالى وإن لم يتيسر إرسال الجند طلب خمسة آلاف بندقية رمنتون لعلمه أن النظارة قد لاتوافق على بعث الجند ، ورداً على ذلك الطلب أرسل عرابى بصفته ناظر الجهادية والبحرية الوثيقة التالية إلى المعية « وحيث إن الوقت لايساعد على إرسال عساكر من مصر للأقاليم السودانية بسبب أن الموجود والحالة هذه هو على قدر الضرورى لتوطيد الأمن الداخلى خصوصاً أن حكمدار السودان أورى أنه إذا كان غير متيسر إرسال عساكر الآن فيرسل إليه خمسة آلاف بندقية بالجبخانات الذاكر عنها فأفكارى فى ذلك صرف النظر عن إرسال عساكر ويكتفى بإرسال الأسلحة والجباخانة المطلوبة ، وهاهو جارى اللازم فى تجهيز وإرسال الأسلحة والجبخانة المذكورة فنومل عرض ما ذكر على الحضرة الفخمية الخديوية » :

ساعد انتصار حامية الأبيض على تهدئة الأحوال وأزال القلق الذى أحدثته إبادة تجريدة الشلالى نوعاً ما وخرج عبد القادر بنفسه إلى الجزيرة وأعاد هدوءها كما قدمنا واتجهت الأنظار إلى المشاكل الداخلية فى مصر وما جرته من أزمات دولية والكل يثق بحكمة ومقدرة عبد القادر باشا لمعالجة ما قد ينشأ من تطورات وأزمات فى الموقف السودانى .

الصورة تعود قاتمة

وبالرغم من الانتصار الذى نالته حامية الأبيض فإن الصورة سرعان ماعادت قاتمة عندما تشدد الحصار وأبيدت معظم الإمدادية التى أرسلت لنجدة حاميتى الأبيض وبارة بقيادة على بك لطفى وفيها قتل السيد أحمد الأزهرى وقد عين قاضياً لغرب السودان . وشرح عبد القادر باشا الموقف للحكومة ونوه لهم أن الثقة فى الحكومة قد تزعزعت وأن الجنود النظامية يحرسون المحطات العسكرية المختلفة فى أنحاء السودان معظمهم من السودانيين وهم لايُعتمد عليهم فى قتال زعيم دينى منهم ، والعساكر غير النظامية ضعيفة فى مقدرتها الحربية « وبناء عليه تراءى أنه بدون حضور قوة عسكرية كافية من المحروسة بأى طريقة كانت لايمكن الحصول على إعادة هذه الجهات إلى السكون بل يزداد التلف فالأمل الإسعاف بإرسال قوة أقله عشرة آلاف نفر لأنه إن تأخر حضورهم الآن منظورة أن الفتنة تعم كافة الجهات السودانية وفيما بعد يتعسر إطفاؤها بأضعاف

أضعاف هذا المقدار ولو كان تيسر وصول هذه النجدة كان مأمول إزالة المصاعب فى أقرب وقت ، لكن لسوء الحظ لم يتم المقصود فالرجا العرض على الأعتاب الكريمة».

تخرج الحالة فى الأبيض

وفى ديسمبر سنة ١٨٨٢ تمكن محمد سعيد باشا من مخاطبة عبد القادر وصوّر له جموع المهدى التى بلغت المائة ألف نفس وما معها من الأسلحة النارية التى غنمها ، وبين له صعوبة المقاومة ولاسيما أن العساكر قد اشتدت مضايقتهم من ناحية الأغذية فلم يتركوا حيواناً أوحبة من الغلال إلا استهلكوه واستهلكوها ، وشاركوا النمل فى مخازنه الأرضية وسطوا عليها ، ولاحقوا الفيران فى أجحارها وقبضوا عليها وما تركوا جلدا أو عرقاً لنبات ومع ذلك فقد ظن عبد القادر أن محمد سعيد يبالغ حيث قال « وهذا وأنه وإن كان المتراءى أن ما أوراه هذا الحكمدار فيه مبالغة لكنه على أى حال نرجو الإسعاف بسرعة إرسال المدد » . ومن هذا يتضح أن الحكمدار يرى فى وصف قائد حامية الأبيض للحالة وتحرجها مبالغة ، وكذلك ترى الحكومة فى مصر أن الحكمدار يبالغ فى سوء الحال عموماً وأن ما يطلبه من مدد لايرون أن الحالة العسكرية تستدعيه ، وهذه الظاهرة ساهمت فى خذلان جنود الحكومة وانتصار المهدى بنصيب كبير .

عبد القادر يطلب النزول

وصل عبد القادر فى أواخر سنة ١٨٨٢ إلى درجة اليأس فكتب فى ١٤ ديسمبر يطلب أن يعفى من الخدمة فى السودان ويقول « المنظور أن تكامل حضور العساكر اللازمة سيأخذ وقت طويل وبهذا السبب ستتسع الحركات الحاصلة بهذه الجهات وبما أن تلك الحركات لايمكن إطفاءها إلا بوجود العساكر الكفاية وفضلا عن ذلك فإن أهوية هذه الجهات قد أضرت بصحتنا فلهذا نسترحم من تعطفات الحضرة الفخيمة الخديوية تعيين من يقوم مقامنا والتصريح لنا بالتوجه للمحروسة فالمرجو عرضه على الأعتاب الكريمة أفندم ». ولكن الجناب العالى لم يوافق على إعفائه ويرد عليه « ونودّ أن يكون هذا الانتصار العظيم على يدكم لتحوزوا بذلك الفخر وتحظوا من لدنا بمزيد الالتفات والرعاية فالمأمول منكم الاستمرار فى مباشرة هذه الأشغال ومن هنا جارى الاهتمام الزائد فى تسهيل وإبعاث العساكر أول بأول » .

الإنجليز يحتلون مصر

ومنذ يوليو سنة ١٨٨٢ كما تعلم قد احتلت الجنود الإنجليزية مصر بعد أن انتصرت على قوات عرابى ودخلت المسألة السودانية فى طور جديد . ولو أن الحكومة الإنجليزية أظهرت عدم تدخلها فيما يجرى فى السودان ورأت فيها ثورة محلية لحكومة الخديوى أن تعالجها بما تراه ، إلا أنه من وجهة عسكرية ترى الحكومة الإنجليزية ألا بد من معرفة كنه الحركة ومدى تطورها واحتمالاتها وهل وصلت إلى درجة أن تكون خطراً على مصر نفسها ؟ وهنا لا يهملها الإنجليز لأنهم لابد وأن يدافعوا عن مصر .

بعثة ستيوارت إلى السودان

ولجأت السياسة الإنجليزية كما تفعل فى مثل هذه الحالات إلى بحث الحالة بواسطة لجنة أو مندوب خاص وتقديم تقرير عنها ، فانتدبت الكولونيل ستيوارت للذهاب إلى السودان وبحث حالته هناك . وعندما نزل بسواكن سأل عن القوات المعسكرة فى موانى البحر الأحمر وأجناسهم ومن عدد الأسلحة وأنواعها ونصح بأن يبعث الجنود السودانيين للخرطوم وأن يحل محلهم مصريون من المحروسة ، وفى بربر طلب من المدير بياناً بالقبائل وعددها وأسماء مشايخها ومقدار الأموال المربوطة عليهم وعدد السواقى وغير ذلك من شؤون المديرية . وأبرق حكمدار شرق السودان وكذلك مدير بربر إلى عبد القادر باشا بما طلبه ستيوارت وكان حضوره وأسئلته موضع دهشتهما . فبعث الحكمدار يستفهم عنه للمعية وماجب أن يتخذه إزاءه من موقف .

ورد الرد للحكمدار بأن المعلوم لدى الحكومة المصرية هو أن ستيورت وبصحبته مسادليه الذى كان مديراً لدارفور سابقاً ذهب للوقوف على حالة المهدى وأنها وإن لم تعرف الغرض من أسئلة الكولونيل إلا أنها ترى أن يمد الحكمدار ستيوارت بالمعلومات التى يطلبها ولا يأذن لغيره أن يتصل بالكولونيل ، وعلى الحكمدار أن يضع الضابط الإنجليزى تحت المراقبة بحيث لا يشعر بها وكذلك مرافقه مسادليه ويبعث بملاحظاته عنه سراً دون أن يلم بها أى مخلوق كان .

وأبرق عبد القادر بأولى رسائله عن حركات ستيوارت وقال « إنه يريد الوقوف على جميع أحوال هذه الجهات سواء كانت إدارية أو عسكرية أو مالية

أوجغرافية أوسياسية » ولم يقف ستيورت عند ذلك الحد بل نصح بطلب الأورط السودانية الموجودة فى سواحل البحر الأبيض وإحلال جنود المحروسة محلهم ..
واستمر عبد القادر فى ملاحظاته بقوله « ومن اختبار أحوال الموحى إليه تبين لنا أنه يريد إظهار سطوتهم بهذه الجهات وبناء عليه قد نصحناه بالمحسوس بتعريفه أن الحركات الحاصلة هى محركات دينية وأن ذلك يفتح للشقى بابا لتأييد مايوهم به على العربان ويوجههم للثبات على تصديقه واتباعه ولذلك عدل عن تلك الطريقة وأخذ يظهر اتفاق حكومته مع الحكومة الخديوية على إطفاء هذه الحركات وقد أبدى لنا غاية الممنونية عما رآه من الاهتمام يومئ بتعليم العساكر والضباط » .

واقترح ستيوارت حضور ضباط من الأوربيين لهم معرفة باللغة العربية. وسمّى له بعضهم فبعث الحكمدار فى طلبهم وقص الباشا أيضاً ما وقع من خلاف بين جقلر وستيورت كاد يؤدى إلى الضرب بسبب ما لاحظه الأخير على جقلر من نقص فى خططه الحربية التى قام بها أخيراً فى النيل الأبيض .

والظاهر أن تخوّف الحكومة المصرية من مأمورية ستيورت قد زال إذ وردت برقية للحكمدار تقول « إنه من التحريات التى جرت علم لدينا أن الكولونيل ستيورت مأموريته هى التجسس فقط عن مسألة المهدى وأحوال السودان ولا شيء خلاف ذلك كما أن مسادليه بك إنما هو رفيق سفرية فقط مع الكولونيل الموحى إليه وليس له مأموريته مطلقاً فلايكن لكم فكرة من أمرهما وإنما كلما طلبه الكولونيل من الإيضاحات يعطى له ويقتضى أن تجروا حرق التلغراف الذى أرسلناه لكم قبل هذا فى خصوص من تقدم ذكرهم » .

تعيين رئيس أركان حرب إنجليزى للسودان

وفى نفس الوقت الذى كان فيه ستيوارت يقترح تعيين ضباط أوروبيين فى الخرطوم تقرر فى القاهرة أن يعين رئيس أركان حرب إنجليزى لجيش السودان وهو فى طريقه إلى مصر وهو الذى يأخذ معه من الزملاء الإنجليز من يرى أخذهم معه .

استدعاء عبد القادر

وهنا تعترضنا مسألة فى غاية الغموض وهى استدعاء عبد القادر باشا .ومما

يزيدها غموضاً طريقة السرية التى اتبعت فى استدعائه فقد تركناه فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ يكتب بالسماح له بالنزول إلى المحروسة ويأتيه الرد من الجناب العالى بالبقاء ليتم النصر على يديه ومن ١٥ ديسمبر إلى ٢٣ منه تتصل مكاتباته بمصر بشأن بعثة ستيوارت وفى ٢١ ديسمبر أيضاً يُبرق للحكمدار بتعين رئيس أركان الحرب الإنجليزى وهو فى طريقه من إنجلترا . وتحفظ لنا المحفوظات فى سراى عابدين أوراقاً تتعلق بمأمورية أحمد حمدى بك يا ورجناب الخديوى لجهة الأقاليم السودانية وتنص التعليمات على أنه يغادر القاهرة فى ٢٤ ديسمبر بطريق السويس. وعندما يصل سواكن يسلم الأمر بتعيين علاء الدين باشا حكمداراً على السودان سرّا ولا يذيعه وعند وصوله الخرطوم يسلم الأمر العالى إلى عبد القادر باشا بإلغاء نظارة السودان وانفصاله عن حكمداريتها . فما الذى حدث ما بين ١٤ ديسمبر و٢٤ منه حتى تتغير الاتجاهات لدرجة أن الجناب العالى يرفض طلب عبد القادر باشا بالنزول إلى المحروسة ويريده أن يتم النصر على يديه ليصدر أوامر سرية بعد عشرة أيام فقط بل أقل بانفصاله عن الحكمدارية ؟ ستيوارت نفسه فى تقاريره ينحى باللائمة على الحكومة المصرية ويرى فى سحب عبد القادر باشا بعد انتصاراته فى الجزيرة سياسة خاطئة

تجرى هذه الأحداث فى السر والخفاء ، وعبد القادر لايعلم عنها شيئاً ، بل آخر اتصال رسمى من الخديوى يؤكد بقاءه فى منصبه ، وقام على هذا الأساس بنفسه لإخماد الفتن التى نشبت فى الجزيرة وظل يخمدها الواحدة تلو الأخرى والأوامر تأتيه من مصر ألا يشتت القوة التى بدأت تتجمع وتتوارد من المحروسة والأجدر به أن يجمعها لتسييرها على كردفان لفك حصار الأبيض أولا وللقاء قوات المهدى الرئيسية ثانياً . وبينما هو ينتقل من ظفر لآخر إذا بالأبيض تسلم بعد أن أضناها الحصار وسلمت الحامية جوعاً . ويكتم خبر فصل عبد القادر حتى بعد وصول حمدى بك وعلاء الدين باشا إلى الخرطوم لأن عبد القادر كان فى حملاته الموفقة فى الصعيد وإلى أن عرفوا أنه فى طريقه إلى الخرطوم وأنه

على بعد قريب منها أعلنت الأوامر الخديوية بتعيين علاء الدين باشا ، وقد تمت التعيينات الجديدة الأخرى وهى تقضى بأن يكون سليمان نيازى باشا قومنداناً للعساكر بالسودان ، وأن يكون الضابط الإنجليزى هكس باشا رئيساً لأركان حرب الجنود هناك .

وكانت آخر وثائق تبودلت بين عبد القادر باشا والجناب العالى هى ما كتبه الخديوى لعبد القادر حين وصوله الخرطوم وإعلانه بالاستدعاء « عرض لمسامعنا أخبارية وصولكم إلى الخرطوم بالسلامة تحصل لدينا الممنونية من ذلك واعلموا أننا متشكرون لإجراءاتكم والأعمال التى حصلت فى مقابلة الأشقياء وكبحهم بواسطة حسن همتكم وتدبيراتكم وقد صدر أمرنا فى تاريخه إلى علاء الدين باشا بما لزم عن تجهيز ما يلزم لرحيلكم بالوجه اللائق » .

فرد عبد القادر باشا « تشرفنا بورود الإرادة الصادرة لنا فى تاريخه وما أولانى إياه جناب ولى نعمتى أدام الله وجوده من الرضا على ما قمت به من بعض فروض الخدمة لجنابه العالى لا أراه إلا من فيض مراحمه السنية وشعورى بحسن التوجيهات العلية وإنى أفتخر بذلك بين الأقران وأرفع لله أكف الابتهال بدوام سموه محفوظاً بالنصر والإقبال ممتعاً بكرام الأنجال أفندم » .

وختمت مرحلة من مراحل الثورة المهدية بسقوط بارة والأبيض أولا وبنزول عبد القادر باشا ثانياً وافتتحت مرحلة جديدة تعاونت فيها انجلترا مع الحكومة المصرية إن لم يكن بجنودها فببعضهم وبسياستها وفوق ذلك فإن مصر بعد الاحتلال الإنجليزى أصبحت حكومة بلا جيش وما بقى من فلول الجيش العرابى بعث به للسودان ليتجمع هناك ويبدأ مرحلة النضال الجديد مع المهدى .

حملة هكس

انتصارات حكومية فى الجزيرة

تركنا فى الخرطوم علاء الدين باشا حكمداراً على السودان وسليمان نيازى باشا قومنداناً للعساكر وهكس باشا رئيساً لأركان الحرب وقد صدرت التعليمات لسليمان نيازى أن يعمل برأى هكس فى المسائل الفنية البحتة ولو أنه القائد. ورأى الجميع فى الخرطوم القضاء على الأنصار المتجمعين على ود برجوب قرب الجبلين قبل التقدم للمهدى فى كردفان وفيهم من زعماء الحركة أحمد المكاشفى وعامر المكاشفى وود الصليحابى. وذهبت قوة كبيرة وقابلت ود برجوب وبعد أن أبلى الأنصار بلاء حسناً امتنع عليهم اختراق مربع الجيش وفاز الكثير منهم بالشهادة ومن بينهم أحمد المكاشفى وانتصر الجيش انتصاراً ظن أنه فأل حسن لما هو مقدم عليه فى كردفان .

إشاعات تقلل من أهمية المهدى

وبالرغم من أن المهدى غنم كثيراً باستسلام الأبيض وبارة إلا أن الإشاعات انتشرت بانفضاض الناس من حوله وهبوط الروح المعنوى من بين أنصاره وكان الأثر العام لهذه الإشاعات هو التقليل من أهميته عندما تنقل بالتلغراف لمصر وكان لابد وأن تجعل الحكومة المصرية متفائلة بأن القوة التى أرسلتها سوف تقضى القضاء النهائى على جيوش المهدية .

هكس يختلف مع نيازى

لم يستطع سليمان نيازى العمل باستشارة هكس أو لعله لم يدرك الوضع الجديد فى مصر بعد الاحتلال وهو أن المستشار الإنجليزى تجب طاعته فيما يشير به ، وسليمان من رجال المدرسة القديمة حيث تعود أن القائد هو الذى يأمر وكل من يليه من الضباط إنما هم أدوات تنفيذية . شكا هكس من عدم المعاونة التى يلقاها من القائد وهدد بالاستقالة ، فنقلت الحكومة المصرية — أو لعلها أمرت بذلك — سليمان إلى حكمدارية سواحل البحر الأحمر وكان المظنون أن تعهد القيادة لعلاء الدين على أن ينصاع أكثر مما كان يفعل سليمان ، لأن الحكومة المصرية لاتزال على نظرية أن الحركة دينية ووجود مسيحى على رأس الحملة مما

يقوى عزائم الأنصار وينشر دعاية المهدى . إلا أن عدم المعاونة التى أبداها سليمان قد يبديها علاء الدين وأنه فيما إذا اختلف الاثنان وترك هكس الجيش لعلاء الدين فلايستطيع هذا قيادته لأنه ترك الخدمة العسكرية منذ أمد بعيد . وروئى أيضاً أن الأمور السياسية والإدارية وحدها قد تستنفذ وقت علاء الدين كله والذا وصلت الحكومة المصرية إلى نتائج منطقها المحتومة وهى ترك القيادة العسكرية لهكس باشا .

هكس لايقر الذهاب لكردفان

كان على علاء الدين تجهيز المؤن ودواب النقل وكان المصدر الكبير لجمال الحملة قبيلة الكبابيش ولكنهم الآن فى منطقة نفوذ المهدى ، فخف علاء الدين بنفسه للشرق لجمع الجمال من قبيلة الشكرية ، وبعث بمندوبين آخرين لجمعها من بربر ودنقلا وسنار ، وتجمع بذلك ما ينوف على الخمسة آلاف بعير . وقبل علاء الدين بمأمورية جمع الجمال بالشرق حدثت مناقشة بينه وبين هكس أظهر فيها هكس مخاوفه بأن القوة التى لديه ليست بالكافية للقضاء على المهدى وأنه خابر لورد دوفرين بأن يمده بقوة أخرى غير أن اللورد رأى التريث حتى ينصح للحكومة المصرية بترك كردفان ودارفور والمحافظة على الجزيرة وبذلك لاتحتاج القوة الموجودة إلى ترحيل بالجمال ، وإذاً لا ضرورة لمأمورية الحكمدار فى الشرق . غير أن علاء الدين رد بأنه يعمل على حسب التعليمات التى صدرت قبلا وتقضى بمهاجمة المهدى فى كردفان . ثم لاحظ هكس أيضاً أن المالية المصرية قد لاتستطيع الصرف على حملات كهذه كما عرف من السر أوكلند كلفن . ورغب هكس أن يذهب لمصر للمفاوضة بشأن الإمدادات والتقوية ، ولكن علاء الدين عارضه بأن ذلك يخلق مجالا للشائعات ويقوى دعاية المهدى . وأخيراً رضى هكس بأن يترك الحكمدار يمضى فى مأموريته ورضى هو بالبقاء فى الخرطوم .

هذا الملخص للمناقشة التى جرت بين من عهد إليهما أمر الحملة تظهر أن السياسة الإنجليزية والمصرية لم تكونا على وفاق فى أمرها ، وأن قائدها يرى أن قوته ليست بالكافية للغرض الذى ندبت من أجله ، وهذه عناصر ضعف فى الحملة قبل أن تتحرك . وبعد جلسات بين القواد اتفق رأيهم على أن تبدأ

الحملةسيرها من الدويم وأن ترابط قوات فى الخرطوم وسنار وعلى النيل الأبيض لكبح جماح من تحدثه نفسه بالثورة ، وكذلك تأسيس نقاط عسكرية إلى الغرب من الدويم كلما توغلت الحملة فى كردفان حتى تحمى ظهورها وتتراجع إليها إذا ما أحست بضغط يلزمها التقهقر ، ولتحفظ اتصالها بالخرطوم وتحركت على هذه الخطة قوات هكس إلى الدويم نقطة التجمع الرئيسية .

سير الحملة من الدويم

رافق علاء الدين الحملة للشوون السياسية والإدارية وكان من بديهيات الأمور لديهم أن الأهالى فى الطريق يهرعون إلى الجيش ويقدمون له المساعدة الكافية ولاسيما أنه جيش ينوف على العشرة آلاف ، وأن قوته كفيلة بأن ترد طمأنينة الأهالى وتجعلهم يتعاونون مع النقاط العسكرية التى تؤسس فى الطريق ويمدّونها بما هى فى حاجة إليه من أغذية ، ولكنهم ما تقدموا مرحلة واحدة حتى تلاشت آمالهم ، فالسكان هجروا قراهم وتركوها خالية ، وما أقبل عليهم ولا شيخ واحد ليدلهم أو يعاونهم ، واختل نظام السير فى جيش عظيم كهذا مع عدد كبير من الحيوانات ، وكان هذا الاختلال مدعاة للاحتكاك ما بين هكس ومعاونيه الكبار فى الجيش المصرى كحسين مظهر باشا ، وسرت روح تواكل فى الجيش أوقعت الارتباك فى صفوفه حتى لقى حتفه .

اتخذوا فى سيرهم الطريق الجنوبى الطويل لأنه وإن كان أطول إلا أنه يمرّ على مناهل المياه التى تكفيهم ، وخاصة الخور الكبير المسمى بالنيل . ومن الدويم قبل المسير كتب هكس وعلاء الدين إلى العربان فى الطريق وإلى الملك آدم ملك جبال تقلى وإلى إلياس باشا امبرير . وهذا يدل على أن الحقائق كانت محجوبة عنهم فالملك آدم هو الذى سهل للمهدى المرور بداره إلى قدير وكان يخبره بما يسمعه من جهة الحكومة ، وإلياس باشا هو الذى نشر الدعاية له فى حامية الأبيض ، وكان على رأس من خرجوا منها إلى المهدى فى كابا .

تقدموا ثلاث مراحل ولم تقابلهم إلا قرى مهجورة وكلما سمع السكان بمسيرهم ارتحلوا يميناً أو شمالا عن طريق الجيش . فعقد القائد مجلساً عسكرياً للنظر فى مسألة المحطات العسكرية التى كان مقرراً إقامتها فى الطريق . ولو أن

الظروف الحربية تحتم إنشاء مثل هذه الحاميات الصغيرة فى طريق المواصلات أو نقط ارتكاز عند التقهقر ، إلا أن عدم معاونة السكان ومظهرهم العدائى وهجران القرى ، جعلهم يعدلون فى خططهم بأن يتقدم الجيش بكامله ، وألا يترك حاميات فى الطريق ، لأنها مهما قويت فالأنصار لابد أن يتفوقوا عددياً ، وفوق ذلك فالجند الذين يحمون تلك الأماكن المنعزلة يضعفون قوة الجيش الرئيسى وبعد أن انعقد المجلس العسكرى بحضور هكس وعلاء الدين وكل الضباط العظام من رتب القائمقام والأميرالاى واللواء اقتنعت أغلبيتهم بمسير الجيش دون أن يترك محطات عسكرية فى الطريق .

عوامل معاكسة

تعمق هذا الجيش وعدده بالأتباع يزيد على الاثنى عشر ألفاً فى تلال كردفان ، وانقطعت صلته بالنيل ودخل فى مغامرة حربية عرف التاريخ القليل من أمثالها : جيش يكون من فلول جنود وصموا بالثورة وزعماؤهم فى سجون القاهرة رهن المحاكمة ، ينقلون بحالة سيئة إلى السويس ثم يلقون فى البواخر وبعضهم مقيدة أرجلهم ، وعلى رأسهم جندى غريب عنهم يجهل طباعهم وأخلاقهم ، وفوق ذلك يخالفهم فى الدين والعقيدة ، ومهمته القضاء على ثورة تمتد جذورها فى أرض الدين لا السياسة ، والأمة التى تهيمن على مصير الأمة المصرية والتى فتحت البلاد بعد أن أخمدت الثورة تتنصل من المسئولية وتصرح بلسان المسئولين من ساستها أن ذلك القائد قبل قيادة الحملة على مسئوليته ، وأن سياستها عدم التدخل بين الحاكم وشعبه الذى جاهر بالثورة والعصيان ؛ والجميع يدخلون فى إقليم لم يألفوا طقسه ومياهه ولم يتدربوا على القتال ضد طبيعته ومحاربيه ؛ هذا الجيش كما وصفناه فى عدته ومعنوياته توغل فى أرض عدوه منذ أن فارق النيل .

اختلافات بين القواد

دب الخلاف بين الرءوس منذ البداية ؛ فتارة على وقت المسير وارتياد المناهل وطوراً على الطريق وطول المرحلة وطوراً على من المسئول عن تحركات الجيش وإعطاء الأوامر ، أهو الجنرال هكس ؟ أم الضابط السياسى علاء الدين باشا ؟ أم أكبر الضباط الوطنيين حسين مظهر باشا ؟ أم رئيس أركان الحرب فركار ؟

ومشاكل المياه تتجدد يومياً . هل الآبار تكفى لسقاية الجيش أم لابد من البرك ؟ وهل يتحرك الجيش بكامله أم لابد من فرقة استكشافية ؟ كل ذلك والأنصار يظهرون أفراداً وجماعات يطلقون بعض الأعيرة النارية ثم يختفون ، والسكان يتنحون عن الطريق ويحملون ما أمكنهم حمله من القرية ، وما بقى يتركونه أكواماً من الرماد، ولم يلقهم ولا وطنى واحد يحمل رسالة للخرطوم أو يرضى أن يكون حلقة اتصال بين مواطنهم والنيل ولو رضى واحد بذلك ربما يتجه للمهدى بالرسالة بدلا من الخرطوم ، وقد هرب جندى ادعى أنه كان فى معسكر المهدى أسيراً فى المراحل الأولى من الحملة بعد أن تسلح ببندقية وامتطى جملا سريعاً ولحق بالمهدى ، وبالطبع نقل إليه ما عرف وما خبر عن أحوال الحملة. كلما ازدادوا إيغالا إلى الغرب زادت المشاكل وتفاقمت الخلافات وانحطت الروح المعنوية وازدادت شدة المقاومة ، فبعد أن كان الأنصار يظهرون فى جماعات صغيرة حضرت الآن قوات من قبل المهدى تحت قيادة الأميرين عمر إلياس باشا والحاج محمد أبو قرجة وكانت مهمتهما تنحصر فى الإزعاج والمناوشة لا الملاقاة والمقاومة .

خطابات الزعماء

وعندما وصلوا مناهل المياه الغزيرة الواقعة على خور النيل حررت الخطابات إلى زعماء القبائل منبئة إياهم بوصول التجريدة لخلاصهم ، ومهرت من علاء الدين وهكس . ومنذ أن فارق الرجال الذين يحملونها المعسكر لم يعرف مدى تأثيرها بل هناك شك فى وصولها إلى من كتبت إليهم ، وحتى لو استلموها فقد مضى أوانها ، وهاهو مهدى الله قد ظهرت آياته وسمت مكانته إلى درجة ما تركت وطنياً فى سهول كردفان يقبل على جيش يقوده نصرانى ويترك نور الهداية المنبعث من جبين المهدى .

دعاية المنشورات

وماكان للمهدى أن ينازل خصمه فى حلبة الوغى قبل أن يوجه إليه الإنذار الأخير ، وهذا يجب أن يصل إلى كل جندى فى التجريدة لا أن يصل إلى القادة الذين لابد وأن يحاولوا إخفاءه حتى لا ينحل الجيش وتخور قواه ، فأملى على الكاتبين المنشور التالى[1] « من الفقير المعتصم بمولاه محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى

(١) دفتر نمرة ٦ وارد تلغرافات سنة ١٨٨٤ عابدين .

من يسمع من أهل الجردة ممن له عقل . فإنه لايخفى على كل ذى عقل أن الأمر بيد الله ولايشركه فى ذلك بنادق ولامدافع ولاسواريخ ولاعصمة لأحد إلا لمن عصمه الله فإذا فهمتم ذلك فاعلموا أن الله واحد ولاتغترون بأسلحتكم ولا بجموعكم التى تريدون أن تقاتلوا بها جنود الله فإنه لاقوة لشىء دون الله . وإن قلتم إن مهديتنا مكذوبة فاعلموا أن التكذيب إنما يصدر ممن يحب الدنيا ويخاف من المخلوق ويستعجز قدرة الله . فإذا فهمتم ذلك فلا يغرنكم أقوال علمائكم فإن الترك الذين قتلتهم شكوا للحق عز وجل وقالوا يا إلهنا ومولانا المهدى قتلنا من غير إنذار فأقول أنذرتهم يا رب وحضر على ذلك شاهد سيد الوجود صلى الله عليه وسلم وقال لهم الإمام المهدى أنذركم فلم تسمعوا له وسمعتم أقوال علمائكم فذنبكم عليكم ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون فقال الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين فإن كان لكم نور تؤمنون بالله ورسوله وتصدقون بمهديتنا وتخرجون إلينا مسلمين ومن سلم يسلم وإن أبيتم إلا الجحود والاعتداد بالمدافع والبارود فإنكم مقتولون كما أخبر سيد الوجود وأسوتكم ماسبقكم من الجنود والسلام » . كتبت نحو السبعة آلاف نسخة من ذلك الإنذار حسب رواية أحد الذين كانوا يكتبونها وحملها الخيالة ووضعوها فى طريق التجريدة على فروع الأشجار ، وقد نجح بعض الجند فى التقاطها وما إن علم هكس وأركان حربه بها حتى جمعوها فحرقت .

المرحلة الاخيرة

اقترب الجيش من نهايته المحتومة بعد سريان الملل والسأم فى نفوس الجند واعتراهم يأس غريب قبل الالتحام فى المعركة الفاصلة ، ونفوس القواد لا زالت متنافرة ، وأخبار المهدى وعدده وعُدده فى طى الغيب ، ثم إنهم تشككوا فى نيات الأدلاء وقسوا فى معاملتهم معهم حتى إن بعضهم وضع فى الحديد ، وكذلك حامت الشكوك حول عبد الرحمن بك بانقا المرافق للحملة ، وهذا ما دعا أحد الأدلاء إلى الهرب والالتجاء بالمهدى . وكانت الخطة المرسومة أن يصلوا إلى كازقيل ثم منها المرحلة الأخيرة إلى الأبيض .

المعركة الفاصلة

تركنا المهدى فى الأبيض يبعث ببعض أنصاره عندما سمع بتحرك الجيش من الدويم للمناوشة وأصبحت أخباره تصل إلى الأبيض يومياً عن عدد الجيش والحيوانات وهجر القرى وابتعاد السكان عن الطريق. ثم كان ما كان من إنذاره النهائى الذى وجهه للجنود ، وأخيراً صمم على ملاقاته خارج الأبيض فأمر بالرحيل وخرج الأنصار مشاتهم وخيالتهم ؛ فنهم الجهادية الذين يحذقون استعمال الأسلحة النارية ، ومنهم فرسان أهل الغرب دُربوا على أعمال الفروسية وامتطاء صهوات الجياد واستخدام الرماح ، ومنهم حملة السيوف ، ومنهم من لم يركب مهراً أو يحمل بندقية أو سيفاً بل العصا أو الفأس ولكنه يريد أن يشارك إخوانه الأنصار فى الذب عن حياض الدين والقتال فى سبيل الله ، ويربط الجميع إيمان عميق بما يعتقدون وإن فاتهم نشوة الظفر بعد المعركة فلن تفوتهم الشهادة فى سبيل الله .

خرج الجيش يتعثر فى مسيره فى وسط أرض مشجرة يقصد كازقيل . فبعث المهدى بالجهادية تحت قيادة حمدان أبى عنجة ، وقد أردفهم الفرسان على خيلهم وأنزلوهم وسط الأشجار على جانبى الطريق الذى يسير فيه الجيش . وهم فى مخبأهم وسط الأشجار ظلوا يصوبون نيرانهم على الجيش يوماً وليلة ؛ فاختل نظامه وارتبك وصار للرصاص يردى الضباط والجنود والحيوانات على السواء ، ولا سبيل إلى رد عادية نيران الأنصار إلا بالرصاص والمدافع ، ولكنها قليلة الإصابة إذ الجهادية يتخذون من جذوع الأشجار وظلمه الغابة ساتراً يقيهم رصاص الجيش . وبعد أن نال أصحاب الأسلحة النارية من التجريدة ما نالوا من الأنفس واختلال النظام ، صدرت الإشارة من المهدى بالهجوم العام . وهنا قام الفرسان والمشاة ويبلغون الآلاف العديدة ، واخترقوا المربع وأبادوه عن بكرة أبيه ، غير مئات من الجرحى والأسرى الذين اختبأوا وسط الجثث . وانتهت تجريدة هكس التى حوت آخر عدد عظيم من جيش نظامى ، وبذا كانت موقعة حاسمة بين قوة الخديوى وقوة المهدية .

سياسة الإخلاء والانسحاب

حالة المهدى المعنوية بعد الانتصار

أبيد الجيش فى غابة شيكان يوم ٤ أوه نوفمبر ١٨٨٣ ورجع أنصار المهدى بأسلاب وغنائم أعظم قوة من حيث العدد والعدة قاتلتهم إلى الآن . ولنترك المهدى وأنصاره فى الأبيض يستقبلون الوفود الجديدة التى آمنت بعد أن كانت فى شك. وقد خلصت كردفان بأكملها للمهدى وانقطعت حاميات دارفور عن أى مدد يصلها من الخرطوم ، وازدحمت الطرق المودية إلى الأبيض بمن يريدون البيعة والانتساب لسلك المهدية . وكان المهدى وانتصاراته المتوالية على كل لسان ، وتغنت النسوة وهن فى عملهن من طحن وعوس واحتطاب بمناقب المهدى وذهب القواد العظام لإشعال النيران فى الأماكن التى ما سرت فيها روح المهدية بعد . ولم تصل الأخبار فى حينها إلى مقر الحكمدارية فى الخرطوم ، وإن هى وصلت فتناقضة فبعضها ينبئ بإبادة التجريدة وبعضها يتحدث عن تصادم كان النصر فيه حايف هكس .

اقتراحات الخرطوم

وأول خبر يوثق به أتى إلى الحكمدارية من الدويم وتاريخه ١٩ نوفمبر وأبرق به وكيل الحكمدارية فى ٢٠ منه وختم الوكيل برقيته بما يأتى « وحيث أنه بهذه الحالة قد صارت الخرطوم وخلافها فى حالة خطر كلى لعدم وجود عساكر كفاية حتى للمحافظة كما سبق العرض عنه ذلك فلزم عرضه للإسعاف بصدور الأمر بما يوافق أفندم » .

وفى ٢١ نوفمبر أبرق حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية أيضاً بتفاصيل الخبر من أسير فر بصفة أنصارى بعد أن حضر المعركة وأشار بالاتفاق مع إبراهيم حيدر باشا قومندان ٣ جى لواء والكولونيل كوتلجن أن الأوفق هو انسحاب العساكر من نقاط النيل الأبيض كشات والدويم والكوة وولد الزاكى وجمعها فى الخرطوم حتى تأتى النجدات من المحروسة وإذا لم يتم حضور النجدة تنسحب حامية الخرطوم إلى بربر

وتلقى رداً على برقيته بيوم ٢٢ نوفمبر بما يلى : «[1]عرض لمسامعنا ما فى التلغراف المؤرخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٨٣ المختص بما ترآى موافقته من جهة العساكر الموجودة فى النقطر بما أنه يرى الحاضر ما لايرى الغائب وجل المقصود دائماً التحفظ بالطرق والتدابير التى يرى ضرورة لزوم اتخاذها وقد تورّى بأنه باتحادكم فى المذاكرة فى هذا الشأن ما وجدت طريقة أوفق من انسحاب عساكر نقطة شات والدويم والكوة وولد الزاكى وحضورهم والحالة هذه إلى الخرطوم واتخاذ طريقة للتحفظ فعلى حسبما رأيتموه يصير الإجراء . أما ما يلزم إجراءه بعد تاريخه فهذه يلزم العرض عنه لطرفنا أوّل بأوّل » .

فالحالة إذا دخلت فى طور من الخطر بإبادة حملة هكس لم تدخل فى حسبان ما ولاة الأمر وقد انتشر الذعر والرعب فى الخرطوم إلى درجة أن حسين سرى باشا وكيل الحكمدارية وإبراهيم حيدر باشا قومندان الآلاى الثالث كلاهما طلب النزول إلى مصر متعللين بالمرض .

هوايت هول وقصر الدوبارة

والآن لننتقل من الأبيض والخرطوم والقاهرة إلى هوايت هول وداوننج ستريت وقصر الدبارة ونرى كيف كانت استجابة السياسة الإنجليزية لهذا الاندحار. وهى باحتلالها لمصر أصبحت مسئولة نوعاً ما عما يجرى مهما تنصلت ومهما ادّعت أنها ثورات داخلية . وإذا لم تهتم بالحالة فى السودان قبل شيكان فقد أصبح الخطر يقترب من مصر نفسها الآن . وإذا هى احتلت مصر لتعيد الأمن إلى ربوعه ولتثبيت سلطة الخديوى فأحرى بها أن تتخذ من الإجراءات ما يمكنها من الدفاع عن مصر إذا امتدت نيران الثورة إليها أو اقترب الأنصار من الحدود .

تصريحات لندن بعدم التدخل

التصريحات التى فاه بها الساسة الإنجليز عندما يتحدثون عن ثورة السودان قبل شيكان تؤيد كلها عدم التدخل وتدعى أنها من شؤون مصر الداخلية ، ولكنهم لا يخفون آراءهم بصدد مقدرة مصر على إخمادها ويشيرون إلى إخلاء بعض أجزاء السودان حتى تتفرغ القوة المصرية للدفاع عن جزء محدود تستطيع الاحتفاظ به والدفاع عنه دون مساعدة خارجية فاللورد دوفرن أشار باخلاء دارفور وجزء من

(١) صادر تلغرافات ٣ صحيفة ١٠٤ عابدين .

كردفان واللفتننت كولونيل ستيوارت نصح فى تقريره بالانسحاب من السودان الغربى . وهذا يتسق مع منطق حكومة جلادستون التى رأت أنها أرغمت على احتلال مصر وأنها تفكر فى الانسحاب عندما تعود المياه إلى مجاريها . فبديهى ألا تفكر حكومة هذه سياستها التى صرحت بها أن تضيف على أعبائها عبئاً جديداً هو إخماد ثورة السودان . ولكن مثلما كذبت الظروف التى تلت الاحتلال تصريحات جلادستون كذلك ألجأته وحكومته إلى التدخل فى شؤون السودان بالتدريج .

أول التدخل البريطانى

بدأت الرجل البريطانية تتزحلق نحو مشكلة السودان فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٣ عندما أبرق السر إفلن بيرنج لحكومة جلالة الملكة ووصف لها بلبلة الأفكار واضطرابا لأحوال عن حملة هكس ، لأنه لم تصل أخبار أكيدة عنها منذ خمسة أسابيع ، ويرى أنها إذا أبيدت سوف تفقد مصر السودان إذا تركت وشأنها دون مساعدة خارجية ، ويرى أيضاً ألا يستخدم الجيش المصرى الجديد فى إخماد الثورة فى السودان بل يترك للدفاع عن مصر . إزاء هذه الحالة يطلب بيرنج ما يشير به إلى الحكومة المصرية إن هى طلبت مساعدة الجنود البريطانية أو الهندية أو التركية وختم برقيته بأنه يرى أن تمد إنجلترا مصر بضباط فى التقاعد ووصل الرد فى اليوم التالى بما يلى « لانستطيع المعونة بجنود إنجليزية أوهندية . لاتشجع تطوع الضباط الإنجليز ، ليس من مصلحة مصر طلب المعونة بواسطة جنود تركية فى السودان . إذا طلب منك أن تبدى رأيك أشر بإخلاء السودان إلى حدود معلومة » .

هجرت السياسة الإنجليزية نظرية عدم التدخل وبدأت تكون رأياً إن لم يكن واضحاً فهو يدل على اتجاهها على الأقل . وفى يوم ٢٢ نوفمبر نقل بيرنج لحكومته أنباء إبادة حملة هكس ونوه على أن مصر قد تطلب معونة الدولة ذات السيادة وهى تركيا ويرى أن يعضد هذا الطلب . وفى الحال ردت وزارة الخارجية بأن لامانع أن يستخدم الخديوى جنوداً تركية فى السودان ، ويستفهمون عما إذا كانت مصر نفسها تتعرض للخطر ، وإذا كان الأمر كذلك فما هى

الإجراءات التي يجب اتخاذها ؟ وقد كانت النتيجة الحتمية للخطر الذى تتعرض له مصر فيما إذا سقطت الخرطوم مدعاة لأن تبقى الجنود الإنجليزية فى القاهرة، بعد أن كانت مفاوضات ترحيلها إلى الإسكندرية قد قطعت شوطاً كبيراً : وأشار بيرنج والخبراء الإنجليز العسكريون فى مصر إلى أن مصر بمفردها ليس فى مكنتها الاحتفاظ بالسودان ، ويرون الثبات فى الخرطوم حتى تتراجع الحاميات التى تقع جنوبها وبعدئذ يتم التراجع التدريجى حتى حدود مصر .

كيف اختير غوردون للسودان

عندما كانت الاقتراحات والآراء تنقلها أسلاك البرق فى المحيط الرسمى بدأت تطورات فى الرأى العام الإنجليزى قادت فى نهايتها إلى اختيار غوردون للقيام بمهمة الإخلاء . ففى اليوم الذى ظهرت فيه أخبار هكس وإبادة حملته كتب ضابط من سلاح المهندسين الملكى فى لندن إلى رئيسه يقترح فيه إبعاث غوردون لإخماد ثورة المهدى إذ علم فيه الجرىء الذى يرتفع فى مثل هذه المناسبات وربما ينجح فى تلك المهمة مثلما نجح فى الصين . فبعث الرئيس بهذا الاقتراح إلى صديق له فى وزارة جلادستون هو وزير العدلية ونقله هذا بدوره إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية .

استشار الوزير رئيسه جلادستون ووافق هذا الأخير وعندئذ طيّرت البرقية الآتية إلى قصر الدوبارة فى ١ ديسمبر سنة ١٨٨٣ « إذا وافق الجنرال غوردون على الذهاب إلى مصر فهل فى إمكانه تقديم خدمة لك أو للحكومة المصرية ، وإذا كان ذلك فى الإمكان فما نوع العمل الذى يقوم به ؟ » .

لم تسجل حوادث السودان برقية أشد غموضاً من هذه . فأساس الاقتراح أن يذهب غوردون ليقاتل المهدى ، ويرى صاحب الاقتراح أن غوردون هو الرجل الذى يستطيع إخماد ثورة كهذه ، وجرانفيل مع علمه أن الحكومة الإنجليزية نصحت بالانسحاب من السودان إلى حدود معلومة يطلب من بيرنج ببرقية مبهمة كهذه أن يقطع برأى فى نوع الخدمة التى يقوم بها غوردون . وفوق ذلك فغوردون وبيرنج يختلفان فى المزاج والسياسة ، وقد يجزم من خبر الرجلين أن الانسجام المطلوب فى القيام بأمر خطير وغامض كهذا لا يوجد

بينهما ولكنها سياسة جلادستون المضطربة وأوامر ونصائح جرانفيل الغامضة :

الحكومة المصرية لا تريد خدمات غوردون

لم يكن بيرنج بحاجة إلى معونة غوردون وكان عليه أن يعرض خدماته على شريف باشا رئيس مجلس النظار المصرى. وعقب المقابلة أبرق بالرد التالى فى ٢ ديسمبر « لاترغب الحكومة المصرية فى استخدام غوردون لسبب واحد رئيسى وهو أن الحركة القائمة فى السودان دينية وتخشى إن هى أقدمت على تعيين مسيحى فى مركز كبير قد تباعد ما بينها وبين القبائل التى لاتزال على ولائها . وأرى من الحكمة أن تترك مسألة السودان بأكملها لهم وألا تضغط عليهم فى هذا الموضوع » .

ويتبين من هذا أن بيرنج حتى ذلك الوقت ينصح ويعتقد فى سياسة عدم التدخل وتأييداً لرأيه كتب رسالة طويلة فى اليوم التالى أكد فيها وجوب استمساك حكومة الملكة بسياسة الامتناع عن التدخل فى شؤون السودان . وحتى اليوم التاسع من ديسمبر كان بيرنج لايزال مصراً على هذا الرأى، وهذا بصدد تعيين الزبير لقيادة حملة مكونة من ستة آلاف من السود إلى السودان الشرقى . فعندما خاضت الجرائد الإنجليزية فى موضوع قيادة الزبير للحملة وأبدت اعتراضها على هذا التعيين كتب بيرنج يقول « إذا كانت حكومة جلالة الملكة ألقت عبء المسؤولية على الحكومة المصرية فليس من العدل أن تعترض » .

بيرنج يقف صريحا فى جانب التدخل

ظل بيرنج ينادى بعدم التدخل إلى اليوم التاسع من ديسمبر ولكنا نراه انقلب فجأة فى اليوم العاشر وبعث برقية هذا نصها «لقد وضح لى الآن ضرورة تعليمات واضحة فى أقرب فرصة بما يجب أن ننصح به للحكومة المصرية . وهم الآن ينقادون للتيارات والحوادث دون خطة معينة وسيظلون كذلك إلى أن يوجهوا نحو هدف معين» وهذا التغيير فيما بين ليلة وضحاها يدعونا للتساؤل عن منشئه ، وقد تكون نشر أخبار الكارثة التى أصابت الجنود المصرية فى تلال البحر الأحمر وهددت سلامة ميناء سواكن السبب المباشر الذى حدا بالمعتمد البريطانى القذف بسياسة الامتناع جانباً وطلب التعليمات الصريحة الواضحة التى تجعل لانجلترا الكلمة الأولى فى الأمر . وهكذا انحاز بيرنج لسياسة الواقع بعد أن

اقتنعت بها الحكومة البريطانية قبله . ومنذ ذلك اليوم دخلت المسألة السودانية فى طور جدّى بعد فترة التأرجح والغموض .

الحكومة المصرية تقترح طلب المعونة التركية

وبعد يومين (١٢ ديسمبر) اجتمع شريف باشا بالمعتمد وقص عليه ما وصل إليه الاجتماع الخطير لمجلس النظار الذى عقد برئاسة الخديوى . ويتلخص فى أن الحكومة المصرية أقرّت بعجزها عن معالجة المسألة بنفسها وأنها لاترى من الحكمة استخدام جنود انجليزية أوهندية وربما تساعد كوسيلة للدعاية فى صالح المهدى لحركة دينية كهذه ، والأفضل الالتجاء لتركيا ويطلبون من إنجلترا الاتفاق مع الباب العالى على « نوع ومدى المعونة التى تقدمها » وبالاختصار فقد تركت مقابلة شريف باشا فى ذهن بيرنج أن الحكومة المصرية وضعت نفسها تحت تصرف حكومة جلالة الملكة فيما يختص بتنظيم معونة تركيا .

وبالرغم من اشتغال الوزارة الإنجليزية بموضوعات داخلية تعرضت فيها لأزمات وزارية وصل الرد منها فى اليوم التالى (١٣ ديسمبر) يؤكد أن حكومة جلالة الملكة لا ترغب فى استخدام جنود إنجليزية أو هندية فى السودان ولا مانع لديها أن تستخدم الجنود التركية بشرط أن تقع أعباؤها المالية على كاهل خزينة الدولة العثمانية ، وأن تجعل سواكن مركز حركاتها الحربية ، ولا توافق حكومة جلالة الملكة مطلقاً على تجريدة تثقل كاهل الميزانية المصرية الكليل ، وفى النهاية ينصحون بأن تنسحب الحاميات المصرية إلى أسوان أو إلى حلفا على الأقل . فتلك الاشتراطات التى رأت فرضها إنجلترا تجعل معونة تركيا أمراً غير متوقع الحصول ولذا نصحت بالانسحاب .

زال الغموض وأبدت السياسة الإنجليزية نصيحتها فى لهجة تنم على الأمر لا إسداء النصح فقط ، ولكن فاتت الناصحين العقبات التى يصادفها تنفيذ هذه السياسة ، وهذه وضحها بيرنج فى مذكرة تفصيلية وصلت عن طريق البريد بعد أن تناقلت أسلاك البرق السياسة الجديدة . وما إن تلقى المعتمد الرسالة البرقية حتى نقلها إلى شريف باشا ورأى هذا أن يرد عليها بمذكرة وافية وقد فعل ذلك فى يوم ٢٢ ديسمبر .

شريف يصر على الاحتفاظ بالسودان

تناولت مذكرة شريف حق التنازل القانونى وقال بأنه ليس من حق الخديوى أن يتخلى عن جزء من ممتلكاته بموجب فرمان تعيينه ، ورأى أن إخلاء شرق السودان ودنقلا يجعل مهمة الدفاع عن مصر شاقة ، وفى نظره أنه بمعونة عشرة آلاف جندى تركى فى الاستطاعة فتح الطريق ما بين سواكن وبربر ، ولا يظن أن تركيا ترفض هذه المساعدة لأن مصر عاونتها قبل ذلك بثلاثين ألفاً فى حربها على روسيا ، وختم مذكرته بأن حكومته لا ترغب فى مهاجمة كردفان بل تود الاحتفاظ بالخرطوم وشرق السودان وحوض النيل .

وكتب بيرنج معلقاً على هذه المذكرة بأن أية مفاوضات مع تركيا سوف يكون نصيبها الفشل ، وأنه على حسب ماورد من الأخبار فالخرطوم حالتها ليست بالحرجة كما يبدو ، وقد تستطيع مصر الاحتفاظ بشمال الخرطوم لمدة من الزمن ، وفقدان ذلك الجزء من السودان الذى يقع ما بين حلفا والخرطوم يعد ضربة شديدة على نفوذ الخديوى وبالتالى يجعل أمر الدفاع عن مصر شاقاً صعباً وبوجه عام فقرار الحكومة المصرية يبدو أحسن الحلول لمثل هذا الأمر المعقد . فإذا ما أخذت الحكومة به فلا بد من بقاء الجيوش الإنجليزية لمدة تتراوح بين خمس وعشر سنين فى مصر لتمكن الحكومة المصرية من بناء قوة دفاعية لا بد أن تستنزف شيئاً من الميزانية المصرية ، ولكنها قليلة بالنسبة لما يتطلبه الاحتفاظ بالسودان جميعه وختم قائلا « ليست هناك وسيلة للإغراء تجعل الوزارة الحالية تقبل سياسة الإخلاء والطريقة الفعالة لتنفيذها هى مصارحة الخديوى بلزومها ، وإذا اعترض عليها الوزراء الحاليون فلا بد له من تعيين آخرين فى استطاعتهم تنفيذها ، والملاذ الأخير فيما إذا تعقدت الأمور هو تعيين وزراء إنجليز بصفة وقتية ، ولا بد فى النهاية من إيعاث ضابط إنجليزى برتبة كبيرة يمنح سلطات فوق العادة لسحب الحاميات فى السودان وتأسيس نظام حكومى يلائم الحالة هناك » .

بيرنج يوافق على إخلاء جزئى

مرت أيام ولم يتلق بيرنج رداً على مذكرة شريف باشا وتعليقه وفى هذه الأثناء توالى ورود الأخبار بتطور الموقف فى الخرطوم إلى درجة مزعجة ، حيث إن قلوب الموالين للحكومة اعتراها الرعب وظنوا أن حكومة مصر

تركتهم للأقدار تلعب بهم كما تشاء وإلا لسمعوا عن النجدات وسرعة إرسالها ، وأخيراً بعث بيرنج باستعجال وصف فيه صورة للحالة كما تبدو ، وتتركز فى عدم مقدرة الحكومة المصرية على عمل شيء ما إذا ما تركت وشأنها ، ولابد للحكومة الإنجليزية والحالة هذه من اتخاذ سياسة إيجابية فعالة فى إدارة مصر فيما إذا ألحت وصممت على نظرية الإخلاء ، وفى الثانى من يناير من السنة الجديدة (١٨٨٤) أبرق بيرنج إلى لندن باقتراح جديد قدمه شريف باشا يتركز فى إرجاع السودان الشرقى وشواطئ البحر الأحمر إلى تركيا إذا مارفض السلطان المعونة العسكرية وبذا يتسنى لمصر بمالها من جند الاحتفاظ بوادى النيل والخرطوم .

استقالة شريف

تحركت حكومة جلالة الملكة أخيراً للعمل وعقد مجلس الوزراء جلستين فى يومى ثلاثة وأربعة يناير وفى اليوم الأخير وصلت الحكومة إلى قرار نهائى قدمته لجلالة الملكة فوافقت عليه وأبرق لبيرنج فى نفس اليوم بأن الحكومة لاتزال مصرّة على إخلاء السودان بأكمله ، ولامانع لديهم من إرسال جنود عثمانية بشرط أن تقوم تركيا بنفقاتها ، ويوافقون أيضاً على إرجاع شواطئ البحر الأحمر للدولة العثمانية . غير أن مااختتموا به البرقة هو السياسة المقررة إذ لايعتقدون فى مقدرة مصر بالدفاع عن الخرطوم. ولو أنهم يؤمنون بتجمع القوات المصرية إلا أنه لابد من انسحابها من الخرطوم وبقية السودان. وفى خطاب خاص لبيرنج صرّح اللورد جرانفيل أن الوزير المصرى الذى لايستطيع المعاونة مع الحكومة الإنجليزية فى الأمور السياسية الهامة طالما أن جنود جلالة الملكة تحتل مصر عليه أن يستقيل . وبذا أصبحت الحكومة الإنجليزية مسؤولة عن الإخلاء وتنفيذه والوزير المصرى الذى لايتعاون معها فى ذلك لايحتفظ بكرسيه وماكان لشريف وهو يؤمن ببقاء السودان وبالاحتفاظ بوادى النيل منه على الأقل أن يقبل هذا الوضع فرفع استقالته فى ٧ يناير للجناب العالى وكان حتما أن تقبل .

تنفيذ سياسة الإخلاء وبعثة غوردون

حديث غوردون لمحرر جريدة بول مول

فى صباح يوم ٨ يناير كان غوردون جالساً مع صديق له فى منزل أخته بضواحي ساوثهمبتون ، فلايشعران إلا برجل قصير ذى لحية يطلب مقابلة غوردون وكان ذلك الرجل هو و. ت . ستيد محرر جريدة بول مول جازيت لأخذ حديث منه عن حوادث السودان لأنه خبرها وعرف مشاكلها . وماكان غوردون فى حالة تسمح له بإعطاء حديث لمحرر جريدة عن السودان لأنه رجع من بروكسل بعد أن اتفق مع ملك البلجيك للخدمة فى الكنغو . واقتضته الظروف أن يقدم استقالته من جيش جلالة الملكة لأن السلطات لم تسمح له بالجمع بين وظيفته فى الجيش والخدمة تحت ملك البلجيك . وما أتى لانجلترا إلا لتلقى رد حكومته بصدد استقالته ثم يعود توآ لبلجيكا ويحزم حقائبه ويسافر إلى مجاهل أفريقيا . وكان من الطبيعى أن يعتذر غوردون عن إعطاء حديث وإبداء آراء قد تتعارض مع سياسة الحكومة . ولكن تحت إلحاح المحرر بألا يحرم الرأى العام من تجاريبه وخبرته الطويلة بشئون السودان خضع وأدلى بحديث طويل ضمنه آراءه عن حركة الثورة المهدية وعن سياسة الإخلاء ولم يكن على علم بأن الحكومة أبانت ما تراه فيها .

حديث غوردون

طفق غوردون يتدفق فى الحديث ما يقرب من الساعتين للمحرر . وبدأه بضرورة الاحتفاظ بالأقاليم التى تقع شرقى النيل الأبيض ، ويوافق على إخلاء كردفان ودارفور ، ويرى فى الثورة أنها سوف تنتشر بسرعة البرق فيما لوأخلى السودان ، وسوف تتطاير منها شرارات عبر البحر الأحمر لتشتعل فى الجزيرة العربية ، وشمالا فى صعيد مصر ، وأنه ليس باستطاعة النقط الحربية أن تحبس تيارها المندفع .

ثم أبان صعوبة تنفيذ الإخلاء ، وأشار بأن عدد الجند الذين يراد ترحيلهم من حاميات السودان يزيد على الأربعة وعشرين ألفاً ، وإذا كان فى حيز

الإمكان والاستطاعة ترحيل حاميات الخرطوم وشمالي السودان فماذا يحدث للجند المرابطين فى دارفور وغندوكرو؟ أيضحى بهم لأنهم أخلصوا الطاعة وأظهروا الولاء ؟ وكيف يمكن الحصول على عدد من الجمال لترحيل للعدد الضخم من الملكيين والعسكريين ؟ وهل تخلق مواقع تحمى ظهورهم ؟ وهل فى الإمكان حماية النساء والأطفال من النهب والقتل وهم يقطعون المئات من الأميال قبل أن يصلوا إلى مكان أمين يطمئنون فيه إلى سلامة أنفسهم ؟ هناك طريقان عمليان إما التسليم فى التو والساعة للمهدى وإما الدفاع عن الخرطوم وهذا الأخير ما يجب اتباعه .

ويرى غوردون أن الوزير المصرى الوحيد الذى يستطيع مواجهة ذلك الموقف الحرج هو نوبار باشا . فإذا ما لقى التعضيد والمعونة الكافيين من حكومة جلالة الملكة استطاع بحكمته وكفايته تدارك الأمر . وربما أرسل نوبار حاكما عاماً قوياً بمليونين من الجنيهات إلى الخرطوم، وليس هناك من يصلح لمثل هذه الوظيفة فى مثل ذلك الموقف الشاذ إلا السير صموئيل بيكر . فإذا ما وقفت الحكومة المصرية موقف الحزم ، وإذا ما أعانتها وساندتها الحكومة الإنجليزية ، وإذا ما أرسل حاكم عام مقتدر بمبلغ من المال ومنح سلطات استثنائية ، فربما تذوب الثورة من نفسها كما يذوب الثلج . وربما يدب الخلاف بين القبائل وتفتر حماستهم للمهدى ، وعند ذاك يرفرف علم الأمن والطمأنينة مرة ثانية على ربوع السودان ، وبعدها يعلن للسودانيين بشكل واضح قاطع أنهم سيمنحون دستوراً ولا يسمح بعد اليوم للترك والشراكسة بإثراء أنفسهم بل يقصون إقصاء تاماً من الإدارة ، وأن تحرير الرقيق سوف لا يكون أمراً مستعجلا .

رأى غوردون فى الثورة

فالحركة كما يظنها غوردون لم تكن بلدينية بل هى فى أساسها ثورة على النظام التركى الشركسى وأن الدين ماهو إلا غشاء خارجى لها، والقائم بأمر الدعوة يظنه غوردون آلة مسخرة فى يد إلياس باشا امبريو ملاك الرقيق فى الأبيض . ويرى أنه (غوردون) صاحب الأثر الأول فى هذه الثورة ، فإدارته مدة الثلاث سنوات للسودان علمت السودانيين معنى الحرية وثاروا عندما فارق البلاد ورجع العنصر التركى — الشركسى للحكم بعده، ويتحسر على المصير الذى صار

إليه السودان ، وأنه أحب البلاد وأهلها ولوكان فى استطاعته انتشالهم مما ترد وا فيه من هوّة وخراب لفعل . ومن غرائب المصادفات أن نوبار باشا قبل الوزارة فى نفس اليوم الذى كان محرر البول مول جازيت يأخذ حديثه من غوردون ، وقبلها على أساس المعاونة مع السياسة البريطانية فى نظرية الإخلاء .

الجريدة تقترح إيفاد غوردون

وفى اليوم التالى للحديث عقد المحرر فصلا افتتاحياً بعنوان «غوردون الصينى للسودان» أشار فيه إلى صعوبة الإخلاء وانتقد سياسة الحكومة التى تقود إليه ، واقترح أخيراً إرسال غوردون بكارت بلانش إلى السودان ليفعل ما يراه مناسباً ، ويجب أن لاتتوانى الحكومة فى ذلك لأنه بعد أيام سوف يعود إلى بلجيكا ليسافر للكونغو . وضربت كل الجرائد الإنجليزية على هذه النغمة فى الأيام التالية وأجمع الرأى العام الإنجليزى على وجوب إبعاث غوردون ، وهذا يتسق مع رأى بيرنج فى تنفيذ سياسة الإخلاء لأنه اقترح إرسال ضابط إنجليزى عظيم بسلطات استثنائية إلى الخرطوم والحكومة الإنجليزية حينما ردت على رسائل بيرنج لم تقطع فى هذه النقطة بالذات برأى ما .

إزاء هذه الحركة التى أثارتها الجرائد كتبت الملكة فكتوريا فى العاشر من يناير إلى اللورد جرانفيل ما يلى «تأسف الملكة على عدم الاهتمام الذى أبدته الحكومة بشأن استخدام الضباط الإنجليز حسب طلب سير أفلن بيرنج» وفى اليوم الذى استلم جرانفيل هذه الملاحظة من الملكة وصله خطاب من زميله وزير الحربية ينبئه أنه لم يبت فى استقالة غوردون إذ ربما يستطيع الوزير الجديد نوبار قبول غوردون أكثر من شريف . وتحت ضغط هذه الظروف من الرأى العام ومن الملكة ومن زميله وزير الحربية أبرق جرانفيل فى مساء نفس اليوم (١٠ يناير) إلى بيرنج بما يلى «هل هناك من حاجة لمعونة غوردون أو السير شارلس ولسن على ضوء التطورات الجديدة ؟» .

وظهرت جرائد الصباح فى لندن وكلها أجمعت على صعوبة الإخلاء وخاصة مقال السير صموئيل بيكر الذى أبان بوضوح عقبات التراجع وصوّر جيشاً من النساء والأطفال والمدنيين يتراجعون يحرسهم عدد من الجند انحطت روحهم

المعنوية وكلها أجمعت أيضاً على ضرورة إيفاد غوردون . وفى المساء ورد الرد من بيرنج بما نصه « استشرت نوبار ولست أرى ضرورة لاستخدام غوردون والسير شارلس ولسن فى الظروف الحاضرة » . وفوق ماكانت تنادى به الجرائد الإنجليزية فإن أصدقاء غوردون كانوا يُلحفون عليه فى قبول الخدمة فى السودان ولكنه يصرّ على عدم القبول لكتابته استقالته من الجيش أولا ولأنه وعد ملك البلجيك ثانياً ولأنه لا يستطيع خدمة توفيق ثالثاً .

مقابلته للادجوتانت جنرال

بعث اللورد ولسلى الادجوتانت جنرال إلى غوردون لمقابلته فى وزارة الحربية بعد أن عرف إصرار غوردون على عدم الخدمة فى السودان . فلما قابله فى عصارى يوم ١٥ يناير أبلغه أن الحكومة سحبت اعتراضها على خدمته فى الكونغو وأنه يستطيع الخدمة لصالح دولة أخرى مع الاحتفاظ برتبته فى الجيش ولكن حكومته تريده لأن يؤدى لها خدمة هى فى أمسّ الحاجة لها وأنها تريد منه تأجيل وعده لملك البلجيك إلى أن يقضى المهمة التى تناط به من حكومته . والمهمة التى عرضها ولسلى هى ذهابه إلى سواكن وتحقيق حالة السودان عن كثب . فأجاب غوردون بألا مانع لديه من ذلك فيما إذا طلبته الحكومة وأنه لا يدلى باقتراحاته إلا بعد درس الأحوال والتحقيق وقد يسفر تحقيقه عن تعيينه حاكماً عاماً وقد يسفر أيضاً عن الانسحاب التام .

مهمته فى السودان

وقد ناوله ولسلى ورقة ليكتب عليها ما يراه من تعليمات لمأموريته وإجراآت لتنفيذها فحددها بتقرير يرفعه وأثناء ذلك يكون بيرنج حلقة الاتصال ويطلب أن يقابله إبراهيم بك فوزى فى السويس ليرافقه لسواكن . وبينما غوردون وولسلى يتفقان على تحديد المهمة يخاطب جرانفيل جلادستون ويحصل على موافقته بأن يستخدم غوردون نفوذه فى القبائل الضاربة بين سواكن وبربر ويجعلها تعاون فى سحب الحاميات والمدنيين بطريق سواكن . ومن هنا يتضح الخلاف الجوهرى بين ما وافق عليه جلادستون وبين ما تم على يد غوردون ، نفسه ولم يلاحظ الموظفون فى وزارة الخارجية الخلاف الظاهر . وفى خطاب خصوصى

من جرانفيل إلى بيرنج أشير إلى طلب الرأى العام لاستخدام غوردون وطلب من بيرنج أن يقول رأيه فى صراحة وهذه هى المرة الثالثة التى تعرض فيها الحكومة الإنجليزية خدمات غوردون فى السودان .

أما جلادستون فعلى ما يظهر نسى أنه وافق على استغلال نفوذ غوردون فى قبائل شرق السودان وأبدى تحفظات على المهمة بأن جعلها استشارية بحتة وأن ما يوصى به غوردون من إجراءات لا تلزم الحكومة البريطانية باتباعها وبالاختصار يريد جلادستون اتقاء العاصفة بإخفاء رأسه فقط . وتدل الحوادث أنه انساق نحو سياسة لا يريد أن يصل معها إلى نتيجتها الطبيعية وهى أن الحكومة الإنجليزية بإلزام مصر إتباع سياسة الإخلاء إلى درجة أن الوزير الذى لم يرض بها أجبر على الاستقالة قد أخذت على نفسها مسؤولية أدبية بتنفيذها . وقد مضى الزمن الذى كانت إنجلترا تدعى عدم التدخل أو أن ما يجرى فى السودان من الأمور الداخلية البحتة .

آراء عبد القادر باشا

هذا ما كان يجرى فى هوايت هول فى لندن أما فى لاظوغلى فى مصر فقد كان عبد القادر حلمى باشا ناظراً للحربية فى نظارة نوبار باشا ، ولسابق خبرته ومعرفته بأحوال السودان طلب إليه أن يبحث بالأرقام وبالطرق العملية مسألة الإخلاء . وبعد أن استعرض عدد الحاميات وما يرابط فيها من جنود وعدد المدنيين الذين يودون مغادرة السودان وصعوبة النقل عبر الصحراء وصل إلى أن الإخلاء ربما يتم فيما بين سبعة أشهر وسنة ، وكاد الاتفاق يتم بين النظارة وبيرنج على أن يذهب عبد القادر نفسه لتنفيذ الإخلاء ، ولكنه اختلف مع بيرنج فى التصريح فى السودان بالإخلاء من عدمه . فالأخير يرى وجوب إعلانه وعبد القادر يرى أن الإعلان يقود إلى ارتباك الأمر وعرقلة الانسحاب وفساد الخطط وبذا أصبح فى حكم المقرّر عدم سفر عبد القادر .

بيرنج يقبل خدمة غوردون

أصبح بيرنج فى مركز حرج ، فالوزير المصرى الذى يستطيع الاضطلاع بالمهمة رفض لخلاف فى الرأى ، والإخلاء أصبح سياسة مقررة لابد منها وهو

معتمد دولته لتنفيذها، وقبل أن يصله عرض جرانفيل لخدمات غوردون طلب من حكومته إبعاث ضابط إنجليزى ليقوم بما رفضه عبد القادر باشا وعندما وصلته برقية جرانفيل بعرض خدمات غوردون للمرة الثالثة رد بأن لا مانع لدنه من قبول خدماته على أن يفهم غوردون أن مهمته تنحصر فى الإخلاء وأن أوامره يتلقاها من المعتمد البريطانى فى مصر . وهكذا حولت مأمورية غوردون من صفة استشارية للتقرير والتوصيات إلى وظيفة تنفيذية وانتقلنا إلى المرحلة الثانية من الغموض الذى أحاط بمهمة غوردون . فى رأى جلادستون أن يستخدم غوردون نفوذه فى قبائل الشرق بسحب الحاميات عن طريقها وفى رأى جرانفيل أن يقدم تقريراً بما يجب عمله وأخيراً يطلب بيرنج منه القيام بعملية الانسحاب والإخلاء .

غوردون يقبل المهمة

غادر غوردون ووجهته بروكسل قبل أن يرد بيرنج برأى حاسم ليغادرها إلى الكنغو إذا ماتوانى المعتمد فى القاهرة أو ردّ كما سبق له أن ردّ بالاستغناء عن خدماته . وهو فى الاستعداد لرحلة الكنغو أبرق إليه ولسلى بالحضور حالا إلى لندن . فما وسع غوردون إلا أن يصارح ملك البلجيك بأن حكومته تطلب منه العمل فى السودان وليس له إلاأن يمتثل بالطاعة والإذعان . وكانت الوزارة الإنجليزية فى مركز حرج ، فالرأى العام يطالبها بإرسال غوردون والملكة تلح فى إبعاث الضابط الذى يطلبه بيرنج وهاهو غوردون على وشك الرحيل إلى الكنغو فى خدمة جلالة ملك البلجيك . كل ذلك دعا الوزراء يجتمعون فى لندن بالرغم من غياب بعضهم بما فيهم جلادستون نفسه حالما وردت برقية بيرنج بالقبول ، وسرعان ما اجتمع بهم غوردون وخرج بعد اجتماع قصير آخذاً على عاتقه مهمة الإخلاء حسب ما دونها هو ، وأصدر جرانفيل تعليمات مضمونها ذهاب الجنرال إلى سواكن ليبحث ويضع تقريراً عن الحالة وما يجب أن يتخذ من خطى لسلامة الحاميات والجاليات الأوروبية هناك، وعليه النظر فى أنجع الوسائل لإخلاء داخلية السودان وتوطيد دعائم الإدارة المصرية فى موانى وسواحل البحر الأحمر، وعليه أيضاً التخفيف ما أمكن عن نتائج الثورة القائمة على انتعاش

تجارة الرقيق ، وعلى غوردون أن يكون تحت إ رة المعتمد البريطانى فى مصر ، وأن يتصل بالحكومة البريطانية عن طريقه ، وعليه أخيراً أن يؤدى أى خدمات تطلبها منه الحكومة المصرية بواسطة بيرنج .

ويتضح من تلك التعليمات الغامضة والتى اشتهر جرانفيل بإصدارها أن الحكومة الإنجليزية لا تزال مصرة على عدم حمل عبء المسؤولية وأنها لا تزال ترى فى مهمة غوردون استشارية لا تتعدى التقرير وتقديم التوصيات ، ولكنها أخيراً رأت أنه قد يطلب من غوردون عمل تنفيذى لو أرادت الحكومة المصرية ذلك عن طريق بيرنج . والظاهر أن جرانفيل تحاشى عن قصد كل بيان صريح يجعل لمهمة الجنرال عملا تنفيذياً من قبل الحكومة الإنجليزية ولاشك أنه بذلك إنما يتأثر برأى رئيسه جلادستون . ولكنهم فى لندن يعلمون تمام العلم أن مايطلبه بيرنج هو ضابط يمنح سلطات مدنية وعسكرية للقيام بعملية الإخلاء التى رفضها عبد القادر باشا .

ما فهمه غوردون من مهمته

إزاء هذا التناقض والبلبلة الفكرية فى صفوف أعضاء الوزارة الإنجليزية ومعتمدها فى مصر يجدر بنا أن نرى ما فهمه غوردون نفسه من مهمته . ويتضح ذلك جليا من مذكرة بعث بها إلى حكومته وهو فى طريقه فى البحر الأبيض المتوسط . فقد فهم حسب ما دوّن أن الحكومة الأنجليزية قررت منح السودانيين استقلالهم وقررت ألا تجعل للحكومة المصرية مجالا للتدخل فى شؤونهم بعد ذلك وتنفيذاً لذلك فقد أرسلت لسحب القوات المصرية والمدنيين من أجانب ومصريين .

وسط هذا الاضطراب والفهم المختلف لمهمته غادر غوردون العاصمة الإنجليزية فى نفس اليوم الذى تلقى فيه تعليماته من الوزارة وبصحبته الكولونيل استيوارت وبدأ العمل منذ اللحظة التى غادر القطار فيها المحطة . وفى الطريق حتى وصوله إلى محطة ليون الفرنسية ، رمى فى هذه المذكرات والاقتراحات جانباً بمهمة التقرير واتكأ على ما سوف تطلبه منه الحكومة المصرية ، ورأى أن القيام بسحب القوات المصرية وتأسيس حكومات سودانية يقضى أن يصدر أمر

من الخديوى بتعيينه حاكما عاما كما كان قبلا ، وأن يصدر منشور من الخديوى ينادى فيه بأنه تعطف ومنح الاستقلال لسلاطين السودان وأن غوردون يمثله ويمثل الحكومة البريطانية فى هذا الصدد ، وأنه سوف يُخلى البلاد من الجنود ، وأنه عين حاكماً عاماً ليضطلع بهذه الأعباء . واقترح أن يصدر غوردون نفسه بياناً يناشد فيه السودانيين بأنهم وقد منحوا الاستقلال ألا يتعرضوا للحاميات المنسحبة وبيان خاص إلى القبائل الشرقية يناشدها تسهيل انسحاب إخوانهم فى الدين إلى مرفأ سواكن . وحيث إنه يجب عليه الخضوع لأوامر بيرنج أرسلها من محطة ليون للوزارة الإنجليزية للحصول على تصديقها اقتصاداً للزمن ، فالغالب أن يستأنس بيرنج برأى حكومته قبل الموافقة عليها .

حكومة انجلترا توافق على المقترحات

وصلت مقترحات غوردون واجتمعت الوزارة لبحثها والجرائد الإنجليزية تهلل وتكبّر بإبعاث غوردون وترى فى ذلك قراراً من الحكومة حكيماً إذ فى نظرها أن غوردون هو الرجل الوحيد الذى يستطيع إنقاذ الموقف فى السودان . فبديهى إزاء ذلك الحماس البالغ الحد من الرأى العام أن توافق على المقترحات. وقد لاحظ جلادستون الفرق الظاهر بين ما رآه ووافق عليه ، وبين المقترحات التى تجعل من غوردون أداة تنفيذية لسياسة الإخلاء ، ولكنه رضى عندما علم أن التعيين والأوامر والبيانات تصدر من الحكومة المصرية وعليه تخلى حكومة جلالة الملكة من كل مسؤولية . وهكذا ينساق جلادستون فى منطة خاطئ كهذا .

وعندما نزل غوردون فى الباخرة فى البحر الأبيض المتوسط فصل ما أجمله من مقترحات ، فالسودان سوف ينفصل عن مصر ويعاد سلالة الملوك والسلاطين إلى عروش آبائهم وأجدادهم ويتحسس رغبات الأهلين فى المدن الكبيرة التى تنشأت بعد فتح محمد على كالخرطوم وبربر وكسلا ويقرّ معهم نوع الحكومة التى يرتضونها ، ويسحب الحاميات تدريجياً . وسوف لايتعرض لها أهل السودان طالما ضمنوا استقلالهم. وفى رأيه أن المهدى سوف لايتعرض للحاميات المنسحبة

طالما أنها لاتقاتل . وإذا تعرض وهذا فى نظره بعيد الاحتمال فسوف يلجأ لحكومة جلالة الملكة .

فهم غوردون خاطىء

بنيت هذه المقترحات على أساسين ، وهما ثقة غوردون فى نفسه وتقدير السودان له وأن نفوذه ومركزه بين السكان يضمن تنفيذ ما يراه من خطط ، والثانى فهمه للثورة على أنها فى أساسها رد فعل لمظالم الحكم ، وأنه بزوال الحكومة الظالمة يزول السبب ويرضى المهدى بحل الاستقلال ويوافق بل يساعد على سحب القوات من السودان . وعلى هذه الأسس الواهية بنى غوردون صرح خططه وعلى هذا التقدير الخاطىء لأسباب الثورة بنى مقترحاته . وما كان يدور بخلد غوردون وهو الذى خبر السودان وجاب أصقاعه وتعمق فى فهم مسائله أن يتصور درويشاً خامل الذكر يثير حماساً دينياً يشتعل كالنار تأتى على الأخضر واليابس . وهو قد عرف فى تلك الطبقة من الناس الانزواء من المجتمع والتظاهر بالمسكنة والانكسار ، وعرف أن جل همهم دخول الخلوات وتدريس الأتباع والمريدين وتلقى الهبات والعطايا من الحكومة والمثرين ، وما كان يظن طبقة كهذه تستطيع التأثير على الأذهان والقيام بثورة ضد قوات الحكومة الرهيبة وسطوتها المخيفة ونفوذها الفعال ، وأكبر ظنه أن اليد الخفية التى تحرك الثورة من وراء الستار تحت القناع الدينى هم كبار ملاك الرقيق يعاونهم من اكتووا بنيران الضرائب الفادحة ومن رزحوا دهراً تحت نير المظالم القاسية ، والمهدى زعيم الحركة وحامل لوائها قد يكتفى بملك بسيط فى غرب السودان إذا مازال السبب الذى من أجله التف الناس حوله وعقدوا له من أجله لواء الزعامة .

وغوردون مهما سلمنا بخبرته وتجاريبه فى الحكم والإدارة للسودان عامة وللمسلمين بصفة خاصة لا يستطيع إدراك الحماس الدينى أو تلهف المسلمين قاطبة لهذا اليوم الذى يظهر فيه رجل يعيد للدين عزه ومجده بعد أن خبا نوره ، ولم يدرك وما كان له أن يدرك ما تفعله مثل هذه الدعوة من رجل عرفوا زهده وتقشفه وخبروا تدينه وإيمانه ، وبعد ذلك رأوا وسمعوا عن انتصاراته المتوالية .

فهل يتقاعس المسلم بعد أن وضح النور وانجاب الظلام ؟ وهل يقعد به الخوف واليأس بعد أن دقت الساعة التى ظل العالم الإسلامى يترقبها ؟ هذه هى الناحية التى لم يلمسها أو يتحسس عليها غوردون عندما كان صاحب الكلمة فى هذه البلاد ، وهذا هو الأساس الرملى الذى انهار فوقه ماشيده من آمال . وإذا اشتهر غوردون بتدينه فكذلك كانت نهايته وخيبة آماله عدم إدراكه ما يفعله الدين فى النفوس.

غوردون فى القاهرة

وصلت اقتراحات غوردون عن طريق البرق لبيرنج ووافق عليها بحماس بالغ ، ولكنه رأى أن يعرج غوردون على القاهرة فى طريقه إلى الخرطوم للتشاور معه ومع الحكومة المصرية . وعندما ألقت الباخرة مراسيها فى بورت سعيد وجد غوردون برقية من جرانفيل ينبئه بضرورة النزول ومقابلة بيرنج ووجد فى استقباله السير ايفلن وودسر دار الجيش المصرى ورسالة رقيقة من بيرنج يقنعه فيها بالتعريج على القاهرة قبل قيامه للسودان ، فلم يجد الجنرال مناصاً من الإذعان والانصياع فأقله القطار للقاهرة وهناك حدثت المقابلات مع الخديوى أولا ثم مع بيرنج ونوبار ثانياً واتفق الثلاثة على سحب القوات وإقامة حكومة اتحادية (Confederation) من الملوك والسلاطين فى السودان .

غوردون يقترح استخدام الزبير

قابل غوردون بوجه الصدفة الزبير باشا فى منزل أحد روساء الوزراء السابقين وكان قبل أن يبحر من إنجلترا أبرق لبيرنج بتشديد الرقابة على الزبير ويستحسن نفيه لقبرص لأنه لايزال على رأيه فى أن الزبير عنصر خطر على الثورة فى السودان ، فقد يزيد فى إذكائها وقد يهب ليتعاون مع المهدى ولكنه عندما قابل الزبير وجهاً لوجه خطرت له فكرة قلبت الوضع ، ورأى فى الزبير شخصية سودانية قوية تستطيع معاونته فيما هو مقبل عليه من مهام ، ورأى الاستعانة بالزبير بدل أن كان يلمح فيه الخطر والمقاومة ، وليست الخاطرات السريعة والحكم على أمر بعكس ما أبرمه بالأمس بغريبة على غوردون ، فتاريخه فى السودان ملىء بها . وفى الحال دبرت مقابلة بين الرجلين فى منزل بيرنج فلم ينس الزبير موقف غوردون من ابنه سليمان وخطة الإذلال التى اتخذها حياله وأخيراً اتهمه بالثورة على الحكومة وانتهت بإعدامه ، ثم هو ليس بناس طلبه

الملح بسجنه هو ومصادرة أملاكه ، وسجن أقاربه ، وأخيراً المطالبة بمحاكمته على أنه الموعز لابنه بالثورة ، ولولا معارضة الخديوى آنذاك لأعدم غوردون الزبير . فعل غوردون ذلك وهو يعتقد أن ابن الزبير فتى طائش انساق إلى الثورة بتحريض والده وكلاهما خرجا على الحكومة ، وكلاهما يستحق الإعدام ، وجرت معاتبات بين الاثنين أصر فيها غوردون على موقفه ، وما اقتنع فيها الزبير بحججه ، وبالرغم من ذلك يصرّ غوردون فى مرافقة الزبير له وبالرغم من أخطائه وعدم خضوعه يتوسم فيه السودانى الوحيد الذى يساعد فى حل الموقف فى السودان .

لاحظ الحاضرون كبرنج ونوبار أن الهوة سحيقة بين الرجلين وأنهم إن سمحوا للزبير بمرافقة غوردون فربما يحدث منه ما يعرقل خطط غوردون بدل معونته ، واحتياطا لهذا الاحتمال رفض بيرنج ما يطلبه غوردون ، وهكذا رأى نفسه يتلقى الرفض فى أولى مطالبه وقد قيل إنه سيلقى التعضيد والمعونة الكافيين من بيرنج والحكومة المصرية . وعندما كانوا يودعونه فى محطة القاهرة حاول بيرنج تخفيف ما لاقاه غوردون من صدمة بأن وعده بالنظر فى ذلك الأمر مرة ثانية فيما لو أصر على الزبير حين وصوله الخرطوم ورأى لزوم إرساله . وعلى هذه الحالة النفسية قام القطار به فى رحلته النهائية يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٤ التى ما عاد بعدها بل كانت آخر سفراته ، ومن غرائب المصادفات أنه لقى حتفه فى فجر ٢٦ يناير من السنة المقبلة (١٨٨٥) .

ولنترك غوردون فى طريقه إلى الخرطوم يرسم خططه لبرنامجه الشامل من حيث ترحيل الحاميات والمدنيين ومن حيث إقامة الحكومات السودانية ولندوّن هنا وثيقة تظهر بجلاء استحالة الإخلاء والانسحاب من رجل هو فى الدرجة الأولى من حيث الخبرة بالسودان والأوجه العملية لترحيل وهو حسين باشا خليفة مدير عموم دنقلة وبربر وقد عين مرة ثانية لهذا المركز ، فكتب بتاريخ ٢٠ يناير سنة ١٨٨٤ ما يلى :

« نعرض للأعتاب الخديوية أنه فى هذا اليوم ورد لنا تلغراف من سعادة وكيل الحكمدارية يرغب فيه إرسال جميع المراكب الموجودين هنا وكرشهم للخرطوم وبالاستفهام منه عن السبب ورد لنا تلغراف يخبرنا أنه صدر إليه أمر عطوفتلو رئيس[1] مجلس النظار عن مخابراتنا باستحضار الجمال اللازمة لسفرية كل من يرغب التوجه لبحرى من أهالى الخرطوم وخلافهم والفقراء منهم يترحلوا على طرف الميرى ولانعلم لهذا موجب إلا أن يكون من تصور من هم مستولين الإدارة بالخرطوم وما عندنا من الأفكار نصدق به ولى نعمتنا وهو أن الخرطوم فى غاية الاستحكام والعساكر الموجودين به كفاية للمحاماة عن البندر وخلافه وفقط محتاج لمن يكون فيه الكفاية من رجال الحكومة المعوّل عليهم فى الإدارة والسياسة والثبات كسعادة عبد القادر باشا حلمى وما يماثله إذ أن المتمهدى بجيوشه الآن بكردفان ولم نسمع أحوال زيادة عن حركة الحلاوين[2] ولو صار لإرسال قوة عسكرية للجهة المذكورة بطريق البحر وضربها والاستغناء عنها بالكلية كما خابرنا وكيل الحكمدارية بالمشافهة التلغرافية لسكن هيجان الآخرين واطمئنان الأهالى وللسكان بمحلهم . أما القول بترحيل أهالى الخرطوم بحرى وترك تلك المدينة الحصينة يترتب منه خراب السودان بأكمله فضلا عن عدم تمكن أحد من العساكر والأهالى من الوصول إلى بحرى لأوجه ، الأول أنه بمجرد قيامهم من الخرطوم تهيج الأهالى والعربان معاً ويكونوا يد واحدة ويمسكوا المواشى والطرق ومحلات الشلالات ويمنعوا مرور المراكب بالبحر والوصول إلى بربر والثانى لو فرض وأمكنهم الوصول فلاتوجد جمال للترحيل من طريق أبوحمد بما أن الجمال هى من العربان والحالة هذه جميعهم بالعتامير وجارين اللازم لدخولهم تحت الطاعة وعندما يبلغهم قيام الأهالى وخلافهم ، من الخرطوم يزدادوا نفور وهيجان ولايوجد جمل واحد للترحيل وربما يقطعوا طريق أبوحمد . ومع تراكم أهالى ومستخدمين الخرطوم ببربر مع الموجودين

---

(١) نوبار باشا .

(٢) فى الجزيرة جنوب الخرطوم .

بها فلا يجدوا شيء للقوت الضرورى وتهلك الرعية وعلى كل فقيام أهالى الخرطوم غير صائب وما عندنا من النصيحة بحسب الصدق والأمانة أوضحناه » ؛

وقبل وصول غوردون أيضاً كتب الشيخ العبيد محمد بدر المقيم بأم ضبّان جنوبى الخرطوم شرقى النيل الأزرق خطاباً إلى علماء الخرطوم وهو رجل مشهود له بالصلاح والنظر الثاقب لعواقب الأمور يطلب منهم إيقافاً لسفك الدماء بين المسلمين التسليم للمهدى ، وهذا ما نقله البرق من الحكمدارية إلى المعية بتاريخ ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤

« يوم تاريخه حضر جواب من الشيخ العبيد المقيم بجهة العيلفون إلى العلما بالخرطوم وهو الشريف حسن المجدى قاضى الخرطوم والفقيه عبد القادر قاضى الكلاكلة والفقيه موسى مفتى المجلس المحلى تاريخه ٢٤ ربيع أول يفيد أنه كان متصبر للآن انتظار تسليم الخرطوم للمهدى من دون سفك دما وأنه يجب لهم التسليم كما أحب لنفسه لأن فى ذلك الراحة الكاملة التى تحقن دماء المسلمين وأموالهم وأن جميع البلاد حصلت بها الحركات ويطلب منهم الإجابة بالقبول بعد الاتفاق معنا أو رفض طلبه وحيث أن ذلك مما يقتضى العرض عنه للأعتاب السنية فبناء عليه لزم العرض للإحاطة » .

وجاء الرد من القاهرة فى نفس اليوم برفض طلب الشيخ العبيد .

غوردون فى الخرطوم

غوردون يعين المهدى ملكا لكردفان

حمل غوردون معه فرمانين ممهورين بإمضاء وختم الخديوى أحدهما يعين غوردوناً حاكماً عاماً للسودان لإعادة الأمن إلى ربوعه والثانى يعلن فيه أنه موفد لمهمة إخلاء السودان وإنشاء حكومة منتظمة فيه وقد ترك لغوردون استخدام أيهما فى الظروف الملائمة . وظل هو فى الطريق يضع المذكرة تلو الأخرى بما سوف يفعله ولكنها فى مجموعها تتركز فى نقطتى سحب الحاميات وإنشاء حكومات سودانية هذا بالرغم مما فاه به فى حديثه لمحرر بول مول جازيت من صعوبة الإخلاء ولكنه غوردون الذى يرى أن مجرد ظهوره فى السودان يعيد الطمأنينة للنفوس وأن أوامره وتعليماته ستنفذ حسب الخطة المرسومة ، وفوق ذلك يجهل الناحية الدينية للثورة . وبمجرد وصوله لبربر بعث بكسوة شرف للمهدى معلناً إياه بأنه أصبح ملكاً لكردفان ويرجوه توطيد العلاقات بينه وبين الحكومات الأخرى فى السودان وبذا تنتهى الحرب القائمة . ولاعتقاده الحازم على موافقة المهدى لهذا العرض السخى فى نظره أعلن للأهالى فى بربر عزم الحكومة على الإخلاء وتعيين سلالة السلاطين والملوك الأقدمين على ما كانوا يحكمونه من أقاليم وشعوب وغادرها فى طريقه للخرطوم مطمئن البال مستريح النفس على نجاح خطته .

اقتراح الحكم فى دارفور وبحر الغزال

اجتازت اقتراحاته العملية لنوع الحكومة التى يريد انشاءها فى بقية أجزاء السودان تطوراً كلما اجتاز بعض الأميال فى طريقه نحو العاصمة السودانية : فقبل أن يغادر القاهرة استصحب معه الأمير عبد الشكور من سلالة سلاطين دارفور لتنصيبه سلطاناً على إقليم آبائه وأجداده ولكن ما وصلت الباخرة إلى أسوان حتى ردّه غوردون للقاهرة لما تبين له من عدم كفايته ولانهماكه فى الشرب . وهو فى الباخرة شغل باقتراح لإدارة بحر الغزال والأقاليم الاستوائية ويتلخص بأن تعطى بحر الغزال للملك البلجيك يحكمها على غرار الكونغو حيث توجه ضربة قاضية على تجارة الرقيق فى منابعها ويقوم هو بتنفيذ تلك السياسة عندما ينفض

يده من أعمال السودان الأخرى ويقيم الحكومات المقترحة فى ربوعه ، وكتب بذلك خطاباً لملك البلجيك عن طريق حكومته وأودعه مكتب البريد فى كرسكو ، ولكن بيرنج وحكومة جلالة الملكة رأوا ألا تصل مهمة غوردون إلى تلك الأقاليم ، وهكذا فشلت أولى محاولاته لتنظيم الحكم الجديد .

حكم ذاتى فى السودان تحت سيادة مصرية

أما نظامه لبقية أنحاء السودان فأول اقتراح له عند وصوله أبى حمد بعث به إلى بيرنج وفيه فرض سيادة مصرية على الحكم الذاتى فى السودان تنحصر فى تعيين الحكام ومحكمة عليا للاستئناف . ولكنه ما إن مر على القرى واتصل بالسكان فيما بين أبى حمد والخرطوم حتى تراجع عن الخطة التى اعتزم تنفيذها ورأى الانفصال التام بين البلدين والدولة التى تفرض سيادتها على الحكم الذاتى هى دولة أخرى غير مصر .

حكم ذاتى تحت إشراف بريطانى

وصلت الباخرة إلى الخرطوم تجاه سراى الحكمدارية صباح يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ وخرجت الخرطوم عن بكرة أبيها ترحب برجل عرفته وعرفها ؛ واستقبل فى السراى كبار الموظفين والضباط والعلماء والوجهاء ، وممثلى الجاليات الأجنبية ، وبعد أن انقضت زحمة الاستقبالات لجأ غوردون إلى مكتبه بالسراى مساء ذلك اليوم وبدأ يدون الأفكار التى ظلت تتلاعب فى رأسه طول الطريق بين بربر والخرطوم، وقد تبين له أن الحكومة المصرية أضعف من أن تكون لها سيادة ولو اسمية ، ولقد اقتنع بأن الاستقلال الكامل للملوك والسلاطين معناه الفوضى الكاملة وأخيراً رأى ألا مفر من سيادة أجنبية تدخل عنصراً من الاستقرار والثبات للأداة الحكومية المزمع تأسيسها ولابد أن ينحصر الاختيار بين تركيا وإنجلترا والأخيرة فى نظره ترجح كفتها على تركيا .

والإشراف من قبل إنجلترا يكون على غرار إشرافها على الأفغان آنذاك أى تعضيد أدبى للأداة الحكومية وإعانة مالية تسد عجز الميزانية ، وإذا كان لابد من رجل مقتدر ليصبح رأساً للحكومة الجديدة فمن يصلح لذلك ؟ ما شك غوردون لحظة واحدة فى الرجل وهو الزبير وربما قارن بينه وبين حسين باشا خليفة فى بعض الأحيان ، فالأخير ذو خبرة وكفاية وله نفوذ فى بربر ودنقلا ،

غير أن اسم الزبير يفوق لمعانه أى شخصية أخرى فى السودان . فلابد إذاً من إرساله ولابد من مقاومة كل الاعتراضات إذا أريد للسياسة الجديدة الاستقرار ، وإذا أريد للسودان انتشاله من الفوضى والاضطراب وقد بر بيرنج بوعده وعضد مشروع غوردون عندما بعث به إلى لندن من حيث إرسال الزبير.

بداية تنفيذ الإخلاء

تركزت مقترحاته لإقامة الحكم الجديد بعد أن تتم عملية الانسحاب ويغادر هو البلاد واقترح الشخص الذى يخلفه فى مركزه والحكومة التى تساعده أدبياً ومالياً . فليصرف الجهد بعد ذلك فى الغرض الثانى من بعثته وهو إخلاء البلاد فأصدر أوامره بإيقاف العمليات الحربية ضد قوات المهدى أو أعوانه وكتب لود البصير فى الجزيرة يطلب منه وقف الاعتداء ، وأمر بفتح أبواب الاستحكامات للداخل والخارج ، وبدأ يفرز الجنود المصريين من السودانيين توطئة لترحيلهم بالتدريج ، وبعث لبيرنج أن يستقبل أول إرسالية من النساء والأطفال والموظفين والجنود مكونة من ألف وثمانمائة فى كرسكو . كل ذلك وغوردون لايزال فى جهله ببواعث الحركة وما أدرك قوتها ومدى اعتناق الناس لمبادئها وفوق كل هذا محفزها الدينى ، ولكن الضباط العظام والعلماء والوجهاء فى الخرطوم عرفوا عن الثورة وقوتها ما لم يعرفه غوردون ونصحوا له بالتريث فى تنفيذ الإخلاء ، تارة بالمقابلة وتارة بالكتابة ولكنه ردهم بألا سبيل إلى التراجع وألا مجال للنصح .

الثورة فى السودان الشرقى

ولنترك الآن غوردون فى الخرطوم يعد نفسه لتنفيذ الإخلاء بعد أن طلب تعيين الزبير حاكماً للسودان ولننظر حوادث السودان الشرقى وماجدث فيها من تناقض لسياسة الانسحاب . بعد سقوط الأبيض وأثناء ماكانت الحكومة المصرية تفاضل بين علاء الدين وهكس لقيادة حملة كردفان وأثناء ماكانت الاستعدادات على قدم وساق لتسيير تلك الحملة والآمال الجسام التى أنيطت بها أبرق الحكمدار بالرسالة التالية لمصر فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ « علم من التلغراف الوارد من محافظة سواكن رقم ٣ أغسطس سنة ١٨٨٣ بأنه بلغه مؤكداً أن شخصين أحدهما يدعى عثمان هذا من عائلة دقنه بسواكن والآخر

جعلى لم يعلم اسمه حضروا من طرف المتمهدى وقاموا من بربر وتوجهوا لعربان البشارية وحرضوهم على التعرض ضد الحكومة ثم حضروا لعربان الأمارار وحرضوهم أيضاً وأن أحدهما توجه لعتباى وقيل إنه بها للآن والآخر توجه أول أمس من كوكريب قاصداً سنكات ليهيج عربانها ولذلك صار قيام المحافظ ومعه محمود على شيخ الفاضلاب لأعمال الطريقة المودية لضبط عثمان المذكور»

أما الجعلى الذى لم يعلم اسمه فهو الشيخ الطاهر المجذوب من سلالة المجاذيب بالدامر أهل علم وتصوف من زمن بعيد ومدارس قرآنهم بعيدة الصيت والشهرة، وأنجبت العائلة عدداً من الصالحين المعتقدين ومنهم الشيخ الطاهر الذى أصبح له نفوذ وتلاميذ وأتباع فى الجبال الشرقية . وأما عثمان فهو ينتمى إلى عائلات سواكن الشهيرة وصاحب أسفار لغرض التجارة فى داخلية البلاد وخارجها وعرف بشدة مراسه وعمق عقيدته وثباتها . ومنذ أن سمع بالمهدى هاجر إليه وعقد معه بيعة ظل وفياً لها بعد زوال المهدية إلى أن وافاه أجله المحتوم، وما عرف من أمراء المهدية الكبار من كان فى مثل وفائه وإخلاصه للثورة وتفانيه فى سبيل إمامها وخليفته من بعده ، وما كان لرجل غير عثمان يتزعم قبائل الجبال الشرقية وهم أصعب مراساً وأشكس قيادة من كل القبائل السودانية ولولا قوة عثمان وإيمانه العميق برسالة المهدى لما تمكن من تزعمهم وكانوا له طوع بنانه ورهن إشارته . وبدأت النار التى أشعلها دقنه تعمل عملها . فأصحاب الجمال امتنعوا عن استخدام جمالهم فى طريق سواكن — بربر والذين كانوا فى القوافل هربوا أثناء الطريق . .

أعمال دقنه الحربية

وكان بدء حركاته الحربية الهجوم على سنكات فى نفر قليل من أصحابه المخلصين ولكنهم ردوا على أعقابهم وجرح عثمان فى المعركة وتنفست الحاميات الصعداء وظنوا أنها حركة ضعيفة قضى عليها بأول انهزام أوقع بها . ولكن سرعان ما استرد عثمان عافيته وكثرت حركة التجمع حوله والتف عليه سكان الجبال وبدأ مناوشته التى ظلت شوكة فى جنب القوات الحكومية ، وعطل الطريق إلى البحر الأحمر حتى انحصرت المواصلات فى طريق النيل وتوجت ا

أعماله باحتلال سنكات بعد أن أبلى قائد الحامية توفيق بك بلاء حسناً ومعه جند قليل أخلصوا الولاء وسقطوا شهداء ولأنهم عند خروجهم من الاستحكام قاصدين الوصول إلى سواكن إذ نفقت أقواتهم وانقطعت مواصلاتهم وظل دقنه مستولياً على آبار التيب وطماى يشن الغارة تلو الغارة على طوكر وسواكن .

هزيمة بيكر

وأخيراً رمت الحكومة بآخر سهم فى كنانتها للميدان الشرقى مثلما رمت بحملة هكس فى الميدان الغربى . ومثلما عقدت اللواء لضابط إنجليزى فى شخص هكس قاد فلنتين بيكر جيشاً من الجندرمة من أخلاط الناس غير المدربين وعدته ستة آلاف ، وليس هذا بالعدد القليل لو أحسن تدريبه وسمت روحه ، ولكنهم ما كادوا يرون رايات الأنصار تخفق على الآبار حتى هلعت نفوسهم واستطار لبهم ورموا بأسلحتهم على الأرض متضرعين إلى الله أن يحميهم من عدوهم الرهيب . فاختلط الأنصار بهم بعد اختراق المربع وأبادوا من ثبت إلا من ولى الأدبار ودخل فى الوابورات والسفن الراسية فى مرفأ ترنكتات ومن بينهم قائدهم بيكر وقفلوا راجعين . ولم تشهد حروب المهدية قوة تفقد الصلاحية للقتال وتفقد الروح المعنوية مثل الخليط الذى قاده بيكر ولا نتسامح بتسميته جيشاً .

وقد نشرت الجرائد الإنجليزية بحروف ظاهرة خبر انهزام بيكر المريع ووصلت الأخبار للحكومة الإنجليزية على أن الثورة لم تكن بما عرفوا عنها عندما عقدوا مجلسهم مع غوردون ، وقد أبرقوا لغوردون وهو فى طريقه على الهجن يعبر الصحراء النوبية بمخاوفهم من الحالة واستفهموا عما إذا كانت هذه الهزائم تؤثر على مهمته فى الخرطوم ، فاستلمها وهو فى بربر ورد على أنه مهما كان حرج الحالة فرجوعه بعد أن وصل ورأى الناس سوف يكون لطخة فى سمعة بريطانيا . واستجابة لما أثارته الجرائد عن الحالة فى الشرق رأت السلطات الحربية الإنجليزية أن تبعث بجنود إنجليزية لميناء سواكن لتحمى المدينة وتمد يد العون وتسهل مهمة الانسحاب لبقية الحاميات . وعندما خوطب غوردون فى هذا الشأن أبدى اعتراضه ورأى أن مهمته سلمية ولا يصح التدخل المسلح .

حملة جراهام

وصلت أخبار تحرُّج الحالة فى الشرق وارتفاع نجم عثمان دقنه وإبادة الحامية فى سنكات بعد بسالتها وفتحت المناقشة فى البرلمان حول سياسة الحكومة فى مصر ، وربما تنتهى بطرح الثقة . وتحت هذه الظروف قررت الحكومة القيام بعمل حاسم يرضى الرأى العام بالرغم من اعتراض غوردون بحملة حربية والوزير الوحيد الذى مازال فى إصراره على الأعمال السلمية هو جلادستون ؛ وفى تلك الليلة صدرت الأوامر بإرسال أربعة آلاف جندى انكليزى بقيادة الجنرال جراهام لفك الحصار المضروب حول حامية طوكر ولحماية مرفأ سواكن . وبينما كانت السفن تمخر فى البحر الأحمر تقل الأورط الإنجليزية للقيام بأعمال عدائية كان غوردون ينشر الدعاية لمهمته السلمية ، وهكذا انجرفت السياسة الإنجليزية فى تناقض مضحك ، فالإخلاء وإقامة حكومات مستقلة فى النيل وعلى بعد ٢٥٠ ميلا إلى الشرق تهبط الجنود متجهزة للحرب . واشتبكت الجنود الجديدة فى حروب مستمرة مع الأنصار فى التيب وطماى وأحرزوا انتصارات بعد تحمل الضحايا ولكنها حروب أثيرت دون ما غرض واضح بل كانت الحملة نتيجة لموقف حرج أمام الرأى العام وجدت الوزارة الإنجليزية نفسها فيه ، ورأت أن هذا العمل ينجيها من الورطة . فإذا كان الغرض فتح الطريق لبربر لتسهيل عملية الانسحاب فإن قوة الحملة لاتسمح لتأدية ذلك الغرض . فبعد أن أبدوا حنكتهم وتدريبهم العسكرى رجعوا ليعسكروا فى سواكن منتظرين تعليمات أخرى . وبينما كان غوردون يقوم بتنفيذ سياسته السلمية سمع الناس فى الخرطوم عن إبحار القوة الإنجليزية ثم عن نزولها فى سواكن لتبدأ أعمالها الحربية فلاغرو إذا اعترتهم الدهشة ولم يفهموا ما بدا لهم من تناقض .

غوردون يتنكر لسياسة الإخلاء

وإذا كان غوردون ظل واضحاً فى سياسة الإخلاء وإقامة حكومة سودانية إلى يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨٨٤ إلا أن سلسلة من الغموض وسوء الفهم بدأت لمدة ستة عشر يوماً حتى ١٢ مارس حيث قطع الثوار خط التلغراف . وقد ربط غوردون منذ البداية إخلاء السودان وإقامة الحكومة السودانية مع بعضهما

البعض ، واختار وأصرّ على اختياره للزبير باشا رأساً للحكومة المقترحة . وبعد مكثه فى الخرطوم أياماً أدرك كنه الحركة وهنا وضحت الحقيقة أمام عينه وهنا أدرك أن حركته السلمية بنيت على أسس واهية . ومن يوم ٢٦ فبراير بدأت رسائله تظهر فيها أمثال تلك العبارات « إرسال التجريدة » و«سحق المهدى» ، ولو أنه فى الجانب الآخر يلمح القارئ منها تمسكه بسحب الحاميات .وهذا الجديد فى الرسائل أدهش بيرنج كما أنه أدهش الحكومة البريطانية ، ولم يبعث بيرنج بنصوص الرسائل البرقية التى ظلت تتوارد عليه دون انقطاع فى هذه الحقبة من الخرطوم بل يبعث بملخصاتها .

فترة تردد

فهمت الحكومة الإنجليزية أن غوردون رمى بتعليماته جانباً واتخذ خطة الهجوم لأن ورود مثل هذه العبارات فى رسائله إنما تبين بوضوح الموقف العدائى الذى سوف يقفه من المهدى . وفهم المدافعون عن غوردون أن عمله هذا لايعنى القذف بسياسة الإخلاء بل إن هذه السياسة تستدعى استعمال القوة أو التظاهر بالقوة حتى تمهد الطريق لسحب الحاميات والمدنيين ، واستدلوا بذلك أنه فى الأيام التى بعث فيها بتلك الرسائل حاملة طابع الهجوم والعداء كانت السفن والقوارب تحمل بعضاً من المرضى والعجزة الجنود لبربر ، ومنها عبر الصحراء لكروسكو . وفى هذه الفترة كان مجلس الوزراء البريطانى ينعقد ليبت فى مسألة تتعلق بالسودان ويصدر قراراً ، وبعد ساعات ترد رسالة من بيرنج تحمل اقتراحاً جديداً من غوردون ربما يؤثر فى القرار فيما لو وصل قبل الانعقاد . وغوردون بدوره يبدى رأياً ويبعث به ثم يصله قرار يجعل رأيه الجديد عديم الأهمية . وبيرنج من القاهرة يبعث بملخص لمجموعة من التلغرافات الواردة من الخرطوم أوأجزاء منها وقد تحمل صورة غير صادقة لما يريده غوردون ولاسيما أن غوردون عرف بعدم عنايته بتحديد المعنى وإيراد اللفظ الذى يؤديه ، ومن الجانب الآخر عرف بعض أعضاء الوزارة البريطانية بعنايتهم الفائقة بالمعانى والألفاظ التى تدل عليها مثل Dilke

مسألة الزبير

ومسألة أخرى أثارت كثيراً من الغبار وهى مسألة تعيين الزبير لبرأس الإدارة السودانية الجديدة . وقد تبين لنا أن بيرنج اعترض أولا خوفاً على غوردون من وجود الزبير معه، وأخيراً انحاز لرأى غوردون ووقف الاثنان صفاً يطلبان بإلحاح بل هما على اقتناع بأن الإخلاء لايتم دون إقامة حكومة قوية وأن الرجل الوحيد الذى يستطيع تسيير الدفة هو الزبير والزبير وحده . ولكن الحكومة الإنجليزية التى كانت تحت رحمة الرأى العام آنذاك ما كان لها أن توافق على رأى كهذا . فهى إن وافقت أصبحت ملزمة بالإشراف على النظام الجديد وهذا معناه تحمل مسئولية الحكم فى السودان وفوق هذا ربما اتهمها الرأى العام بالتفريط فى التقاليد الإنجليزية وتقاليد الحرية والقضاء على الرق . وما عرف الرأى العام البريطانى عن الزبير سوى أنه أكبر نخاس أنجبته إفريقيا . وأخيراً خضعت الوزارة لرأى عام سممته الجرائد ضد الزبير بل إن أحد نواب فى المعارضة ووزير سابق ألقى فى المجلس خطبة فياضة تحدث فيها بإسهاب عن السمعة التى تصيب بريطانيا فى الصميم فيما لو أقدمت على إرسال الزبير وتعضيده ، وأخيراً حمل البرق رسالة صريحة لبيرنج تنبئه عن رفض الحكومة لإبعاث الزبير وأنها سوف لاتوافق على استخدام قوة فى بربر ، وهذه الأخيرة رأى غوردون أن لابد منها لفتح الطريق لسواكن . غير أن الرسالة ما وصلت لمن يهمه أمرها ، فى اليوم التالى لإرسالها تم تطويق الخرطوم وانقطع الخط التلغرافى حوالى ١٢ مارس سنة ١٨٨٤ وقبع غوردون ينتظر فتح طريق بربر سواكن وإبعاث الزبير.

بدء الحديث من الإنقاذ

اتصلت الرسائل بين القاهرة ولندن بشأن استخدام الجنود لفتح الطريق وبعث غوردون باقتراح له يتلخص فى أنه يستقيل من وظيفته فى الجيش ويسافر جنوباً للخدمة فى الكونغو وتنسحب حامية الخرطوم إلى بربر برئاسة ستيوارت إلى أن يتم لها الإنقاذ . كل ذلك إذا أصرت الحكومة على موقفها تجاه الزبير. وبدأت الأفكار تساور بيرنج منذ انقطاع الاتصال التلغرافى وتحرج موقف غوردون وسرت نغمة الإنقاذ فى رسائله . ولمح إلى أن الظروف ربما تقضى

بإنفاذ حملة تنقذه ومعاونيه ويتفق مع غوردون فى سياسة الاتصال بين بربر وسواكن . غير أن السلطات الحربية الإنجليزية فى مصر رأت استحالة إرسال طابور من جنود جراهام عبر التلال الشرقية للمخاطر التى يتعرض لها الجند أولا وللحر الذى سوف لاتحتمله أجسامهم ثانياً . واتباعاً لنصيحة الحربيين لم تر حكومة جلالة الملكة التزحزح عن سياستها ، بالرغم من أن الملكة فكتوريا نفسها اهتمت بإنقاذ ذلك الجندى الباسل من رعاياها وأشارت باستخدام الجنود الهندية إذا استحال قيام الإنجليز بالمهمة ، ولكن الحكومة التى انحرفت رغم إرادتها فى التدخل فى مشاكل السودان وتحت ضغط الرأى العام ماكان لها أن تتحرك وتتخذ سياسة هجومية بدل الإخلاء والانسحاب. وقد أيدتها نصيحة الخبراء العسكريين. كل تلك الاقتراحات ورفضها لاتصل أنباؤها لغردون وهو من جانبه يحاول الاتصال ما أمكنه بالخطابات بشتى الطرق وكلها تشير إلى حرج الموقف وفتح الطريق ما بين بربر وسواكن .

مناوشات أولى مع حامية الخرطوم

تركنا المهدى يرجع إلى الأبيض بعد إبادة حملة هكس وتركناه ينعم بشهرة عمت أرجاء السودان وقد أعطى لنفسه وأنصاره راحة بعد نضالهم المتواصل واكتفى بإرسال السرايا للجهات البعيدة ، فود البصير عليه إثارة أهل الجزيرة والشيخ العبيد عليه الذهاب إلى الخرطوم ومناوشتها . وفى منتصف مارس سنة ١٨٨٤ تم للشيخ العبيد وود البصير سد الطرق المؤدية للخرطوم اللهم إلا عن طريق النهر وحتى هذا تلقى الوابورات عنتا قبل أن تخترق نطاق الحصار المضروب . وصار الأنصار يصوبون رصاصهم من شرق النيل الأزرق على السراى نفسها وقد قتل أحد الكتبة نتيجة لذلك . وخرجت فرقة من جند الحكومة من الخرطوم فى أحد الأيام تحت قيادة السعيد باشا الجيعانى وحسن باشا الشلالى لطرد الأنصار من الشرق حتى يتسنى لحامية الشايقية التى تعسكر فى الحلفاية من الانضمام لحامية الخرطوم ولكن الفرقة باءت بالفشل وقال الناس إن القائدين تآمرا مع الأنصار ومنعا العساكر من الهجوم وعند تشكيل مجلس عسكرى عالى حكم عليهما بالإعدام .

رد المهدى لغوردون

فى صباح ٢٢ مارس ظهر على أبواب السراى ثلاثة من الأنصار فى كامل أهبتهم وسلاحهم يحملون خطابا وربطة بها ملابس وقدموا ما معهم إلى الحكمدار دون أن يلقوا بسلاحهم وعلى أعينهم سيما الشعور بالعظمة والاعتداد بالنفس : كان الخطاب يحوى رد المهدى على خطاب غوردون الذى بعث به من بربر وملخصه أنه ما أراد ملكاً أو سلطاناً وما طلب من مخلوق منّة أو مكرمة ، وإنما بعث برسالة المهدية الكبرى لهداية الخلق . واذا كان غوردون يريد بالمسلمين خيراً كما يزعم فأولى له أن يستضىء قلبه أولا بنور الإسلام وعند ذاك ينال خير الدارين . ومع الخطاب جبة الأنصار لغوردون يلبسها فيما لو هداه الله وقبل الدخول فى الملة المحمدية .

هنا أدرك غوردون إدراكا لمسه باليد كنه رسالة المهدية ومدى أساسها الدينى ، وبعد أن كان يظن فى المهدى آلة مسخرة فى أيدى أصحاب الرقيق أو طامعاً يريد ملكاً ونفوذاً أدرك أنه رجل يعتقد برسالته عميق الإيمان بها . وهنا أصابته نوبة من الغضب عندما علم أن هذا الرجل يطلب منه تغيير دينه والخضوع لأوامره ونواهيه ، وهنا صمم على تجربة قوته معه . فإذا كان المهدى متديناً فى إسلامه فهو مؤمن بمسيحيته ، وإذا كان المهدى يعتز بقوته وكفايته فى النضال فهو ليس بأقل منه صلابة وشدة مراس . وأخذها غوردون منذ تلك اللحظة على أنها نضال شخصى ومبارزة ألقى له فيها القفاز فيلتقطه . ومن ذاك التاريخ نستطيع أن نجزم بأن غوردون رمى بسياسة الجلاء جانباً وصمم على محاربة المهدى حتى النهاية .

السودان فى مجلس العموم البريطانى

ولننتقل الآن من مسرح الحوادث فى الخرطوم إلى دار مجلس العموم فى لندن وهو منعقد فى ٣ أبريل لترد الحكومة على أسئلة بصدد « مهمة غوردون » عقب ظهور رسالة التيمس من مكاتبها فى الخرطوم فرنك پوڤر وفيها يناشد الأمة البريطانية ألا تتركهم وشأنهم يحاصرون فى الخرطوم . دخل المجلس المستر جلادستون بعد غيبة طويلة ظل فيها ملازماً لفراش المرض وارتفعت عاصفة من

البشرى والترحيب للسياسى العظيم . وكان عليه أن يرد على سؤال تقدم بهزعيم المعارضة عن مسألة السودان .

جرد الرئيس لساناً ذرياً لمعارضيه وارتفع فى ذلك اليوم فى مناقشته وتأثيره على السامعين إلى درجة أن أقطاب المعارضة ما حاولوا رداً أوإحراجا للوزارة بالرغم من أنهم كانوا على استعداد لها بمستنداتهم وبياناتهم . وجه فى أول الأمر هجومه على المعارضة بأنهم يعرقلون أعمال الدولة ويشغلون وقت الحكومة والمجلس بالتوافه من الأمور وأنهم فى ظرف شهرين شلوا حركة الإدارة بسبع عشرة مناقشة فى موضوع السودان ومصر . ثم أبان لهم مهمة غوردون حيث تفهمها الحكومة . فهى ما بعثته إلا ليقدم تقريراً عن أنجع الطرق للانسحاب وعلى هذا فهمته استشارية بحتة وأناطت به الحكومة المصرية مهمة تنيفذية بأن عينته حاكما عاما بسلطات استثنائية لإخلاء السودان . فإذا اعترضته عقبات وهو يؤدى المهمة التنفيذية فالمسئولية لاتقع على عاتق حكومة جلالة الملكة .

جلس الرئيس تاركاً الجانب الحربى من المسألة لزميله وزيرالحربية اللورد هارتنجتون فوضح للمجلس المخاطر الحربية التى يتعرض لها الجيش إن حاول القيام بحركة زحف من سواكن إلى بربر وكذلك عدم ملاءمة هذا الفصل بالذات فى أرض يشتد حرها كالسودان . وهكذا كان موقف حكومة جلادستون فى أول إبريل من إنقاذ غوردون . وحتى عندما توالت حملات الجرائد تطالب بإنقاذ غوردون ماكان للحكومة إلا أن تبعث ليبرنج فى ٢٣ إبريل برسالة موجهة لغوردون يوقفهم فيها على الحالة ودرجة الخطر وما مقدار القوة وما الطريق الذى تتخذه للوصول إليه وتأدية مهمة الإنقاذ . وقد أشاروا صريحاً على أنه مهما كانت الظروف فأى حملة تذهب تنحصر فى إنقاذه ومن معه ولا يراد لها القيام بعمليات حربية وهذه الرسالة وصلت إلى غوردون بعد ثلاثة أشهر .

فترة ركود

تلت ذلك فترة تقارب الثلاثة أشهر غاب فيها بيرنج عن القاهرة ليكون بجانب الحكومة فى نظر شؤون مالية تتعلق بمصر وحل مكانه المستر إجرتن

وما زالت مسألة إنقاذ غوردون تعرض من وقت لآخر فى الجرائد وفى مجلس العموم . والحكومة لاتزال فى انتظار ردّ البيانات والتفصيلات حتى تقرر فى أمر حملة الإنقاذ . وفى تلك الحقبة بالذات شغلت الحكومة بقانون الإصلاح الدستورى ، وإذا ما تعرض أحد الوزراء لمسألة غوردون فى مجلس الوزراء أرجأها جلادستون لتصريف الشؤون العاجلة . وأثناء المحادثات والمناقشات ظهر أن فريقاً من الوزراء ينادى بإرسال الحملة فى الحال وفريق يرى أن غوردون خالف تعليماته ولا يصح أن يضحى بعدد من الجنود لأجله . وهم وسط تلك الأفكار المتبلبلة والحكومة الإنجليزية تكسب الوقت وتسوّف إذ سقطت بربر.

الشيخ محمد الخير وسقوط بربر

كان الشيخ محمد الخير أستاذاً للمهدى كما قدمنا وظل بعيداً فى المراحل الأولى لسريان روح المهدية يرقب نجم تلميذه الساطع باهتمام ولكنه تريث قبل أن يعتنق مذهبه . وعندما التقى المهدى مع هكس فى الموقعة الحاسمة ثم أعلنت سياسة الإخلاء بعد ذلك شد الأستاذ الرحال وذهب إلى الأبيض . وكان عناق وحسن لقاء بين أستاذ سره ما وصل إليه تلميذه من مجد وتلميذ يعترف بما أسداه إليه أستاذه من جميل وما قبس منه من علم . ثم أناط به المهدى مهمة قطع الاتصال بين مصر والخرطوم وعزل كل الحاميات فى داخلية السودان . وقد تم قبل ذلك قطع المواصلة بين سواكن والنيل بفضل القائد الجرىء عثمان دقنه . وقفل محمد الخير راجعاً إلى النيل يحمل قبساً من شعلة المهدى وسرعان ما انضمت إليه القبائل شمال الخرطوم وما زالوا يتجمعون ويتحمسون حتى أحاطوا ببربر ، وبعد حصار طويل وعناد من الحامية اقتحمها الأنصار وأسر مديرها حسين باشا خليفة وكبار موظفيها . وبذا تم انعزال الخرطوم وصار ما يصل لغوردون من أخبار ومكاتبات وما يحاول إرساله هو بواسطة وكلاء تدفع لهم أجور عالية . فبعضها يصل فى وقت لا بأس به وبعضها يظل شهوراً قبل أن يستلمه من أريد إرساله لهم وبعضها يضيع فى الطريق .

الخرطوم بين الإنقاذ والسقوط

قطع غوردون الأمل من معونة انجلترا وصمم على الثبات وعدم التسليم وانصرفت جهوده إلى اقتراح يرمى إلى تسليم السودان لتركيا . فكتب للسلطان يحثه بأن يبعث بجنوده الشاهانية لترد إلى حظيرة الإسلام إقليما تمرد وأبدى العصيان . وعندما تسربت مثل هذه الاقتراحات إلى انجلترا دعمت رأى جلادستون ومن ينحون نحوه فى غوردون وتصرفاته . ولكن الاقتراح كمثل اقتراحه لتعيين الزبير ذهب مع الريح وبقى عليه أن يتوكل على الله ويقوى الحصون التى أقامها عبد القادر باشا وهى عبارة عن خندق يحمى الخرطوم من ناحية الجزيرة ويصل ما بين النيلين وجسر مرتفع من تراب الخندق وطوابى على مسافات متقاربة عليها المدافع . وكان على غوردون أن يزيد عدد جنده من المتطوعين بعد تدريبهم وأن يبعث ببواخر عندما ارتفع النيل لتجمع ما تستطيع جمعه من ذرة ومواد غذائية أخرى .

حصار الخرطوم

أما المهدى فأمر ود البصير والشيخ العبيد بضرب نطاق على الخرطوم وقد نجحا نوعاً ما فى مهمتهما ولكن ما أبدته حامية الخرطوم من نشاط ورحلات البواخر المتكررة جعلت المهدى يبعث بقوات متزايدة ليحكم النطاق . فسمى الحاج محمد أبو قرجة أميراً للبرين والبحرين . ومع تيقظ الأنصار جاوبتهم الحامية بجرأة وامتاز فيها أمثال محمد على باشا وساتى بك ونجحت فى رفع الحصار حوالى أواخر يوليو سنة ١٨٨٤ ونتيجة للنجاح الذى لاقته الحامية بعث غوردون بمحمد على باشا يتعقب قوات الشيخ العبيد فاتصل بهم فى العيلفون شرقى النيل الأزرق وتغلب عليهم . وفى نشوة من الظفر رأى أن يتابعهم إلى قرية أم دبان وتقع بعيدة من النيل ، فزحف ووجهته مقر الشيخ العبيد وما إن دخل فى أرض مشجرة إلا وأطبق عليه الأنصار من كمين فى الغابة ، وكانت موقعة هكس المصغرة .

بعثة ستيوارت

وعقب رفع الحصار رأى غوردون أن يبعث بوكيله ستيوارت لاحتلال بربر والثبات فيها حتى تتصل بهم حملة الإنقاذ إن كانت فى الطريق وإن لم تتصل

به يحرق المدينة ويرجع للخرطوم . ولكنه عدّل فى هذا الاقتراح بعد ما مُنى به من فشل فى موقعة أم دبان وقرر إيفاد ستيوارت ومعه آخرون بالباخرة عباس علّه يصل مصر . وهناك ينقل إلى الحكومة البريطانية الحالة وما تردت إليه من حرج . وما قدر لستيوارت أن يصل بسلام إلى مصر حيث ارتطمت الباخرة فى صخرة فى أرض المناصير بين أبى حمد ومروى ولقى ركابها حتفهم على أيدى شيخ المناصير ورجال قبيلته :

ود النجومى يزحف على الخرطوم

فهذا قائده (محمد على باشا) الذى أطراه أكثر من مرة راح ضحية مغامرته وهذا وكيله ستيوارت يقضى عليه المناصير — ولو أنه عرف هذه الحقيقة أخيراً — وهاهو المهدى وهو بالرهد يبعث بأمير أمرائه عبد الرحمن النجومى ومعه مدافع الحصار ودم جديد من الأنصار لإحكام نطاق من الحصار لا تفلت الخرطوم منه ولا تصلها بالعالم الخارجى صلة . وكما فعل أبو قرجة قبله وجّه النجومى إنذاراً لغوردون بالتسليم دون إراقة الدماء ، وكالعادة كان رد غوردون عدم الإذعان والرفض البات . ودخلت الخرطوم فى حقبة حصارها الأخير والذى كان محكما هذه المرة إلى درجة انقطاعها تماماً عن بقية السودان .

موضوع الانقاذ أيضاً

تركنا الحكومة الإنجليزية بعد ابريل تتعرض لموضوع الحملة من وقت لآخر ولا تصل إلى رأى ، ومما يبين نفوذ جلادستون وإصراره على عدم إبعاث حملة ما أن مجلس الوزراء بحث هذه المسألة فى يوم ٢٥ يوليو ووافق تسعة من الوزراء واعترض ثلاثة وفيهم جلادستون ، ومع هذه الأغلبية الساحقة سقط القرار لأن الرئيس يصر على اعتراضه . وبعد أربعة أيام من ذلك وزع اللورد هارتنجتون وزير الحربية مذكرة لزملائه بعرض فيها المسألة بإسهاب ولوح بالاستقالة إذا لم تقرر الحكومة على الفور إرسال الحملة . وعندئذ لان جلادستون وخضع ووافق على طلب التصديق من البرلمان بثلاثمائة ألف جنيه كاعتماد إضافى يصرف لتجهيز الحملة .

حرب الطريق

وما أن قررت الحكومة إرسال الحملة وما أن حصلت على تصديق البرلمان بالمبلغ المطلوب حتى بدأت « حرب الطريق » هل تتخذ طريق النيل أم طريق بربر — سواكن ؟ ودخل الخبراء الحربيون فى جدل امتد أياماً وكان أول عوامل التأخير. وأخيراً نجحت فكرة طريق النيل وعقد لواء القيادة للورد ولسلى نفسه أكبر مويدى ذلك الطريق . وكان كتشنر آنذاك فى دنقلا كضابط للمخابرات يستطلع الأحوال ويتصل بغوردون إذا مكنته الظروف فنقل خبر الحملة إليه ووصل ذلك فى الخرطوم فى ٢١ سبتمبر ، فكان يوم أفراح وزينات ، حيث قصفت المدافع معلنة البشرى والفرح وانتشر الخبر فى المدينة بسرعة البرق . وظن الناس أنه بعد أيام قليلة تأتى الجيوش الإنجليزية بعددها وعُددها ، وسارع غوردون بتأجير المنازل التى تقع على الشاطىء لتكون مأوى للضباط الإنجليز

تجمع القوة فى مصر

تجمعت قوة الإمبراطورية البريطانية فى أصوان وحلفا تضم خيرة جندها المدربين وعلى رأسها جنرال خبر الحروب وخبرته ، وعرف بالروية والاتزان ، وعُرف أنه لايتحرك إلا بعد أخذ كامل الأهبة والاستعداد ، وعُرف بانتباهه للتفاصيل ؛ فالقوارب التى تتخذ على النيل من كندا لصلاحيتها . وخط السكة الحديد الحرب يجب أن يمد جنوباً بقدر ما تسمح الظروف ، والجمال الكافية تجمع فى الدبة ، والمؤن والذخائر تصحب الجيش لحرب قد تكون طويلة الأمد وعموماً لم يترك الجنرال أمراً للصدفة أو الظروف .

جيوش المهدية تتحرك

وفى الطرف الآخر أحتشدت جموع الأنصار فى الرهد وصدرت الإشارة من المهدى بالزحف على الخرطوم متحدية الإمبراطورية البريطانية كما تحدت الحكومة المصرية قبل ذلك فى ميادين الحرب والدولة العثمانية فى مجال الدعاية الدينية وأصبحت الخرطوم آنذاك على كل لسان واتجهت نحوها الأنظار. فهذا ولسلى يطمع فى أن يصلها وينقذ غوردون والحامية قبل وصول المهدى ، والأخير يريد استلامها والدخول فيها قبل طلائع التجريدة الإنجليزية . ولسلى يثق بقوته وبجنده ويحسب لكل الظروف حسابها ، والمهدى يعتمد على قوة الله

ويثق في رسالته ويؤمن بها وأن الله لابد مظهره على خصمه . فلنترك ولسلى في استعداده ولنرافق المهدى من الرهد حتى ديم أبي سعد غرب النيل الأبيض جنوبي أم درمان بقليل .

تحرك المهدى من الأبيض للرهد لوفرة مياهها وكثرة عشبها للحيوانات وليتكامل الأنصار والمبايعون من شتى الجهات — فكنت ترى كل يوم وفوداً جديدة تعتنق المهدية وتنضوى تحت لوائها ، فوفود الجزيرة وسنار وكسلا والجعليين وما بقى من قبائل الغرب — كلها اتخذت طريقها نحو الرهد تبايع الإمام على النفس والولد والمال . وفى إبان موسم الأمطار حين امتلأت البرك والمناهل بالمياه ، وحين نبت العشب استعرض المهدى أنصاره عرضاً عسكرياً عظيما ، وتحرك الجمع وأكثرهم بنسائهم وأولادهم ومعهم ما يمتلكونه من متاع الدنيا وضروريات الحياة ، ومشوا ببطء فى أرض رحبت بهم ، فالطبيعة مزدهرة والمياه والعشب متوافرة والناس يتلقونهم بكل إجلال وترحيب ، وليس لهم مشاكل نقل أومون أوذخائر ؛ فأغلبيتهم الساحقة تحمل السيوف والحراب وهى أسلحة على استعداد دائم للعمل ، ومن كان يحمل الأسلحة النارية توافرت ذخائرها مما غنموه من الوقائع السابقة ، وأقواتهم مما يحملونه من ذرة وما يذبحونه من ماشية وأغنام ، وحالتهم المعنوية فى القمة من حيث السمو ، فوراءهم تاريخ حافل بالانتصارات المتوالية ، وهاهم استضاءوا بنور الدين بعد أن كانوا فى ظلمة الإلحاد والبدع والضلالات ، وهاهم يتشوقون ويتلهفون لليوم الذى يدخلون فيه الخرطوم ، فمن مات فقد فاز بالشهادة ولقى ربه ، ومن كتبت له الحياة نعمت نفسه بمساهمته فى القضاء على عهد الظلمة والجهالة الدينية ، وشاعر المهدى الشيخ محمد عمر البناء ينشده قصيدته التى مطلعها :

الحرب صبر واللقاء ثبات والموت فى شأن الإله حياة

وفى منهل شات أمر بحط الرحال والراحة حتى يتكامل الجمع قبل استئناف الزحف شمالا على ضفة النيل الأبيض وهناك وافاه أستاذه — الشيخ محمد شريف

ود نور الدايم . وكان ماكان بينهما من خلاف قبل المهدية . وأدرك الأستاذ أن الظروف تقضى بالإذعان لتلميذه وقد علا نجمه وغابت شمس الحكومة المصرية ، وها هي بربر قد سقطت وانسد طريق الانسحاب لمصر . فأحسن التلميذ لقاء أستاذه رغم ماكان بينهما من تدابر وتنافر وما نسى فضل الأستاذ عليه عملا بالحديث « من علمنى حرفاً صرت له عبداً » ، وماكان المهدى ليأبه أو يعترف بما ارتكب من أخطاء قبل المهدية . فهى قد محت ماقبلها وخطت صحيفة جديدة وتُمسح الخطيئات عندما يضع المجاهد يده فى يد المهدى ويبايعه . وزيادة فى الإكرام وابتهاجاً بهذا الحدث — حدث طاعة الأستاذ وولائه — نحرت النوق احتفاء بالأستاذ وقام الجمع حتى نزلوا عند الدويم ، ومن ثم تحركوا شمالا وأدركهم عيد الأضحية فى الترعة الخضراء . فى كل يوم جديد يتلقى الإمام الوفود ويبايعونه ويلتمسون العفو والمعذرة لتواكلهم وتباطئهم إلى هذا الحد . وأخيراً وصل الأنصار وعددهم ينيف على الستين ألفاً وحطوا فى ديم أبى سعد مسافة ساعة واحدة جنوبى طابية أم درمان فى يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

خطاب النجومى لغوردون

سمت نفوس المحاصرين المعنوية وزادت جرأتهم حتى كانوا يقتربون من الخندق ويطلقون النيران ، وبعكس ذلك هلعت القلوب فى الخرطوم وبدأت تسرى روح القلق والتمرد بين السكان وإزاء ذلك ماوسع غوردون إلا أن يكتب المنشور الآتى تقوية للعزائم «إن الجيش الإنجليزى القادم لنجدتنا تبلغ عدته خمسين ألفاً وقد انقسم إلى قسمين قسم بطريق أبى حمد وقسم بطريق ودفر وقد وصلت أول فرقة منه بكورتى وعن قريب تصل بربر وربما وصلت الخرطوم قبل وصول محمد أحمد إلى أم درمان فتشددوا واعلموا أن الله ناصركم والسلام»

ووفاقا لسياسة الإنذار كتب الأمير عبد الرحمن النجومى هذا الخطاب عند ما سمع بتحرك المهدى من الرهد « أن الإمام المنتظر قد تحركت ركابه الشريفة من الرهد غازياً الخرطوم بجيوش لا عدد لها فأنصحك أن تقابله مع من تختار من الأعيان طائعاً طالباً الأمان وهولاشك يؤمنك على نفسك ومالك ومن معك

وذلك أولى من سفك الدماء . وأما ما ينقله إليك الجواسيس من أن الإنجليز قد أرسلوا جيشاً لإنقاذك فكله كذب . وهم إنما ينقلونه إليك لتبذل لهم العطاء كما هي عادتك . وأنا بعون الله قادر على فتح الخرطوم وأخذها منك عنوة ولكن سيدنا الإمام المهدى أمرنى بنصحك والرفق بك حقنا للدماء والسلام على من اتبع الهدى » .

وما كان لغوردون أن يقبل تحديا كهذا فأجاب «من غوردون باشا والى السودان إلى ود النجومى بالكلاكله إعلم أنى لست بمبال بك ولا بسيدك المهدى ولا بما معكما من الجيوش . وأما خبر قدوم الجيش الإنجليزى فليس هو من اختلاق الجواسيس بل قد جاءتنى به أخبار رسمية من قبل الحكومة الخديوية والدولة البريطانية العظمى . وسترى عن قريب ما يحل بك من الدمار وتقول ياليتنى مت قبل هذا . ولا تعد إلى مخاطبتى بعد الآن فهذا آخر العهد بيننا والسلام » .

إعدام أحمد العوام

وكان لوصول المهدى أثر عظيم فى السكان داخل الخرطوم فقد أثار أحمد العوام الناس . وهو أحد المنفيين من الثورة العرابية واتهم بأنه حاول إحراق مستودع الجبخانة فحكم عليه بالإعدام . واتفق بعض الأعيان وخاطبوا المهدى بأنهم معه قلباً وقالباً وسوف يقومون بدورهم فى إضعاف الحكومة وسوف يلحقون به عند سنوح الفرصة الملائمة وضبط غوردون أيضاً هذه الرسالة . فحبس بعضهم فى ثكنات العساكر وبعضهم فى منازلهم تحت الرقابة المشددة .

خطابات المهدى لغوردون

ولم يسارع المهدى فى فتح الخرطوم بل أصر على حصارها حتى تسلم كما سلمت حامية الأبيض دون إراقة الدماء . واستراح فى ديمه كل شهر محرم . وفى نهايته جدد الإنذار فكتب بعد البسملة لغوردون مايلى « وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدى ابن عبد الله إلى غوردون باشا : اعلم أنى حضرت بالقرب من أم درمان بجيوشى المنصورة وأصحابى وأحبابى فى الله المؤيدين بالنصر من عند الله . وكن على يقين أنى على علم من حضور عساكر الإنجليز بجهة دنقلا ولكنى لست مبالياً بهم ولا بغيرهم بفضل الله . وسيكون

لهم أسوة بجيوش هكس والشلالى . ولاتغرك نصرتك المتوالية فكل من استشهد بها فهو عن أمرى رأفة بهم لينالوا درجة الصالحين تصديقاً لقوله تعالى « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لاخوف عليهم ولاهم يحزنون » ، ولولا مراعاة حسم دماء المسلمين لضربت صفحاً عن مخاطبتك وبادرتك بالهجومات التى لا أشك فى نجاحها . فسلّم تسلم أنت ومن معك وقد نصحتك وأنصحك وإلا فالحرب بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى» .

فرد غوردون « لست أبالى بك ولابجيوشك وليست العساكر الإنجليزية بجهة دنقلا كما تزعم تضليلا لعقول أنصارك وإغرائهم بطلب المستحيل بل هم بجهة بربر والمتمه . وسترى ما يحل بك وبجيوشك عند مجيئهم من النكال بل إذا لم يأتوا ففىّ الكفاءة لأن أعرّفك قدرك ولاتغرنك كثرة أنصارك فالبغى له مصرع والسلام » .

قوة الرجلين

هكذا وقف الرجلان وجهاً لوجه . غوردن يفاخر بقوة الإمبراطورية ، التى لاتغرب الشمس فيها ووراءه تاريخ انتصاراتها السياسية والحربية معتداً بكفاءة الجندى البريطانى وسمو روحه ، وها هى حكومة جلالة الملكة قررت الإنقاذ وكانت التجريدة التى سوف ينتهى بها الأمر إلى الغلبة والفوز ، ولم يعد كما كان وحيداً منبوذاً ، وها هو الرأى العام البريطانى والملكة نفسها يتجهون بأنظارهم نحو الخرطوم ويتابعون بلهفة واهتمام مسير الحملة فى انتظار اتصالها بالجندى المحاصَر . وهم إذ يطمئنون للنتيجة يعتقدون فى غوردون وحسن تصرفاته ونفوذه العظيم على السودانيين عموماً والجند منهم خاصة . فإذا أبطأت الحملة نوعاًما فذلك لتأمن المفاجآت وتضمن الفوز النهائى فغوردون فيه من المقدرة والكفاية ما يجعل الحامية تحتمل الضيق وتقف فى وجه العدو حتى تصلها طلائع الحملة . والمهدى فى أوج مجده وقد دانت له البلاد بأكلها ما عدا بعض الحاميات وهذه تحت نطاق من الحصار لاتفلت منه ، وأنصاره بلغ بهم الاعتقاد برسالته والإيمان

بما جاء به ما جعلهم يتسابقون إلى الموت نصراً للدين وجهاداً فى سبيل الله وهو يشع عليهم من روحه وإيمانه بصدق رسالته .

حالة السكان فى الخرطوم

وقد صاحب هذه الحالة النفسية السيئة فى سكان الخرطوم حالة أخرى من الجوع والضيق حتى بدأوا يموتون بحالة أقلقت غوردون ورأى أن ما لديه من أقوات لاتقوم بتموين كل الناس ، فبعث بالرقيق والمساكين العجزة من النساء والرجال إلى المهدى بكتاب مفاده « اعلم أن الجنس للجنس رحمة وهؤلاء المساكين يشتركون معك فى الجنسية وقد قضت الحال بإخراجهم من الحامية بعد أن عاشوا فيها سنة على نفقة الحكومة فصار عليك الآن أن تتولى أمر معيشتهم فافعل بهم ما أنت أهله » وفى طابية أم درمان آلت الأقوات إلى النفاد وبقى ما يكفيهم أياماً معدودات ولاسبيل إلى تموينهم حيث رابطت جهادية أبى عنجة على الشاطئ وعزلتهم عزلا تاماً من أى اتصال بالخرطوم .

الحامية تحاول الخروج مرتين

وبزغت شمس سنة ١٨٨٥ بخروج بعض جنود حامية الخرطوم من استحكاماتها لمنازلة الأنصار فى الخارج فاصابوا منهم وأصيبوا هم أيضاً ورجعوا إلى داخل الاستحكام . وبعد يومين أمرت الحامية بالخروج مرة ثانية علها تزحزح الأنصار وتفتح ثغرة فى صفوفهم وتنال بعض القوت ، فرجعت دون أن تنال شيئاً . وبعد ذلك بيومين سلمت طابية أم درمان بعد نفاذ القوت وفشل محاولة الجلاء للخرطوم ، فأكرمهم المهدى وأدخلهم فى عداد جهاديته وسمى فرج الله باشا قائد الطابية أميراً عليهم .

المهدى يوصى أنصاره باللاجئين

وكان لتسليم حامية أم درمان أثر بالغ فى نفوس أهالى الخرطوم الذين ظلوا يعانون آلام الحصار لأشهر عديدة ، فأخذوا يتسللون خلسة للتسليم . فنشر المهدى كتاباً لأنصاره يوصيهم بالرفق بهم وحسن معاملتهم « وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى إلى أحبابه وأصفيائه أنصار الدين بالهوى[1] والشرق والغرب وخصوصاً العلماء والرءوس . وبعد فإذا فهمتم هذا أحبابى فألّفوا عباد

---

(١) غرب النيل الأزرق . .

الله الذين يخرجون مسلمين ومنقادين بأنواع التأليف وتلقوهم بالإكرام والتشريف ولاتنظروا لمن استشهد من الأنصارفتحنقوا بسبب ذلك على من كان مع الكفار. فإن قيامنا هذا لله ومن استشهد من الأنصار فقد نال عظم المقدار فيما فعله لوجه الله ، فأكرموا الذين يأتون مسلمين وخصوصاً العلماء ومن كانوا أهل وظائف كبار وبالأخص نحو الأمين الضرير فقد قال صلى الله عليه وسلم « أكرموا عزيزقوم ذل وغنياً افتقر ، والسلام » ١٩ ربيع أول سنة ١٣٠٢ هـ ٦ ينايرسنة ١٨٨٥

المهدى يخاطب أهل الخرطوم

وبعد أن أشارلأصحابه بما يجب أن يعامل به الذين استسلموا ومن يستسلم بعد ذلك مبعداً بهذا الظنة بأنه يتوق لسفك الدماء ومرغباً لأهالى الخرطوم فى الخضوع والانقياد ومظهراً لهم بالطريق العملى أنهم فى أمن وسلام إذا ما أذعنوا عندئذ كتب لهم يدعوهم للتسليم بما يلى : — « وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى كافة أهالى الخرطوم هداهم الله إلى الصواب .

وقد طالما ذكّرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فإلى متى الغفلة والتسويف وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ؟ أترغبون النجدة والفرج عند الإنجليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الذى بيده أموركم وقوامكم ؟ وهو القوى العزيز؟ فما الإنجليز وغيرهم أضعافاً مضاعفة بشىء فى جنب قدرة الله التى يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب وما الغوث إلا من عند الله القريب المجيب . وحيث فهمتم ماذكر فإنى لاأؤاخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهوأرحم الراحمين . فأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون ، عليكم أمان الله ورسوله وأمان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى ، وغايته أن من سلّم سلم ومن خالف عطب وندم فهيا هيا ثم هيا إلى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولاتخشوا من شىء يحصل عليكم فإنا مناظرون فيكم آية قوله تعالى « إذاجاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم » والسلام .

مخاطبة غوردون مرة ثانية

سلّمت حامية أم درمان واشتد الضيق على أهل الخرطوم وتسلل بعضهم وانحطت الروح المعنوية لمن بقى منهم ، وقوة الأنصار تضرب نطاقها على المدينة تتفوق فى العدد والعدة والروح ، ومع ذلك ماكان المهدى يريد اقتحامها وأخذها عنوة وماكان يريد للدماء الإراقة وللمدينة الخراب . فحذر أصحابه من معاملة المستسلمين بقسوة ، بل أمرهم بحسن وفادتهم ورغب أهل الخرطوم فى التسليم لأمر الله وأن لاتثريب عليهم فى عنادهم السابق ، وبقى عليه الآن أن يخاطب غوردون بكلام صريح ولكنه لايجرح فيه كبرياءه ويخبره أن العون سوف لا يصله من التجريدة الإنجليزية فبعث إليه برسالة هى : —

« وبعد فمن العبد المفتقر إلى الله المعتصم به محمد المهدى بن عبد الله إلى غوردون باشا فسلّم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك . فقد أتانى الخبر من الرسول أن الجردة الآتية لوكان معى ستة أنفار تموت أوخمسة تموت أو واحد تموت أو وحدى كذلك ولوكانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر . وقد أتانى خبرها أنها تموت أيسر من موت جردة ود الشلالى وهكس والمديريات الغربية كلها والبحر الأبيض . وكذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله ومادام أن الله القادر أيدنى بالكرامات وبالنصر فلايضرنى انكار منكر وإنما يضرّ نفسه فقط ، والأمر الذى وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم صار . على أن الجردة التى تعتمدونها ما لها وجه بوصولها اكم من سدّ الأنصار الطرق فإن أسلمت وسلّمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وأن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراده الله والسلام » .

« تحشية : وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابى هذا فتخبرك المرأة الواصلة إليك وإن رأيت التمكين واليقين إن أردت التسليم أكثر من هذا الجواب سنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الأمان فلا مانع وبذا لزمت التحشية » .

كتاب آخر

وأردفه بكتاب آخر هذا نصه : — « وبعد فإن أراد الله سعادتك وقبلت نصتنا ودخلت فى أماننا وضماننا فهو المطلوب وإن أردت أن تجتمع على الإنجليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك إليهم فإلى متى تكذيبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله (صلعم) بهلاك من فى الخرطوم قريباً إلا من آمن وسلّم ينجيه الله ، ولذلك أحببت لله إلا تهلك مع الهالكين لأننا قد سمعنا مراراً فيك الخير ، ولكن على قدر ما كاتبناك للهداية والسعادة ما أجبتنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين . والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك وفيما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن يبشر الله هدايتك بها إذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة إلى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع إلى وطنك وتحوز فضالتك الكبرى ولئلا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى « ولاتقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » والسلام . وقد بلغنى فى جوابك الذى أرسلته إلينا أنك قلت إن الإنجليز يريدون أن يفدوك وحدك بعشرين ألف جنيه ، ونحن نعلم أن الناس يتقولون من البطال كلاماً كثيراً ليس فينا وذلك لصدود من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا وأنت إن قبلت نصحنا فبها ونعمت وإلا إن أردت أن تجتمع على الإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إليهم والسلام » .

موقعة أبو طليح تؤثر فى موقف المهدى

هكذا كان الموقف إلى ٢٠ يناير بعد انقطاع الخطابات وبعد أن بعث المهدى إلى غوردون بخطابه الثالث . فالمهدى لايزال على رأيه من أخذ الخرطوم بالرضا والتسليم كما فعلت الأبيض . ولايزال غوردون ينتظر العون من تجريدة الصحراء التى سنتعرض لها فيما بعد ، وما زال يطمئن الجند والمدنيين ويبشرهم بقرب الفرج وظهور جنود جلالة الملكة . وفى ٢٠ يناير وصلت الأخبار إلى معسكر المهدى بموقعة أبى طليح بين الأنصار وفرقة الصحراء فسمع عويل وبكاء فى معسكر الأنصار من النساء على من فقدن من بعولتهن وإخوانهن فى الموقعة . وعلى ذلك أيقن المهدى ورجال حاشيته بوصول طلائع الحملة الإنجليزية بالقرب

من المتمة وإنه وإن قاومهم الأنصار ما وسعتهم المقاومة وأبلوا بلاء حسناً حتى كثر قتلاهم إلا أن أغلبية الحملة وصلت إلى النهر ولابد أن تداوم سيرها صوب الخرطوم . فإذا صمدت الحامية كل هذه المدة ورفضت الإذعان والتسليم بالرغم من قلة عددها وبالرغم مما أصابهم من ضيق وجوع وانحطاط فى الروح المعنوية فانهم وقد علموا وصول الطلائع إلى المتمة فأملهم سوف يتجدد ، ويظلون فى عنادهم . فلابد والحالة هذه من أخذ المدينة عنوة إن لم تنجح السياسة السلمية ، ولابد من القضاء عليها وهى فى وهنها وضعفها قبل وصول النجدات القوية الجديدة .

المهدى يقرر الهجوم

عقد المهدى مجلسه للبت فى الشأن الخطير من خلفائه وكبار أمرائه فى مركز قيادة ود النجومى فى شجرة محوبك وتداولوا فى الأمر وقلبوا كل الظروف والاحتمالات وأخيراً قرّ الرأى على مهاجمة الخرطوم وأخذها عنوة ورجع المهدى إلى معسكره فى الغرب مع خلفائه تاركاً تنفيذ الأمر لود النجومى وأبى قرجة . وبينما يستعد الأنصار للهجوم المنتظر متلهفين للقاء ربهم أو المساهمة فى تقوية الدين بظهوره على جيوش الكفر والإلحاد ، يبتهج غوردون ويزفّ البشرى لكل من فى الخرطوم بقرب الفرج بعد الشدة وبالطوابير الإنجليزية الزاحفة نحوهم . وأخذ منظاره فى الخمسة أيام الأخيرة من حياته مقضياً معظم وقته على سطح السراى يمسح الأفق به نحو الشمال عله يرى دخان البواخر على النيل ، أو غبار البيادة على الأرض ، وانتعشت روح الحامية وتحملوا تلك الأيام بصبر وجلد وسمو روح ماكانوا يقوون على احتمالها لولا أملهم المرجو فى جنود جلالة الملكة . وهكذا كانت حملة ولسلى سبباً فى الشهور الطويلة المضنية التى مرت على الخرطوم جنوداً وسكاناً ، وهى أخيراً التى جعلتهم يسترسلون فى عنادهم وإصرارهم ، وهى التى زادت غوردون تشدداً فى الاستمساك بموقفه وقدر للحامية أن تباد وتفنى دون أن تنقذهم حملتهم المنتظرة ، والتى تمشى مشى السلحفاة ؛ وقدر لأهل الخرطوم أن تروى دماوهم شوارع مدينتهم لغير سبب وذلك انتظاراً للفرج على يد حملة الإنقاذ .

الموقعة

ركز المهاجمون فى فجريوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ هجومهم على الثغرة التى تقع فى طرف الاستحكامات من جهة النيل الأبيض والتى لم تتم تقويتها عندما نزل النهر بعد الفيضان ، والتى يقال أن السنجق عمر إبراهيم من ضباط الحامية أفشى سرها للأنصار بعد فراره والتجائه إليهم . وقبل الهجوم قضى الأنصار ليلهم بين ركوع وسجود وتهليل وتكبير فما إن صدر الأمر حتى فتحت نيران شديدة من المدافع والبنادق على الاستحكامات على طول الخط ، وتحت هذا الساتر من النيران تسلل عدد منهم إلى الثغرة وباغتوا ما خلفها من العساكر ملتفين حولهم إلى الجنود الذين يحمون الاستحكامات ، وتسلق بعضهم فى أجسام بعض حتى علوا على الاستحكامات وهبطوا من ناحيتها الأخرى منقضين على جنود الحامية انقضاض النسور من شاهق . وسرعان ما اختلط المهاجم والمدافع ، وسرعان ما نشب قتال اليد باليد الذى يجيده الأنصار. وذهب بعضهم إلى أبواب الاستحكامات ففتحها وتدفق سيل الأنصار. وعندما احتدمت المعركة رجع بعض الجند إلى المدينة ملتجئين بدورها ، وخرج بعضهم إلى خارج الاستحكام يلقون السلاح مستسلمين ، وذهب فريق من الأنصار توًا إلى السراى يقتلون من أشهر السلاح أمامهم ، ويصعدون السلم فيقابلهم غوردون وجهاً لوجه . وهنا تختلف الروايات فتقول بعضها إنه سألهم عن محمد أحمد فأجابوه بالطعن . ولو صحت الرواية فإن فى تسميته بمحمد أحمد اعتراف صريح بعدم مهديته لأنه أصبح منذ ليلة أبا محمد المهدى . وهذا ما يجعل الأنصارى المتحمس يرد عليه بالرمح لا بالإجابة على سؤاله . وبعضها تقول إنه كان يطلق النيران كقواصته فما كان من الأنصار إلا توجيه الرماح نحوه .ولكنه قتل على كل حال سواء أكان يقاتلهم أم كان يسائلهم فأخذوا رأسه وحملوه إلى المهدى .

المهدى يغضب لقتل غوردون

من المؤكد أن المهدى ما كان ليرغب فى أن يقتل غوردون وهذا يتضح من خطاباته الأخيرة التى وجهها إليه . فإذا كان يريد له أن يلتحق بالإنجليز وإذا كان يقول إنه سمع عنه كل خير وثناء ، فإنه لاشك يريد استبقاءه ولا يريد له

الموت والرواية التي تقول إن المهدى كان يرغب فى مبادلته بعرابى كما أوردها سلاطين وغيره وكما أشيعت فى حينها لايؤيدها أى أنصارى من أصحاب المهدى . ومن الأدلة أيضاً على رغبة المهدى فى استبقاء غوردون أن قاتله ما ظهر بين الأنصار . وفى رواية أن الفريق الذى اقتحم السراى دافع عن قتله لغوردون بأن الأخير كان يطلق النار هو وقواصته . كل هذه الروايات تفتقر إلى التأييد لأنها أخبار جمعت من مصادر كثيرة جلها سماعية . ومهما كان من أمر ففى زحمة الحماس الدينى ونشوة الظفر والنصر قد تخالف الأوامر وتُرتكب الأخطاء التى كان القائد يحذّر منها .

المهدى وولسلى بعد سقوط الخرطوم

حملة ولسلى فى دنقلا

تركنا الحكومة الإنجليزية تقرّر إيفاد الحملة لإنقاذ غوردون والحامية ، وتركنا اللورد ولسلى قائدها يجمع قواتها فى مصر ويعنى بالدقائق من تفاصيلها. وهاهو بعد ذلك كله يصعد بقواته فى النيل مستخدماً ما تبقى من سكة حديد حلفا ، مجتازاً الشلال الثانى وما فوقه من شلالات أخرى ، وأخيراً جعل كورتى مقر قيادته ليبعث منها بالطوابير إلى الخرطوم . وإذا كان الغرض الرئيسى لحملته هو إنقاذ غوردون ومن معه داخل نطاق الحصار فى الخرطوم ، فالسرعة عنصر رئيسى . وكان غوردون فى رسائله العديدة والتى وصل بعضها إلى مصر ، يكرر ضرورة ظهور الطلائع من تلك الحملة فى الخرطوم بلباسهم الأحمر وهذ وحده يكفى فى نظره لأن يعيد إلى النفوس طمأنينتها وأن يلقى الرعب فى قلوب الأنصار.

طابور الصحراء

أخذاً بهذه النظرية رأى ولسلى إيفاد طابور سريع عبر الصحراء للمتمة ، ومنها بوابور أو وابورين سريعين يقلان عدداً من لابسى الجاكتات الحمراء ويعقبهم بقية الطابور. ويتحرك بقية الجيش أو الجزء الأكبر منه بطريق النيل إلى أبى حمد فبربر فالمتمة . وكان لابد انسياقا لعامل السرعة أن يغادر طابور الصحراء ويقرب من الألفين بما فى ذلك الأتباع فى ركب واحد دون تخلف. وكان لابد لذلك من عدد ضخم من الجمال لحمل الأغذية والذخيرة والجند معاً. وكان لابد من استيراد الجمال من مصر والاعتماد على القبائل الموالية فى السودان وخاصة الكبابيش .

فالكبابيش قد وقعوا تحت نفوذ المهدى ، وقد قتل شيخهم لاتهامه بعدم الإذعان والطاعة . وهم الآن لايستطيعون تزويد الحملة بالجمال والأنصار كلهم عيون وأرصاد . وقبائل دنقلا ألقى فى روعها أن الجناب العالى لايريد هذه الحملة وأنها آتية بالرغم عنه وهم موالون مخلصون فى ولائهم للخديوى. ولذلك امتنعوا

عن تزويد الحملة بالجمال بل أرادوا عرقلة مساعيها فى هذا الصدد كما يتضح من البرقية التالية التى بعث بها الخديوى إلى مدير دنقلة بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٨٥ « بلغنا أن قبائل السواراب والهواوير الذين أوعدوا بتوريد جمال للإنجليز عند وصول الجنرال اللورد ولسلى إلى كورتى قد تمنعوا الآن عن توريدها زعماً منهم بأننا لسنا محبين للإنجليز وأننا نود إعانة حركاتهم فنوصيكم أن تزيلوا هذه الأفكار التى لا أصل لها وأن تفهموهم بكافة ما يكون فى إمكانكم من الوسائل بأن مصلحتنا ومصلحة مصر ومصلحتهم متوقفة على سرعة إسعاف وإنقاذ الخرطوم ، وتفهموهم على الخصوص أن الإنجليز لم يتوجهوا للسودان بقصد امتلاكها والبقاء فيها ؛ بل إنهم توجهوا إليها خدمة لمصرولنا . وبقصد إنقاذ الخرطوم وغوردون باشا . فإذا لم يحصل إنقاذ الخرطوم يكون ذلك أكبر المصاب على مصر وعلينا . فنحن معتمدون عليكم وعلى صداقتكم فى تفهيم جميع ما بتلغرافنا هذا إلى مشايخ القبائل لكى يساعدوا الإنجليز . . » .

الطابور يتحرك

تكامل الجيش بكامل معداته فى كورتى ووصل اللورد ولسلى وأركان حربه إليها فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨٨٤م . وفى آخر الشهر بدأت طلائع حملة الصحراء تغادر كورتى إلى النقطة التالية وهى آبار جكدول : واستخدمت الجمال القليلة أكثر من مرة لنقل المعدات والجند . وفى ٨ يناير غادر قائد طابور الصحراء الجنرال ستيوارت كورتى . والأوامر التى تلقاها من القائد الأعلى تتلخص فى أن تلك الحملة تسرع وتحتل المتمة . ومنها تنزل فصيلة فى الوابورات برئاسة السر شارلس ولسون للاتصال بغوردون وتأكيد حضور الحملة لإنقاذه . ويعتقد اللورد ولسلى فى تعلياته أن المهدى ربما رفع الحصار وتقهقر إذا علم بقدوم الحملة . وإذا كانت صعوبات النقل بالجمال أخرت طابور الصحراء أياماً فإن ستيوارت عندما تعمق فيها أدرك صعوبة المياه وفساد الأطعمة والتعب والضنى الذى أصاب جماله ورجاله . ولتركهم يغادرون الجكدول صوب آبار

أبي طليح آخر مرحلة قبل المتمة ، ولنرجع إلى معسكر المهدى ونرى ماذا فعل لملاقاة العدو المهاجم .

موقعة أبي طليح

كانت عيون محمد الخير وجواسيسه وهو فى بربر تتلقى أنباء الحملة وتحركاتها وكان يرسلها على الهجن السريعة تباعاً للمهدى فى معسكره بأبى سعد . فلما أن علم أن حملة الصحراء فصلت عن كورتى وعلم أنها إنما تتجه نحو المتمة ، بعث المهدى سرية بقيادة الأمير موسى ود حلو وبعث الحاج على ود سعد لاستنفار الجعليين لملاقاة الإنجليز وأردفهما بجيش ثالث يقوده النور عنقره ورابع يقوده الفكى مضطفى ود الأمين . ولكن أسرع الجيوش للاصطدام بالعدو كان جيش الأمير موسى إذ احتل آبار أبى طليح مانعاً إياهم من الاستقاء بها . ولكن جيشاً يرى المياه أمامه ليس من السهل منعه منها اللهم إلا بقوة فى الأسلحة تحصده قبل ورودها . أما وجيش الصحراء يمتلك أحدث الأسلحة وأقواها ويضم فريقاً مختاراً من أحسن الجنود الإنجليزية فقد شق طريقه إليها وأجلى الأنصار وسقط فيها عدد من الإنجليز ، وكان للحماس البالغ الذى بدأ على الأنصار لملاقاة الكفار أثر بالغ فى اشتداد المعركة .

ولسن إلى الخرطوم

استقى الجيش وبنى زريبة ترك فيها الجرحى تحت حراسة فصيلة من الجند ، واستطرد سيره نحو النهر ولكن الأنصار يعترضون طريقه من وقت لآخر ويدور قتال يسقط فيه عدد من الجانبين وأخيراً بعد أن جرح قائد الحملة الجنرال ستيورات جرحاً بليغاً وصلوا النهر واستقوا ، بعد أن عانوا ما عانوا من قسوة الصحراء وملاقاة الأنصار . وتحصن السر شارلس ولسن الذى أصبح قائد الطابور بعد إصابة ستيوارت فى موضعين أحدهما على النهر والآخر فى قرية القبة التى تقابل الموضع النهرى . وكان السر شارلس ينوى مهاجمة المتمة وبدأ يباشر تلك المهمة فعلا ، لولا أن لاحت فى الأفق الوابورات التى بعث بها غوردون منذ أشهر لترابط فى مياه شندى والمتمة ، تتلقى الطلائع الأولى من حملة الإنقاذ . فعدل عن مهاجمة المتمة ونزل فى وابورى بوردين وتلحوين بما يقارب مائتين وأربعين جندياً سودانياً وخمسة وعشرين من الإنجليز وبعد أن

استكشف إلى جهات شندى اتجه نحو الخرطوم فى الساعة الثامنة صباحاً من يوم ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ وفى معيته خشم الموس بك ، وقاسوا وقاسى الوابوران عناء فى الطريق وخاصة فى شلال السبلوقة . وفى صباح يوم ٢٨ يناير حين اقتربوا من الخرطوم وحينما كانوا بين أم درمان وجزيرة توتى كانوا هدفاً لنيران من الجهتين ، ومع ذلك ماكانوا يتأكدون من سقوط الخرطوم بالرغم من صياح الأهالى لهم من الشاطئ أكثر من مرة بالخبر .

أخذ السر شارلس ولسن منظاره فبانت له أن الخرطوم فى حالة من التخريب وأن الأنصار احتشد بعضهم على الشاطىء ولكن منظاره كان يتجه نحو سراى الحكمدارية فلم ير أثراً للعلم المصرى . وهنا أيقن بصحة الخبر ، وهنا علم أن لاقبل له بمقاومة كل قوة المهدية التى احتلت الخرطوم . فأصدر الأمر بأن يعكس الوابوران اتجاههما ، إذ سقط أو أسر الرجل الذى أتوا لإنقاذه وسقطت المدينة التى أمروا برفع الحصار عنها .

أما الأنصار فهم على اطمئنان من أن ما أتى فى الوابورات قوة ضئيلة لايُعبأ بها وأن جيشهم الذى يوالونه بالإمداد كفيل بصد الجنود الذين وصلوا النهر عند المتمة ولم يفعل المهدى عندما نُقل إليه خبر الوابورات أكثر من أن رفع يديه إلى السماء يدعو بقوله « اللهم يا قوى يا عزيز انصرنا على الترك وأعوانهم الشايقية والإنجليز » .

رجع السير شارلس ولسن والرصاص ينهمر عليه كالمطر من توتى وأم درمان وظل يتعثر فى سيره فى مياه معادية ، و فشا روح التمرد والعصيان بين الجند السودانيين ، وساهمت جنادل النهر وجزره الرملية فى إعاقة السير ، وأخيراً بعد أن تعطل وابور وانعطب آخر أنقذه جنود القبة بعد أن تعرض إلى أخطار محققة .

ولسلى يستفهم

طبيعى أن تُبعث الرسائل المستعجلة لنقل الخبر إلى القائد العام فى كورتى . وسرعان ما أبرق إلى حكومته يتلقى تعليماتها الجديدة طالما أن مهمة الإنقاذ قد فشلت . فأجابت الحكومة بتعليمات غامضة تتلخص فى التأكد من سلامة

غوردون أو موته والثبات فى الأراضى التى لم تقع تحت قبضة المهدى . ولكن ولسلى ردّ بأنه يريد تعليمات صريحة بعيدة عن اللبس والإبهام ، ويستفهم فيما إذا كانت مهمته الجديدة هى سحق المهدى أم لا ؟ وعلى كل لا يمكنه القيام بعمل سريع فى الوقت الحاضر للزحف على الخرطوم بل يكتفى باحتلال بربر وفتح طريق بربر — سواكن ثم يبدأ عملياته الحربية للقضاء على المهدى فى الخريف القادم فأتاه الرد بأن الحكومة عاقدة العزم على سحق المهدى وأنها تترك له التصرف التام فى تنفيذ المهمة الجديدة .

حالة طابور الصحراء السيئة

هذا ما كان من موقف ولسلى فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٥ ، ومن الجانب الآخر ما إن علم المهدى بوجود الإنجليز فى القبة حتى بعث بقائده المظفّر عبد الرحمن النجومى للقضاء على طابور الصحراء . وما أن شعر پولر قائد حملة الصحراء الجديد بحرج موقفه وحالة جنده السيئة وصعوبة الترحيل ، حتى أزمع الرحيل عن القبة متراجعاً إلى أبى طليح وجكدول ثم إلى كورتى .. ويجهل ولسلى الموقف وحرجه ويبعث إلى پولر بعزم الحكومة الإنجليزية على سحق المهدى ويأمره أن يحتل المتمة ويتقدم شمالا ليلتقى بالحملة النيلية فى بربر.

بعث پولر للقائد العام بما يلقاه من قسوة الطبيعة من عنت ، فالجمال تموت بالمئات والجند قد هلكت أحذيتهم ، وصاروا يتحسسون طريقهم فى الصحراء على أرجل عارية ، لفّت عليها الخرق البالية . وفوق هذا فهم شرذمة ضئيلة نسبياً أمام جحافل الأنصار عقب انتصارهم العظيم فى الخرطوم . واستمر فى تراجعه يترك النيران موقدة بالليل ويرتحل فى أوّله موهما للأنصار بأنه وجنده فى معسكرهم ويحس الأنصار بالخديعة فى أول النهار وتلحق فئة من الفرسان تناوش المؤخرة وتزيد فى إزعاجهم حتى وصلوا كورتى ، بعد أن دفنوا قائدهم الأول السر هربرت ستيوارت فى آبار الجكدول متأثراً بجراحه .

الحملة النيلية

اقتنع ولسلى بما بسطه پولر من صعوبات وأتته الأخبار أيضاً عن عوائق الحملة النيلية فى المؤن ومناوشات الأنصار بالرغم من انتصارهم على جيش

يقوده عبد الماجد أبو لكيلك من الميرفاب وموسى أبو حجل من الرباطاب وسليمان ود قمر من المناصير . ولكنهم فقدوا قائدهم الجنرال إيرل وقاد الجيش بعده الجنرال براكنبرى . وفوق ما يلاقيه الجيش من صعاب أدرك ولسلى أن انتصار المهدى الحاسم ربما يؤثر على القبائل الضاربة فى الصحراء حيث تتخذ موقفاً معادياً نحو الجنود الإنجليزية . وهكذا عزم على استدعاء الحملة النيلية وطابور الصحراء يتعثر فى مشيته فى طريقه متراجعاً نحو كورتى . وهكذا تجمعت القوة المتراجعة كلها على النيل فى ١٦ مارس . وفى آخر الشهر غادر ولسلى مقر قيادته إلى القاهرة ليشرف بنفسه على الاستعدادات لاستئناف الزحف فى الخريف .

سكة حديد سواكن

كانت خطة ولسلى عندما تلقى أوامر حكومته بسحق المهدى هى أن تعمد تجريدة إنجليزية من سواكن تقضى على قوة عثمان دقنة أولا ، وتحتل الجبال الشرقية لتمهد لمد خط حديدى من سواكن لبربر وتعاقدت الحكومة فعلا مع شركة إنجليزية وبدأت عملها . وكان المحتمل وصول الخط إلى نحو مائة ميل قبل استئناف العمليات الحربية . فذهب الجنرال جراهام إلى سواكن مرة ثانية ونزلت قواته تباشر عملياتها . وكالعادة نجحت فى زحزحة الأنصار عن النطاق الذى ضربوه حول سواكن ، ولكنهم أبناء الصحراء والجبال تقهقروا فى أوديتها وشعابها ولم تنجح الحملة فى إبادتهم كما كان ينتظر منها . وبدأت الشركة تباشر عملها فى السكة وتراكمت موادها من قضبان وقاطرات وعربات .

الحكومة الإنجليزية تعلن الجلاء

وبينما كان ولسلى ينظم خطته واستعداداته للعمليات المقبلة فى مركز قيادته فى القاهرة أخبرته حكومته فى ١٣ أبريل باحتمال إخلاء السودان وصرف النظر عن القيام بعمليات حربية . وفى ٢١ منه أعلنت الحكومة عزمها فى البرلمان على الجلاء . والدافع الأول لذلك هو النزاع بين روسيا وبريطانيا فى الأفغان ، فرأت الحكومة أن تتفرغ لمعالجة الموقف الأفغانى وتترك مسألة السودان بالرغم من احتجاج ولسلى بأن مصر سوف تتعرض لخطر داهم ينبعث إليها من الجنوب .

ونزولا لأوامر الحكومة أصدر أمره فى ١١ مايو بالجلاء وبدأت الجنود الإنجليزية تغادر دنقلا متعرضة لتوبيخ الأهالى .

أمل جديد

أثناء تراجعهم سقطت وزارة جلادستون وتألفت وزارة من المحافظين ظن ولسلى أنها ربما لاتوافق على الجلاء فأمر جنوده بالوقوف فى أماكنهم ريثما يتصل بالحكومة . ولكن پولر أبرق له بأن الجلاء قد كاد يتم فعلا والرجوع يعنى إيفاد حملة جديدة وهذا ما دعا الحكومة الجديدة تظهر رغبتها فى استمرار سياسة الجلاء وصدر هذا فى أول يوليوسنة ١٨٨٥ ، وغادر ولسلى القاهرة بعد أن قدم تقريراً طويلا عن أعمال الحملة وبسط ما قاسته من شدائد وأطرى روح الجيش المعنوية وأخيراً قدم عدداً من الضباط والجنود مقترحاً ترقيتهم أو إعطائهم أنواط الجدارة والاستحقاق .

خيبة الأمل

وهكذا ختمت أعمال تجريدة عظيمة كلّفت الخزانة البريطانية المال واشترك فيها أعظم الضباط وأمهر القواد الإنجليز وأحسن الفرق الإنجليزية وظلت تشايعهم الحكومة والرأى العام الإنجليزى وحتى صاحبة التاج ، وظل الجميع يتلهفون لتلقى أخبارها ويتابعون جندها فى حملتى الصحراء والنيل على الخريطة ، وكلما دنت خطوة من الخرطوم استعدوا لتلقى الأنباء السارة بإنقاذ بطل الإمبراطورية آنذاك . وما إن علموا سقوط الخرطوم وسقوط البطل بين جدرانها وفشل هذه الحملة العظيمة حتى عرت الرأى العام موجة من الحزن والأسى . ومثلما كان تجهيز الحملة نتيجة إثارة الرأى العام أصبح الشعب الإنجليزى ينحي باللائمة على الحكومة وعلى القائد . فالحكومة فى نظره تباطأت وعرضت سمعة بريطانيا ، وضحت برجل من خيرة أبطالها وفقد الثقة فى حكومته وخذلها فى الانتخابات . وولسلى اتخذ طريقة السلحفاة فى زحفه وولسن وصل الخرطوم بعد يومين من سقوط المدينة لغير ما سبب ظاهر .

الأنصار يحتلون دنقلا

تركنا النجومى يواصل زحفه للقبة ولكنه رجع عندما رآهم يخلونها ويتراجعون نحو دنقلة فأسند المهدى أمر تعقبهم فى دنقلا لعامل بربر الأستاذ محمد الخير . ولكن الإنجليز كفوا الأنصار مؤونة الملاقاة والحرب حيث أخلوا

دنقلا . فبعث محمد الخير بابن أخيه عبد الماجد محمد خوجلي لاحتلالها ريثما يلحق به وفعلا تم له ذلك وأعلن ضم دنقلا إلى الأراضى المهدية وحل بها صيف سنة ١٨٨٥ والإنجليز يتراجعون شمالا بينما انتقل إلى الدار الآخرة الإمام المهدى بعد أن تم له احتلال كل السودان غير حاميات هى فى طريقها إلى التسليم وغادرت القوة الأنجليزية البلاد .

المهدى يؤسس أم درمان

نرجع الآن إلى معسكر المهدى فى أبى سعد بعد سقوط الخرطوم وبعد رجوع ولسن بخفى حنين . والأنصار يستبشرون بنصرهم العظيم والجيش بجمع الغنائم ويودعها بيت المال . فأقام فى معسكره إلى أن أشرق يوم الجمعة ٣٠ يناير حيث تحرك من الديم وركب وابور الزبير التى سميت الطاهرة وصلى الجمعة فى مسجد الخرطوم وظل يتردد عليها أياماً حتى عزم على الانتقال من معسكره إلى مقرأم درمان الحالية فى أواخر فبراير ، وبنى جامع صغير بالزنك وبُنيت البيوت من الطين والحجر وأكثرها بالقش والبروش . وامتد المعسكر فى مساحة كبيرة بالأنصار الذين انتقلوا من ديم أبى سعد وبالوافدين من مختلف البقاع لمبايعة المهدى والتمتع برؤياه وقد وضح لهم ما كان غامضاً فلاتردد ولاشك بعد اليوم وقد تجمع فى «البقعة» آنذاك على حسب الروايات ما يبلغ المليون نسمة .

ما بعد الخرطوم

وجه المهدى همه بعد إقامته فى أم درمان إلى إخضاع الحاميات التى لم تخضع بعد . فالسيد محمد الكريم إلى سنار والأمناء إلى كسلا حسب ما طلب أهلها وأبو عنجة إلى جبال النوبة لإخضاع أهل الجبال وقد عاثوا فساداً وقطعوا الطريق بعد ارتحال المهدى من كردفان . وها هو النجومى إلى الشمال للإنجليز وبعده محمد الخير لمتابعتهم فى دنقلا.

غزو مصر

واتجهت أنظاره بعد ذلك خارج حدود السودان والهدف الأول يجب أن يكون مصر فهذا حسين باشا خليفة مدير بربر السابق وصاحب النفوذ الواسع فى قبيلته العبابدة ومن والاهم من أبناء الصحراء وصعيد مصر قد شيعه بمنشور يقول له فيه : — « ولما كان موضوع أمرنا القيام بأمر الدين وجهاد أعداء الله

الكافرين وقد انتهى أمرهم بالسودان وعزمنا بإرادة الله على التفرغ لغيرها من البلدان فقد اخترنا الله تعالى ووجهناك أمامنا عاملاً عمومياً على كافة قبائل جماعتك العبايدة الذين بالجهات البحرية عشاباب وشناتير وفقرا وعلى كافة من يرغب الانضمام عليك من القبائل الأخرى بطوعه واختياره لتبليغهم دعوتنا وتعطيهم بيعتنا وتستنفرهم لإحياء الدين » فخرج حسين باشا فى آخر مايو ونجا بنفسه .

خطاب لتوفيق باشا

وإذا كانت مصر الهدف الأول وكان على أريكتها آنذاك الخديوى توفيق فاتوجه إليه الدعوة أولا منذرة ومبشرة فى خطاب طويل يذكر له فيه اندراس معالم الدين بما أدخله فيه أهل الكفر من البدع والضلالات وتعطيل أحكام الكتاب والسنة وأنه بعث لإحياء السنة وقُلد بالمهدية الكبرى وأن من شك فيها فهو كافر . وما إن تزحف جيوشه حتى يسير النصر معها ثم بسط له تاريخ حملاته وانتصاراته على الجيوش الخديوية وأخيراً على الحملة الإنجليزية إذ ولت هاربة لاتلوى على شيء ، ثم بين له الآيات من الكتاب الكريم التى تحذر المسلمين من موالاة اليهود والنصارى وأعداء الدين وختم الرسالة بقوله :

« وقد حرّرت إليك هذا الكتاب وأنا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا على هدايتك فأرجو الله أن يشرح صدرك بقبوله ويدلّك على صلاحك ورشادك فى الدارين . وها أنا قادم على جهتك بجنود الله وعن قريب إن شاء الله تعالى ، فإن أمر السودان قد انتهى فإن بادرتنى بالتسليم لأمر المهدية والإنابة إلى الله رب البرية فقد حزت السعادة الأبدية وأمنت على نفسك ومالك وعرضك أنت وكافة من يجيب دعوتنا معك وإن أبيت بعد هذا إلا الإعراض عن طريق الفلاح والرشاد فإنما عليك إثمك وإثم من معك ولابدمن وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة . وهذا إنذار منى إليك وفيه الكفاية لمن أدركته العناية والسلام على من اتبع الهدى » . وكان أحد الأسرى من أهل الشام فى معسكر المهدى فبعثه عاملا على الشام وكذلك اتصل به بعض أهل مراكش المستوطنين

فى مصر أن يسمى أحدهم أميراً على مراكش لنشر الدعوة هناك والقيام بنصرة الدين .

الإدارة الداخلية

وبعد أن وجه الجيوش لإخضاع الحاميات التى مازالت على إصرارها وعنادها ، وبعد أن سير الجيش يتعقب الإنجليز المنسحبين ، وبعد أن بعث بالكتب والرسائل والدعاة للبلاد الإسلامية ، وجه همه للتأسيس الداخلى وإقامة صرح الدولة الجديدة المستقلة . فضربت النقود مما غنموه من الذهب والفضة وأقام النظام المالى على أسس الشريعة الغراء حيث أمر بجمع الزكاة من المسلمين حسب الأصول الشرعية وتوريدها لبيت مال المسلمين . وكوّن مجلساً من الأمناء للنظر فى الشؤون الإدارية تحت رئاسة الخليفة عبد الله فهم بمثابة وزارة رئيسها الخليفة . فالرسائل والقرارات بعد موافقة أعضاء المجلس عليها تختم بختم المهدى وترسل إلى جهاتها المختصة . أما فى الأقاليم فما زال الأمير فى كل جهة عاملا إدارياً وهو ينوب عن المهدى ولايرجع إلى السلطة المركزية طالما أنه يقضى بالأحوال الشرعية وينفذ ما يصدر إليه من العاصمة . هذا فى المال والإدارة ؛ أما القضاء فالقضاة فى أم درمان وفى الأقاليم هم الذين يمارسون القضاء فى كل القضايا ، وبوجه عام فالأداة الإدارية أقيمت على غرار الحكومات الإسلامية الأولى .

المهدى يخلو بنفسه

حل رمضان سنة ١٣٠٢ هجرية واشتاق المهدى إلى الخلوة لربه والانصراف عن شؤون الدنيا والناس ولاسيما أنه لم يمارسها فى السنين السابقة لأنها كانت للجهاد والحرب والآن وقد تم له ما أراد من فتح فليقبل على ربه وليقطع صلته بالدنيا حيناً من الدهر فكتب المنشور الآتى لأنصاره « وبعد فيقول العبد لله محمد المهدى أن هذا الذى أقبل هو شهر رمضان زمن الإقبال على الرحمن وميدان الاشتياق إلى عظيم الشأن فانزعوا أيها الأحباب فيه للديان ووطنوا قلوبكم على الشدائد والرضا بالبلايا والامتحان حيث أوعد بذلك الرحمن لتبيين حال أهل الصفوة والرضوان وبشر الصابرين بعظمة الشأن وحسن العواقب وتولية الديان فتوكلوا على الله وفوضوا له فى كل ما يفعل لحسن

الظن به إذ هو حقيق بالإحسان وهو العالم بما لا يعلمه الأبوان . . فتحققوا ذلك أيها الأحباب وانصبوا أنفسكم لله وارفعوا حوائجكم فكلنا عبيد الله والأمور بيده فلا تشغلونى بقضايا ولا بحوائج فى هذا الشهر وخلونا للذكر والتذكار والصلوات والدعوات فإن فقد العبد نور الصبر والرضى والتفويض وأراد أن يرفع حاجته إلى العبيد فها هم الخلفاء نيابة عنى والأمناء المنيبين والقاضى : فمن شغلنى بشىء فى رمضان بعد هذا فلا يلم إلا نفسه والسلام ، غاية شعبان سنة ١٣٠٢ .

وفاته

وكأنما كان المهدى يودع الدنيا ومن عليها وكأنما أحس دنو الأجل فأراد أن يترك الناس بعد أن نظم لهم حياتهم ويستعد لملاقاة ربه . فى اليوم الرابع من رمضان أصابته حمى وعندما كان ضحى يوم ٩ (٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥) ارتفعت روحه إلى الرفيق الأعلى وفارق الدنيا مطمئناً أن وفقه الله لتوحيد الكلمة وضم الصفوف وجعل ممن يقطنون فى السودان أخواناً فى الله وساوى فيما بينهم . فلا فضل لقبيلة على أخرى ولا لرجل على آخر إلا بسابق خدمته فى المهدية ، والإخلاص لها : فزعامته المرتكزة على الدين وخصائص الشعب الممتازة جعلتهم يقومون بالمعجزات ويقفون فى وجه القوات المزودة بأقوى الأسلحة وأحدث النظم . كل ذلك لأنه آمن فى جرأة وصراحة برسالته وتابعوا هم فى عقيدة واقتناع بقيادته فكان لهم نعم القائد يواسى مصابهم ، ويعطف على فقيرهم ولا يأمرهم بأمر هو بمنجاة عنه ، ولا يطلب منهم نهجاً إلا وكان أول من يسلكه . فبكوه بدموعهم ومهجهم وأشعارهم ودفنوه فى جوانحهم قبل أن يلحدوه فى الثرى ، ولاسيما أنه قضى ولم يجاوز الأربعين إلا بعامين ولم يواصل فتوحاته التى كانوا على استعداد لمصاحبته فيها يبذلون أرواحهم فى سبيلها مثلما فعلوا من قبل ولكنها إرادة الله قضت ولن تجد لها تبديلا .

أخلاقه وصفاته

وقد وصف اسماعيل عبد القادر الكردفانى الإمام المهدى وصفاً آثرنا أن نورده بنصه : — « أنه كان دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا فحاش ولا عياب ولا مداح . ترك نفسه من المراء وما لا يعنيه

وترك الناس من ثلاث لايذم أحداً ولايعيبه ولايطلب عورته ولايواجه أحداً بما يكره ... يتفقد أصحابه ويسأل عنهم فمن كان غائباً دعا له ومن كان حاضرا زاره ومن كان مريضاً عاده وأفضل الناس عنده أعمهم نصحية وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ولا يجلس ولايقوم إلا عن ذكر . . يعطى كل واحد من جلسائه نصيبه حتى لايحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه وما جالسه أحد إلا صابره حتى يكون هو المنصرف عنه وقد وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء . أوسع الناس صدراً وأصدقهم لهجة وألينهم خلقاً وأكرمهم عشرة لايجزى السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح متخلقاً بالقرآن المجيد عاملا بما فيه من الاجتهاد فى طاعة الله والخضوع له والانقياد لأمره والشدة على أعدائه والتواضع ولين الجانب والرحمة لأوليائه ومواساة عباده وإرادة الخير لهم والحرص على كمالهم والاحتمال لأذاهم والقيام بمصالحهم وإرشادهم إلى ما يجمع لهم خيرى الدنيا والآخرة . ذا حلم وعلم وصبر وشكر وعدل وزهد وتواضع وعفو وعفة وتقوى وحياء ومروءة وجود وسماحة وشجاعة وصمت إلا عن ذكر الله ووقار ورحمة بالمؤمنين وما وضع أحد فمه فى أذن له إلا استمر مصغياً إليه حتى يفرغ من حديثه . أكثر الناس شفقة على خلق الله وأرأفهم بهم يركب الحمار ويردف خلفه ويجلس على الأرض ويأكل مع الخادم ويحمل حوائجه بنفسه من السوق . يحب الطيب ويستعمله ويحب من الثياب ما خشن ومن الطعام ما خشن . واشتهر من أول نشأته بحب الخلوة والانفراد عن الناس والتمسك بالدين كما بينا قبل » .

تعاليم المهدى الدينية

الانتصارات تطغى على التعاليم

طغت الانتصارات الحربية على الناحية الدينية من رسالة المهدى وهو نفسه لم يتفرغ لوضعها وشرحها ، وكان ينوى ذلك بعد سقوط الخرطوم لولا أن عاجلته المنية قبل أن يقطع شوطاً فى ذلك . وإذا كان خلفاؤه وأنصاره قاموا بأعباء الرسالة من وجهتها الحربية فإن الناحية الدينية لم تجد من يخصص جهوده ووقته لها . فالعلماء ظاهرت أغلبيتهم المهدية خوفاً على أرواحهم وأرزاقهم والمؤمنون بها لم يكونوا بأهل علم ومعرفة وفوق ذلك فرجل الدولة الأول وخليفته من بعده ما كان على غرار المهدى من حيث العلم والمعرفة والتعمق فى الشؤون الدينية وما كان له والحالة هذه أن يوطئ أكنافه لمن يتصدى لفلسفة الرسالة المهدية وهو رجل إيمان بالرسالة دون جدل وهو على استعداد لقبول ما أثر عن المهدى على ظاهره ولا حاجة له لأن يغوص إلى أعماق تعاليم إمامه . وفى نظره زيادة على ذلك أن الحقبة التى قدر له أن يحياها بعد الإمام كانت استمراراً للجهاد وليست للنظريات الدينية .

مقارنتها مع الوهابية

وعلى هذا انقضى عصر المهدية ولم يخلف لنا من الناحية الدينية إلا بعض رسائل صغيرة دونها من عكفوا على ذلك من أحاديث وأقوال سمعوها عن المهدى وحفظ أغلبها فى صدور الرجال ودفنت معهم وقد يستطيع الباحث استخلاص اليسير من منشورات المهدى . واختلفت دعوة المهدى من هذه الوجهة عن دعوة محمد بن عبد الوهاب بأن الثانية أسسها رجل علم ودين وناصرها واعتنقها أمير حمل راية جهادها وقدر لابن عبد الوهاب أن يتوالى علماء من المذهب يتوافرون على شرحه وتفسيره وتأليف الكتب عنه .

أسس تعاليمه

وما غفل المهدى من بناء تعاليمه على أسس منطقية فلسفية ، وما كان يصدر فى مذهبه الذى يبشر به ويدعو له عن وحى الساعة بل هى آراء كونها عن حالة الإسلام والمسلمين أثناء تجواله وأثناء اطلاعه وأثناء مخالطته للعلماء والصالحين. وركز فكرته الدينية على دعامتين دعا لهما وقام بتنفيذهما . أولاهما هى أن تعدد

المذاهب واختلاف الملل والنحل الدينية وتلك الأكداس من الكتب تشرح وتصحح وتحشى ، والصفحات تلو الصفحات فى مسائل فرعية لا قيمة لها من حيث الدعائم والأركان التى تقوم عليها العقيدة الإسلامية.. وذلك الخضم من وجهات النظر المختلفة بين العلماء فى تفاصيل ليست من أصل الدين والتى يغرق المسلم العادى فى لججها المتلاطمة - كل ذلك حجب نور الحق والدين وكل ذلك باعد ما بين المسلم وبين مصدرى الضياء وهما القرآن والسنة وأصبحت فى نظره المسائل الدينية لايتحدث فيها ولايتفهمها إلا العلماء الأخصاء ، من حذقوا فنون الجدل والمناقشة ومن اطلعوا على كل الخلافات ووجهات النظر . وماكان الإسلام فى نظره عسراً يصعب فهمه على المسلم العادى وماكان يظن أنه أصبح دين خاصة . وفى اعتقاده أنه دين الفطرة الإنسانية تتلقى النفس البشرية فيوضاته وإلهامه دون كبير عناء أو مشقة .

الصوفية

وفى الناحية الصوفية تعددت الطرق واختلفت وحتى ظُن أن كل شيخ يقوم بتأسيس دين جديد وأن غيره من زعماء الطرق خارج عن الدين وحتى ضل القوم ضلالا مبيناً وأصبحوا يوجهون أنظارهم لمشائخهم بدلا من ينبوع الدين والعرفان الأصيل القرآن الكريم والسنة المطهرة . كل ذلك خبره المهدى وعرفه ، فما من عالم إلا وجلس فى حلقته وما من ولى معتقد وصالح نابه الذكر إلا واتصل به ، وسمع ووعى ما يعتقده الناس وما تتناقله الألسن . ومثلما حجبت الكتب والشروح والخلافات المذهبية نور اليقين المتجلى فى القرآن والسنة أضل أرباب الطرق عامة المسلمين وتنكبوا بهم محجة الصواب .

العمل بالدين

والدعامة الثانية هى العمل بالدين والخضوع لنواهيه وأوامره والقيام بفروضه وواجباته فقد طغت على القوم موجة من الاستهتار والانصراف عن الدين وانحدر الكل نحو هاوية سحيق قرارها . وأصبح الدين إسما لا عمل به ، ورأى بعينه ما وصلت إليه الحالة فى السودان وسمع الكثير عن حالة البلاد الإسلامية الأخرى ورأى أنه مهما سمت المبادئ ومهما صحت الأصول فالعمل بها

ضرورة لازمة . وما ظهر الإسلام لتُنبذ مبادئه ويعمل على خلافها . فالشريعة الإسلامية معطلة ، والحكومة والقضاء يقومان على العرف والعادة والقوانين الوضعية ، والحكام يتساهلون مع الشعب فى اتباع الفروض الإسلامية والعمل بها ، والبدع والضلالات تفعل فى جسم الأمة مثلما ينخر السوس فى الأخشاب . وها قد سمع وهو فى الأبيض بزواج رجل لرجل وتذكّر وهو يرى ما يرى ويسمع ما يسمع الحديث القائل : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الإيمان » وما كان للمهدى أن يكون سلاحه أضعف الإيمان بل السيف والسيف أولا .

حرق الكتب وبطلان العمل بالمذاهب

وتنفيذاً لهذين المبدأين قام بأعمال أنكرها عليه العلماء إذ أمر بإحراق الكتب إلا الأصول منها كالقرآن والصحيحين وإحياء علوم الدين للغزالى وغيرها سماها لأنصاره ، وتلك الكتب التى أمر بإحراقها فى نظره حجبت النور المنبعث من القرآن والسنة . فليهدم هذا الحائط وليسرّح المسلم بنظره حتى يرى بعينه نور الحق واليقين . والمذاهب الأربعة يبطل العمل بها لأنها المسئولة عن إقامة السد فى وجه منبع العرفان . والمهدى يشكرهم على اجتهادهم وأنهم قادوا المسلمين إلى أن أوصلوهم لزمان المهدى المنتظر . وإذ كان عهدهم قريباً نوعاًما بزمان النبوة إلا أن من أخذ عنهم بالتوالى بَعُد بهم الزمن وأصبح الذين فى حاجة إلى تجديد لا يستطيع أن يقوم به المقلدون . وفيما يلى بعض أقوال المهدى تبين تعاليمه حسب ما رواها ثقات سمعوا عنه ، أرويها بلغتها التى دونت بها :

بعض أقوال المهدى

روى عن عبد الصمد حاج صرفى أنه قال : « الحاج مرزوق رجل شايقى عالم كان قابل المهدى فى قدير وسأله مرة قائلا : معلوم أن المذاهب هى أربعة الحنفى والشافعى والمالكى والحنبلى . فما هو مذهب المهدى ؟ فقال له هؤلاء الأئمة جزاهم الله فقد درّجوا الناس ووصلوهم إلينا كمثل الراوية وصّلت الماء من منهل إلى منهل حتى وصّلت صاحبها للبحر فجزاهم الله خيراً . فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا . وأن مذهبنا هو الكتاب والسنة والتوكل على الله وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأى المشايخ » .

ما رواه ود البدرى فى أحد مجالس المهدى. قال المهدى عليه السلام: «أيها الفقراء والمهاجرين والأنصار إن كلا من كان عنده مذهب أو نص أو شيخ يترك مذهبه ونصه وشيخه لأن هذا أخذ من هذا فقد أبعدوا من نور النبى صلى الله عليه وسلم ونحن جئنا نحيى نور النبى صلى الله عليه وسلم» وروى عنه أنه قال: «اتركوا الكتب لكتاب الله فإنها حاجبة عن فهم معناه».

مرتبة أنصاره

وقد أخذ على المهدى أنه قال: «إن أقل أنصاره مرتبة يتفوق على الشيخ عبد القادر الجيلانى» وعندما سئل عن منطقه فى هذا قال: «إن مناقب الشيخ عبد القادر كثيرة وهى أكثر من أن تحصر ولكن الشيخ عبد القادر لم يُزل المنكر من غيره ولكن أدنى أصحابنا إذا رأى منكراً يزيله حالا بسيفه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك هو أضعف الإيمان».

وقال الفكى جلال الدين للمهدى: «يا سيدى العلماء يسألون عن طريقنا وعن مذهبنا فما نقول لهم؟» قال: «قل لهم طريقنا لا إله إلا الله محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب. ما جاء من عند الله على رءوسنا وما جاء من النبى صلى الله عليه وسلم على رقابنا وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وإن لم نشأ تركناه».

وكان الفكى أحمد ولد حمدان العركى عرض كشف كتب للمهدى ويرغب الإذن من المهدى يقرأهم ويقرئهم فأجابه المهدى بأن يترك جميع ما ذكره من الكتب التى بالكشف ويستعمل تفسير القرآن والحديث والسير الصحيحة المسنودة وأما كشف الغمة للشيخ عبد الوهاب الشعرانى فهو مقبول.

ومن مذكرات عبد الحق الأمين قوله: «وحيث أن بعض الكتب أدخلت فيها بعض الحيل الشرعية والأحاديث الضعيفة التى أدخلها بعض الملحدين لأغراض شخصية أو سياسية فقد أمر المهدى بحرق أغلب الكتب والروايات والقصص التى لا صحة لها وقد أبقى الكتب المشهورة النافعة التى اتفق

العلماء على صحتها مثل مسلم والبخارى وإحياء علوم الدين وكتب الشعرانى والسيرة الحلبية وكتب التفاسير مثل روح البيان والبيضاوى والجلال السيوطى وغيرها وقد أمر بتدريس القرآن أمراً عاما إجبارياً » .

وروى أن المهدى رد للذين أرادوا معرفة السبب الذى من أجله أبطل الطرق بقوله « لو فرضنا أن كل قبيلة حفرت تمدة (١) لتشرب منها واعتادت أن تشرب منها زمناً طويلا فجاء البحر وغطاها كلها فماذا يفعلون به هل يكتفون بأن يشربوا من البحر أو أن يبحثوا وراء تمدهم ليشربوا منها ؟ » فأجابوه « إذا بحثوا على التمد فلا يجدونه لأنه عمه النيل وصار جزءاً منه » فقال لهم « هكذا الحال الآن » .

طريقة تعليمه

كان المهدى فى نشر مبادئه يخاطب الناس بقدر عقولهم ويضرب لهم الأمثلة بما ألفوه فى حياتهم العادية ولا يتخذ طريقة الكتب الغامضة المعقدة والغرض الذى يهدف له هو تيسير تفهم الدين وإزالة ما علق به من غموض وإبهام . فالعبادات تقليد لما يقوم به من صلاة وصيام والأحكام الشرعية يشرحها فى منشورات فى متناول الفهم العادى وهو أثناء تبشيره يرمى إلى غرس روح الزهد والتقشف فى نفوس أنصاره ، وأن ناحية الدين الروحية هى ممارسة وعمل لاعلم ودرس . وما من مجلس من مجالسه إلا وينثر الحكمة تلو الحكمة والموعظة تلو الأخرى وكلها تشير إلى ضرورة ترك الدنيا والعمل لخير الدار الباقية وهناك بعضاً من مواعظه وحكمه المختارة :

مختارات من مواعظه

إن العبد إذا لم يجتمع مع ربه فى الصلاة لم يذق لها لذة . عند دخول الوقت عجلوا إلى لقاء ربكم . الجنة محفوفة بالمكاره والنار محفوفة بالشهوات . قاسوا الشدائد ووطنوا نفوسكم عليها لأن النعيم فى طى النقم والمزايا فى طى البلايا ، فمن لم يصبر على النقمة لم يجد عيد الله نعمة ، ومن لم يضبر على البلية لم يجد

---

(١) ينبوع مياه مثل البئر يحفر فى بطن مجرى مياه بعد جفافه .

عند الله مزية . الرزق مقسوم والحريص محروم والنعمة لاتدوم والأجل محتوم والحق معلوم والحياة لاتدوم وخير الغنى القناعة :

إذا طلبت بنت ملك للزواج وأعطوك إياها فلما بقيت على زواجها تركتها وتزوجت بخادمتها ورجعت إلى زواجها ثانياً ، فهل تقبلك أم لا؟ كذلك الدنيا خادم الآخرة فمن أخذ الخادم فلا يطمع في الست . فمن أراد الآخرة فليترك الدنيا لأنها كالحية لين مسها ويقتل سمها وأن الدنيا ليست دارنا لأن دارنا الدار الآخرة ونحن جئنا لخراب الدنيا وعمارة الآخرة . من نازعك فى دينك فنازعه ومن نازعك فى دنياك فألقها له فى نحره . الاستعانة بغير الله محل الخذلان . ادعاء الأيمان بلا تصديق من الجنان لاينفع .

نموذج من دروسه

وهاك درساً ألقاه فى الصلاة وكيف تؤدى « إذا دخلتم فى الصلاة فادخلوها بالحضور والخشوع والخضوع والتواضع والتذلل والابتهال والانكسار وانسكاب الدموع إن استطعتم مع توجيه القلب إلى الله ، وتقول اللهم لا عائش إلا فى دارك ولا نعيم إلا فى لقائك ولاخير فى غيرك بك الحياة وبك الممات وبك التقلبات وإليك المصير ، ثم تكبر وتضع يدك اليسرى على صدرك واليمنى فوقها إشارة لحفظ القلب من الجولان فى غير الله ومن الوسواس وتبدأ بدعاء الافتتاح قبل قراءة الفاتحة اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك عملت سوءاً وظلمت نفسى واعترفت بذنبى فاغفر لى ذنوبى كلها فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لايهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عنى سيئها فإنه لايصرف عنى سيئها إلا أنت لبيك ربى وسعديك . والخير كله بيديك والشر ليس إليك . أنا بك وإليك أستغفرك وأتوب إليك . ثم تتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وتقرأ البسملة وسورة الفاتحة إشارة لقوله تعالى وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ فإن من تعوذ بالله من الشيطان قد احتمى فى الله فلايقربه الشيطان » .

وهكذا يشرح المهدى ما يقوم به المصلى فى الركعة الأولى وفى السجود

والركوع والقيام وما يقروءه فى كل منها . فعند الرفع من الركوع يقول « لامانع لما أعطيت ولامعطى لما منعت ولاينفع ذا الجد منك الجد » وفى السجود « سبحان ربى الأعلى وبحمده . وإن شئت تقول اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك أنت خلقتنى وأنت رزقتنى وأنت تميتنى وأنت تحيينى . اللهم إن كنت محسناً فزدنى إحسانى وإن كنت مسيئاً فتجاوز عن سيئاتى ووفقنى لما يقربنى إليك ولاتحرمنى اكتساب نفسى لما يقربنى إليك » .

وصف لصلاة المهدى

وقد روى ود البدرى وصفاً لصلاة المهدى بما يلى : — « ورأيته فى حالة الركوع يمكّن يديه من ركبتيه ويساوى ظهره وعنقه استواء بحيث أنه لووضع على ظهره شىء لم يمل ، ويباعد فى الركوع يديه من جسده ولم يضمهما ، ورأيته عند الرفع من الركوع يعتدل قائماً يتمهل إلى أن تركز أعضاوه ثم يهوى ساجداً . وعند سجوده يقعد على أقدامه ثم يسجد وظهره عديل ولو وضع عليه شىء لم يمل ، ويضع يديه فى حالة السجود قدام ركبتيه ولا يضمهما إلى جسده ، وعند قيامه من الجلوس الوسطى والسجود يقعد على أقدامه ثم ينهض قائماً . ورأيته عليه السلام يسجد على جبهته الشريفة وعلى كفيه وركبتيه ، ورأيته عليه السلام عند السلام يشير به قبالة وجهه ثم يتيامن قليلا ويقبل على أصحابه على جهة يمينه وأثر الدموع على خديه الشريفة ، ورأيته عليه السلام يصبر متفكراً قليلا ثم يشرع فى الباقيات الصالحات . وبعد تمامها يقول وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، ثم يرفع يديه بالفاتحة متضرعاً إلى ربه بخشوع ودمعتاه سائلتان تقطران على خديه » .

درسه فى الوضوء

وفى درسه عن الوضوء يقول « إن الإنسان أولا يكب الماء على يده فإن لم يجد فيه تغيير يبدو فيه يغسل يديه ويتمضمض ، فإن كان فيه طعم تغيير فإنه يبين عند المضمضة ويستنشق منه فإن لم يجد فيه رائحة فيكمل وضوءه منه فإنه طهور . ولايتيمم منكم أحد بغير عذر بيّن » .

تعاليم أخرى

أبطل العمل بجميع الأوراد وألف لأنصاره راتباً يقرأونه يومياً وهو مجموعة من الآيات والأحاديث والأدعية : وساوى بين الناس فليس هناك من

فقير أو غنى ، وعمم لبس الجبة المرقعة من الخلفاء إلى المجاهد العادى ، ومنع النساء من لبس الحلى الفضية والذهبية وصرح لهن بالزينة فيما عدا ذلك ، ولكن داخل بيوتهن ، ويسّر الزواج بتخفيف المهور وبساطة الولائم والمآدب وتحريم الرقص والغناء وضرب الدفوف ، وأبطل بدعة البكاء والنواح على الميت والمبالغة فى الحزن . ثم إنه صبّ لعناته على أعمال السحر وكتابة الأحجبة وما شابهها من أعمال الشعوذة ، وأقام حدود الشريعة فى اتباع المحرمات كالخمر والزنا وفى البدع كالتمباك والسجاير . واتباعاً لسياسة التيسير والتبسيط بدأ فى تأليف كتاب يضمنه العبادات والأحكام الشرعية والمعاملات يكون مرجعاً لأنصاره فى كل أمورهم فى بساطة يسهل فهمها على المسلم العادى ، ولكن المنية اختطفته قبل أن يودع ذلك السفر تعاليمه ومبادئه .

أخلاقه

أما أخلاقه فهى التى أوردناها فى تاريخ نشأته قبل القيام برسالة المهدية ، وقد ظل حتى يوم وفاته زاهداً فى الدنيا متقشفاً مؤمناً بما عند الله ومتجافياً ما عند الناس ، يضرب به المثل فى التواضع والرأفة والمؤاساة . وقد ذكر القس أوهر الدر قصة تمثل لنا عطفه الإنسانى حتى ولو كان على من يخالفه فى الملة والدين . فقد روى أنهم عندما سيقوا من محطتهم التبشيرية فى الدلنج إلى الأبيض أدخل القس على المهدى وهو جالس على فروة على الأرض وأمامه إناء مملوء بشراب القمردين ، فما كان من المهدى بعد أن رأى ما على القس من الإعياء والتعب إلا أن ناوله ذلك الإناء ليروى ظمأه منه . وما كان ليحلو للمهدى وهو صاحب الانتصارات وزعيم الغزوات الموفقة إلا أن يحمل طعامه بيده بالرغم من وجود العبيد والأتباع والمريدين الذين يتحرقون شوقاً للقيام بخدمة الإمام ويخرج إلى أنصاره يشاركونه فيه . وما عرف عن المهدى إيثاره لذوى قرباه بل من ظهر منهم فى المهدية إنما برز لسابق إخلاصه وولائه للمهدية وما عرف عنه أنه قرب قبيلة بذاتها ، فالكل عنده سواء ، يمتازون بإيمانهم برسالته وصدق خدمتهم لها ، فمن لازموه قبل الرسالة فهؤلاء هم أصحاب المرتبة الأول ويقال لهم أبكار المهدى ويليهم فى المرتبة والمقام أنصار أبا فقدير فالأبيض وهكذا . وما كانت الرتب والأمارات لتنال بالوراثة أو الغنى والقبيلة ولكنها بالإخلاص وسابق الانضمام لراية المهدية .

إدارة الخليفة عبد الله الداخلية

نشأة الخليفة

ولد عبد الله بن السيد محمد ونشأ في دار التعايشة فى دارفور ، وكان والده السيد محمد ممن اشتهروا بالورع والتقوى والصلاح ، وكان صاحب الكلمة النافذة والرأى المطاع فى الدين وما يمت إلى الدين بصلة ، وكان عليه أن ينشئ أولاده تنشئة دينية . فاستخدم لهم فقيهاً يعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين وكانوا يقبلون على العلم والدين كما عرف بذلك والدهم من قبل إلا عبد الله فإنه كان ينصرف عن حلقات الدرس إلى الخلاء متأملا مفكراً تارة ومختلطاً بالمجتمع ودراسة مشاكله تارة أخرى . وكأنما قدر للثورة المهدية أن يقودها المهدى بعلمه وتصوفه وتفقهه فى الدين حتى يكون روحها ومحركها ، ولكن إدارتها والقيام بشؤونها ستكون من نصيب عبد الله وهو رجل الدنيا الذى عرف خصائص الطبيعة الإنسانية ودرس المجتمع السودانى دراسة عمل لا بالدرس والتحصيل . وكان منذ البدء لايرغم السيد محمد ابنه على الدراسة فقد لمح فى مخايله مستقبلا باهراً وقيل أخبره يوماً بأنه سوف يصبح خليفة للمهدى المنتظر : ومنذ ذلك الحين يستعد عبد الله لليوم الموعود وظن فى بعض الأحيان أن الزبير ربما كان المهدى حين غزا دارفور منتصراً ولكن أمله قد خاب.

هجرته للمهدى

انتقل السيد محمد إلى دار الجمع ويقال إنه كان فى طريقه إلى الحج فى بعض الروايات . فطلب منه ناظر الجمع البقاء فى داره حيناً . ومات السيد محمد فى أبى ركبة ودفن بها وقبره ظاهر يزار الآن . وإذا كانت دار الجمع تقرب من الجزيرة أبا وإذا انتشر حديث شيخ الجزيرة فيما جاورها من البقاع ساور عبد الله إحساس خفى أن ما سمعه عن محمد أحمد وما عرف عن زهده وتقشفه وعلو كعبه فى العلم والدين لابد أن تكون هذه صفات المهدى المنتظر. فامتطى حماراً ضعيفاً ينزل عن ظهره أحياناً لهزاله وأتى إلى المهدى فى الحلاوين (فى الجزيرة) وهو يشيد قبة على أستاذه الشيخ القرشى ، فآمن برسالته التى لم يدعها المهدى بعد وإن كان يسرها فى نفسه .

صاحب المكانة الأولى

ومنذ ذلك الوقت أصبح لعبد الله المكانة الأولى فى قلب الشيخ محمد أحمد فهو أول من آمن به وأول من شد أزره ، فكان مستشاره الأول وظل نفوذه يعلو كلما علا اسم المهدية . وعند ما رأى المهدى تعيين الخلفاء لم يتردد فى أن يكون خليفته الأول عبد الله واحتل المكان الثانى على ود حلو والمكان الثالث ظل شاغراً للسنوسى واحتل الرابع محمد شريف من أقاربه . وما إن كثرت الأعمال وتعددت نواحى الإدارة وازدادت الجيوش إلا وترك المهدى إدارة الشؤون العامة لخليفته الأول وتفرغ هو لإذكاء روح الدين ولكتابة الرسائل والمنشورات . فشؤون بيت المال والأسرى والقيادة العامة لجيش المهدى كلها تركزت فى الخليفة عبد الله . ومن ذلك الحين كان المهدى روح الحركة والثورة وعبد الله رجل الإدارة والتنفيذ . وقام كل منهما بما جبلت عليه طبيعته . فالمهدى رجل الدين والزهد والتصوف فما كان يختلط بالناس إلا قليلا فى شؤونهم الدنيوية وما كان يتغلغل فى صميم المجتمع ويتحسس نقائصه وعيوبه ولكنه يدرك ما صار إليه الدين من ضعف وما انتشر من بدع وضلالات ، فعكف على الدرس والتحصيل وممارسة التصوف ووصل إلى رأى اطمأن إليه وهو نور الإيمان المنبعث من أصل الدين والقرآن والسنة حجبته المدارس الدينية والطرق الصوفية ، ثم انحراف الناس والحكام فى تيار المدنية جعلهم لا يطيقون أحكام الدين والشريعة . أما خليفته عبد الله فهو رجل المجتمع السودانى ورجل النفوس البشرية فهو لم ينل إلا قليلا من العلم ولكنه نال كثيراً من معرفة شؤون الناس والدنيا . فإذا كان المهدى رجل النظرية فالخليفة رجل التطبيق .

صعوبات الخليفة بعد المهدى

ترك المهدى للخليفة مسؤولية جسيمة ما كان يقوى على حملها إلا الاثنان معاً فكثير سلموا كرها وخوفاً على رقابهم . وما كان لهم أن تشرب روحهم بمبادئ المهدية وهى التى أبطلت العمل بالمذاهب وأحرقت الكتب التى أفنوا زهرة عمرهم فى متونها وشروحها يقرؤونها ويقرئونها . وهم لا يقبل بعضهم نظرية المهدية ومن قبلها يرى أن الأوصاف التى ترد فيها لا تنطبق من حيث الزمن والمكان والشخصية والحال العامة على ما حدث . وكيف يقبلون مبدأ يرمى إلى إغفال المذاهب وترك الكتب والتدريس بها واتباع الطرق التى آمنوا بها وأخذوا

بأورادها وظلت لهم عادة لازمتهم ولازموها . وقد خالفنى ثقة فى تاريخ المهدية ، عرضت عليه مخطوطة الكتاب فى رأيى عن العلماء وتصديقهم بالمهدية وغيرها من مسائل بمذكرة أثبتها بنصها :

« العلماء غير موظفى الحكومة كلهم سلموا باختيارهم بصحة مبادئ المهدية لأنها تؤيد علمهم وحكم الشريعة والعمل بالكتاب والسنة أمثال الشيخ محمد الخير والحسين الزهراء والأمين الصويلح وود بقادى وما لم يحصرهم العدد .

أما العلماء الموظفون فإنهم أجابوا ما طلبه منهم حكامهم فى تكذيب المهدى بالرسائل التى استكتبوهم إياها ولم يرو عنه حديث بأن العلماء لم يصدقوا مهديته بل إنه قال العالم المصدّق فى مهديته كالنبى المرسل . وقد ذكر المهدى فى حق العالم المصدق بمهديته نص الحديث بأن العلماء ورثة الأنبياء لأنهم يبلغون الحق للناس ولا يكتمونه : أما ما عداهم من علماء السوء الذين اتخذوا دينهم وسيلة لمعاشهم فقد قال يا علماء السوء تصومون وتزكون وتقولون ما لا تفعلون فيا سوء ما تحكمون الخ .

أما الكتب فإن حرقها لم يكن بأمر من المهدى فإنه قد كانت له مكتبة تحتوى على كثير من كتب الحديث والتفاسير وقد كان يقرؤها على أصحابه كروح البيان وكثير من التفاسير وكتب الشعرانى وابن عطاء الله .

أما الطرق فإنه من الطبيعى أن يحاربها المهدى السنى الذى لم يفعل إلا ما كان يفعله صلى الله عليه وسلم وإذا قلنا إن عناصر الضعف فى المهدية كانت مخالفة المسلمين لشريعتهم وسنة نبيهم فإنها كانت معكوسة عن أهل الإسلام المتمسكين بالشريعة النيرة المطهرة » .

وهم يرون أن العهد الذى قطعوه لمشايخهم باتباع الطريقة والعمل على نهجها لا يزال فى أعناقهم وكما ذكرنا فدنقلا وبربر والجزيرة كلها كانت تعج بأرباب الطرق . وهم قد تابعوه أولا لأنه لم يعلن عن مناهضته لطرقهم والأغلبية الساحقة من السكان تطرّقت . والتجار وأرباب المال دخلوا خوفاً على أموالهم ومراكزهم الاجتماعية وقلوبهم لا تزال مُعرضة عنها . وأرباب الوظائف فى

الحكومة لايريدون من التغيير إلا ما يؤدى إلى صلاح حالهم . وأجمل المهدى حسب ما روى عنه من عارضوا المهدية بقوله « ستة لايرضون بأمرنا وهم العالم والظالم والترك وتربيتهم وأهل الشأن وأهل البرهان » . هذه عناصر ضعف فى الإدارة المهدية منذ أن استقرت فى أم درمان وبعض هؤلاء الذين لايعتقدون فى ضمائرهم بالمهدية ومبادئها شغلوا وظائف الحكومة من قضاة وكتبة ومشرفين على شوون المال والإدارة .

رأى المهدى فى حالة المهدية

وهناك أخبار وردت عن ثقات عن المهدى يرى فيها أن المهدية وردت على نهج يختلف عما كان يرجوه لها . فقد روى عن الشيخ محمد ود البصير أنه قال : « ذات يوم بعد فتوح الخرطوم طلبنى المهـــدى نصف النهار وقال لى إن أمر المهدية كان طويلا ، ولكن الإخوان غيروا وبدّلوا ، ونحن اختزنا الآخرة فقلت كيف وإنك كنت وعدتنى بفتوحات كبيرة . فأجاب بأنها كلها نسخت لأنه لايخفى أن القرآن ينزل من عند الله بواسطة جبريل للنبى (صلعم) ويكون فيه الناسخ والمنسوخ» .

وفى رواية أخرى أن أحد الأنصار سأل المهدى « كيف اتبعك هؤلاء الأعراب الأجلاف ؟ » فتبسم المهدى وقال له « يا أخى إن هؤلاء الأعراب إلى الآن لم يتبعونى على ما أطلبه من إقامة الدين . وقد حضرت لى جوابات فى هذا اليوم من أبا بأن منهم جماعة قتلوا سبعة من المسلمين ظلما وعدواناً . ولكن يا أخى أنا لما ألزمت بأمر المهدية وتحتم علىّ ولم أجد منه خلاصاً كاتبت أهل المساجد وأهل الدين وطابت منهم إجابة دعوتى والقيام معى فى تأييد الدين لتأتى المهدية على حالة مقبولة عند العقلاء ، فمنعهم الجاه من إجابة دعوتى فدعوت هولاء الأعراب الأجلاف فأجابونى فى الحال وهجروا معى فى الحـــال ، فلزمنى لهم حق الصحبة القديمة وجاءت المهدية على هذه الحالة المشوشة عند العقلاء حسب طباعهم وعلى حسب مراد الله ، فعلى الناس أن يصبروا على جفوتهم حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا » .

أثر وفاة المهدى فى الحماس المهدية

فتلك الطوائف التى دخلت كرهاً فى المهدية وقبلت ما نادت به من فكرة وأولئك الذين انحازوا للمهدية تحت تأثير شخصية المهدى الجذابة وما كانوا يمنون به أنفسهم من فتوحات اعتراهم اليأس حينما توفى المهدى وزال ما كان يمازج أنفسهم من بعض فكرة المهدية . وهم إنما يطيعون الآن خليفته لاعن عقيدة وإيمان وإنما انقياداً للحكم ، وهم إذ يطرون أو ينعون الحكم الجديد فبقدر ما تحتضنهم الإدارة الجديدة وتيسر لهم أسباب الرزق والسيطرة ، وبقدر ما تقربهم لوظائفها أو تباعدهم عنها والخليفة وقد منحه الله درجة من الذكاء وأفاد بصراً بأحوال الناس ورزق حاسة الفراسة كان يحاذر ويراقب ويجرد من النفوذ والسلطة أولئك الذين لم تمازج المهدية دماءهم .

أهل الغرب

وهناك فريق كان بعيداً عن العلم ومذاهبه والطرق واختلافاتها وكانوا إنما يصدرون فى أعمالهم الدينية عن قليل جداً من العلم بثه فى نفوسهم فقهاء القرى والبادية فى العبادات ولم يتعمقوا معهم فى الاختلافات المذهبية أو المجادلات الكلامية . وإذا اعتنقوا طريقة فعن غير إيغال فيها أو تمسك بكل ما تقول به وفوق ذلك فقد كانوا يمجدون أعمال الفروسية والبطولة . فهذا المهدى أروى ظمأهم الطبيعى لحب النضال ، وكان لهم بطلا يمجدون أعماله وكان لهم هادياً إلى دين الفطرة والبساطة . ويخاطبهم بقدر عقولهم ،ويضرب لهم الأمثال بما ألفوه فى حياتهم الطبيعية . وبعد ذلك كله قادهم من نصر لنصر ومن فتح لفتح ، وقد كانت قلوبهم خلواً من الطاعة لمبدأ فقهى أو طريقة دينية لحد ما . فما نادى به المهدى حق ، وما قال به أمر تجب طاعته ، ولا يهمهم أن يخرج المهدى من المغرب أو المشرق أو يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً أو ظلماً ، ولا هم بذوى دراية بفروقات المذاهب أو اختلافات الطرق . فبلغ علمهم عنه هو أنه المهدى الذى أزال البدع والضلالات ، وقد أزالها منهم والذى تغلبت أنصاره على جنود الحكومة ، والذى أرضى غريزتهم لحب القتال والنضال ، والذى علمهم ما كانوا يجهلون ونقى صدورهم مما علق بها من خرافات وسحر وإباحة .

هذا الوصف للفريقين أى الفريق الذى انحاز تحت تأثير جاذبية المهدى مع

ما لهم من ماض فى المذاهب والطرق والآن وقد زالت تلك الشخصية عاود بعضهم الحنين لما كانوا عليه قبلا والفريق الذى وجده المهدى خلواً لحد ما من تأثيرات سابقة وطبع على نفوسهم تعاليمه وشخصيته وبقى ذلك الأثر فى نفوسهم حتى بعد وفاته وحتى زوال المهدية . أقول هذا الوصف للفريقين ينطبق على الجمهرة الغالبة للفريقين ولا نعدم بعض الأفراد من هنا أو من هناك يشذون عن قاعدة فريقهم .

خلاف ما بين سكان النيل وأهل الغرب

وإذا كان سكان النيل من الفريق الأول فأهل الغرب كانوا الفريق الثانى. وتشاء الظروف أن تكون شبه جفوة بين الفريقين منذ القدم . فأهل النيل بما عُرف عنهم من تقدّم نوعا ما فى المدينة ودراية بالعلم والدين ومعرفة بفنون التجارة يتعالون على أهل الغرب بجفوتهم وجلافتهم . وتشاء الأقدار أيضاً أن يكون الخليفة عبد الله والقائم بالأمر من بعد المهدى من أهل الغرب . فهم أهله وبطانته وهم جنده وأنصاره وهم يفخرون الآن أن أصبح الحاكم بأمره من البقارة . وتشاء الأقدار أيضاً أن يكون الخليفة شريف من أهل النيل وذى صلة رحم بالمهدى ، والخليفة على ود حلو بين الاثنين ، ولو أنه أقرب صلة بالخليفة عبد الله ، فعرب النيل الأبيض لهم بعض خصائص أهل النيل وبعض خصائص البقّارة .

وكان من الطبعى أن يرى أهل النيل فى البقارة غاصبين وهم أحق بالحكم والولاية إذ أنهم أهل علم ومعرفة أولا وذوى صلة رحم بالمهدى مؤسس الدعوة ثانياً . وكان من الطبيعى تحت هذه الظروف والمؤثرات أن يكون البقارة سدنة العهد الجديد وحماته . فهم ناصروا المهدية فكرة وجهاداً وآمنوا بها .وهم بعد ذلك أهل وبطانة الراعى الجديد . وهو أيضاً على مثل فطرتهم وإيمانهم بالمهدية إذ كان قلبه خالياً عن طريقة أومذهب خاص فى الفقه فأحبّ المهدى وأخلص له من كل قلبه ومنح المهدية عقله وسيفه وروحه . وكان من الطبيعى أن يزور أهل النيل عن الخليفة ويرون فى مسلكه انحيازاً لأهله وتعضيداً للبقارة ضدهم وكان من الطبيعى بصفة خاصة أن تجد هذه الجفوة وهذا النفور أرضاً

خصبة فى نفوس من تربطهم بالمهدى وشيجة الرحم والقربى .

الخليفة يعتمد على أخيه يعقوب

كان للخليفة وقد احتل مكان المهدى أن يعين شخصاً يشد أزره ويقوم بتصريف أمور الدولة دونه حتى يتفرغ رجل المهدية الأول للرقابة العامة وبث الدعوة وكان من الطبيعى أن يلجأ إلى أقرب الناس إليه وآثرهم عنده فاصطفى أخاه الأمير يعقوب وأصبح له نفس المركز الذى كان يحتله الخليفة من المهدى . ولو أنه فى ظاهر الأمر برز الخليفة كصاحب الأمر والنهى والحاكم بأمره إلا أن القوة التى وراء العرش كان الأمير يعقوب . فهو المشرف على الجيش يعين قواده ويمده بالزاد والمعدات الحربية . وهو وزير الداخلية من حيث عمّال الأقاليم يوفق بينهم وبين رعاياهم فيما لو اختلفوا وهو يعنى بشؤون ما يسمى بالبوغازات أو محطات الحدود . وهو محافظ أم درمان عاصمة المهدية ، وهو المشرف على شؤون بيت المال عصب الإدارة . فهو على وجه الإجمال رئيس الوزراء ووزير كل الوزارات ، وكان يتصل بالخليفة يومياً يرفع له الأمر ويقترح والخليفة يوافق ويعدّل إذا رأى ذلك.

صفات يعقوب

كان يضطلع بكل هذه الأعباء فى تؤدة ورزانة . وكان لين العريكة واسع الصدر إلى حد بعيد . كريم يبالغ فى كرمه لا يرد من يطلب عونه . وعرف الناس له هذه المكانة وهذا المركز الممتاز فكانت الوفود تؤم داره وتبسط شكواها ويخرج الجميع وهم راضون عنه . ومما قرّبه إلى قلوب العامة ما اتصف به من تواضع . فما شمخ بأنفه أو تعالى على الناس لمكانته من الخليفة أو نفوذه الكبير. يُقبل عليه المختلفون وهم يتميزون غيظاً من بعضهم البعض فما يزال يطلب منهم الهدوء، فإذا ما استوعب أقوالهم أخذهم بمنطق وحكمة وضرب الأمثال وما هي إلا برهة إلا وقد هدأ غيظهم عن اقتناع منطقى . ويخرجون وقد هدأت النفوس وزال ما كان يفصلهم من خلاف . هذه كلمة عامة اقتضاها الإنصاف لرجل كان رجل الدولة والحكم أهمله المؤرخون للمعان اسم الخليفة .

رحيل أهل الغرب لأم درمان

كان للخليفة بعد أن اصطفى أخاه أن يسند مركزه بقبائل البقارة فأمر برحيلهم من ديارهم فى أقصى الغرب إلى أم درمان ، وأنزلهم فى مكان يحيطون

بمنازله وبنى لهم سوراً عظيما بمثابة حصن يحميهم ويرد عنهم الهجوم . وقامت أفواجهم من تعائشة ورزيقات وهبانية وحُمر ومسيريه وغيرهم ميممة وجهها شطر بقعة المهدى (أم درمان) تلبية لنداء الخليفة بنسائهم وعيالهم وما يمتلكون من متاع وماشية . وكان عليهم وهم فى طريقهم صوب العاصمة أن يتقوتوا بما يقدمه لهم السكان إن لم يكن عن رضى واختيار فبالقوة . وكان هذا مما وسع الشقة بين البقارة وأهل النيل .

وما كان من الطبيعى أن يرحل هذا العدد الضخم من الناس ليتجمع فى بقعة واحدة ويعيش على بيت المال إلا أن يكون نذيراً بنفاذ المقادير المخزونة من أقوات. وفوق ذلك فقد فقدت البلاد قوتهم الإنتاجية . فاستنفذوا غلة الجزيرة وقد حُبست عليهم وتعاونت معهم الطبيعة حيث انحبس المطر . وأهل الجزيرة أنفسهم أمر الخليفة عدداً عظيما منهم بترحيلهم لأم درمان وحدثت بهذا مجاعة سنة ١٣٠٦ هجرية فحصدت من الأنفس كما يقال ما لم تحصده حروب المهدية.

بدء الخلاف بين خليفتين

تجمعت أسباب التنافر والخصام بين أهل النيل وأهل الغرب حتى انتهت ببداية حرب أهلية أوشك أن يستعر أوارها لولا أن تداركها الله بلطفه ، فهى إن لم تتلظ بالسيوف والرماح والأسلحة النارية إلا أنها ظلت تشتعل بين الجوانح وكانت عنصر ضعف فى جسم الدولة . وقد لاحظ المهدى فى حياته ذلك النفور بين الفريقين ورأى أن أهله الأشراف يطمعون فى الملك والسلطان. فأمرهم بمعاونة الخليفة عبد الله والخضوع له والطاعة لما يأمر به . واحتياطاً من وقوع جفوة بين الخليفة الأول والخليفة شريف الشاب منع الأخير من الاتصال المباشر بالخليفة عبد الله وليس له أن يسدى نصحاً أو يرى ملاحظة إلا للخليفة على ود حلو وهذا هو المرخص له بإبدائها للخليفة الأول .

الأشراف يظهرون عدم طاعتهم

بدأت النفرة بين أبناء النيل بزعامة الأشراف أقارب المهدى وبين قبائل الغرب بعد فتح الأبيض إذ طلب الأشراف من الإمام رفع عبد الله من الخلافة أو رفعه عنهم ، فرفض المهدى مطالبهم منذراً إياهم بالطاعة والولاء للخليفة لأنه أحق رجال المهدية بها . وهذا ما دعا المهدى لتأكيد خلافة عبد الله فى منشوراته. وتبرئته من الأشراف إذا هم طلبوا الملك والسلطان . ثم كان ما كان من منعه.

للخليفة شريف من الاتصال المباشر بالخليفة عبد الله . وبعد أن استقرت الأمور بفتح الخرطوم وسنار وبعد وفاة المهدى أذن الخليفة عبد الله لبعض الأشراف بالسفر بخيولهم إلى أقاليم الجزيرة والفونج لعاف دوابهم وخيولهم ، ولكنهم أساءوا معاملة الأهلين . فشكا هؤلاء إلى عمال الخليفة فما أذعن الأشراف للعمال بل طردوا بعضهم من مراكزهم . فتطاير الخبر للخليفة وحوله هذا لقائد رايتهم الخليفة شريف فبعث إليهم بمن يحضرهم . فعصوا فى أول الأمر غير أنهم رضخوا أخيراً وانتهت المسألة بصلح اندمل فيه الجرح ولكنه على صديد . فالأشراف لا زالوا على رأيهم أنهم أحق بالحكم والولاية والبقارة بزعامة يعقوب ترقب الأمر بتدبر وتحصى للأشراف ومن تبعهم من أهل النيل تعاليهم ونفورهم من أهل الغرب .

الخليفة شريف يحمل على القضاة والأمراء.

ثم توفى السيد محمود عبد القادر فى قتاله ضد النوبة وكان عامل الغرب منذ أن زحف المهدى بجيوشه إلى الخرطوم ، فعقد الأشراف مجلساً منهم يريدون تولية أحدهم ليملأ مركز عامل الغرب الشاغر . فنقلت أخبار المجلس ومن رشح ليخلف السيد محمود لأسماع الخليفة فعلم ما يريده الأشراف من إصرار على ملء ذلك المركز وما يدل عليه ذلك من احتفاظ بمراكز مخصوصة . فاحتاط الخليفة للأمر وفى الحال عين من يثق به عاملا للغرب وقال فى ذلك يعقوب « إن الأشراف بعملهم هذا أيقظونا من النوم » وهو صاحب رأى ودهاء حتى لقب بجراب الرأى . وبهذا تجمعت الأدلة عند يعقوب وظل يعمل بالتدريج وفى صمت لتجريدهم من الأسلحة والنفوذ . فسحبت راياتهم وأرجئت الغزوة التى كان مزمعاً توجيهها لمصر براية الخليفة شريف وهى تضم أولاد البلد سكان النيل) وقطعت المرتبات التى يتناولها الأشراف من بيت المال حتى ألجأت الحاجة كبار السن منهم والمعوزين إلى الوقوف على باب يعقوب يطلبون الأعطيات . فنعهم الخليفة شريف إذ هو يرى فى ذلك تذللا لا يليق بهم . وبواسطة بعضهم ربطت أعطيات خاصة لكبار السن وذى العوز منهم . وظل كبار الدناقلة وبعض قبائل النيل الأخرى يترددون على الخليفة شريف

ويوغرون صدره ضد خليفة المهدى . فما نجحوا فى ذلك لأنه لايزال يكن الاحترام والتقدير ويحمل الطاعة والولاء للخليفة عبد الله ولكنهم نجحوا فى حمله على القضاة ومن بيدهم الأمر فى حكومة المهدية . ورأى فيهم ظلمة عُتاة غيروا معالم المهدية وخالفوا الشريعة المحمدية .

اجتماعات الأشراف

ما زال الأشراف وهم إذ يجتمعون يتذمرون مما وصلت إليه حالتهم ومباعدتهم من شؤون الحكم والإدارة واستئثار عرب الغرب بالجاه والنفوذ وهم دونهم دراية وكفاية ، وجستابو يعقوب يطلعه على ما يقولون ويعقوب لا زال مستمراً فى تطهير إدارته ممن يشك فى ولائهم فى العاصمة وفى الأقاليم ويعززها بأصحاب الرأى من أهل الغرب فى العمالات ، ويحمى دولته بفرسانهم فى الثغور والبوغازات ، وفى البقعة (أم درمان) مقر الحكم والسلطان . وكلما أمعن يعقوب فى مباعدة سكان النيل من الحكم كلما أمعنوا فى شكواهم من ظلم البقارة وفساد إدارتهم . فكل فريق بمسلكه يعزز النفرة القائمة وهكذا تتباعد الشقة وتكبر الهوة التى تفصل بينهما .

جاسوسية ومؤامرات

ينقل الوشاة للأشراف وأولاد البلد (قبائل النيل) اجتماعات الخليفة السرية التى تهدف إلى امتلاك أعنة الحكم فى أيديهم وأقصاء أولاد البلد ، بل المؤامرات ضد كبارهم لنفيهم وتعذيبهم ، وإلصاق التهم بهم تبيض وتفرخ فى تلك الجلسات وينقلون إلى البقارة استهزاء أولاد البلد بهم وأنهم فى اتصالات واجتماعات مع بعضهم البعض هنا وفى الأقاليم لقلب نظام الحكم والقبض على السلطان والنفوذ .

الفريقان يحملان السلاح

وفى هذا الجو من التوتر والقلق النفسانى طارت إشاعة بأن الخليفة ينوى القبض على الخليفة شريف وأولاد المهدى وأكد لهم ذلك اثنان من كتّاب الخليفة الخواص . وكان على الأشراف ومن تبعهم أن يحموا أنفسهم وأن يدافعوا وهم قبل ذلك قد قطعت مؤامرتهم شوطاً بعيداً . وانضم إليهم عدد من أولاد البلد وكاتبوا من يرون رأيهم من أهل الجزيرة . وكل ذلك كانت تصل أخباره إلى يعقوب ، فتقلد الأشراف ومن اتبع نهجهم أسلحتهم وأسرعوا

لتنفيذ المؤامرة قبل أن يُقبض عليهم ، واحتلوا قبة المهدى والبيوت المجاورة . وكان على يعقوب أيضاً وهو المسئول عن حماية الدولة وشخص الخليفة أن يوزع الملازمية على بيوت الخليفة واحتاط بالأشراف وأتباعهم حتى تم ضرب النطاق عليهم .

الوساطة

روّع المخلصون لشأن المهدية مما تردت إليه الحالة وعلى رأسهم الخليفة على ود حلو ورأى أن لابد من تدخّله مع قادة الرأى المحايدين فاستأذن الخليفة عبد الله ، وما كان له أن يردّ طلباً يرمى إلى الصلح وتهدئة الحالة دون إراقة الدماء . وتم الصلح بعد وقوع بعض المناوشات والإصابات بين الفريقين. والصلح هذا يقضى بأن يعفو عبد الله عن أخيه محمد شريف وأولاد المهدى ورؤساء الفتنة وأن يجعل الخليفة شريف من أهل المشورة ، وتربط أعطيات خاصة له ولأبناء ونساء المهدى . فسار الخليفة شريف لمصافحة زميله الأكبر وتعانقا وكان منظراً مؤثراً حتى ترقرقت عيونهما بالدموع .

القاضى أحمد يحكم

ولكن القاضى أحمد وهو يحمل ضغينة شخصية للخليفة شريف جمع مجلسه وحكم على الأشراف وكل الدناقلة الذين اشتركوا فى الفتنة بقطع رءوس الزعماء والقادة منهم وقطع أرجل وأيدى الباقين بالخلاف. فلم يوافق الخليفة على ذلك لأنه عفا وصفح عنهم يوم الصلح ويوم أن وضعوا أسلحتهم نتيجة لذلك . فأجاب القضاة بأنه فى حل من عفوه لهم لأنه كان لإطفاء الفتنة والآن قد ثبتت عليهم الفتنة لايؤمن جانبهم ، والخليفة فى حل من وعده لهم طالما أن الشريعة تحكم عليهم . فاعترض السيد المكى وقال «كلنا دناقلة ولانوافق على هذا الحكم ويمكنكم أن تنفوهم فى الخارج طالما أن الغرض الأمان من شرهم » وبذلك حكموا بنفيهم إلى بحر الجبل وعقد مجلس القضاة جلسة أخرى وهم فى طريقهم إلى المنفى وقضى بإعدامهم .

الخليفة شريف يبتعد مرة أخرى

بديهى أن الخليفة شريف لم يرض عن إعدامهم وهم إنما وضعوا أسلحتهم بعد أن وُعدوا بالعفو . وإذا صبر على نفيهم فإنما يغالب صبره وتجلده . أما الآن وقد أعدموا فقد طفح الكيل ، ويرى فى ذلك نقضاً صريحاً للعهد :

ودلالة على غضبه انقطع عن صلاة الجمعة وكان ذلك يعد بمثابة العصيان .
وبديهى أن لايصبر الخليفة عبد الله على عصيان رجل عظيم وزميل أصغر مثل الخليفة شريف ولكنه لايحكم بمفرده فالأوفق أن يجتمع مجلس فوق العادة يتكوّن من كبار رجال الدولة وأمنائها .

حكم المجلس

اجتمع ستة وأربعون منهم وتداولوا الأمر وأخيراً أصدروا الحكم التالى بعد أن مهروه بإمضاءاتهم وأختامهم : — « وبعد فإن الخليفة محمد شريف حامد قد بارز خليفة المهدى عليه السلام بالعداوة والعصيان والخلاف حتّى تظاهر بالحرابة له وشهر السلاح عليه ولم يبال بإدخال الخلل فى الدين وشق عصا المسلمين . فبعد هذا كله اجتمع جماعة المسلمين وأحضروه بين أيديهم وحلفوه على كتاب الله تعالى فحلف وعاهد على أن لايعود إلى مثل ماصدر منه ثم جاء خليفة المهدى عليه السلام نادماً على شنيع فعله فقبله مع ما ارتكبه من عظيم الذنب والخطيئة وعفا عنه وقابله بالصفح والإكرام . ثم نقض العهد وعاد إلى الخلاف وإضمار السوء والإصرار على عدم الامتثال . فضلا عن كونه تاركاً الجمعة والجماعة . فعند ذلك اجتمع أصحاب المهدى عليه السلام من قضاة الشرع الشريف وأمراء وأعيان وسألوه عن ذلك فقابلهم بأقبح المقال وتفوّه بما يؤدى إلى سوء الحال حتّى قال إن الغوث معه وفى حزبه وإن نصرة المهدية تحت قدمه وإن الصحابة اعترضوا على النبى (صلعم) وغير ذلك من سوء المقال وما زالوا يراجعونه بالقول اللين الحسن وتلوا عليه منشور المهدى عليه السلام فى خليفته والمنشور الذى وجهه إليه خاصة وأمره فيه باتباع خليفته وعدم خروجه عن أوامره . فعند ذلك أظهر التوبة والندم . فنظراً لما حصل منه من نقض العهد وعدم استمراره على التوبة السابقة ، اقتضى نظر أصحاب المهدى عليه السلام طبق الوجه الشرعى وضعه بالسجن تأديباً له . ولولا إظهاره التوبة عما حصل منه لكان جزاؤه أعظم من السجن ، وقد ثبت جميع ذلك لدى أصحاب المهدى عليه السلام الآتى ذكر أسمائهم وأختامهم فيه أدناه وجميعهم شهدوا عليه شهادة حق يؤدونها بين يدى أحكم الحاكمين والسلام » .

وهكذا ظل الخليفة شريف فى السجن إلى أن وردت الأنباء بتحركات الجيش المصرى فى الحدود فأطلق سراحه ليتحد الجميع أمام الجيش المهاجم .

هيكل الإدارة القضاء

كان هيكل الإدارة والقضاء قد شيد عندما انتقل الإمام المهدى إلى الدار الآخرة فدستور الحكم والقضاء الشريعة الإسلامية حسب ما مارسه فى حياته ، وحسب ما ورد فى منشوراته . ولئلا يترك مجالا للدس فى أقواله وأعماله نصح لأصحابه بأن يعرضوا ما جاءهم منه على الكتاب والسنة فما وافق فهو منه وما خالف فهو ليس منه وأجمل لأصحابه السلطات وتوزيعها من حيث الحكم والتنفيذ على طريقته الخاصة فى التبسيط والتيسير فى معرض النصح لأهله الأشراف . فقد عقد اجتماعاً من خلفائه وأقاربه الأشراف وحض على اتباع الخليفة عبد الله ومعاونته على الدين وإذا حاد عن الحق أو تنكب طريق الكتاب والسنة فللخليفة على ود حلو أن يمحضه النصح وللخليفة شريف إبداء ملاحظته للخليفة على . ثم وجه الخطاب للخليفة عبدالله قائلا « أنت لك السيف وليعقوب الجيش وللقاضى الكتب . يعنى يكتب القاضى ليعقوب ليحضر المجرم بعد الشكوى لينظر دعواه ثم يكتب جزاءه فى ورقة ويعلقها فى عنقه ثم يرسل إلى خليفة المهدى ليجرى عليه القصاص ، فى هذه الجملة أجمل المهدى الإجراءات القانونية التى تتخذ بصدد الجريمة من حيث الضبط والمحاكمة والتنفيذ ووضح فيها فصل السلطات ، فليعقوب السلطة البوليسية وللقاضى الحكم والإدانة وللخليفة السلطة التنفيذية . ووضح فى حديث آخر ما يجب أن يتصف به القاضى من نزاهة وعدم محاباة ، فالخصوم أمام القضاء سواء لا تعلو مرتبة أحدهما على الآخر فلا يجلس أحدهما على فراش والآخر على الأرض بل يجلسان على مقعد واحد من حيث العلو .

قاضى الإسلام

وكان قاضى الإسلام والمشرف على شؤون القضاء فى القطر بأكمله القاضى أحمد بدين ضخم الجثة أسود اللون مهاب الطلعة ذو شخصية قوية . وما احتل المنصب لأنه أكثر علماً وأوفر محصولا فى علوم الشرع ولكن لإيمانه بالمهدية ولمعرفته بمنشورات المهدى وقضائه فى المناسبات المختلفة . وظل فى مركزه يحتل

أكبر منصب قضائى فى الدولة الشطر الأكبر من حكومة الخليفة إلى أن عُرفت عنه الرشوة وعرف بمناوأته ليعقوب فى آخر الأمر فترصد له الأخير حتى أثبت ماكان يشاع عنه من تناول لها وكانت النتيجة المحتومة أن يزج به فى السجن حتى مات : وولى بعده الشيخ الحسين الزهراء وكان ذا رأى مستقل فى تطبيق الشريعة وكان لايعمل بالمنشورات إذا تعارضت نوعاً ما معها كما أمر المهدى نفسه بذلك . ولكن أصبحت للمنشورات قداسة فى آخر حكم المهدية لايسلم من يعمل بغيرها وتشدد فى موقفه إزاءها حتى سيق إلى السجن ومات فيه صبراً . وروى أن الخليفة ندم على موت الشيخ الحسين . وتقلص المنصب بعد موت الشيخ الحسين فى السنين الأخيرة وأصبح العلماء يهابونه ويتخوفون منه ومن احتله يمارى ويدارى .

وروى أن الخليفة ندب ستة عشر قاضياً للحكم بين الناس بموجب الكتاب والسنة وما هو مدون فى منشورات المهدى وخاطبهم بأنهم مسؤولون بين يدى الله عز وجل يوم القيامة عن حقوق الناس فقال أحدهم للخليفة « أنا يا سيدى لا أعرف العلم » فقال له الخليفه « نحن لانطالبك بالعلم ولكن المطلوب منكم عندما تقدم قضية أو مظلمة أن تتفقوا مع بعضكم وتحكموا فيها بالعدل » .

ظلم وفوضى مردها جهل القائمين بالأمر

ومع ما أنشئ من محاكم وما عين من قضاة يحكمون بالشريعة المحمدية فإن حوادث النهب والسلب والتعدى على الأنفس والأموال ترد إلى الخليفة دون انقطاع من الأقاليم حيث يعبث بعض الأعراب الأجلاف الجهاة فساداً وهم لايتصفون بفضيلة ما غير إيمانهم بالمهدية وبيع أرواحهم فى سبيلها . وكان الخليفة يزجرهم ويتهددهم ويتوعدهم بشديد العقاب . ويأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى والرفق ، ولكن أنى لهم بتبدل نفوسهم وعقلياتهم وقد شبوا على الفوضى والظلم ، وماكان للخليفة أن يجردهم من أسلحتهم وأن يستغنى عن خدماتهم ، فهم حماة الدولة ضد أعدائها فى الخارج وهم بطانته وأعوانه على منافسيه فى الداخل . فالضرورة تقضى بالحفاظ عليهم ، ولكنهم ظلموا وجاروا

ووسموا العهد بطابع الفوضى نتيجة جهلهم وسوء تدبيرهم مع ما ركب فى نفوسهم من بغض وكراهية الأولاد البلد .

بيت المال

تتكون مالية الدولة مما يجنى من زكاة وجبايات أخرى على البضائع والمشارع والسواقى والجناين والغنائم الحربية ، ولكن عصب الحياة لجسم المهدية هو الزكاة الشرعية على المحصولات والأنعام والماشية والأغنام . وفى كل عمالة بيت للمال وفى أم درمان بيت مال المسلمين العام . بدأ هذا صغيراً فى قدير برئاسة صديق المهدى أحمد ود سليمان من غنائم الحرب وتضخم مع اتساع الفتوحات من الغنائم وزكاة البلاد المفتوحة حتى أصبح دعامة الإدارة المهدية وتعددت أجزاؤه بتعدد أوجه الصرف والدخل . فهناك بيت المال العام ويستمد دخله من أهل أم درمان وما جاورها من قرى وبوادى وفائض بيوت أموال الأقاليم ويصرف منه على موظفى بيت المال وعلى آل المهدى والخلفاء وعلى إعداد الجيوش للغزوات . وهناك بيت مال الملازمية وخصصت له أموال الجزيرة ويصرف منه على حرس الخليفة الخاص المسمى بالملازمية . وهناك بيت مال ورشة الحربية وترد إليه أموال سواقى الخرطوم وجناينها وثمن سن الفيل الوارد من خط الاستواء وبحر الغزال ويصرف منه على صنع الذخائر والأسلحة . وهناك بيت مال الخمس ويستمد دخله من إيرادات المراكب والمشارع وأرباح ريش النعام والسن وثلث أرباح الصمغ وعشور البضائع الواردة من الخارج ويصرف منه على نفقات الخليفة الخصوصية وأخصائه الأقربين .

عمال أخرى لبيت المال

يعمل فى بيت المال عدد من موظفى الحكومة السابقين حسب ما عرفوا وما مارسوا من حسابات ومسك الدفاتر . وبذا كانت حساباته دقيقة وأموال المسلمين فى حرز أمين . وكانت إحدى مهام بيت المال صك النقود وتداولها . وما خلت البلاد من مزورين قلدوها وكذلك كانت تختم البضائع التى استوفت أموال العشر ، فدخل التهريب من ناحية والتزوير فى الأختام من ناحية أخرى .

وما عدا ذلك بالجباية والصرف وحفظ الأموال تسير على نسق يرضى الجميع تحت رعاية يعقوب وعينه الساهرة . ولعمالات الأقاليم بيوت مالها الخاصة ترد إليها الزكاة والإتاوات الأخرى وتصرف منها على شؤون الأمن والإدارة .

عمال الأقاليم

قسمت البلاد تيسيراً للإدارة إلى عمالات يقوم على رأس كل منها عامل يهيمن على الجيش والإدارة ويكون المرجع الأعلى لكل الشؤون المحلية ، وطريق اتصال بين الأهالى والخليفة . فالأوامر والمنشورات ترد إليه من العاصمة لتنفيذها والأمناء يهبطون عليه بأمر الخليفة للتحقيق فى المسائل الكبرى وحل ما ينشأ من مشاكل وأزمات . والعمالات الكبرى هى دنقلا وبربر والغرب وكسلا وما بقى من السودان الأوسط كان تحت رقابة الخليفة أو بالأحرى يعقوب . ولكل عامل عدد من المندوبين يساعدونه فى أعماله الإدارية . وفى الحدود أمراء يتركز عملهم فى حماية ما يسمى بالبوغازات . فحامية فى صواردة فى أقصى الشمال وحامية فى القلابات والقضارف وكل أمير يرابط فى بوغاز يخضع للعامل الذى يليه .

الجيش

تركز الجيش كله تحت إمرة يعقوب والعنصر المنظم والذى بيده الأسلحة النارية هم الملازمية منهم الجهادية السود ومنهم أولاد العرب . وهم بمثابة الحرس الخاص للخليفة وقائدهم شيخ الدين ابن الخليفة الأكبر . وكانوا يتدربون على الفنون الحربية كما كانت عليه فى عهد التركية إلا أنهم غيروا الألفاظ بغيرها ، فمثلا كلمة صغدن إلى بيمينك وصلدن إلى بشمالك وحازدور إلى اللهم انصر رواح دور إلى اللهم استر وبرنجى وكنجى إلى الأول الثانى ، وظلوا يتدربون على هذا المنوال ، وكلما دخل مجندون جدد خضعوا للنظام والتدريبات الجديدة . وهذه الفرق من الملازمية هى التى تسكن داخل السور الكبير فى أم درمان . وتكونت من بقايا الترسانة القديمة فى الخرطوم ورشة للأسلحة وتصليحها يقوم عليها مهندسون وأسطوات من العهد التركى وورثت المهدية ثمانى بواخر نيلية هى بوردين والصافية والإسماعيلية والفاشر ومحمد على والمسلمية والتوفيقية والطاهرة (وكان اسمها الزبير) .

مدينة أم درمان

تحولت أم درمان من معسكر إلى مدينة عظيمة ومن خيام وعشش إلى بيوت من الطين . وكان المهدى فى حياته أقام زريبة كبيرة لتكون مسجداً جامعاً فبناه الخليفة بالطوب الأحمر وهو باق بحاله إلى الآن . ولاستحالة سقفه بنيت المظلات فى داخله لتقى المصلين حر الهاجرة . وكان على عظيم اتساعه يضيق بالمصلين إذ يتحتم على الأنصار حضور الصلوات الخمس فى المسجد الجامع ولا مسجد سواه فى المدينة . والخليفة نفسه يؤم المصلين فى كل الأوقات . وأقيمت قبة فخمة على قبر المهدى تفنن فى بنائها البناءون واستخدموا فيها من الحديد ومواد البناء الأخرى ما استحضروه من أنقاض الخرطوم وأقيم حولها سور منيع من الحجارة . وفى يوم وضع الأساس لها مشى الخليفة راجلا ووراءه حشد من الأنصار إلى شطئ النيل والتقط حجراً مما أحضرته المراكب خصيصاً للبناء ووضعه على كتفه واقتدى به الأنصار فحملت كل أحجار البناء على أكتاف الأنصار إظهاراً لعظمة من يثوى فى القبر . وقدّر سلاطين سكان أم درمان بما يزيد على الأربعمائة ألف نسمة فى غير المواسم والأعياد وهذا يبلغ أربعة أضعاف سكانها الحاليين تقريباً . وما كادت للسودان خبرة وتقاليد بمثل هذه المدن العظيمة . فالبيوت على غير نظام وحالة الصحة العامة فى غاية السوء ، والشوارع ضيقة ما عدا شارع العرضة ، وهذا ما جعل منها أحياناً مباءة للأمراض والأوبئة .

سياسة الخليفة الخارجية وحروبه

إنذار أهل مصر

اتخذ الخليفة منذ البدء سياسة الفتح ونشر الدعوة استمراراً لخطة المهدى ومصر هى الهدف الأول كما كان ينوى المهدى . وقبل أن يسير عليهم الجيش يجب أن ينذرهم . فوجه منشوراً إلى « أحبابه فى الله أهالى الريف والجهات البحرية كافة » يدعوكم إلى التسليم للمهدية والائتمار بأوامرها قائلا لهم « واعلموا أنه ما حملنى على نصحكم ولادعانى إلى بسط العنان فى عظتكم إلا مزيد الشفقة عليكم والخوف من أن لاتنجع فيكم المواعظ غزوراً بالأمانى الكاذبة ، وركوناً إلى راحة الدنيا الفانية الذاهبة ، فتدور عليكم الدوائر كما دارت على من قبلكم فى بلاد السودان ، لما أعرضوا عن قبول الحق وجنحوا إلى اتباع أقوال علماء السوء ، الذين أضلهم الله على علم واغتروا بأكاذيب حكامهم ، وكثرة عدد جنودهم وعددهم العارية عن معونة الله تعالى . فختم الله على سمعهم وقلبهم وجعل على بصرهم غشاوة وحاق بهم مكرهم هلكوا وحرقت النار أجسامهم ، وخسروا الدارين والعياذ بالله ولكم فيهم عبر وعندكم من أمرهم خبر والسعيد من اتعظ بغيره ونظر فى صلاح عاقبته وكشف ضيره » .

إنذار توفيق

وكان عليه أيضاً أن ينذر توفيقاً خديوى مصر بخطاب طويل يقول فيه : « وكيف يليق بمن يومن بالله واليوم الآخر حب العلو فى الدنيا بعد العلم بقول الله تعالى « : تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين » واعلم أن ما دعوناك إليه هو الدين الحق القويم والمنهاج الواضح المستقيم فلا تعرض عنه إلى نزعات الباطل فإن الحق جدير بالاتباع والباطل حرى بالتلاشى والضياع . ولو كان قصدى من هذا الأمر ملك الدنيا الزائل وعزها الفانى الذى ما تحته طائل لكان فى السودان وملحقاتها كفاية كما تعلم من اتساعها وتنوع ثمراتها . ولكن ما القصد كما يعلم الله إلا إحياء السنة المحمدية والطريقة النبوية بين أظهر عامة البرية . ولو نظرت بعين البصيرة والإنصاف وتركت التعامى عن الحق والاعتساف لأذعنت لى بذلك وسلكت

باتباعى أحسن المسالك وتيقنت أنك الآن بمعزل عن الهداية حيث اتخذت الكافرين أولياء من دون المؤمنين أهل العناية وركنت إلى مؤاخاتهم والانخراط فى سلكهم حتى كأنك تريد بهم إطفاء نور الله ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره أعداؤه » .

إنذار الملكة فكتوريا

وكتب إلى الملكة فكتوريا بقوله « ولما كان المهدى المنتظر عليه السلام هو خليفة نبينا محمد الذى أظهره الله لدعوة الناس كافة إلى إحياء دين الإسلام وجهاد أعدائه الكفرة اللئام ، وأنا خليفته القافى أثره فى ذلك فإنى أدعوك إلى الإسلام فإن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله واتبعت المهدى عليه السلام وأذعنت لحكمى ، فإنى سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير وإن كنت تظنين توهماً أن جيوش المهدية القائمة بتأييد السنة المحمدية مثل عساكر أحمد باشا عرابى الذين أدخلت الغش عليهم بالدنيا حتى افتتنوا بها عن دينهم وتخاذلوا عن نصرته ومكّنوك من الاستحصال على البر المصرى ، وصاروا أذلة أسرى لايستطيعون المدافعة عن أنفسهم ، فهذا توهم فاسد وغرور كاسد . فإن رجال المهدية رجال الهيون طبعهم الله على حب الموت ، وجعله أشهى لهم من الماء البارد للظمآن . فلذا صاروا أشداء على الكفار كأصحاب رسول الله الأبرار لاتأخذهم فى الله لومة لائم » .

خطاب للسلطان عبد الحميد

ومن خطاب للسلطان « ومع كونك تدّعى أنك سلطان الإسلام القائم بتأييد سنة خير الأنام فمالك معرضاً عن إجابة داعى الله إلى هذا الآن ومقراً رعيتك على محاربة حزب الله المؤمنين مع أهل الكفر والعدوان . فهل أمنت مكر الله أم كذبت وعد الله حتى صرفت مجهودك فى إعانة أهل الأصنام على هدم أركان الإسلام » .

وخاطب أيضاً قبائل نجد والحجاز وملك الحبشة والأستاذ محمد السنوسى وسلطان ودّاى . وبهذا فرغ من الإنذارات وعليه الآن أن يوجه الجيوش للغزوات .

التفكير فى غزوة مصر

تقدم أن حملة الإنقاذ وهى ترتد شمالا قد سيّر محمد الخير مقدمة جيوشه فى ذيلها ، فالتقت تلك المقدمة وعلى رأسها عبد الماجد ابن أخيه فى جنّس بالجنود

الإنجليزية . وكان هذا اتباعاً لسياسة الحكومة الإنجليزية للدفاع عن مصر فانتصر الجيش الإنجليزى وترك الأنصار عدداً من الشهداء فى المعركة . وانسحب الإنجليز إلى حلفا لتكون نقطة الحدود . وما إن ترامت أخبار المعركة إلى الخليفة حتى قرّر سياسته فى الغزوات فجعل راية الخليفة شريف للشمال لفتح مصر ، وراية الخليفة على للشرق . وبدأت مقدمة الخليفة شريف تغادر أم درمان تحت إمرة ود النجومى ، وتهيأ هو نفسه للرحيل عن أم درمان شمالا ببقية الرايات . إلا أن تراجع الإنجليز إلى الشمال وبداية مناوأة الأشراف حدت بالخليفة أن يغير موقفه نحو الرايات الأخرى فضمها كلها إلى يعقوب ووحد رئاسة الجيش وصرف النظر عن قيام الخليفة شريف بنفسه . ولكن راية النجومى تواصل سيرها وتتجمع فى دنقلا استعداداً لغزوة مصر .

حوادث الجبال

ولنرجع الآن إلى الغرب فإنه كان مليئاً بالفتن الداخلية والثورات المحلية . فقد أخل بالأمن واستهان بسلطة المهدية أهل جبال النوبة أولا قبل فتح الخرطوم وكان أمر المهدى قد صدر للأمير حمدان أبى عنجة وجهاديته بتأديب العصاة وإرجاعهم إلى الطاعة والإذعان فتوغل فى الجبال ، ولاحقهم فى كهوفهم ومعتصماتهم فى قممها ، وأذعن له الجبل تلو الآخر . وكانت إشارة الخليفة بعد وفاة المهدى تقضى بمتابعة جهادية الأبيض الذين ناهضوا المهدية ولجأوا إلى الجبال الغربية لتعصمهم من الأنصار . وكان السيد محمود عبد القادر والى الغرب بعد رحيل المهدى من الأبيض فى أم درمان فأتى على جناح السرعة لا ليرد الجهادية الآبقين ولكن ليحمل نساءه وأولاده إلى العاصمة معتزلا الخدمة كأمر الخليفة . غير أن السيد محمود رأى حين وصوله الأبيض أن يذهب بما تجمع حوله من أنصار ليصفى حساباته مع جهاديته الذين شقوا عصا الطاعة فاستشهد فى ميدان المعركة وظلوا بعده يرفعون الراية المصرية ويرجعون إلى ولائهم لأفندينا لأنهم كانوا من جنود الحكومة قبلا .

تجريد السيد محمد خالد زقل

صدرت إشارة إلى أبى عنجة بتأجيل القضاء على أولئك العصاة ريثما يعترض السيد محمد خالد وهو فى طريقه من دارفور إلى أم درمان بجيوشه .

وأمواله ، والسيد محمد خالد كان وكيلا لمديرية داره مع سلاطين ، وعندما تفاقم أمر المهدية وانعزلت حاميات دارفور ذهب لمقابلة المهدى فى الأبيض باتفاق مع سلاطين قبل موقعة هكس وكان سلاطين يرمى من وراء ذلك أن يتصل زقل بهكس فيما لو انتصر ، وأن يسلم للمهدى فيما لو كان النصر حليف الأنصار. ولكن السيد محمد خالد بايع المهدى قبل هكس ، وآمن به وذهب عاملا على دارفور بعد إبادة الحملة ، وظل يمارس عمـله كعامل إلى أن تسلم الخليفة مقاليد الأمور . فكاتبه أن يشخص إلى أم درمان لتجديد البيعة وزيارة قبر سيد الجميع (المهدى) ولكن السيد محمد خالد أبطأ أو تباطأ .. وكاتبه ثانياً لحضور عيد الأضحى فلم يرحل أيضاً . وأخيراً إزاء هذا الإلحاح لم يسعه الا الرضوخ للأمر . ففصل عن الفاشر بجيوشه يقصد أم درمان . وكان أن أحسّ الخليفة بمنافسة الأشراف ، وكان أن جرّدهم من الأسلحة ليأمن شرّهم ، وكانت راية السيد محمد خالد من أقوى فرق الخليفة شريف ، فليعزل قائدها قبل أن يصل إلى أم درمان . فالتقى الأمير أبوعنجة بالسيد محمد خالد فى باره واحتاط بجيشه وما وسعه إلا النزول على إرادة الخليفة والتسليم .

وقد وجدنا من قال بأن ما أدى إلى تجريد السيد محمد خالد وتكبيله بالحديد وإرساله إلى أم درمان مسجوناً ضبط خطاب منه إلى الخليفة شريف حين وفاة المهدى ينصحه فيه ألا يتنازل عن أسلحته وقوته وأنه (السيد محمد خالد) رهن إشارته ، فإن أراده أن يزحف بقواته إلى مصر فعل . وقيل إن هذا الخطاب كتب عنوانه إلى الخليفة عبد الله بنوع الغلط ولكنها رواية تفتقر إلى تأييد قبل الاطمئنان إليها .

أبوعنجة فى الجبال مرة أخرى

قفل أبوعنجة راجعاً إلى الجبال فى أثر الجهادية العاصين ففرّوا من جبال النما إلى الجنوب فظل يطاردهم من سهل لنجد ومن واد لجبل حتى صمدوا له أخيراً فأوقع بهم موقعة انفرط عقدهم بعدها . وتبع شراذمهم يبيدها الواحدة تلو الأخرى حتى قضى عليهم وفصل روس زعمائهم ، وأرسلها لأم درمان لتعلق فى السوق أياماً .

مقابلة أبى عنجة بأم درمان

استدعت الحالة أبا عنجة لحماية الحدود الشرقية فسار بجيوشه المظفرة إلى أم درمان . فوجد من الخليفة استقبالا رائعاً يليق بمن دوّخ الجبال ورد العصاة، ولنتركه الآن يغادر أم درمان إلى القلابات ليقاتل الأحباش ويحرز انتصارات باهرة ولنسير مع عجلة الزمن فى الغرب نسجل حوادث الفتن والثورات وكيف أخمدت :

مقتل مادبو

أول من رفع راية المهدية فى دارفور هو مادبوّ زعيم الرزيقات وناوش ونازل الحاميات الحكومية حتى أقلق راحتها . وعندما تسلم المديرية السيد محمد خالد رجع مادبو إلى باديته وداره فى جهات جنوب دارفور . وكان الخليفة يزيد تقوية جيوش المهدية وهى تزحف للخرطوم فاستدعى مادبو فيمن استدعى من الرءوس والزعماء . فما لبى النداء وكرر الأمر ثانية وثالثة بعد وفاة المهدى فتعلل واعتذر مرة أخرى وأخيراً جاهر بعصيانه للأمر . فما كان من رئيس الدولة والحالة هذه إلا أن يهدر دمه ويأمر عامله فى شكا محمد كر قساوى بمحاربته ، وأخلى كرم الله بر الغزال وتحرك إلى شكا أيضاً وبمعاونتهما طرداه من داره وفى الشمال قبض عليه الأمير يوسف بن السلطان ابراهيم عامل دارفور الذى تركه السيد محمد خالد وأرسل مخفوراً إلى أم درمان . ولكنه لم يصل إليها حيث قتله أبو عنجة فى الأبيض نتيجة لضغائن بينهما قبل المهدية وبعث برأسه لأم درمان ليعلق أيضاً . وقتل الشيخ صالح كبير مشايخ الكبابيش أيضاً لاتصاله بالحكومة أولا وطلب معونتهم الحربية بالسلاح والذخيرة ولعدم إذعانه لأمر الخليفة للحضور إلى أم درمان ثانياً .

مقتل الأمير يوسف

وظن الأمير يوسف فى دارفور أن الفرصة مواتية لاستقلاله وتربعه على عرش آبائه وأجداده . فطلب من كرم الله الخروج من داره وكاتب الخليفة بذلك . وكانت ردود الخليفة تضرب على نغمة للوفاق واجتماع الكلمة وأنهم إخوان فى الدين ، ثم ترامى إلى سمع الخليفة إباحته الخمر والمنكرات فى الفاشر . فكتب إلى الأمير يوسف للحضور إلى أم درمان لتجديد البيعة كما فعل غيره من

الأمراء . وظنها يوسف مكيدة لسجنه وإقصائه عن عرش آبائه ، فلم يرضخ للأمر ، وكان للخليفة أن يخضعه فولى عامله على كردفان الأمير عثمان آدم أمر محاربة يوسف . فتحرك الأمير من الأبيض وضم إليه قوات الأنصار هناك ودخلت الأنصار الفاشر مظفّرة بعد أن قتلت يوسف وفرقت جموعه .

أبو الخيرات وأبو جميزه

وما انطفأت نار إلا وشبت فى جهة أخرى تحت رئاسة زعيم جديد : فالفور أمّروا أبا الخيرات سلطاناً عليهم مكان يوسف المقتول . ونادى فى درتامة الفكى أبو جميزة بالعصيان . واجتمعت عليه قبائل غربى دارفور احتجاجاً على انسداد طريق الحج فى وجوههم وانضم إليه أبو الخيرات بمن تبعه . وادعى أبو جميزة أنه يتبع طريق المهدى وأنه يحتل منصب عثمان الشاغر وأنه سوف يفتح طريق الحج الذى أوصده الخليفة . وتبودلت الخطابات دون جدوى . وكان على عثمان آدم أن يطفىء هذه النار أيضاً وأرسل فرقة لملاقاته فارتدت منهزمة للفاشر . وتفاقم أمر الثوار وأرسلت النجدات تباعاً للفاشر وزحف الثوار إلى العاصمة الدارفورية ولكن زعيمهم أبو جميزة مات بالجدرى . وحمل لواء الثورة أخوه إساغة وواصل زحفه فى جموع سدت الأفق حين لاقاهم الأنصار وكانت موقعة عظمى انجلت عن ظفر المهدية على الثوار وكانت فى فبراير سنة ١٨٨٩ م

عثمان آدم يتوغل فى الغرب ووفاته

وكانت الفرصة الآن لعثمان آدم أن يفتح أوكار الفتن وملجأ الثورات فى ودّاى ، فعند هزيمته للأمير يوسف فرّ بعض أتباعه إلى ودّاى . وعند ما ثار أبو جميزة تبعه رهط من سكان ودّاى . وسلطان البلاد محمد يوسف نفسه يراوغ ويظهر الطاعة والولاء فى خطاباته وأنه يؤمن بالمهدية ولا يؤوى أعداءها ولكنه لم يفعل . فقاد عامل الغرب أنصاره لفتح البلاد وضمها إلى دولة المهدية . وما إن وصل دار المساليت حتى انتشر وباء فتاك فى جيشه قضى على كثرة من جنده فقفل راجعاً يحمل هو نفسه جراثيم المرض ، وامتلكه حين دخل الفاشر حيث كان محمولا على عنقريب ومات بعدها بقليل . وفقد الخليفة بموته دعامة قوية من دولته ، وخلفه فى العمالة وقيادة الجيوش بن عم الخليفة محمود ود أحمد الشاب .

أبو عنجة في الشرق

تركنا في الشرق الأمير أبا عنجة يسير بجيوشه للقلابات وكانت قبله حاميتها تناوش الأحباش تحت قيادة محمد ود أرباب . وقتل القائد في إحدى المواقع وخلفه الأمير يونس الدكيم . وكانت أولى أعماله أنه قبض على التجار الأحباش الذين يترددون على القلابات وأرسلهم إلى أم درمان وبعث بخطاب الخليفة الذي كان يحمله معه للملك يوحنا مذكراً إياه بخطاب المهدي قبل ذلك ، وفي الخطابين تبشير بالدعوة للإسلام وإنذار من المخالفة . واستجابة يوحنا كانت الصمت وعدم الرد والاستعداد بجيش عرمرم يُجلي فيه المهدية عن منطقة القلابات ، وأحس يونس هذا الاستعداد بواسطة جواسيسه ونقله للخليفة ، وكان نتيجة ذلك استدعاء الخليفة لحمدان ، وكان ابعاثه لمعالجة الموقف في الشرق . لم يرق ليونس العمل تحت إمرة أبي عنجة فغادر القلابات إلى أم درمان بأمر الخليفة ليُعين عاملا لدنقلا حينما يغادرها النجومي شمالا لغزو مصر .

حرب أبي عنجة مع الأحباش

حمل أبو عنجة معه خطاباً ليوحنا منذراً ، ولما لم يتلق رداً خرج بجموعه متوغلا في أراضي النقُس ، ولنقتطف ما يأتي من خطاب الأمير حمدان إلى الخليفة يشرح له عملياته الحربية « ولما تم لنا في المسير تسعة أيام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله النقُس رأس عدّار . فالتقتنا طلائعه الفرسان في أول البلاد فهزمناهم وقتلنا منهم واستطردنا السير بقية يومنا إلى الاصفرار ، فنزلنا قريباً من ديم أعداء الله ولما طلع الفجر العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا على حالتنا المعهود ورتبنا حزب الرحمن من الأسلحة والخيول بحسب ما يسره الله لنا من علمه ، وقمنا بعد صلاة الصبح على بركة الله تعالى قاصدين ملاقاة حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار لا نؤمل إلا لقاء الله ونصرة الدين . . ولما تراءينا مع أعداء الله الكفرة إذا هم من كثرتهم لا أول لهم يعرف ولا آخر يوصف . فابتدرونا ضرباً بمدافعهم الأربعة بمسافة لايصلها الرمنتون لزعمهم أننا نقف مكاننا وتناوشهم مناوشة . وما زالوا كذلك ونحن زاحفون عليهم حتى ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . هذا كله والإخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضاً إقداماً بلا إحجام طمعاً فيما ينالونه من نفحات العزيز العلام .

ولم نأذن لهم بالضرب إلى أن حققنا بأن أفواه السلاح امتلأت من أعداء الله . فعند ذلك شرعنا فى ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم ، مع الزحف عليهم . فما كانت لهم ساعة إلا وقد زلزل الله أقدامهم وألحق الرعب فى قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين . وبعد انكشاف الأعداء اقتفينا أثرهم طعناً وضرباً وأسراً حتى اضطر الذين أمامنا إلى أن رموا بأنفسهم فى النهر المذكور . . هذا ولما خلت الدار من الكفار وأنتنت رائحة الدم من جيف أعداء الله وبرمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر (غندار) أم مدائنهم يوم السبت فى ٧ جمادى الأولى ، وقبل وصولنا إليها قابلنا أهل الديار المذكورة أعلاه راغبين الأمان ورافعين الرايات البيض ، وقد أبدى البعض الأغصان الخضراء ثم لما قربنا إليها قابلنا جميع كبرائها من مسلمى الجبرته بالطاعة والإذعان طالبين الأمان فأمّناهم . . . فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يميناً وشمالا فأعجبنا بما شاهدناه من القصور الشامخات وأحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التى أحرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهى تزيد على ٢٠٠ كنيسة » .

سعى النجاشى

هذا هو التقرير الذى يصف أعمال حمدان الحربية فى الحبشة حتى غندار ورجع بعد ذلك إلى مقر قيادته بالقلابات يحمل أكاليل النصر والظفر » وخرج مرة ثانية بعد أربعة أشهر ، ولما لم يتعرض له عدو عاد أدراجه . وكان على يوحنا آنذاك أن يرد خطر التليان وهم قد ثبّتوا أقدامهم فى مصوع . فليتفرغ للعدو الأبيض ويعقد صلحاً مع جيرانه الإفريقيين ويخاطب حمدان بقوله « والآن فإذا أنا حضرت إلى بلادكم وأهلكت المساكين ثم جئتم أنتم وأهلكتم المساكين فما الفائدة فى ذلك . . والواقع أن الإفرنج أعداء لنا ولكم فإذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل أخربوا دياركم ، وإذا ضربوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . فالرأى الصواب أن نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم . ويتردد التجار من أهل بلادنا بالمتاجر إلى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد إلى غندر لأجل المعايش والمكاسب لأهلكم ولأهلنا . فإذا صار كذلك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لأنكم أنتم ونحن فى الأصول السابقة أولاد جد واحد . فإذا قاتلنا بعضنا بعضاً

فماذا نستفيد فالأفضل والأصوب لنا ولكم أن نكون ثابتين فى المحبة جسداً واحداً ، وشخصاً واحداً متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين بالشورة الواحدة ضد أولئك الذين يحضرون من بلاد الأفرنج والترك وغيرهم الذين يريدون أن يحكموا بلادكم وبلادنا مزعجين لكم ولنا . أولئك أعداؤكم وأعداؤنا نحاربهم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم » وبسط يوحنا بهذا سياسة أفريقيا للأفريقيين ونادى بحلف إفريقى من الدولتين المستقلتين استقلالا كاملا فى أفريقيا لمناوأة الفرنجة . ولكن لا مصالحة أو مهادنة فى نظر حمدان إلا إذا اعتنق يوحنا الإسلام وحينئذ يظل الكل إخواناً متعاونين مناهضين لأعداء الدين فالمهدية لاترى إلا إلى الجامعة الإسلامية .

وفاة حمدان

وكان هذا الشرط فى رأى يوحنا معناه رفض المحالفة ، فحشد جيوشه ليقودها بنفسه على حصون الأنصار فى القلابات . وأثناء ذلك توفى الأمير حمدان وبكاه جنوده وفقد الخليفة دعامة ثانية قوية من أركان دولته ، ورثاه محمد المجذوب ابن الشيخ الطاهر بقصيدة منها : —

حمدان إنك طالما سمت العدى	ذلاً وذكرك فى المحافل يرفع
ما وُجهت رايات نصرك وجهه	إلا وبالظفر المؤكد ترجع
فلك الهنا بلقاء ربك شاهرا	سيف الجهاد وكل قرم تقمع
فسحائب الرضوان تغشى تربة	ضمتك ما نجم يغيب ويطلع

الزاكى يخلف أبى عنجة

وتسلّم القيادة الزاكى طمل بعد أن نازعه فيها أحمد على غير أن الخليفة بعث بأمنائه لتثبيت الزاكى . فأتم ما بداه حمدان من استعداد وتحصين ، واقتربت الجموع الحبشية يقودها إمبراطورها من القلابات بعدد يفوق حامية الأنصار أضعافاً . ونشبت معركة من أشد مالاقى الأنصار ولكنهم تدرعوا بالصبر والثبات حتى جرح يوحنا جرحاً مميتاً أدى إلى إشاعة الفوضى فى معسكرهم وانفرط عقد نظام الجيوش الحبشية وارتدت من القلابات ووراءها الأنصار يقتلون ويأسرون واستولوا على غنائم وأسلاب لاتحصى من نساء وعبيد وخيول

وأسلحة وتاج الإمبراطورنفسه . وكان لهذا النصر العظيم رنة فرح فى أمدرمان ارتفعت معه روح المهدية إلى قمتها .

النجومى فى دنقلا

هدأت مناوشات الحدود الشرقية عقب الانتصار العظيم وخمدت ثورات الغرب واتجهت أنظار الخليفة نحو الشمال . وقد تركنا النجومى فى دنقلا عاملا عليها فى انتظار الإشارة من الخليفة بالزحف على مصر . ولم يكن الوئام يسود رءوس الأنصار فى دنقلا إذكان النجومى ومساعده مساعد قيدوم على خلاف دائم يريد الأول التفرد بالحكم بصفته القائد الأعلى وصاحب الحل والعقد ، ويريد مساعد ألا يقطع الأمير برأى دون مشورته وأن يشاركه فى الإدارة مشاركة الند لا التابع معتزاً بمكانة قومه من الدولة إذ ينتمى إلى قبائل الغرب. ويتضجر الأمير من هذه الحالة ويشكو الأمر إلى الخليفة ثم يخف بنفسه إلى العاصمة يبسط ما يضعه أمامه مساعد وغيره من عراقيل . وينصرف الخليفة عن تلك الشكوى لأن النجومى الأمير العام وعليه أن يتعاون مع مساعديه وينال ثقتهم واحترامهم بشخصيته . ورجع وفى النفس أشياء غير أن إيمانه بالمهدية كان عميقاً فأراد الموت وفى عنقه بيعتها . وصمم على التقدم للغزو مهما كانت العراقيل .

سير النجومى من دنقلا

بعث الخليفة بأمناء إلى دنقلا لبحث أسباب النزاع وحكموا بأن يرجع مساعد إلى أم درمان ولكن الخليفة عين يونس الدكيم أميراً عاما لدنقلا يقيم فيها بينما يغادرها النجومى غازيا ولم يكن الخلاف بين الأمير الجديد والنجومى بأقل منه مع مساعد . وفى حالة من اليأس تحرك الأميرعبد الرحمن من دنقلا فى ٣ مايوسنة ١٨٨٩ مع أربعة آلاف مقاتل ومعهم سبعة آلاف من النساء والأولاد بأغذية قليلة ولاسيما وهم سيمرّون على أراض مقفرة قليلة التمر والإنتاج . وعندما سار الأنصار نشطت جاسوسية ود هاوس باشا قائد حامية الحدود فى حلفا متقصياً أحواله وقوته . وأمر السكان بالضفة الغربية للنيل بإخلاء القرى من أنفسهم وأغذيتهم ولنتركوها للأنصار خراباً بلقعاً وينتقلون للضفة الشرقية تحت حماية جيش الحدود .

ود هاوس يعترض طريق النجومى

نقل ود هاوس باشا ما يقرب من الألفين من جنوده إلى أرجين على الضفة الغربية من النيل قبالة حلفا واستخدم بيوتها وما بها من طوابى استحكامات لجنده وشحنت الوابورات فى عرض النهر تمد النقاط الضعيفة عند اللزوم وتعين الجند بمدافعها ، وكان الأنصار لابد لهم من ورود الماء عند أرجين ؛ وكان عليهم إن أرادوا التقدم شمالا أن يردوا الماء ويرتووا قبل استئناف سيرهم أو النكوص على أعقابهم متجنبين تلك العقبة . وفى مجلس عقد من الأمراء تمسك الأمير العام باقتحام العقبة مهما كلفه الأمر مخاطباً إياهم بقوله « والله لا أرجعن إلى الوراء إلا محمولا على الأكتاف . فإذا عطشنا أو جعنا فإنما نحن فى جهاد فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر أو بالشهادة » . قال ذلك وهز سيفه فوق رأسه وتابعه أمراؤه فى تحمسه وهزوا سيوفهم ثم تابعوه فى رأيه . وكان ذلك المجلس وذلك القرار بعد أن فقدوا فى معركة النزول إلى الماء ما يقرب من الألف مجاهد . وصار بعض الأنصار ينزل خلسة فى بهيم الليل إلى النيل ويروون الجيش كله وهو فى الصحراء بعيداً من مرى القنابل .

النجومى يشكو الحال إلى الخليفة

وبعد الارتواء وحمل ما يكفى من ماء ضربوا فى الصحراء ملتفين حول حصون أرجين وما إن تجاوزوها وحطوا الرحال على بلانه حتى كتب النجومى إلى الخليفة بقوله « سيدى وملاذى بعد إهداء مزيد السلام نرفع إلى مكارمكم عن أحوالنا وأحوال الأنصار الذين معنا أنه قد مسهم الضرر الشديد الذى ما عليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الأمر جداً فإن الجوع الحال بهم أضناهم وأذهب قواهم فورم أجسامهم وغير أحوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه وانقطع عنهم من مدة . ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة ولشدة الضرر جلسوا جميعهم على الأرض وكثيرون منهم ماتوا جوعاً . وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا فى الأعداء ، والجهادية والعبيد والخدم لحقوا أيضاً بالأعداء وارتدوا عن الدين ، ولم يبق منهم إلا النادر ،

ثم إن الجهادية الذين أرسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدى يونس كانوا خمسة وثلاثين الجميع رغبوا فى الكفرة وهربوا إليهم ولم يبق معنا منهم إلا ثلاثة .

ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول إلى بلاّجة ، والحاصل أن الأنصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب . وطالما صبروا على ذلك لأنهم من عهد ما صرفوا بدنقلة لم يجدوا صرفاً أصلا . . . أما أهل الريف من معتوقة إلى بلاجة التى وصلنا إليها فكلهم قاموا فى عون الكفرة وحزبوهم كل التحزب ومن عهد دخولنا ديارهم إلى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرّج ولا راغب فى الدين ولا من يريد تجارة ، بل الجميع حملوا الأسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة ٥

أما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا وعساكرهم ماشية بالشرق فى خيل وجمال لمنع الأنصار ماء البحر . ولم يكن شرب الماء إلا بقتال ومضاربة واستشهاد وجراحات . وجزى الله الأنصار خيراً وبارك فيهم . فإنهم مازالوا مطمئنين على حالهم . وثابتين على محاربة عدوهم لا ينتظرون إلا النصر والظفر بالأعداء أو الفوز بالشهادة » .

معركة توشكى

وكان أن حشد جرانفيل باشا سردار الجيش المصرى الجند فى أصوان وانتقل بنفسه إلى معسكر ود هاوس وجرت مخاطبات بينه وبين الأمير عبد الرحمن طلب فيها إليه التسليم واتقاء الموت والأسر . ورد النجومى بأنه قاصد فى طريقه يجاهد فى سبيل الله حتى ينصره أو يفوز بالشهادة . وكانت موقعة توشكى فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ ، إذ تمت هزيمة الأنصار وما كان لهم أن يحوزوا نصراً وهم بالحالة التى وصفهم بها أميرهم من جوع وتعب ونقص فى الذخيرة ، ولكنهم لا يرضون إلا النصر أو الفوز بالشهادة وقد فازوا بالثانية . وكانت بداية النهاية لأمر المهدية حيث بدأ الجيش المصرى بعدها اتخاذ خطة الهجوم لا الدفاع إلى أن تحركت حملة كتشنر فى سنة ١٨٩٦ م .

السياسة الإنجليزية نحو السودان

فى عهد الخليفة عبد الله

سياسة انجلترا فى مصر والسودان مابين ١٨٨٢م و ١٨٨٥م

عرفنا فيما مضى من فصول أن مصلحة انجلترا عند احتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ وقيام الثورة المهدية فى السودان قضت عليها بعدم التدخل فى مسألة السودان وأنها عازفة عن تحمل مسئوليات استعمارية أكثر مما لديها وتدخلها فى مصر نفسها كان لإعادة الهدوء والاستقرار فى البلاد وإدخال بعض الإصلاحات فى الإدارة المصرية حتى يكون طريقها لإمبراطوريتها عبر قنال السويس فى مأمن من الهزات ولأنها ما كانت ترمى لأكثر من هذا طالبت فرنسا بتنفيذ الاتفاق السابق بينهما بالتدخل عندما تصل الأمور فى مصر حداً يستدعى ذلك وعندما عزفت فرنسا عن المعاونة طلبت من إيطاليا الاشتراك فى الحملة على مصر وهذه رفضت أيضاً. والسؤال الذى لابد أن نجيب عليه هو كيف نفسر هذا العزوف آنذاك مع علمنا أنها فى سنة ١٨٩٢ جاهرت بالاحتلال الدائم لمصر وفى سنة ١٨٩٦ وجهت حملة كتشنر لاستعادة السودان؟ ـ الموقف فى الحالتين هو مصلحة انجلترا. ففى الحالة الأولى كانت انجلترا أكبر دولة صناعية تجد منتجاتها سوقاً رائجة فى كل أرجاء العالم والمواد الخام العالمية تحت تصرفها ولها من المستعمرات ما يكفيها بل أكثر من ذلك وأسطولها لازال سيد البحار لحماية تلك المستعمرات وحماية أسطولها التجارى حاملا ما تصدره من منتجات مصانعها وما توردده من مواد خام، ولم يصل الإنتاج الصناعى للدول الأوروبية الأخرى الدرجة التى يستطيع فيها منافستها وبالتالى لم تبدأ تلك الحمى الاستعمارية التى ظهرت واضحة جلية فى التسعينيات من القرن الماضى. وفوق هذا فإن مصر كانت على وشك الإفلاس نتيجة سياسة إسماعيل الاقتصادية الخرقاء. فهمتها آنذاك

تركزت — والحالة هذه كما وصفنا — فى الإصلاحات المالية والإدارية فقط . والسودان فرع للمسألة المصرية فلا غرابة إذا ما أصرت على إخلائه حتى لا يسبب انهياراً مالياً واستنزافاً للخزينة المصرية أكثر مما أصابها .

محاولات التعايش السلمى مع الخليفة

عند ما خضعت السياسة الإنجليزية للأمر الواقع فى السودان وركزت جهودها فى حماية الأراضى المصرية من تقدم المهدية نحوها رأت أن تفتح طريق التجارة مع السودان لكل السلع ما عدا الأسلحة والذخيرة وأثناء المناقشة فى مصر فى هذا الصدد برزت مسألة الجمارك التى تجبى على البضائع الواردة على السودان وقر الرأى على ألا تجبى ضرائب جمركية عن واردات السودان لمصر أكثر مما يجبى عادة فى موانى مصر عن البضائع الصادرة من مصر نفسها ، وتركز هذا الرأى على أن السودان ولو أنه عملياً انفصل عن الإمبراطورية العثمانية فإنه قانونياً لازال جزءاً منها ريثما يتم استرجاعه ، وعندما كان كتشنر حاكماً لسواكن اقترح تقييد التجارة مع السودان للحفاظ على ولاء القبائل التى لا زالت تأمل فى رجوع الراية المصرية ، عارضه السير افلن بيرنج ووافقته حكومته على حرية التجارة وظلت التجارة مفتوحة بين القطرين ما عدا بعض الفترات التى يأمر بإيقافها الخليفة أو الحكومة المصرية لمستلزمات الأمن . وظهرت محاولات من شركة إنجليزية تستهدف احتكار التجارة فى جهة سواكن وامتداد نفوذها للداخل غير أن احتجاجات السلطان العثمانى والحكومة المصرية ومعارضة بيرنج وكتشنر لهذا الاقتراح أوقف الشركة المذكورة حتى إن السلطان نادى بضم سواكن لتركيا بدلا من تركها لشركة إنجليزية تمهد لنفوذ إنجليزى مثلما فعلت الشركة الأنجليزية قبلها فى الهند . غير أن الحكومة الإنجليزية ردت بأنه لا أساس من الصحة للتنازل عن سواكن لشركة إنجليزية وأن تركيا أضعف من أن تقاوم نشاط عثمان دقنه وأن مسؤولية حمايتها واجب على إنجلترا ومصر بالتعاون بينهما .

محاولات لرجوع نفوذ مصر

ومن جانب بعض السودانيين وصلت عرائض لمصر تطلب منها استرجاع البلاد وتخليصها من حكم الخليفة . فقد وصلت عريضة فى سنة ١٨٨٦ إلى مصر ممهورة من بعض وجهاء مديرية كردفان وأغلبهم من التجار . وصالح بك زعيم الكبابيش كتب لجودت بك نائب مدير دنقلا السابق يخبره بأن القبائل على استعداد للمقاومة . والصحافة البريطانية فى سنة ١٨٨٨ لحت بضرورة استعادة دنقلا والسير صموئيل بيكر أيّد الرأى القائل بالقيام بعمليات حربية فى السودان وعند بحث هذه الآراء فى مصر من قبل السلطات العسكرية الإنجليزية أشارت بأن استرجاع دنقلا لا يكفى ولابد من التقدم للخرطوم . ورد الفعل من جانب الحكومة المصرية كما كان يمثله رياض باشا رئيس الوزراء آنذاك يؤيد فكرة الاسترجاع ولكنه يدرك تماماً الصعوبات المالية والعسكرية التى تقف فى سبيلها . أما بيرنج فيرى أن أية عمليات حربية حتى إذا ما استرجعت الخرطوم فإنها لابد لها أن تتوغل إما ناحية سنار أو كردفان لأن حكومة الخليفة إذا ما أخلت أم درمان سوف تنقل نشاطها إلى إحدى الناحيتين ، والنتيجة من كل ذلك هى نقل الحدود من مكانها الحالى فى سواكن وحلفا إلى داخل السودان وحماية طريق مواصلاتها ويستلزم هذا زيادة فى النفقات المالية وزيادة قوة الجيش المصرى وكلاهما فوق طاقة مصر المالية والحربية آنذاك . ونتيجة لتوصيات بيرنج وافقت الحكومة الإنجليزية على الاكتفاء بحماية مصر فى جبهتى حلفا وسواكن . ويرى بيرنج أن مشكلات الإدارة فى السودان حتى لو تم الاسترجاع لا حل لها إذ لابد من رقابة بريطانية جازمة حتى لا ترجع مساوئ الحكم التركى — المصرى ولم يكن عدد الضباط البريطانيين الذين يعملون فى الجيش المصرى بكاف للإشراف على هذه الإدارة وبيرنج يرى أنهم أصلح طبقة للقيام بهذه المهمة .

بعد حملة النجومى

وعندما قامت ثورة أبو جميزة فى دارفور وأصبحت خطراً على حكم

الخليفة عبد الله اعتقد قلم المخابرات العسكرية فى الجيش المصرى أنها حركة يؤيدها السنوسى فى ليبيا وأنها تعمل بأوامر منه ، وقدم ونجت رئيس هذا القلم اقتراحاً يرمى إلى تعزيز أواصر الصداقة مع السنوسى الذى روئى أن التعاون معه فى حيز الإمكان وأن نفوذه فى السودان من صالح مصر أكثر من نفوذ الخليفة عبد الله ، ولكن سرعان ما انهار هذا الأمل إذ تأكد انقطاع الصلة بين السنوسى وأبو جميزة وأخمدت ثورته . وحملة النجومى التى انتهت بالهزيمة رفعت من معنويات الجيش المصرى الجديد وأزالت تلك الهالة من القوة والمنعة التى كانت لجيوش المهدية . وبعدها علموا بروح التذمر والسخط التى سادت بعض الأوساط السودانية من حكم الخليفة وخاصة عند الجعليين حيث اتصل بعضهم بود هاوس باشا قائد حامية حلفا عن اتخاذ الخطوات اللازمة لإنهاء حكم الخليفة ولكن الحكومة الإنجليزية على رأيها أن الوقت لم يحن بعد لاسترجاع السودان .

مطامع إيطاليا فى شرق السودان

أرسل بيرنج برسالة هامة إلى حكومته فى ١٥ ديسمبر ١٨٨٩ كشفت عن مطامع توسعية فى شرق السودان وخاصة فى منطقة كسلا . وعالج بيرنج فى هذه الرسالة الأخطار التى ربما يتعرض لها وادى النيل إذ ما احتلت دولة أوربية أى جزء من وادى النيل . فحكومة المهدية ليس لها من الخبرة الفنية الهندسية ما تستطيع به إقامة سدود وخزانات على النيل تؤثر على المياه اللازمة لزراعة مصر ولكن أية دولة أوربية قد تكون خطرة على مصر من هذه الناحية . ولم يقتنع سالسبرى رئيس الحكومة البريطانية ووزير الخارجية بأن احتلال كسلا أو طوكر يؤثر على وادى النيل إلا أنه اقتنع أخيراً عندما شرح له بيرنج هذه النقطة ، فاحتلال كسلا سيقود إلى توسع نحو الغرب بدعوى بسط النفوذ على كل منطقة القبائل وبحكم الاندفاع سوف يصلون إلى النيل . ويرى بيرنج أن اخلاء السودان أمر يؤسف له وأن من يمتلك مصر لا بد وأن يضم إليه السودان يوما ما وإلى أن يتم ذلك يجب أن تمنع الدول الأوربية من

أن تتجه مطامعها الإقليمية نحو السودان وإيطاليا بالذات مجالها الحبشة والسودان جزء من مصر تسترجعه فى الوقت المناسب وتزول [تلك الوصمة التى ما زالت عالقة بانجلترا وهى أن المصريين فقدوا السودان أثناء احتلالها لمصر وبأوامر منها .

استرجاع طوكر ١٨٩١ م

حفزت مطامع إيطاليا فى منطقة كسلا بيرنج يؤيده العسكريون لاحتلال طوكر كجزء من الخطة التى ترمى لحماية وادى النيل ولم يقتنع سالسبورى فى أول الأمر لأنه يخاف الإشكالات التى ربما يقوده إليها العسكريون إذا ما سمح لهم بالقيام بعمليات حربية . فقد يتوغلون أكثر مما يجب لحماية مكاسبهم ويفسرونها بأنها مستلزمات دفاعية وبذلك يفلت زمام الأمور من المسؤولين السياسيين ويرى فى طوكر والمناطق الشرقية فرعا من المنطقة الهامة وهى وادى النيل الذى يجب البدء به فى الوقت المناسب . وعندما رأى إصرار بيرنج على استرجاع طوكر اقترح سلسبرى عليه محاولة مفاوضات سلمية مع الإيطاليين فى روما ولكنها فشلت لأن الحكومة الإيطالية آنذاك لم تقبل نظرية حق مصر فى أراضيها السابقة وإزاء هذا الموقف المتشدد من إيطاليا سمحت الحكومة البريطانية لبيرنج وللعسكريين باحتلال طوكر عندما أصروا عليها . وفى فبراير سنة ١٨٩١ م تم احتلال طوكر ولكن بتضحيات فى الأرواح أكثر مما كانوا يتوقعون واعترف بيرنج بأنه لو كان يعلم أن قوات عثمان دقنه بهذه المنعة لما وافق على العمليات الحربية . وفى نفس الشهر الذى تم فيه احتلال طوكر سقطت وزارة crispi نتيجة سياسة التهور والغلو فى التوسع الاستعمارى وهى التى كانت متشددة ضد السياسة الإنجليزية فى نظرية الحق القانونى لمصر فى السودان .

احتلال الطليان لكسلا يوليو ١٨٩٤ م

وعندما استلمت زمام الأمور فى إيطاليا وزارة دى روديني (Di Rudini) اعترفت بسيادة مصر على أراضيها السابقة فى السودان ووافقت بريطانيا أن تسمح لإيطاليا باحتلال كسلا مؤقتا إذا رأت ضرورة حماية نفسها من الخليفة .

وفى سنة ١٨٩٢ تأكد لوزارة الأحرار بزعامة روزبرى Rosebery أن الموقف الدولى والسباق الاستعمارى فى القارة الإفريقية يستلزم الاحتفاظ بمصر واحتلالها احتلالا دائماً لأنهم أن خرجوا منها فستعقبهم دولة أخرى عليها وبالتالى لابد من حماية مياه النيل فى السودان بإبعاد الدول الأوربية من وادى النيل . وفى سنة ١٨٩٤ اقترحت إيطاليا على انجلترا التعاون معها بعمليات حربية ضد عثمان دقنه غير أن الإنجليز رفضوا الاقتراح وقدموا اقتراحا آخر يرمى باحتلال ثنائى لكسلا ينسحب التليان بعدها ويتركون حامية مصرية فأجيبوا بأن الحكومة المصرية ليست على استعداد لمغامرة حربية ، ولعل الدرس الذى لقنوه فى طوكر كان السبب . وكلما فتح التليان موضوع احتلال كسلا تنفيذاً لاتفاقية ١٨٩١ عارضهم الإنجليز وثبطوا هممهم . غير أن إلحاح إيطاليا جعل الإنجليز يخضعون فى آخر الأمر بعد أن حصلوا على تأكيدات بأن تسلم المدينة للجيش المصرى عندما يحين الوقت لاسترجاع السودان ، وتم للتليان احتلال كسلا بعد أن تغلبوا على جيش المهدية فى يوليو سنة ١٨٩٤ . وفى هذه السنة بعث عبد الله ود سعد مندوبا لمفاوضة كتشنر فى خطة تعاونية بين الجيش المصرى والجعليين لإنهاء حكم الخليفة ولكن لورد كرومر (سير افلن بيرنج سابقاً) رفض الاقتراح بحجة أن الخليفة لازالت له قوة حربية كبيرة بالرغم من أن الكثيرين قد انصرفت قلوبهم عنه .

فرنسا وفشوده

نجحت انجلترا فى اتفاقيات مع إيطاليا وبلجيكا وألمانيا فى تأمين وادى النيل من نفوذ الدول الأوربية ما عدا فرنسا التى دأبت على مضايقة انجلترا فى مصر ورأت أن تدبر حملة عسكرية تغرس العلم الفرنسى فى فشوده تستعمله سلاحا للضغط على انجلترا سياسياً لإجلائهما عن مصر . وشجعهم على ذلك تلك المحاضرة التى ألقاها مواطنهم مسيو برومت (Prompt) فى يناير سنة ١٨٩٣ فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة عن مسائل تتعلق بمياه النيل وضبطها ، وكان يعمل آنذاك مهندسا فى الحكومة المصرية . فبعد أن عالج المسائل الفنية تطرق

إلى الخطر الذى سوف تتعرض له الزراعة المصرية فيما لو قامت سدود فى أعالى النيل حجزت المياه عن مصر عند الحاجة إليها أو تركتها تنساب وتغرق الزراعة فى وقت ليسوا فى حاجة لها . وفى باريس حضر مسيو برومت هذا اجتماعا ترأسه المسيو كارنو (Carnot) رئيس الجمهورية وكان زميلا له فى المدرسة ومن المجتمعين أيضاً مسيو دلكاسيه (Delcassié) المشرف على تنفيذ المشروع ومسيو مونتيل (Monteil) الذى سيعهد إليه بقيادة البعثة . وتقرر أن تتجه تلك البعثة من منطقة نفوذ فرنسا فى أواسط أفريقيا لتغرس العلم الفرنسى فى فشوده قبل بلجيكا الذى ظن إن لهم نشاطا هناك واستخدم هذا الاحتلال كأداة ضغط سياسى على مركز انجلترا فى مصر كهدف أساسى .

بلجيكا تعترض وتتفق مع بريطانيا

وما كان لبلجيكا وهى ترنو بأبصارها نحو بحر الغزال كمجال لتوسعها الاستعمارى أن تسمح لحملة فرنسية بعبورها والمفاوضات فى هذا الصدد لم تنجح . وأثناء ذلك قدم شالى لونج المغامر الأمريكى والذى عمل حينا مع غوردون فى الاستوائية اقتراحا يرمى إلى خطة تشجع إمبراطور الحبشة على إنهاء حكم الخليفة وإعلانه سلطانا على السودان تحت الحماية الفرنسية . ولكن مهما بلغت درجة الحكومة الفرنسية من الغلو الاستعمارى فإنها لا تقبل مشروعا جنونيا كهذا يخلق إشكالا مع إيطاليا . والإنجليز من جانبهم فى بوغندة وضعوا خطة للتقدم شمالا فى سباق مع البلجيك . ولتتفرغ انجلترا لمقاومة فرنسا اتفقت مع البلجيك على أن تحتل بلجيكا عن طريق الإيجار الضفة الغربية من النيل من وادلاى إلى فشودة . وتجاوزت غضبة فرنسا الحدود لهذا الإجراء الذى سد طريقها لهدفها فشودة واحتجت بأن لا شرعية لهذه المساومة حيث تناولت أراضى تخص تركيا ومصر ولا سيما هذه الشرعية أكدت فى فرمان تولية عباس الثانى سنة ١٨٩٢ . واحتجت ألمانيا أيضاً لأن العملية تضمنت استيلاء الإنجليز لمنطقة مجاورة لنفوذها . وأمرت فرنسا أن تسرع حملتها بالتقدم وشق طريقها بالقوة . غير أن هانوتو وزير الخارجية الفرنسية اقترح على وزارة مستعمراته التأنى ومحاولة الحلول السلمية حتى

لا يقع تصادم بين فرنسا وانجلترا وقبلت بلجيكا التنازل عن ذلك الجزء الشمالى الذى يقع فى طريق حملة فرنسا ومع ذلك رأت وزارة الخارجية الفرنسية المفاوضة السلمية مع انجلترا فى كل الشؤون الإفريقية المتنازع عليها . وبتلك الطريقة ضغط هانوتو على فرامل عجلة غلاة الاستعماريين حينا من الوقت .

فشل المفاوضات مع انجلترا

بدأت المفاوضات فى باريس بين وزارة الخارجية الفرنسية والقائم بالأعمال الإنجليزى وتوصل الفريقان على أن تقف تحركات الفريقين موقتا . ولكن انجلترا لم ترض عن هذا الاتفاق المبدئى حيث وضعها فى موقف واحد مع فرنسا . وعندما رجع السفير الإنجليزى لباريس استأنف المفاوضات وتمسكت انجلترا بنظرية ابتعاد الدول الأوروبية عن وادى النيل عن طريق الاحتلال الدائم . وفشلت بذلك مساعى هانوتو السلمية وترك لغـلاة الاستعماريين حرية العمل . واستأنفت الحملة نشاطها لتسبق الإنجليز على فشوده من قواعدهم فى يوغندة وتأكد فى التعليمات الجديدة أن الغرض من الحملة الضغط السياسى على انجلترا وليس التوسع الإقليمى . وعلمت انجلترا بتجديد نشاط الحملة وألقى سير إدوارد جراى وكيل وزارة المستعمرات البرلمانى تصريحا شديد اللهجة أكد فيه أن خطة فرنسا عمل غير ودّى . وبالرغم من أن لورد كمبرلى وزير الخارجية خفف وقع هذا التصريح عند محادثته مع السفير الفرنسى فى لندن إلا أن الزوبعة التى أثارها زادت من الهوة التى تفصل سياسة البلدين ولم يكن كل أعضاء الوزارة البريطانية راضين عنه . واعترفت فرنسا بأن هناك حملة متجهة نحو وادى النيل ولكن وصفتها بأنها غير حربية ولا تعمل تحت إمرة الحكومة الفرنسية بل يقودها فرنسيون لحسابهم الخاص وأنه لا يستبعد أن تصل هذه الحملة إلى أهدافها دون علم الدولتين .

سباق بين انجلترا وفرنسا

تلكأت حملة ليوتارد نوعا ما لأن بها نقصا فى المعدات والمال اللازم وكان قائدها فى مهمة أخرى فى ساحل العاج وهناك ساعده مرشان وعند إتمام

المهمة أعد مشروع جديد اشترك فيه مرشان أيدته الحكومة الفرنسية وعهد إلى مرشان بقيادة الحملة فى مراحلها الأخيرة وتمت عناصر هذه الخطة الجديدة واكتملت فى فبراير سنة ١٨٩٦ . واتفقت بلجيكا مع فرنسا لتحتل منطقة اللاد وحسب اتفاقها مع انجلترا وتتعاون مع مرشان لبلوغ هدفه . ولانجلترا خطتها التى تقاوم بها الزحف الفرنسى حيث دب النشاط فى مشروع السكة الحديد من يوغندا لساحل المحيط الهندى وتقدم حملة إنجليزية شمالا من يوغندا لتمنع فرنسا من احتلال فشودة . وفى ابريل سنة ١٨٩٥ وجه لورد روزبرى إلى اللورد كرومر العديد من الأسئلة فى خطاب خاص عن احتمالات التقدم نحو السودان من مصر . وأكد كرومر فى رده انزعاج المصريين من التحركات الفرنسية . وأهمية أعالى النيل لحياة مصر وضرورة احتفاظ إنجلترا بمركزها فى مصر . ومع ذلك فإن مصر ليست على استعداد لمغامرة عسكرية تهدف استرجاع السودان .

اقتراحات جنونية لليوبولد ملك بلجيكا.

وإذا كان لنا أن نضرب مثلا واحداً لتلك الحمى الاستعمارية أنذاك فإن أبرزها وضوحاً اقتراحات ليوبولد ملك بلجيكا الجنونية لمسألة السودان . فى أكتوبر سنة ١٨٩٥ قام برحلة لإنجلترا وتحادث مع لورد سلسبرى رئيس الوزارة مقترحاً أن يتنازل له الخديوى عن كل الأراضى التى تقع جنوب الخرطوم حتى بحيرة نيانزا عن طريق الإيجار . ولم لما يجد استجابة مرضية رجع مرة ثانية فى ديسمبر من نفس السنة للندن وفى لهجة تهديدية معتمداً على اتفاقه مع فرنسا اقترح تسوية الخلافات بين انجلترا وفرنسا بأن تعين الأولى تاريخا محددا تجلو فيه عن مصر وأن يتنازل الخديوى لليوبولد كما فى اقتراحه الأول عن الأراضى الواقعة بجنوب الخرطوم وفى مقابل ذلك يكون لإنجلترا مطلق الحرية للتوسع فى الصين وترجع لمصر فى حالة انهيار الدولة العثمانية . ودهش سالسبورى لهذه الأفكار وعلق بأن الملك لا يعنى ما يقول . وفى يناير سنة ١٨٩٦ رجع للمرة الثالثة وأكد اقتراحه الأول غير أنه عدل فيه بأنه سوف يسلم الأراضى السودانية عند ما يتم إخضاعها لانجلترا لتجند منهم

كتائب تحتل بها أرمينيا . وما كان لسلسبرى لفرط دهشته إلا أن يحوّل المحادثة إلى موضوع آخر حتى لا يلجأ إلى تعليق يتهم فيه بعدم اللياقة . وعند ما اطلعت الملكة فكتوريا على المحضر علّقت بأن الملك فقد حواسه .

موقعة عدوة ١ مارس ٩٦ ونتائجها

سمحت انجلترا لإيطاليا أن تحتل إقليم إرتريا وميناء مصوع كما قدمنا وسمحت لها أن تعالج علاقاتها مع الحبشة بطريقتها الخاصة فهى مجالها الحيوى ؛ وعقدت إيطاليا أواصر الود والصداقة مع الملك منيليك وأمدته بالعون الحربى فى نضاله مع الإمبراطور جون . وعندما مات الإمبراطور فى ميدان المعركة ضد الأنصار قفز منيليك للعرش الإمبراطورى وقدّر لأصدقائه الإيطاليين معروفهم ، وعقد معهم محالفة أعطتهم امتيازات إقليمية وفيها نص يتعلق بالسياسة الخارجية للحبشة . وحدث خلاف فى التفسير لهذه الفقرة إذ رأى فيها التليان حماية لهم على البلاد ورآها منيليك أنها لا تعنى أكثر من مساعدتهم له فى شئونه الخارجية إن طلبها وكانت فرنسا وراء هذه الفتنـــة بين الفريقين المتحالفين . ونقض الإمبراطور الاتفاقية ودخلت الدولتان فى حرب بدأت فى سنة ١٨٩٥ حتى إذا ما كان أول مارس سنة ١٨٩٦ خرج الأحباش بنصر باهر فى موقعة عدوة : وأثناء الحرب انتشرت إشاعة تقول باتفاق الخليفة مع منيليك فى عمليات حربية ضد التليان وعندما بلغت هذه الإشاعة درجة من الرواج انزعجت انجلترا ودارت رســائل فى يناير ١٨٩٦ بين كرومر وسالسبرى عن إمكانية استعراضات عسكرية من ناحية مصر لتحويل أنظار الخليفة عن كسلا ولدرء خطر التضامن بين القوتين الإفريقيتين . ورد كرومر بأن مصر لا تريد صرف أموالها فى استعراضات عسكرية لمساعدة الإيطاليين ولا يستطع أن يدلى برأى إلا بعد معرفة اتجاهات السياسة للبريطانية نحو المسألة السودانية ، ويختم سلسبرى الرسائل بأنه من الأفضل التريث حتى تتبين الحكومة تطور الحوادث .

وفى أواخر فبراير تجدد الحديث مرة أخرى عن وضع الإيطاليين حيث أوضح السفير الإيطالى فى لندن لوكيل وزير الخارجية البريطانية تمرد بعض الجنود الوطنيين فى أرتريا وأن حركتهم أخمدت وربما تتجدد وقد ينسحب التليان من كسلا وهو يود معرفة رأى بريطانيا ، وعندما عرضت الحالة على كرومر رأى باستشارة العسكريين فى القاهرة أن أجدى خطة لمساعدة التليان تتركز فى احتلال كوكريب فى طريق بربر ومنطقة أخرى فى خور بركة وأن أى تقدم يجب أن لا يعقبه انسحاب . غير أن سالسبرى بعد استشارة خبرائه العسكريين فى لندن لم يوافق على الخطة لانعزال تلك المناطق وخطر حصارها مما يدعو لإرسال قوات كبيرة لإنقاذها والطريقة المثلى فى رأية هى التمهل والتريث لأن قوة الخليفة فى تدهور . ولكن هل تمهله الحوادث ؟ نادى بهذا الرأى فى آخر يوم من فبراير وصبيحة اليوم التالى حدثت موقعة عدوة الشهيرة والتى كانت بداية لتطور الحوادث التى أدت لإرسال حملة كتشنر لفتح السودان . وفى ٢ مارس كتب كرومر للندن يخبره أنه حسب الروايات فإن الأنصار على أبواب كسلا وأن الخليفة أوقف التجارة بين بربر وسواكن وبين بربر ومصر .

حملة كتشنر لاسترجاع السودان

إيطاليا تطلب العون

رأت إيطاليا فى موقعة عدوة بداية لرجحان كفة الحبشة فى تلك الحرب الدائرة بينهما ورأت فى انجلترا صديقة تخرجها من هذا المأزق ، وهاهو كرومر فى ٢ مارس ١٨٩٦ نبه حكومته للخطر المحدق بإيطاليا فى جبهة كسلا من ناحية الأنصار بعد اندحارهم فى عدوة وفى ١٠ مارس أبرق السفير البريطانى لحكومته أيضاً بأن كسلا قد أحكم الحصار عليها وانقطعت مواصلاتها مع أسمره وللحامية أغذية وذخيرة تكفيها لثلاثة أشهر ، وفى ١٢ مارس طلبت إيطاليا عن طريق سفيرها فى لندن رسميا أن يقوم الجيش المصرى بمناورات واستعراضات توجه أنظار الخليفة بعيداً عن كسلا حيث تحاصرها جنوده ، وكان رد سلسبرى سريعاً وحاسماً هذه المرة حيث حمّل سفيره فى روما رسالة مؤداها أن الأوامر صدرت لكرومر بأن يقوم الجيش المصرى بحملة لاسترجاع دنقلا ، وهكذا رأينا أن الأيام لم تمهل سلسبرى فى اتباع سياسة التأنى والتمهل وكل ذلك حدث من خوف اتحاد قوتى الخليفة والنجاشى ضد النفوذ الأوروبى فى القارة الإفريقية .

أوامر التقدم لدنقلا

وكانت رسالة سلسبرى لكرومر تتحدث عن طلب إيطاليا لعون عسكرى يقوم به الجيش المصرى وإن السلطات العسكرية الإنجليزية رأت أن أنجع وسيلة لعون إيطاليا هو التقدم نحو دنقلا ومصر فى حالة تسمح لها بالقيام بهذه العمليات الحربية ونتيجتها فى صالحها حيث تكون فى مأمن من خطر يأتيها من الجنوب لأن تغلب دولة أفريقية على أوروبية فى عدوة رفع الروح المعنوية للأفريقيين وفى خطاب خاص لكرومر وضّح سلسبرى أن العامل الذى أثار هذه الحملة هو الرغبة فى عون التليان ولتوسيع حدود مصر فى وادى النيل وبذا يمكنهم إصابة طيرين بحجر واحد . تجرى كل هذه الأحداث والاتصالات وتؤدى فى النهاية إلى أوامر للجيش المصرى بالقيام بعمليات

حربية دون أن يعلم الخديوى وحكومته بالأمر . ومع ذلك حينما نقل الخبر للحكومة الفرنسية عن طريق السفير البريطانى فى باريس جعلوه طلبا من الحكومة المصرية وليس من الحكومة الإيطالية كما هو فى الواقع ، كل هذا لئلا يجعلوا لفرنسا سبيلا للاعتراض . وأخيراً وبعد أن صدرت الأوامر بالتقدم علمت الحكومة المصرية بالأمر وعلم الخديوى وأبدى غضبه لعدم استشارته ولكنه أخيراً خضع للأمر الواقع . وفيما يلى سنتابع تطور حملة دنقلا بعد أن نلمّ بطرف من استعداداتها وقائدها .

تجارب حملة الإنقاذ

منذ أن تم جلاء حملة الإنقاذ من دنقلا ، طفق ضباطها يدوّنون ملاحظاتهم وما قاسوه من شدة وتعب . فهذا خبير البحرية والملاحة يرسم خريطة مستوفاة للشلالات ، مبيناً جنادلها وطولها ، وما يجب أن يتخذ من احتياطات حين عبور البواخر لها ، ورسومات ما يلائم الملاحة فى البلاد من بواخر . وهذا الخبير البيطرى يدوّن ما ارتُكب من أغلاط حين استخدام الجمال للحملة ، ويرسم نوعاً من السروج يلائم الحيوان والطقس ، يحدد ما يجب أن يحمله ويحدد ساعات السير ، وصفات الجمال المختلفة ، ومثل ذلك فى الخيل والبغال والحمير . وغيرهم انكبوا على مقدرة الجندى فى المشى راجلا ، وأكثر ساعات اليوم ملاءمة لذلك وامتدت نواحى الدراسة التفصيلية للخيام والمياه وتنقيتها والأغذية وحفظها واللبس ، حتى تجمعت للسردارية فى مصر مجلدات من تلك التقارير ، يُعمل على هديها عندما يصدر أمر تسيير حملة تستعيد السودان .

استخبارات الجيش المصرى

وفى قلم الاستخبارات الحربية جلس ونجت ومعاونوه ومترجموه يستجوبون كل غاد ورائح من السودان عن الحالة إجمالا وتفصيلا ، ويدنوها ويبعثون بالجواسيس سواء كانوا من التجار العائدين للسودان ، أو من بعثوا خصيصاً لذلك . فهم يتوافدون على أم درمان دون انقطاع ، من الشمال وعن طريق دارفور والحبشة والبحر الأحمر ، يتغلغلون فى كل

نواحى الإدارة والجيش ، فى الترسانة وبيت الأمانة ، وبيت المال ، ومجالس القضاة ، وما يتناقله السمار فى أحاديثهم من التفاف حول راية المهدية ، أو نفورهم منها . ويعاونهم فى تجسسهم وتحسسهم للحالة عدد ممن يعملون فى أم درمان . وبذا تسنى للقيادة فى مصر معرفة عدد الأنصار ، وأسلحتهم وأنواعها ، وذخيرتهم وولاء القبائل واستعدادها وفوق ذلك قد تلقى الجيش الجديد أول امتحان له فى ملاقاته مع الأمير عبد الرحمن النجومى . وعزز الأسرى ما نقلته الاستخبارات من معلومات . وأخيراً أصبحت حالة المهدية من جميع نواحيها مكشوفة بعد فرار أوهر الدرو سلاطين .

كتشنر قائد الحملة

صدرت الإرادة السنية من الجناب العالى بتسيير الحملة وطلبت الحكومة المصرية نصف مليون من الجنيهات من الاحتياطى العام لهذا الغرض . وكان عليها أن تطلبه من صندوق الدين ، فوافق الأعضاء ما عدا العضو الفرنسى ، والعضو الروسى . وعلى ذلك تسلمت الحكومة المصرية المبلغ ، وبدأت تتصرف فيه ولكن لذلك المبلغ قصة انتهت بعد احتلال دنقلا فنتركها لحينها . وقد قاد الحملة بحكم منصبه كتشنر باشا سردار الجيش المصرى . وهو ضابط إنجليزى من سلاح المهندسين ، قادته الظروف للخدمة فى الجيش المصرى . فقد كان يعمل فى مسح أراضى قبرص حين تكاملت العمارة الإنجليزية بقيادة الأميرال سيمور . وكان أن التحق بها بدعوى إجازة مرضية . وكان أن استخدم فى مقدمة الجيش الزاحف فى مصر لمعرفته باللغة العربية . وعند ما دعت السياسة البريطانية إنشاء جيش جديد يتدرب على يد ضباط إنجليز ، كان كتشنر لمعرفته لغة البلاد من أول من التحق به وميزته هذه هى التى ساعدت فى اختياره ليكون ضابط استخبارات فى دنقلا قبل حملة ولسلى . ثم عين محافظاً لسواكن وهى محصورة بقوات عثمان دقنه . وفى تلك الوظائف التى لم تكن ذات صبغة حربية بحتة جذب أنظار كرومر ، حتى عينه رئيساً للبوليس المصرى بعد أن أوضح له كتشنر أن مطامعه تتركز فى السردارية لا فى البوليس . وباعتزال السير جرانفيل

باشا للخدمة فى الجيش المصرى سنة ١٨٩٢ حل كتشنر محله ، ولم يكن إذ ذاك أقدم الضباط ولا أعلاهم مرتبة . وظن أن الخلف الطبيعى لجرانفيل هو ود هاوس باشا قائد جيش الحدود فى حلفا وقد كسب شهرة حربية فى منصبه لم تصل إليها شهرة كتشنر . ولكن المعتمد البريطانى يريد كتشنر لمزايا وصفات عرفها فيه ، ورأى أنه خير من يصلح لقيادة الجيش المصرى ، إذا أريد له أن يفتح السودان فهو من سلاح المهندسين ، وقد دلت الخبرة أن مشكلة المشاكل فى حملات السودان هى النقل ، وقد عرف اللغة العربية وكسب خبرة بعادات السودان ، وهو فى دنقلا وسواكن ، لا بد منها لمن يقوم بعمل إدارى فى تلك البلاد ، وهو قد عرف مؤهلات ونفسية الجندى المصرى فى الجيش والبوليس .

التحرك من حلفا

تقيم قوة الحدود آنذاك فى حلفا ولها نقطة أمامية فى سرس ، وبين الاثنين بقايا الخط الذى استعمله ولسلى وهو خط إسماعيل القديم . وكان على السردار أن يمد هذا الخط جنوباً . متجنباً جنادل أرض الحجر حيث تعترض حركة النقل النهرى . وتمهيداً لذلك يجب أن يحتل عكاشة على بعد ٧٥ ميلا جنوبى حلفا فأمر هنتر باشا قائد الحدود بتنفيذ الأمر فاحتلها فى ٢٠ مارس . ومن هنا تتبين لنا السرعة التى تطورت بها الحوادث ففى أول مارس انتصر الأحباش على الطليان فى عدوة ، وفى ٢٠ منه بدأت العمليات الحربية فى السودان تدخل طور التنفيذ . وفى القاهرة استعرض الخديوى جيشه فى ١٥ مارس توطئة لإرساله للحدود . وفى آخر الاستعراض علم أن مقدمتها ترحل من مساء اليوم إلى حلفا ؛ وبدئ بمد الخط من سرس جنوباً ، وبدأت القوات ترحل من القاهرة وسواكن وتتجمع فى حلفا ، والخط يزداد طولا يوماً بعد يوم رغما من قلة الأيدى العاملة الخبيرة بمثل هذا العمل . ولكن كل يوم تعتاد الأيدى والرءوس على العمل ، وسجلت الفرقة التى قامت به انتصاراً أبقى على الدهر وأنفع من انتصارات المحاربين وتكوّن خط مواصلات التموين من القاهرة إلى البلينة بالسكة الحديد ومنها لأسوان بالبواخر النيلية والمراكب الشراعية ثم خط طوله

سبعة أميال للشلال ومن هناك تمخر البواخر فى النيل حتى حلفا ومن ثم بالخط إلى رأسه وبعد ذلك بالجمال .

حامية فى الحدود

يقيم آنذاك ود بشارة فى دنقلا عاملا له الإدارة المدنية والعسكرية ، وترابط قوة أمامية فى فركة تحت قيادة حموده ، لا تزيد على الثلاثة آلاف ، معظمهم من قبائل الغرب . فقبعت هذه الحامية فى أماكنها تنتظر الجيش الزاحف لملاقاته . ولكنها أخطأت حين تركت للجيش الحرية فى مد خطوطه دون إزعاج ، وكان فى إمكانهم أن يقوموا بهجمات خاطفة من الصحراء وإتلاف بعض أجزاء الخط ، وهم قد عُرفوا بمثل هذه الهجمات حتى على الواحات .

أول اشتباك

ظل المهندسون يعملون فى تمديد الخط ، والذخائر والمؤن تتجمع فى حلفا ، والجيوش الهندية تحل مكان الجيش المصرى فى سواكن . تسنى بذلك لكتشنر أن يحشد قوة تبلغ العشرة آلاف على أتم استعداد من حيث التدريب والأسلحة والمؤن . وقد انتقل القائد بنفسه إلى حلفا فى إبريل ، وفى أول مايو تحرك إلى عكاشة ، وفى نفس اليوم الذى دخل السردار فيه عكاشة اشتبكت دورية من الجيش مع قوة كبيرة من الأنصار جنوبى عكاشة ، استطاعت بعد جهد أن تتملّص الدورية من الأنصار ، وترجع إلى المعسكر بعد إصابات قليلة نسبياً .

موقعة فركة

تحرك كل الجيش من عكاشة متخذاً طريقى الصحراء والنهر فى يوم ٦ يونيو ليباغت الأنصار فى فركة ولا يترك لهم مجالا للانسحاب إن أرادوا ذلك . وكانت الأنظار متجهة لهذا اللقاء الأول . فهو الامتحان الثانى بعد واقعة توشكى للجيش الجديد . ولكن الظروف كلها تدل على أن النصر سيكون فى صالح الجيش من حيث العدد والعدة ، فالأنصار لا يزيدون على الثلاثة آلاف ، والجيش يبلغ العشرة آلاف ، مع الفارق فى الأسلحة ونوعها . ولكنها رهبة الامتحان للطالب مع علمه بأنه على أتم استعداد . وظلوا يواصلون السير الليل

بأكمله : وفى فجر يوم ٧ يونيو اقترب الجيش من فركة وأشرف عليها وخرج الأنصار يؤدون فريضة الصلاة فى جماعة . وهم فى صلاتهم تبادلت نقاط حراستهم النار مع الجيش الزاحف : فأسرعوا إلى خيولهم وأسلحتهم ودخل البيادة فى خنادقهم . وبدأت أول المعارك فى عنف ، وحوالى الساعة السابعة انتهى الأمر وتغلبت أسلحة الجيش على جند المهدية رغما عن استبسالهم حتى بلغ القتلى منهم نحو الثمانمائة بما فيهم قائدهم حموده ، وجرح نحو الخمسمائة ، وأسر ستمائة ، وتمكن الباقون من الانسحاب جنوباً إلى دنقلا . وتنفس كتشنر الصعداء وكذلك معاونوه حيث جازوا الامتحان وكسب الجيش الجديد أولى معاركه .

عوامل معاكسة

كان لزاماً قبل أن يستأنفوا السير لفتح دنقلا أن يمد الخط جنوباً ويستعيضوا عن نقل الجمال البطىء ، وأن ينتظروا فيضان النيل حتى تستخدم البواخر للنقل وللحرب معاً . وكان عليهم أن يأخذوا فترة راحة واستجمام قبل المرحلة الثانية . ولكن قد هاجمهم عدو آخر خفى أشد فتكا وإيذاء من أسنة الأنصار ورصاصهم ، وهى الكوليرا . فقد زحفت عليهم جنوباً من مصر . وكانوا يتلقون أخبار زحفها بخوف ووجل ، أشد بكثير من أخبار العدو الآدمى . فها هى فى أسوان ، وها هى فى حلفا ، وعبرت محطات الخط الحديد ، ثم حلت بمعسكر الجيش الذى انتقل جنوب فركة . وبدأت تباشر عملها وظهر على الجندى من مختلف أسلحتهم وطوائفهم خوف لم يظهروه فى المعارك . وكانت نتيجة معركة المرضى ثمانمائة من القتلى من جنود ومدنيين . ثم نازلتهم الطبيعة بما ترسله عليهم من أهوية محملة بالرمل والحصى وأخيراً أرسلت السماء عليهم مدراراً من المطر لم تألفه تلك الأصقاع من قبل . فجرفت السيول الخط الحديدى فى أماكن عدة ، وختمت سلسلة المآسى بانفجار فى باخرة جديدة فى يوم الاحتفال بإنزالها النهر .

استئناف السير

وحل شهر سبتمبر والنيل قد امتلأ وفاض وتحرك الجيش ومعه بواخره بالنيل ووجهته كرمة ، حيث علم من استخباراته أن ود بشارة ينوى الصمود والمنازلة ؛ ولكنه صمم على العبور إلى الضفة الغربية بأنصاره حين أعلمته

استخباراته بتفوق عدوه في العدد . واحتل مكاناً حصيناً نوعاً ما في الحفير ، وثبّت الأنصار أقدامهم داخل الخنادق ، وصمد بعضهم في النخل ، واقتربت منهم البواخر تطلق عليهم النيران ويصبون عليها وابلا من الرصاص والقنابل معاً وتقاعست في أول الأمر ورجعت وأخيراً قر الرأى على أن تتجاوزهم جنوباً ، مهما كلفها ذلك ، وتصل إلى دنقلا بعد أن عجزت بمساعدة نيران الجيش من زحزحتهم ، بل ما زالوا صامدين وتأكد أنهم يريدون نضالا ويبغون معركة .

موقعة الحفير

اجتازت البواخر معاقل الأنصار تحت ستار قوى متصل من نيران الجيش ، وكان لإفلات الوابورات ومسيرها نحو دنقلا تأثير سريع على الأمير . فظن أن كتشنر ينوى الزحف جنوباً بالضفة الشرقية . وتحت حراسة وحماية بواخره يتمكن من العبور واحتلال دنقلا . ففي الحال أخلى الحفير ، وذهب ليرابط في عاصمته . وعندما انقطعت النيران وعندما أكدت لهم منظاراتهم المعظمة انسحاب الأنصار ، أعلنت البشرى وعد نصراً بعد موقعة عظيمة . وانهالت تلغرافات التهنئة من مصر وانجلترا معاً ، وسجلت في المذكرات بأنها موقعة الحفير . والواقع أنه لم تلتحم الجيوش في معركة حامية مثل ما خبروا في فركة وما بعدها في أبي حمد وعطبرة وأم درمان . ولكنها بهذا سميت واحتلت الحفير مكانها إلى جانب أختها فركة .

احتلال دنقلا

عبر الجيش بكامله إلى البر الغربي وواصل زحفه جنوباً نحو دنقلا ليحاصرها من الجانب الصحراوى وتصلها البواخر من ناحية الماء . وقبل أن يطل الجيش الزاحف على دنقلا كان الأسطول الخديوى يطلق قذائفه على أنصار المهدى في المنازل وفي المعتصمات من الطوابى ، ولم يترك لهم زمناً يتمون حصونهم ، ويحسّنون مواقعهم . وهم في معركة متصلة مع الأسطول ، وإذا بالجيش يظهر في الأفق ينتشر حول المدينة محاولا احتضانها بين فكّى كماشة . واتباعاً لخطته في الحرب عندما يتأكد تفوق العدو ، قرر ود بشارة الانسحاب وترك فرقة قليلة العدد من الجهادية تحمى ظهورهم وهم ينسحبون إلى الدبة ، ومنها عبر الصحراء إلى المتمة . ووجد الجيش عندما أطل على المدينة أن جنود الأسطول

النيلى سبقتهم باحتلال الجزء الأكبر منها ، ورفرف العلم المصرى على بناية المديرية ، وقد طوى قبل أحد عشرة سنة مضت. وتعقب الجيش الأنصار وتمكن من قطع الطريق على بعضهم ، ولكن معظمه بما فيهم الأميران ود بشارة وعثمان أزرق تمكن من الإفلات. وتقدمت الفرق الأمامية إلى جهات دنقلا تحتلها دون مقاومة حتى مروى .

الدفاع من متابعة الزحف.

انتهت مهمة الجيش المصرى واسترجع مديرية دنقلا . وقبل أن يبدأ بمباشرة مهمة أخرى تم توزيعه على معسكرات دنقلا للراحة والاستجمام والدفاع عن مواطنه إن هوجم. وغادر كتشنر دنقلا إلى إنجلترا ليدافع عن قضية استمرار الزحف ومنازلة المهدية فى معقلها الحصين ، أم درمان . والتاكتيك الحربى يقضى بالاستمرار لأن الجيش قد ابتعد عن قواعده وسوف تتعرض خطوط مواصلاته لهجمات من الأنصار ، ومواقعه نفسها فى دنقلا أصبحت مهددة بالانقضاض الخاطف عليهم من جهات عدة . وقد تأكد ما ترامى إلى سمعهم قبل ذلك من نشاط الفرنسيين فى أفريقيا الاستوائية . فالسرعة أمر لابد منه إنقاذاً لموقف الجنود المكشوف ومسابقة للتوسع الفرنسى . ومن جهة أخرى فكاهل المالية المصرية لا يزال كليلا ، وقوة المهدية لاتزال سليمة ، وعليه فيجب الحذر والاحتراس . وبمزيج من السرعة والحذر بدأ كتشنر حملته وهدفها القضاء على دولة المهدية واستعادة السودان بكامله .

قصة النصف مليون

وقبل أن نصاحب الجيش فى زحفه على أبى حمد يجدر بنا أن نرجع إلى قصة النصف مليون جنيه التى استولت عليها الحكومة المصرية لنفقات حملة دنقلا ، والتى رفع قضية عنها مندوبا فرنسا وروسيا أمام المحكمة المختلطة . فقد قضت المحكمة بعدم اختصاص صندوق الدين بها واستؤنف الحكم وأيد . وعلى الحكومة رد المبلغ إلى خزانة الاحتياطى العام . وكان أن رأى كرومر الاحتياط للأمر بأن تمد الحكومة البريطانية حكومة مصر بما يقرب من الثمانمائة ألف جنيه بطريق الاستدانة بربح طفيف ، وقد طلب وزير المالية من مجلس العموم التصديق على المبلغ بعد أن قدمه بخطبة ضافية .

الحكومة الإنجليزية تقدم معونة مالية

ذكر الوزير أن المجلس قد أحيط علماً من قبل بضرورة تقدم الجيش حتى الخرطوم وأبان أن لا سلامة لمصر بدون ذلك . وذكر أنه إذا كان للشعب الإنجليزى أن يهتم بأمور الأرمن وهم تحت ظل الراية التركية ، فأجدر به أن يضاعف اهتمامه بأهالى السودان . وهو يرى أن للشعب الإنجليزى مسؤولية أدبية نحو السودان لأن إخلاءه كان بأوامر الحكومة الإنجليزية ، ورأى جلادستون آنذاك أن للسودانيين الحق كل الحق التمتع بحريتهم والتخلص من مظالم الحكومة المصرية وعلى هذا المنطق بنى أمر الإنسحاب. ولكن قد اتضح من الأسرى الذين فروا من سجن الخليفة ، ومن الحالة السيئة التى آلت إليها دنقلا ، ومن حسن اللقاء الذى وجدته القوات المصرية من أهالى دنقلا ؛ من كل ذلك تبين أنه ما من شعب يسكن المعمورة يئن من المظالم والسلطة الهمجية مثل ما يئن شعب السودان المسالم . بهذا العرض لقضية الفتح نالت الحكومة الإنجليزية تصديق البرلمان لهذا القرض وأخيراً قدمته مساهمة منها فى الفتح .

خط حلفا أبو حمد

رجع كتشنر ليباشر مهمته الثانية وكالعادة برزت مشكلة النقل عبر الصحراء فإذا ما واصلوا مد خط دنقلا حتى الدبة وقفت أمامهم عقبة الاتصال بالخرطوم ؛ فإما عن صحراء الجكدول وإما عن طريق النيل . أما عن الأولى فالمآسى والمشقات التى قاساها طابور الصحراء فى حملة الإنقاذ علمتهم درساً قاسياً ، ووضحت لهم خطورة الاعتماد عليه . وبالنيل لاتزال هناك سلسلة من الجنادل والصخور تعترض سبيل النهر فى أرض المناصير ؛ ولاتزال الشقة بين بربر وسواكن تحت سيطرة الأنصار .

فما كان لكتشنر إزاء تلك العقبات ، إلا أن يلجأ لمشروع فيه بعض المجازفة وفيه الكثير من الفائدة ، وهو وصل حلفا بأبى حمد بطريق حديدى صحراوى . فالأرض مستوية نوعاً ما ولا حاجة لقناطر ، والعدو لايسيطر عليها بل إن قوات العبابدة المتحالفة بقيادة عبد العظيم بك حسين خليفة استولت على آبار المرات. وعقبة واحدة هى التى رجحت طريق النهر الطويل الشاق وهى انعدام المياه وإن وجدت فشحيحة ، وهذا ما دعا حكومة الخديوى إسماعيل سابقاً

تفضيل مشروع فاولر النيلى على مشروع المهندسين المصريين من كروسكو إلى أبى حمد . ويكاد الخبراء يجمعون على أنها مجازفة كبيرة . ومع ذلك فكتشنر قد هدته سجيته لهذا المشروع ، وفى الحال بدأ نشاط فرقة السكة الحديد يتحول إلى الخط الجديد .

موقعة أبى حمد

وعندما تجاوز الخط نصف الطريق وبدأ يقترب من أبى حمد كان لابد من الاستيلاء على هذه النقطة لحماية الخط من خطر غارات تدميرية ، يقوم بها الأنصار من قاعدتهم الأمامية . فأوكلت المهمة إلى هنتر باشا القائد العام للمشاة فى الجيش المصرى ، وزحف فوق أرض المناصير ووجد فى أبى حمد حامية قليلة العدد ولكنها أرادت القتال والثبات فى مواقعها تحت قيادة الأمير محمد زين ، فتحصنت بالمنازل وأصرّت على ألا تتنحى عن مراكزها ، ووجدت استبسالا وحماسة مقابلة من عدوها ونشبت معركة كانت نتيجتها المحتومة انتصار قوة هنتر لكثرة عددها وتفوق أسلحتها مع المساواة فى الروح وصدق القتال .

موقف حرج فى أبى حمد

وإذا هم قد احتلوا هذه النقطة فى ٧ أغسطس سنة ١٨٩٧ فاحتفاظهم بها من الأمور الشاقة . فهم هنا مبتعدون عن قواعدهم فى دنقلا ولم يتصلوا بالخط الذى يقترب منهم بالتدريج وعددهم و ذخيرتهم ومؤنهم تكفى لمنازعة قوة كالتى أجلوها عن أبى حمد ، ولكن إذا أسرع الأنصار من بربر والمتمة نحو أبى حمد فقد تباد الحامية وظلوا كذلك حقبة من الزمن فى حالة نفسية لا يحسدون عليها حتى تنفسوا الصعداء عندما انجابت تلك السحابة بارتداد الأنصار عن بربر ولحوقهم بإخوانهم فى المتمة .

احتلال بربر

وقد قدّر الأنصار أن كتشنر قد يحاول ما حاوله واسلى من إرسال الجيوش عبر صحراء الجكدول لتحط على النيل فى المتمة ، وبذا تنعزل بربر . ورأوا أيضاً شعور عداء ومناوأة من بعض السكان ، وإزاء ذلك قرّروا الانسحاب منها . وعندما علمت العربان المتحابة بإخلائها وكانوا يتسقطون أخبارها دخلوها قبل أن يرسل هنتر كتيبة لاحتلالها رسمياً ويرفع فيها العلم المصرى كما حدث فى دنقلا . وما زالوا يعززونها بل جعلوا منها قاعدة أمامية ظلت الوابورات

تقوم منها بمناورات استكشافية حتى المتمة . وما أن قويت الحامية فى بربر حتى تقلص نفوذ الأنصار فى تلال البحر الأحمر وحتى قدّمت القبائل هناك ولاءها للجيش الواحدة تلو الأخرى ، وحتى تمكنت فرقة من الجيش المصرى من الوصول إلى بربر من سواكن دون مقاومة أو ملاقاة .

احتلال كسلا

ولنترك الآن الجيش فى بربر والخط يقترب من أبى حمد ولنتابع حوادث الشرق . كان الطليان يحتلون كسلا حينما وقعت هزيمة عدوة عليهم وحين نشط الأنصار لطردهم منها . وكانوا ينوون الجلاء عنها لعدم مقدرتهم على الاحتفاظ بها ، ولكنهم بقوا فيها باتفاق مع كتشنر لتسلّم له عندما تزحف عليها قواته . وتنفيذاً للاتفاق تحرك بارسونز باشا بقوة مصرية من سواكن وفى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٩٧ وصلها وأقيمت حفلة عسكرية ، رفع فيها العلمان المصرى والإيطالى ثم خفض الأخير وترك الأول يرفرف فوق ساريته ، وتم بصفة رسمية انسحاب الإيطاليين واحتلال الجيوش الخديوية للمدينة . وقد انضوى جند العرب الذين خدموا تحت الراية الإيطالية تحت الراية الخديوية . وزار السردار المدينة ورجع منها ليواجه موقفاً حربياً ظن أنه على درجة عظيمة من الخطورة .

التعزيز بقوات إنجليزية

قرر الخليفة حوالى أواخر نوفمبر سنة ١٨٩٧ الزحف شمالا لملاقاة العدو قبل موسم الفيضان القادم وقبل أن يتم تجمعه فى بربر ، وعندئذ استجاب لتوسلات الأمير محمود السابقة بالتقدم . وعندئذ لا بد لقوات المهدية الرهيبة المرابطة فى أم درمان من الانضمام إلى محمود لضمان النصر . وما إن قطعت إشاعة هذا التقدم المزعوم المسافة التى تفصل بين الجيشين واستقرت فى مركز القيادة حتى انزعج السردار واتصل بكرومر يطلب نجدات إنجليزية . وصدرت الأوامر السريعة للقوات المصرية المنبثة فى حاميات دنقلا بالسفر بسكة حديد كرمة إلى حلفا ومنها إلى دقش جنوبى أبى حمد وتم كل ذلك فى أسرع ما يمكن من وقت . وكل ذلك بفضل خط الصحراء أكبر عامل فى الانتصارات القادمة كما أصبح شرياناً يصل السودان بقلب المدينة والحضارة بعد ذلك ولبّت الحكومة الإنجليزية نداء كتشنر وبعثت بفيلق Brigade من جنودها لتبعث

بغيرهم بعد ذلك حتى تمت فرقة Division وظلت القطارات تجرى بين رأس الخط وحلفا ذاهبة آيبة تحمل الجند والذخيرة والطعام . وتم الحشد تحت ضغط الشعور بالخطر : وبعد أن كانت بربر نقطة أمامية تقوم على حراستها حامية قليلة أصبحت تعج بالجنود من سودانيين ومصريين وإنجليز .

حوادث المتمة

ولأمرما بقيت قوة الأنصار فى أم درمان وأمر محمود بالزحف بعد أن انضم إليه عثمان دقنه من أدارامه . وقبل أن نعبر معهم إلى شندى يتقدمون شمالا ، يجدر بنا أن نتابع حملة محمود منذ أن غادرت أم درمان والحوادث المؤدية إلى نكبة المتمة . فعندما وصلت الحملة المصرية إلى دنقلا ظن الخليفة أنهم لابد أن يتخذوا سبيلهم إلى النيل عن طريق الصحراء فلا بد أن تكون المتمة فى حالة من الاستعداد تصد العدو المهاجم . وخير سبيل لذلك أن يقوم الجعليون أنفسهم بهذا الأمر . فعين عبد الله ود سعد من زعمائهم للمحافظة على هذا الرباط . فتلقى الأمر وذهب ولكنه ترك الحبل على الغارب ولم يبد منه ما يشعر بالاستعداد والصمود للعدو . بل أن التجار من الجعليين صاروا يحملون الأطعمة المختلفة لجيوش العدو فى دنقلا يقايضونها بمختلف أنواع البضائع ، وترجع دوابهم محملة منها : وتسربت الأخبار ووصلت لباب الخليفة بل إن الوشاة ذهبوا إلى أبعد من هذا واتهموا عبد الله بمساندة الجيش والاتفاق معه وقد أنعم عليه بالبكوية .

إزاء هذا الموقف استدعى عبد الله إلى العاصمة وسأله الخليفة عن جلية الأمر . وما كان من فى مثل مكانة عبد الله من حيث النبل أن يكذب فأقر بأن الجعليين يتصلون تجاريا بالجيش وما كان للخليفة إلا أن يجازيه على تهاونه ولكن تدخل أهل الشورى فى المسألة ورأوا أن يولى عبد الله بالشرق فى شندى وأن يسند المحافظة على المتمة وما جاورها لمحمود ود أحمد . وهذا يستدعى أن يرحل عبد الله وأهل المتمة إلى الشرق ليحتلها محمود بجموعه العديدة . وكان أن رضخ الخليفة للشورى وصدر الأمر بالتولية والرحيل للشرق لعبد الله وفصل من أم درمان وفى النفس أشياء وأتى قومه وعرض عليهم

الأمر فأشار بعضهم بالانصياع والرضوخ للأمر .وأشار بعضهم باللحوق بالجيش فى دنقلا والاحتماء به وتبلبلت الأفكار واختلفوا وما كان عبد الله يرضى بالرحيل لدنقلا لصعوبة تنفيذه .

وأخيراً يئس عبد الله من حياة الاضطراب والبلبلة الفكرية وصمم على المقاومة وأقرته أغلبيتهم على ذلك . وما كانوا بحالة من حيث عددهم وأسلحتهم تسمح لهم بملاقاة جيش الخليفة . فاستنجدوا بالجيش فى دنقلا ، وفعلا كانت بعض الأسلحة والذخيرة فى طريقها إليهم عندما دهمهم محمود بجموعه . هذه قصة جمعتها من روايات عديدة وهناك من يقول بغير ما سردت سواء فى الجملة أو التفصيل ولكن مما لا مجال للشك فيه أن عبد الله قد ثار على الدولة وللدولة أن تعاقب الثائر .

تحرك محمود من أم درمان بقوة عظيمة يقصد المتمة يرابط فيها فى انتظار الجيش الفاتح وملاقاته . ويقال إن خبر عصيان الجعليين ما عُرف إلا بعد تحرك محمود ، وسواء كان على علم حين أشرف على المتمة أم لم يكن فالحقيقة بدت له حين عاينها ، وحين رأى الحالة العدائية . ونشبت المعركة التى لم يكن شك فى نتيجتها ، وهى نكبة المتمة بأشد ما نكبت به مدينة من القضاء على الرجال وسبى النساء وخراب الديار . وللمرة الثانية فى تاريخها تحل بها كارثة والأولى هى حملة الدفتردار الانتقامية .

سير محمود شمالا

تكامل جيش محمود بشندى بعد أن تم عبوره من المتمة والبواخر الخديوية قد كشفت عن خبره فتحرك كتشنر بكل الجيش ورابط فى كنّور أوّلا شمالى عطبرة ثم سارع مع نهر عطبرة إلى رأس الهودى عندما تيقن حركة الالتفاف التى ينويها محمود . وسار محمود محاذياً النيل يستقى به حتى العالياب ومنها غيروا اتجاههم للالتفاف حول جناح الجيش بعد أن عقدوا مجلساً حربياً وتناقشوا وكان أن تم الاتفاق على فكرة الالتفاف وقد نادى بها عثمان دقنه وهو بطل الحرب الصحراوية ومن أنصار الهجوم المفاجئ غير المنتظر . والخطة تقضى أن يوغلوا فى الصحراء عندما يكونون قبالة عطبرة وكنّور ثم يهبطون على

النيل فى بربر يحولون بذلك بين الجيش وخط رجعته ، ويقطعون مواصلاته .

موقعة عطبرة

ولكن كتشنر تنبه لخطتهم ولذا سار بجيشه وعسكر فى رأس الهودى وما إن وصل محمود إلى النخيلة حتى تحصن بها وبنى زريبة لظنه أنه سيهاجم ، ولم ينجح فى حركة الالتفاف . ومرّت أيام وأيام وكل فريق ينتظر أن يهاجم وأخيراً قرر كتشنر الهجوم . فقام بحركات استكشافية ليرى حدود الزريبة ومواقعهم الحصينة . وفى صباح ٦ أبريل سنة ١٨٩٨ اقتحموا الزريبة ونشبت معركة أبدى الفريقان فيها من الاستبسال ما جعلها رهيبة مروّعة وانتصر الفن الحربى والسلاح الحديث ، وترك الأنصار عدداً من القتلى والأسرى وفى الأسرى قائدهم الشاب محمود وفرّ الباقون يلحقون بأم درمان وفيهم عثمان دقنه .

استعداد الخليفة

وعند انتهاء العمليات الحربية فى النخيلة ذهبت الجنود لتأخذ قسطاً من الراحة ما بين عطبرة والعبيدية ريثما تستعد للتقدم صوب عاصمة المهدية . أما الخليفة فقد صمم على الدفاع عن أم درمان فبنيت الطوابى على النهر لتعرقل سير الوابورات وثبتت بعض ألغام فى مياه أم درمان وتدفقت جيوش الأقاليم لتعزيز حامية العاصمة وتجمع للخليفة ما يقرب من الستين ألفاً .

كتشنر يستأنف الزحف

وبعد فترة الراحة والاستجمام زحف كتشنر بالوابورات والمراكب وعلى الخيل والهجن وعلى الأقدام ينقلون معسكراتهم من موضع لآخر . وكلما اقتربوا من أم درمان ساروا بحـــذر وتراصت صفوفهم ونشطت دورياتهم واستكشافاتهم ، والجواسيس ينقلون الخبر تلو الآخر لونجت باشا : فأخبروا بالطوابى وقوتها وبالألغام وبالجيوش التى سوف تقاوم . وأشرفوا على المدينة ، وبانت لهم قبة المهدى وكشفت لهم نظاراتهم المعظمة منازل أم درمان .

زريبة كررى

واصلت الوابورات سيرها لتدمر المدينة بقنابلها وتبادلت النيران على الطوابى ووجهت قنابلها إلى قبة المهدى فدكت أعلاها . وتراءى لهم عن بعد الأنصار فرساناً ومشاة وراياتهم الكثيرة المنوّعة الألوان تخفق فى الأفق .

وتلاحقت فرق الجيش وعلى النيل قبالة تلال كرزى خططت الزريبة على شكل نصف دائرة يتصل طرفاها بالنيل . وأخذت الأورط مواقعها فى الأطراف والمؤن والبهائم فى الوسط والوابورات بعد أن عادت من مهمتها اصطفت على النيل كوتر لقوس الزريبة . وباتوا ليلتهم وهم على استعداد حتى لا يباغتوا والوابورات ترسل أنوارها الكاشفة أمام الزريبة ، والعربان المتطوعة تصاحب الجيش فى مسيره شرقى النيل منذ أن تحرك من عطبرة .

المعركة

بدأ ضياء يوم ٢ سبتمبر يبدد الظلام وتنفس كتشنر الصعداء حيث بات ليلته دون أن يهاجم ، وإن فعل الأنصار ذلك لأحدق الخطر بالجيش الفاتح النظامى ، ولكن الخليفة أمهلهم إلى الصباح . وبعد أن صلى الأنصار فجراً قاموا بتسوية صفوفهم وتقدموا نحو الزريبة فى معركة إن خرجوا منها منصورين فقد خرجت المهدية من أزمتها ، وإن دارت عليهم الدائرة ، فهى آخر العهد بدولتهم . والجيش يربض خلف الزريبة ليقوم بعملية حربية حاسمة ، وهم قد ظلوا أكثر من سنتين ونصف ينتقلون من نصر لنصر واجتازوا العقبات الطبيعية باختراق الصحراء المحرقة المعطشة على خطين من حديد ، وتعاونت الدولتان المصرية والإنجليزية على سحق المهدية . والناس حكومة وشعباً فى القاهرة ولندن على السواء ، يرقبون باهتمام متزايد ما تسفر عنه الملاقاة الحاسمة ، وتدفق سيل الأنصار براياتهم لرد الفاتحين عن أم درمان أو الفوز بالشهادة ، واختتام أسلوب من الحياة اعتنقوه عن عقيدة وإيمان .

بدأت المدافع البعيدة المرمى تصوب قنابلها لتقع وسط حشد منهم فيتركون الشهداء وراءهم ويزحفون نحو غايتهم . وتنشط البطاريات وتقذف بحممها بتتابع وتسديد ، ويقع من كتب له الموت . وكلما تمر دقيقة ينقص عددهم ويقتربون من العدو دون أن تنقص حماستهم أو يخالط قلوبهم الرعب والخوف . وأخيراً تكدست جثث القتلى ، وقوبلوا بسد من النيران لا يترك من يمشى على رجليه ، والأنصار يتساقطون ويقفز بعضهم فوق جثث إخوانهم لينالوا من

العدو ، ويرمون بحرابهم ، ويطلقون بنادقهم : والخيالة منهم يطلقون العنان لها حتى تصاب من تحتهم أو يصابوا هم . كل ذلك وفوهات البنادق والمدافع تواصل شواظها النارية وعند الضحى ارتد من بقى وامتلأ السهل بأشباح بيضاء انبثت أمام الزريبة وظن السردار أن الأمر قد تم ورأى التقدم نحو أم درمان حتى لا يجد المنهزمون سبيلهم إليها ليتحصنوا ببيوتها .

مباغتة الجيش

وقامت فرقة الفرسان الإنجليزية باستطلاع صوب أم درمان ، ولكنها وقعت فى كمين من الأنصار فى خور أصابها بضحايا عديدين وارتد من بقى منهم ؛ وصدر الأمر بالتقدم نحو أم درمان فى صف طويل يمتد من الشاطئ إلى الصحراء ليحتضن كل المدينة . وكان على فرقة ماكدونالد أن تكوّن الجناح الصحراوى . وكان عليها أن تتخذ طريقها إلى الطرف قبل أن تتجه نحو المدينة . كل ذلك والفرق الأخرى تواصل زحفها نحو أم درمان ، وبذلك تكونت فتحة كبيرة ما بينها وبين بقية الجيش . وعند ذلك خرج إليها فريق من الأنصار كان مختبئاً حسب خطة مرسومة خلف التلال وقصد قتالها . وما إن سوّوا صفوفهم وبدأوا يقاومون حتى برز لهم فريق آخر من الخلف ، وظلوا عدداً من الدقائق ، وهم مهددون بالإبادة قبل أن تخفّ لنجدتهم بقية الفرق ؛ وأبدت هذه الفرقة من رباطة الجأش والبسالة ما أنقذها من خطر محقق ؛ وبعد انتهاء تلك المعركة واصلوا الزحف ودخلوا المدينة من شارعها العام وعسكروا ليلتهم فى فضاء وسطها

تسلل الخليفة إلى الغرب وإباحة المدينة

أما الخليفة وقد علم أن أنصاره قد فقدوا معركة كررى ، فقد رجع لأم درمان وتجهز بعائلته وصحبه المخلصين ، وتسللوا من أم درمان إلى أرض الغرب ليواصل جهاده من هناك . وما أن علم السردار بذلك حتى بعث وراءه طابوراً سريعاً للحوق به ، ولكنه عاد أدراجه ولم يلحقه . وكان أن أبيحت المدينة ثلاثة أيام سادت فيها الفوضى واضطر الأهالى لإخفاء القليل الذى معهم من المال والأغذية ، وكذلك أخفوا النساء . وخرج البعض يقصدون ديارهم التى رحلوا منها بأمر الخليفة لأم درمان من قبل .

العلمان فى الخرطوم

وكان من اللازم لكتشنر زيارة الخرطوم وتأدية فروض الذكرى لغردون فعقدت صلاة على أنقاض السراى لروحه وأقيمت حفلة بسيطة رفع بعدها العلمان المصرى والإنجليزى حسب التعليمات على السراى الخربة وفقاً لتعليمات تلقاها من كرومر وسرت عاصفة استياء بين الجنود والضباط المصريين لهذا العمل ، والمدن التى تم فتحها قبل ذلك مثل دُنقلا وكسلا وبربر رفعت عليها الأعلام المصرية فقط . وما إن هدأت الحالة حتى حضر السيد صغير على إحدى وابورات المهدية طالباً من الخليفة نجدته حتى يقاوم احتلال البيض الذين رفعوا علما مثلث الألوان على فشوده . وهذه هى فرقة مرشان التى زحف بها من أفريقيا الإستوائية الفرنسية شرقاً حتى وصل إلى فشوده ورفع العلم الفرنسى على أنقاض الطابية القديمة . وقد بعث الخليفة بوابورين لطرد المحتلين فامتنعت عليهم الطابية ورجع السيد صغير قائد الأنصار بوابور تاركاً الآخر فى جهات الرنك ليتلقى نجدات وبدلا من أن يلقى الخليفة وجد العاصمة يحتلها الجيش الفاتح .

حادثة فشودة

اهتم السردار للأمر ونزل بنفسه فى الوابورات وبرفقته جنود من الجيش المصرى وتقابل مع القائد الفرنسى ورفض الأخير التنازل عن أرض احتلها وأبى إنزال علمه من ساريته . ورأى كتشنر درءاً للموقف أن يترك حامية ترابط بالقرب من الفرنسيين ، ورجع ليرفع الأمر للحكومة البريطانية . وكان توتر بين الحكومتين كاد يؤدى إلى الحرب بينهما وأخطر الرعايا الإنجليز فى فرنسا على أن يكونوا على أهبة الرحيل فيما لو تحرج الموقف . ولكن الحكومة الفرنسية خضعت للمنطق أولا وهو أن الجش الذى فتح السودان يعيد أرضاً كانت من أملاك الخديوى ورأى الساسة الفرنسيون ثانياً لبعد نظرهم ألا داعى لجلب عداوة إنجلترا وهم تحت تهديد قوة ألمانيا التى تجاورهم . وبدأت منذ حادثة فشوده تلتئم الهوة التى تفصل الدولتين حتى انتهت بالوفاق الودى فى سنة ١٩٠٤ وغير الاسم الذى يشير إلى الخلاف باسم غيره وهو كدوك واختفت فشوده من الخريطة وأصبحت اسما تاريخياً فقط .

الخليفة يفر إلى الغرب

كانت أم درمان الموقعة الحاسمة . وبقى على الجيش الفاتح متابعة قوة الخليفة والحيلولة بينه وبين الاتصال بقبائل الغرب ، فكوتب مشايخهم فى هذا الشأن . وقد واتى الحكومة الجديدة الحظ حيث فرّ على دينار من سلالة ملوك دارفور إلى الغرب لإقامة عرش آبائه وأجداده ولم يكن الأمير الهارب على وفاق مع المهدية منذ أن انتزعه محمود من أرض الفور ليلازم باب الخليفة كأحد الخدم . وبذلك أسدى على دينار خدمة للجيش الفاتح إذ سدّ المسالك دون التجاء الخليفة إلى دارفور ، أو الإيغال غربا فيما وراءها . وكان حتما على الخليفة أن يتنقل فيما بين النيل الأبيض وحدود دارفور . وأول مقام حل فيه ليستريح ويجمع إليه أتباعه ومريديه هو أبوركبة حيث يثوى جثمان والده واتصل من هناك بالختيم موسى قائد حامية الأبيض ، فرحل إليه بمن معه من الجهادية والأنصار . ولم تجد نداءاته إلى زعماء النوبة آذاناً صاغية . وهناك فى الشرق أحمد فضيل من الأمراء المخلصين يكاتبه الخليفة بقوله :

« فنعلمك أيها الحبيب أنا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون وما زلت ملحوظاً منا بعين الرضى ومزيد الإكرام لما أنت عليه من القيام بأمر الدين وبذل الهمة فيه فجزاك الله عن ذلك خيراً وهداك سيراً وشكر مسعاك وحفظك وتولاّك ثم نعلمك أيها الحبيب أننا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الأنصار بخير وقد انحزنا عن الأعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم إلى جهة دار الجوامعة بنواحى المحل المسمى بالغبشة فنحن الآن به فى أمن وأمان ومزيد اطمئنان وليس القصد من حضورنا فى هذه الجهة المذكورة إلا التحيز عن الأعداء أخذاً بالحزم وإلا فليس القصد إن شاء الله إلا إعادة الكرّة على الأعداء المخذولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين إن شاء الله تعالى ويهلك الكافرون » .

أحمد فضيل

وبدأت سلسلة المغامرات والانتقالات السريعة التى قام بها أحمد فضيل منذ أن احتلت الجيوش الخديوية دنقلا . فاستدعاه الخليفة من ثغره الذى يرابط به بالقضارف لتعزيز الحامية فى العاصمة أو إبعاثه لملاقاة العدو فيما لو روئى

ذلك . ولكن احتلال بارسونز باشا لكسلا غيّر الوضع واستدعت الحالة الجديدة أن يرجع أحمد فضيل بأغلبية جيشه إلى القضارف ليحول دون تقدم جيش مصر . وبعد واقعة عطبرة وانكسار الأنصار وتحرك الجيش نحو أم درمان وبقاء بارسونز مرابطا بكسلا صدرت الإشارة لأحمد فضيل بإبقاء حامية فى القضارف وحضوره بالبقية من الأنصار لتعزيز أم درمان ، ولكنه ما أن وصل إلى رفاعة حتى علم بسقوط أم درمان ورحيل الخليفة .

والسردار وهو يتأهب لمغادرة أم درمان إلى فشودة أمر بارسونز بالتقدم صوب القضارف وأمر بالصعود فى البواخر فى النيل الأزرق والإطباق على أحمد فضيل وضغطه بين طرفى تلك الكماشة ، وتأسيس نقاط عسكرية فى سنار وكركوج والروصيرص . فالتقت مقدمة وابورات هنتر به فى أبى حراز فأطلقت عليه النيران وجعلته يتجه نحو القضارف ، ولا يحاول العبور إلى الجزيرة وخاصة عند ما علم باحتلالها من قبل بارسونز . وما إن سدّد الهجمات العنيفة نحوها وامتنعت عليه حتى جلس فى جبل عصّار يحاصرها .

مطاردة أحمد فضيل

رجع السردار من فشودة ووجد أن جيشه قد سيطر على الجزيرة وأن حاميته فى القضارف يشدّد أحمد فضيل الحصار عليها فبعث سرية تنجدها . وما إن تحركت من النيل واقتربت من القضارف حتى ترك أحمد فضيل موضعه واتجه إلى الجنوب الغربى علّه يشق طريقه للاتصال بالخليفة . وقد وافاه الخبر بالخطاب السالف الذكر وظل عدده يتناقص بانفصال بعض الجند منه وحاول العبور عند شلالات الروصيرص . وتمكن بعد جهد عنيف من الإفلات من وابورات الحراسة والوصول إلى الضفة الغربية من النهر وبقى بعض جنده بالشرق يقاتلون ويرمون بأنفسهم فى النيل ويؤسر فريق منهم ، وانتقل أحمد بمن خلص معه من جنده فى سرعة مدهشة عبر الجزيرة والتقى عند النيل الأبيض بوابور المتمة وهى آيبة من فشودة ، فسئم بعض جنده حياة التنقل والجوع والعطش وسلّموا أنفسهم وأفلت أحمد فضيل وبعض صحبه المخلصين وعبروا النيل والتقوا بالخليفة .

محاولات فاشلة ضد الخليفة

أقيمت الحاميات على النيل الأبيض لتقف سداً حائلا بين الخليفة فى كردفان وبين محاولته الدخول فى الجزيرة . وقاد الكولونيل كتشنر أخو السردار حملة لتقضى على الخليفة وهو فى موطنه من دار الجوامعة ، وما إن اقتربوا من الأنصار وعلموا قوتهم وقاسوا الكثير من التعب فى أرض لم يألفوها ، رجع الكولونيل بقوته خوفاً من أن يكون له مصير هكس وجيشه . فرجع إلى النيل وكان ذلك فى يناير سنة ١٨٩٩ . ومن دار الجوامعة شق الخليفة طريقه فى جبال النوبة ، وناوأه أهل تقلى وهو فى طريقه نحو قدير ، واستقر فى دار هجرة المهدى ولقى حفاوة وإكراماً من الملك بوش سيد الجبل . وعند ما علمت الاستخبارات السرية بوجوده فى قدير جهز السردار حملة عظيمة تتكون من ثمانية آلاف جندى حشدهم فى كاكا على النيل الأبيض وبدأوا بترحيلهم إلى جبل فنقر . ولكن الخليفة عقد عزمه لمهاجمة أم درمان ، فغادر الجبال شمالا ، فباءت هذه الحملة أيضاً بالخيبة وسرى يأس بين الجنود والضباط لمحاولاتهم الفاشلة المتكررة .

حملة ونجت وموقعة أم دويكرات

رجعت الجنود بعد رحيل الخليفة وظلوا يرقبون حركات الخليفة حتى علموا اتجاهه . وقاد ونجت باشا الأدجونانت جنرال حملة تلاقيه وتصده عن الزحف صوب أم درمان والتقوا فى أم دويكرات قريباً من منهل جديد ، ودارت الموقعة فى فجر ٢٤ نوفبر سنة ١٨٩٩ أبلى الأنصار بلاء حسناً . وما إن أيقن الخليفة أنه أشرف على النهاية لم يشأ أن يقع أسيراً ، ويكون هزءاً وسخرية ، فافترش فروته وجلس عليها وحوله كبار المخلصين الذين ظلوا على ولائهم إلى آخر لحظة فى حياته وحياتهم ، ينتظرون قضاء الله وقدره مستسلمين للقوة الإلهية بعد أن جاهدوا وصبروا وصابروا . فكانت أروع خاتمة . وبذا انطوت صفحة من تاريخ السودان احتلت حوادث المهدية فيها المكان الأول . وبدأت بليلة ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١ وختمت بضحى ٢٤ نوفبر سنة ١٨٩٩ . وهكذا مر فصل من تاريخ البلاد فيه النار والنور والدم والحياة . فيه ثورة على النظم ونزوع إلى مثل عليا دينية واجتماعية ، وفيه من الجانب الآخر ضحايا

وآلام تجلت فيها القوة الكامنة فى الشعب السودانى ، واندفعت قوية حارة متدفقة كالسيل ، ولكنها حماسة وقتية أتت بالمعجزات والخوارق وما لبثت أن هبطت الحرارة وبرزت عوامل الاختلاف بعد الوحدة والوئام .

كلمة أخيرة عن الخليفة

وعهد الخليفة كمثل كل عهود الثورات على أنظمة المجتمع يرافقه العنف ولا يقبل إلا الخضوع والإذعان ولا مكان للمخالفين فيه . فالثورة الفرنسية والأنظمة الفاشستية والشيوعية ما سلمت من ضحايا ، بل أقيمت على دماء المعارضين والمخالفين ، وهى ثورة على ما ألفه الناس من عادات وحرية فى الدين والاجتماع . وكان طبيعيا ألا يرضى كثير استبدال هذه الحالة بالشرائع الصارمة . وكان طبيعياً ألا يرضوا بخراب الدنيا وعمار الآخرة وهم ألفوا نعيمها ولذاتها . وكان طبيعاً ألا يذعنوا لسادة يرونهم دون مستواهم فى العلم والمدنية :

والخليفة من جانبه ورث عن المهدى مثلا عليا للحياة الفاضلة ، فبديهى وهو يؤمن ويعتقد برسالة الإمام وما جاء به ألا يفرط فى قليل منها . فالشريعة الإسلامية تطبق دون تهاون أو رخص، ومنشورات المهدى وأقواله كلها لها من القداسة ما يوقع العقاب الصارم على مخالفيها ، والذى ينكر المهدية أو يتقاعس عن الجهاد أو يرفض الطاعة أو حتى يتردد فهو خارج على الدعوة ، وهو مرتكب للخيانة العظمى للدولة ، فلابد من حده . فمن آمن عن عقيدة وإيمان خضع للنظام الجديد ، بل وجد فيه لذة روحية لاتعدلها لذة ، ومن لم يؤمن فقد ظل طوال حكم المهدية فى خوف وحذر وسجن روحى . وكما ذكرت عند معالجة تعاليم المهدى أن العهد برزت فيه أسماء لامعة فى دنيا الحرب والسياسة ولكن فى دنيا العقائد والعلم فإن المهدية من حيث كونها قوة روحية عظيمة زالت بموت المهدى ولم تجد بعده من ينشر عقائدها بالمنطق والبرهان حتى ينحاز إليها الناس بعد إقناع لا عن كره أو إرهاب .

ومهما قيل عن قسوة الخليفة وما عزى إليه من حكم بالحديد والنار فإنه كان يطبق مثلا عليا دينية واجتماعية وفاقاً لتعاليم المهدية بتنقية النفوس مما علق

بها من أدران وبدع وتهيئة الناس ليكونوا فى حالة جهاد ، وما ارتكب من مظالم عن جهل وعدم دراية فرده لأولئك الأتباع . فبعضهم يؤمن بالمهدية إيماناً صادقاً ولكنه جاهل بالدين والسياسة معاً . فيقسو إلى درجة تنفير القلوب وكان يجب أن تؤلف . وبعضهم يجد فى قلبه ذرة من الإيمان بالمهدية وما تنادى به ولكنه يطلب مركزاً وجاهاً فى الحكومة الجديدة فيتظاهر بالإيمان ويتملق فيجد ما يطلبه من جاه ومن مركز فلاهو يؤمن حتى يطبق التعاليم والأحكام عن عقيدة ولاهو يلى كفاية فينصف . وظلت الأداة الحكومية بذلك فى يد جاهل لايدرك كنه التعاليم ولكنه يتعصب لها أو فى يد مراء لايعتقد ولا يدرك فهو يسير وفق منفعته الذاتية ورغباته الخاصة . وفوق ذلك فالانقسامات الداخلية التى بدأت تظهر منذ وفاة المهدى ظلت عنصر ضعف فى الأداة الإدارية إلى أن تقلص ظل المهدية .

صفات الخليفة

وقد عرف الخليفة بالذكاء والفراسة وظل وفياً لمبدئه وإمامه إلى آخر نسمة من حياته وما انقطع يوماً واحداً إلا لمرض يقعده من حضور الصلوات الخمس فى المسجد الجامع إماما لأنصار المهدية وفيما يلى صورة قلمية عنه أخذها نعوم بك شقير من الذين لازموه وعرفوه حق المعرفة : —

« ربع القامة أسمر اللون أشيب الشعر عربى الملامح خفيف الشاربين خفيف اللحية مستديرها يهذب لحيته وشاربيه . على وجهه آثار الجدرى أقنى الأنف حسن الفم قصير الشفتين حتى تكاد أسنانه تظهر من خلالهما . فإذا تكلم برزت لامعة بيضاء كأنه يبتسم . وبالإجمال فإنه كان كثير الشبه بالمهدى بالقد والملامح إلا أنه أقصر قليلا من المهدى وأقل سمرة وأضيق جبهة وأصغر لحية .

ويلبس الجبة المرقعة فوق سراويل من الدمور المعروف بالقنجة والعمة المفلجة فوق المكاويه مدلاة منها عذبة على كتفه اليسرى. ويلقى على كتفه رداء بطرف حرير أزرق ويتمنطق بمرقعة حول خصره وكتفه اليسرى. ويتلثم برداء من الشاش الرفيع فوق العمة بحيث لايظهر من تحته إلا دائرة وجهه . ويلبس فى عنقه سبحة كبيرة وفى قدميه الخف الأصفر فى الحذاء الأصفر . فإذا جلس

خلع الحذاء وأبقى الخف وتربع على عنقريب فوقه فروة من جلد الضأن ، وهي التي يصلى عليها . وكان مولعاً بالتطيب والنظافة فكانت رائحة الطيب تفوح من ثيابه على بعد خطوات . وإذا مشى حمل بيساره سيفاً وبيمينه حربة قصيرة هندوية ، ومشى وراءه بعض غلمانه من الأحباش وغيرهم . وهو يعرج في مشيته عرجاً خفيفاً وسبب عرجه أنه وقع عن حصانه بعد فتوح الأبيض فكسرت ساقه وكان يركب جملا أو جواداً أو حماراً أو إحدى العربات التي غنمها من الخرطوم .

حياته اليومية

وفيما يلى أيضاً أقدم وصفاً لحياته اليومية كما استقاها شقير بك من أمنائه وأخصائه : — «كان يقوم عند طلوع الفجر ويدخل الجامع فيصلى فى الناس صلاة الصبح ثم يمكث فى مصلاه قليلا ليسمع شيئاً من الراتب ، ويرجع إلى منزله فيخلع الجبة والسراويل ويلبس الشقة كما هى عادة أهل السودان فى منازلهم ويطلب الطعام ، فيأتونه بشىء من الزبدة البقرية واللبن البقرى الحليب. ثم ينام إلى الضحى وعند استيقاظه يطلب الطعام ، ويأتونه بعصيدة من الدخن وعليها ملاح التقلية أو أم دقوقة وهو ملاح مركب من السمن والشرموط البقرى والويكة مع الشطة والملح والبصل . ثم يأتونه باللحم المنصّص وهو عضو من خروف الضأن مشوى على النار . ثم يخرج إلى مجلسه فيطلب الكتّاب وينظر معهم فى تحريراته ومراسلاته إلى الضحى الأعلى ، فيصرف الكتّاب ويدخل الحريم فيستريح إلى الظهر ، ثم يدخل الجامع وبعد أن يصلى الظهر فى محرابه يجلس تحت الرواكب فيجتمع الأمراء والأعيان والقضاة حوله حلقة واسعة ، ومن ورائهم الملازمية وكلهم جاثون على ركبهم منكسو الرءوس وأيديهم مقبوضة على صدورهم ، أو مبسوطة على ركبهم . فيتفقد الغائب منهم ثم يسرع فى إصدار الأحكام التى دبرها ليلا. قال لى بعض الأدباء الذى أوجده سوء الحظ فى زمن التعائشى أن تلك الساعة كانت أشد الساعات علينا فإنه فيها كان يسكب جام غضبه على من خرجوا عن حد إشارته أو خالفوا رأيه أو وشى بهم إليه ، فتراه يوبخ هذا ويأمر بسجن ذاك ونفى ذلك وقتل الآخر ، ثم يدخل

منزله فيطلب الطعام فيحضرون له الكسرة والطبيخ فيدعو إليه بعض التعائشة والقضاة فيأكلون معه وينصرفون إلى العصر. فيرجع إلى الجامع لصلاة العصر ثم يعود إلى منزله ه وكان فى غالب الأيام يولم وليمة عامة بعد العصر لجيشه كله فيقدم لهم طعام الكسرة وعليها اللحم المشوى من الضأن أو البقر يضعه فى قدح كبير يسع أردب غلة وهو قدح ود زايد المشهور الذى غنمه فى سنة ١٨٨٦ كما مر. وكان الجيش يأتى إلى الطعام أفواجاً حتى لقد تدوم الوليمة من صلاة العصر إلى ما بعد صلاة الغروب . وبعد صلاة العصر يجلس قليلا لسماع شىء من الراتب ثم يخرج إلى الجامع فيذهب فى الغالب إلى مكان معدّ له فى شرق القبة ليرى الملازمية وهم يقرأون الراتب وقد ينتظر إلى تمام الراتب فيأمرهم بضرب البورى وإجراء التمرينات العسكرية إلى قبيل المغرب ، فيدخل المنزل ويجدّد وضوءه ثم يدخل الجامع فيصلى المغرب ، ويجلس فى مصلاه للمذاكرة والأمر والنهى كالجلسة التى بعد الظهر ، ويرجع إلى منزله فيطلب العشاء فيؤتى بالكسرة والطبيخ كالظهر ، فيتعشى ويستريح إلى وقت العشاء فيصلى العشاء فى الجامع ويدخل منزله للنظر فى الأمور الهامة مع أهل مشورته وكبار دولته ، كابنه عثمان شيخ الدين وأخيه يعقوب وقاضى الإسلام وشيخ السوق وأمين بيت المال وأمين بيت مال الخمس . فينظر مع كل منهم شؤون مصلحته ويدبر أمور المملكة على ما يقتضيه رأيه كل ذلك وملازمو الباب جالسون بباب داره أو فى الجامع منتظرين إشارته ويمكثون كذلك حتى يغلق باب منزله ويتحققوا انصراف مجلسه فينصرفون . ثم يدعو رئيس خصيانه عبد القيوم وحده أو يدعو محمد بشير وكيل النوء معه فينظر معهما فى نفقات منزله » .

نهاية الخليفة شريف وأبناء المهدى الكبار

وبموت الخليفة دانت كل البلاد بالطاعة للجيش الفاتح : وقبل أن نختم حوادث الفتح لا بد لنا أن نروى ما حدث للخليفة شريف وأبناء المهدى الفاضل والبشرى فى الشكابة . خرج الخليفة شريف وأبناء المهدى من أم درمان مع الخليفة عبد الله بعد الواقعة ولكنهم بقوا فى الجزيرة أبا وسلموا لقوات الحكومة فى نوفمبر سنة ١٨٩٨ وأرسلوا معتقلين إلى حلفا ومن هناك أذن لهم بالإقامة فى

الشكاية بين مدنى وسنار على النيل الأزرق ، وفى أغسطس سنة ١٨٩٩ ترامى إلى الحكومة بواسطة جواسيسها أن الخليفة شريف عاد لقراءة الراتب ، وأنه ينوى مغادرة الشكاية والالتحاق بالخليفة عبد الله فى الغرب . فقام سمث بك من سنار مع بلوك من العساكر فى وابور وباغت القرية فى الصباح وأحاط بها ولم يقابلوا بعداء من أهل القرية فى أول الأمر . ولكن حينما قبض على الخليفة شريف وابنى المهدى حاول البعض تخليصهم بالقوة فعدّ هذا مظهراً عدائياً ، فأشعل الجند النار فى القرية وقتلوا عدداً من الرجال وأسروا الباقين ، وأعدم الخليفة وابنا المهدى فى الحال رمياً بالرصاص دون إيعائهم لسلطات عليا .

نهاية عثمان دقنه

أما عثمان دقنه رجل المغامرات والعقيدة فإنه أفلت فى واقعة عطبره . والتحق بالخليفة فى أم درمان ، وأوقع فى واقعة أم درمان خسائر جمة بفرقة الخيالة الإنجليز ثم صاحب الخليفة وظل ملازماً له حتى موقعة جديد وموت الخليفة ، ومنها وجد طريقه إلى تلال البحر الأحمر ينوى الوصول إلى الحجاز . وبواسطة أحد المشايخ تمكنت الحكومة من القبض عليه وإرساله إلى سجن رشيد ثم إلى حلفا .

حركة على عبد الكريم

وفى أول سنة ١٩٠٠ ظهر فريق من الأنصار فى أم درمان كانوا عنصر إقلاق للأمن العام . فهم يؤمنون بأنه بعد موت الخليفة يحل زمن نبى الله عيسى وهم لايدرون أين يظهر ومتى وهم على استعداد لتأييده ويعتقدون فوق ذلك بأن أفعال الإنسان كلها صادرة عن إرادة الله : فليس فيها شر وخير وليس فيها مندوب ومكروه . وإنهم الآن لاينوون شراً بالحكومة ، فقد أراد الله ذلك ، ولكنهم إذا ما دعاهم الوحى للثورة فهم يفعلون . ولهذا الاحتمال رأت الحكومة أن تقبض عليهم وأن تجمع مجلساً من العلماء وأرباب الطرق ليقضى فيهم . فحكم عليهم بالنفى لأن ما جاءوا به بدعة دينية ، ولأن احتمال ثورتهم على الحكومة ينذر بخطرهم على الأمن العام :

أسس الحكم الجديد

حجة إنجلترا لرفع علمها

اتضح لنا فيما مضى من فصول أن النظرية البريطانية التى واجهت بها الدول الأوروبية فيما يختص بالسودان إنه جزء من مصر وإنه لا اعتراف بانفصاله وأثناء حكم الخليفة وعدم استعداد مالية مصر وجيشها للدخول فى عمليات حربية لاسترجاعه منعت بريطانيا الدول الأوروبية من احتلال أى جزء من وادى النيل احتلالا دائما وساءت العلاقات مع فرنسا لأن الأخيرة صممت على إرسال حملة لتحتل فشودة ولترفع العلم الفرنسى . والحملة التى قادها كتشنر لاسترجاع السودان كانت باسم الخديوى وعند ما تم استرجاع دنقلا وبربر وكسلا رفع العلم التركى كما هى الحالة فى مصر نفسها . وعند ما انتصر كتشنر على محمود فى واقعة النخيلة وبدأ يواصل زحفه نحو أم درمان بعث سلسبرى لكرومر فى ٣ يونيو سنة ١٨٩٨ برسالة وضعت الأسس القانونية لإشراك بريطانيا فى الحكم فى السودان .

وصلت رسالة من سلطان تركيا للحكومة البريطانية ظاهرها ودى ولكن بها تلمحيات مؤداها أنه ربما أحرج موقف بريطانيا نسبة لسيادته الشرعية على الخديوى ويرجح أن فرنسا كانت وراء هذا الموقف لأنها كما قدمنا لا تعترف بحماية إنجلترا لوادى النيل وتفضل عليها سلطة الخديوى الشرعية المستمدة من تركيا . ولذلك يرى سالسبرى أن لا يترك العلم التركى بمفرده بل يجب أن يرفع معه العلم الإنجليزى عند ما يصل كتشنر للخرطوم ويقضى على قوة المهدية وبذا يكون لإنجلترا الحق القانونى بالاشتراك فى حكم السودان لأنها ساهمت بجيشها ومالها . ونتيجة لذلك أعفت مصر من دفع دين يبلغ مقداره ٨٠٠ ألف جنيه واعتبرته مساهمة بريطانية لتجهيز الحملة . ولم يكن كرومر متحمساً لهذا الرأى فى أول الأمر ولكنه عاد وأيده تمام التأييد بعد مضى نحو أسبوع :

إعلان حكم ثنائى

أعلن كتشنر إذاً وهو يزحف جنوباً أن يرفع العلمين المصرى والإنجليزى عند ما يدخل أم درمان فاتحاً ، وفى ذلك علامة ظاهرة على اتجاه الحكم الجديد . ومعناه أن السودان ستديره شركة ثنائية ، عضواها الحكومتان المصرية والإنجليزية ، وفى زحمة النصر لم يقابل هذا العمل إلا باعتراضات ضئيلة خافتة الصوت ، وعند ما رجع كرومر من أجازته وضع بمعاونة المستشار القضائى للحكومة المصرية نص اتفاقية يدار السودان بموجبها وبعث بها لحكومته للتصديق عليها . وفى ٤ يناير سنة ١٨٩٩ وهو يخطب الجمهور المحتشد من الأعيان والزعماء فى أم درمان أراد أن يحضّر الأذهان للاتفاقية التى سوف تذاع عن قريب . وما كان يعنى آنذاك ذلك الجمع الذى وقف يستمع إليه ، فهم قد رضوا بحكم القدر ولا يهمهم من يحكمهم : ولكنه يقصد الرأى العام فى مصر وإنجلترا وأوربا فخاطبهم قائلا « ترون أمام أعينكم الآن تينك العلمين يرفرفان من أعلى هذا المنزل وفى ذلك دلالة واضحة على أنكم ستكونون تحت حكم جلالة ملكة إنجلترا وخديوى مصر فى المستقبل » .

إمضاء الاتفاقية

وما أن عاد كرومر من رحلته هذه فى السودان حتى واتاه التصديق بإمضائها وتم التوقيع فى يوم ١٩ يناير سنة ١٨٩٩ على وثيقة اتفاقية الحكم الثنائى ، وحملت توقيع كرومر من الجانب الإنجليزى وتوقيع بطرس غالى باشا من الجانب المصرى . وإذا كان كرومر صاحب الرأى الغالب فى هذه الاتفاقية فلنستمع لما يسوقه من منطق بنى عليه هذه الوثيقة الفريدة فى نوعها ، وقد أفرد لها فصلا خاصاً فى المجلد الثانى من كتابه « مصر الحديثة » .

إدارة بريطانية فى الحقيقة

رأى أن الإدارة الجديدة فى السودان يجب أن تسيطر عليها أيادى بريطانية حتى لا تعود المظالم التى ارتكبت فى العهد الماضى ؛ والتى يرى أنها رمت بالبلاد فى أتون الثورة المهدية . ويرى أن تنفصم أية صلة بينها وبين السيادة التركية ، ولا يترك سبيلا للامتيازات الأجنبية لتجد طريقها إلى السودان ، وقد عانت مصر ما عانت منها . وكان الطريق الواضح لتلبية هذه المطالب هى ضم السودان

إلى الإمبراطورية البريطانية . وإذا قيل بأن الجيش المصرى والخزانة المصرية تحملتا أكبر العبء لاستعادة السودان فيرد بأن ما وصله الجيش المصرى من كفاءة واستعداد يعزى للتدريب والقيادة الإنجليزيتين . والخزانة المصرية ما استقرت وبدأت تفيض وارداتها على مصروفاتها إلا بفضل الإدارة الإنجليزية الحازمة الرشيدة . وحتى إذا رأت مصر أنها ضحت بالرجال والأموال فيكفيها تأمين حدودها الجنوبية ، وقد كانت معرضة لغزاوات المهدية الخاطفة ، ويكفيها أيضاً وصول المياه الكافية فى شريان حياتها النيل ، وأنه طالما تسيطر على أعلاه وروافده دولة صديقة مأمونة الجانب فالرجال والأموال المضحاة جنيت ثمارها .

لابد من إرضاء مصر

ولكن من الجانب الآخر تخشى إنجلترا معارضة الرأى الدولى ، وخاصة فرنسا ، وهى تقف لإنجلترا بالمرصاد ، وما تركتها تهدأ منذ أن احتلت مصر . وما أصدرت الحكومة الفرنسية الأمر لقائدها مرشان بالانسحاب من فشودة إلا حين ووجهت بحجة أنها كانت من الأملاك الخديوية : وكان كتشنر بعيد النظر فى السياسة عند ما رفع العلم المصرى وحده بالقرب من المعسكر الفرنسى . والحملة عند ما تحركت وعند ما دخلت العربان فى خدمتها ومعاونتها ، كانت باسم الخديوى . وحين دخول الجيش المصرى فى دنقلا وكسلا وبربر خفق العلم المصرى وحده . ومهما كانت الإدارة الإنجليزية رشيدة ومهما كان فضلها فى تدريب الجيش وتحسين المالية فالحقيقة التى لا مراء فيها فهو جيش مصرى والأموال مصرية . إزاء هذه الظروف ليس من العدل والإنصاف أن ترفع اليد المصرية بالمرة عن إدارة السودان وخاصة أن انجلترا آنذاك ترى فى إدارة السودان عبئاً ثقيلا وليس ما يعين على نموه وتقدمه إلا المعونة المالية المصرية .

وثيقة ترضى سيطرة انجلترا وبعض مطالب مصر

وكان على كرومر والحالة هذه أن يخترع أداة إدارية تكفل السيطرة الإنجليزية وتبعد دعوى السيادة التركية وشبح الامتيازات الأجنبية وفوق ذلك ترضى بعض الشىء الأمانى المصرية والاحتجاجات الدولية . وكان عليه أن يضع الوثيقة التى ترضى كل هذه الاعتبارات فى لغة واضحة نوعاً ما وأن

يكون اشتراك انجلترا فى الحكم مبنياً على أساس قوى لا كمثل مركزها الضعيف من الوجهة الشرعية فى مصر . وإذاً فمقدمة الاتفاقية تبين بوضوح أن إنجلترا لها أن تشارك فى إدارة السودان بحق الفتح حتى لا تنشأ إشكالات فى المستقبل ، وحتى لا تتلقى فى المستقبل الضربات والهجمات على مركزها مثل ما ظلت تعانيه فى مصر ، وأن السيادة تتركز فى إنجلترا ومصر . وعلى ذلك فالسيادة التركية قد أزيلت قانونياً بعد ما أزيلت فى الواقع بواسطة الثورة المهدية . وعندما تأكد كرومر من متانة أسسه وضع الهيكل الذى يضمن تنفيذ المطالب الآنفة الذكر بطريقة عملية .

ملخص لوثيقة

عين خط عرض ٢٢ شمالا كحد فاصل بين مصر والإدارة الجديدة وتُرك الحد الجنوبى بلا تعيين للاتفاق عليه بين الدول المجاورة وكعلامة ظاهرة للاشتراك فى الحكم يُرفع العلمان المصرى والإنجليزى على دور الحكومة وتكون الإدارة العسكرية والمدنية العليا بيد موظف ترشحه حكومة جلالة الملكة ويعينه خديوى مصر . ولا يُزايل مركزه إلا بموافقة حكومة جلالتها . ويكون لقب ذلك الموظف « حاكم عموم السودان » ولمنشوراته حكم القانون . ولا يسمح لتمثيل قنصلى فى السودان إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، ولا تمتد سلطة المحاكم المختلطة إلى أى جزء من السودان . والنقطة البارزة فى هذه الاتفاقية أن تعيين الحاكم العام ترك أمر ترشيحه للحكومة الإنجليزية وأعطى سلطات كبيرة تجعله فى حكم المستقل عندما يصدر الأمر بتعيينه . فليس له أن يرتبط بتصديق مبدئى حين يشرع وحين يرسم الخطط التى تؤدى إلى تقدم البلاد ورفاهيتها . وقد يستعين بإحدى الحكومتين وقد يقتبس من نظمهما ، ولكنه ليس بملزم قانونياً الحصول على موافقتها ، طالما أن الأمر يختص بالإدارة الداخلية وبالمالية السودانية ، وطالما أن هيكل الاتفاقية ونصوصها سليمة لم تمس وقد أرضى كرومر كل الدول بأن منح حرية التجارة مع السودان وأن جميع الأجانب سواء من حيث السكنى وامتلاك الأراضى .

وهاك نص الاتفاقية أنقلها من نعوم شقير بك :

وفـــاق

بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز وحكومة الجناب العالى خديوى مصر بشأن إدارة السودان فى المستقبل

حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية المالية التى تمت باتحاد حكومتى جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالى الخديوى ، وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال إلى الآن ، وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياطات المتنوعة . وحيث أن من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتب على ما لها من حق الفتح وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الإدارى والقانونى الآنف ذكره وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل : وحيث أنه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن إدارياً بالأقاليم المفتتحة المجاورة لها . فلذلك قد صار الاتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى وهو :

المادة الأولى : تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة فى جنوب الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

أولا : الأراضى التى لم تخلها قط الجنود المصرية منذ سنة ١٨٨٢ :

ثانياً : الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتياً ثم افتتحها الآن حكومة الملكة والحكومة المصرية بالاتحاد أو

ثالثاً : الأراضى التى قد تفتتحها بالاتحاد الحكومتان المذكورتان من الآن فصاعداً .

المادة الثانية : يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معاً فى البر والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن ، فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط (ألحقت سواكن بإدارة السودان فى اتفاقية خاصة فى يوليو سنة ١٨٩٩) .

المادة الثالثة : تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان إلى موظف واحد يلقب (حاكم عموم السودان) ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

المادة الرابعة : القوانين وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين إدارة حكومة السودان أو تقرير حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها يجوز سنها أو تحريرها أو نسخها من وقت لآخر بمنشور من الحاكم العام وهذه القوانين والأوامر واللوائح يجوز أن يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه ويجوز أن يترتب عليها صراحة أو ضمناً تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوائح الموجودة .

وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل وقنصل جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى .

المادة الخامسة : لا يسرى على السودان أو جزء منه شىء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعداً إلا ما يصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالف بيانها .

المادة السادسة : المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوروبيين من أية جنسية كانت بحرية المتاجرة

أو السكنى بالسودان أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرياعا أية دولة أو دول .

المادة السابعة : لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع العادية من غير الأراضى المصرية إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن أو أية ميناء أخرى من موانئ ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن .

المادة الثامنة : فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه (أصبح الحكم نافذاً حتى على سواكن بعد اتفاقية يوليو سنة ١٨٩٩) .

المادة التاسعة : يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

المادة العاشرة : لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلاتات بالسودان ولا يصرح لهم بالإقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

المادة الحادية عشرة : ممنوع منعاً مطلقاً إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه . وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

المادة الثانية عشرة : قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليه سنة

١٨٩٠ فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها .

تحريراً بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٩

الإمضاءات كرومر بطرس غالى

الصفة البارزة

والصفة البارزة فى الاتفاقية الجديدة كما ذكرنا من حيث الإدارة هى أنها وضعت فى يد الحاكم العام سلطات واسعة حتى لا يعوق الرجوع إلى الحكومتين السائدتين حركة الإصلاح المراد القيام بها ومع ذلك فالمعتمد البريطانى فى مصر وخاصة فى عهد كرومر يشرف من بعيد على ما يجرى فى السودان ويشير وينصح عند الضرورة .

كتشنر أول حاكم عام

ورأت الحكومة الإنجليزية أنه ما من رجل أقدر على إدارة البلاد تحت النظام الجديد من اللورد كتشنر . فهو قائد الجيش الذى فتح البلاد ولا يزال يطفئ الثورات ويقضى على جيوب المقاومة ، ولا يزال الخليفة تلتف حوله الجموع ليلاقى الجيش سواء مهاجماً أو مدافعاً . وفوق ذلك فكتشنر عرف البلاد وخبر أحوالها عندما كان ضابط اتصال بين غوردون وحملة الإنقاذ ، وعندما كان محافظاً لسواكن . وأثناء تجهيز الحملة جمع من البيانات والمعلومات عن السودان ما لايتأتى لرجل غيره : وتعيينه لايثير ضجة أوغباراً فهو يحتل مركزاً ممتازاً فى الحكومة المصرية كسردار للجيش المصرى والآن يضطلع بإداره السودان فوق قيادته للجيش .

تعليمات ونصائح بكرومر

مع وثيقة الحكم الثنائى بعث كرومر لكتشنر بخطاب خاص يشير عليه بأن يسمح للموظفين الذين يعملون تحت إمرته التحدث معه بصراحة دون خوف منه وأن يطلعه (كرومر) على كل مشاريعه قبل بداية العمل بها . فالإدارة المدنية تختلف عن الإدارة العسكرية بضرورة الصراحة والوضوح والمشورة ويتمنى أن ينجح كتشنر فى الإدارة المدنية مثلما نجح فى القيادة العسكرية وأن لا يجعل للتوافه سبيلا للاستيلاء على تفكيره والمرونة وعدم التعصب

لرأى خاص صفتان لازمتان لمثل إدارته . وكرومر من جانبه لا يود تدخلا فى التفاصيل ولكنه يرعى المسائل الهامة مثل مياه النيل وأية امتيازات كبيرة تمنح للأوروبيين أو غيرهم . وفى خطاب خاص للكولونيل جاكسن وكان قائماً بأعمال الحاكم العام بعد مغادرة كتشنر للبلاد وقبل تعيين ونجت أشار عليه بأن لا يسمح للمآمير المصريين التأثير فى رؤسائهم الإنجليز فى علاقاتهم مع الأهالى . فجهلهم باللغات وعادات الشرقيين ربما يجعلهم يعتمدون على مرءوسيهم اعتماداً كلياً تحملهم مسؤولية ما يرتكب من أخطاء وتقود فى نهايتها لأن يكره الأهالى حكم البريطانيين وينفرون منه . ويرى كرومر أن يتصل الحكام من البريطانيين اتصالا مباشراً بالأهالى ويتعلمون لغتهم ويدرسون عاداتهم .

وتيسيراً للأمر واقتصاداً للنفقات رؤى أن يقوم بحكم المديريات والمراكز ضباط الجيش المصرى أيضاً . ومن محاسن الصدف لتنفيذ السياسة الكرومرية دون جلبة أو ضوضاء أن كان معظم الضباط العظام فى الجيش المصرى من الإنجليز . فهم يحتلون مناصب المديرين والمفتشين ويبقى للمصريين إدارة المراكز والمأموريات . وماهيات الجميع من الخزانة المصرية لأنهم ضباط جيشها . ومثل ماكان السردار أجدر من يحكم البلاد فى مثل تلك الظروف لما تتطلبه من خشونة وصبر على مغالبة الطبيعة فغيره من الحكام قد صقلتهم حياة الجندية ومرّنوا على الطقس وتحمل المشقات ، وهم يرابطون فى الحدود على أهبة الاستعداد حتى لا يباغتهم الأنصار بالهجمات الخاطفة . والقانون العسكرى الذى ألفوه وعملوا به فى الثكنات سوف يطبق على السكان المدنيين إلى أن تشرع القوانين وتصدر اللوائح المدنية .

إصدار جريدة اللواء

كل تلك التطورات تحدث فى سنة ١٨٩٩ إلى أن انقضت السنة وتغلب الجيش على الخليفة وصدرت جريدة اللواء لمصطفى كامل فى ٢ يناير سنة ١٩٠٠ متطرفة فى وطنيتها . وتعالى صوت مصر بعد أن ظل خافتاً نوعاً ما أثناء عقد الاتفاقية وأثناء تنفيذها فى السنة الأولى من حياتها . وكانت الحرب دائرة على

أشد ما يكون عنفاً وشدة بين الإنجليز والبوير . وكان أن لقى البوير انتصارات رائعة على الإمبراطورية البريطانية ، واللواء تغمز وتعرض بتقلص النفوذ البريطانى وتنشر بحروف واضحة ما يصل إليها من أنباء القتال وانتصار البوير .

مقال لمصطفى كامل

وفى يوم ٢٠ يناير سنة ١٩٠٠ نشر مصطفى كامل مقالا نارياً لمناسبة مرور عام على اتفاقية السودان قال فيها « وأن أكبر أيام الشقاء فى تاريخ مصر وأسوأ تذكار يهيج فى نفوس المصريين الأحرار الآلام والأشجان هو يوم ١٩ يناير يوم تذكار اتفاقية السودان ، ذلك اليوم المشؤوم الذى أعلنت فيه الحكومة الخديوية للأمة المصرية وللعالم كله أن السودان صار مستعمرة إنجليزية بالفعل وأن المشاق الهائلة والأتعاب الجسيمة والأموال الباهظة والدماء الطاهرة التى صرفت فى سبيل استرداده قدّمت هدية من مصر للدولة البريطانية . فما أعظمك يا مصر كرماً وأكبرك بلاء وهمّا .

أجل كان الأمس تذكار المصيبة الكبرى والداهية الدهماء التى أنزلها وزراء مصر وساسة البريطان على أمتنا الأسيفة من سماء عدالتهم وإنصافهم . فإن كان لكم معاشر المصريين شعور وإحساس فتذكروا هذه الحادثة تذكر الأحياء ، واعتقدوا أن حقوقكم فى السودان مقدّسة وأن كل المعاهدات والاتفاقيات لاتميت هذه الحقوق أبدا ، وعلّموا أبناءكم صغاراً معنى هذه الحقوق المقدسة ليطالبوا بها كباراً ؛ أو يحافظوا عليها إن استرجعتموها أنتم .

تذكروا معاشر المصريين أن إخوتكم فى الوطن والدين أهرقت دماؤهم العزيزة فى سبيل استرداد السودان . تذكروا معاشر المصريين أن أرض السودان رويت بدمائكم وصرفت فيها أموالكم وسلبتكم أشد الرجال وأعز الأبناء . تذكروا معاشر المصريين أن مصر لا حياة لها بغير السودان وأن القابض على منابع النيل قابض على أرواحكم . تذكروا معاشر المصريين أن ضياع السودان ضياع لمصر وأنكم بغير السودان فاقدون الحياة . تذكروا معاشر المصريين أن اتفاقية السودان مخالفة لدستور البلاد وفرمانات جلالة

السلطان الأعظم ومعاهدات الدول الأوروبية . تذكروا معاشر المصريين أن فرنسا لم تنس الألزاس واللورين إلى اليوم وقد مضى على انفصالها ثلاثون عاماً وما حاجة فرنسا إليها كحاجة مصر إلى السودان .

وما أذكركم بالسودان إلا لتفكروا فيه صباحاً ومساء وتعتبروا الاتفاقية المشؤومة اتفاقية باطلة حتى يجىء اليوم الذى تحققون فيه رغائبكم وتكون الحكومة طوع إراداتكم تصير كلمتكم فى بلادكم هى الكلمة النافذة كغيركم من الأمم الحرة والشعوب الحية المستقلة » .

وأثارت هذه الافتتاحية حماساً وشعوراً فياضاً بين الطبقات المتعلمة فى مصر ونزلت كالثلج على الحكومة المصرية التى وقعت على الاتفاقية .

وفى اليوم التالى كتب ما يلى : — » وقد اعترضنا أحد أنصار الوزارة الفهمية فقال « ما بالكم تحملون على الوزراء فى مسألة السودان وأنتم تعلمون أكثر من كل إنسان أن الوزارة لاحول لها ولا قوة وأنها مسوقة إلى ذلك بقوة بريطانيا وتهديداتها » فأجبناه « أن الأمر بسيط فإن الوزارة الفهمية إذا كانت تعمل ما تعمل مضطرة فما عليها إلا أن تبرئ نفسها أمام أميرها وأمام أمتها ووطنها وتستقيل من منصبها قائلة الموت أحب إلىّ من القضاء على حقوق مولاى وحقوق أمتى . عندئذ كنا نضرب بوزارتنا الأمثال للناس فى الشهامة وعزة النفس والوطنية » .

عصيان بعض الجنود فى أم درمان

وهكذا نبتت بذور الاستياء من الاتفاقية عند فريق من المصريين وظلوا يجاهرون ببطلانها قانونياً لأنها إرغام من قوى على ضعيف . وسرى الحماس إلى صفوف الضباط فى الجيش المصرى . وشاءت الأقدار أن يسحب عدد من مدافع مكسيم الجيش المصرى ليبعث بها إلى جنوب إفريقيا ، وطارت إشاعة بأن الأورط السودانية فى الجيش المصرى سترسل إلى ميادين القتال . ورافق ذلك أن ماكسويل باشا بدأ يجمع الذخيرة التى فى أيدى الجنود . فوجد من الضباط المتحمسين من حفز الجند للعصيان والامتناع عن تسليم الذخيرة ، وكان

أن هجموا عليها لاستردادها بعد أن سلموا جزءاً منها . وامتنعت نهائياً الأورطة الرابعة عشرة السودانية من الرضوخ . وظلت الحالة فى أم درمان مقلقلة إلى أن تعاون الجنود الكبار فى الأورطة مع ضباطهم السودانيين بتسليم الذخيرة تدريجياً ، وأنشئت محكمة تحقيق لتعاقب المحرضين وأتت الرسائل من الخديوى تستنكر هذا العمل ، وتؤيد السردار الجديد السر ريجنلد ونجت باشا وحكم على بعض الضباط بالرفت وبعضهم بالتوبيخ وذهب المحكوم عليهم إلى القاهرة مخفورين وانتهى تمرّد لو لم يكن محصوراً فى أورطة واحدة لأدى إلى زعزعة أركان الحكم الثنائى ، وهو علامة ظاهرة لروح السخط السارية بين الضباط المصريين من عدم إسناد وظائف كبيرة لهم فى الإدارة الجديدة ، ومن عدم إجابة بعض مطالبهم فيما يختص بالماهية ، وفوق ذلك كانوا يرون فى معاملة كتشنر قسوة وشدة .

أعضاء الجمعية التشريعية والسودان

وقد أجاز أعضاء الجمعية التشريعية إعانة للسودان لأنهم يرون فى السودان جزءاً لا يتجزأ عن مصر ، وماكان لكرومر أن تفوته الملاحظة والتعليق على مثل هذا الرأى . فقد بين فى تقريره لتلك السنة أن ليس لديه ما يعترض به على هذا الرأى ، ولكنّ السودان يدار بموجب اتفاقية ارتضاها الطرفان ورأى فى ذلك مناسبة يبين السبب الذى من أجله يحكم للسودان بذلك النوع الغريب من الاتفاقية . فواضعو المشروع يهدفون إلى غايتين . الأولى حكومة رشيدة لأهالى السودان والثانية التخلص من الامتيازات الأجنبية وما تجرّه من عراقيل : ولم يكن الغرض حسبما بيّن كرومر هو الحيلولة بين مصر وحقوقها المشروعة . وإجابة لما أراده أعضاء الجمعية من بحث تفاصيل الإيرادات والمصروفات لحكومة السودان لا يرى مانعاً من ذلك .

ما لقيته مصر حسب رأى كرومر

وظل كرومر يتحسس ما يوجه من نقد للسياسة الإنجليزية فى السودان ويردّ عليه . وحين علم بأن الرأى السائد فى الأوساط المصرية لا يرى مقابلا لما بذلته من تضحيات فى الأنفس والأموال ؛ يقول إن مصر جنت فوائد

ليس فى الاستطاعة تقديرها بالأرقام . فقد زال خطر الغزو لمصر من الجنوب نهائياً وبذا تخلصت مصر من نفقات عسكرية باهظة . وكذلك ضمنت موارد مياهها وكان من المحتمل أن تقام مشروعات رى كبرى فى السودان تجعل حياة مصر الزراعية فى خطر . وكذلك انتعشت التجارة بين القطرين ، وبعد ذلك كله يحق لمصر أن تفخر كما لبريطانيا أيضاً بأن أعادت السودان إلى حظيرة المدنية والحضارة .

مسائل الحدود مع إيطاليا

وإذا كان للحكم الجديد أن يستقر هيكله الداخلى وتتركز الاتفاقية ، فإن مشاكل الحدود لا بد من تسويتها مع إيطاليا والحبشة والكونغو البلجيكى . وكان مسلك الحكومة الإيطالية منذ البداية مسلك التعاون والوفاق . فانجلترا لبّت نداءها عندما طلبت منها القيام بعمليات حربية فى دنقلا أو سواكن . وإيطاليا احتفظت بكسلا إلى أن سلمتها للجيش المصرى . وبعد مفاوضات بين إنجلترا وإيطاليا تقابل كرومر مع وزير الخارجية الإيطالية فى روما واتفق أمرهما على تفويض حاكم السودان العام وزميله حاكم إرتريا لتعيين الحدود وتم ذلك على وفاق وتعاون .

الحدود مع الحبشة

ولو أن منليك رحب بالجيوش الفاتحة كجيران أزالوا الحكومة التى كانت سبباً فى مقتل سلفه ، إلا أنه كان أقل تعاوناً من إيطاليا فى هذه المسألة : فهو وإن كتب خطاباً رقيق العبارة للسردار يهنئه بالفتح وإزالة الدولة الإسلامية من السودان ، ويشكره على فك أسارى الأحباش الذين كانوا فى سجن أم درمان ، إلا أنه ظل يراوغ ويطاول فى المفاوضات حتى جرت بينه وبين المستر هارنجتون معتمد بريطانيا فى أديس أبابا ، وظل رءوسه يحتلون من ناحية جميلة والقلابات وفازوغلى ويرفعون الأعلام الحبشية ، ليضعوا حكومة السودان أمام الأمر الواقع وقد تساهل هارنجتون معه فى مسألة بنى شنقول إذ تركها للحبشة بالرغم من أنها كانت جزءاً من السودان لتشبث منليك بها وهى ذات الشهرة بمعادن الذهب ولما قدمه الإمبراطور من مقابل إذ منح المستر لين مندوب شركة إنجليزية امتياز استغلال تلك المنطقة .

الحدود مع بلجيكا

وادعت البلجيك الحق فى احتلال منطقة من بحر الغزال ومنطقة اللادو والرجاف على النيل . وبعد مفاوضات بين الفريقين تم الاتفاق على أن تظل منطقة بحر الغزال بكاملها جزءاً من السودان وأن تؤجر منطقة اللادو للكونغو لضرورتها كميناء نهرى ، ويمتد زمن الإيجار إلى حياة الملك فقط ، وبعدها تعود لحكومة السودان . وما كان لانجلترا أن تسمح لأى دولة تعترض طريق مصر — الكاب ولهذا رضيت بالإيجار الوقتى ولم ترض بالاحتلال الدائم . وأما الحدود مع أوغندة فقد تمت دون إثارة نزاع .

الشئون المالية

الشؤون المالية وما يتبعها خرجت عن نطاق الاتفاقية حيث أن السودان سيظل حقبة من الزمن دون أن تقوم إيراداته بسد نفقاته ، وعليه فلا بد أن تتحمل الخزانة المصرية عبء الفرق بين الإيرادات والمصروفات . والحالة تقضى إذاً فرض رقابة مالية من الحكومة المصرية على المالية السودانية . وأثناء زيارة كرومر للسودان فى يناير سنة ١٨٩٩ وقبل إعلان الاتفاقية قضى جلسات مع كتشنر وسر ألدون غورست المستشار المالى للحكومة المصرية آنذاك فى أم درمان ، يضعون الأسس التى تقوم عليها العلاقة المالية بين القطرين . وفى رأيهم أن لا بد من عرض الميزانية السودانية على مجلس الوزراء المصرى ، ولابد للحاكم العام ومستشاره المالى من التزام الحدود التى يوافق عليها مجلس الوزراء ، وألاسبيل إلى تجاوز الأرقام التى عرضت وتم التصديق عليها فى باب المصروفات إلا بتصديق إضافى من مجلس الوزراء . وللحاكم العام إذا رأى ذلك أن ينقل مبلغاً من باب إلى آخر من أبواب المصروفات طالما أنه يلتزم حدود الميزانية العامة وبهذا وضعت أسس وقواعد بسيطة تضمن للحكومة المصرية الرقابة العامة طالما أنها تسدد العجز ، وفى الوقت نفسه تعطى للحاكم العالم مجالا يتصرف فى حدود معلومة .

تعليمات المديرين

قسمت البلاد إلى مديريات ، وهذه إلى مأموريات أو مراكز اضطلع بأعباء إدارتها ضباط الجيش المصرى من إنجليز ومصريين . فالمدير الإنجليزى

يساعده مفتشان إنجليزيان ، وعلى كل مركز يقوم مأمور مصرى ومعه معاون أو معاونان . ووضع كتشنر الإرشادات اللازمة لمن وكل إليهم أمر الإدارة . فنشور للمديرين يخاطبهم فيه بأن القوانين واللوائح التى يجب العمل بمقتضاها سوف تصدر قريباً . ولكن حسن الإدارة وانتزاع الثقة والاحترام من السكان لايتأتيان باللوائح والقوانين ، بل بالاتصال للشخصى مع ذوى النفوذ من الأهالى ولابد للمفتش أن يعرف كبار الرجال وذوى المكانة فى مركزه ويجلب ثقتهم ورضاهم بما يبديه من اهتمام بأشخاصهم وأحوالهم ، وبواسطتهم ونفوذهم تتمكن من التأثير على الجمهور .

وأكد كتشنر ترك الناس أحراراً فيما يعبدون ويعتقدون ، وأمر بتشجيع إشادة المساجد العامة فى المدن ولكنه لا يسمح بالمساجد الخاصة والتكايا والزوايا إلا بترخيص خاص من السلطة المركزية . فقد تكون هذه بؤراً للشغب والتعصب الدينى وما يعقبه من اضطراب فى حبل الأمن العام . وعلى الحاكم الإنصات بصبر إلى ما يبدى من آراء مهما كانت مخالفة إذا أبديت بروح الصدق وبطريقة محترمة . وألا يصغى بل عليه الملاحظة على حديث المتملقين والكاذبين ، وليعلم الكل أن الرق غير معترف به من قبل حكومة السودان .

تعليمات المفتشين

وللمفتش وهو أركان حرب المدير فى حدود مركزه أن يراقب أعمال المأمورين وأعمال البوليس من حيث التحقيق الجنائى وحفظ الأمن العام وتقديم تقرير عن الموظفين الذين يعملون فى دائرة مركزه للمدير ، إذا أبدى أحدهم عجزاً فى العمل أو ارتكب مظالم ، أوكانت حياته الخاصة مجانبة للأخلاق الفاضلة . وله أن يرقب باهتمام شديد وأن يمنع ارتكاب المظالم فى التحقيق ، وفى جمع الضرائب وكل ما من شأنه إثارة السخط والاستياء بين طبقات الأهالى . وليس من عمله أن يكون حلقة اتصال بين المدير والمأمور بل للأخير حق الاتصال المباشر بالمدير فيما يتعلق بمأموريته ولذلك ليس له مكتب خاص بعماله وكتبته .

تعليمات المأمورين

وأشير للمأمورين فى منشورهم بأنهم حجر الزاوية فى الصرح الإدارى الجديد وعليهم بمسلكهم أن يبرهنوا بأنهم نواب حكومة رحيمة عادلة حتى تكون استجابة الأهالى الاحترام والتقدير لحكومة هم رسلها وممثلوها وليتذكر المأمورون أنهم ورثوا تركة مثقلة بالآلام والمظالم والخوف من رهبة الحاكم وسطوته ، ومن أولى واجباتهم أن يجعلوا إدارتهم ظاهرة المزايا راجحة الكفة فيما لو وضعت فى ميزان مع الحكومة السابقة . ومع ذلك عليهم أن يضربوا بشدة وحزم على أيدى من تحدثهم أنفسهم بإقلاق الأمن العام أو من يرتكبون أعمالا تعسفية أتينا لإزالتها . ولابد أن يحاول البعض تقديم رشوة ينال بها العطف والرضا أو امتيازات خاصة . فعلى المأمور استهجان مثل هذا العمل وعقاب من يريد ممارسته ، وأن يلقى فى روع السكان أن النزعة السائدة هى تحقيق العدالة دون انتظار ثمن لها من قبل الأهالى . وعليهم القيام بما يجعل الناس يزيدون من مساحاتهم الزراعية والإتيان بحاصلاتهم وسلعهم إلى أسواق تراقب فيها . الأسعار وعليهم أن يكونوا مثلا أعلى فى الأخلاق الخاصة من حيث الامتناع عن هتك الأعراض . وأخيراً ختم المنشور بتهديد الرفت والمحاكمة لكل من يرتكب جريمة الرشوة فى أى شكل من أشكالها . والمأمور فى مركزه هو رئيس البوليس وقاضى الجنايات الصغيرة ومسجل الأراضى وخبير الأهالى الاقتصادى .

قوانين السودان

وكان على كتشنر أن يصدر أولى لوائحه وقوانينه فى حق ملكية الأراضى وخاصة فى المدن الكبيرة كالخرطوم وبربر ودنقلا . وأصدر كذلك اللوائح التى تنظم الضرائب . ولابد أيضاً من وضع القوانين الجنائية والمدنية . فقد تعاون المستر وليم برونيات الموظف بوزارة الحقانية فى مصر مع المستر بونهام كارتر السكرتير القضائى لحكومة السودان فى وضع « قانون عقوبات السودان » و « التحقيق الجنائى » وراعياً فيها البساطة وسهولة الفهم والتطبيق . والأول مقتبس بعد تبسيطه من قانون الجنايات فى الهند والذى قد نجح تطبيقه قبل ذلك فى زنزبار والأراضى التى تقع تحت الحماية البريطانية فى شرق أفريقيا ،

والثانى يرتكز فى أصوله على قوانين الهند أيضاً ولكن نظراً لأن الذين يقومون بتطبيقه هم ضباط الجيش المصرى رؤى الاحتفاظ ببعض عناصر القانون العسكرى فى الجيش المصرى لمعرفتهم له وخبرتهم به .

النظام القضائى

والنظام القضائى الذى أقيم يتلخص فى أن الجرائم تحاكم غالباً فى المديريات التى ارتكبت فيها . فالصغيرة منها أمام قاضى يجلس بمفرده والكبيرة منها أمام ثلاثة من القضاة بعد التحقيق الأولى من قاض واحد ، وهذه المحكمة تسمى « محكمة مدير » أو « محكمة مركزية صغرى » ويرأسها مدير أو موظف آخر كبير له سلطة قاض . وفيما عدا القضايا البسيطة فكلها قد تستأنف إلى محاكم أعلى . وللحاكم العام الحق فى إعادة النظر فى كل قضية . والقضايا المدنية يقضى فيها بموجب لائحة سُنت خصيصاً لذلك . والمحاكم الشرعية فى المديريات والمراكز تعالج قضايا الأحوال الشخصية بين المسلمين .

ونجت باشا يخلف كتشنر

وبموت الخليفة وحاجة انجلترا لضباطها فى حرب البوير غادر كتشنر وادى النيل إلى جنوب أفريقيا ليكون أركان حرب للورد روبرتس وحل محله كسردار للجيش المصرى وحاكم عام للسودان السر ريجلند ونجت ، وهو مثل سلفه ليس بغريب على الجيش الذى وكلت قيادته له والبلاد التى وضعت أمورها تحت إدارته . فبرئاسته لقلم استخبارات الجيش المصرى إبان المهدية عرف عن السودان وعن أحواله الكثير بحكم مركزه معرفة مكنته من استلام زمامه ، وهو خبير به وبرجالاته وبالأداة الإدارية التى عليه أن يديرها . وكان هو وكرومر على اتفاق من حيث ضرورة استخدام شبان إنجليز مدنيين من خريجى الجامعات عُرفوا بمتانة الخلق لتكون منهم نواة سلك إدارى سودانى خاص . ومما زاد فى ضرورة اتخاذ تلك الخطوة قيام حرب البوير واستدعاء عدد من الضباط . ومنذ سنة ١٩٠٠ بدأ هؤلاء الشبان يحتلون المراكز الإدارية التى كان يشغلها الضباط بالتدريج حتى إذا أشرفنا على نهاية الحقبة التى نؤرخها نجد كل المديرين والمفتشين منهم .

كرومر يشرف على السياسة

وقد ظل كرومر يُشرف على وضع الأسس العامة لمستقبل السياسة والإدارة فى السودان إلى سنة ١٩٠٧ ، ومن وقت لآخر يصرح بالنقاط الأساسية من تلك السياسة سواء فى تقاريره السنوية أو خطبه فى أم درمان والخرطوم . ففى ديسمبر سنة ١٩٠٠ خطب جمعاً حاشداً فى الخرطوم بقوله « إلى حضرات علماء السودان وعمده ومشايخه وأعيانه وسكانه كافة . إنى أشكر لكم من صميم فؤادى خطابكم والترحيب الذى لقيته منكم . عند زيارتى لهذه البلاد منذ سنتين أوضحت لحضراتكم أنكم ستكونون فى المستقبل تحت حكومة كل من جلالة ملكة انجلترا وسمو الخديوى المعظم . ولقد صدرت لى الآن أوامر خصوصية من صاحبة الجلالة مليكتى العظيمة التى تحكم فى غير هذه البلاد على ملايين من المتدينين بدينكم الشريف لأعرب لكم عن مزيد اهتمام جلالتها بكل ما يؤول إلى سعادتكم وإنى الآن باسم جلالتها سأقلد فرداً من أشرف أهالى السودان المسلمين وساماً إنجليزياً نظراً إلى ما عرضه عنه سعادة الحاكم العام لجلالتها وهو السيد على الميرغنى .

ولقد تقدمت هذه البلاد كثيراً منذ زيارتى الأخيرة لها وترون أن العهد الذى عاهدتكم عليه وقتئذ من جهة احترام ديانتكم وعوائدكم الدينية قد روعى كل المراعاة . ولقد أنشئت لكم المحاكم والمدارس وضربت على أطيانكم ضرائب خفيفة جمعت منكم على ما أظن بلا ظلم ولا إكراه ، وتم وصول سكة الحديد إلى الخرطوم ، ولى أمل أن تكونوا قد أصبحتم مقتنعين بأن حكامكم سواء كانوا إنجليزاً أو مصريين — ولا أميز بينهم لأنهم مشتركون فى العمل وعلى وفاق تام — ليسوا فقط ذوى مقدرة تفوق جداً مقدرة الحكام السالفين بل إن قلوبهم قد أشربت روح العدالة والرغبة الزائدة فى كل ما من شأنه النفع العام لجميع الأهالى وهذا كله لم يكن له أثر حين كان ظلم الدراويش محيقاً بكم » .

وفى يناير سنة ١٩٠٣ قال « وكثيراً ما يقال لنا نحن معشر الإنجليز فى هذه الأيام إننا متأخرون عن غيرنا من الأمم فى أمر التعليم ، وربما كان لهذه

التهمة بعض الصحة ولكن للمسألة وجه آخر عسى ألا يفوت نظر المنتقدين . فإن نتائج نسقنا الخصوصى فى التعليم تظهر بأجلى مظاهرها فى بلاد كالسودان . فالشاب الذى يتربى فى إحدى مدارسنا العمومية أو كلياتنا الحربية وينشأ على الاستقلال الذاتى والمسؤولية الشخصية ، هو الرجل القوى الحازم الذى لا يعوّل فى الدنيا على أحد لأنه يتلقى فى حداثته تحت سماء الحرية مبادئ تضمن له مستقبلا نيراً كما هو خليق بفرد من أفراد أمة مستعمِرة مجيدة . فلا يكون آلة متحركة بل يكتسب من حيث لا يدرى عوائد وطباعاً تؤهله لأن يتدبر ويعمل الفكرة ويأخذ على عاتقه مسؤولية الأمور . وبكلمة أن يحكم بالعدل والحزم ، وأمثال هؤلاء منتشرون الآن فى جميع أنحاء هذه البلاد من سواكن إلى ما وراء الأبيض . ومن وادى حلفا إلى أقاصى غوندوكرو . ويمكننى أن أشهد مما شاهدته بنفسى أنه حيثما وُجدوا نظر إليهم الأهالى على اختلاف طبقاتهم من همجيهم إلى أرقاهم علما كممثلى نظام يحول دون الظلم وسوء الإدارة اللذين سادا فى الماضى » :

ولو أن الاتفاقية قد وضعت سلطات قريبة من الاستقلال فى يد الحاكم العام إلا أنه ظل السير ونجت واللورد كرومر على اتصال دائم يتعاونان على الأسس وأحياناً الجزئيات . والحكومة البريطانية تحاط علما بما يجرى وتوحى وتوجّه من بعيد حتى يتلاءم ما يطبق من مبادئ سياسية فى السودان ، مع ما يجرى فى البلدان الخاضعة للنفوذ البريطانى عن طريق الحماية أو الاستعمار . وفيما عدا التعاون والتوجيه من قِبَل المعتمد البريطانى فى مصر وحكومة بريطانيا ، فالحاكم العام له حرية التصرف داخل البلاد ، ويتمتع المدير بسلطات واسعة كحاكم مقاطعة منحتها إياه السلطة المركزية ، واقتراحاته فيما يتعلق بالمالية والأمن العام تلقى أذناً صاغية فى الخرطوم ، ولا تزعجه الحكومة المركزية بتدخلها فى شؤون مديريته .

مفتش المركز

وقد تغيرت صفة المفتش عما تركها عليه كتشنر . فبعد أن كان عمله التنقل بين مأموريات عدة ، وبينما كان عددهم لا يتجاوز الاثنين فى كل مديرية ، وبينما كان المأمور يتصل رأساً برئاسة المديرية ، تكاثر عددهم بالتدريج واستقروا فى إدارة المركز ، وأصبح المأمور مسئولا لديهم ، وبذا أصبح المفتش دعامة الإدارة فهو قاضى المنطقة ورئيس بوليسها ، وهو المسجل والمسّاح والخبير الزراعى والاقتصادى ، ومدير المواصلات والأشغال ، وهو منفذ القوانين الصحية وهو خبير التربية والتعليم ، وبالاختصار أصبح المفتّش صورة مصغرة لنواحى الحكومة المتعددة فى مركزه . وقد اكتسب بما له من سلطات ونفوذ على حياة الأهالى أينما يتجهون الاحترام المشوب بالرهبة والخوف . فهو قد يستطيع أن يجعل لهم الحياة جحيماً أو نعيماً . وهو الذى ينتزع احترامهم أو يثير سخطهم وتذمرهم بما يعاملهم به .

المصالح الحكومية

وإذا كان للحاكم العام أن يكون المرجع الأخير فيما يتعلق بإدارة شؤون السودان التى ظلت تتشعب بازدياد ، كان عليه أن يستخدم خبراء يساعدونه فى الشؤون المالية والقضائية والإدارية . فلابد من سكرتير للمالية وآخر للحقانية وثالث للإدارة ولا بد من الإشراف على المديريات فيما يتعلق بهذه الشؤون عن طريق هؤلاء السكرتيرين ، كل فى دائرة اختصاصه ولابد من خبراء يشرفون على المصالح الفنية من مواصلات وتلغراف وبريد وزراعة ، ومساحة وأشغال وتعليم وصحة ، حتى تأتى إصلاحاته نتيجة لدراسة وإشراف فنيين وحتى يباشرون عنه أعمال الروتين العادية . ورؤساء تلك المصالح يتعاونون مع المديرين بصفتهم الأداة التنفيذية للحكومة . وعلاقاتهم هى علاقة الأنداد الذين يعملون فى وفاق ووئام ، لا علاقة رئيس ومرءوس . أما السكرتيرون الثلاثة فإنهم يباشرون أعمالهم فى دائرة اختصاصهم كرؤساء على المديرين . وظل سلاطين باشا إلى قيام الحرب العظمى الأولى يباشر عمله كمفتش عام له الإشراف خاصة على شؤون الوطنيين بما له من سابق معرفة وخبرة بالسودان وأهله .

الإدارة تعاون بين المختصين

والصفة البارزة فى تلك الأداة الإدارية هى العمل بالتفاهم والوفاق ، لا تطبيقاً للوائح وقوانين توزع الاختصاصات ، وتجعل لها حدوداً وحواجز ، فمدير المعارف مثلا يفتح مدارسه ويبسط سياسته التعليمية بمعاونة واتحاد مدير المديرية وكل منهما يرى ضرورة الآخر . فالبرامج وتدريب المدرسين والأدوات اللازمة للمدرسة من شأن مدير المعارف ومدير المديرية يقترح المكان الذى تنشأ فيه المدرسة وربما يقوم ببنائها وينشر الدعاية لها ويشرف عليها من وجهة الإدارة والسياسة . كل ذلك يتم دون أن يتقيد كل منهما بلائحة تبين الاختصاصات . ومثل ذلك يتم بين رؤساء المصالح الأخرى والمديرين ، وإذا كان لهذا النظام حسناته من حيث مساهمة الجميع فى بسط رواق المدنية والعمران فى البلاد بتعاون ومساندة ، إلا أنه قد يعطى للمدير نفوذاً وسلطة فى مسائل فنية تعرقل سير العمران والرفاهية إذا أسىء استعمالها . فإذا أصرّ المدير على أن لا تنشأ مدرسة ابتدائية أو ألا يقام مستشفى فقد لا يتم ذلك ، وتحرم مدينة من أعمال عمرانية لا شك فى فائدتها .

محاولة ونجت الحكم بمفرده

بالرغم من التعليمات الواضحة للمشاورة مع معتمد بريطانيا فى مصر فإن ونجت حاول أن يدير السودان حسب ظاهر الاتفاقية التى تعطيه حكماً مطلقاً . ففى سنة ١٩٠٤ اقترح وضع ١٠ ٪ عوائد جمركية لتصدير الماشية لمصر . وأثار هذا غضب كرومر وأشار على ونجت بأن يفهم هو ومعاونوه أن السودان فى مسائله المالية مرتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً وأن السبب الوحيد لرفع العلم الإنجليزى مع العلم المصرى وتعيين حاكم عام للسودان هو تفادى إشكالات الامتيازات الأجنبية وبقية تعقيدات المسائل الدولية . فكما هى عليه الحالة فى الموسيقى فالذى يدفع له الحق فى اختيار اللحن . وفى خطاب بعث به كرومر لوزير خارجية بريطانيا عندما هم بمغادرة مصر فى سنة ١٩٠٧ أشار بأنه لاحظ على ونجت نزعة استقلالية لحكم السودان ولم يتفهم المبادئ الرئيسية التى توجه سياسته ويجهل المسائل المالية كجهل الأطفال .

كل هذا بالرغم من أن أعماله جيدة وعلاقته حسنة مع ضباطه . وكان هو (كرومر) يراقب وينصح ويرشد ويرفض إذا استدعى الحال ولكنه يخاف من أن يرجع ونجت إلى نزعته الاستقلالية فتفكيره محلى فى هذه الناحية ويرى أن تعنى وزارة الخارجية بمسائل السودان أكثر مما كانت تفعل وهو بدوره سيلفت نظر خليفته سير ألدون فورست . وعندما أنشئ مجلس الحاكم العام فى سنة ١٩١٠ أشارت المذكرة التى أرفقت مع اللائحة من السير ألدون فورست إلى الرقابة التى كانت للمعتمد البريطانى فى مصر على إدارة السودان ووضحت كل النقاط التى يجب الاستشارة المبدئية فيها والتى ترسل للعلم بها فقط .

وهكذا ظل السير ريجلند ونجت يدير الدفة بمعاونة ملاحيه وظلت الإدارة تتشعب مناحيها وتتزايد أعمالها وظل يتصل بالسكرتيرين ورؤساء المصالح اتصالات غير رسمية ، كل فيما يتعلق بعمله إلى أن رؤى إنشاء مجلس من رؤساء الإدارات الهامة ليشارك الحاكم العام فى حمل عبء الإدارة الذى أصبح يثقل باضطراد ، ولتخضع تلك المشاورات والاتصالات إلى نظام مكفول بقانون . وبعد موافقة الحكومتين صدرت لائحة إنشاء المجلس فى سنة ١٩١٠ :

مجلس الحاكم العام سنة ١٩١٠

لم يكن الغرض من إنشاء المجلس الحد من سلطة الحاكم العام بموجب الاتفاقية ، فقد ترك له العمل بقرارات المجلس ، ولكنه ليعاون ويشاركه المسئولية . ويدخل نوعاً من التنظيم فى مناقشة السياسة العامة مع معاونيه فى النواحى المختلفة . وإذا كان لابد من استخلاص النواحى التى يمارس المجلس عمله فيها كصاحب سلطة والنواحى التى يكون فيها رأيه استشارياً لقلنا إن سن القوانين والموافقة على الميزانية من أعمال المجلس التى يشترك فيها مع الحاكم العام ، وأصبحت القوانين بعد سنة ١٩١٠ تصدر من « الحاكم العام فى مجلسه » . وإذا رأى الحاكم مخالفة مجلسه فيما وافق عليه الأعضاء بالأغلبية فله أن يفعل ذلك لأسباب يدونها . أما ما يتعلق بالسياسة العامة فرأى المجلس استشارى . ولكن لا يفوتنا أنه إذا رأى الحاكم اعتراضات قوية على سياسة ما ، قد يجد

من العبث الإصرار عليها إذ الأعضاء هم الأيادى التي يوكل إليها أمر التنفيذ ولعله يلجأ فيما لوكان متمسكاً بها مع معارضة الأغلبية إلى التخلص منهم وتعيين غيرهم وذلك فى حدود سلطته . أما شؤون الدفاع والتعيين فى الوظائف العليا فلم تمسها لائحة المجلس إلا إذا رأى الحاكم الاستئناس برأى الأعضاء .

تقضى لائحة المجلس بأن يكون السكرتاريون الثلاثة والمفتش العام أعضاء بحكم وظائفهم ، ويضاف إليهم آخرون يتراوح عددهم ما بين اثنين وأربعة (وقد أصبحوا خمسة فيما بعد) وتمتد عضويتهم إلى ثلاث سنين قابلة للتجديد . وقد خفت قيود الرقابة المالية من مصر بإنشاء المجلس إذ كان عليه مراقبة الشؤون المالية فى الصرف والإيراد طبقاً للقوانين واللوائح التى وضعت للتنظيم المالى للبلاد . وبتشعب النواحى الإدارية وكثرة الأعمال العادية تناقصت المراقبة التعاونية المفروضة من قصر الدوبارة وخاصة عندما غادر كرومر البلاد .

أما الخطوط الرئيسية للسياسة ، وأما المشروعات العمرانية الكبيرة فلابد من العمل بها على ضوء ما ينتج من مناقشتها وبحثها مع المعتمد البريطانى فى مصر وربما مع الحكومة البريطانية .

المواصلات

خلفت حملات الفتح خطاً حديدياً ما بين حلفا وعطبرة . وامتد هذا الخط الحربى إلى الخرطوم بحرى فى أواخر سنة ١٨٩٩ ، وشبكة من المواصلات التلغرافية جعلت اتصال السودان بالخارج وبين أجزائه أمراً ميسوراً . ورؤى منذ البداية أنه لا يرجى للسودان تقدم اقتصادى من حيث الإنتاج والتجارة إلا بالمواصلات الحديدية وخاصة اتصال النيل بالبحر الأحمر إما عن طريق بربر سواكن أو بطريق طويل ولكنه فى الوقت نفسه يمر بأقاليم زراعية لها أهميتها وهو من الخرطوم جنوباً محاذياً للشاطئ الشرقى من النيل الأزرق إلى أبى حراز ثم إلى القضارف فكسلا فسواكن . وأخيراً قر الرأى على العمل فى خط الاتصال المباشر القصير وهو عطبرة – سواكن وافتتح رسمياً فى سنة ١٩٠٦ ولكن حلت بورت سودان محل سواكن كميناء وبهذا تم الاتصال التام

السريع مع العالم الخارجى ، وقد صادف نقداً من بعض الجهات فى مصر إذ رأوا فيه توهيناً لصلات مصر بالسودان وتحويلا لتجارة السودان التى كان طريقها الوحيد بواسطة مصر . غير أن كرومر يرى فيه خلق أسواق أخرى جديدة للتجارة السودانية وانتعاشاً لحالته الاقتصادية لا يصل إليها إلا بهذا الطريق الحيوى .

وقد واجهت الحكومة أوبالأحرى كرومر مشكلة نفقات توسع المواصلات بالسكة الحديد ، فهى كثيرة النفقات ولا أمل البتة فى ميزانية حكومة السودان بتحملها . ولذا قد دارت فى الرءوس فكرة بيع الخطوط القائمة لشركة على أن يعهد إليها مدّ الخطوط الأخرى ، أو ترك ما تم توصيله للحكومة وقيام الشركة بما يجدّ منها . ولم يكن كرومر متحمساً للشركات . وصادف أن الحكومة المصرية آنذاك اعترضت أيضاً على الشركات . وكان عليها إيجاد المال اللازم عن طريق المنحة أو الإقراض للقيام بتلك الأعمال العمرانية وفعلا أوجدت الحكومة المصرية المال اللازم للإنفاق منه على الخطوط الجديدة .

دراسة مشروعات الرى

وإذا كان للسودان أن يتصل بالعالم أولا فما هى المشروعات العامة التى تزيد فى إنتاجه لاستثمار ذلك الاتصال ؟ وكان طبيعياً أن تتجه الأنظار للزراعة وإلى استغلال مياه النيل ، وكان على ولاة الأمور وضع سياسة مائية موحدة بين مصر والسودان ، وظل المهندسون الإنجليز الذين يعملون فى خدمة الحكومة المصرية يترددون على السودان لدراسة النيل وروافده ومنابعه يقدّرون مايجلبه من مياه فى أشهر السنة المختلفة ، ويقدرون حاجة مصر الحالية والمستقبلة ؛ ويدرسون ويضعون الخطط للمشروعات التى تستغل بها مياه النيل ، بخزنها وتوزيعها فى وقت الحاجة مع تقدير دقيق لنفقاتها وبيان أسبقيتها :

وكانت الخطة فيما يختص بتلك المشروعات استيفاء حاجة مصر أولا ، ثم استخدام ما يفيض منها لحاجة السودان ، وعلى كل حال فالسودان لا يستطع إقامة مشروعات كبيرة لحقبة من الزمن نظراً لقلة الأيدى العاملة وسكانه

يقدرون فى سنة ١٩٠٣ بـ ١,٧٨٠,٥٠٠ . وهذا قادهم بطبيعة الحال إلى الهجرة وتشجيعها ، وكان الرأى السائد أن مصر هى المصدر الطبيعى لزيادة السكان ، فهى فى طريقها إلى الامتلاء والإفاضة ، والسودان لايزال خالياً ، وسوف يظل كذلك إلى زمن بعيد . واقترح أحد الأمريكان آنذاك أن يؤتى بزنوج أمريكا لتعمير البلاد وزيادة الأيدى العاملة فيه ولم يعمل بإحدى الوسيلتين . فلا زنوج أمريكا هاجروا منها ولا الفلاح المصرى غادر قريته ليبنى حياة جديدة أو سع رحابا .

المشروعات بعد الدراسة

وإذا كان لحكومة السودان وقتئذ أن تشجع الزراعة المطرية واستخدام الآلات الرافعة البخارية للأفراد والشركات ، وأن تدخل زراعة القطن وتشجعها بتوزيع التقاوى دون مقابل ، إلا أنها فى نفس الوقت لابد لها من دراسة احتمالات المستقبل ووضع خطة للتوسع الزراعى تتناسق مع السياسة المائية العامة التى تركزت بعد دراسة الخبراء ، فقد روى أن تحفر قناة فى منطقة السدود حتى تحفظ المياه التى تضيع نتيجة امتصاص الأعشاب والأرض لها وتبخرها ، لانتشارها فى مساحات متسعة ، وكذلك مشروعات تخزين على بحيرة البرت وتانا . فإذ ما تمت هذه أخذت مصر حاجتها وفاض كثير يكفى لأمد بعيد لتوسع السودان الزراعى الطبيعى . والعقبات فى سبيل تنفيذ هذه المشروعات هى مالية أولا لما تتطلبه من نفقات باهظة ، وسياسية ثانياً خاصة فيما يتعلق ببحيرة تانا .

مشروع الجزيرة

ولكن حتى قبل قيام تلك المشروعات قد يأخذ السودان قدراً كافياً من المياه إبان امتلاء النيل . وتركز أخيراً مشروع للرى على النحو الآتى . يقام سد فى المنطقة ما بين الرصيرص وسنار ، وتخرج من ورائه ترعتان إحداهما بالبر الشرقى لتروى منطقة شرق النيل الأزرق والأخرى بالبر الغربى لتروى منطقة الجزيرة . وإذا كان لهذا المشروع ألا يأخذ قطرة مما كان يجرى لمصر ، ففى زمن التحاريق يقف العمل به فى السودان . ويستطيع السودان زراعة القمح

فى الزمن المسموح له فيه بالرى ، دون الإضرار بصالح مصر ، وسوف يجد له سوقاً فى بلاد العرب وربما يزاحم القمح الهندى فى الأسواق الأوروبية .

تجارب القطن

وأثناء ما كانت أبحاث الرى تأخذ هذا الاتجاه كانت تجارب القطن تبشر بمستقبل باهر لهذا المحصول فى الأراضى السودانية . وأعيد نظر المشروع على هذا الضوء ، وتقرر إقامة السد ولكنه رؤى ألا بد من خزن طالما أن المحصول الرئيسى سيكون القطن ، نظراً لحاجته لمياه أكثر ومدة أطول . ولابد تمهيداً لذلك القيام بعمل المساحات والتسجيل لأراضى الجزيرة . ورؤى أيضاً حصر الزراعة فى الجزيرة بترعة واحدة . وقاد هذا بدوره إلى اتجاه الخطوط الحديدية الجديدة . فكان لزاماً أن يجرى خط وسط سهل الجزيرة لنقل محصولاتها . وكان لابد من عمل قنطرة للخط على النيل الأزرق فى الخرطوم .

وقامت جمعية زارعى القطن فى انجلترا بمجهود لتعضيد مشروع زراعة القطن فى الجزيرة . وقابل وفد كبير منهم رئيس الوزراء وبسط له أهمية السودان بعد نجاح تجارب القطن فيه ، كمورد لأجود أنواع القطن . وهذا التأييد من تلك الجماعة القوية أدى إلى أن تضمن الحكومة البريطانية قرضاً بثلاثة ملايين جنيه يقدم لحكومة السودان لعمل السد والخزان وحفر الترع والقنالات . وتم القرض وشرعت الحكومة فى العمل فعلا فى خزان سنار إلا أن الحرب العالمية أوقفت العمل إلى أن استعيد بعد انتهائها .

ومما دعا إلى الاهتمام بهذا الخط وضرورة عمله زيادة على الجزيرة ما اكتشف فى كردفان من حاصلات وخيرات وفيرة تعوزها الأسواق وخاصة الصمغ ، فامتد الخط فى الجزيرة من الخرطوم إلى سنار ومنها اتجه غرباً إلى الأبيض وتم افتتاحه رسمياً فى سنة ١٩١٢ . ووجد صمغ كردفان طريقه إلى الأسواق الأوربية والأمريكية ونال شهرة يتمتع بها إلى وقتنا الحاضر . وقد رؤى أن خط حلفا — كرمه لا يقوم بنفقاته فاستعيض عنه بخط من أبى حمد إلى كريمة يربط طرف دنقلا ببقية أنحاء السودان : أما الجنوب فالبواخر النيلية تصله

بالشمال بانتظام ولو أنه فى بطء بعد تمزيق جزر السدود التى تعترض المجرى .

الضرائب

ومثلما اتخذت الوسائل لتنمية المرافق الاقتصادية حتى يزيد الدخل الأهلى ودخل الحكومة ، فقد روعى من الناحية الأخرى تنظيم الضرائب بطريقة عادلة لا ترهق كاهل السكان ولا تدع وسيلة لهم للهرب منها . وقد أعجب كرومر بضرائب المهدية وهى الزكاة الشرعية . فهى ضئيلة ولا ترهق المنتج . وتوضع على المحصول لا على الأرض ، وتجمع عيناً عندما يتعذر إيجاد السوق . فالعشر فى الزراعات المطرية قد جُعل الأساس لضريبة الحكومة ، غير أن المزارع وهو مسلم لا يكتفى بما يخرجه للحكومة بل عليه إخراج العشر وتوزيعه على ذوى الحق حسب الأصول الشرعية ، بينما فى المهدية يكتفى بالعشر الذى يذهب لبيت مال المسلمين . وما وضع على السواقى وأطيان الجزائر والجروف ما كان مرهقاً ، وكذلك الحال فى ضريبة القطعان . والنزعة الغالبة هى تفادى كل ما من شأنه أن يثير سخط السكان بتطلب أعباء مالية ، وكل ذلك حدد بقوانين يسير على هديها الموظفون الموكول إليهم جمعها . وفيما يلى جدول لميزانية حكومة السودان إلى سنة ١٩٠٢ بالجنيهات المصرية :

السنة	الدخل	المصروفات
١٨٩٩	١٢٦,٥٦٩	٢٣٠,٢٣٨
١٩٠٠	١٥٦,٨٨٨	٣٣١,٩١٨
١٩٠١	٢٤٢,٣٠٩	٤٥٧,٣٣٥
١٩٠٢	٢٧٠,٢٢٦	٥١٦,٩٤٥

والفرق فى كل هذه الأحوال يغطى من الخزينة المصرية زيادة على ما تتحمله من نفقات الدفاع بواسطة الجيش المصرى . وقد أثار هذا نقد بعض الهيئات فى مصر إذ رأوا أن الحكومة الإنجليزية ترمى إلى تضحية المصالح المصرية وخزانتها فى سبيل السودان الذى لا يشتركون فى حكمه إلا اسمياً ،

وليس لهم أى نفوذ أو مساهمة فى شؤونه ، بينما أن الإنجليز وهم الذين لا يدفعون شيئاً لتنمية مرافقه ، يستأثرون بكل ما فيه ويهيمنون على مصائره ، وشؤونه. ويلاحظ كرومر كل نقد يوجه فى هذا الصدد ويرد عليه فى تقاريره السنوية وتتلخص حججه وبراهينه فى الآتى : —

أما فادته مصر حسب رأى كرومر

أمرت مصر بإخلاء السودان فى الثورة المهدية وعدّ الوطنيون من المصريين ذلك خسارة عظيمة أصابت الجسم المصرى ؛ فهى لا تعيش بغير السودان ، وقد رجع الجسم المقتطع الآن ، وأنفقت مصر فى سبيله ما أنفقت : ولا مراء أنه لازم لها وخاصة من حيث المياه . ويتفق كرومر معهم أن من يسيطر على النيل الأعلى وروافده تكون مصر تحت رحمته ، وباستعادة السودان أمنت مصر هذه الناحية واستطاعت أن تضع خطط مشروعاتها فى الرى بكل حرّية واطمئنان ، وأمنت حدودها الجنوبية التى كانت عرضة للخطر دائماً . وما من مشروع للرى يقام فى السودان إلا بعد أن يثبت بالأرقام عدم إضراره بمصالح مصر الحيوية ، وحقها الأول فى مياه النيل . ومن هذه الناحية يرى كرومر أن السودان ضُحى به فى صالح مصر لا العكس . وعليه والحالة هذه فما صُرف من أموال أتى ثماره مضاعفة ، وأقام صرحاً للعمران فى السودان كفيل بتوطيد الحالة فى تلك البلاد حتى لا تعود المصالح المصرية مهددة فى المستقبل .

رد المصريين

والمصريون من ناحيتهم لا ينظرون إلى الناحية المادية بل إلى السياسية ، فهم يرون أن الشريك الثانى استأثر بشئون السودان وترك لهم الإمضاء الموجود فى ذيل العقد ، وأنهم حين ينظرون إلى المستقبل يرون السياسة تتجه إلى إقصائهم من السودان تدريجياً ، وتدعيم النفوذ الإنجليزى . وتظل الشركة وهمية والعمل بيد الإنجليز بالفعل . ونتيجة لذلك يرون أن انجلترا بمركزها فى السودان تستطيع إخضاع مصر لمشيئتها ، طالما أنها المسيطرة على أعالى النيل ، وأن منشآت ريها فى السودان معرضة للخطر ؛ وأنهم لا يستكثرون مالا إذا ما كانوا فى مثل مركزهم قبل الثورة المهدية ، ولكن المقارنة بين العهدين غير عادلة .

مؤسسة تعليمية لتخليد ذكرى غوردون

كانت ومضة من ومضات العبقرية حين فكر كتشنر فى تخليد غوردون بمؤسسة تعليمية تحمل اسمه فى الخرطوم . ولعلها كانت تكفيراً للخطايا التى اتهم بها كتشنر فى محاولته الانتقام لغوردون ، ومهما كان من أمر فإن التفكير فى أمر التعليم بعد موقعة أم درمان مباشرة اتجاه صحيح . حمل معه الفكرة حينما ذهب يقضى إجازته فى إنجلترا فى شتاء سنتى ١٨٩٨ — ١٨٩٩ وكان الشعب البريطانى متحفزاً ومستعداً للاكتتاب لمكانة كتشنر فى قلوب الشعب آنذاك ، وللجرح العميق الذى لا يزال دامياً فى قلوبهم حينما علموا بموت غوردون . ولهذا لا غرابة فى أن الاستجابة لنداء كتشنر لتخليد ذكرى غوردون كانت سريعة ومخلصة . فقد اجتمع لديه مايزيد على المائة ألف جنيه فى وقت قصير . وسرعان ما وضعت التصميمات اللازمة للبناء ، وسرعان ما بدئ بوضع الأساس . وأثناء ذلك ترك أمر التعليم فى تلك المؤسسة لصاحب الفكرة فماذا كان يود لها ؟ يرى أن تكون الناحية العملية المفيدة هى الغالبة ، وأن تكون اللغة العربية صاحبة المكان الأول . ويرى أن تكون فى البداية على غرار مدارس أسوان ووادى حلفا . ويرى كرومر ألا تتخذ خطوة ثانية إلا بعد استشارة الخبراء فى التربية والتعليم .

تأسيس المدارس الأخرى

أما فى مراحل التعليم الأولى فقد رأت الحكومة تأسيس مدارس أولية فى المدن الكبيرة لتكون نموذجا لما سوف تكون عليه الكتاتيب . ولا بد من الرقابة عليها وعلى غيرها بتفتيش منتظم . واتخذت الخطوات لإنشاء مدرسة ابتدائية فى أم درمان تقام على غرارها مؤسسات تعليمية فى المدن الأخرى ، وتركزت آراء كتشنر فى كلية غوردون التذكارية بما يأتى : « ورأيى الخاص هو أن تصرف أموال الكلية على النهوض بالتعليم الابتدائى وسيأتى التعليم العالى فيما بعد » .

سياسة مدير المعارف العامة

وكان أن أوكل ونجت فى أول الأمر شؤون التعليم للمستر بونهام كارتر سكرتيره القضائى ، حتى إذا كان نوفمبر من سنة ١٩٠٠ حل بالخرطوم المستر جيمس كرى مديراً للمعارف ، واستلم ما كون من نواة فى شؤون التعليم . وفى الحال وضع خطته لما يريده من تعليم للبلاد أو ما يتوخاه من أغراض له . فرأى

فقر البلاد المدقع وأن الأداة الإدارية فيها لاتسير لولا ما تقدمه مصر من معونة فالتعليم يجب أن يساير تقدم النواحى الاقتصادية الأخرى فى بطء وأن تقصر أغراضه فى أول الأمر إلى ما يعود على البلاد بانتعاش اقتصادى ، وما يقود إلى تيسير الأداة الحكومية . وعلى ذلك فأغراضه يجب أن تكون خلق طبقة من مهرة الصناع بين الوطنيين أولا ، ونشر التعليم بين العامة بالقدر الذى يجعلهم يفهمون الآلة التى تدير شؤونهم ثانياً ، وتدريب طبقة من أبناء البلاد تساهم فى إدارة دفة الحكومة فى الوظائف الصغيرة ثالثاً .

واتخذت خطوات لتنفيذ تلك الأغراض ، إذ أنشئت ورش صناعية فى ترسانة الوابورات النيلية ، وفى حلفا للسكة الحديدية ، والعمل قائم بتشييد مدارس أولية نموذجية فى الخرطوم وبربر وأم درمان ودنقلا وود مدنى وحلفا وسواكن ، وسوف تمتد أمثال تلك المدارس إلى المدن الأخرى ، ويقوم بالتدريس فيها أساتذة مصريون أكفاء ولتدريب طبقة من الموظفين لابد من إقامة مدارس ابتدائية أخرى زيادة على حلفا وسواكن ومدرسة أم درمان الجديدة ، فالحاجة ملحة لهم فى الجيش والخدمة المدنية ؛ وفوق ذلك فالموظفون والضباط المصريون يريدون تعليما لأبنائهم . ولقد تبين للمستركوى أن الأهالى فى المدن يقدرون ما تقوم به الحكومة من تعليم أبنائهم .

تدريب المدرسين

وشُغل المستركرى منذ البداية بتدريب المدرسين سواء للمدارس الأولية أو الابتدائية ، فأنشأ مدرسة لتخريج معلمى المدارس الأولية فى أم درمان . وأثناء بحثه ووضع خططه لمعلمى التعليم الابتدائى اتفق مع صديقه المستر بونهام كارتر . وكان يسكن معه فى منزل واحد أن ينشأ قسم للمعلمين والقضاة الشرعيين ، لأن توسع المحاكم الشرعية يستدعى تدريب قضاة لهذا الغرض . فأنشئ هذا القسم فى أم درمان أولا إلى أن تمت مبانى الكلية حيث انتقل إلى الخرطوم .

وبدأ المستركرى بتنفيذ برنامجه فيما يختص بإنشاء الكتاتيب الراقية بالتدريج

فى المدن الكبيرة . وفى أكتوبر سنة ١٩٠١ أنشئت مدرسة أم درمان وهذه المدارس تتخذ مناهج الدراسة الابتدائية فى مصر أساساً لدراستها مع تحوير يسيط يلائم البيئة السودانية . ولقد تبين للمستر كرى الصعوبات المالية التى تقوم أمام انتشار التعليم ورأى فى أول الأمر أن تكون المدارس الأولية (الكتاتيب) الحكومية قليلة العدد كنموذج تنسج على منواله المدارس الأهلية الخصوصية وتقدم لها إعانات حكومية .

وعندما طاف المدير فى أرجاء البلاد تأيدت نظريته لضرورة تخريج أفواج من السودانيين الذين يتلقون تعليمهم فى المدارس الابتدائية ، لعدم كفاءة من يشغلون الوظائف من غير السودانيين ، ولارتفاع أجورهم نسبياً ، وعدم ملاءمة الطقس لهم وملاءمتهم له . وأخيرا إذا كانت مصر هى المصدر الرئيسى الذى يجب إمداد السودان بتلك الطبقة من الموظفين فهى نفسها فى أمس الحاجة لهم ، وبعضهم قد يتذمر من وجوده هنا . والطبقات التى تتمتع بالكفاءة والخلق المستقيم تجد السبيل ممهداً فى مصر ، ولا ترى حاجة إلى الخدمة فى السودان . وهكذا كان يشرح المستر كرى الحالة كما شاهدها وأحسها .

مجلس أمناء الكلية

ولقد تركنا الكلية حين لبى الشعب البريطانى نداء كتشنر ، والصورة المختصرة التى رآها صاحب الفكرة لمؤسسته ؛ وأبدى الشعب تحمساً لذكرى غوردون حتى أن الملكة فكتوريا اكتتبت بنفسها ، وقبلت عن طيب خاطر أن تكون راعية المؤسسة الجديدة ؛ وأبدى اللورد سلسبرى رئيس الوزراء تعضيده للمشروع نيابة عن الحكومة . وفى يناير سنة ١٨٩٩ اجتمع مجلس كبير فى بنك انجلترا لتكوين لجنة تنفيذية تشرف على تنفيذ المشروع ووصفه اللورد سلسبرى فى ذلك الاجتماع بأنه مشروع « فرضته علينا التزاماتنا الإمبراطورية . فهو محاولة لإزالة ما بين الشعوب من حواجز وإقامة رابطة من المعاونة الفكرية ونشر الثقافة الإنسانية » . وأعد مهندس صاحب السمو خديوى مصر الرسومات لمبنى الكلية ووافق عليها اللورد كتشنر . وفى يناير سنة ١٩٠٠ وضع اللورد

كرومر الحجر الأساسى باسم الملكة فكتوريا وقال فى أثناء خطابه إن الكلية لا ترتبط بدين خاص وأنها مفتوحة للجميع ، وسيكون التعليم فيها باللغة العربية على قدر الإمكان .

وفى تقريره لسنة ١٩٠٠ تعرّض المستر كرى لاستجابة الأهالى لهذا النوع من التعليم الذى فُرض عليهم فرضاً حسب رأيه ، واندهش من تسابق الناس لإدخال أبنائهم المدارس وازدحمت الفصول بالتلاميذ وخاصة فى المدن الكبيرة ، ولعلهم عرفوا مزايا التعليم من الخمس مدارس التى أنشأها إسماعيل قبل الثورة المهدية .

هدايا أخرى لكلية غوردون

ولم تقتصر التبرعات للكلية على الاكتتابات المالية بل توالت الهدايا . فمنها آلة بخارية لرفع المياه ومطبعة وماكينة خياطة وعُدد وآلات أخرى كثيرة ، وخرائط وكتب . وأكبر هدية هى التى قدمها المستر ولكم من عُدد كاملة لمعامل بكتريولوجية وتحليلية ، وكذلك وهب المستر وليم ماذرعِدداً وآلات لإنشاء مدرسة صناعية .

وفى أكتوبر سنة ١٩٠٢ تمت المبانى وانتقلت الأقسام التى كانت تتلقى الدراسة فى أم درمان والخرطوم إلى مبانى المؤسسة التذكارية ، وكانت تضم آنذاك مدرسة ابتدائية ومدرسة للمعلمين والقضاة الشرعيين ومدرسة صناعية ، ومعملا للتحاليل الكيماوية والبكتريولوجية .

إنشاء قسم ثانوى

ولم يشأ أن يكون المستر كرى وراء التقدم المادى والاقتصادى فى مشروعاته ، فما أن علم بما تزمعه الحكومة من أعمال هندسية للرى وما يتبع ذلك من أعمال مساحة وتسجيل ، حتى بدأ يفكر فى إنشاء مدرسة ثانوية كجزء من كلية غوردون لتخريج النوع الذى يصلح لتلك الأعمال . ورأى أيضاً وهو يسعى لتوسع التعليم الابتدائى أن لابد من قسم أدبى يتخرج منه مدرسون يعرفون اللغة الإنجليزية . ولكن أعمال الهندسة والمساحة تستدعى المبادرة فأنشأ ذلك القسم وتخرج منه رعيل التحق بمصلحة المساحة فى سنة ١٩٠٧ وفريق آخر

التحق بالرى والمصلحة القضائية فى سنة ١٩٠٩ . وأخرج القسم الأدبى أول فوج أكمل دراسته الثانوية للتدريس فى المدارس الابتدائية سنة ١٩١٢ .

ضرائب خاصة للتعليم الأولى

وبالرغم من الطلب المتزايد للتعليم والأولى خاصة وبالرغم من نيات المستر كرى الطيبة نحو نشر ذلك النوع منه ، فإن المال كان عقبة كأداء آنذاك ، فالبلاد لا تزال مواردها ضئيلة ، وعجز الميزانية تسدده الحكومة المصرية ، وأعمال الإدارة والأمن العام لها المكان الأول والتعليم يأتى فى المرتبة الثانية وقتذاك . ولكن لم يعدم المستر كرى الوسيلة التى تحل هذه العقدة فقد فرضت ضريبة خاصة للتعليم يساهم فيها كل من يدفع ضريبة للحكومة . وبذا تسنى للمدير إنشاء عدد من المدارس الأولية فى السنين القليلة التى سبقت إشعال نيران الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ . وحينما غادر البلاد فى تلك السنة ترك وراءه كلية غوردون بأقسامها الثانوى والابتدائى والصناعى وتدريب المدرسين والقضاة الشرعيين ، وخمساً من المدارس الابتدائية الأخرى ، وعدداً من المدارس الأولية ومدرسة حربية . وبدأت الإدارة الحكومية تدعم بخريجى هذه المدارس فالتحق الخريجون بمصالح الحكومة فى وظائف القضاء الشرعى والتدريس والهندسة والمساحة والوظائف الكتابية والجيش . ولا نستطيع اختتام معالجتنا لتأسيس التعليم وتطوره فى السودان دون الإشارة إلى الدور البارز المشرف الذى لعبه أحمد هدايت بك حيث كان المشير الأول للمستر كرى . وكذلك فضل الأساتذة المصريين الذين غرسوا الثقافة العربية الإسلامية .

السودان والحرب العظمى

ثورات محلية

كان غرض حكومة السودان التى تألفت قانونياً فى يناير سنة ١٨٩٩ تهدئة الأحوال ونشر لواء الأمن العام والعدالة . وكانت توجس خيفة من كل الحركات الدينية ولذا راقبت فى أول الأمر تجمهر الدراويش أتباع الطرق الصوفية وحذّرت بعض مشائخها وقام عدد ممن ادعى رسالة دينية ضد أعداء الدين . فنى سنة ١٩٠٣ قام شخص يدعى الشريف محمد الأمين من مهاجرى العرب ، ساح فى الأقطار الإسلامية ومر بالسودان فى طريقه للحج ، وأخيراً رجع من مكة بوثيقة تثبت انتسابه لآل البيت ؛ وبأخرى كنداء لقبائل السودان بتأييده وشد أزره . وعندما حط رحاله فى جبال تقلى جهر بدعوته وتبعه عدد من الناس . ولما ترامى إلى سمع الحكومة أمره قاد ماهون باشا مدير كردفان حملة من الخرطوم وكان فى طريقه للإجازة وداهم الشريف فى قرية بالقرب من دار تقلى ، وقُتِل من قاوم من أتباعه وآسر الباقون بما فيهم زعيم الحركة نفسه ، فاقتيد للأبيض وهناك أعدم شنقاً . وقد دلت التحريات التى قامت بها الحكومة بعد الحادثة أن الدعوة كانت عظيمة الخطر وأنه لو تُرِك الأمر لها لمدة شهرين فقط لانضوى تحت لوائه عدد ضخم من رجال القبائل .

وفى سنة ١٩٠٤ قام شخص آخر فى ضواحى سنجة وادّعى أنه نبىّ الله عيسى وقطع خط التلغراف ، وتبعه عدد قليل من الناس ولكن الجيش أخمد حركته فى مهدها . وفى سنة ١٩٠٦ قام السكان فى تالودى بثورة كان ضحيتها عدد من البوليس والجند والتجار وعلى رأسهم مأمور تالودى أبو رفاس . ولو أن الأسباب المباشرة لهذه الحركة كانت شخصية حسب ما تروى إلا أنها تدل على استهانة الأهالى بسلطة الحكومة وعدم انصياعهم لأوامرها . وفى سنة ١٩٠٧ قبض على رجل من أهالى برقو فى القضارف ادعى أنه عيسى ولكنه لم يبشر بدعوته ولم ينضو أناس تحت لوائه . وادعى شخص آخر فى مدنى نفس الدعوة غير أنه رجع إلى صوابه فى الحال عندما قبض عليه .

ثورة ود حبوبة

وفى سنة ١٩٠٨ قامت ثورة عبد القادر ود حبوبة فى الحلاوين فى الجزيرة ورئيس الحركة هو عبد القادر بن محمد إمام المشهور بود حبوبة . ومحمد إمام والد صاحب الحركة من أشهر مشاهير القبيلة وعُرِف بأصالة الرأى وبعد النظر . أما عبد القادر فقد انخرط فى سلك الأنصار عندما امتدت الثورة المهدية إلى الحلاوين وسافر مجاهداً فى جيوش الأمير عبد الرحمن النجومى . وبعد موقعة توشكى كان ضمن الأسرى فى مصر ، وأخيراً سمح له بالعودة إلى بلاده .

واشتهر عبد القادر بين إخوانه بإخلاصه الشديد للمهدية ، وهذا ما جلب العداء والتباغض بينه وبين إخوانه ، لأنهم قد ساعدوا الحكومة إبان الفتح بجمع الذرة والقبض على المؤمنين بالمهدية . ونقم عبد القادر على أهله الذين قاموا بنصيب فى مساعدة الحكومة . وعندما بدأت تسوية أراضى الجزيرة فى عملها ظن عبد القادر نفسه مغبوناً فيها وهذا ما زاد فى نقمته على الحكومه التى ظلمته ، وإخوته الذين شايعوها . وهو لم ينس أن الحكومة الحالية قضت على حكومة إسلامية وهو لا يزال من أشد المتحمسين والمعتقدين برسالة المهدية .

ولم يشأ عبد القادر أن يغير عاداته التى كان يتبعها فى المهدية ، ولم يشأ أن يعترف بهذه الحكومة . فقد باع جزءاً كبيراً من أطيانه وبأثمانها فتح خلواته للضيوف ، وتجمع عليه من هم على مثل رأيه فى المهدية وإيمانهم بها ، وازورارهم عن الحكومة الجديدة . وترامى إلى سمع الحكومة أن عبد القادر يتجمهر أتباعه ويتزايد أنصاره . وعندما بلغت الإشاعة حداً من الذيوع والانتشار بعد أن طُلِب عبد القادر للمركز ولم يلبِّ الطلب ، ذهب مفتش إنجليزى ومأمور مصرى لمقابلته . وكان نصيبهما القتل بالخديعة . أيقنت الحكومة أن لا بد من القضاء على الثورة فى مهدها قبل أن يستفحل أمرها . وقامت بلوكات الجيش من مدنى والخرطوم وتم لها القضاء على الحركة بعد أن فقد الجيش عدداً من جنوده فى مباغتة ليلة قام بها عبد القادر . وقبض على زعيم الثورة بعد وقت من الواقعة ونفذ فيه حكم الإعدام . وهكذا تبين للحكومة أن شعلة المهدية لم تخمد فى

قلوب بعض الأنصار . وكانت هذه آخر محاولة ثورية ضد نظام الحكم حيث تمتع السودان بهدوء عام بعدها إلى أن قامت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ .

الحرب العظمى

أصبحت الدول الأوروبية فى حالة حرب والحكم الجديد له فى السودان الخمسة عشر عاماً شغلت الحكومة أثناءها بالأمن وتحسين المواصلات ووضع الأسس لتقدم اقتصادى وتعليمى . ولقد أعان السكان الحكومة لتعمل فى هدوء وطمأنينة ، ورضخ الناس للنظام الجديد ، للأمن الذى نشره بينهم ، وكانوا فى أشد الحاجة إليه . والثورات البسيطة التى قامت كما ذكرناها سابقاً لم تصل إلى درجة الإزعاج . وها هى الحرب العالمية قد استعر أوارها فماذا حدث فى السودان وما مقدار المساهمة التى قام بها فى سبيل النصر ؟

دعاية الحكومة

كان همّ الحكومة الأكبر شرح القضية الأوروبية عامة وقضية انجلترا فى تلك الحرب خاصة . ولقد كان مفهوماً منذ البداية أن لا بد من أن تنجرف تركيا وتنضم إلى ألمانيا . وكان على الحكومة أن تهيئ الأذهان وتقاوم الدعاية التى تبثها تركيا متكئة على الرابطة الدينية ومقام الخليفة فى نظر العالم الإسلامى . وكانت التقارير ترد على الأقاليم منبئة بأن الحالة على ما يرام وأن الناس كان مسلكهم مؤيد للحكومة فى ذلك العراك العالمى ، وأنه ليست هناك دلائل شعور دينى فى صالح تركيا فيما إذا أصبحت عدوة لانجلترا .

وفى أكتوبر سنة ١٩١٤ قام الحاكم العام السر ريجلند ونجت بطواف فى الأقاليم . فمر بالجزيرة والأبيض وبورت سودان واتصل هناك بزعماء القبائل والأعيان وكبار الموظفين شارحاً لهم الحالة الأوروبية وأهمية انجلترا فى تلك الحرب ونُبْل مقاصدها . ومن الخرطوم قامت جريدة السودان ومحررها آنذاك لبيب جريدينى بالدعاية اللازمة بمثل ما كان يشرحه الحاكم العام . وبهذا تهيأ الجو لتلقى نبأ دخول تركيا الحرب ضد بريطانيا .

إجراءات الحكومة بعد دخول تركيا

وفى يوم ٦ نوفمبر وصلت الأخبار للخرطوم بإعلان العداء بين تركيا وبريطانيا ، ودعا الحاكم العام نتيجة لذلك فى اليوم التالى لسرايه بالخرطوم عدداً من الضباط العظام بالجيش المصرى ، وخطب فيهم قائلا : « دعوتكم اليوم

التسمعوا من شفتى الإعلان الذى سيظهر فى غازيته السودان بشأن الحرب » .
واستمر فى حديثه شارحاً لهم الأسباب التى دعت لنشوب الحرب وتحدث عن قوة المعسكرين المتقاتلين واحتمالات النتيجة لتلك الحرب ، وأخيراً أهاب بهم أن يظلوا على ولائهم وإخلاصهم لواجباتهم ، وختم حديثه بأنه على استعداد لأن يعفى من الاشتراك فى الأعمال الحربية أولئك الضباط المتحدرين من أصل تركى ولا تسمح ضمائرهم بحمل السلاح ضد بنى جنسهم .

وبعد ذلك قابل الحاكم العام فى نفس اليوم فئة من العلماء وشرح لهم الحالة أيضاً . وفى اليوم الثامن من نوفمبر دعا للسراى المشايخ والعلماء من المدن الثلاث وأبان لهم الثمار التى جنتها البلاد من الحكم الحالى ، ومناصرة حكومته للإسلام والمسلمين . وتحمّس كل الحاضرين ووقعوا على وثيقة ولاء وإخلاص ونحا نحوهم أعيان العاصمة المثلثة الذين لم يحضروا الاجتماع ، وكذلك فعل زعماء العشائر وأعيان الأقاليم ورجال الدين وكبار الموظفين بالعرائض والتلغرافات . وجمع صاحب جريدة السودان كل ذلك وطبعه فى كتاب سماه سِفْر الولاء ، وهاك بعضاً مما ورد فى تلك العرائض بنصه :

سفر الولاء

حكومتنا العادلة التى لم ير الإسلام والمسلمون منها إلا كل خير دينى ودنيوى وجميعنا فى استياء من قيام تركيا فى هذه الحرب التى نتبرأ منها فإنه لا مصلحة فيها للمسلمين بوجه من الوجوه » . وسرّون بلادنا هادئة رائعة تحت ظل العلم البريطانى الظافر بالنصر على أعدائه قريباً إن شاء الله » « دولة العدل والشرف على سائر رعاياها فى جميع أنحاء المعمورة وخصوصاً فى السودان بعد أن خلّصته من المظالم والاستبداد ، وسهّلت لنا طرق الحج وزيارة قبر النبى » .

« إننا قد شاهدنا عياناً ما كان وجرى فيما سلف مدة الأتراك من الجور والفجور والاستبداد فى الأحكام بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والسجن والقلاقل والإهلاك والإهانة ، وامتد ذلك الظلم إلى أن ألحق بظلم العرب من الأذية » .
« نعلن إخلاصنا ومشاركتنا لدولة بريطانيا العظمى المحبوبة فى كل ما يكدّر

صفاءها وهي دولة العدل التي خلصت عموم السودان من مشقات العذاب وأتعاب العهد الماضي وصرنا بفضل حمايتها رائعين في بحبوحة الأمن » . « أما نحن فراضون بالحكم الحالي فإنه من خير الأحكام » .

« تركيا التي حاربنا ظلمها من قبلكم » « تقلبت علينا أدوار كثيرة وحكمنا الأتراك والدراويش وغيرهم ، ولم نجد عدلا ما ثل ولاة أمورنا الإنجليز الحاضرين الوفيين العاملين » . « فرفع لحكومتنا العادلة ولاءنا وإخلاصنا قلباً وقالباً ، إذ لم نر منها سوى احترام ديننا وتعمير مساجدنا وتوظيف العلماء لتعليم ديننا وتوظيف القضاة الشرعيين للفصل في أمورنا بموجب الشريعة المحمدية ، وتشييد المدارس لتربية أولادنا وتعليمهم وتسهيل طريق الحج والزيارة النبوية ، ونشر العدل والأمان في جميع أنحاء بلادنا وحسن معاملتنا » .

« إن الحزن والأسف لمل ء أفئدتنا لدخول تركيا في حرب ضد بريطانيا العظمى الأمر الذي حصل بلا شك رغم وضد إرادة ورغبة السلطان وعقلاء دولته » . « إن هذه الحرب التي تقوم بها تركيا اسما والألمان فعلا إنما هي حرب ألمانية بكل الوجوه » . « ويكفينا ما شهدناه ورويناه عن آبائنا السالفين من أعمال الحكومات السابقة من الاستبداد أو الجور وسوء المعاملات والتهافت على أكل الرشوات وهتك الحرمات ولا سيما حكومة الترك ورجالها » .

هذه مقتطفات وردت في سفر الولاء من تلك العرائض والتلغرافات والخطابات التي سجلها العلماء والأعيان وزعماء العشائر والتي يستشف منها الباحث الروح التي كانت سائدة آنئذاك أو التي أريد لها أن تسود ، وأن تنتشر دعايتها بين الأهالي بواسطة قادتهم وزعمائهم . وهذه نتيجة لدعاية واسعة النطاق قام بها رجال الحكومة . وترتكز على أن الحرب التي خاضت غمارها تركيا زعيمة العالم الإسلامي لم تكن بالحرب الدينية في كثير أو قليل ، وإنما انقادت تركيا لألمانيا لمطامع الدنيا لا جهاداً في سبيل الله ، وإن الشبان للأتراك الذين بهرتهم المدنية الأوروبية قادوا الخليفة ورجال الدين إلى هذا المصير والانصياع لألمانيا .

وقد نجحت الدعاية أيما نجاح وساعد على نجاحها ما يعرفه وما خبره أهل السودان عن تركيا والأتراك . فهم لم يعرفوا الأواصر الروحية التى تربطهم بالخليفة بل عرفوا عن الحاكم والجندى التركى القسوة والفظاظة والجلد بالسياط ونفروا منه عندما كان السودان تحت سيطرة النظام الإدارى التركى .

وهكذا عندما أعلنت تركيا الحرب اطمأنت حكومة السودان على ولاء البلاد والشعب ولم يلصغوا للدعاية الدينية التى قامت بها تركيا . ومع ذلك فقد قام نفر قليل ممن يرجع أصلهم إلى الأتراك أو ممن تغلبت فيهم عاطفة الرابطة الإسلامية بدعاية سرية فى شكل منشورات وزعت على رجال الدين . ولكنها لم تأت بنتيجة ما ، وقبض على المتهمين وعلى غيرهم ممن ظنت الحكومة أنهم يضمرون لها سوءاً . وما عدا ذلك وما عدا نشر الإشاعات التى تشير إلى انتصارات الألمان واندحار الإنجليز ، فقد ظلت البلاد بوجه عام فى هدوء وأمن ما عدا دارفور كما سنبينه فى فصل خاص وما عدا العصيان الذى حدث فى جبال النوبة واستدعى إخضاع العصاة انشغال الجيش المصرى أشهراً عديدة .

مساهمة السودان

ساهم السودان بنصيب وافر فى سبيل الحرب وخاصة فى الحملة السورية التى قادها اللنبى وفى تموين الجيوش التى كانت ترابط فى مصر . فالجمال كانت لاتزال سفينة الصحراء وصدّرت السودان عدداً كبيراً منها والبقر والغنم تحملها القطارات الحديدية باستمرار نحو مصر لغذاء الجند ، والحاصلات السودانية يرسل فائضها لمجهود الحرب .

ثورات فى جبال النوبة

لقد ألمعنا سابقاً إلى ثورات قام بها بعض سكان جبال النوبة أثناء الحرب نذكر منها اثنتين . الأولى اشتعلت فى جبال النما بمركز الدلنج يرأسها عجبنا . فقد سيطر على مجموعة الجبال التى تحمل اسم النما وأعلن عصيانه على الحكومة و تطلب من السكان موافاته بالضريبة بدلا من توريدها للحكومة . فقامت دورية مكونة من ٣١ من الضباط الإنجليز و ١٠٥ من الضباط المصريين

والسودانيين و ٢٨٧٥ من الجنود ومعهم ٨ مدافع كبيرة و ١٨ مكنة . وقامت هذه القوة بضرب الحصار على مجموعة الجبال ورابطت أشهراً عديدة ؛ وقد تم لها الاستيلاء أخيراً على الجبال والقبض على زعيم الثورة فى ديسمبر سنة ١٩١٧ . والثورة الثانية كانت فى جبال ميرى بمركز كدجلى وزعيم الحركة الفكى على ولكنها لم تبلغ فى خطورتها ثورة عجبنا . وتمكن الجند الحكومى من استلام ناصية الحالة وإعادة المياه إلى مجاريها .

وفد سودانى لانجلترا

وعندما دقت أجراس السلام فى نوفمبر سنة ١٩١٨ احتفلت البلاد بالنصر وتكون وفد من السادة والعلماء وزعماء العشائر وسافر إلى إنجلترا فى سنة ١٩١٩ لتهنئة جلالة الملك شخصياً بالانتصار . وبدأت الحكومة فى مشروعاتها التى تركتها بسبب الحرب وخاصة مشروع الجزيرة ودخلت المسألة السودانية فى طور جديد حيث ارتبطت بالأمانى القومية المصرية ؛ وبدأت الحالة السياسية فى مصر تظهر آثارها فى السودان ، وتوالت مشاكل وأحداث جديدة .

ابراهيم على يبعث لدارفور

تراءى لكتشنر ومعاونيه منذ البدء أن حكماً مباشراً يرتكز على الخرطوم لا يجدى فى دارفور . وهم فى رأيهم هذا إنما يعتبرون بالدرس الذى تلقته الحكومة المصرية عندما تم لها فتح دارفور على يد الزبير وإسماعيل أيوب . فقد ظلت الثورات متصلة الحلقات إلى أن تم زوال السلطة المصرية ، وكلفت الخزانة المصرية أموالا طائلة . ولذلك عندما فر إبراهيم على من جيش محمود وهو يمت بصلة للعائلة المالكة فى دارفور بعثه كتشنر إلى الغرب ، لينشر الأمن بين ربوع دارفور ويستلم زمام السلطة المؤقتة إلى أن يفرغ الجيش من مهمة الفتح ، وعند ذاك يعمل القائد ما يراه صالحاً لحكم دارفور . وفعلا غادر إبراهيم على النيل ووجهته دارفور ليباشر ما وكل إليه من مهمة .

السلطان على دينار

وتشاء الأقدار ألا يتم لإبراهيم ما يرجوه من ملك وسلطان ، وأن يقوم بالمهمة من لم تزوده الحكومة الجديدة ، ومن لم توعز إليه بالأمر . فقد كان

على دينار بن زكريا بن السلطان محمد الفضل ملازماً فى أم درمان فى شبه اعتقال فى أخريات أيام المهدية ، فهو آخر السلاطين الاسمين لدارفور الذين جرت العادة فى المهدية أن يحتلوا هذا المنصب منذ أن غادر السيد محمد خالد زقل البلاد . وقد لوحظ عدم إخلاص وولاء على دينار للمهدية حينما كان سلطاناً اسمياً وأخذ لأم درمان ، وبقى فى سلك الملازمين إلى اليوم السابق لمعركة كررى ، حيث انتهز فرصة الاضطراب الذى ساد مدينة أم درمان وغادرها بمجموعة من صحبه المختارين يقلون عن العشرة ؛ وظل سكان دارفور يتجمعون عليه وهو فى الطريق ، إلى أن قيل إنه عبر حدود مملكته الجديدة بما يقرب من الألفين وهناك فى الفاشر سلمت له السلطات التى كانت تباشر الحكم نيابة عن حكومة المهدية ، وتمكن بما له من قوة ونفوذ على إزالة منافسه إبراهيم على .

وعندما وصلت أخبار تلك المنافسة إلى أسماع كتشنر خاطب الاثنين بالتريث والأناة حتى تحل جنود الحكومة بالبلاد ، وعندما يعين من يملك قلوب السكان ويجذب احترامهم وطاعتهم له ولكن سرعان ما تبين لإبراهيم على أنه ليس بالذى يرتفع إلى مستوى على دينار فترك الأمر قبل أن تتدخل الحكومة .

العلاقة بين السلطان والحكومة

كانت نية حكومة السودان متجهة نحو خلق سلطنة فى دارفور يتربع عليها على دينار ، وتترك له حكم البلاد الداخلى ، ولكنها تمده بالمستشارين ويقيم معه فى عاصمته معتمد من قبلها . غير أن على دينار منذ أن خلصت له البلاد وتولى الأمر ما كان ليرغب أو يريد تدخلا من حكومة السودان ، وبدأ يعمل لهذه الغاية ؛ فإذا ما استشير فى أمر مقابلته مع مندوب من الحكومة تعلل بمختلف الأعذار ، وإذا ما رأى تجمعاً حربياً أو قوات تشرف على الحدود احتج على هذا العمل وحذرها من عاقبته ، لأنها قد تحرك السكان ويشيع بينهم الاضطراب . وأصبح يراقب بحذر شديد كل قادم من جهة الشرق ، وكل رسول تبعثه الحكومة بخطابات . وكل ما كان يريده من علاقة من حكومة

السودان هو الاعتراف بسيطرته على البلاد ، مقابل أن يرفع العلمين وأن يدفع جزية سنوية .

ولو أن حكومة السودان كانت تريد لنفسها رقابة وسيطرة على دارفور أقوى مما كان يريد لها على دينار إلا أنها رضخت للأمر الواقع الذى وضعه أمامها السلطان . وهى قبل كل شىء ما كانت لترغب فى أكثر من تهدئة الأحوال ونشر الأمن فى ربوع البلاد . وكما قدمنا كانت تحاذر النفقات الباهظة فيما لو أخضعت المديرية للحكم المباشر ، فقد كفاها السلطان مؤونة الإدارة والصرف عليها . ولقد أقام نوعاً من الإدارة نشر بها الأمن ، فلترض بهذا الوضع وترقبه باهتمام ولتعاونه وتشد أزره إن هو أخلص لها .

مشاكل السلطان

كان على السلطان أن يحمى حدوده من الغرب ، ويجاوره سلاطين يحكمون قبائل متقلبة فى ولائها لهم أو له . وكان بعضهم يرضخ لسلاطين دارفور عندما كانت دولتها وطيدة الأركان . وتمكن على دينار من إظهار هيبته ونفوذه فدان له بعضهم ، وطأطأ الرأس البعض الآخر لأنه يفوقهم فى نفوذه وعدده وعدته . وكان عليه أن يخضع سنين التاماوى الذى احتمى إلى الغرب من الفاشر وظل يرد التجريدة تلو الأخرى من قبل السلطان ، وظل شوكة فى جنبه عدداً من السنين . وكان عليه أيضاً إخضاع قبائل البقارة التى تسكن جنوب دارفور من معاليه ورزيقات وبنى هلبة وغيرهم . فهم قد تعودوا فى القديم الرضوخ لحكم السلاطين أحياناً ، وإعلان حريتهم وحق التصرف فى حق أنفسهم أحياناً أخرى والسلطان يريد منهم الرضا بحكمه والاعتراف بسلطانه عليهم . فإذا ما طاولوا فى إظهار ولائهم وإخلاصهم ، أرسل عليهم التجريدات القوية لتكتسح أرضهم ويفر الكثير منهم ويلتجئ بأرض كردفان . وهذا قادة إلى إثارة مشاكل بينه وبين القبائل الكردفانية التى تقطن الحدود . فهم فى رأيه آووا من فر من رعيته ، وهم يخترقون حرمة الحدود أحياناً للنهب .

السلطان وسلاطين باشا

وهو فى خطاباته للحكومة يشكو من جيرانه رجال قبائل الحدود ، ويشكو من تعديهم على أراضيه ، ويشكو من رعاياه الذين أبدوا العصيان

وفرّوا إلى أرض الحكومة ؛ وبعد ذلك كله يعتب على حكومة السودان لأنها آوت من فر من رعيته ، وخاصة موسى مادبو زعيم الرزيقات ، ومما زاد الطين بلة أن سلاطين باشا المفتش العام لحكومة السودان ، وهو ضابط الاتصال بينه وبين الحكومة يخاطبه ويرد عليه على وجه الاستعلاء . واشتم السلطان من خطابات سلاطين أنه يتوعده ويتهدده ، أو على الأقل لا يصوغ عباراته فى القالب الذى يجب أن يُخاطبَ به الملوك . وسلاطين نفسه يُدل على علىّ دينار بأنه ساعده على التربع فى دست الحكم فى دارفور ، ويذكره بصداقته القديمة ، ويفتخر بأنه يعرف دارفور وأحوالها لسابق خدمته فيها ولا يرضى السلطان عن عن هذه النغمة ويردّ بأنه يدفع الجزية فى أوقاتها للحكومة حسب الاتفاق معها ، وأنه لا يقبل مرة ثانية ما يُشتم منه تهديد أو وعيد ، ويناشد سلاطين بأنه يكون معه على وفاق حسب ما كان معه من قبل .

ومما جاء فى خطاب بعث به سلاطين إلى السلطان بتاريخ ٢٦ نوفمبر سنة ١٩١٣ ما يلى : « إن جل ما أرمى إليه من الغايات هو أن أخلص لكم النصيحة فى كل أموركم وعلاقاتكم وواجباتكم نحو الحكومة التى أنقذتكم من أيدى الخليفة وأعوانه وأعادتكم إلى بلاد آبائكم وأجدادكم حتى تحكموها وتقيموا العدل والأمن فى أرجائها » . وفى ٨ يناير سنة ١٩١٤ خاطبه بقوله : « إننى قد كتبت لكم مراراً عديدة وصرحت لكم أننى كنت أول العاملين لإعادة الراحة إلى هذه البلاد وإعطاء الحرية والأمان لأهلها . وإطلاق أعناقهم من قيود الظلم والاستبداد ، وكيف أننى كنت الواسطة لأجل تمتعكم بنعمة العودة إلى بلاد آبائكم وأجدادكم ، لتحكموها بالعدل والحكمة ، وترد إليها ما فقدته من سابق مجدها وعزها بسبب الظلم والاستبداد . وقد ذكرت لكم مراراً أن الحكومة لا تزال على عهدها القديم معكم تحفظ لكم أصدق العواطف وتميل إلى مساعدتكم ومعاونتكم بكل وسيلة ممكنة ، وكان الأولى بكم أن تثقوا بما قلته لكم مراراً وأقوله الآن لأن غايتى كما يعلم الله هى راحتكم ودوام مجدكم » .

مشكلته مع الفرنسيين

وفى السنين القليلة التى سبقت إعلان الحرب فى سنة ١٩١٤ برزت مشكلة جديدة للسكان وهى توغل الفرنسيين فى أواسط أفريقيا إلى أن تاخموا دارفور من الغرب ، وبدأوا يضمون إلى أملاكهم بعض الأراضى التى يعتقد السلطان بأنها جزء من دارفور من قديم الزمان . ودخل معهم فى مكاتبات بصدد الحدود وأخبر حكومة السودان بذلك . وتنصحه الحكومة بألا يدخل مع الفرنسيين فى مفاوضات أو محادثات سياسية بل يترك الأمر للحكومة الإنجليزية ، فهى التى تتولاه بالنيابة عن حكومة السودان ، وتطلب منه البيانات التى تساعد حكومة جلالة الملك فى حل المشكلة بما يرضى مطامعه وأمانيه . وتندلع نيران الحرب البلقانية فى سنة ١٩١٣ وتؤجل المفاوضات إلى أن تسوى الإشكالات الأوروبية وتشب الحرب الكبرى فى سنة ١٩١٤ ويُصرف النظر نهائياً عن المشكلة إلى أن تسوى حكومة السودان حساباتها نهائياً مع السلطان كما سيجىء .

إدارة على دينار

كانت إدارة السلطان هى حكومة الفرد المطلقة ، ولكنه يعتمد فى جباية الضرائب وفى إقامة العدل على الشريعة الإسلامية وعُرف عنه التديّن والتمسك بتعاليم الدين ، وبدأ يرسل محملا سنوياً للحجاز شأن ملوك المسلمين .

توتر العلاقات

وفى السنتين السابقتين لقيام الحرب بدأت تتوتر العلاقات بينه وبين حكومة السودان . فهو منذ البداية لم يطمئن لها وما كان يريد عرشاً يُشاد على حماية أو تدخل أجنبى ، بل كان يريد عرشاً خالصاً مستقلا ، ولكنه من حسن السياسة رأى أن يستعين بالحكومة على الوصول إلى غايته . وهو يستلهم الوحى من تاريخ أجداده أيام أن كان ملكهم مستقلا لا تشوبه شائبة ، ويقتدى بأعمالهم فى إدارته وحكمه . ثم هو فوق ذلك أمير مسلم يجب عليه أن يصون عرشه ورعيته من تدخل الذين على غير دينه ، فقد يفسدون عليه دنياه وآخرته . وقد تم له ما أراد من توطيد للعرش وإقامة للملك ، فليسلك منهجاً يدل على استقلاله عنهم ، وألا يغادر صغيرة أو كبيرة تدل على التدخل فى شؤونه إلا رد فيها بما يُشعر بتفرّده بالحكم .

وحكومة السودان من جانبها قد أحنت رأسها فى أول الأمر ورضخت للسياسة الأمر الواقع لأنه كفاها تكاليف وتضحيات الفتح ، ولأنها كانت فى شغل عن دارفور بتشييد إدارة جديدة فى بقية أنحاء السودان ، ولأن مواصلاتها مع دارفور سيئة إن أرادت القيام بحركات عسكرية . وما إن وافت سنة ١٩١٢ حتى تم لها إقامة الأداة الإدارية ، وتم لها مد الخط الحديدى إلى الأبيض ، وبدأت على ما يظهر منذ تلك السنة تفرض نفوذها على السلطان وتمنع منه ما يمكن أن يزيد فى قوته . وكان أن وصل السلطان إلى أوج شهرته وعظمته وبدأ يُظهر استقلاله . ولابد مثل هذا الموقف من تصفية الحالة إن لم يكن بالمفاوضات فبالقوة .

شكاوى السلطان

وفى خطاباته المتبادلة مع الحكومة يعرف أن السلطان يشكو من الحكومة فى أمور عدة . أولا : إنه كان يطلب أسلحة وجبخانة فلا يجاب طلبه وأحياناً يكون الرد بندقية واحدة . ثانياً : تعدى الفرنسيون على حدود بلاده ولم تقم الحكومة بعمل يرد المعتدين . ثالثاً : تآمر موسى مادبو زعيم الرزيقات حسب ظن السلطان على حكومة دارفور ووافقت حكومة السودان على تآمره . رابعاً : هرب الزيادية من دارفور إلى كردفان ولم ترجعهم الحكومة إلى سلطانهم الشرعى . خامساً : تعدى الكبابيش على دارفور ولم تقم الحكومة بواجب العدالة والإنصاف فيهم . سادساً : لم تسمح حكومة السودان لمندوب السلطان بالذهاب إلى الحجاز لشراء الجبخانة ، بل أعطته كمية بسيطة من الرمنتون وبغلين هزيلين .

خطاب ونجحت السلطان

وسط هذا الجو من عدم الثقة المتبادلة اشتعلت نيران الحرب العالمية فى سنة ١٩١٤ . ونقل الحاكم العام الخبر للسلطان فى الخطاب الآتى : — « أما بعد فلابد أنه بلغكم أن دولة انكلترا العظمى ودول أوربا الأخرى تحارب الآن الدولة الألمانية التى قد مزقت جميع شرائع الأمم ومعاهداتها ، ولم ترع حرمة العهود . وأن قسما من جيوشنا يحارب الآن العدو فى قارة أوربا . وأما الأسطول الإنجليزى الذى يفوق الأسطول الألمانى بعدد مدرعاته وعساكره

وسلاحه قد اضطر أسطول العدو أن يلتجئ إلى موانى بحرية عديدة ، ولا يتجرأ على الخروج منها . أما فى البر فإن جيوش الدول المتحالفة معنا فقد تجمعت وبإذن الله ستضرب جيش الألمان الضربة القاضية . وليكن يعلمكم أن أخبار هذه الحرب الحقيقية تنشرها جريدة السودان ، التى تظهر فى الخرطوم ، والتى على ما أظن تصلكم فى دارفور ، فإذا بلغكم من بعض الناس الجهلاء الذين لا يعرفون الحقائق أو المفسدين الذين يحبون نشر أخبار كاذبة أخباراً لا تنطبق على ما تنشره الجريدة المذكورة ، فإنى أوصيكم بأن تأمروا موظفيكم بالقبض على هؤلاء الكاذبين ، وتبقوهم عندكم تحت المراقبة أو ترسلوهم للحكومة . ثم إنه لابد سيبلغكم خبر وصول جيوش إنجليزية كبيرة إلى مصر فهذا الخبر صحيح ولكن لا علاقة له بالسودان على الإطلاق ، لأن السودان متمتع الآن بالراحة والطمأنينة بفضل الله تعالى » .

السلطان يخاطب الخليفة

وبيدء الحرب فى أوربا صارت الإشاعات تنتشر فى العالم وكل ما يحدث من مواطن المعارك دخل فيها عنصر المبالغة ؛ ووصل السلطان أن الإنجليز وحلفاءهم على وشك الانهيار ، وأنهم سوف يخرجون من السودان ، وما على السلطان إلا أن يتقدم شرقاً ويقيم دولة إسلامية فى ربوعه . فإذا أضيفت هذه الأخبار إلى ما كان يبديه السلطان من نفور وإلى ما كان بينه وبين حكومة السودان من جفوة ، كان من الطبيعى أن يلجأ السلطان وهو مسلم متدين إلى خليفة المسلمين ويخاطبه بقوله : « وقد أحاطت أيدى النصارى الكلاب الكفار بالمسلمين من يميننا وشمالنا وورائنا وأمامنا ، وحازوا ديار المسلمين كلها ، ممالك البعض سلطانها مقتول ، والبعض سلطانها مأسور ، والبعض سلطانها مقهور ، يلعبون بأيديهم كالعصفور ، ما عدا بلادنا دارفور قد حفظها الله من ظلمات الكفار . والداعى أنهم حالوا بيننا وبين الحرمين الشريفين اللذين حرسهم الله ومنحكم بخدمتهما . ولم نر حيلة نتوسل بها لأداء الفرض الذى فرضه الله علينا من حج بيته الحرام ، وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام ، انجبرنا على مواصلة دولة الإنجليز وسرنا نعاملهم تارة بالمشاحنة معهم ، وتارة

رغبة فى حفظ إيماننا وإسلامنا فى بلادنا » . ولم يتبين لنا فيما إذا وجد هذا الخطاب طريقة إلى الأستانة العلية أم لا .

مخاطبة أنور للسلطان

وكان من بديهيات الأمور أن تنشط الدعاية التركية تضرب على نغمة الجهاد المقدس ، وتهيب بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بحمل السلاح ومساندة دولة تركيا ومقر الخلافة الإسلامية . وبعث أنور باشا بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩١٥ خطاباً للسلطان على دينار يخبره فيه بالتعدى الذى حصل من روسيا وانجلترا وفرنسا على تركيا وتحديهم للإسلام ، وأن خليفة المسلمين أعلن الجهاد المقدس ، والمشيخة الإسلامية أفتت بأن الجهاد الآن فرض عين على كافة المسلمين ، وأنه أرسل نورى بك للسنوسى وجعفر بك له . ويخبره بإرسال تجريدة لإنقاذ مصر ، وأنهم انتصروا على الإنجليز فى البصرة ، وأن حلفاءهم الألمان وأهل النمسا يحاربون ، وأنهم على أميال قليلة من عاصمة فرنسا ، باريس ، والألمان احتلوا جزءاً من روسيا وأنه أخيراً يهيب بالمسلمين النهوض وقتل الجراثيم التى فتكت بأجسامهم ، وأنه يعهد فيه الغيرة الإسلامية والذود عن حياضه وأورد له فى اختتام خطابه آيات قرآنية مناسبة تدعو إلى التضامن والاتحاد .

رد السلطان لأنور

ولقد سر السلطان أيما سرور بخطاب أنور باشا ورد له « ونخبر جنابكم أننا منذ انتشاب الحرب بين جلالة سلطان الإسلام وبين الألداء الكفار والفساق الإنجليز وفرنسا وما يليهم ، فمن وقته قطعت ما كان بينى وبين الكفار الملعونين من العلائق الودية ، وجاهرتهم بالعداوة وأعلنتهم بالحرب ، واستعديت لهم بقدر ما يستطعنى من القوة ، غيرة فى دين الله وحمية للإسلام » .

الحكومة تجهز الحملة

ومنذ أن علمت الحكومة بنية السلطان فى العصيان ، ومنذ أن ترامى إليها أنه ينوى الزحف شرقاً إلى السودان فى سنة ١٩١٦ ، رأت أن تبدأه قبل تنفيذ رغبته . وبدأت تعد حملة تسيرها نحو دارفور ، بالرغم من حاجة انجلترا إلى الأسلحة والذخيرة والرجال فى ميادين أخرى ، وبالرغم مما تقاسيه فى الميادين الرئيسية من شدة . وجمعت قوة تقل عن الـ ٣٠٠٠ جندى أغلبيتها من

الجيش المصرى ، وقادها كلى باشا . وأثناء التجهيز والتجمع وقبل الزحف كانت الرسائل تتوارد على السلطان ، تارة من الحكومة ، وأخرى من زعماء الدين فى السودان يمحضونه النصح ويشيرون عليه بألا يرمى بنفسه فى التهلكة؟ غير أنه رأى فيها فرصة سانحة يستطيع تصفية حساباته نهائياً مع الإنجليز ، ولذلك مضى فى سبيل الحرب والجهاد .

المسير فى دارفور

وزيادة على الصعوبات العامة من حيث الاشتراك فى حرب عالمية ، فإن حكومة السودان فى حرب دارفور قامت أمامها صعاب خاصة من حيث النقل وإيجاد المياه الكافية غربى النهود فى فصل الجفاف ، ولكنها حملة لا بد من القيام بها مهما وقف أمامها من صعاب . واتجهت التجريدة نحو أم شنقة ثم منها بجبل الحلة وأبيض وأخيراً للفاشر عن طريق مليط الطويل نظراً لانعدام المياه فى الطريق القصير .

موقعة برنجية ٢٢ مايو سنة ١٩١٦

وما إن كانت جيوش كلى على بعد نحو ١٢ ميلا شمالى الفاشر حتى أحست بوجود قوة بالقرب من قرية برنجيه . وكانت خطة السلطان أن يكمن جنده حتى يباغت الجيش الزاحف ويقضى عليه . وقام الميرالاى هدلستون بك (حاكم عام السودان السابق) بحركة استكشافية ، وهب الكمين يطارده ، مما اضطره إلى التراجع واحتلال مكانه فى المربع . وخرج فرسان الفور ومشاتهم من خنادقهم ورموا بأنفسهم على مربع الجيش . غير أن الجند قد ركزوا أقدامهم وثبتوا مدافعهم وبدأت فوهات بنادقهم وماكيناتهم تصب الحمم على جيش السلطان الباسل . وماكان هناك من شك فى نتيجة المعركة تحت الظروف التى وصفناها ، إذ لا بد من سيطرة الصبر والنظام على الحماس الغير منتظم ، مهما بلغت درجة البسالة والإقدام . وترك جيش الفور نحو ٥٠٠ قتيل فى الميدان وبعضهم بلغ من استهانتهم بالحياة وإقدامهم أن رقدت جثثهم على بعد عشر باردات أمام المربع .

نهاية على دينار

لم ير السلطان بدأ من مغادرة العاصمة والالتجاء إلى منطقة جبل مرة الحصينة ، وانتهى بذلك الفصل الأول من فتح دارفور ، وبعث ببلوكات تقيم

نقاطاً فى الجهات المختلفة وكان الميرلاى هدلستون بك يرابط بقوة صغيرة فى الجهة التى تقع بالقرب من السلطان . وتم الأمر بين من بيدهم مقدرات الحملة على الاستجمام والراحة والاستعداد لحملة أخرى قوية . غير أن هدلستون بك رأى أن كل يوم يمر ربما يزيد عن قوة السلطان ، ووصل إلى سمعه أن مماليك السلطان بدأوا يتخلون عنه ، وأنه أصبح فى شرذمة قليلة من أتباعه وأن عمليات حربية يقوم بها الآن توفر على الحكومة مالا وجهداً وهماً . وخاطر وقاد عساكره مقتفياً أثر السلطان حتى داهمه ، وكانت نهاية على دينار رصاصة طائشة أردته قتيلا فى ٦ نوفمبر سنة ١٩١٦ . وبهذا تم انضمام دارفور نهائياً للسودان بعد ثمانية عشر عاماً من فتح كتشنر وأصبح تاريخها جزءاً من تاريخ السودان .

ثورة سنة ١٩٢٤ وما بعدها

إلى سنة ١٩٣٩

بداية الوعى

ختمت صفحة سفر الولاء وسفر الوفد السودانى المكوّن من زعماء الدين والعشائر لتهنئة الملك جورج الخامس بانتصار بريطانيا فى سنة ١٩١٩. وفى نفس السنة بدأ وعى وطنى عماده خريجى كلية غوردون التذكارية والمدارس الابتدائية مع الطبقة الواعية من شبان الأعمال الحرة. وتأثروا فى وعيهم هذا بمبادئ ولسن التى أعلنها عند انتهاء الحرب والتأهب لمناقشات الصلح فى باريس. وفوق هذا قامت الحركة الوطنية فى مصر عندما تكتلت الطبقات الواعية وعينت وفداً برئاسة سعد زغلول لمقابلة المندوب السامى البريطانى للتحدث معه فى شأن الحرية لمصر. وما كان ونجت المندوب السامى فى وضع يسمح له بإعطائهم وعداً ولم تتبلور نيات الحكومة البريطانية نحو مصر بعد. فهم فى شغل عنها بالمسائل الكبرى التى سيواجهونها فى مؤتمر الصلح. والسلطات العسكرية منعت الوفد المصرى السفر إلى لندن لعرض قضيتهم على الحكومة البريطانية ولم تكتف بذلك بل أدخلت زعماء الوفد السجن ورحّلتهم إلى منفاهم فى مالطة وقامت ثورة بعدها فى مظاهرات شعبية صاخبة هاجمت الإنجليز وقطعت وسائل المواصلات واستدعى الأمر من جانب السلطات العسكرية إعلان حالة الطوارئ ولم ير مستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية حينما كان فى لجنة فى مؤتمر الصلح ويجلس أمامه اللورد اللنبى فاتح القدس إلا أن يعينه كمندوب سام لمصر لمعالجة الحالة المقلقة هناك بسلطات واسعة.

لجنة ملنر

وعندما هدأت الأحوال نوعاً ما فى مصر أطلق سراح المعتقلين فى مالطة ولم يروا الرجوع لبلادهم بل سافروا لباريس لعرض قضيتهم لمؤتمر الصلح

ولكن الأبواب أمامهم موصدة . وانجلترا من جانبها بعثت بلورد ملنر على رأس بعثة لتحقيق حالة مصر وتقديم تقرير لحكومته لتهتدى به فى علاقاتها مع مصر . وبأوامر من الوفد فى أوروبا قاطعها الشعب فى مصر ولكنهم تمكنوا من التحدث إلى بعض الشخصيات . وبرجوعهم للندن أقنع عدلى باشا سعداً ورفاقه بالدخول فى مفاوضات مع ملنر ولكن الهوة سحيقة بينهما . ومهملة وجهات نظر الفريقين فيما يختص بمسألة السودان . فالفريق المصرى احتفظ لنفسه بالحق بالرجوع إلى مسألة السودان ومن تصريحاتهم عرف أنهم يربطونها بالقضية المصرية . أما وجهة النظر الإنجليزية فقد وضحها لورد ملنر فى تصريحه وهى أن مسألة السودان منفصلة تمام الانفصال عن القضية المصرية وأن السودان سيتطور منفصلا عن مصر على أسس الاتفاقية تحت الرعاية الإنجليزية وكل ما يهم مصر عن السودان هو مسألة مياه النيل وبريطانيا تضمنها لها . وأرسل الوفد مندوبين يحملون الاقترحات لاستشارة زملائهم فى مصر . وبعد بحث ومناقشة رفضت كل المقترحات .

ما بعد تصريح ملنر

قامت محاولة أخرى بين عدلى باشا رئيس الوزارة المصرية ولورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية لم يرض المفاوض المصرى عن المشروع الإنجليزى الذى ينادى ببقاء الحالة فى السودان على ما هى عليه واستمرار الحكومة المصرية فى تأدية مهمتها العسكرية فى السودان أى أنها تتحمل نفقات الجيش المصرى فى السودان بوحداته المصرية والسودانية أو تعطى إعانة مقابل ذلك وانجلترا من جانبها تتعهد ألا تقوم منشئات رى جنوبى وادى حلفا إلا بعد قرار من لجنة تشترك فيها الجوانب المختصة مصر والسودان ويوغندة . وتمسك كل فريق برأيه عن السودان . فالإنجليز لا يريدون تغييراً فى الإدارة الثنائية نظرياً والإنجليزية حقيقة ومصر تود أن تحتفظ لنفسها بالحق فى مفاوضات مقبلة بشأن السودان — والطبقة المثقفة فى السودان تقرأ وتهتم بأخبار النضال المصرية وتمسكه بأن لا تنفصل قضية السودان عن قضيته وتسمع أخبار البطولات والتضحيات فى أسفل الوادى وخطب زعماء الثورة

الثارية وتتقصى أخبارهم فى الجرائد المصرية وموقف الإنجليز لا يطمئنهم لأنه اتجاه نحو الانفراد بإدارته وضمه لمستعمراتهم فى النهاية وهم يتخوفون من هذا المصير ولا سيا أنهم يرون عجرفة المفتشين البريطانيين ومطالبتهم حتى بكبار القوم خلع النعال عند دخول مكاتبهم والوقوف لهم بالتحية عندما يمرون راكبين صهوات جيادهم . وفوق ذلك فكل الوظائف ذات المسئولية وقف عليهم . فلا مشاركة فى الحكم ولا تأهيل له فى المستقبل .

جمعية الاتحاد السودانى

فى مفتتح عام ١٩٢١ . وعندما كانت مصر تسعى جاهدة لنيل حريتها مع تمسكها بإخراج النفوذ الإنجليزى من السودان وإضعافه قرأ ناظر كليـــة غوردون لبعض الخريجين مقالا فى التيمس الإنجليزية ينادى بمبدأ « السودان للسودانيين » وأن السياسة الإنجليزية يجب أن تؤيد هذا المبدأ وتعمل له والغاية التى ترمى إليها هذه السياسة هى فصل قضية السودان من القضية المصرية وفى أحسن حالاتهـــا ما هى إلا تمكيناً للنفوذ الإنجليزى ليرسم خطى التطور البطىء الذى يريده . وفى نفس الوقت من السنة نشأت « جمعية الاتحاد السودانى » السرية التى تكونت من بعض الموظفين من خريجى المدارس ومن بعض شبان الأعمال الحرة وبعض الطلبة فى كلية غوردون وكانوا يتتبعون تطور نضال المصريين من أجل حريتهم ويتناقشون فيها فى مجالس أنفسهم وسمرهم فى نادى الخريجين بأم درمان ثم انتقلت المناقشة للمجالس الخاصة فى المنازل . وحسب ما يروى السيد سليمان كشه أحد مؤسسى هذه الجمعية فإن شعارها كان « السودان للسودانيين والمصريين أولى بالمعروف » . وكان نشاطهم يتركز فى توزيع المنشورات تنادى بمناهضة الحكم البريطانى . ونجحت فى إرسال طلبة لإتمام تعليمهم فى مصر وكانت تلك الخطوة فى حد ذاتها مجازفة خطيرة من وجهة نظر الإنجليز فالطالب الذى يفر من كلية غوردون لمواصلة تعليمه فى مصر يعتبر فى نظر الحكام البريطانيين مجرماً لا ينصب غضبهم عليه وحده

يل ليتعداه إلى أهله وأصدقائه ومن يُظن أنهم عاونوه فى الهرب . وهذه الجمعية تعمل بطريقة سرية تربطهم المبادئ والصداقات وأغلبيتهم من موظفى الحكومة والطلبة . ولذلك كان عملهم فى الخفاء خوفاً من السلطات البريطانية .

جمعية اللواء الأبيض

وتاريخ هذه الجمعية ما هو إلا تاريخ حياة رئيسها وبطلها المغفور له الملازم أول على عبد اللطيف . ولد فى حلفا سنة ١٨٩٢ حيث كان والده جندياً فى الجيش المصرى وأتم تعليمه الابتدائى بالخرطوم والتحق بالمدرسة الحربية تخرج بعدها سنة ١٩١٤ برتبة ملازم ثانى وتنقل فى خدمة الكتائب السودانية فى الجيش المصرى وكإدارى برتبة نائب مأمور . وعرف بدماثة الأخلاق وطيب المعشر ، له مروءة عالية وشجاعة تصل حد التهور ، وفى آخر مرة كان يخدم الجيش سنة ١٩٢١ نفس السنة التى شهدت مولد جمعية الاتحاد السودانى وأصبح منزله نادياً للسمر والمناقشة فى الأمور العامة وخاصة من زملائه الضباط . وقابلهم نائب المدير البريطانى فى الطريق ولم يؤدوا له التحية وعند مناقشتهم فى هذا الأمر أجابه على عبد اللطيف بأنهم كضباط فى الجيش غير ملزمين بتحية الملكيين إلا مدير المديرية فى مناسبات خاصة . وتمت اتصالات بين نائب المدير والقومندان الإنجليزى أدت فى النهاية إلى إحالته للاستيداع فسافر للخرطوم حيث تفرغ للأعمال السياسية المناهضة للإنجليز . وكتب مقالا لم ينشر فى حضارة السودان لأن رئيس التحرير أرجأ نشره إلى حين تمكن مدير المخابرات من سحبه من الحضارة وتقديمه للمحاكمة بموجبه وبنشره فى الصحف المصرية والمقال لا يحوى غير مطالبته بتوسيع فرص التعليم ونزع احتكار السكر من يد الحكومة ونقد لمشروع الجزيرة . وحكم عليه بالسجن سنة .

وعند خروجه من السجن بدأ نشاطاً سياسياً واضحاً يرمى إلى ربط قضية السودان بقضية مصر . وأثناء ذلك حدث تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

الذى منح مصر الاستقلال مع التحفظات الأربعة ومن ضمنها أن تبقى مسألة السودان على ما هى عليه دون تغيير . وعندما تكونت لجنة لوضع الدستور على أساس هذا التصريح فى مصر اقترحت أن يكون اللقب الملكى « ملك مصر والسودان » وكادت تحدث أزمة سياسية وتوعدت بريطانيا وهددت وأخيراً كتبوا نصاً يقول بأن لقب الملك يرجأ إلى أن تحل مسألة السودان ؛ وفى سنة ١٩٢٤ كانت نتيجة الانتخابات أغلبية كاسحة لحزب الوفد وحسب العرف الدستورى ألّف سعد زغلول الحكومة . وفى نفس السنة تكونت جمعية اللواء الأبيض وبدأت نشاطها بإرسال التلغرافات مؤيدة المطالب المصرية بالاستقلال الكامل لمصر والسودان .

حكومة الوفد وحكومة العمال

وفى الوقت الذى تسلمت زمام الأمور حكومة دستورية لأول مرة فى تاريخ مصر وصل حزب العمال لأول مرة لكراسى الحكم فى بريطانيا بزعامة رمزى مكدونالد . وأرسل رئيس الوزارة البريطانية عند افتتاح أول برلمان مصرى تهانيه لسعد زغلول لأجدث برلمان وتمنى توثق روابط الصداقة والود بين القطرين وأبدى استعداد بريطانيا للمفاوضة فى التحفظات الأربعة فى أى وقت . قرئت هذه الرسالة للبرلمان المصرى فى مارس سنة ١٩٢٤ عند افتتاحه وتضمن خطاب العرش فى نفس اليوم تصريحاً مضمونه أن الحكومة ستقوم بعمل خطير وحساس يتوقف عليه مستقبل مصر وهو تحقيق الاستقلال التام بكل ما تحمل كلمة الاستقلال من معان . ولهذا الهدف السامى فإن الحكومة على استعداد للدخول فى مفاوضات خالية من كل التحفظات والشروط مع الحكومة البريطانية لتحقيق الأمانى القومية لمصر والسودان . وهذا أول تصريح رسمى تضمنه خطاب العرش يربط السودان مع مصر فى تحقيق الأمانى القومية بالاستقلال التام وتناقلته أسلاك البرق حاملة إياه لمختلف بقاع الأرض وظهر فى الصحف المصرية بعناوين واضحة .

السودان فى البرلمانين المصرى والإنجليزى

وفى الدورة الأولى للبرلمان المصرى كانت المناقشات تدور حول مسألة السودان من وقت لآخر والاستجوابات تقدم للحكومة عن المعارضة عن

بعض نقاط بالذات تتعلق بمركز بريطانيا الممتاز فى السودان مخالفاً لنص الاتفاقية بإشراك مصر فى الحكم . وانتقد النواب والشيوخ وضع قيادة الجيش المصرى فى يد أجنبى يحكم السودان فى الوقت نفسه . وطالبوا فى حين آخر بأن تعرض ميزانية حكومة السودان على البرلمان المصرى كما كانت عليه الحالة قبل الحرب حيث عرضت على الجمعية التشريعية . وانتقدوا سياسة الضغط والإرهاب التى تقوم بها حكومة السودان ضد السودانيين الذين يودّون السفر لمصر لإظهار ولائهم للتاج المصرى . كل هذه المناقشات تدور فى البرلمان المصرى عن السودان وربطه بقضية مصر وانتقاد انفراد الإنجليز بحكمه . ولا بد والحالة هذه أن يكون هناك رد فعل فى البرلمان الإنجليزى وتقدم الأسئلة والاستجوابات وتظهر التصريحات الرسمية ترد على التصريحات المصرية .

وأكد الناطق بلسان الحكومة البريطانية فى مجلس اللوردات أن مسألة السودان تخص البريطانيين والسودانيين ولا ثالث لهما وإن بريطانيا لا تترك السودان وأى تغيير فى إدارته الحالية لا ينفذ لا بموافقة البرلمان . وفى الحال رد سعد زغلول بأن مصر سوف لا تترك السودان وستبذل أقصى جهدها لإزالة المظالم بالطرق القانونية . وأثناء تلك المصاولات الكلامية كانت سياسة العنف لمناهضة الإنجليز فى مصر واغتيالاتهم لا زالت مستمرة .

جمعية اللواء الأبيض تعمل

كانت جمعية اللواء الأبيض السودانية ورئيسها المغفور له على عبد اللطيف تراقب التطورات فى مصر واتجاهات أول وزارة دستورية شعبية نحو السودان وتصريحاتها الواضحة الاستقلال التام لمصر والسودان ومناقشات برلمانها التى تهدف إلى إزالة النفوذ البريطانى من بلادهم وتصريحات الحكومة البريطانية التى نادت بأن مسألة السودان تخص بريطانيا والسودان ولا دخل لمصر بها ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن تدريب السودانيين لحكم بلادهم أو حتى إشراكهم فى الحكم وبإقصاء مصر عن الميدان يستنتج أن السودان سيضم إلى المستعمرات .

فمصر تربط قضيتها بقضية السودان وتطلب الاستقلال للبلدين وانجلترا تؤكد بقاءها فى السودان دون الإشارة لخطة ترمى إلى تطورات دستورية تهدف إشراكهم فى الحكم . فلا غرابة والحالة هذه أن خرج نشاط جمعية اللواء الأبيض إلى الشارع والجماهير فى سلسلة مظاهرات فى الخرطوم وأم درمان وغيرها من المدن السودانية منادية بسقوط الإنجليز ومؤيدة لمصر فى نضالها ضدهم لتحقيق الأمانى القومية لمصر والسودان وقابلت السلطات الانجليزية هذه الحركة المناهضة لهم بوسائل القمع والإرهاب وزجت بزعمائها فى السجون مع تعذيبهم هناك ، والمستندات والوثائق التى ضبطت فى منزل رئيس الجمعية دلتهم على كل أعضائها العاملين وبذلك قضت على الجمعية عقب نشاطها فى يونيو سنة ١٩٢٤ .

مظاهرات طلبة المدرسة الحربية

وفى أغسطس من نفس السنة خرج طلبة المدرسة الحربية فى مظاهرة سياسية مؤيدة لمصر ونظر البريطانيون إليها كتمرد فى صفوف الجيش قد يؤدى إلى نتائج خطيرة ولا سيما أنهم لم ينصاعوا لأوامر رؤسائهم من كبار الضباط الإنجليز فى الجيش المصرى ولم تتمكن السلطات الإنجليزية من القبض عليهم إلا بعد أن أحكمت الحصار عليهم بواسطة الجيش الانجليزى فى مدرستهم . وحملوا إلى وابور فى عرض النيل الأزرق فترة من الزمن وبعدها أدخلوا السجن العمومى فى كوبر . ووضع الجيش المصرى بوحداته المصرية والسودانية آنذاك كان استمراراً لوضعه منذ أن احتل البريطانيون مصر فى سنة ١٨٨٢ . وكانوا آنذاك الحكام الحقيقيين لمصر بالرغم من وجود الخديوى وحكومة مصرية فهو جيشهم الذى دربوه على النمط الإنجليزى وقائده السردار وكبار ضباطه من الإنجليز . واستعادوا السودان به وأصبح السردار فى الوقت نفسه حاكماً عاماً للسودان . ولكن فى سنة ١٩٢٤ أصبحت مصر مستقلة ولو أنه استقلال محدود بتحفظات ، وأصبح لها ملك ووزارة دستورية تؤيدها أغلبية برلمانية بعد انتخابات عامة حرّة . والضباط الذين يتخرجون من المدارس الحربية فى القاهرة والخرطوم يؤدون قسم الولاء والطاعة لملك مصر . ومع ذلك فالوضع فى الجيش ما زال على ما هو عليه بعد الاحتلال مباشرة وأصبح

التناقض واضحاً بين الحالة القانونية وتطبيقها . والإنجليز مسؤولون عن هذا التناقض فلم يعدّلوا الوضع فى سنة ١٩٢٤ بإزالة هذا التناقض . ولا غرابة فى أن يتمرد الطلبة الحربيون على رؤسائهم الإنجليز الذين لايدينون لهم بقسم الطاعة والولاء ويؤيدون الجهة التى سيؤدون لها القسم .

المفاوضات وما بعدها

والجو الذى جرت فيه المفاوضات بين سعد ومكدونالد لم يكن ملائماً للوصول إلى اتفاق بينهما ، ففى مصر لا تزال أعمال العنف ضد البريطانيين مستمرة وفى السودان أيّدت الحركات المناهضة لانجلترا تجاوبها مع الأمانى المصرية . وفى لندن انزعج المسؤولون من تلك الحركات العدائية لهم فى السودان وقبل بدء المفاوضات عقد اجتماع بين مكدونالد ولورد أللنبى المندوب فى مصر والسير لى ستاك حاكم السودان العام كانت نتيجته أن تخرج مصر من السودان إن لم تتعاون مع بريطانيا فى استمرار الوضع كما نصت عليه اتفاقية سنة ١٨٩٩ وكما جرى تنفيذه منذ ذلك الحين . وفى حالة انفراد البريطانيين بالحكم فى السودان لابد من تكوين قوة دفاع سودانية خالصة ينفق عليها من عائدات زراعة القطن فى الجزيرة والتى كانت على وشك البدء فيها . وسافر سعد فى هذا الجو وليس على استعداد فى أن يفرط أو يتنازل عن التصريحات التى تضمنها خطاب العرش وهى تحقيق الأمانى القومية فى الاستقلال التام لمصر والسودان ، والحكومة الإنجليزية من جانبها كانت مصرة على أن مسألة السودان تخصها هى والسودانيين دون غيرهم وأن لا علاقة بين المسألتين . وكانت الهوة سحيقة بين موقف الدولتين وانتهت بالفشل . وفى كتاب أبيض عقب فشل المفاوضات أكد مكدونالد أن السودان وديعة فى يد بريطانيا ولا تسلم زمام الأمور فيه إلاّ للسودانيين .

مقتل السردار ونتائجه

وفى نوفمبر سنة ١٩٢٤ كان السير لى ستاك عائداً من أجازته فى انجلترا ومر بالقاهرة بصفته قائداً للجيش المصرى لإنجاز أعماله فى وزارة الحربية المصرية . وفى يوم ١٩ نوفمبر أطلق عليه جماعة من المصريين المتحمسين لقضيتهم النار فى شوارع القاهرة وأردوه قتيلا . واستلمت الحكم فى بريطانيا

وزارة المحافظين عقب سقوط وزارة مكدونالد قبيل هذا الحادث وأرسلت تبليغا بريطانيا للحكومة المصرية تضمن سحب وحدات الجيش المصرى من السودان ودفع ٧٥٠ ألف جنيه سنوياً لنفقات قوة دفاع السودان التى سوف تنشأ وإعطاء الحرية لحكومة السودان فى رى أراضى الجزيرة كما تريد لا حسب ما اتفق عليه . ولكن هذا البند الأخير سحب أخيراً لأن اللود أللنبى استعجل تسليم التبليغ قبل تسلم النص الأخير من حكومته وما كان يحوى هـــذا البند . وفى موكب عسكرى إنجليزى حمل لورد أللنبى التبليغ لرئاسة مجلس الوزراء وسلمه لسعد زغلول . وما كان سعد على استعداد لتنفيذ كل بنود التبليغ ولذلك قدم استقالته للملك وقبلت .

وعندما أرادت السلطات الإنجليزية تنفيذ سفر الوحدات المصرية إلى مصر رفض قائد الطوبجية الأمر إلا بأوامر تصله من الملك وبعث الملك مندوباً فى طائرة خاصة وانصاع القائد لأمر الملك وبدأ يتجهز بأورطته للرحيل . وترامى إلى سمع الضباط السودانيين رفض الطوبجية الرحيل وأشيع أنهم سيقاومون واستعدوا لذلك وخرج جماعة منهم على رأس جنودهم للانضمام إلى زملائهم فى السلاح بكامل معداتهم ، وعندما كانوا فى شارع الشاطئ بالقرب من المستشفى العسكرى تصدت لهم الجنود البريطانية والتى كانت تحتل كلية غوردون ومنعتهم من الوصول إلى الكبرى . ووقعت معركة حامية استمرت بقية اليوم والليل وصباح اليوم التالى وانهزم السودانيون بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقدموا تضحيات وعلى رأس المضحين البطل عبد الفضيل ألماظ حيث سقط فى المعركة وهو ممسك بمدفعه الرشاش وكبدوا البريطانيين خسارة كبيرة ولولا أن ذخيرتهم نفدت لصمدوا وقتاً كبيراً مضحين بأرواحهم . وقبض على الضباط الثوار وأعدموا وهم المغفور لهم سليمان محمد وحسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم ، وحل وثاق الضابط على البناء فى اللحظة الأخيرة قبل إطلاق الرصاص عليه .

الحالة فى ديسمبر ١٩٢٤

عندما انصرمت سنة ١٩٢٤ أخلى السودان من الضباط والجنود المصريين وأتبعتهم حكومة السودان بالمدرسين وبعض الموظفين المصريين واقترح نائب الحاكم العام ونائب السودان متعاونين إنزال العلم المصرى والقضاء على أية صفة قانونية لمصر لأنهما لا يستطيعان إنشاء جيش مزدوج الولاء وأن الأسس التى بنيت عليها إدارة السودان صارت مزعزعة ونزعات التمرد بين صفوف الوحدات السودانية لم تنته بعد وكان من الواجب إنهاء النفوذ المصرى عقب مقتل السير لى ستاك مباشرة . ولكن هذا الاقتراح لم يلق قبولا من جانب الحكومة البريطانية ومعتمدها فى مصر اللورد لويد وهو من غلاة المستعمرين ، وعند مفتتح سنة ١٩٢٥ وبعد تصفية الثورة وإقصاء الجيش المصرى بدأت حكومة السودان سياسة قمع وإرهاب وتجسس وإذلال . ووضح ذلك فى المدارس حيث أجلس تلاميذ المدارس الأولية فى البروش على الأرض وبيعت مقاعدهم الخشبية بالمزاد وأمر التلاميذ فى المدارس الابتدائية وفى كلية غوردون بكنس ونظافة فصولهم وداخلياتهم وخصصت أيام للتلاميذ يقومون فيها بأعمال نظافة عامة من نقل الأتربة والرمال وغيرها ومن يضبط متلبساً بجريمة قراءة الجرائد المصرية يعاقب بالجلد وربما الطرد من المدرسة .

تقييم ثورة ١٩٢٤

كانت فكرة الإنجليز عن ثورة ١٩٢٤ أنها نتيجة دعاية مصرية وتأييد مالى مصرى وبذلك لم تكن حركة قومية سودانية وظهر أثر هذه الفكرة على بعض السودانيين الذين تأثروا بالدعاية الإنجليزية ونادوا بفكرة « السودان للسودانيين » كفكرة مضادة ولكنهم لم يتخذوا خطوات لانتزاع حريتهم ممن يكبتونها وهم الإنجليز وكانوا بهذه الحالة فى موقف دفاعى لما ظنوه مطامع مصر نحو ضم السودان لها ولقى هذا الفريق التأييد الكامل من الإنجليز طالما أنهم يناهضون المصريين وحدهم ولم يطالبوا بإشراك فى الحكم أو تدرج نحو الحكم الذاتى والاستقلال : أما فريق الثورة ضد الإنجليز سواء

منهم رجال جمعية اللواء الأبيض أو طلبة المدرسة الحربية أو الجنود والضباط من السودانيين ممن دخلوا فى معركة ضد الجيش الإنجليزى فكانوا يرون بأعينهم استئثار الإنجليز بالنفوذ والسيطرة ويرون عجرفة الحكام وإذلالهم للشعب وبارقة الأمل الوحيدة للخروج من حالة الكبت هى ربط قضيتهم بمصر التى خطت نحو الاستقلال والحرية وقرأوا وعلموا أن الكثير من الشعوب نالت حريتها من مستعمريها ومستغليها بمعاونة دول أخرى صديقة ومصر تربطها ببلادهم أواصر الدم والتاريخ وفوق ذلك النيل وهم إخوان فى السلاح وفى الوظائف الصغيرة التى تركها الإنجليز للفريقين .

ولو كانوا أذيالا للحركة المصرية بأجر يتقاضونه منها حسب رأى الإنجليز وخصومهم من السودانيين لما وضعوا وظائفهم بل أرواحهم فى كفة القدر ولما وصلوا إلى درجة الاصطدام المباشر بسيطرة الإنجليز والتعرض لإرهابهم وكبتهم وتعذيبهم . ولو لم تكن هذه النزعة نحو الحرية والخلاص من السيطرة الإنجليزية نابعة من قلوبهم وبدافع من وطنيتهم لأحنوا رءوسهم للعاصفة وآثروا السلامة لأن الإغراء بالمال لم يكن يوماً من الأيام دافعاً للتضحية بالراحة والنفس . فالذين ماتوا منهم فى المعركة والذين عجلت ظلمات السجون بنهايتهم والذين قضوا مدة السجن وخرجوا بعد أن فقدوا وظائفهم لهم منا أسمى غايات التقدير والإعجاب وهم الذين وضعوا أسس الحركة الوطنية التى أدت فى نهايتها للحرية والاستقلال وجنينا ثمرة ما غرسوه ، وإن ما قام به بعضهم من تحول وتنكر لماضيهم أو استغلال مشين لمساهمتهم فى تلك الحركة لا يجب أن يصرفنا عن جوهرها وأنها لا زالت بداية الانطلاقة .

مشروع الجزيرة

ومشروع الجزيرة الذى أصبح الآن عماد دخلنا القومى وميزانية حكومتنا بدأ التفكير فيه كما قدمنا قبل الحرب وبدئ بتنفيذه فعلا وعندما وضعت الحرب أوزارها ارتفعت تكاليف التشييد لدرجة أن حكومة السودان

اضطرت لاستدانة ملايين أخرى زيادة على الثلاثة التى حصلت عليها قبل الحرب وعقب حوادث سنة ١٩٢٤ بدأ المشروع يؤتى أكله حيث تدفقت المياه فى الترع والخزانات وزرعت المرحلة الأولى وعهد على إدارته لشركة إنجليزية على أساس توزيع الأرباح بنسب مئوية بين الشركة والحكومة والمزارعين . فالشركة تمد المزارعين بالسلفيات وتقوم بتسويق المحصول وتباشر العمليات الزراعية والحكومة عليها الرى والمزارع يقوم بالعمل .

ثورة نيالا فى سنة ١٩٢١

وفى هذه الحقبة لم تعان حكومة السودان من اضطراب خطير إلا فى دارفور حيث ثار الفكى السحينى فى نيالا وادعى أنه نبى الله عيسى وهاجم مركز نيالا فى خمسة آلاف من أتباعه . ولم يكن به إلا عدد قليل من رجال البوليس وخمسين من البيادة الراكبة بقيادة اليوزباشى بلال رزق وقتل المفتش ومعه متطوع إنجليزى آخر وعدد من رجال البوليس والجيش وظن الثائرون أنهم امتلكوا المركز وخرجوا منه . غير أن اليوزباشى بلال رزق قاد ما بقى من رجال الجيش والبوليس والمتطوعين من الموظفين والتجار ورد هجوماً ثانياً جرح فيه زعيم الثوار وأخذه أتباعه خارج البلد وانفرط عقدهم وانهزموا بعد أن تركوا فى ميدان المعركة المئات من جثث قتلاهم . وجند الحكومة نفدت ذخيرتهم فلو كان هناك هجوم ثالث لما صمدوا له . ويعزى أسباب التذمر والثورة إلى أن قبائل جنوب دارفور كانت دائماً فى حرية فتاريخها مع ملوك دارفور والتركية السابقة والمهدية وعلى دينار هو تاريخ سلسلة من الثورات ضد نظام الحكم القائم وضد أى سيطرة أجنبية وزعماؤهم كرهوا إدخال الضرائب وحرمانهم من حكم قبائلهم بطريقتهم التقليدية فلا غرابة إذا ما التفوا حول ثائر صاحب رسالة دينية ينقذهم من تلك السيطرة .

سياسة مفى العامة

عين سير جوفرى أرثر حاكماً عاماً للسودان فى سنة ١٩٢٥ ولكنه لم يبق كثير حيث استقال من منصبه ولم يتبين لنا ما دعاه للاستقالة ولكن أشيع أنه كان على خلاف فى تخطيط السياسة العامة مع كبار معاونيه الإنجليز فى

السودان ومع اللورد لويد المندوب السامى البريطانى فى مصر ، وقد لا نعرف الحقيقة إلا بعد أن يسمح للباحثين بالاطلاع على الوثائق السرية فى دار المحفوظات البريطانية وقد يطول بنا الوقت لأنهم الآن فتحوها لسنة ١٩١٢ فقط وخلفه السير جون مافى وعاونه فى عهده سكرتيراً إداريا وساعداً أيمن السير هورولد ماكمايكل وأدار الاثنان السودان إلى سنة ١٩٣٣ . وتخطيط السياسة فى عهد مافى تأثر بثورة ١٩٢٤ وتركزت فى تطوير الإدارة الأهلية ومنحها سلطات كبيرة ومقاومة النفوذ المصرى بالضغط على المثقفين ومراقبة طرق الاتصال بين مصر والسودان وتكونت قوة دفاع السودان وأصبح ولاءها للحاكم العام ويصرف عليها من الـ ٧٥٠ ألف جنيه التى تدفعها مصر لحكومة السودان لهذا الغرض .

الإدارة الأهلية

وزع السيد جون مافى مذكرة للمديرين عن طريق السكرتير الإدارى ضمنها مقترحاته لتطوير الإدارة الأهلية . وكانت بداية هذه النزعة عقب تصريح ملنر مباشرة إذ صدرت لائحة حددت سلطات واختصاصات لزعماء القبائل البدوية ودرجت الحكومة على تأهيل بعض السودانيين للقيام بوظائف نواب المآمير بدلا من الضباط المصريين . والاختيار لهذه الوظيفة لم يكن على أساس المستوى الثقافى بل لصفات أخلاقية شخصية وبتوصيات من الزعماء السودانيين والانجليز الكبار ولكن مذكرة مافى كانت تهدف إلى تأسيس إدارات أهلية تنتظم كل السودان وخصصت لها سلطات إدارية ومالية وقضائية وقدم تفاصيل مشروعه بعد أن وضح أن إشراك السودانيين فى الحكم إما أن يقوم أساساً على زعماء العشائر أو على المتعلمين من السودانيين وهو يفضل الأولى . ولا غرابة فى ذلك إذا ما علمنا أن تلك السياسة خططت بعد ثورة ٢٤ وعمادها من المتعلمين . وذكر أن الإدارة الأهلية التى تعتمد على الزعماء ورجال العشائر ستكون ترياقاً ضد الدعاية المصرية وسيكون عليهم رقابة إنجليزية فعالة . وللورد لوجارد تأثير محسوس فى انتهاج هذه السياسة حيث طبقها فى نيجريا وكان كتابه Dual mandate إنجيلا لمن يودّون تطبيقها

فى المستعمرات وكانت حكومة السودان قبل عهد مضى بعثت مفتشاً إنجليزيا لنيجريا ليدرس تطبيق هذه السياسة هناك ، وعند الموافقة على المشروع وقبل بدء التنفيذ مهد السبيل بدمج بعض المجموعات الصغيرة فى أخرى كبيرة حتى لا تتعدد الإدارات فى منطقة واحدة ولم تخل هذه العملية من اعتراضات وتلتها اختيار الرؤساء من الزعماء المحليين لإدارتها وصدرت اللوائح تحدد الاختصاصات . وفى بداية التنفيذ وخاصة فى ناحية المحاكم الأهلية صدرت أحكام لا تمت بصلة لقانون العقوبات ولا للعرف والعادة بل هى تشفيات شخصية وضج الناس من أحكامها ولكن تدخل المفتش البريطانى خفف من شدتها وبعضها تعدى على اختصاص المحاكم الشرعية مؤيدة بالمفتش واصطدموا بها مما أثار النعرة الدينية حتى خيل للكثيرين أن المحاكم الأهلية تستهدف إزالة محاكم الشريعة الإسلامية وأن الإنجليز يرمون إلى إضعاف الدين .

حالة جمود فى النواحى الأخرى

أصبحت حكومة السودان فى مأمن من جانب المنافسة المصرية فإجلاء الجيش المصرى والمدرسين وبعض الموظفين وبتعيين حاكم عام لا علاقة له بمصر إذ زالت صفة سردار الجيش المصرى التى تجعله يخضع لحد ما لوزير الحربية المصرية وإنشاء قوة دفاع سودانية تدين بالولاء والطاعة للحاكم العام — كلها أمور زادت فى قوة الحاكم العام وبالتالى فى انفراد الإنجليز بإدارة السودان ولم يبق من مظاهر ثنائية الحكم إلا العلم المصرى ، وجمدت إدارة السودان التعليم فى مختلف مراحله حيث بقيت المدارس على ما كانت عليها قبل الثورة وأصبح الإنجليز ينظرون إليها على أنها مكمن الخطر ونزل مستواها لأن إجلاء المدرسين المصريين المدربين أحدث فراغاً حاولوا أن يملأوه بنقل نظار المدارس الأولية للتعليم فى المدارس الابتدائية وبتعيين عدد من خريجى جامعة بيروت الأمريكية من اللبنانيين والسوريين للتدريس فى كلية غوردون فمن كانت له كفاءة علمية تنقصه الخبرة وطريقة التدريس . وكان للأساتذة المصريين الفضل الأكبر فى نهضة التعليم منذ إنشاء كلية غوردون وفتح المدارس الابتدائية .

سياسة رجعية في مجملها

مما تقدم يتضح لنا أن السياسة التى اختطها السير جون ما فى بمعاونة ساعده الأيمن ماكمايكل فى أعقاب حوادث سنة ١٩٢٤ سياسة رجعية تهدف إلى تجميد المدارس والتعليم وإثارة النعرات القبلية بإنشاء الإدارة الأهلية والعمل بالعرف الأهلى الذى انقرض وذهب وإحياء سلطة للمشايخ فقدوها منذ أمد بعيد وأغلقوا مدرسة وكلاء المآمير التى كان يتخرج منها سودانيون للعمل فى الإدارة وأغلقت أيضاً المدرسة الحربية وكان طلابها يتلقون التدريب اللازم قبل تخرجهم كضباط فى الجيش وأصبحت الترقية لمرتبة الضباط من الصفوف وبهذا أصبح التعليم يحرم الشاب السودانى من وظائف الإدارة والجيش بعد سنة ١٩٢٤ . وضيق الخناق على المتعلمين فى سفرهم لمصر حتى لا يروا النور ، وأصبح المفتش الإنجليزى خريج جامعات أكسفورد وكمبردج يعزف عن التحدث مع المتعلمين ومؤانستهم إلا إذا كان يسبح بحمدهم وصاروا يرون فى العمد ورؤساء الإدارات أصدقاء وزملاء يوثق بهم ويطمئنون للحديث معهم . واسترعت هذه السياسة الرجعية انتباه السير جيمس كرى أول مدير للمعارف فى السودان إلى سنة ١٩١٤ . عندما زار السودان مرتين الأولى فى سنة ١٩٢٦ والثانية سنة ١٩٣٢ كتب ما نصه « بعد الحوادث التى انتهت بمقتل ستاك انزعجت الإدارة الإنجليزية المحلية . فبالرغم من إخلاص السودانيين المتعلمين للحكومة صرنا نشاهد الإداريين من الشبان الإنجليز يبحثون بنشاط واهتمام عن قبائل اختفت وعن زعماء صاروا فى طى النسيان كل هذا محاولة منهم لبعث نظام اجتماعى عفى عليه الزمن واختفى إلى الأبد » .

اتفاقية مياه النيل

كان استرجاع السودان ضرورة استدعتها المنافسة الدولية فى وادى النيل والخوف من أن تحتل أية دولة أوروبية واحتمال نقص فى مياه النيل اللازمة لحياة مصر وزراعتها وكلما كانت مصر تطالب بنصيبها فى حكم السودان كان الرد البريطانى دائماً أن مصر لا تحتاج إلا لمياه النيل وبريطانيا تضمنها لها

وعندما قام مشروع الجزيرة حددت المساحة المنزرعة وحددت المدة التى لا يسمح فيها للسودان بسحب مياه من النيل إلا بقدر معلوم كل ذلك لتطمئن مصر على أن حاجاتها الضرورية لأراضيها المنزرعة وللتوسع الطبيعى المعقول تصلها بانتظام وفى مواقيتها . ولكن فى التبليغ الذى سلمه لورد أللنبى للحكومة المصرية عقب مقتل السردار فى سنة ١٩٢٤ نص أن لحكومة السودان مطلق الحرية فى زيادة الأراضى المنزرعة فى الجزيرة . وبالرغم من أن هذا البند من التبليغ سحب نهائياً إلا أن مصر ما زالت قلقة على حاجتها الضرورية من مياه النيل وبدأت أبحاث فنية ولجان تستهدف وضع أسس سليمة لتوزيع مياه النيل بين مصر والسودان توجت باتفاقية فى سنة ١٩٢٩ ظلت سارية المفعول إلى أن عدلت أخيراً فى عهد الثورة فى السودان . ومن الناحية السياسية كانت هناك محاولتان بعد سنة ١٩٢٤ تهدفان لحل مشكلة التحفظات الأربعة ومن ضمنها مسألة السودان وكلتاهما كان مصيرهما الفشل وفى الثانية بالذات فى سنة ١٩٣٠ كان السودان الصخرة التى تحطمت عليها المفاوضات .

الأزمة الاقتصادية

فى سنة ١٩٢٩ ظهرت بوادر تدهور اقتصادى عالمى أثر على أسعار القطن وتسويقه والذى أصبح آنذاك المحصول الرئيسى النقدى للسودان ، وزامل هذه الأزمة العالمية نقص فى المحصول فى السنوات التالية من جراء أمراض القطن وهبوط فى محصول الذرة من غزوات الجراد . وعيّن المستر فاس من الخزانة البريطانية ليعالج المشكلة الاقتصادية ولا سيا أن الحكومة البريطانية كانت ضامنة للديون التى موّلت بها حكومة السودان مشروع الجزيرة ، وأعمل فاس فأسه فى تخفيض المصروفات بأن قلل عدد الوظائف واقتطع نسبة مئوية من الماهيات . . ومن ضمن التخفيضات كانت ماهيات خريجى كلية غوردون . وكانت هذه الفئة المتعلمة ترزح تحت الضغط الذى أعقب ثورة ١٩٢٤ . وفى سنة ١٩٢٨ رجعت أول بعثة مدرسين سودانيين لجامعة بيروت الأمريكية للتدريس فى كلية غوردون . وقد درسوا فى جو من حرية القول والكتابة والعقيدة والاجتماعات ما لم يألفوه فى السودان واختلطوا بمختلف الشبان من

البلاد العربية التي وصلت إلى درجة مافى حكم بلادها تفوق ما وصل إليه السودانيون ، وأمريكا آنذاك قبلة من يطالب بتحرير بلاده والجامعة فى بيروت أمريكية بأساتذتها ومكتبتها العامرة بأحدث المؤلفات التى تعالج المسائل السياسية والاجتماعية فى حرية تامة . عاش هذا الرعيل الأوّل من مبعوثى مصلحة المعارف السودانية أربع سنوات فى هذا الجو . . وعند رجوعهم نشروا بين تلاميذهم أفكاراً جديدة ونقلوا إليهم صوراً عن حياة الحرية والتجديد هناك .

اضراب طلبة كلية غوردون فى سنة ١٩٣١

وعندما وصل فاس بفأسه إليهم واقتطع من مرتباتهم التى سوف ينالونها بعد تخرجهم كانوا فى حاجة إلى متنفس من حياة الكبت والضغط وفتح لهم العائدون من بيروت آفاقاً من الحرية والانطلاق وهاهى الحكومة زادتهم ضيقاً على ضيق وكان ردهم على هذا الإجراء بأن أعلنوا إضرابهم عن الدراسة وواصلوا إضرابهم بالرغم من محاولات الآباء والزعماء الدينيين لإقلاعهم عنه ، وتكونت لجنة ضمت عشرة من كبار خريجى كلية غوردون للتوسط بين الحكومة والطلبة وكللت مساعيها بالنجاح بأن نقص التخفيض من ٣٠٪ إلى ٢٠ ٪ وبهذا رجعوا للدراسة . والآثار الباقية لهذا الإضراب هى أن مجموعة من السودانيين استخدمت سلاح الإضراب الجماعى ونجحت ، وأن الطبقة المثقفة كونت لجنة لمعالجة أمر عام فيه مصلحة فريق من المواطنين والبلاد عامة . وكانت محنة أيام الإضراب والتهديد بالرفت وبعدم التعيين والمناقشات التى تدور بينهم مدرسة عملية ، تلقوا فيها مبادئ الوطنية والصبر والجدل والمناقشة فى المسائل العامة وهذه هى الدروس التى أهلت الكثير منهم للمساهمة فى الحقل الوطنى فى العهود التى تلت عهدهم .

عهد سايمز

انتهى عهد مافى وماكايكل وحل محله عهد جديد حين عيّن السير جورج ستيوارت سايمز حاكماً عاماً والمستر جيلان سكرتيراً إدارياً . وانقشعت بذلك سحابة كانت تظلل السودان حاملة الكبت وتقييد الحريات فى أعقاب

ثورة ١٩٢٤ وتجميد لجهاز التعليم وتعاونت معها الأزمة الاقتصادية العالمية وآفات القطن والذرة مما أدى إلى تخفيض المرتبات ونقص عدد الوظائف وإقصاء المتعلمين من خريجى كلية غوردون والمدارس الابتدائية من وظائف الجيش والإدارة وتأسيس سياسة رجعية ترمى إلى إعطاء سلطات استثنائية لرؤساء القبائل وللإدارات الأهلية يحكمون فيها بما يدعى بالعرف والعادة ولا عرف ولا عادة هناك ومحاولة المباعدة ما بين مصر والسودان . وبقدوم سايمز كانت الأزمة الاقتصادية قد زالت وظهرت مطامع إيطاليا فى الحبشة واضحة جلية للعيان ودخلت جيوش موسولينى الحبشة وخرج منها الإمبراطور هيلا سلاسى وأصبحت الفاشيستية فى جوار مع السودان وهى لا تعرف حداً لمطامعها وسترنو بأبصارها نحو السودان كمجال حيوى للتوسع وستكون خطراً على مصر والسودان بصدد مياه النيل الأزرق . وهذا الموقف الدولى كان له أثره فى إجراء المفاوضات بين مصر وانجلترا لحل المسائل المعلقة بين البلدين .

اتفاقية سنة ١٩٣٦

خلافاً للعادة فى المفاوضات السابقة فقد جرت فى القاهرة لا فى لندن واشترك فيها ممثلون لكل الأحزاب ولم ينفرد بها حزب واحد . وعندما اتفق الطرفان المتفاوضان على كل البنود سافروا إلى لندن وتمت المراسيم بإبرامها ووافق عليها البرلمانان فى القاهرة ولندن . ويهمنا فى هذا الصدد الفقرة الخاصة بالسودان . وتفادى الفريقان مشكلة السودان بأن أبقياها على ما كانت عليه على أساس اتفاقية سنة ١٨٩٩ وزادا عبارة غامضة مبهمة تشير إلى أن الهدف من حكم السودان هو رفاهية السودانيين وتفاديا مسألة السيادة إذ علقاها ولكن فى الملاحق حاولت الاتفاقية أن تعيد للمصريين بعض ما فقدوه بعد حوادث ١٩٢٤ . فقد اتفق على رجوع أورطة مصرية للسودان تكون تحت إمرة الحاكم العــام وأن لا تتخذ إجراءات ضد هجرة المصريين للسودان إلا لدواعى الصحة والأمن وأن لا يميز بين الإنجليز

والمصريين فى ممارسة التجارة والهجرة وملكية الأراضى وفى التعيين للوظائف التى لا يوجد سودانيون مؤهلون لها . وهذه الملاحق أرضت نوعاً الكرامة المصرية ولكن لا مشاركة فعلية فى الحكم ولا تغيير فى الجهاز الإدارى بما يساعد على إشراك السودانيين اللهم إلا بقدر معلوم توجيه ضرورة التطور . والحاكم العام الجديد وراء كل هذه الإجراءات التى أدت إلى رجوع المصريين للسودان لدرجة محدودة ، ونتيجة لذلك زالت بعض العوائق التى كانت تحول دون الرحلة لمصر فى سبيل العلم .

اتجاه جديد لسايمز

ولم يرض عن السياسة التى اتبعها سلفه لتطوير الإدارة الأهلية وإهمال المتعلمين وحصرهم فى أعمالهم الرسمية كموظفين وهو الذى عرف وعيهم السياسى وتطلعهم لليوم الذى يسيّرون فيه دفة أمورهم . ومن آرائه التى ناقش فيها معاونيه خلق أمة سودانية لها كيانها ولابد من إشراك الشعب بمختلف قطاعاته وخططت سياسة تهدف إلى إشراك المتعلمين فى المجالس البلدية فى المدن وخاصة فى مديرية الخرطوم وكان المستر ارمسترنج مديرها آنذاك هو الذى قام بتنفيذ تلك السياسة وبدأت سياسة تقارب بين الإنجليز والسودانيين من خريجى المدارس وخاصة الموظفين منهم وكل هذه محاولات لإصلاح ما أفسدته سياسة مافى وماكايكل وبدأ التفكير من جانب سايمز فى إمكانية التعليم الجامعى للسودانيين وأثار هذا الرأى اعتراضات من بعض الإداريين الإنجليز والمغالين منهم وهم يرون فى السودانى الجامعى منافساً خطيراً لهم لأنه سيطالب بالوظائف الكبيرة وهم لا يرون الشهادة الجامعية وحدها كافية لأن المستوى للسودانى فى المجتمع والمنزل لا يؤهله لتلك المناصب ذات المسؤولية وغادر سايمز السودان ولم ينجح فى تنفيذ تلك السياسة ولكن فى السنين الأولى من الحرب كانت هناك فكرة ترمى للنهوض بالتعليم العالى فى المستعمرات البريطانية وكونت لجان خاصة لهذا الغرض أوصت بفتح أبواب التعليم الجامعى للأفريقيين فى بلادهم ، ولكن هذا موضوع خارج

عن نطاق قصتنا لأنها تنتهي قبيل الحرب ولكن إنصافاً لسايمز واتجاهاته نحو السودانيين الواعين لابد من تقرير هذه الحقيقة .

مؤتمر الخريجين

بعد ثورة ١٩٢٤ وسياسة الكبت التي اتبعتها حكومة السودان اقتصر نشاط الخريجين على الاطلاع والمناقشة في المسائل الأدبية ، وكانت تعقد المساجلات والمناقشة في الأندية أو الجمعيات الأدبية في المنازل ، ومن وقت لآخر يظهر نشاط لبعضهم في الصحف وكانت قليلة جداً في موضوعات اجتماعية وأدبية وفي المناسبات الدينية كالمولد ورأس السنة الهجرية وغيرها تلقى الخطب والقصائد الشعرية تتحدث عن أمجاد الماضي وتتحسر على الحالة التي أصبحنا فيها . غير أن تلك المساجلات والمناقشات والخطب والقصائد لا تلتزم الموضوع بل تخرج برفق أحياناً وبوضوح وعنف في القليل إلى موضوعات سياسية تهز الحكام الإنجليز في الأقاليم وإدارة المخابرات في العاصمة وقد تعقبها استجوابات وربما مجالس للتأديب أو محاكمات . وكانوا يتناولون اتفاقية سنة ١٩٣٦ المعقودة بين مصر وانجلترا في مناقشاتهم ورأوا أنهم أهملوا ولم يستشاروا فيها واهتدوا إلى أنهم لم تكن لهم هيئة تتحدث باسمهم في مثل هذه الأمور التي تمس كيانهم وبرزت فكرة مؤتمر يضم الخريجين في إحدى مناقشات الجمعية الأدبية في نادي الخريجين بودمدني وكان السيد أحمد خير صاحب الفكرة وتلقفها نادي الخريجين بأم درمان لأنه في العاصمة أولا وأولها ثانياً وبعد ندوات تحدث فيها عدد من الخريجين خرج مؤتمر الخريجين للوجود في فبراير سنة ١٩٣٨ .

دستوره وأهدافه

وكانت رغبة الذين قاموا على تأسيسه أن لا تقف دون ظهوره عوائق تودي به لأن هيئة كهذه أصبحت ضرورة . ولئلا يتركوا للحكومة مجالا يمتلونه في مهده ولأنه كان يضم بعض كبار الخريجين المعتدلين في آرائهم نص دستوره في ديباجته على أنه هيئة تخدم مصالح الخريجين أولا ومصالح البلاد عامة ثانيا . وفي الخطاب الذي وجهه سكرتيره لمكتب السكرتير

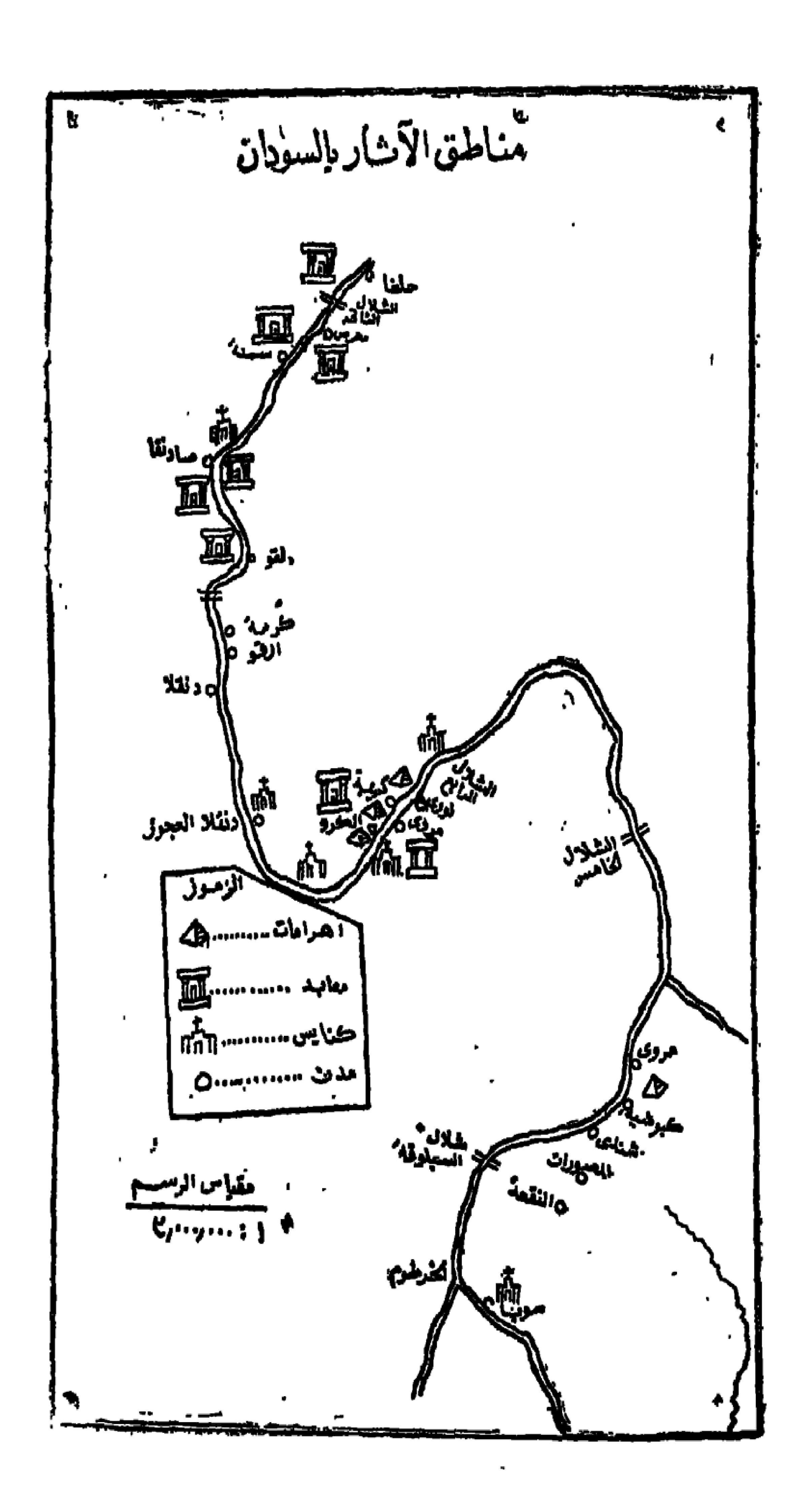
الإدارى ذكر أن الهيئة تهدف إلى العمل فى ميدانى الإصلاح الاجتماعى والأعمال الخيرية وليس من أهدافها إحراج الحكومة أو القيام بنشاط يتعارض مع سياستها وأن أغلبية أعضائها من موظفى الحكومة وهم يشعرون بواجباتهم كموظفين وهم على ثقة من أن الحكومة تقدر موقفهم كطبقة أخذت نصيباً من العلم لها واجبات يجب أن تقوم بها للمصلحة العامة ، وكان رد السكرتير الإدارى نيابة عن الحكومة الترحيب لقيام المؤتمر طالما أن أهدافه هى خدمة البلاد والأعمال الخيرية ولا تعترف بها الحكومة كهيئة سياسية وليس لها أن تمثل غير وجهة نظر أعضائها ، وبدأ المؤتمر نشاطه فى جمع التبرعات لإعانة وإنشاء المدارس الأهلية وكانت هناك حاجة ماسة للمدارس الابتدائية ولا سيما إذا علمنا أنها كانت أنذاك عشر فقط أربع منها نشأت بعد سنة ١٩٢٠ . ولكن منذ البداية كان مؤسسوه يهدفون بعد أن يتركز إلى جعله هيئة سياسية تتحدث باسم السودان ، وهذا ما قام به المؤتمر أثناء الحرب وهذه حقبة خارجة عن نطاق بحثنا .

الخريجون والسيدان

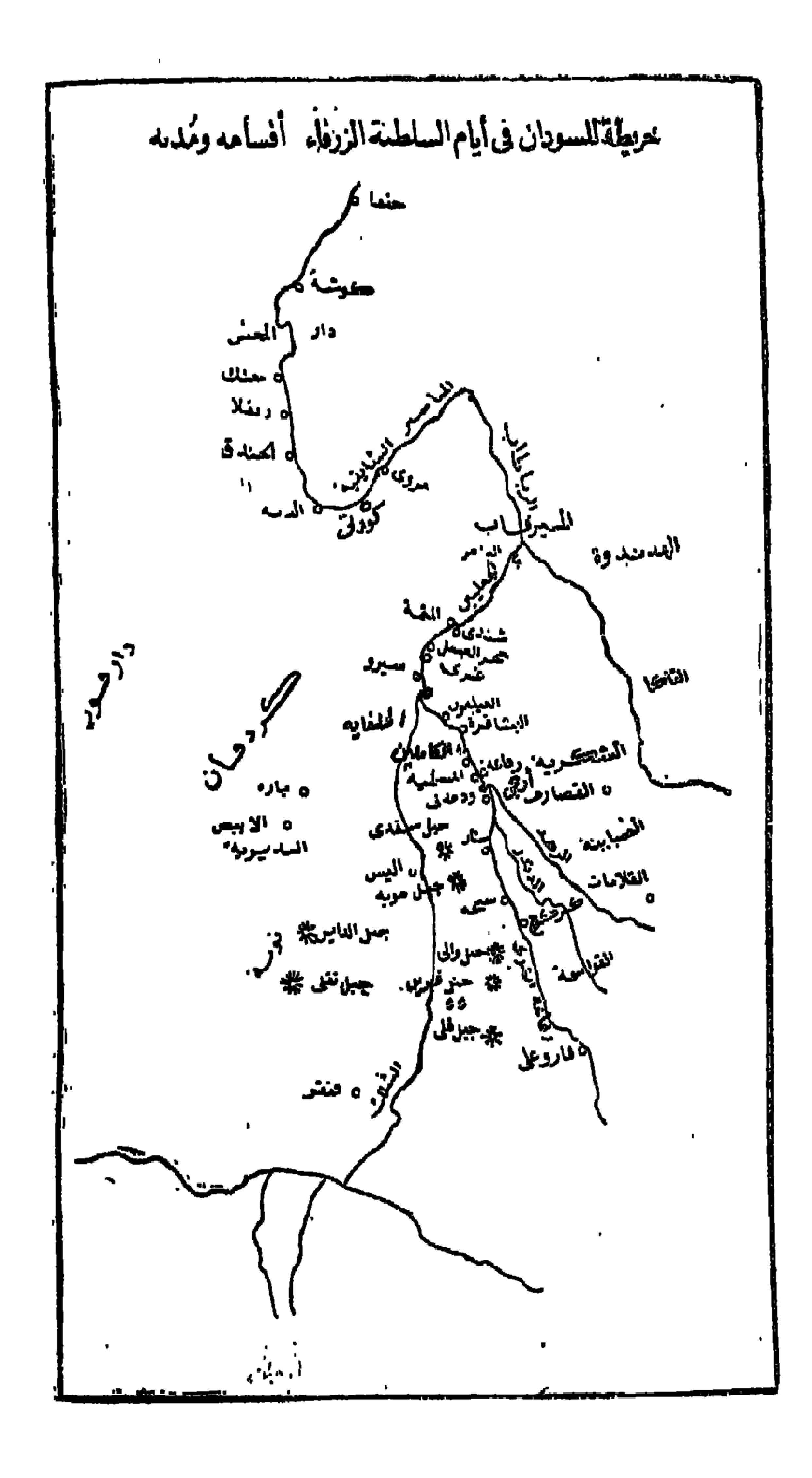
تركنا الزعيمين الدينيين الكبيرين السيد علي المرغنى والسيد عبد الرحمن المهدى فى سنة ١٩١٩ على رأس وفد التهنئة الذى ذهب لإنجلترا . وقبل ذلك اشتركا فى سفر الولاء تأييداً لانجلترا فى حربها ضد ألمانيا وحليفتها تركيا أنذاك . ولم يشتركا فى ثورة سنة ١٩٢٤ لا من قريب أو بعيد ولكن فى الثلاثينيات كان واضحا أن بعض الخريجين قد توثقت علاقاتهم مع السيدين والعداء لا زال مستحكما بين طائفة الأنصار أتباع السيد عبد الرحمن والختمية أنصار السيد على المرغنى وانتهج السيد عبد الرحمن سياسة التوسع فى زراعة القطن وقد درت عليه خيراً كثيراً مما أزعج الإنجليز وحاولوا بمختلف الطرق إيقاف توسعه وزيادة أمواله لأنهم يعرفون فى طائفة الأنصار بذلها وتضحيتها وفدائية أتباعها . وهم بالرغم عن تفاهمهم مع زعيمها يرون فيها قوة فدائية قد تكون خطرا عليهم . ومما زاد فى غضبهم ترحيب السيد

عبد الرحمن بالوفد المصرى التجارى سنة ١٩٣٥ فى الجزيرة أبا حيث ردم جسراً على مجرى صغير للنيل فى ظرف ساعات لمرور عزبات الضيوف . وأعطيت الأوامر للمفتشين فى دارفور وكردفان لمنع وفود المهاجرين من الوصول لأبا أو أم درمان .

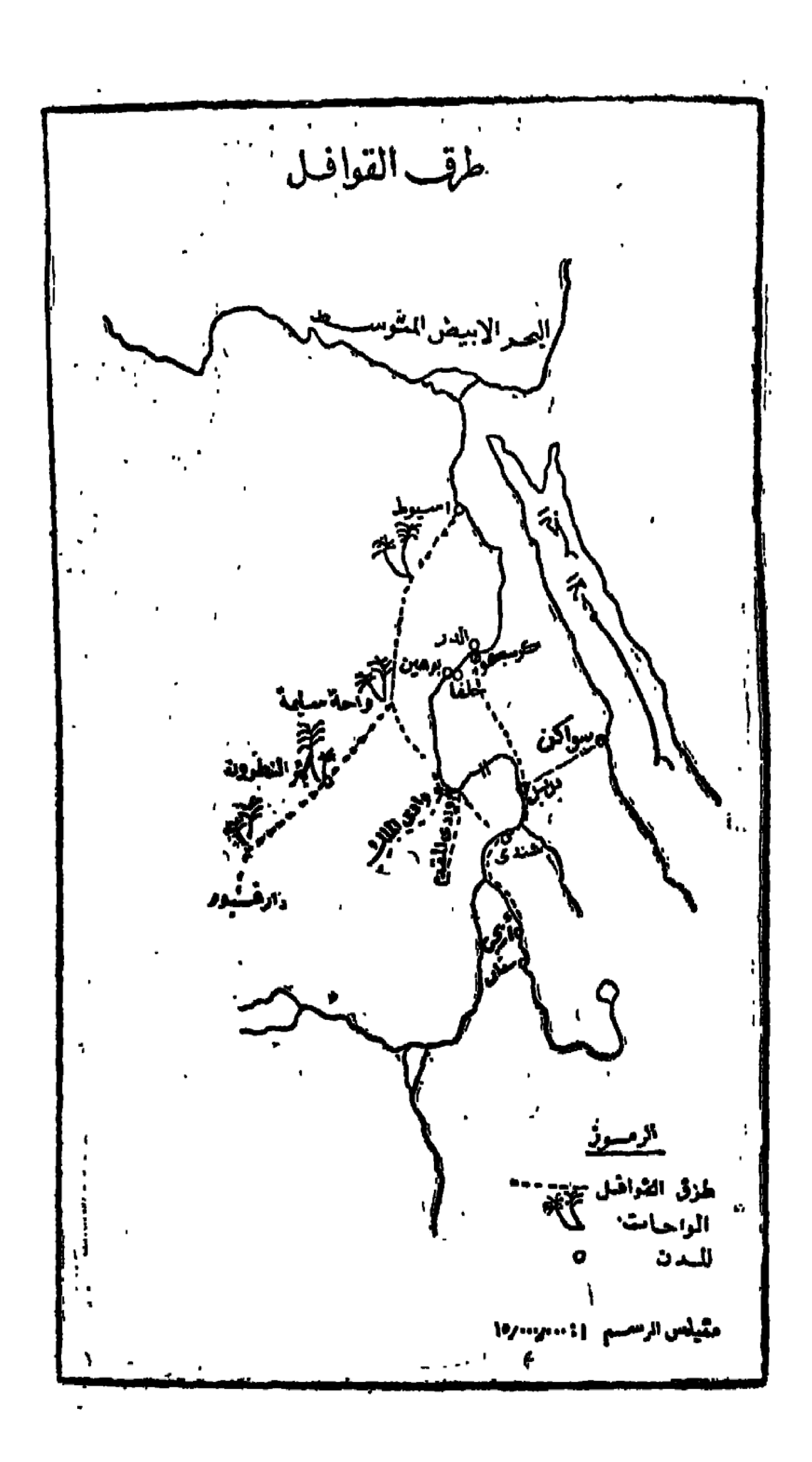
أما نظرة الإنجليز للسيد على المرغنى فهى نظرة الاحترام والتحفظ وهو يعاملهم بالمثل متحفظا فى علاقته معهم غير مكشوف ولكنهم لا يخشون خطراً مسلحاً من أتباعه مثلما يخشون من الأنصار ويستريحون لهذه الخصومة بين الطائفتين حيث تتفق مع سياسة فرق تسد . والذى يهمنا فى هذا الصدد أنه قد تم تقارب وتفاهم بين الخريجين العاملين فى الحقل الوطنى وبين أكبر زعيمين فى السودان ، وبذلك امتد نشاط الحركة الوطنية إلى صفوف الشعب وانقسمت إلى كتلتين تمثلت أخيراً فى الأحزاب والإنجليز من جانبهم أرادوا التقرب للخريجين بعقد صداقات شخصية ودعوات متبادلة وإنشاء دار للثقافة تضم مختلف الجنسيات التى تقطن العاصمة والأقاليم ولكن الغرض الأساسى منها للإنجليز والسودانيين المثقفين ، وتكون منتدى لتبادل الآراء والمناقشة فى الأمور العامة . والصورة التى تظهر لنا قبيل الحرب العالمية الثانية هى اعتراف الإنجليز بدور المثقفين واتجهت سياستها نحو التودد إليهم وإشراكهم فى المجالس البلدية ، ومن الناحية الأخرى تم التفاهم بين المثقفين وأكبر زعيمين لهما جماهيرهما الغفيرة ، وظهر تجمع هذه القوى فى المرحلة التالية فى النضال الوطنى من أجل الاستقلال .



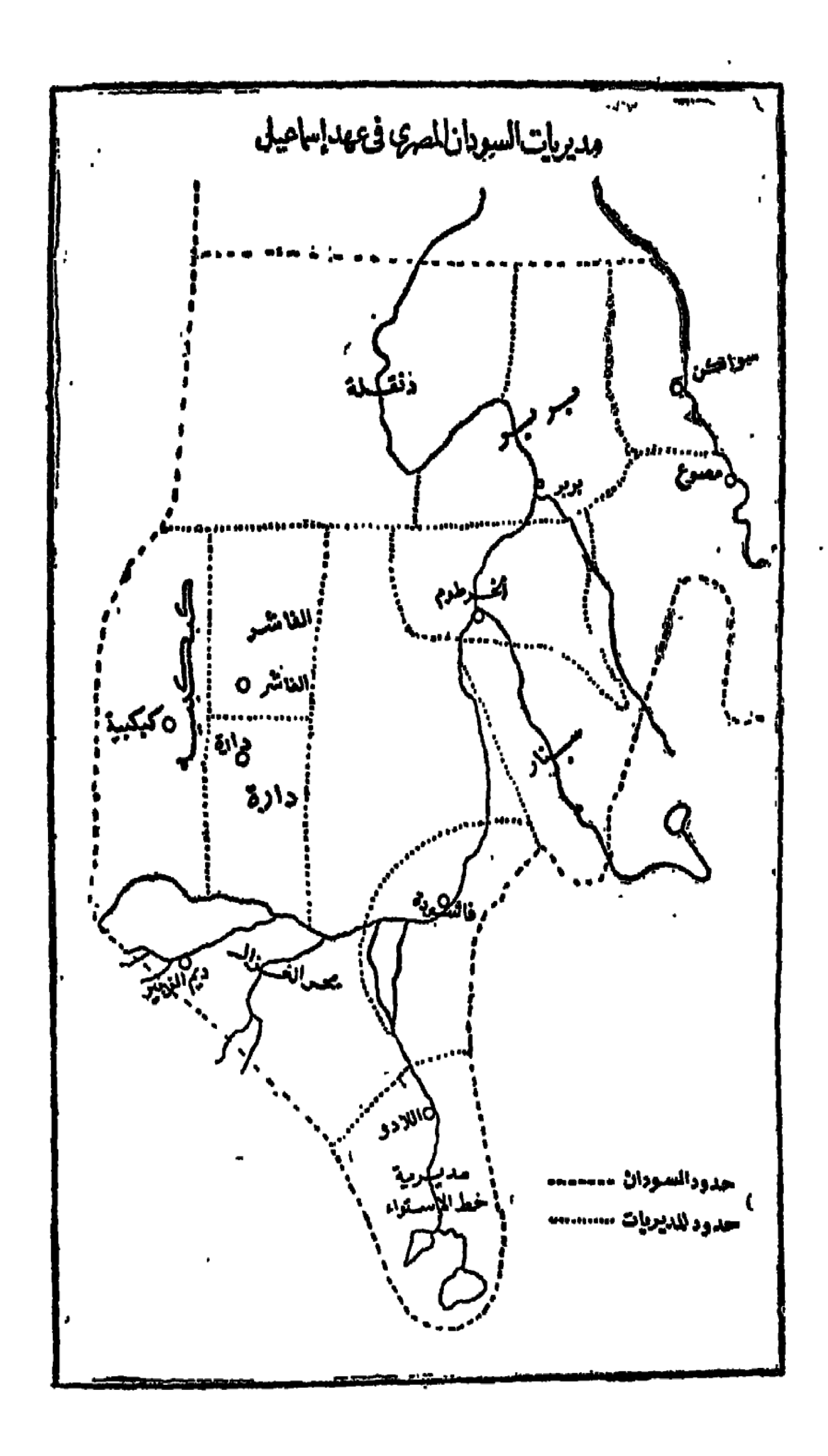
مناطق الآثار بالسودان
حلفا
الشلال الثاني
سمنة
صادنقا
دلقو
كرمة
الرقو
دنقلا
دنقلا العجوز
كريمة
الكرو
نوري
مروي
الشلال الرابع
الشلال الخامس
مروي
كبوشية
شندي
المصورات
النقعة
شلال السبلوقة
الخرطوم
سوبا
الرموز
اهرامات
معابد
كنايس
مدن
مقياس الرسم
١ : ٢،٠٠٠،٠٠٠



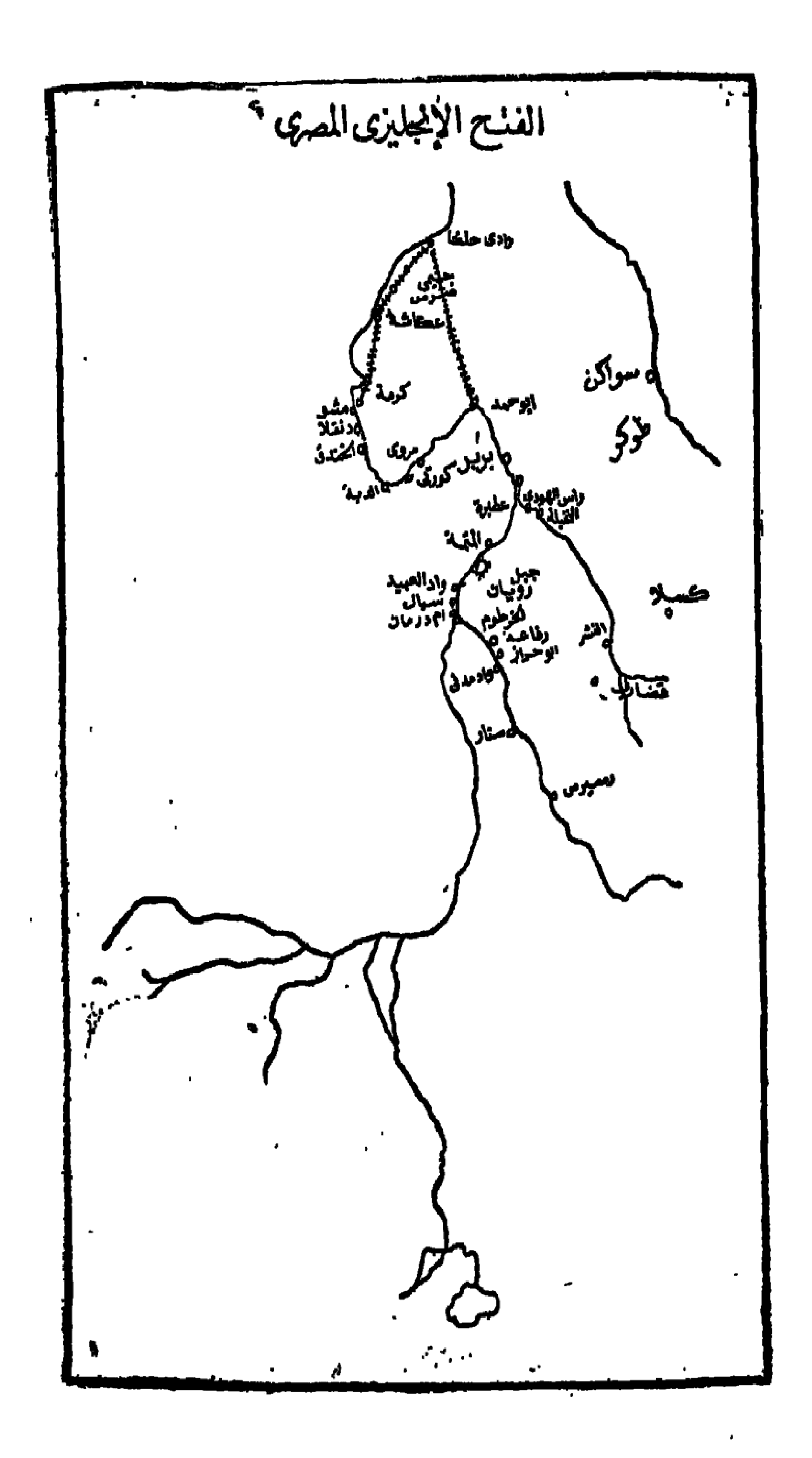
خريطة للسودان في أيام السلطنة الزرقاء أقسامه ومدنه
حنتا
كوشة
دار المحس
دنقلا
الدبه
كورتى
مروى
الشايقيه
الميرفاب
الدامر
المتمة
شندى
سيرو
الحلفايه
كردفان
دارفور
الابيض
باره
العبدلاب
الشكريه
رفاعه
المسلميه
ودمدنى
سنار
القلابات
الضبابنه
فاروعل



طرق القوافل
البحر الابيض المتوسط
اسيوط
الدر
كرسكو
بوهين
حلفا
واحة سليمة
النطرون
دارفور
سواكن
بربر
شندى
الرموز
طرق القوافل
الواحات
المدن
مقياس الرسم



مديريات السودان المصري في عهد إسماعيل
سواكن
مصوع
دنقلة
بربر
بربر
الخرطوم
الفاشر
الفاشر
كبكبية
دارة
دارة
سنار
فاشودة
ديم الزبير
بحر الغزال
اللادو
مديرية
خط الاستواء
حدود السودان
حدود المديريات



الفتح الإنجليزي المصري
وادي حلفا
عكاشة
كرمة
سواكن
أبو حمد
طوكر
دنقلا
الخندق
مروي
بربر
كورتي
الدبة
عطبرة
رأس الهودي
المتمة
واد العبيد
جبل رويان
سبالو
أم درمان
الخرطوم
رفاعة
أبو حراز
واد مدني
القضارف
سنار
كسلا
الرصيرص


Bibliotheca Alexandrina
04265542


السودان
عبر القرون
كي شبيكه
710